التفسير التربوي للقرآن الكريم

أنور الباز

المجلد الثالث



دار النشر للجامعات - مصر

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

الباز ، أنور
التفسير التربوي للقرآن الكريم/ أنور الباز - ط١ - القاهرة دار النشر للجامعات، ٢٠٠٧.
٣مج ٢٤سم.
تدمك ٦ ٢٠٣ ٣١٦ ٩٧٧
١ - القرآن - تفسير
أ- العنوان ٢٢٧

تاريخ الإصدار: ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

حقوق الطبع: محفوظة للناشر

رقم الإيداع: ٢٠٠٧/٥٤٨٨

الترقيم الدولي: **ISBN: 977-316-203-6**

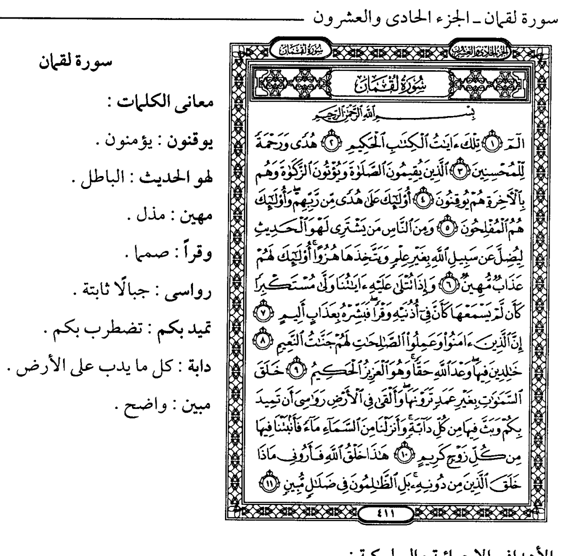
الكود: ٢/١٩٥



دار النشر للجامعات - مصر
ص.ب (١٣٠ محمد فريد) القاهرة ١١٥١٨
تليفون: ٦٣٤٧٩٧٦ - تليفاكس: ٦٤٤٠٠٩٤
darannshr@link.net

التفسير التربوي
للقرآن الكريم
(٣)

بسم الله الرحمن الرحيم



سورة لقمان

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾

٤١١

سورة لقمان

معانى الكلمات :

يوقنون : يؤمنون .

لهو الحديث : الباطل .

مهين : مذل .

وقراً : صمما .

رواسى : جبالًا ثابتة .

تميد بكم : تضطرب بكم .

دابة : كل ما يدب على الأرض .

مبين : واضح .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يعلم المسلم عظم مكانة آيات الله عز وجل .

٢ ـ أن يشعر المسلم بطلاقة القدرة الإلهية وأن يلامس قلبه حلاوة الإيمان .

٣ ـ أن يمضى المسلم حاملا دعوة الله للناس جميعاً .

المحتوى التربوى :

تبدأ السورة بالأحرف المقطعة التى تقرر أن هذه السورة من جنس تلك الأحرف ، هى آيات الكتاب الحكيم .

يقول صاحب الأساس : « وكيف لا يكون حكيما ، وهو كتاب الله الحكيم ، فهو حكيم فى أحكامه ، وحكيم فى معالجاته ، وحكيم فى ترتيب آياته ، وحكيم فى ترتيب سوره ، وحكيم فى ألفاظه ، وحكيم فى طريقة مخاطباته ، وحكيم فيما تحتمله آياته من وجوده ، وحكيم فى مرونة ألفاظه حتى تسع الزمان والمكان ، وحكيم فى كونه يضع كل شىء فى محله ، ويجعل أهله يضعون الأشياء فى مواضعها » .

وآيات القرآن هدى ورحمة للمحسنين ، هدى يهديهم إلى الطريق الواصل الذى لا يضل سالكوه ، ورحمة بما يسكبه لبهدى فى القلب من راحة زطأنينة وقرار ، وما يقود إليه من كسب وخير وفلاح ، وبما يعقده من الصلات والروابط بين قلوب المهتدين به .

والمحسنون هم : « ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ .. وإقامة الصلاة وأداؤها على وجهها وفى وقتها أداء كاملاً تتحقق به حكمتها وأثرها فى الشعور والسلوك، وتنعقد به تلك الصلة الوثيقة بين القلب والرب ، ويتم به هذا الأنس بالله وتذوق حلاوته التى تعلق القلوب بالصلاة .. وإيتاء الزكاة يحقق استعلاء النفس على شحها الفطرى ، وإقامة نظام لحياة الجماعة يرتكن إلى التكافل والتعاون . ويجد وأولئك الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم يوقنون بالآخرة .. ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ . ومن هُدى فقد أفلح ، فهو سائر على النور ، واصل إلى الغاية ، ناج من الضلال فى الدنيا ، ومن عواقب الضلال فى الآخرة ؛ وهو مطمئن فى رحلته على هذا الكوكب تتناسق خطاه مع دورة الأفلاك ونواميس الوجود ؛ فيحس بالأنس والراحة والتجاوب مع كل كائن فى الوجود .

الواجدون فيه والمحرومون الثقة والطمأنينة ومودات القلوب التى لم يفسدها التلاف ولا الحرمان .. واليقين بالآخرة هو الضمان ليقظة القلب البشرى ، وتطلعه إلى ما عند الله ، واستعلائه على أوهاق الأرض ، وترفعه على متاع الحياة الدنيا ؛ ومراقبة الله فى السر والعلن وفى الدقيق والجليل ؛ والوصول إلى درجة الإحسان التى سئل عنها رسول الله ﷺ فقال : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإم لم تكن تراه فإنه يراك » .

وهؤلاء المحسنون هم الذين يكون الكتاب لهم هدى ورحمة ؛ لأنهم بما فى قلوبهم من تفتح وشفافية يجدون فى صحبة هذا الكتاب راحة وطمأنينة ؛ ويتصلون بما فى طبيعته من هدى ونور ، ويدركون مراميه وأهدافه الحكيمة ، وتصطلح نفوسهم عليه ، وتحس بالتوافق والتناسق ووحدة الاتجاه ، ووضوح الطريق . وإن هذا القرآن ليعطى كل قلب بمقدار ما فى هذا القلب من حساسية وتفتح وإشراق ؛ وبقدر ما يقبل عليه فى حب وتطلع وإعزاز . إنه كائن حى يعاطف القلوب الصديقة أو يجاوب المشاعر المتوجهة إليه بالرفرفة والحنين !

يقول صاحب الظلال :﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ .. يشتريه بماله ويشتريه بوقته، ويشتريه بحياته . يبذل تلك الأثمان الغالية فى لهو رخيص ، يفنى عمره المحدود ، الذى لا يعاد ولا يعود ، يشترى هذا اللهو ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴾ فهو جامل محجوب، لا يتصرف عن علم ، ولا يرمى عن حكمة ؛ وهو سيِّئ النية والغاية ، يريد ليضل عن سبيل الله . يضل نفسه ويضل غيره بهذا اللهو الذى ينفق فيه الحياة . وهو سيِّئ الأدب يتخذ سبيل الله هزوًا ، ويسخر من المنهج الذى رسمه الله للحياة وللناس . ومن ثم يعالج القرآن هذا الفريق بالمهانة والتهديد قبل أن يكمل رسم الصورة : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ .. ووصف العذاب بأنه مهين مقصود هنا للرد على سوء الأدب والاستهزاء بمنهج الله وسبيله القويم .

ثم يمضى فى استكمال صورة ذلك الفريق : « ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ وهو مشهد فيه حركة ترسم هيئة المستكبر المعرض المستهين . ومن ثم يعالجه بوخزة مهينة تدعو إلى تحقير هذه الهيئة : ﴿ كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ وكأن هذا الثقل فى أذنيه يحجبه عن سماع آيات الله الكريمة ، وإلا فما يسمعها إنسان له سمع ثم يعرض عنها هذا الإعراض الذميم . ويتمم هذه الإشارة المحقرة بتهكم ملحوظ : ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ فما البشارة فى هذا الموضوع إلا نوع من التهكم المهين ؛ يليق بالمتكبرين المستهزئين » !

ويعرض النص القرآنى مسوغات استحقاق الضالين لعذاب الله فهم يتخذون آيات الله هزوا ، ويسخرون من المنهج الذى رسمه الله لهم ، بل إنهم إذا تليت آيات الله أعرضوا عنها ، أما المؤمنون فهم يخرون لآيات الله سجدا .

أما جزاء المؤمنين فيذكر قبله العمل الصالح مع الإيمان فطبيعة هذه العقيدة تقتضى ألا يظل الإيمان فى القلب مجرد حقيقة معطلة ، إنما هو حقيقة حية فاعلة متحركة ، ما تكاد تستقر فى القلب ويتم تمامها حتى لتتحرك ذاتها فى العمل والحركة والسلوك .

ثم يلفت القرآن الذهن للكون الفسيح سمواته وأراضيه ، وهو تنوع فى الدعوة للمنكرين بأن يروا هذه السموات المرفوعة بغير عمد، والناس يرونها مهما امتدت أبصارهم بالليل والنهار، ويرون النجوم السابحة التى تبدو كالنقط الصغيرة ، وكل نقطة منها تبلغ كتلتها أضعاف كتلة الأرض التى تقله ملايين المرات .

ثم يعود السياق القرآنى ليُرى آيات الله فى الأرض ، ومنها الجبال الرواسى التى تحفظ توازن الأرض ولا تهتز ، ومن آيات الله فى الأرض وجود الحياة على هذا الكون بمختلف أنواع الأجناس والفصائل والأنواع والأنماط ... ليس هذا فحسب ، بل الإنسان نفسه آية فهو يحوى جسمه مئات المعامل الكيماوية العجيبة ، ومئات المخازن للإيداع والتوزيع ، ومئات المحطات اللاسلكية للإرسال والاستقبال ، ثم تجد بعد هذه الآيات من يمر بهذه العجائب مغمض العينين ومطموس القلب وكأنهم يمرون على شىء عادىّ لا يستلفت النظر؟!وما زال النص القرآنى يعرض الآيات وهى نزول المياه التى تنبت نباتات من كل زوج كريم ، وهى حقيقة علمية بأن كل نبات له خلايا تذكير وتأنيث ، وفى هذا تحدٍ للظالمين الذين ضلوا عن صراط الله العزيز الحميد .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ المستحق لتلقى القرآن واستقاء رحمته وهداه من أوتى العقيدة الصحيحة .

٢ ـ أن يحفظ المسلم وقته فلا يضيعه فى الهذر والهزل .

٣ ـ التفكر فى خلق الله عز وجل فى السماء والأرض والجبال . والبحار . والأمطار . والزرع . والإنسان .

الجزء الحادي والعشرون — سورة لقمان

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا
يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ
لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ
لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ
وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ
إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ
لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ
وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم
بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ
خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ
بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ
بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ
مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ
مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ
وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

٤١٢

معانى الكلمات

فصاله : فطامه .

أناب : رجع .

خردل : حب أسود صغير يضرب به المثل فى الصغر .

لا تصعر خدّك : لا تمل وجهك .

مختال : معجب بنفسه .

اقصد : توسط فى المشى.

اغضض : اخفض من صوتك .

أنكر الأصوات : أقبح الأصوات .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يعرف المسلم فضل الوالدين وعظم منزلتهما .

٢ ـ أن يشعر المؤمن بفضل والديه عليه وأن يجد حلاوة الطاعة ، ويستشعر قبح المعصية .

٣ ـ أن يحرص المؤمن على طاعة والديه وأن يكون متواضعاً لله .

المحتوى التربوى :

يقول صاحب الأساس : « بين يدى قصة لقمان عليه السلام : جاءت قصة لقمان عليه السلام بعدما تقرر أن القرآن حكيم من عند حكيم ، ومن ثمَّ تأتى القصة لتعرفنا على أدب تلقى الحكمة من الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ ، وجاءت لترينا نماذج من حكمة الحكماء كنموذج على انطباق حكمة الحكماء مع ما أمر به القرآن ، وكنموذج على الحكمة فى هذا القرآن أصلا ، وتأتى القصة لترينا أدب الحكماء فى نشر الحكمة وتعميمها ، وفى ذلك إشارة إلى أن القرآن يجب أن يوصى به وأن ينشر ويبلغ ، ومن ثم فإن قصة لقمان عليه السلام التى فى سورة لقمان تأتى لتخدم سياق السورة الخاص والعام من جوانب متعددة .

* وإذا تأملنا فى الوصايا التى أوصى بها لقمان ﷺ ابنه وجدنا أنها تشتمل على أوامر ونواه ، والآيات تعلمنا أن للإحسان دخلاً فى العبادة وفى العشرة مع الوالدين وفى الصلاة .. وهذه كلها وصايا عظيمة وآداب جليلة وهى مظاهر من الإحسان والهداية ، وهذا مظهر جديد من مظاهر صلة قصة لقمان ﷺ بالسياق .

وتبدأ هنا جولة ثانية فى السورة،وهى معالجة قضية الشكر لله وحده، وتنزيهه عن الشرك كله، بأن ذكر الله عز وجل نعمته على عبده لقمان بأن آتاه الله الحكمة وهى نعمة كبيرة يؤتيها لمن يصطفيه من خلقه ، تقتضى أن يعلم الله عز وجل عبده أن يشكر الله عليها ، وهى تعلمنا ـ نحن المسلمين ـ أن نشكر الله على القرآن الكريم ، وشكر النعمة عائد نفعه إلى العباد تعلى درجاتهم وتقربهم إلى ربهم ، بل وأدعى لتتزايد نعم الله عليهم .

ومن تمام أداء شكر النعمة أن يوصى الإنسان أولاده بالحكمة ويربيهم عليها ، فهنا لقمان يوصى ابنه بأغلى وصية وهى عدم الشرك بالله ؛ لأنه أشد الظلم **ويعلق صاحب الظلال** بقوله :

« وإنها لعظة غير متهمة ، فما يريد الوالد لولده إلا الخير ،وما يكون الوالد لولده إلا ناصحا، وهذا لقمان الحكيم ينهى ابنه عن الشرك ، وهذه هى الحقيقة التى يعرضها محمد على قومه لا يريد بهم إلا الخير » .

وفى ظل نصيحة الأب لأبنه يعرض للعلاقة بين الوالدين والأولاد فى أسلوب رقيق ، ويصور هذه العلاقة صورة موحية فيها انعطاف ورقة .

يقول صاحب الظلال : « وتوصية الولد بالوالدين تتكرر فى القرآن الكريم ، وفى وصايا رسول الله ﷺ ، ولم ترد توصية الوالدين بالولد إلا قليلا ، ومعظمها فى حالة الوأد ـ وهى حالة خاصة فى ظروف خاصة ـ ذلك أن الفطرة تتكفل وحدها برعاية الوليد من والديه ، فالفطرة مدفوعة إلى رعاية الجيل الناشئ ؛ لضمان امتداد الحياة وكما يريدها الله ، وإن الوالدين ليبلان لوليدها من أجسامها وأعصابهما وأعمارهما ومن كل ما يملكان فى عزيز وغال ، فى غير تأفف ولا شكوى ، بل فى غير انتباه ولا شعور بما يبذلان ، بل فى نشاط وفرح وسرور كأنهما هما اللذان يأخذان ، فالفطرة وحدها كفيلة بتوصية الوالدين دون وصاة .

فأما الوليد فهو فى حاجة إلى الوصية المكررة ليلتفت إلى الجيل المضحى المدبر المولى الذاهب فى أدبار الحياة ، بعدما سكب عصارة عمره وروحه وأعصابه للجيل المتجه إلى مستقبل الحياة ، وما يملك الوليد وما يبلغ أن يعوّض الوالدين بعض ما بذلاه ، ولو وقف عمره عليهما » .

وتنبه الآيات أن رابطة الوالدين رغم كرامتها وعظمها تأتى بعد رابطة العقيدة ، إن وشيجة العقيدة تعلو على كل وشيجة ، فإذا اختلفت عقيدة الوالدين فالطاعة لله ، ومع هذا فالعبد يطيع الوالدين فى غير العقيدة بأن يصاحبهما مصاحبة كريمة ، وأن تكون المعاملة الطيبة ، بل نتبع سبيل من أناب إلى الله ، فإبراهيم عليه السلام الأواه المنيب ألان الكلام لأبيه آزر رغم شركه بالله .

ثم تعود الآيات لذكر وصايا لقمان لابنه بتذكيره بإن الله يعلم أخفى الخفايا . وذلك كى يطيع الله فى كل أوامره ويتجنب نواهيه ، وكى يخشع القلب وينيب إلى اللطيف الخبير بخفايا الذنوب .

وتستمر الوصايا فى ترتيب دقيق من عدم الشرك بالله ، وإدراك علم الله عز وجل إلى الأمر بالصلاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فالصلاة تنهى عنهما ، وهذه الأشياء كلها هى زاد المؤمن قبل المعركة مع الشر ، زاد العبادة بالصلاة ثم الصبر على ما يصيب الداعية إلى الله من التواء النفوس وعنادها ، وانحراف القلوب وإعراضها ، وهذه الوصايا لا ينهض بها إلا الخاشعون كما قال عز وجل : ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (البقرة) .

ويستمر البيان القرآنى فى عرض نصائح تكفل سلامة المجتمع الإسلامى من التعالى والكبر ، والداعية هو أولى الناس بالبعد من تلك الصفات ، وفى ذلك يقول **صاحب الظلال بتصرف** : « والمشى فى الأرض مرحاً هو المشى فى تخايل ونفخة وقلة مبالاة بالناس، وهى تعبير عن شعور مريض بالذات ، ومع النهى عن مشية المرح بيان للمشية القاصدة المعتدلة ، وعدم إضاعة الطاقة فى التبختر والتثنى والاختيال ، والغض من الصوت فيه أدب وثقة بالنفس ، ما يزعق وما يغلظ فى الخطاب إلا سيئ الأدب أو شاك فى قيمة قوله ، أو قيمة شخصه فيحاول إخفاء هذا الشك بالحدة أو الغلظة والزعاق ».

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الشكر لله دائماً على نعمه .

٢ ـ البر بالوالدين دائماً ، وتجنب عقوقهما .

٣ ـ استشعار مراقبة الله عز وجل فى كل أمور العبد .

٤ ـ الحرص على الآداب القويمة من الاعتدال فى المشية وخفض الصوت .

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ
عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ
بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا
مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ
الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٢١) ۞ وَمَن يُسْلِمْ
وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ
وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٢٢) وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ
إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ
(٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٢٤)
وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٥) لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٦) وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ
مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ
مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) مَّا خَلْقُكُمْ
وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨)

معانى الكلمات :

سخر : هيّأ وذلّل .

أسبغ : أتم وأوسع .

يجادل فى الله : ينكر وجوده .

السعير : النار الموقودة .

الوثقى : القويمة .

عاقبة الأمور : مصيرها .

يمده : يزيده .

سبعة أبحر : مملوءة ماء .

ما نفدت : ما انتهت .

كلمات الله : عجائبه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يشعر المؤمن بعظم وكمال قدرة الله فى الكون .

٢ ـ أن يعلم المؤمن بعض مظاهر قدرة الله فى الكون .

٣ ـ أن يسلم المؤمن وجهه لله عز وجل وأن يكون قدوة للآخرين فى الرضا بمقدور الله .

المحتوى التربوى :

هنا تبدأ جولة ثالثة فى سورة لقمان وهى عرض لمشهد كونى مرتبط بالناس ومصالحهم ، فالسياق للتأمل فى خلق السموات والأرض ، وهذه لفتة مكررة فى القرآن بشتى الأساليب تبدو جديدة فى كل مرة ؛ لأن هذا الكون لا يزال يتجدد فى الحس كلما نظر إليه القلب، وتدبر أسراره ، وتأمل عجائبه التى لا تنفد .

والسياق يعرض هذه اللفتة هنا من زاوية التناسق بين حاجات الإنسان على الأرض ، وتركيب هذا الكون ، مما يقطع بأن هذا التناسق لا يمكن أن يكون فلتة ولا مصادفة ؛ وأنه لا مفر من التسليم بالإرادة الواحدة المدبرة التى تنسق بين تركيب هذا الكون الهائل وحاجات البشر على هذا الكوكب الصغير الضئيل الأرض .

يقول صاحب الظلال : « فضل الله على هذا الإنسان ونفخته فيه من روحه ، وتكريمه له على كثير من خلقه .. هذا الفضل وحده قد اقتضى أن يكون لهذا المخلوق وزن فى نظام الكون وحساب ، وأن يهيئ الله القدرة على استخدام الكثير من طاقات هذا الكون وقواه ، ومن ذخائره وخيراته ، وهذا هو التسخير المشار إليه فى الآية فى معرض نعم الله الظاهرة والباطنة ، وهى أعم من تسخير ما فى السماوات وما فى الأرض .

فوجود الإنسان ابتداء نعمة من الله وفضل ، وتزويده بطاقاته واستعداداته ومواهبه ،هذه نعمة من الله وفضل ، وإرسال رسله ، وتنزيل كتبه فضل أكبر ونعمة أجل ، ووصله بروح الله من قبل هذا كله نعمة من الله وفضل ، وكل نفس يتنفسه ، وكل خفقة يخفقها قلبه ، وكل منظر تلتقطه عينه، وكل صوت تلتقطه أذنه، وكل خاطر يهجس فى ضميره، وكل فكرة يتدبرها عقله.. إن هى إلا نعمة ، ما كان لينالها لولا فضل الله » .

إن المجادلة من طريق الكفر لهذا الكون المشاهد وفى تلك النعم السابغة ، والإنكار والجحود لها يبدو شيئاً قبيحاً، تنفر منه الفطرة ، ويقشعر منه الضمير ، ويزيد الموقف بشاعة أنه لا يرتكن فى هذا الجدال إلى علم ، ولا يهتدى بهدى ، ولا يستند إلى كتاب ينير له القضية ويقدم له الدليل .

إن الآيات توضح بعد ذلك سفه دعاوى المشركين وهو تقليدهم آباءهم فى كفرهم ، فهذا هو سندهم الوحيد ، أما الإسلام فهو يريد تحرير المشركين من الجمود والتقليد، وهو السبيل الذى اتبعوا الشيطان فيه .

وتوضح الآيات فى صورة المقابلة صورة المؤمن الذى أسلم وجهه لله ، واطمأن لقدر الله ، وانصاع لأوامره ، فأصبح المؤمن فى رباط مع الله ، وهى العروة الوثقى التى تحفظ المسلم ، وتجعله رابط الجأش فى مواجهة الأحداث ، وعن ثمرة العروة الوثقى **يقول صاحب الظلال** : « إن الرحلة طويلة وشاقة ، وشاملة بالأخطار ، وخطر الحرمان فيها والشقاء ، وخطر السراء فيها ليس أهون ولا أيسر من خطر الضراء » .

وفى الآيات بعد ذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ﴾ نجد فيها عزاء للدعاة بألا يحزنوا من إعراض المدعوين ، وأن البلاغ مهمة الدعاة إلى الله عز وجل ، وشأن الكفار المعرضين أهون وأقل من أن يحزن الدعاة ، فالأنبياء والدعاة نعمة كبرى يستحق جاحدها العذاب الأليم .

ثم تظهر الآيات الحقيقة الكامنة التى لا يستطيع أن ينكرها الكافرون حين يستفتون فطرتهم، ويعودون إلى ضميرهم ، والسموات الأرض بأوضاعها ، وأحجامها وحركاتها وأبعادها لا

يدعى أحد أنه خلقها ، إن منهج مخاطبة الكافرين يعتمد على إثارة الذهن لهذا الكون الفسيح وإعجازه وتنسيقه .

وتأتى الآيات بعد ذلك تقرر أن العزة لمن تمسك بالله والغنى فى طاعته ، فقدرة الله ليست محدودة ولا متناهية ، وأوامره وكلماته لا تنفد، وعلمه لا يحد، فليستمر الدعاة إلى الله فى دعوتهم، فالله بقدرته مع الذين آمنوا ، أما الكافرون فدعواهم باطلة وقوتهم واهية أمامه عز وجل ، ومشيئته التى ليس لها حدود ولا قيود ، وآياته فى الكون ، فلو أن البشر أتوا بكل الشجر وحولوه أقلاماً ، وجميع ما فى الأرض من بحار تحول لمداد يمده من بعده سبعة أبحر ما انتهت كلمات الله ، ولعجز العباد عن إحصاء آياته ومعجزاته فى الكون .

ويقول صاحب الظلال : « والآن تختم هذه الجولة بمشهد كونى يرمز إلى غنى الله الذى لا ينفد وعلمه الذى لا يحد وقدرته على الخلق والتكوين المتجددين بغير ما نهاية ومشيئة المطلقة التى لا نهاية لما تريد : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ .

إنه مشهد منتزع من معلومات البشر ومشاهداتهم المحدودة ؛ ليقرب إلى تصورهم معنى تجدد المشيئة الذى ليس له حدود ، والذى لا يكاد تصورهم البشرى يدركه بغير هذا التجسيم والتمثيل ... إن كلمات الله لا تنفد لأن علمه لا يحد ؛ ولأن إرادته لا تكف ولأن مشيئته سبحانه ماضية ليس لها حدود ولا قيود .

وتتوارى الأشجار والبحار وتنزوى الأحياء والأشياء وتتوارى الأشكال والأحوال ويقف القلب البشرى خاشعاً أمام جلال الخالق الباقى الذى يتحول ولا يتبدل ولا يغيب ، وأمام قدرة الخالق القوى المدبر الحكيم : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

وتستمر الآيات فى إثبات طلاقة القدرة ويسر الخلق وسهولة البعث فالعبد يعمل وعمله له ينتهى عنده ، والله عز وجل يستوى عنده خلق الواحد والملايين بكلمة المشيئة : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ (يس) .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ شكر الله عز وجل على نعمه ، والتفكر فى طلاقة قدرة الله فيها .

٢ ـ الصبر فى الدعوة إلى الله ، والحذر من قرب اليأس لنفس الداعية .

٣ ـ التفكر فى خلق الله عز وجل وآياته فى الكون ، وتأمل طلاقة قدرة الله فى خلقه الله .



معانى الكلمات :

يولج : يدخل .

الظلل : جمع ظلة وهو كل ما يرتفع ويظل كالسحاب .

مقتصد : معتدل فى عقيدته .

ختار : غدار شديد الغدر .

كفور : جحود للنعم .

الغرور : كل ما يخدع الإنسان .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يعلم المسلم عاقبة الاغترار بالحياة الدنيا .

٢ ـ أن يشعر المسلم بنعم الله عليه .

٣ ـ أن يجتهد المؤمن فى عباداته ويلتزم أوامر الله ويجتنب نواهيه .

المحتوى التربوى :

وتأتى الجولة الأخيرة فى السورة لتقرر أن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل، وتقرر إخلاص العبادة لله وحده ، وتقرر قضية اليوم الآخر الذى لا يجزى فيه والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئا، تقرر ذلك عن طريق التفكر فى مشهد دخول الليل فى النهار، ودخول النهار فى الليل ، وتناقصهما وامتدادهما عند اختلاف الفصول ، وهو مشهد عجيب ، لكن لطول الألفة والتكرار فقد أكثر الناس الحاسية تجاهه ، فلا يلحظون هذه العجيبة التى تتكرر بانتظام دقيق لا يتخلف مرة ولا يضطرب ، والله وحده هو القادر على إنشاء هذا النظام وحفظه ، ولا يحتاج إدراك هذه الحقيقة إلى أكثر من رؤية تلك الدورة الدائبة التى لا تكل ولا تحيد .

إن الآيات تعلم الداعى إلى الله تنوع فن الدعوة إلى الله لا سيما مع المنكرين الذين يحتاجون إلى دلائل واضحة بالتفكر فى هذا الكون الثابت الدائم المنسق الدقيق ، وبأن كل شىء يلحقه الزيادة والنقصان ، وتعتوره القوة والضعف، والازدهار والذبول ، والإقبال والإدبار ، وهو وحده سبحانه الدائم الباقى الذى لا يتغير ولا يتبدل فهو العلى الكبير .

وحتى الآيات التى يعرضها النظم القرآنى روعى فيه التنوع ، فيأتى هذا النظم بآيات تتعلق بحياة الجاحدين والمنكرين فالفلك التى تجرى وفق نواميس الله فى البحر فقد وُضِعت فى البحر خواص لا تختل لتحفظ جريان السفن، ولو اختلت كثافة الماء ، أو نسبة ضغط الهواء على سطح البحر ، أو اختلت تيارات الماء والهواء فى الحدود المناسبة ، لو اختل أى شىء من هذه الأشياء ما جرت السفن على الماء لكن الله هو حارس الفلك وحاميها فوق ثبج الماء وسط العواصف والأنواء .

وتذكر الآيات أن احتياج العباد مؤمنهم وكافرهم أكبر دليل على وجوده ، فإذا جرت الفلك فى الماء وجاءت أمواج تغشى هذه الفلك كالريشة فى الخضم الهائل تعود النفوس كلها إلى ربها ، **فيقول صاحب الظلال** : « تتعرى النفوس من القوة الخادعة ، وتتجرد من القدرة الموهومة ، التى تحجب عنها فى ساعات الرخاء حقيقة فطرتها ، وتقطع ما بين هذه الفطرة وخالقها ، حتى إذا سقطت هذه الحوائل ، وتعرت الفطرة من كل ستار ، استقامت إلى ربها ، واتجهت إلى بارئها ، وأخلصت له الدين ، ونفت كل شريك ، ونبذت كل دخيل ، ودعوا الله مخلصين له الدين » .

لكن الفطرة التى اعتادت الانحراف تنكر الله ونعمته فاستحقوا العذاب لجحودهم نعم الله ، أما الفطرة السليمة فتظل على استقامتها ؛ لأن قلبها لامس رحمة الله ، فأدركت قدرة الله .

ومن الهول الأصغر تنقلنا الآيات إلى الهول الأكبر وهو يوم القيامة ، وفيه تجدى أواصر الطاعة لله ، والانقيادية له وتظهر الموازين الحقيقية ، وتنقطع موازين الدنيا الباطلة من أواصر الدم والقربى ، ووشائج الرحم والنسب بين الوالد والولد وبين الأخ وأخيه : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ (المؤمنون) ووعد الله حق فلا يخلف ولا يتخلف ، ولا مفر من الحساب الدقيق والجزاء العادل ، الذى لا يغنى فيه والد عن ولد ، ولا مولود عن والد .

وتوضح الآيات أسباب البعد عن الله عز وجل وهو الغرور بمتاع الحياة الدنيا من متاع يلهى، أو شغل ينسى ، أو شيطان يوسوس فى الصدور ، والشياطين كثير ، الغرور بالمال شيطان ، والغرور بالعلم شيطان ، والغرور بالقوة شيطان ، والغرور بالسلطان شيطان ، ودفعة الهوى شيطان ، ونزوة الشهوة شيطان ، وتقوى الله وتصور الآخرة هى العاصم من كل غرور.

يقول صاحب الظلال : « وبعد الجولات الثلاثة السابقة تأتى الجولة الرابعة وختام السورة ، وفى ظل هذا المشهد المرهوب يجىء الإيقاع الأخير فى السورة قويًا عميقًا مرهوبًا يصور علم الله الشامل ؛ ويقر القضية التى تعالجها السورة بكل أجزائها ويخرج هذا كله فى مشهد من مشاهد التصوير القرآنى العجيب : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴾ ... وإن النفس البشرية لتقف أمام هذه الأستار عاجزة خاشعة تدرك بالمواجهة حقيقة علمها المحدود وعجزها الواضح ويتساقط عنها غرور العلم والمعرفة المدعاة » .

والسياق القرآنى يعرض هذه المؤثرات العميقة التأثير فى القلب البشرى فى رقعة فسيحة هائلة ... رقعة فسيحة الزمان والمكان وفى الحاضر الواقع والمستقبل المنظور والغيب السحيق وفى خواطر النفس ووثبات الخيال : ما بين الساعة البعيدة المدى والغيث البعيد المصدر ، وما فى الأرحام الخافى عن العيان والكسب فى الغد وهو قريب فى الزمان ومغيب فى المجهول وموضع الموت والدفن وهو مبعد فى الظنون .

وكل هذه الآيات غيبيات لا يعلمها إلا الله لإثبات القصور البشرى أمام القدرة الإلهية المطلقة، ولتتساقط دعاوى الغرور ، غرور العلم والمعرفة المدعاة ، وتعرف أمام هذه الأستار أن الناس لم يأتوا من العلم إلا القليل .

وهذه الغيبيات تشمل الزمان والمكان وخواطر النفس والخيال ، والساعة البعيدة ، والغيث، وما فى الأرحام ، إنها رقعة فسيحة الآماد والأرجاء ؛ لتطأمن النفس البشرية من كبريائها وتخشع لله .

وهكذا تنتهى السورة كما لوكانت رحلة هادئة بعيدة الآماد والآفاق والأغوار والأبعاد ويؤوب القلب من هذه الرحلة المديدة البعيدة الشاملة الشاسعة وئيد الخطا لكثرة ما طوّف ولجسامة ما يحمل ، ولطول ما تدبر وما تفكر فى تلك العوالم والمشاهد والحيوات .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ التفكر فى مخلوقات الله يهدينا إلى الإيمان به تعالى .

٢ ـ فى يوم القيامة كل فرد مسؤول عن عمله فلا قرابة تنفع ، ولا صداقة تشفع .

٣ ـ وعد الله حق لا يتخلف أبداً .

٤ ـ أن عاطفة الإيمان موجودة عند البشر جميعاً وتظهر وقت الشدة .

٥ ـ الحرص على الجمع بين الشكر والصبر .

الجزء الحادي والعشرون — سورة السجدة

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا
مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ
ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ
ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا
تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ
إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ
عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ
كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ
نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ
مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا
مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى
خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم
مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾

الحزب ٤٢

٤١٥

سورة السجدة

معانى الكلمات :

افتراه : اختلق القرآن .

يعرج إليه : يصعد الأمر ويرتفع إليه .

نسله : ذريته .

ماء مهين : ماء ضعيف حقير .

ضللنا فى الأرض : تاهت أجزاء أجسادنا فيها بعد الموت .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يعلم المسلم جوانب من القدرة المطلقة لله ـ عز وجل .

٢ ـ أن يستشعر المسلم حكمة التدبير الإلهى ، ويدرك نعمة العبودية لله .

٣ ـ أن يعمل المسلم بما فى القرآن ، وأن يسير المسلم على هديه ورشده .

المحتوى التربوى :

تبدأ السورة بالحروف المقطعة (ألف . لام . ميم) إشارة إلى أن النص القرآنى فيه سرّا خفيًا لا يعلمه البشر، فهذه الحروف من جنس كلامهم؛ ولكنهم لا يستطيعون أن يصوغوا مثلها، إلى أن الفارق بين القرآن وما يصوغه البشر كالفارق بين صنعة الله وصنعة البشر فى سائر الأشياء .

فهذا القرآن ـ كما تذكر الآيات لا يستطيع أن يأتى به بشر ـ ولو كان نبيا ـ بل هو الحق لما يحققه من اتصال البشر بالله عز وجل فهو يكشف عما فى النفس البشرية ، ويدعو الفطرة فى يسر وسهولة أن تؤمن بالله ، وهو دأب القرآن فى دعوته الناس للإيمان بالله ، يأتى بآثار ودلائل الألوهية فى صفحة الكون المنظور ، وفى ضمير الغيب المترامى وراء إدراك البشر المحدود .

والقرآن فى عرضه لتلك الآيات يجمع القلوب ، ولا يمنع تكرارها فى سور أخرى وألفة الإنسان بها من الإحساس بالتجدد العجيب والشعور بتناسق الآيات والمعجزات فترد لمصدر واحد هو الله عز وجل .

والنظم القرآنى فى إشارته لمعجزات الله ودلائل قدرته يذكر بيوم القيامة لربط التذكير بالعمل والطاعة ، وهذا اليوم لا ولى ولا شفيع ولا نصير من دون الله ، فلا مقرب ولا مبعد أمام الله إلا بالعمل ، فالله هو الخالق للأشياء والمدبر للكون وخالق الكائنات ، وخالق الموت والحياة ، وخالق اليوم الآخر وهو المحاسب لهم ـ أى العباد ـ وكل أمر وكل تدبير وكل مقام هو دون مقام الله ذى الجلال .

ثم تواصل الآيات تقرير الحق الذى لا مرية فيه وهو أن الله خلق الأشياء فى أبدع مثال وأجمل نظم وتكوين ، فصنعته جل وعلا لا تجاوز فيها ولا قصور ولا زيادة عن حد الإحسان ولا نقص ولا إفراط ولا تفريط .

يقول صاحب الظلال : « كل شىء ، وكل خلق ، مصنوع ليؤدى دوره المقسوم له فى رواية الوجود له فى رواية الوجود ، معد لأداء هذا الدور إعدادًا دقيقًا ، مزود بالاستعدادات والخصائص التى تؤهله لدوره تمام التأهيل . هذه الخلية الواحدة المجهزة بشتى الوظائف . هذه الدودة السابحة المجهزة بالأرجل أو الشعيرات وبالملامسة والمرونة والقدرة على شق طريقها كأحسن ما يكون هذه السمكة . هذا الطائر . هذه الزاحفة . هذا الحيوان .. ثم هذا الإنسان .. وهذا الكوكب السيار وهذا النجم الثابت . وهذه الأفلاك والعوالم ؛ وهذه الدورات المنتظمة الدقيقة المنسقة العجيبة المضبوطة التوقيت والحركة على الدوام .. كل شىء .. كل شىء . حيثما امتد البصر متقن الصنع . بديع التكوين . يتجلى فيه الإحسان والإتقان .

والعين المفتوحة والحس المتوفز والقلب البصير ، ترى الحسن والإحسان فى هذا الوجود بتجمعه ؛ وتراه فى كل أجزائه وأفراده . والتأمل فى خلق الله حيثما اتجه النظر أو القلب أو الذهن ، يمنح الإنسان رصيدًا ضخمًا من ذخائر الحسن والجمال ، ومن إيقاعات التناسق والكمال ، تجمع السعادة من أطرفها بأحلى ما فى ثمارها من مذاق ؛ وتسكبها فى القلب البشرى ؛ وهو يعيش فى هذا المهرجان الإلهى الجميل البديع المتقن ، يتملى آيات الإحسان والإتقان فى كل ما يراه وما يسمعه وما يدركه فى رحلته على هذا الكوكب . ويتصل من وراء أشكال هذا العالم الفانية بالجمال الباقى المنبثق من جمال الصنعة الإلهية الأصيلة .

ولا يدرك القلب شيئًا من هذا النعيم فى رحلته الأرضية إلا حين يستيقظ من همود العادة ، ومن ملالة الألفة . وإلا حين يتسمع لإيقاعات الكون من حوله ، ويتطلع إلى إيحاءاته . وإلا حين

يبصر بنور الله فتنكشف له الأشياء عن جواهرها الجميلة كما خرجت من يد الله المبدعة . وإلا حين يتذكر الله كلما وقعت عينه أو حسه على شىء من بدائعه ؛ فيحس بالصلة بين المبدع وما أبدع ؛ فيزيد شعوره بجمال ما يرى وما يحس ، لأنه يرى حينئذ من ورائه جمال الله وجلاله » .

ثم يأخذ النص القرآنى خلقاً من خلق الله وهو أكرم الخلق ـ الإنسان ـ ويذكر بأنه مر بمرحلة هائلة حين ينظر لطبيعة التطورات ، فهذا هو العالم الأصغر الذى أمرنا بالتفكر فى بديع صنعه وإعجاز القدرة فى تكوينه فى تكاثر الخلايا والتنوع فى أضعاف تلك الخلايا والوظائف المتعددة لكل خلية ، ثم تسوية تكوينه ونفخ الروح فيه ، وإعطائه السمع والأبصار والأفئدة ، وخلق الإنسان بهذا الكيفية يتكرر كل لحظة ، وفى ظل هذا المشهد يعرض اعتراضهم على النشأة الأخيرة ، فيبدو هذا الاعتراض وهذا الشك غريبين كل الغرابة . ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ﴾ .

يقول صاحب الأساس : « لقد حدثتنا الآيات عن الله عز وجل أنه الخالق وأن المدبر وأنه عالم الغيب والشهادة وأنه الذى أحسن خلق كل شىء وأنه خالف الإنسان والجاعل له السمع والأبصار والأفئدة . وهذا كله يقتضى أن يدبر الله أمر عباده ، يرسل لهم رسولاً وأن ينزل عليهم وحيًا ومن ثم كان هذا القرآن .

وحدثتنا الآيات عن التذكر والشكر ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ ، والتذكر والشكر يحتاجان إلى مذكر ودليل على الشكر . فالمجموعة بكل ما فيها ـ وما فيها أكثر مما ذكرناه ـ تؤكد ما مرَّ فى المقدمة ﴿ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا ﴾ إنها تذكر وتقرر أن شأن الله عظيم وأن من شأنه تعالى أن يرسل رسولًا ، وأن ينزل كتابًا فإذا تذكر الإنسان هذا ورأى خصائص هذا القرآن عرف لأن هذا القرآن من عند الله لا شك فى ذلك ولا ريب » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ إدراك عظمة القرآن ، وأن يسلك المسلم نهج القرآن ويرفع لواءه .

٢ ـ الإيمان والعمل لازمان كى يُقرب المؤمن من ربه ، وأن الأفضلية عند الله بالتقوى .

٣ – التفكر فى خلق الله فى الكون المنظور، والإنسان أمر حتمى للوصول لحقائق الكون .

٤ ـ تنوع وسيلة الدعوة فلا يقتصر الداعية على وسيلة واحدة .

٥ ـ أن يربط الداعية فى دعوته بين خلق الإنسان وخلق الكون وحقيقة الموت لإدراك طلاقة القدرة .

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾

٤١٦

معانى الكلمات :

ناكسو رؤوسهم: مطأطئو رؤوسهم خزيا.

خروا سجدا : سقطوا ساجدين .

تتجافى جنوبهم من المضاجع : تترك النوم والفراش .

قرة أعين : نن سرور وارتياح .

المأوى : الجنات .

نزلاً : ضيافة ، وتكرمة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يطالع المؤمن مشاهد أهل الإيمان ومشاهد أهل الكفر .

٢ ـ أن يشعر المؤمن بلذة العبادة والخضوع لله .

٣ ـ أن يحرص المؤمن على قيام الليل ودوام مراقبة الله فى السر والعلن .

المحتوى التربوى :

بعد عرض الآيات لمشهد الخزى والاعتراف بالخطيئة الذى يجلل الكافرين ، وطلب العودة، بعد فوات الأوان حيث لا يجدى اعتراف أو إعلان ، عاد القرآن يقرر الحقيقة الصريحة أن الله له المشيئة أن يجعل للناس طريقًا واحدًا وهو طريق الهدى ، ولكن لما سار بعض الناس فى طريق الغواية أوجب الله النار للكافرين من الجن والإنس ، فالجزاء من جنس العمل .

يقول فى ذلك صاحب الظلال : « إن إرادة الله اقتضت أن يكون لهذا الخلق المسمى بالإنسان طبيعة خاصة ، يملك معها الهداية والضلال ، ويختار أو يحيد عنها ، ويؤدى دوره فى هذا الكون بهذه الطبيعة الخاصة التى فطره الله عليها لغرض وحكمة فى تصميم هذا الوجود ، ومن ثم كتب

الله فى قدره أن يملأ جهنم من الجنة ، ومن الناس الذين يختارون الضلالة ، ويسلكون الطريق المؤدى إلى جهنم » .

وتشير الآيات للمصير المهين الذى تعرض له الكافرون ؛ وذلك لأنهم نسوا لقاء الله ، فعوقبوا بعذاب الخلد جزاء نسيانهم أمر الله ، ويحس قارئ القرآن وهو يجاوز هذه الآيات كأنهم تركهم هناك ، وكأنهم شاخصون حيث تركهم ، وهذه إحدى خصائص التصوير القرآنى المحيى للمشاهد المحتوى للقلوب .

يقول صاحب الظلال : « وقبل أن يعلن السياق جواب استخذائهم الذليل يقرر الحقيقة التى تتحكم فى الموقف كله ، وتتحكم قبل ذلك فى حياة الناس ومصائرهم : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ ولو شاء الله لجعل لجميع النفوس طريقًا واحدًا هو طريق الهدى ، كما وحد المخلوقات التى تهتدى بإلهام كامن فى فطرتها وتسلك طريقة واحدة فى حياتها من الحشرات والطير والدواب أو الخلائق التى لا تعرف إلا الطاعة كالملائكة لكن إرادة الله اقتضت أن يكون لهذا الخلق المسمى بالإنسان طبيعة خاصة يملك معها الهدى والضلال ، ويختار الهداية أو يحيد عنها ، ويؤدى دوره فى هذا الكون بهذه الطبيعة الخاصة التى فطره الله عليها لغرض وحكمة فى تصميم هذا الوجود ، ومن ثم كتب الله فى قدره أن يملأ جهنم من الجنة ومن الناس الذين يختارون الضلالة ويسلكون الطريق المؤدى إلى جهنم » .

ولا يكتمل التأثير القرآنى إلا ويعرض لصورة وضيئة ، صورة للأرواح المؤمنة اللطيفة الشفيفة الحاسة المرتجفة من خشية الله وتقواه ، والتعبير القرآنى كما **يقول صاحب الظلال** : « يرسم صورة المضاجع فى الليل تدعو الجنوب إلى الرقاد والراحة والتذاذ المنام ، لكن هذه الجنوب لا تستجيب ؛ لأن لها شغلا بربها ،شغلا بالوقوف فى حضرته ، هذه القلوب يمتلكها الخوف من عذاب الله والرجاء فى رحمته ، فتهجر المضجع والنوم وتقف بين يدى الله » .

أورد الشوكانى فى فتح القدير :

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ قال : « هم الذين لا ينامون قبل العشاء فأثنى عليهم ، فلما ذكر ذلك جعل الرجل يعتزل فراشه مخافة أن تغلبه عينه فوقتها قبل أن ينام الصغير ويكسل الكبير » .

ولطمأنة المؤمنين يقرن العمل والخشية من الله بصورة الجزاء الرفيع الخاص الفريد ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ ؛ إن هذا التعبير يشى بعظم الحضارة الربانية ، فلهم العطاء المذخور الذى لا يطلع عليه أحد إلا الله ، وهذا العطاء مستور حتى يكشف لأصحابه يوم لقائه .

أورد الشوكانى فى فتح القدير فى قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ عن ابن مسعود أنه قال : إنه المكتوب فى التوراة : لقد أعد الله للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لم تر عين ، ولم تسمع أذن ، ولم يخطر على قلب بشر ، ولا يعلمه ملك مقرب ، ولا نبى مرسل ، وإنه لفى القرآن : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ .

ثم يعرض النص القرآنى قيمة الجزاء العادل الذى يفرق بين المسيئين والمحسنين فى الدنيا والآخرة ، إن هذه الآيات لطمأنة قلوب المؤمنين الطائعين ، فما يستوى المؤمنون والفاسقون فى طبيعة ولا شعور ولا سلوك ، حتى يستووا فى الجزاء فى الدنيا والآخرة سواء ، والمؤمنون مستقيمو الفطرة متجهون إلى الله عاملون على منهاجه القويم ، والفاسقون منحرفون شاردون مفسدون فى الأرض ، لا يستقيمون على الطريق الواصل مع نهج الله للحياة ، وقانونه الأصيل ، فلا عجب إذن أن يختلف طريق المؤمنين والفاسقين فى الآخرة ، وأن يلقى كل منهما الجزاء الذى يناسب رصيده ، وما قدمت يداه .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الإيمان لا ينفع عند معاينة العذاب .

٢ ـ الجزاء من جنس العمل .

٣ ـ فضيلة قيام الليل وهو المعروف بالتهجد والدعاء خوفاً وطمعاً لله .

الجزء الحادي والعشرون — سورة السجدة

وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

سُورَةُ الأَحْزَابِ

٤١٧

معانى الكلمات :

العذاب الأدنى : عذاب الدنيا .

يرجعون : يتوبون .

أعرض عنها : ترك الإيمان بها .

مرية : شك .

أئمة : قادة للخير .

يوقنون : يصدقون .

يفصل : يقضى .

الأرض الجرز : الأرض اليابسة الملساء .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يعلم المسلم مظاهر قدرة الله فى الكون .

٢ ـ أن يشعر المسلم بعظم قدرة الله فى الكون .

٣ ـ أن يجتهد المؤمن فى عباداته وطاعاته لله عز وجل .

المحتوى التربوى :

يبين السياق أن مصير الفاسقين فى الآخرة ، وليسوا مع هذا متروكين إلى ذلك الموعد ، فالله يتوعدهم بالعذاب فى هذه الدنيا قبل عذاب الآخرة ، لكن ظلال الرحمة تتراءى من وراء هذا العذاب الأدنى ، فالله سبحانه وتعالى لا يحب أن يعذب عباده ؛ إذا لم يستحقوا العذاب بعملهم ، وإذا لم يصروا على موجدات العذاب ، فهو يوعدهم بأن يأخذهم بالعذاب فى الأرض ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ، وتستيقظ فطرتهم ، ويروهم ألم العذاب إلى الصواب ، ولو فعلوا لما صاروا إلى مصير الفاسقين الذى رأيناه فى مشهدهم الأليم ، فأما إذا ذكروا بآيات ربهم فأعرضوا عنها وجاءهم العذاب الأدنى ، فلم يرجعوا ولم يعتبروا فإنهم إذًا ظالمون ، وإنهم إذن يستحقون

الانتقام فى الدنيا والآخرة : ﴿ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ ويا هو له من تهديد ، والجبار المتكبر هو الذى يتوعد هؤلاء الضعاف المساكين بالانتقام الرعيب .

هذا تذكير للدعاة إلى الله عز وجل بالصبر على من يدعونهم والنظر بعين الطبيب لا بعين السياف ، وتنبيه للمشرعين والمؤدبين بالتدرج فى العقاب والتعزيز ، وما كان الرفق فى شىء إلا زانه ، وما نزع من شىء إلا شانه .

قال ابن كثير : « روى ابن جرير عن معاذ بن جبل ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ثلاث من فعلهن فقد أجرم : عقد لواء فى غير حق ، أو عق والديه ، أو مشى مع ظالم ينصره فقد أجرم ، يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾، رواه ابن أبى حاتم ، من حديث إسماعيل بن عياش ، وهذا حديث غريب جداً .

ثم يأخذ السياق القرآنى جولة جديدة وهى الإشارة لقصة موسى وقومه ورسالته ، جولة مختصرة لا تزيد على إشارة إلى كتاب موسى ﷺ ، الذى جعله الله هدى لبنى إسرائيل ، كما جعل القرآن كتاب محمد ﷺ هدى للمؤمنين ، وإلى التقاء صاحب القرآن مع صاحب التوراة على الأصل الواحد والعقيدة الثابتة ، وإلى اصطفاء الصابرين الموقفين من قوم موسى ليكونوا أئمة لقومهم ، إيحاء للمسلمين فى ذلك الحين بالصبر واليقين ، وبيانا للصفة التى تستحق بها الإمامة فى الأرض ، والتمكين ، وتفسير هذه العبارة المعترضة : ﴿ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ﴾ على معنى تثبيت الرسول ﷺ على الحق الذى جاء به ، وتقرير أنه الحق الواحد الثابت الذى جاء به موسى فى كتابه ، والذى يلتقى عليه الرسولان ، ويلتقى عليه الكتابان .

الآيات فيها إيحاء للقلة المسلمة فى كل مكان وزمان بأن يصبروا كما صبر المختارون من بنى إسرائيل ، وتوقن كما أيقنوا ، ليكون منهم أئمة للمسلمين كما كان أولئك أئمة لبنى إسرائيل ولتقرير طريق الإمامة والقيادة ، وهو الصبر واليقين .

وتمضى الآيات لتذكر المؤمن بمصير الأمم السابقة ، **فيقول صاحب الظلال :** « ومصارع الغابرين من القرون تنطق بسنة الله فى المكذبين ، وسنة الله ماضية لا تتخلف ولا تحابى ، وهذه البشرية تخضع لقوانين ثابتة فى نشوئها ودثورها ، وضعفها وقوتها ، والقرآن الكريم ينبه إلى ثبات هذه القوانين ، واطراد تلك السنن ، ويتخذ من مصارع القرون ، وآثار القرون الدارسة الخربة أو الباقية بعد سكانها موحشة ، يتخذ منها معارض العبرة ، وإيقاظ القلوب ، وإثارة الحساسية والخوف من بطش الله وأخذه للجبارين ، كما يتخذ منها معارض لثبات السنن والنواميس ، ويرفع بهذا مدارك البشر ومقاييسهم ، فلا ينعزل شعب أو جيل فى حدود الزمان والمكان ،

وينسى النظام الثابت فى حياة البشر ، المطرد على توالى القرون ، وإن كان الكثيرون ينسون العبرة حتى يلاقوا نفس المصير » .

وإن للآثار الخاوية لحديثًا رهيبا عميقا للقلب الشاعر ، والحس المبصر ، وإن له لرجفة فى الأوصال ورعشة فى الضمائر وهزة فى القلوب ،ولقد كان العرب المخاطبون بهذه الآية ابتداء يعيشون فى مساكن عاد وثمود ، ويرون الآثار الباقية من قرى قوم لوط ـ والقرآن يستنكر أن تكون هذه الآثار معروضة لهم وأن تكون مساكن القوم أمامهم ، يمرون عليها ويمشون فيها ثم لا تستجيش هذا قلوبهم ولا يهز مشاعرهم ولا يستثير حساسيتهم بخشية الله ، وتوقى مثل هذا المصير ، ولا يهدى لهم ويبصرهم بالتصرف المنجى من استحقاق كلمة الله بالأخذ والتدمير : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ ۚ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ يسمعون قصص الغابرين الذين يمشون فى مساكنهم أو يسمعون هذا التحذير قبل أن يصدق بهم النذير ويأخذهم النكيرثم لا يؤمنون .

ثم يأتى النص القرآنى بصورة مقابلة لصورة البلى والدثور ، وهى صورة الأرض الجدباء التى أصابتها المياه فإذا هى حية خضراء نضرة ، فهذا مشهد فيه الإحساس بحلاوة الحياة، وبواهب هذه الحياة النضرة ، إحساس بالقدرة المبدعة واليد الصناعة ، التى تشيع الحياة والجمال فى صفحات الوجود .

ويشير صاحب **الظلال** لفائدة عرض مجال الحياة والنماء بعد مجال البلى والدثور : « لإيقاظ العقل بعد بلادة الألفة ، وجمود العادة » .

وفى النهاية يجىء المقطع الأخير فى السورة بعد المطاف الطويل فيحكى استعجالهم بالعذاب الذى يوعدون وشكهم فى صدق الإنذار والتحذير ويرد عليهم مخوفًا محذرًا من تحقيق ما يستعجلون به يوم لا ينفعهم إيمان ولا يمهلون لإصلاح ما فات كذلك يختم السورة بتوجيه الرسول ﷺ إلى الأعراض عنهم وتركهم لمصيرهم المحتوم .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ على الداعى إلى الله أن يبلغ رسالة ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن يصبر ، ويترك الأمر بعد ذلك لله .

٢ ـ توطين العقل على مداومة التفكر فى خلق الله عز وجل .

٣ ـ بيان مؤهلات الإمامة والقيادة ومنها الصبر وصحة اليقين بالله عز وجل .

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ۗ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾

٤١٨

سورة الأحزاب

معانى الكلمات :

أدعياءكم : مفردها دعىّ ، وهو من ينسب لغير أبيه .

أقسط : أعدل .

جناح : ذنب .

أولى بالمؤمنين : أقرب أقربائهم .

أولو الأرحام : أهل القرابات .

أولى ببعض : أحق بالإرث .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يعلم المؤمن بعض أحكام الأسرة فى القرآن .

٢ ـ أن يشعر المؤمن بعظمة التشريعات القرآنية .

٣ ـ أن يطبق المؤمن التشريعات الربانية فى حياته ويلتزم بها .

المحتوى التربوى :

سورة الأحزاب سورة مدنية آياتها ثلاث وسبعون آية تتناول قطاعاً حقيقياً من حياة الجماعة المسلمة تمتد من بعد غزوة بدر الكبرى إلى ما قبل صلح الحديبية ، وهى سورة مزدحمة بالأحداث والتنظيمات والتشريعات ، وهى تتناول جانبا كبيراً من إعادة تنظيم الجماعة المسلمة كما تتناول تعديل الأوضاع والتقاليد ، كما يرد فى ثنايا ذلك الحديث عن غزوة الأحزاب وغزوة بنى قريظة ، وما حدث للجماعة المسلمة فيهما .

وتبدأ السورة ذلك البدء بتوجيه الرسول ﷺ إلى تقوى الله،وعدم الطاعة للكافرين والمنافقين واتباع ما يوحى إليه ربه والتوكل عليه وحده وهو البدء الذى يربط سائر ما ورد فى السورة من تنظيمات وأحداث بالأصل الكبير الذى تقوم عليه شرائع الدين وتوجيهاته ونظمه وأوضاعه

وآدابه وأخلاقه .. أصل استشعار القلب لجلال الله والاستسلام المطلق لإرادته واتباع المنهج الذى اختاره والتوكل عليه وحده والاطمئنان إلى حمايته ونصرته .

يقول صاحب الأساس : « إن مجموع الأوامر التى صدرت لرسول الله ﷺ ولأمته من خلال شخصه الكريم فى هذه الآيات هى التقوى ، وترك طاعة الكافرين والمنافقين واتباع الوحى والتوكل والصلة بين هذه الأوامر واضحة . فالتقوى لا تكون مع طاعة الكافرين والمنافقين . إذ الكافرون والمنافقون يرغبون أن يحرفوا المؤمنين والتقوى واتباع الوحى متلازمان كما ورد فى أول آية من سورة البقرة : ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ﴾ (البقرة) ... وإذا استقرت هذه المعانى يبدأ السياق بهدم قاعدة التبنى المتعارف عليها عند العرب والتى كانت عميقة عندهم والتى سيترتب عليها قيل وقال ، فناسب ذلك أن يسبق الكلام عنها هذه المقدمة وتلك إحدى حكم وجود هذه المقدمة » .

وكذلك تبدأ السورة بوجوب الاستسلام لمشيئة الله وقدره ، واتباع منهج الله ، ثم النهى عن طاعة الكافرين والمنافقين ، وهذا النهى قائم فى كل بيئة وكل زمان ، المغزى من ذلك كما **يقول صاحب الظلال** : « حتى لا ينخدع أحد بما يكون عند الكافرين والمنافقين من ظاهر العلم والتجربة والخبرة ـ كما يُسَوِّغ بعض المسلمين لأنفسهم فى فترات الضعف والانحراف ، فإن الله هو العليم الحكيم ، وهو الذى اختار للمؤمنين منهجهم وفق علمه وحكمته : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ وما عند البشر إلا قشور » .

ثم تورد الآيات توجيها ثالثاً وهو التوكل على الله ورد الأمور إليه ، فهو القاعدة الثابتة المطمئنة التى يفىء إليها القلب ، وهذه العناصر الثلاثة : تقوى الله واتباع وحيه ، والتوكل عليه ـ مع مخالفة الكافرين والمنافقين هى العناصر التى تزود الداعية بالرصيد ، وتقيم الدعوة على منهجها الواضح الخالص من الله . وإلى الله . وعلى الله .

وتختم التوجيهات بإيقاع حاسم : ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾ الآية تمثل الإخلاص والتجرد لله ، كما أن للمؤمن قلبا واحداً ، فلابد له من منهج واحد يسير عليه ، ولابد له من تصور واحد للحياة ، ولابد له من ميزان واحد يزن القيم ، ويقوم به الأحداث والأشياء .

ويقول صاحب الظلال : « وبهذا القلب الواحد يعيش فرداً ويعيش فى الأسرة ، ويعيش فى الجماعة ، ويعيش فى الدولة ، ويعيش فى العالم ، ويعيش سراً وعلانية ، ويعيش عاملاً وصاحب عمل ، ومن ثم فهو منهج واحد وطريق واحد ، ووحى واحد ، واتجاه واحد ، وهو استسلام لله وحده ، فالقلب الواحد لا يعبد إلهين ، ولا يخدم سيدين ولا ينهج نهجين ولا يتجه اتجاهين ، وما يفعل شيئًا من هذا إلا أن يتمزق ويتفرق ، ولا يتحول إلى أشلاء وركام » .

يقول صاحب الأساس فى تفسيره : « ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾ » هذا توطئة للمقصود فكما لا يكون للشخص قلبان فى جوفه ، وكما لا تصير زوجته التى يظاهر منها بقوله : أنت على كظهر أمى أما له ، كذلك لا يصير الدعى ولداً للرجل إذا تبناه فدعاه ابنا له : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ﴾ » .

ثم يأخذ النص القرآنى فى معالجة بعض القضايا فى المجتمع المسلم مثل قضايا الظهار والتبنى والمؤاخاة ، والإسلام فى معالجته لهذه القضايا يحرص على الأسرة المسلمة وهى الوحدة الاجتماعية الأولى ويوليها عنايته .

فتحريم الظهار رفع للظلم عن المرأة وإعلاء لمكانتها ، فالزوجة زوجة والأم أم ، ولا تتحول طبيعة العلاقة بكلمة ، ومن ثم لم يعد الظهار تحريماً أبدياً كتحريم الأم كما كان فى الجاهلية .

وتحريم التبنى فيه قسط وعدل أن يدعى الولد لأبيه، وهذا يجعل التبعات فى الأسرة متوازنة ، ويقيم الأسرة على أساس ثابت دقيق مستمد من الواقع .

يقول صاحب الظلال : « وهذا النص : ﴿ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ ﴾ يصور لنا حقيقة الخلخلة فى المجتمع الجاهلى ، وحقيقة الفوضى فى العلاقات الجنسية ، هذه الفوضى وتلك الخلخلة التى عالجها الإسلام بإقامة نظام الأسرة على أساس الأبوة ، وإقامة نظام المجتمع على أساس الأسرة السليمة .

وبعد الاجتهاد فى رد الأنساب إلى حقائقها فليس على المؤمنين من مؤاخذة فى الحالات التى يعجزون عن الاهتداء فيها إلى النسب الصحيح ، وهذه السماحة مردها إلى أن الله سبحانه وتعالى يتصف بالغفران والرحمة » .

وإرساء للمؤاخاة فيه وضع المجتمع الإسلامى على أوضاع مقررة ، فالمهاجرون من مكة للمدينة آخى الرسول بينهم وبين الأنصار ، وصارت المؤاخاة بمقام أخوة الدم ، وارتفع المد الشعورى بين المهاجرين والأنصار لذروة عالية ، . كانت هذه العلاقة ضرورية لحفظ هذه الجماعة الوليدة وتماسكها فى مثل تلك الظروف الاستثنائية المتشابكة التى قامت فيها .

لكن الإسلام مع حفاوته بذلك المد الشعورى إلا أنه حريصٌ على أن يقيم بناءه على أساس الطاقة العادية للنفس البشرية لا على أساس الفورات الاستثنائية ، فيعود لرد الأشياء إلى حالتها الطبيعية فى الجماعة الإسلامية .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أن يوجه المسلم حياته على طريق الإسلام ، وأن يدع العادات الباطلة .

٢ ـ وجوب إخلاص العبادة لله .

الجزء الحادي والعشرون — سورة الأحزاب

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ
وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾
لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا
﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ
جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ
مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ
وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا
زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم
مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ
مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ۚ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ
مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا
فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ
لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا
اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾

٤١٩

معانى الكلمات :

ميثاقًا غليظاً : عهداً مؤكداً .

زاغت الأبصار : حارت من شدة الرعب .

غروراً : باطلا أو خداعاً .

عورة : غير حصينة .

لو دخلت عليهم من أقطارها : لو هوجمت المدينة من نواحيها .

لا يولون الأدبار : لا يفرون من القتال .

مسؤولاً : جديراً بالوفاء .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يعرف المؤمن جانباً من رحمة الله بالمؤمنين فى سورة الأحزاب .

٢ ـ أن يشعر المؤمن بالثقة والطمأنينة فى نصر الله .

٣ ـ أن يثبت قلب المؤمن فى كل شدة وكل نائبة .

المحتوى التربوى :

يشير السياق إلى ميثاق الله مع النبيين عامة ، والنبى ﷺ وأولى العزم من الرسل خاصة فى حمل أمانة هذا المنهج ، والاستقامة عليه ، وتبليغه للناس ، والقيام عليه فى الأمم التى أرسلوا إليها ، وذلك حتى يكون الناس مسؤولين عن هداهم وضلالهم وإيمانهم وكفرهم ، بعد انقطاع الحجة بتبليغ الرسل عليهم صلوات الله وسلامه .

إنه ميثاق واحد مطرد من لدن نوح عليه السلام إلى خاتم النبيين محمد ﷺ ميثاق واحد ، ومنهج واحد ، وأمانة واحدة يتسلمها كل منهم حتى يسلمها .

قال النسفى : « وقدم لرسول الله ﷺ على نوح ومن بعده لأن هذا العطف لبيان فضيلة هؤلاء لأنهم أولو العزم وأصحاب الشرائع فلما كان محمد صلى ﷺ أفضل هؤلاء قُدّم عليهم ولولا ذلك لقدم من قدمه زمانه . **وقال ابن كثير** : فبدأ فى هذه الآية بالخاتم لشرفه صلوات الله وسلامه عليه ثم رتبهم حسب وجودهم صلوات الله وسلامه عليهم .

يقول صاحب الظلال : « ووصف الميثاق بأنه غليظ منظور فيه إلى الأصل اللغوى للفظ ميثاق ـ وهو الحبل المفتول ـ الذى استعير للعهد والرابطة ، وفيه من جانب آخر تجسيم للمعنوى يزيد إيحاءه للمشاعر .. وإنه لميثاق غليظ متين ذلك الميثاق بين الله ، والمختارين من عباده ، ليتلقوا وحيه ، ويبلغوا عنه ، ويقوموا على منهجه فى أمانة واستقامة » .

وتشير الآيات لوحدة الرسالة الإنسانية ، وإن الله أخذ الميثاق على الأنبياء بتبليغ الوحى ، وأداء الأمانة ، ويوم القيامة يظهر صدق الصادقين وكذب الكاذبين ، والله عليم بهم وسؤالهم عن صدقهم يوم القيامة كما يسأل المعلم التلميذ النجيبَ الناجح عن إجابته التى استحق بها النجاح والتفوق أمام المدعوين لحفل النتائج ! سؤال للتكريم والثناء على المستحقين للتكريم .

ثم تواصل الآيات بيان فضل الله على المؤمنين بأن رد عنهم الجيش الذى همّ أن يستأصلهم ، وهنا تبرز نعمة الله التى يذكرهم بها ، ويطلب إليهم أن يتذكروها ، وليظهر أن الله الذى يأمر المؤمنين باتباع وحيه ، والتوكل عليه وحده ، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين ، هو الذى يحمى القائمين على دعوته ومنهجه من عدوان الكافرين والمنافقين .

ولإكمال الصورة تأتى صورة الهول الذى روع المدينة ، والكرب الذى شملها ، والذى لم ينج منه أحد من أهلها ، وقد أطلق عليها المشركون من قريش وغطفان واليهود من بنى قريظة من كل جانب من أعلاها ومن أسفلها ، وهنا لم يختلف الشعور بالكرب والهول فى قلب عن قلب ، وإنما الذى اختلف هو استجابة تلك القلوب ، وظنها بالله ، وسلوكها فى الشدة وتصوراتها للقيم والأسباب والنتائج ، ومن ثم كان الابتلاء كاملا والامتحان دقيقا ، والتمييز بين المؤمنين والمنافقين حاسماً لا تردد فيه .

ثم يورد القرآن وصفاً دقيقاً للمنافقين أثناء المعركة كما **يقول صاحب الظلال** : « فقد هؤلاء فى الكرب المزلزل ، والشدة الآخذة بالخناق فرصة للكشف عن خبيئة نفوسهم وهم آمنون من أن يلومهم أحد ، وفرصة للتوهين والتشكيك ، وهم مع هذا منطقيون مع أنفسهم ومشاعرهم ، فالهول قد أزاح عنهم ذلك الستار الرقيق من التجمل ، وروع نفوسهم ترويعا لا يثبت له إيمانهم المهلهل ، فجهروا بحقيقة ما يشعرون غير مبقين ولا متجملين » .

إن النص القرآنى فى عرضه لموقف المؤمنين والمنافقين فى غزوة الأحزاب يصلح للعمل فى وسط وكل زمان كما **يقول صاحب الظلال** « لم يدع الله المسلمين لهذه المشاعر وحدها تربيهم ، وتنضج شخصيتهم المسلمة بل أخذهم بالتجارب الواقعية ، والابتلاءات التى تأخذ منهم وتعطى ، وكل ذلك لحكمة يعلمها ، وهو أعلم بمن خلق ، وهو اللطيف الخبير ... ، النص القرآنى يغفل أسماء الأشخاص ، وأعيان الذوات ، ليصور نماذج البشر ، وأنماط الطباع ، ويغفل تفصيلات الحوادث وجزئيات الواقع ، ليصور القيم الثابتة والسنن الباقية ، هذه التى لا تنتهى انتهاء الحادث ، ولا تنقطع لذهاب الأشخاص ، ولا تنقضى بانقضاء الملابسات » .

يذكر صاحب الأساس ملاحظة مهمة : « إن القرآن سجل لنا فى كل معركة عبرة رئيسية ، فغزوة بدر عبرتها الرئيسية أن لله نصراً خاصاً ينزله على عباده المؤمنين ، إذا تحققوا بشروطه ، ولو كانت الموازين العادية للنصر ليست متوفرة ، والعبرة من غزوة أحد أن أى إخلال بطاعة القيادة يترتب عليه خلل ، والعبرة الرئيسية من غزوة الأحزاب أنه متى تألب أعداء الله على المسلمين فإنه سيبعث لهم فرجا من حيث لا يحتسبون إذا ثبتوا وصدقوا، وعبرة غزوة حنين الرئيسية أن أى خلل نفس تخرج به النفس الإسلامية عن ربانيتها، واعتمادها على الله وحده يؤدى إلى الهزيمة، وعبرة غزوة تبوك أن المسلم عليه فى كل حال أن يشارك فى الجهاد مهما كان الوضع قاسيا ، وعبرة صلح الحديبية أن يثق المسلم فى قرار قيادته الإسلامية ، ويسلم له ولو كان غير مرتاح له وفى المقطع الذى مر معنا والذى سجل قصة الأحزاب درس من أعظم دروس الحرب والسلام لهذه الأمة ، فهو درس يرتقى به المسلم إلى الذروة العليا من التقوى إذا تحقق به ، ويتخلص به من رواسب الكفر والنفاق إذا استوعبه والتزمه .

وتحتوى الأحزاب على دروس تربوية كثيرة منها : الانقياد لله ، ومعرفة طريق الصادقين وطريق الكاذبين ، والتأسى بالرسول فى أحواله ، والحذر من المنافقين وغيرها من الدروس » .

غزوة الأحزاب أظهرت أن اليهود لا عهد لهم وأن خيانتهم لا عقاب لها إلا بالإعدام وهذا ما فعله رسول الله ﷺ فى بنى قريظة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الحذر من النفاق وأهله .

٢ ـ أن يتذكر المؤمن دائما نعم الله عليه .

٣ ـ أن يحسن المؤمن الظن بالله ؛ لأن سوء الظن بالله تعالى كفر ونفاق .

٤ ـ وجوب الوفاء بالعهد ، ونقض العهد من علامات النفاق .

الجزء الحادى والعشرون — سورة الأحزاب

قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا
لا تمتعون إلا قليلا (١٦) قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن
أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله
وليا ولا نصيرا (١٧) قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين
لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا (١٨) أشحة
عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم
كالذى يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم
بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط
الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا (١٩) يحسبون الأحزاب
لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون
فى الأعراب يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم
ما قاتلوا إلا قليلا (٢٠) لقد كان لكم فى رسول الله أسوة
حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا (٢١)
ولما رءا المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله
وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما (٢٢)

٤٢٠

معانى الكلمات :

يعصمكم : يحميكم .

ولياً : مجيراً .

هلّم : تعالوا معنا .

البأس : الحرب والقتال .

سلقوكم : آذوكم .

ألسنة حداد: ألسنة سليطة قاطعة كالحديد.

أحبط الله أعمالهم : أبطلها .

لم يذهبوا : لم ينصرفوا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يعرف المؤمن جوانب القدوة فى رسول الله ﷺ فى غزوة الأحزاب .

٢ ـ أن يستشعر المؤمن عظمة الشخصية المحمدية .

٣ ـ أن يقتدى المؤمن بسلوك الرسول والمؤمنين فى وقت الشدة واليأس .

المحتوى التربوى :

تشير الآيات القرآنية للتسليم لله وأن قدر الله لا رادّ له **فيقول صاحب الظلال** : « **إن قدر الله** هو المسيطر على الأحداث والمصائر، يدفعها فى الطريق المرسوم ، وينتهى بها إلى النهاية المحتومة ، والموت أو القتل قدر لا مفر من لقائه فى موعده ، لا يستقدم لحظة ولا يستأخر . ولن ينفع الفرار فى دفع القدر المحتوم عن فارّ ، فإذا فروا فإنهم ملاقون حتفهم المكتوب ، فى موعده القريب وكل موعد فى الدنيا قريب وكل متاع فيها قليل ولا عاصم من الله ولا من يحول دون نفاذ مشيئته سواء أراد بهم سوءًا أم أراد بهم رحمة ولا مولى لهم ، ولا نصير من دون الله يحميهم ويمنعهم من قدر الله » .

ثم يعرض القرآن صورة نفسية مبدعة تثير الضحك والسخرية من هذا النموذج المكرر من الناس ، صورة للجبن والانزواء والهلع والفزع فى ساعة الشدة ، والانتفاش وسلاطة اللسان عند الرخاء ، والشح على الخير والضن ببذل أى جهد فيه .

وهذا النموذج **يقول عنه صاحب الظلال** :« لا ينقطع فى جيل ولا فى قبيل فهو موجود دائماً ، وهو شجاع فصيح بارز حيثما كان هناك أمن ورخاء ، وهو جبان صامت منزوٍ حيثما كان كان شدة وخوف ، وهو شحيح بخيل على الخير وأهل الخير ، لا ينالهم منه إلا سلطة اللسان » .

وتستمر الآيات فى تصوير الموقف المخزى للمنافقين فهم يسألون المؤمنين سؤال الغريب عن الغريب فى البعد والانفصال . والنجاة من الأهوال .

ثم تواصل الآيات ذكر ما يتعلق فى سورة الأحزاب ، ثم التوجيه المستفاد من هذه الغزوة، وهو كون الرسول قدوة حسنة .

وعن القدوة نورد ما ذكره الدكتور محمد أبو شهبة فى كتابه: (« السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة) .

« ونحن لا ننكر أن فى تاريخ البشرية ـ ولا سيما الصفوة من الخلق وهم الأنبياء والمرسلون أناساً فضلاء ذوى أخلاق ودين ـ وهداة ومصلحين ، وعلماء وحكماء ، ومشرعين وفقهاء ، وملوكاً ، ملؤوا الدنيا عدلاً ، بعد أن ملئت جوراً ، ورجالا أوفياء لا يغدرون ولا يخونون ، سادة قادة ، ساسة عباقرة وقوادًا شجعانا ، وأبطالا لا يرهبون الموت ، وأن البشرية لا تخلو فى أى عصر من أمثال هؤلاء » .

ولكن الذى نلاحظه أنه لا يوجد رجل اجتمعت فيه كل هذه الصفات والمميزات مثل ما اجتمعت فى نبينا محمد ﷺ ، ولا نكاد نعرف أحداً كمله الله بكل فضيلة ، ونزهه عن كل رذيلة ، مثل ما عرفنا ذلك لرسولنا محمد ﷺ .

وليس العجيب من اجتماع هذه الصفات فيه ، وإنما العجب حقاً أنها فيه على سواء ، فلا صفة تطغى على أخرى حتى تكاد تطمسها ، ولا خلق يربو على آخر حتى يكاد يخفى معالمه ، وإنما هى صفات وزنت بميزان عادل لا يعول، وأخلاق حسبت بحساب دقيق لا يضل .

لقد كان من منّ الله على المؤمنين أن الرسول ﷺ جمعت سيرته ، كل كلمة ، كل لمحة بل الضجعة والأكله والشربة حتى يقتدى به المؤمنون فى كل أحوالهم » .

ثم يتابع السياق القرآنى ذكر قصة الأحزاب وثقة المؤمنين بالله عز وجل ، والثقة ببشارة الرسول ﷺ لهم ، تلك البشارة التى تتجاوز الموقف كله إلى فتوح اليمن والشام والمغرب والمشرق ـ على الرغم من هذا كله ، فإن الهول الذى كان حاضراً يواجههم كان يزلزلهم ويزعجهم ويكرب أنفاسهم ، **ويبرز صاحب الظلال** حالتهم بقوله : « ومما يصور هذه الحالة أبلغ تصوير خبر حذيفة والرسول ﷺ يحس حالة أصحابه ، ويرى نفوسهم من داخلها ، فيقول : « من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع ، يشرط له رسول الله ﷺ الرجعة أسأل الله تعالى أن يكون رفيقى فى الجنة ، ومع هذا الشرط بالرجعة ، ومع الدعاء المضمون بالرفق مع رسول الله فى الجنة ؛ فإن أحداً لا يلبى النداء ، فإذا عين بالاسم حذيفة ، قال : فلم يكن لى من القوم حين يدعونى ! ألا إن هذا لا يقع إلا فى أقصى درجات الزلزلة » .

ولقد اتخذ المؤمنون من شعورهم بالزلزلة فى انتظار النصر ، ذلك أنهم صدقوا قول الله سبحانه من قبل : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (البقرة : ٢١٤) .

وقد استنبط صاحب الأساس عدة فوائد منها :

« ١ ـ عبرة الأحزاب االرئيسية أنه متى تألب أعداء الله على المسلمين فإنه سيبعث لهم فرجًا من حيث لا يحتسبون إذا ثبتوا وصدقوا .

٢ ـ ومن دروس المقطع أنه أعطانا صورة من النفاق فى ساعات المحنة : شك فى موعود الله ، بتيئيس للمسلمين ، استعداد للكفر ، نقص للعهد ...

٣ ـ من مواطن الخطأ فى الفهم ما فهمه بعضهم من قوله تعالى : ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ ﴾ إذ فهم بعضهم أن من فرَّ من الموت أو القتل يزيد عمره وهو فهم مخالف للنصوص والإجماع ولم يقل به إلا المعتزلة إذ النصوص كثيرة فى أن الإنسان لا يموت ولا يقتل إلا بأجله » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ التضرع والإقبال على الله عز وجل من أسباب النصر .

٢ ـ وجوب الاقتداء برسول الله فى كل ما يطيقه العبد المسلم ويقدر عليه .

٣ ـ حسن الظن بالله يمدوح وأن سوء الظن به تعالى كفر ونفاق .

الجزء الحادي والعشرون — سورة الأحزاب

مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن
قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ
ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ
أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ
وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ
أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ
فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ
وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ
ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ
سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ
ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾
يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ
لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾

٤٢١

معانى الكلمات :

قضى نحبه : مات شهيداً .

ينتظر : ينتظر الشهادة .

ينالوا خيرا : يحصلوا نصرا .

الذين ظاهروهم : يهود بنى قريظة.

صياصيهم : حصونهم .

تطؤوهم : تدوسوها .

أسرحكن : أطلقكن .

فاحشة مبينة : معصية ظاهرة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يعلم المسلم بعض جوانب القدوة فى الصحابة رضوان الله عليهم .

٢ ـ أن يشعر المسلم بسمو التربية النبوية للصحابة رضوان الله عليهم .

٣ ـ أن يجاهد المسلم فى سبيل الله ما استطاع بالنفس ، بالمال ، أو بغير ذلك من أنواع الجهاد .

المحتوى التربوى :

يواصل النسق القرآنى ذكر المؤمنين وصدقهم مع الله عز وجل ، فهم كتيبة واحدة عيونهم على النصر والشهادة لم تتغير مبادئهم ، ولا عقائدهم يرجون الله عز وجل أن يقر أعينهم بالشهادة التى حازها إخوانهم .

ومن شأن اختبار المؤمنين تمييز الصادق من الكاذب ، وذلك لرد الأمور إلى الله فهو المتصرف فى الأمر كله إلى الله ، وتكشف عن حكمة الأحداث والوقائع ، فليس شىء منها عبثا ولا مصادفة ، إنما تقع وفق حكمة مقدرة ، وتدبير قاصد وتنتهى إلى ما شاء الله من العواقب ، وفيها تتجلى رحمة الله بعباده ، ورحمته ومغفرته أقرب وأكبر .

ثم ذكر الله منته وفضله فى رد الكفار عن المؤمنين ، وعادوا بغيظهم وحقدهم مدحورين مهزومين ، وهنا يظهر فضل الله ، ويقر المؤمن بأن المقادير بيد الله يصرفها كما يشاء وفق حكمته وإراته ، وهذا ما ينبغى أن يكون عليه التصور الإنسانى للأمور كلها .

ثم تتحدث الآيات عن موقف اليهود وعقاب الله لهم وكما أكمل الله النعمة للمؤمنين برد الأحزاب بأن طرد اليهود من حصونهم ، وألقى الله فى قلوب اليهود سلاح الرعب ، وأسر المسلمون نساءهم وذراريهم وقتل رجالهم ، وأنعم الله على المؤمنين بأرضهم وديارهم .

كل هذا الفضل والإنعام على المؤمنين بسبب الطاعة لله والثقة بنصر الله ووعده ، وإنها لنموذج حىّ للمؤمنين فى كل مكان وزمان للمؤمنين الذين تحيط بهم الأخطار بأن الله معهم ، يكلؤهم بعنايته ، ويحوطهم بحمايته فالله لديه القدرة والتمكين .

وبعد انتهاء الحديث عن قصة الأحزاب ، وبيان فضل الله فى حفظ الدولة المسلمة تنتقل الآيات إلى ما يحفظ المجتمع المسلم من داخله بآيتى التخيير اللتين تحددان الطريق ، فإما الحياة الدنيا وزينتها ، وإما الله ورسوله والدار الآخرة ، فالقلب الواحد لا يسع تصورين للحياة .

إن هذا الحادث يحتاج لتدبر كما **يقول صاحب الظلال** : « إنه يحدد التصور الإسلامى للقيم ، ويرسم الطريق الشعورى للإحساس بالدنيا والآخرة ، ويحسم فى القلب المسلم كل أرجحة وكل لجلجة من قيم الدنيا وقيم الآخرة .

هذا من جانب ومن الجانب الآخر يصور لنا هذا الحادث حقيقة حياة رسول الله ﷺ والذين عاشوا معه اتصلوا به ، وأجمل ما فى هذه الحقيقة أن تلك الحياة كانت حياة إنسان وحياة ناس من البشر ، لم يتجردوا من بشريتهم ومشاعرهم وسماتهم الإنسانية » .

وكثيراً ما نخطىء نحن حين نصور النبى ﷺ وصحابته ـ رضوان الله عليهم ـ صورة غير حقيقية أو غير كاملة ، فنجردهم فيها من كل المشاعر والعواطف البشرية ، حاسبين أننا نرفعهم بهذا وننزههم عما نعده نحن نقصاً وضعفاً .

وهذا الخطأ يرسم لهم صورة غير واقعية ، صورة ملفقة بهالات ضخمة تشعرنا أنهم ملائكة ، وهذه الصورة تجعلنا نيأس من الاقتداء بهم ، وهنا تفقد سيرة النبى ﷺ أهم عنصر محرك ، وهو استجاشة مشاعرنا للتحرك والاتباع .

حكمة الله واضحة فى أن يختار رسله من البشر ، لا من الملائكة ولا من أى خلق آخر غير البشر ، كى تبقى الصلة الحقيقية بين حياة الرسل وحياة أتباعهم قائمة ، ونلحظ فى قصة التخيير الرغبات الطبيعية فى نفوس أزواج النبى ﷺ ثم ترتفع نفوس أزواج النبى ﷺ عن هذه الرغبات عن اختيار لا إجبار .

ثم يأتى النص القرآنى بتوجيه لأزواج النبى ﷺ أن المعصية منهن عقوبتها مضاعفة ،لأنهن فى مقام كريم ، وهذا تذكير للدعاة أن يتجنبوا الذنوب ، فالذنب منهم أفدح .

يقول صاحب الظلال على المعركة : « إن النص القرآنى يغفل أسماء الأشخاص وأعيان الذوات ؛ ليصور نماذج البشر وأنماط الطباع ويغفل تفصيلات الحوادث وجزئيات الوقائع ليصور القيم الثابتة والسنن الباقية . هذه التى لا تنتهى بانتهاء الحادث ولا تنقطع بذهاب الأشخاص ولا تنقضى بانقضاء الملابسات ، ومن ثم تبقى قاعدة ومثلًا لكل جيل وكل قبيلة، ويحفل بربط المواقف والحوادث بقدر الله المسيطر على الأحداث والأشخاص ويظهر فيها يد الله قادرة وتدبيره اللطيف ، ويقف عند كل مرحلة فى المعركة للتوجيه والتعقيب والربط بالأصل الكبير » .

إن النص القرآنى معد للعمل لا فى وسط أولئك الذين عاصروا الحادث وشاهدوه فحسب، ولكن كذلك للعمل فى كل وسط بعد ذلك ، وفى كل تاريخ معد للعمل فى النفس البشرية إطلاقًا كلما واجهت مثل ذلك الحادث أو شبهة فى الآماد الطويلة والبيئات المنوعة بنفس القوة التى عمل بها فى الجماعة الأولى .

إن القرآن ليس كتابًا للتلاوة ولا للثقافة .. وكفى .. إنما هو رصيد من الحيوية الدافعة وإيحاء متجدد فى المواقف والحوادث ! ونصوص مهيأة للعمل فى كل لحظة متى وجد القلب الذى يتعاطف معه ويتجاوب ووجد الظرف الذى يطلق الطاقة المكنونة فى تلك النصوص ذات السر العجيب .

وإن الإنسان ليقرأ النص القرآنى مئات المرات ثم يقف الموقف أو يواجه الحادث فإذا النص القرآنى جديد يوحى إليه بما لم يوح من قبل ويجيب على السؤال الحائر ويفتى فى المشكلة المعقدة ويكشف الطريق الخافى ويرسم الاتجاه القاصد ويفىء بالقلب إلى اليقين الجازم فى الأمر الذى يوجهه وإلى الاطمئنان العميق وليس ذلك لغير القرآن فى قديم ولا حديث .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أن يتذكر المسلم الشهادة وفضلها وأن تكون أسمى أمانيه .

٢ ـ أن يثبت قلب المؤمن عند كل شدة ، وأن يعى قول الرسول ﷺ : « تعرف على الله وقت الرخاء يعرفك فى الشدة ».

٣ ـ أن يتقى الدعاة الله فى كل أعمالهم .

وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾

معانى الكلمات :

يقنت منكن : تواظب على طاعة الله .

لا تخضعن بالقول : لا ترققن القول .

قلن قولا معروفا : تكلمن كلاما جاداً .

قرن فى بيوتكن : ابقين .

ولا تبرجن : لا تبدين الزينة الواجب سترها .

الرجس : النقص .

القانتين : العابدين .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن تعلم على المرأة المسلمة ما يجب أن تسلكه فى بيتها وتعاملها مع الأجانب .

٢ ـ أن يشعر المسلم بجانب القدوة فى سلوك النبى ﷺ فى بيته .

٣ ـ أن تسير نساؤنا وأخواتنا وبناتنا على تشريعات الإسلام وتوجيهاته .

المحتوى التربوى :

تواصل الآيات الحديث إلى أمهات المؤمنين ببيان الجزاء المدخر لهن إن اتقين الله ، فالجزاء لهم مضاعف فضلا من الله ومنة ، والسياق القرآنى يعلل مضاعفة العذاب حين المعصية ، ومضاعفة الأجر حين الطاعة هو كونهن لسن كمثل الناس .

قال الإمام الشوكانى فى قوله : « ﴿ ٱتَّقَيْتُنَّ ﴾ بين سبحانه أن هذه الفضيلة لهن إنما تكون بملازمتهن للتقوى ، لا لمجرد اتصالهن بالنبى ﷺ » .

وهذا هو الحق الصارم الحاسم الذى يقوم عليه هذا الدين ، والذى يقرره رسول الله ﷺ وهو ينادى أهله ألا يغرنهم مكانهم من قرابته ، فإنه لا يملك لهم من الله شيئاً . « يا فاطمة ابنة محمد ،

يا صفية ابنة عبد المطلب ، يا بنى عبد المطلب ، لا أملك لكم من الله شيئاً . سلونى من ما لى ما شئتم » .

ولحفظ كيان الأسرة المسلمة وصونا للمجتمع تأتى توجيهات للنساء المؤمنات بأن يرتدين ثياب الحشمة والوقار ، وعدم التبرج ، وأن يلزمن طاعة الله ورسوله ، ويشير **صاحب الظلال** لأمر جدير بالتنبيه وهو: « من هن اللواتى يحذرهن الله هذا التحذير إنهن أزواج النبى ﷺ وأمهات المؤمنين اللواتى لا يطمع فيهن طامع ، وفى أى عهد ؟ فى عهد النبى ﷺ .

فى عهد الصفوة المختارة من البشرية فى جميع الأعصار ، ولكن الله الذى خلق الرجال والنساء يعلم أن فى صوت المرأة حين تخضع بالقول ، وتترقق فى اللفظ ما يثير الطمع فى قلوب ضعفاءالإيمان ، ويهيج الفتنة فى كل بيئه ، وتجاه كل امرأة ، ولو كانت هى زوج النبى الكريم .

فكيف بهذا المجتمع الذى نعيش فيه ، فى عصرنا المريض الدنس الهابط الذى تهيج فيه الفتن ، وتثور فيه الشهوات » .

ثم تواصل الآيات الإرشاد القرآنى للمؤمنات بأن يمكثن فى بيوتهن ، وهى أعظم مهمة للمرأة وهو لتربية أولادها والعناية بزوجها ، وتلك مهمة تقوم بها الأم المتفرغة ، أما الأم المرهقة المكدودة المقيدة بالعمل ومواعيده ، لا تستطيع أن تقوم بما تقوم به المرأة المتفرغة .

وعن تبرج الجاهلية الأولى **يقول ابن كثير** : « كانت المرأة منهن تمر بين الرجال مسفحة صدرها لا يواريه شىء ، وربما أظهرت عنقها وشعرها وأقرطة آذانها ، فأمر الله المؤمنات أن يستترن فى هيئاتهن وأحوالهن » .

ويذكر السياق القرآنى الزاد الذى تستعين به المرأة المؤمنة لتنفيذ أوامر الله وأحكامه وتشريعاته وهو العبادة من صلاة وزكاة وطاعة للرسول ﷺ **ويقول صاحب الظلال** : « وعبادة الله ليست بمعزل عن السلوك الاجتماعى أو الأخلاقى فى الحياة ، إنما هى الطريق للارتفاع إلى ذلك المستوى، والزاد الذى يقطع به السالك الطريق، فلابد من صلة بالله يأتى منها المدد والزاد، ولابد من صلة بالله تطهر القلب وتزكيه ، ولابد من صلة بالله يرتفع بها الفرد على عرف الناس وتقاليد المجتمع وضغط البيئة » .

ثم يمضى السياق القرآنى لبيان عاقبة الأوامر والتوجيهات ، وهى إذهاب الرجس وتطهير البيت ، وهذا هو الإسلام شعور وتقوى فى الضمير ، وسلوك وعمل فى الحياة ، يتم بهما معاً تمام الإسلام ، وتتحقق بهما أهدافه واتجاهاته فى الحياة .

ثم يُذكرّ النص القرآنى بنعمة الله على المؤمنات كما يوضح ذلك **الإمام الشوكانى** : « أى اذكرن موضع النعمة إذ صيركن الله فى بيوت يُتلى فيها آيات الله والحكمة ، أو اذكرنها وتفكرن فيها ليتعظن بمواعظ الله » .

وهذا التذكير كما **يقول صاحب الظلال** : « يجيء فى ختام الخطاب الذى بدأ بتخيير نساء النبى ﷺ بين متاع الحياة الدنيا وزينتها ، وإيثار الله ورسوله والدار الآخرة فتبدو جزالة النعمة التى ميزهن الله بها » .

لقد جاء القرآن ليحدد القيم الأساسية فى تصور الإسلام للحياة ، هذه القيم التى ينبغى أن تجد ترجمتها الحية فى بيت النبى ﷺ وحياته الخاصة وأن تتحقق فى أدق صورها وأوضحها فى هذا البيت الذى كان وسيبقى منارة للمسلمين وللإسلام حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

ونزلت آيتا التخيير تحددان الطريق فإما الحياة الدنيا وزينتها وإما الله ورسوله والدار الآخرة، فالقلب الواحد لا يسع تصورين للحياة وما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه .

ونحب أن نقف لحظات أمام هذا الحادث نتدبره من بعض زواياه ، إنه يحدد التصور الإسلامى الواضح للقيم ، ويرسم الطريق الشعورى للإحساس بالدنيا والآخرة ويحسم فى القلب المسلم كل أرجحة وكل لجلجة بين قيم الدنيا وقيم الآخرة بين الاتجاه إلى الأرض والاتجاه إلى السماء ، ويخلص هذا القلب من كل وشيجة غريبة تحول بينه وبين التجرد والخلوص له وحده دوان سواه .

وفى حادث التخيير نقف أمام الرغبة الطبيعية فى نفوس نساء النبى ﷺ فى المتاع ، كما نقف أمام صورة الحياة البيتية للنبى ﷺ ونسائه رضى الله عنهن ، وهن أزواج يراجعن زوجهن فى أمر النفقة فيؤذيه هذا، ولكن لا يقبل من أبى بكر وعمر رضى الله عنهما أن يضربا عائشة وحفصة على هذه المراجعة.

فالمسألة مسألة مشاعر وميول بشرية تصفى وترفع ولكنها لا تخمد ولا تكبت ، ويظل الأمر كذلك حتى يأتيه أمر الله بتخيير نسائه فيخترن الله ورسوله والدار الآخرة اختيارًا لا إكراه فيه ولا كبت ولا ضغط ، فيفرح قلب رسول الله ﷺ بارتفاع قلوب أزواجه إلى هذا الأفق السامى الوضيء .

ثم يأتى النص القرآنى بذكر صفات يجب أن تتحقق فى الجماعة المؤمنة رجالها ونسائها ، وتذكر المرأة فى الآية بجانب الرجل كطرف من عمل الإسلام فى رفع قيمة المرأة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أن يكون الدعاة قدوة طيبة لغيرهم .

٢ ـ المسؤولية الفردية على الأعمال فى الحساب أمام الله ، ولن ينفع أحد غيره .

٣ ـ العناية الشديدة بالفتاة المسلمة بتوجيهها فى ملبسها وتعليمها وتذكيرها بالله تعالى .

وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون
لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا
مبينا ﴿٣٦﴾ وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه
أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله
مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد
منها وطرا زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى
أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا
﴿٣٧﴾ ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له سنة الله فى
الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدرا مقدورا ﴿٣٨﴾ الذين
يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله وكفى
بالله حسيبا ﴿٣٩﴾ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن
رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شىء عليما ﴿٤٠﴾
يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا ﴿٤١﴾ وسبحوه بكرة
وأصيلا ﴿٤٢﴾ هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم
من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما ﴿٤٣﴾

معانى الكلمات :

قضى : حكم .

وطراً : حاجة .

حرج : إثم .

قدراً مقدوراً : قضاء نافذا .

بكرة وأصيلا : أول النهار وآخره .

يصلى : يرحمكم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يعرف المسلم جانبا من قصة زواج النبى ﷺ من زينب بنت جحش ، وإبطال التبنى .

٢ ـ أن يشعر المسلم بفضل الله فى تشريعاته بإبطال التبنى .

٣ ـ أن يأمر المسلم بالمعروف وينهى عن المنكر ، وألا يباهى بمن يقف فى طريق دعوة الحق .

المحتوى التربوى :

تمضى الآيات القرآنية فى ذكر مقوم من مقومات العقيدة هو التسليم لقضاء الله ، وأن المؤمنين ليس لهم من أنفسهم شىء ؛ لأنهم لا يعرفون الرواية الكاملة ، فهم أجزاء هذا الكون الذى قدره الله ، وعند التسليم لله فى كل أمر ترضى النفوس بكل شىء قدره الله بنفس مطمئنة ، تستقبل قدر الله استقبال العارف المنتظر المرتقب لأمر مألوف فى حسه .

ومع الاستسلام لله عز وجل بأن المؤمنين يعملون ما يقدرون عليه، ويبذلون ما يملكون كله، ولا يضيعون وقتا ولا جهداً ، ولا يتركون حيلة ولا وسيلة .

وهذا التوازن بين الاستسلام المطلق بقدر الله ، والعمل الجاهد بكل ما فى الطاقة ، والوقوف المطمئن عند ما يستطيعون . . هذا التوازن هو السمة التى طبعت حياة تلك المجموعة وميزتها .

ثم يمضى النسق القرآنى ليوضح حادث زواج النبى ﷺ من زينب بنت جحش زوج زيد بن حارثة وتزوجها الرسول ﷺ بعد طلاقها من زيد وذلك لإبطال نظام التبنى ، وكان لهذا النظام آثار واقعية فى حياة الجماعة العربية ، ولم يكن إبطال هذه الآثار الواقعية فى حياة المجتمع ليمضى بالسهولة التى يمضى بها إبطال تقليد التبنى ، فالتقاليد الاجتماعية أعمق أثراً فى النفوس .

إن الآيات تشير إلى توجيه هام فى حياة الفرد والمجتمع المسلم وهو أن يوجه المسلم حياته وأمور مجتمعه على نظم الإسلام وأحكامه وتشريعاته ، من توجيه المجتمع حسب لذاتنا وأهوائنا فهو الضلال والخسران المبين .

ثم تواصل الآيات ذكر قصة تطليق زيد لزينب ، وطلب النبى ﷺ أن يمسك عليه زوجه مع أن الله ألهم النبى ﷺ أنه سيتزوجها ، بل إن زواجه من زينب أمر من الله ومواجهة التقاليد الجاهلية الراسخة الثابتة .

كانت هذه المواجهة كما **يقول صاحب الظلال** : « كانت هذه إحدى ضرائب الرسالة الباهظة حملها رسول الله ﷺ فيما حمل ، وواجه بها المجتمع الكاره لها كل الكراهية ، حتى يتردد فى مواجهته بها ، وهو الذى لم يتردد فى مواجهته بعقيدة التوحيد ، وذم الآلهة والشركاء وتخطئة الآباء والأجداد » .

وتأتى الآيات لتذكر صفة أساسية فى الرسل وأصحاب الدعوات وهى أنهم لا يخشون إلا الله ، ولا يبالون بقول الناس ، ولا يحسبون للخلق حسابا ، ذلك أن الرسل يأتون فى أوقات فسد فيها حال الناس ، وحادت عن الصراط المستقيم ، فيواجهون الناس بانحرافاتهم ، ويبلغونهم رسالات ربهم ويلخص ذلك **صاحب الأساس** فى قوله : « دلت الآية على أن أحداً لا يستطيع أن يقوم بأعباء البلاغ كاملة إلا من خلا قلبه من خشية البشر » .

ثم تواصل الآيات ذكر قصة زواج النبى ﷺ من زينب بنت جحش وإبطال التبنى ، **يقول صاحب الأساس** : جاءت قصة زينب رضى الله عنها فى سياق المقطع الثالث فأدت مجموعة معانٍ فى ملحها :

١ ـ أرتنا أن زواج الرسول ﷺ مسألة يتدخل فيها الله عز وجل تدخلًا مباشرًا ، ومن ثم فإن هذا درس لنساء الرسول ﷺ فى معرفة ذلك ودرس للمؤمنين فيعطوا هذا الموضوع حقه من الفهم والعلم والاحترام والتوقير ، وهذا أول مظاهر ارتباط الآيات الأخيرة بمقطعها .

٢ ـ أرتنا الآيات حكمة زواج الرسول ﷺ بزينب ، وفى ذلك درس أن رسول الله ﷺ إذا تزوج فإنه يفعل ذلك لحكمة ، وهذا يقتضى من أزواجه أدبا ومن المؤمنين معرفة وأدبا وتسليمًا .

٣ ـ تعطينا هذه الآيات نموذجًا من نماذج التربية الربانية لرسول الله ﷺ فى سياق السورة المبدوءة بالأمر بالتقوى والاتباع ورفض طاعة الكافرين والمنافقين والتوكل ، فترينا موضوعًا تطبيقيا لكيفية أن أمر الله فيه المصلحة الخالصة الكاملة ومن ثم فلا ينبغى لأحد أن يتلكأ عنه مهما كانت الضغوط الاجتماعية الكافرة والمنافقة العنيفة .

٤ ـ كما تعطينا الآيات دروسًا فى الإيمان والإسلام والمواصفات العليا للمسلم الكامل الذى مرت مواصفاته فى آية : ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ ﴾ كما تعطينا درسًا عمليًا فى مواقف المسلمين الكاملين فى التسليم فى كل حال والطاعة فى كل حال والصبر على كل حال .

فمكانة النبى ﷺ فى مقام عظيم فهو رسول الله ، وهو خاتم النبيين ، وذلك لأن النبى ﷺ فى مقام القدرة فى جميع أقواله وأفعاله وأحواله ، فى ليله ونهاره ، وحضره ، وسره وعلانيته .

ثم تتواصل التوجيهات القرآنية للمؤمنين لذكر الله ، وذكر الله اتصال القلب ، والاشتغال بمراقبته ، وليس المقصود بالذكر الصلاة فقط ، بل يشمل كل صورة يتذكر فيها العبد ربه ، ويتصل به قلبه سواء جهر بلسانه بهذا الذكر أم لم يجهر ، وإن القلب ليظل فارغا أو لاهيا أو حائرا حتى يتصل بالله ويذكره ويأنس به .

إن ذكر الجزاء دافع على العمل ؛ لذا فقد وعد الله الذاكرين بالخير فى الملأ الأعلى بالرحمة والمغفرة لهم كما يقول رسول الله ﷺ : « يقول الله تعالى : من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ نبذ العادات غير الإسلامية ، وتوطين المؤمن على أوامر الشرع .

٢ ـ الحكمة فى عرض قضايا الدين وتوضيح جانب الخير فى اتباع أوامر الله،والعاقبة الوخيمة من اتباع أوامر الله ، والعاقبة الوخيمة من اتباع الضلالة .

٣ ـ وجوب ذكر الله دائماً كثيرا ليل نهار .

تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا
إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم
مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ
وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ
مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ
فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ
أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ
يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ
وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً
مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا
خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا
عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا
يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾

معانى الكلمات :

سراجا منيراً : مصباحاً مضيئاً .

تمسوهن : تدخلوا بهن .

سرحوهن : طلقوهن .

آتيت أجورهن : أعطيت مهورهن .

أفاء الله عليك : أعطاه إياك .

يستنكحها . يتزوجها .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يعرف المسلم كيفية تعامل الدعاة مع أقوامهم .

٢ ـ أن يشعر المؤمن بالتبعة الملقاة عليه فى تبليغ دعوة الله .

٣ ـ أن يبلغ المسلم دعوة ربه ما استطاع .

المحتوى التربوى :

تواصل الآيات ذكر فضل الله على المؤمنين الذين اجتهدوا فى الطاعة، يلقون الحفاوة من رب العالمين بقوله تعالى لهم : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ هو سلام من كل خوف ، من كل تعب ، من كل كدّ ، بجانب الجزاء الكريم المُعدّ للمؤمنين .

وأما النبى الذى يبلغهم اختيار الله لهم ، ويحقق بسنته العملية ما اختاره الله وشرعه للعباد ،فيلتفت السياق إلى بيان وظيفته وفضله على المؤمنين فى هذا المقام .

قد لا حظ صاحب الأساس عدة فوائد فى قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ .

١ ـ **قال ابن كثير** : روى ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ وقد كان أمر عليًا ومعاذًا رضى الله عنهما أن يسيرا إلى اليمن فقال: « انطلقا فبشرا ولا تنفرا ، ويسرا ولا تعسرا ، إنه قد أنزل على : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ﴾ ورواه الطبرانى بإسناده مثله وقال فى آخره : « فإنه قد أنزل علىَّ يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدًا على أمتك ومبشرًا بالجنة ونذيرًا من النار وداعيًا إلى شهادة أن لا إله إلا الله بإذنه وسراجًا منيرًا بالقرآن » .

٢ ـ حددت الآيات مهمة رسول الله ﷺ وهى الشهادة والتبشير والإنذار والدعوة إلى الله ، وينبغى لوارث رسول الله ﷺ أن يكون لهم حظ من ذلك كله .

ثم يأتى السياق القرآنى ببيان وظيفة النبى ﷺ أن يكون شاهداً على المؤمنين مبشراً إياهم بالجزاء الجزيل إن أطاعوا ، ومنذراً إياهم بالعقاب الأليم إن عصوا ، بل هو داع إلى الله وهنا يبرز سمو الرسالة كما يقول **صاحب الظلال** : « لا إلى دنيا ولا إلى مجد ، ولا إلى عزة قومية ، ولا إلى عصبية جاهلية ، ولا إلى مغنم ، ولا إلى سلطان أو جاه ، ولكن داعيا إلى فى طريق واحد يصل إلى الله ﴿ بِإِذْنِهِۦ ﴾ فما هو بمبتدع ولا بمتطوع ولا بقائل من عنده شيئا ، لإنما هو إذن الله له ، وأمره لا يتعداه ﴿ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ يجلو الظلمات ، ويكشف الشبهات ، وينير الطريق ، نورًا هادئا هاديا كالسراج المنير فى الظلمات .

وهكذا كان رسول الله ﷺ وما جاء به من النور ، جاء بالتصور الواضح البين النير لهذا الوجود ، ولعلاقة الوجود الخالق ، ولمكان الكائن الإنسانى من هذا الوجود وخالقه ، وللقيم التى يقوم عليها الوجود كله ، ويقوم عليها وجود هذا الإنسان فيه ، وللمنشأ والمصير ، والهدف والغاية ، والطريق والوسيلة ، فى قول فصل لا شبهة فيه ولا غموض » .

يقول صاحب الأساس : « يستدل بعضهم بقوله تعالى : ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ ﴾ على أن الدعوة إلى الله تحتاج إلى إذن خاص ، وأقول : إن رسول الله ﷺ قد أذن إذنا عاماً لكل مسلم ، بل أمر كل مسلم أن يدعو إلى الله ضمن إمكانياته، قال عليه الصلاة والسلام:« بلغوا عنى ولو آية » .

ثم يأتى النهى عن اتباع الكافرين والمنافقين ، والاعتصام بحبل الله ، والإعراض عن إيذاء هؤلاء الكافرين والمنافقين ، وأن يتوكل المؤمن على الله حسبه ، فهو كفيل بنصر المؤمن وهو الذى وعدهم نصره ، وبشرهم بذلك ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾(الصافات : ١٧٣) .

ثم تمضى الآيات لبيان بعض التشريعات الإسلامية ولإثبات أن الإسلام منهج حياة لجميع البشر لم يترك جانبا من الأمور إلا وطرقه ، بل إن فى هذه التشريعات أحكاماً خاصة بالرسول

محمد ﷺ دون سواه لتكون حياة هذا البيت صفحة معروضة للأجيال ، فضمنها هذا القرآن الباقى ، المتلو فى كل زمان ومكان ، وهو فى الوقت نفسه تكريم الله ـ سبحانه ـ لهذا البيت الذى يتولى بذاته العلية أمره ، ويعرضه للبشرية كافة فى قرآنه الخالد على الزمان .

فقد مضت الآيات تذكر حُكْم المطلقة قبل الدخول وأنه ليس عليها عدة ؛ لأن العدة شرعت لاستبراء الرحم من الحمل والتأكد من أنها خالية من آثار الزواج السابق؛كى لا تختلط الأنساب، ولا ينسب إلى رجل ما ليس منه ، ثم لإكرام المرأة تأخذ نصف المهر إن كان هناك مهر مسمى ، وإن لم يكن فمتاع مطلق يتبع حال الزوج المالية،ثم يأتى بالتطليق طلاقاً جميلا لا عضل فيها ولا أذى ، ولا تعنت ، ولا رغبة فى تعويقهن عن استئناف حياة جديدة .

وإن عناية الإسلام بالمرأة وتفصيل أحكامها ، لهو إدراك لخطورة إهمال شأنها ، وما يجرّ ذلك الإهمال من عواقب الخسارة والوبال على المجتمعات الإسلامية ، بل إن اليهودية العالمية وحلفاءها الصهيونية والماسونية تسعى لاختراق المجتمعات وإفسادها عن طريق الاستغلال السيئ للمرأة وملء الأدمغة بدعاوى التحرير ، والتحريض على ترك تشريعات الإسلام التى تكفل للمرأة حقوقها ، وللمجتمعات استقرارها .

ثم يبين الله ـ عز وجل ـ لرسوله ﷺ ما يحل له من النساء ، وما فى ذلك من خصوصية لشخصه ولأهل بيته ، وأنواع النساء اللاتى أحللن لرسول الله : الأزواج اللواتى أمهرهن ، وما ملكت يمينه إطلاقا من الفيء ، وبنات عمه ، وبنات عماته ، وبنات خاله ، وبنات خالاته ممن هاجرن معه دون غيرهن ممن لم يهاجرن ، وكذلك أيما امرأة وهبت نفسها للنبىّ بلا مهر ولا ولىّ ـ إن أراد النبى نكاحها .

ويلمح الدكتور محمد أبو شهبة جانب القدوة فى ذلك فيقول : « وإن الإنسان ليعجب كيف وفق النبى ﷺ بين هؤلاء التسع وهن مختلفات فى السن والطبائع والأخلاق والمشارب ، ولكن النبىَّ بسعة عقله ، ورحابه صدره ، وكرم أخلاقه أمكنه أن يحسن عشرتهن ، ويعدل بينهن ، وأن يوفق بين رغباتهن ، وإنها لبطولة حقا أن يكون عنده هذا العدد من الزوجات ، ويقوم بأعباء الرسالة ، وتكوين خير أمة » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ ضمان تبليغ الرسالة هو الصبر على طاعة الله عز وجل ، وعدم موالاة الكفار والمنافقين .

٢ ـ العناية بشأن المرأة المسلمة .

۞ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ
مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ
وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ
مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ
ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ
حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا
﴿٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن
يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ
فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ
ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا
يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن
وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ
لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ
مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن
تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾

معانى الكلمات :

ترجى : تؤخر .

تؤوى : تضم إليك .

تقرّ أعينهن : تطيب أنفسهن .

رقيبا : حفيظاً ومطلعا .

غير ناظرين إناه : غير منتظرين نضجه .

فيستحى : أى لا يخرجكم من بيوته حياء منكم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يعلم المسلم بعض الآداب الإسلامية عن دخول بيوت الآخرين .

٢ ـ أن يشعر المسلم بعظمة التشريعات الإسلامية .

٣ ـ أن يلتزم آداب الإسلام فى بيته وفى بيوت الآخرين .

المحتوى التربوى :

تواصل الآيات ذكر ما يتعلق بالأحكام الخاصة فى بيته ﷺ ، وقد لخص ذلك **الإمام النسفى** فى تفسير قوله : ﴿ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ﴾ ، « أى تطلق من تشاء ، وتمسك من تشاء أو لا تقسم لأيتهن ، وتقسم لمن شئت ، أو تترك تزوج من شئت من نساء أمتك ، وتتزوج من شئت ، وهذه كله قبل نسخ ذلك الحكم بالآية التالية وهو قوله تعالى : ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ ﴾ ، وصفة أحكام الله أنها تنزل حسب الوقائع والأحكام وعلى المؤمن أن يذعن ويخضع لأوامر الله ففيها النفع ويتجنب نواهيه ففيها الضر .

يرى **صاحب الظلال** فى قوله تعالى : ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ ﴾ : « أن الاتجاه الرئيسى فى الآية أنها منسوخة ، إلا أن هناك اتجاهاً فى الفهم يوجه الآية بها يجمع بين الآيات بلا نسخ ، وقد ذكر ابن كثير أدلة القائلين بالنسخ وأقوال أخرى بعدم النسخ ».

إن القول بالنسخ هو ردُ على المعاندين والمتطاولين على رسول الله ﷺ بأن الرسول ﷺ أبيح له ما حرم على أمته من تقييد الجمع بين أكثر من أربع زوجات ، فإن الرسول قد منع من الزواج بعد زوجاته التسع حتى لو طلق إحداهن أو بعضهن أو كلهن ، أما المسلم فله أن يتزوج إذا طلق من زوجاته الأربع إحداهن أو بعضهن أو كلهن بشرط تقييد العدد بأربع زوجات .

ثم جاء القرآن ينظم علاقة المسلمين ببيوت النبى ﷺ وتتضمنت الإشارة إلى آداب لم تكن فى الحياة الجاهلية ، فقد أنكر القرآن على بعضهم دخول البيوت بغير إذن ، وبعضهم كان يدخل، وحين يرى طعاماً يوقد عليه يجلس فى انتظار هذا الطعام ، وبعضهم يجلس بعد الطعام ، وأتى الإسلام لتقرير آداب ، وتنظيم المجتمع المسلم وحفظ عوراته وعدم تبديد أوقاته وأوقات الآخرين ، ومحاربة تبلد الإحساس والكسل والتواكل ، بل جعل المجتمع كله فى حركة مستمرة دائبة .

فى الآيات نلمح جوانب القدوة فى حياة الرسول ﷺ ، والحكمة من كونه ﷺ بشراً ، وهو حياؤه من أضيافه الذين طال جلوسهم ، لكن الله عز وجل غار لرسوله ، وأرشد المؤمنين إلى الآداب التى يجب أن يتبعوها فى بيوت النبى ﷺ وبيوت المؤمنين .

وتواصل الآية ذكر الواجب اتباعه عند مخاطبة نساء النبى ونساء المؤمنين وهو الحجاب ، وذلك أطهر لقلوب الجميع وقلوب المسلمين وقلوب أمهات المؤمنين ، وذلك ما يقوله الله عز وجل وهو العليم بالقلوب ، وذلك رد على المدعين والمستغربين الذين يقولون ، كما يذكر **صاحب الظلال** : « أن الاختلاط ، وإزالة الحجب ، والترخص فى الحديث واللقاء والجلوس والمشاركة بين الجنسين أطهر للقلوب ، وأعف للضمائر ، وأعون على تصريف الغريزة المكبوتة ، وعلى إشعار الجنسين بالأدب وترقيق المشاعر والسلوك .. إلى آخر ما يقوله نفر من خلق الله الضعاف المهازيل الجهال المحجوبين. ـ يقولون هذا ـ ويقول الله عن نساء النبى الطاهرات أمهات المؤمنين ـ وعن رجال الصدر الأول من صحابة رسول الله ﷺ . ممن لا تتطاول إليهن وإليهم الأعناق وحين يقول الله قولا ، ويقول خلق من خلقه قولاً ، فالقول لله ـ سبحانه ـ وكل قول آخر هراء ، لا يردده إلا من يجرؤ على القول بأن العبيد الفانين أعلم بالنفس البشرية من الخالق الباقى الذى خلق هؤلاء العبيد .

والواقع العملى الملموس يهتف بصدق الله ، وكذب المدعين غير ما يقوله ، والتجارب المعروضة اليوم فى العالم مصدقة لما نقول » .

مما يذكر أن عمر ﷺ بحساسيته المرهفة كان يقترح على النبى ﷺ الحجاب ، وكان يتمناه على ربه ، حتى نزل القرآن الكريم مصدقا لاقتراحه مجيباً لحساسيته ، وهذا يدل على أن الفطرة السليمة قد يلهمها الله بصيرة تدرك أحكاما ربانية .

وجاءت هذه الآية تعلم الناس ألا يخلوا بيوت النبى بغير إذن فإذا دعوا إلى الطعام دخلوا فأما إذا لم يدعوا فلا يدخلون يرتقيون نضجه ! ثم إذا طعموا خرجوا ولم يبقوا بعد الطعام للسمر والأخذ بأطراف الحديث ، وما أحوج المسلمين اليوم إلى هذا الأدب الذى يجلفيه الكثيرون ، فإن المدعوين إلى الطعام يتخلفون بعده ، بل إنهم ليتخلفون على المائدة ويطول بهم الحديث ، وأهل البيت الذين يحتفظون ببقية من أمر الإسلام بالاحتجاب متأذون محتسبون والأضياف ماضون فى حديثهم وفى سمرهم لا يشعرون وفى الأدب الإسلامى غناء وكفاء لكل حالة لو كنا نأخذ بهذا الأدب الإلهى القويم .

قال القاسمى : « ﴿ وَلَٰكِنْ ﴾ استدراك من النهى عن الدخول مع الإذن المطلق الذى هو الدعوة بتعليم أدب آخر ، وإفادة شرط مهم ، وهو الإشارة إلى أن للدعوة حينا ووقتا يجب أن يراعى زمنه ، وهذا المنهى عنه لم يزل يرتكبه ثقلاء القرويين ، ومن شاكلهم من غلظاء المدنيين الذين لم يتأدبوا بآداب الكتاب الكريم والسنة المطهرة ، وهو أنهم إذا دعوا لتناول طعام يتعجلون المجيء قبل وقته بساعات ، مما يغم نفس الداعى وأهله ، ويذهب لهم جانبا من عزيز وقتهم عبثا إلا فى سماع حديثهم البارد ، وخدمتهم المستكرهة .. فعلى ما ذكرناه يكون فى الآية فائدة جميلة وحكم مهم ، وهو حظر المجيء قبل الوقت المقدر » .

ونلحظ أمر الله بتقواه ؛ لأنه المطلع على السد والعلن ، فمراقبة الله فى كل أمر ، واستحضار تلك المراقبة يمنع الإنسان من الوقوع فى الإثم .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويا :

١ ـ الالتزام بالآداب الإسلامية فى دخول البيوت .

٢ ـ الحرص على وقت المسلم وعدم تضييع أوقات الآخرين .

٣ ـ الالتزام بتجنيب مواضع الريبة والشك .

٤ ـ استحضار مراقبة الله فى كل أموره .

الجزء الثاني والعشرون — سورة الأحزاب

لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِي ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾

٤٢٦

معانى الكلمات :

لا جناح : إثم .

لعنهم الله : طردهم .

بغير ما اكتسبوا : بغير جناية .

بهتانا : افتراء .

إثما مبينا : ذنبا ظاهراً .

يدنين : يرخين .

المرجفون فى المدينة : الذين ينشرون الشائعات الكاذبة .

لنغرينك : لنسلطنك .

أينما ثقفوا : أى مكان وجدوا .

الذين خلوا : الأمم الماضية .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يعلم المسلم فرضية الحجاب ، وصفاته الشرعية .

٢ ـ أن يشعر المسلم بعظمة التشريعات الإسلامية فى شأن الأسرة والمرأة .

٣ ـ أن يطبق المسلم تشريعات الإسلام على أهل بيته .

المحتوى التربوى :

يمضى السياق القرآنى فى ذكر محارم المرأة ، وهناك آية أعم ذكرت محارم المرأة فى سورة النور ، ويقرن ذكر محارم المرأة بتقوى الله ، والإيحاء بالتقوى ، ومراقبة الله يُطرد فى مثل هذه المواضع ؛ لأن التقوى هى الضمان الأول والأخير، وهى الرقيب اليقظ الساهر على القلوب .

ويستمر السياق فى تحذير الذين يؤذون النبىّ ﷺ فى نفسه أو أهله ، وفى تفظيع الفعلة التى يقدمون عليها ، وذلك عن طريقين : الطريق الأولى : تمجيد رسول الله ﷺ وبيان مكانته عند ربه وفى الملأ الأعلى ، والطريق الثانية تقرير أن إيذاء لله سبحانه ، وجزاؤه عند الله الطرد من رحمته فى الدنيا والآخرة .

يقول صاحب الظلال : « وصلاة الله على النبى ذكره بالثناء فى الملأ الأعلى ، وصلاة ملائكته دعاؤهم له عند الله سبحانه وتعالى ، ويا لها من مرتبة سنية حيث تردد جنبات الوجود ثناء الله على نبيه ويشرق به الكون كله وتتجاوب به أرجاؤه ، ويثبت فى كيانه الوجود ذلك الثناء الأزلى القديم الأبدى الباقى وما من نعمة ولا تكريم بعد هذه النعمة وهذا التكريم وأين تذهب صلاة البشر وتسليمهم بعد صلاة الله العلى وتسليمه ، وصلاة الملائكة فى الملأ الأعلى وتسليمهم ، إنما يشاء الله تشريف المؤمنين بأن يقرن صلاتهم إلى صلاته ، وتسليمهم إلى تسليمه وأن يصلهم عن هذا الطريق بالأفق العلوى الكريم الأزلى القديم » .

فى ظل هذا الاحتفاء والتمجيد يبدو إيذاء الناس للنبى ﷺ بشعا شنيعاً ملعونا قبيحاً ، ويزيد بشاعة وشناعة أنه إيذاء لله من عبيده ومخالفيه .

ويتوسع التحذير الإلهى بالتحذير من إيذاء المؤمنين والمؤمنات ؛ ذلك لأن ايذاء المؤمنين إيذاء لرسول الله ، يقول رسول الله ﷺ : « الله الله فى أصحابى ، لا تتخذوهم غرضاً بعدى ، فمن أحبهم فبحبى أحبهم ، ومن أبغضهم فبغضى أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذانى ، ومن آذانى فقد آذى الله ومن آذى الله يوشك أن يأخذه » .

يقول ابن كثير فى تفسير قوله تعالى : « ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾: هذا هو البهت الكبير ، أن يحكى أو ينقل من المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه على سبيل العيب والتنقيص لهم ، ومن أكثر ممن يدخل فى هذا الوعيد الكفرة بالله ورسوله ، ثم الرافضة الذين ينتقصون الصحابة .

وقد روى ابن أبى حاتم عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « أى الربا أربى عند الله ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « أربى الربا عند الله استحلال عرض امرئ مسلم » ، ثم قرأ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾.

ثم تنتقل الآيات لأمر آخر وهو فرض الحجاب وهو الأمر بارتداء الجلباب ، وقد اختلفت آراء المفسرين فى الجلباب وقد سارت الأنصار عقب نزول الآية فاختمرن بما تيسر لهن من الأُزُر ، وذلك لقوة الإيمان التى توجه العبد لطاعة الله عز وجل وهى قوة محركة لنفس المؤمن .

ثم تأتى الآيات وتحذر المنافقين من الكيد للمؤمنين وكذلك تحذير الذين يثيرون الشائعات فى صفوف الجماعة المسلمة ، وفى قوله تعالى : ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ .

يقول صاحب الأساس : « أعطتنا هذه الآيات مدى واسعاً فى تعزير هذه الأنواع من الناس ، ومن ثم فإننا نحب أن نسجل الملاحظات التالية :

أ ـ إن الرسول ﷺ لم يلجأ إلى قتل المنافقين مع استحقاقهم ذلك ، حتى لا يقال إن محمداً يقتل أصحابه .

ب ـ إن الرسول ﷺ بسياسته للمنافقين ، وبحسن معاملته لهم ، وتوجيهه استطاع أن ينقذ الكثيرين منهم من النفاق ويكفى أن نعرف أنه يوم أحد انفصل عن الجيش الإسلامى مع رأس النفاق عبد الله بن أبى أكثر من ثلاثمائة ، بينما أخبرنا حذيفة أن الذين كتب عليهم النفاق ، وليس لهم عنه منكص آحاد » .

إن التعامل مع المنافقين يترك أمره للقيادة الراشدة خاصة أنه يختلف حسب حال الجماعة المسلمة ، فهم ـ أى ـ المنافقون لا يظهرون حين تكون الدعوة مستضعفة ، أما فى حال قوة الدولة المسلمة فهم يظهرون وهم يكيدون المؤمنين .

يقول صاحب الأساس : « قد يقول قائل هذه الآيات خاصة برسول الله ﷺ وله وحده حق الأخذ بها أقول : إن قوله تعالى : ﴿ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴾ أخرج المسألة عن كونها خصوصية من خصوصيات رسول الله ﷺ ، صحيح أن النفاق غيب ، ولكن مواصفاته معروفة لنا » .

وفى النهاية يأتى تهديد المنافقين ومرضى القلوب والمرجفين الذين ينشرون الشائعات المزلزلة فى صفوف الجماعة المسلمة .. تهديدهم القوى الحاسم بأنهم إذا لم يرتدعوا عما يأتونه من هذا كله وينتهوا عن إيذاء المؤمنين والمؤمنات والجماعة المسلمة كلها أن يسلط الله عليهم نبيه كما سلطه على اليهود من قبل ، فيظهر منهم جو المدينة ويطاردهم من الأرض ويبيح دمهم فحيثما وجدوا أخذوا وقتلوا كما جرت سنة الله فيمن قبلهم من اليهود على يد النبى ﷺ وغير اليهود من المفسدين فى الأرض فى القرون الخالية .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الإكثار من الصلاة على رسول الله ﷺ .

٢ ـ استشعار فضل صحابة رسول الله ﷺ .

٣ ـ تطبيق الحجاب على نساء المؤمنين .

الجزء الثانى والعشرون — سورة الأحزاب

يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله وما يدريك
لعل الساعة تكون قريبا ﴿٦٣﴾ إن الله لعن الكافرين وأعد
لهم سعيرا ﴿٦٤﴾ خالدين فيها أبدا لا يجدون وليا ولا نصيرا
﴿٦٥﴾ يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله
وأطعنا الرسولا ﴿٦٦﴾ وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا
فأضلونا السبيلا ﴿٦٧﴾ ربنا آتهم ضعفين من العذاب
والعنهم لعنا كبيرا ﴿٦٨﴾ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين
آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها ﴿٦٩﴾
يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا ﴿٧٠﴾ يصلح
لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله
فقد فاز فوزا عظيما ﴿٧١﴾ إنا عرضنا الأمانة على السماوات
والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها
الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ﴿٧٢﴾ ليعذب الله المنافقين
والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله
على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيما ﴿٧٣﴾

٤٢٧

معانى الكلمات :

سعيراً : ناراً موقدة .

وليا : حافظاً .

آتهم ضعفين : عذبهم عذابين .

وجيها : صاحب مكانة عالية .

أبين : امتنعن .

أشفقن : خفن من الخيانة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يعلم عواقب تقليد الكافرين والمنافقين .

٢ ـ أن يشعر المسلم بقبح المعصية وسوء عاقبتها .

٣ ـ أن يجتهد المؤمن فى عبادته وطاعاته لربه اقتداء بالمؤمنين .

المحتوى التربوى :

تبدأ الآيات بإيراد تساؤل الناس عن الساعة ، واستعجالهم بها ، ويحمل هذا الاستعجال معنى الشك فيها ، أو التكذيب بها ، والساعة غيب قد اختص به الله ـ سبحانه ـ ولم يشأ أن يطلع عليه أحدًا من خلقه جميعًا بما فيهم الرسل والملائكة المقربون .

ويشير صاحب **الظلال** لحكمة إخفاء موعد الساعة بقوله : « قدر الله هذا الحكمة يعلمها ، نلمح طرفاً منها ، فى ترك الناس على حذر من أمرها ، وفى توقع دائم لها ، وفى استعداد مستمر لفجأتها ذلك لمن أراد الله له الخير ، وأودع قلبه التقوى ، فأما الذين يغفلون عن الساعة ، ولا يعيشون فى كل لحظة على أهبة للقائها ، فأولئك الذين يختانون أنفسهم ، ولا يقونها من النار ،

وقد بين لهم وحذرهم وأنذرهم ، وجعل الساعة غيباً مجهولاً متوقعاً فى أى لحظة من لحظات الليل والنهار » .

ثم يعرض النسق القرآنى صورة للكفار يوم القيامة وهم يعذبون فى ذلك اليوم الذى يستعجلون مقدمه ، ويعرض فيه ندمهم وحسرتهم وغضب الله عليهم ، وتبرؤ الأتباع من متبوعيهم ، وهم كما **يقول الإمام الشوكانى** : « المقصود هم الرؤساء والقادة الذين كانوا يمتثلون أمرهم فى الدنيا ، ويقتدون بهم ، وفى هذا زجر عن التقليد الشديد ، وكم فى الكتاب العزيز من التنبيه على هذا، والتحذير منه والتنفير عنه ، ولكن لمن يفهم معنى كلام الله ويقتدى به ، وينصف من نفسه ...

فى قوله تعالى : ﴿ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ ﴾ **يقول الإمام الفخر الرازى** : لما بين أنه لا شفيع لهم يدفع عنهم العذاب بين أن بعض أعضائهم أيضا لا يدفع العذاب عن البعض بخلاف عذاب الدنيا . فإن الإنسان يدفع عن وجهه الضربة اتقاء بيده ، فإن من يقصد رأسه ووجهه تجده يجعل يده جنة أو يطأطئ رأسه كى لا يصيب وجهه ، وفى الآخرة ﴿ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ ﴾ فما ظنك بسائر أعضائهم التى تجعل جنة للوجه ووقاية لهم ؟ !!.

ثم تنقل الآيات بخطاب المؤمنين وألا يكونوا كالذين آذوا نبى الله موسى عليه السلام ؛ لأن الله حافظ دينه ونبيه من الافتراءات فقد برأ الله عز وجل موسى عليه السلام وشرفَّه فلا يبعد أن يشرف نبيه محمداً ، وهو أكرم الخلق على الله ـ عز وجل .

ويقول صاحب الأساس : « إنه لا أضر على العمل الإسلامى من إيذاء القيادة الإسلامية ؛ لأن أى عمل عام يكتب له نجاح فى العادة بقدر توفر الثقة فى قياداته ، وفى العادة فإن الثقة لا تنتقل إلى الأمة إلا من خلال الصف الإسلامى، فبقدر ما تحسن القيادات العمل ، وبقدر ما تتوفر الثقة بالقيادات ، فإن الأهداف تكون قابلة للتحقيق ، ومن ثم فإن تحطيم القيادات الإسلامية كارثة محققة ، إلا إذا كانت هذه القيادات غير رشيدة أو غير صالحة » .

وعلى هذا فإن المسلم يجب أن يحتاط فى كل كلمة تمس الثقة بين قيادة المسلمين وقاعدتهم وعليه أن يعطى هذا الموضوع أهمية أكبر من أهمية موضوع الغيبة العادية ، إن الغيبة العادية لها إثمها الكبير عند الله حتى إنه : « لا يدخل الجنة قتات » فكيف إذا كان فى هذه الغيبة تدمير لكيان العمل الإسلامى » .

إن عملية البناء عملية صعبة ، وعملية التهديم سهلة ، وإن أخطر ما تصادفه الجماعات أن يتوجه أفرادها إلى التهديم ، فهذا أسهل شىء وأبشعه .

وتستمر الآيات فى خطاب المؤمنين لتسديد القول وإحكامه ؛ ولأن الله لا يظلم الناس شيئاً، فيجازيهم بتوجيههم إلى الخير والسداد فى كل أمورهم ، وغفران ذنوبهم ، وهذا كما **يقول صاحب الظلال** : « والاستقامة على نهج الله مريحة مطمئنة ، والاهتداء إلى الطريق المستقيم الواضح الواصل سعادة بذاته ، ولو لم يكن وراءه جزاء سواه ، وليس الذى يسير فى الطريق الممهود المنير ، وكل من حوله يتجاوب كالذى يسير على الطريق المقلقل المظلم ، فطاعة الله ورسوله تحمل جزاءها فى ذاتها ، وهى الفوز العظيم قبل يوم الحساب وقبل الفوز بالنعيم ، أما نعيم الآخرة فهو فضل زائد على جزاء الطاعة ، فضل من كرم الله وفيضه بلا مقابل ، والله يرزق من يشاء بغير حساب » .

قال أبو السعود : « لما بين عظم شأن طاعة الله ورسوله ببيان مآل الخارجين عنها من العذاب الأليم ، ومثال المراعين لها من الفوز العظيم عقب ذلك ببيان عظم شأن ما يوجبها من التكاليف الشرعية وصعوبة أمرها .. وعبر عنها بـ ﴿ ٱلْأَمَانَةَ ﴾ تنبيها على أنها حقوق مرعية أودعها الله تعالى المكلفين ، وائتمنهم عليها وأوجب عليهم تلقيها بحسن الطاعة والانقياد ، وأمرهم بمراعاتها والمحافظة عليها وأدائها من غير إخلال بشىء من حقوقها » .

ثم تمضى الآيات لبيان فضل الله على الإنسان بالإشارة لضعفه ، وإلى ضخامة الأمانة الملقاة على عاتقه ، لكنه تكريم من الله عز وجل ، فليعرف الإنسان مناط تكريمه عند الله ، ولينهض بالأمانة التى اختارها ، والتى عرضت على السموات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها ، وأشفقن منها .

ثم ختمت السورة ببيان أن الجزاء من جنس العمل كما **يوضح صاحب الظلال**:« فاختصاص الإنسان بحمل الأمانة، وأخذه على عاتقه أن يعرف نفسه، ويهتدى بنفسه، ويعمل بنفسه، ويصل بنفسه؛ليحتمل عاقبة اختياره،وليكون جزاؤه من عمله، وليحق العذاب على المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الحذر من المنحرفين والمجرمين والفاسقين .

٢ ـ اتخاذ المؤمنين الصالحين القدوة الحسنة .

٣ ـ عدم ترويج الشائعات التى ترمى الحطّ من القيادة المسلمة .

سورة سبأ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وله الحمد
فى الآخرة وهو الحكيم الخبير ﴿١﴾ يعلم ما يلج فى الأرض
وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو
الرحيم الغفور ﴿٢﴾ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة
قل بلى وربى لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال
ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك
ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ﴿٣﴾ ليجزى الذين
ءامنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق
كريم ﴿٤﴾ والذين سعو فى ءاياتنا معاجزين أولئك
لهم عذاب من رجز أليم ﴿٥﴾ ويرى الذين أوتوا العلم
الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدى إلى صراط
العزيز الحميد ﴿٦﴾ وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل
ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد ﴿٧﴾

سورة سبأ

معانى الكلمات :

ما يلج : ما يدخل .

ما يعرج : ما يصعد .

لا يعزب : لا يغيب .

مثقال ذرة : مقدار ذرة .

معاجزين : مسابقين ظانين أنهم يفوتوننا .

فرقتم : قطعت أجسادكم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يعرف المسلم طريق الوصول لمعرفة الله وهو القرآن وتعاليمه . والتأمل فى قدرة الله .

٢ ـ أن يشعر المسلم بسمو القرآن .

٣ ـ أن يطبق المسلم تشريعات الله وأحكام الكتاب الكريم فى حياته .

المحتوى التربوى :

سورة سبأ سورة مكية آياتها أربع وخمسون ، وهى كمثل السورة المكية تناقش قضية العقيدة والتركيز الأكبر على قضية البعث والجزاء ، وإلى جوارها تصحيح بعض القيم الأساسية المتعلقة بموضوعات العقيدة الرئيسية وبيان أن الإيمان والعمل الصالح ـ لا الأموال ولا الأولاد ـ هما قوام الحكم والجزاء عند الله وأنه ما من قوة تعصم من بطش الله وما من شفاعة عنده إلا بإذنه. وسياق السورة مع تلاحم أجزائها يجرى على خمسة أشواط ، وهو حمد الله وذكر نعمه ، ثم ذكر قصة آل داود الشاكرين ثم تحدى المشركين ، والشوطان الرابع والخامس يعالجان معًا قضية الوحى والرسالة .

تبدأ السورة بتقرير الحمد لله عز وجل المالك لما فى السموات وما فى الأرض ، بيده أمر الدنيا وأمر الآخرة ، وهذه المقدمة فى الحمد كما **يقول صاحب الأساس** : « أخبرنا الله عز وجل فى مقدمة السورة عن استحقاقه للحمد ؛ لأنه المالك والعليم والحكيم والخبير والرحيم والغفور ، فموضوع وجوده عز وجل بديهية وموضوع حمده وشكره بديهية ، وهذه المقدمة التى تأتى بين يدى مناقشة أقوال الكافرين تشعر أن كفر الكافرين وعدم شكر الجاحدين فى غير محله هذا بالنسبة لمحل المقدمة فى سياق السورة فمقدمة السورة تبين ما يستحقه الله عز وجل لكماله وإنعامه ، فالصلة بين محور السورة والمقدمة واضحة والصلة بين مقدمة السورة ومقاطعها كذلك واضحة » .

ثم تكشف الآيات بعد ذلك من صحائف علم الله ، مجالها الأرض والسماء ، وكما يقول **صاحب الظلال** : « ويقف الإنسان أمام هذه الصفحة المعروضة فى كلمات قليلة ، فإذا هو أمام حشد هائل عجيب من الأشياء ، والحركات ، والأحجام ، الأشكال ، والصور ، والمعانى ، والهيئات ، لا يصمد لها الخيال .

إن آية واحدة فى الكون لو تأملها الإنسان لآمن عن يقين بالله عز وجل ، ولآمن بأن هذا القرآن ليس من قول البشر ، لأن هذا الخاطر الكونى لا يخطر بطبيعته على قلب بشر » .

إن الآيتين الأوليين ضمان للمؤمنين ، وتسلية لهم ، وتسرية لقلوبهم ونفوسهم التى ترى العناد والصلف . حينما يذكرها الله بأن المقادير بيده ، وأن الكون وما فيه من خلق الله .

ثم تعرض الآيات نموذجا للكافرين الذين ينكرون قيام الساعة ، **ويعرض صاحب الظلال** سبب ذلك : « وإنكار الذين كفروا للآخرة ناشئ من عدم إدراكهم لحكمة الله وتقديره ، فحكمة الله لا تترك الناس سدى ، يحسن منهم من يحسن ، ويسيء منهم من يسيء ، ثم لا يلقى المحسن جزاء إحسانه ، ولا يلقى المسيء جزاء إساءته وقد أخبر الله على لسان رسله ، أن يستبقى الجزاء كله أو بعضه للآخرة ، فكل من يدرك حكمة الله فى خلقه يدرك أن الآخرة ضرورية لتحقيق وعد الله وخبره ، ولكن الذين كفروا محجوبون عن تلك الحكمة .

بمناسبة قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ **قال ابن كثير** : « هذه إحدى الآيات الثلاث التى لا رابع لهن مما أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد لما أنكره من أنكره من أهل الكفر والعناد، فإحداهن فى سورة يونس عليه السلام وهى قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ والثانية هذه ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ والثالثة فى سورة

التغابن وهى قوله تعالى : « ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴾ » .

وكان الرد على المنكرين ليوم الساعة أنه المدبر لهذا الكون الذى لا يغيب عنه أمر مثقال ذرة ولا أصغر ولا أكبر ، وهذا يبعث على التأمل فى تلك الكواكب السيارة ، وحركة الكون الدائبة التى لا تتوقف ، والتى تسير بتناغم وتناسق رغم ضخامة عددها .

ثم تمضى الآيات لذكر جزاء المؤمنين وعقاب الجاحدين المنكرين ، فذكر الجزاء داع للعمل وباعث عليه ، وثواب لمن قام بفريضة التفكر ، أما من أعرض عن آيات ربه وند عنها وحاول إبطالها فسيلقى جزاء صده وإعراضه .

وتصل الآيات إلى اختصاص أولى العلم بالنظر الصحيح للقرآن ﴿ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ .

وما هو هذا الصراط ؟ ، **يقول صاحب الظلال** : « هو المنهج الذى أراده للوجود ، واختاره للبشر لينسق خطاهم مع خطا هذا الكون الذى يعيشون فيه » ، هذا المنهج « يعيد للمؤمن تصوره للوجود، ويصحح منهج التفكير، ويقيمه على أسس سليمة متفقة مع الإيقاعات الكونية على الفطرة البشرية ، هذا المنهج يعد الفرد للتجاوب والتناسق مع الجماعة البشرية ».

إن القرآن هو الدليل إلى هذا الصراط ، وإنك لتكون حسن الطالع ، وأنت تقوم برحلة فى طريق لو حصلت على دليل من وضع المهندس الذى أنشأ هذا الطريق . فكيف بمنشئ الطريق ومنشئ السالك فى الطريق .

ويأتى الإخبار من الله ـ عز وجل ـ عن استبعاد الكفرة الملحدين قيام الساعة ، واستهزائهم بالرسول ﷺ فى إخباره بذلك .. وهو فى هذا الإخبار لا يخلو أمره عن قسمين : إما أن يكون قد تعمّد الافتراء على الله تعالى أنه قد أوحى إليه ذلك ، أو أنه لم يتعمد لكن لُبّس عليه كما يلبس على المعتوه والمجنون .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الإكثار من ذكر الله عز وجل بحمده والشكر له .

٢ ـ الاستمرار فى التفكر والتأمل فى خلق الله ـ عز وجل .

٣ ـ أن الجزاء من جنس العمل .

٤ ـ القرآن الكريم معجزة بلفظه ومعناه وتشريعاته وأحكامه ، وأنه يجب تطبيقه فى حياة المؤمن كلها .

أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ
فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ
وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ
ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ
يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ
سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ
وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ
رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾
يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ
وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ
ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ
إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ
أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾

٤٢٩

معانى الكلمات

نخسف بهم الأرض : نغيبهم . **كسفاً** : قطعاً . **أوبى** : سبحى . **سابغات** : دروعاً . **قدر فى السرد** : دبر التسبح. **الغدو** : من الصبح إلى الظهر . **الرواح** : من الظهر للغروب . **القطر** : عين النحاس .

يزغ : ينصرف أو ينحرف . **محاريب** : قصور حصينة عالية . **جفان** : جمع جفنة وهو إناء فخارى . **الجواب** : الأحواض الكبيرة . **قدور** : وهو إناء كبير لطهو الطعام . **راسيات** : ثوابت .

منسأته : عصاه .

خرّ : سقط على الأرض .

العذاب المهين : المقصود الأعمال الشاقة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يعلم المؤمن أنواع الشكر لله ـ عز وجل .

٢ ـ أن يشعر المسلم بنعم الله ـ عز وجل .

٣ ـ أن يكثر المسلم من الشكر لله قولاً وعملاً .

المحتوى التربوى :

تنقل الآيات أكاذيب المنكرين للبعث وللنشور ، ويمضى هؤلاء المكذبون فى العجب والتعجب والاستنكار والتشهير ، ولو كانوا تأملوا وتدبروا فى الكون ما جحدوا ، ومن ثم يعقب تشهيرهم تعقيباً شديداً مرهوباً بأنهم فى عذاب وضلال شديدين ، وهذه حقيقة يشير إليها **صاحب الظلال** : « فالذى يعيش بلا عقيدة فى الآخرة يعيش فى عذاب نفس ، لا أمل ولا رجاء فى نصفه ، ولا عدل ولا جزاء ولا عوض عما يلقاه فى الحياة ، وفى الحياة مواقف وابتلاءات لا يقوى الإنسان على مواجهتها إلا وفى نفسه رجاء الآخرة ، وثوابها للمحسن وعقابها للمسىء، وإلا ابتغاء وجه الله والتطلع إلى رضاه فى ذلك اليوم الآخر، الذى لا تضيع فيه صغيرة ولا كبيرة، وإن تكن مثقال ذرة ».

إن الاعتقاد بالآخرة رحمة ونعمة يهبها الله لمن يستحقها من عباده بإخلاص القلب ، وتحرى الحلال ، والرغبة فى الهدى .

ثم تمضى الآيات لتوضيح قدرة الله على هؤلاء المكذبين ، وأنهم لا يملكون شيئاً لأنفسهم إذا مسهم الله بعذاب من عنده من خسف الأرض بهم،أو نزول نيازك وشهب وصواعق من السماء ، وهذا أمر حدث بأمم خلت من قبل فليعتبروا وليتوبوا إلى الله .

وتنتقل الآيات من مواقف تكذيب الكافرين إلى عرض صورة الشكر لله عند آل داود ، والاستغراق فى العبادة ، نلمح فى هذا النموذج صورة الإقرار بفضل الله ، والإخلاص فى العبادة لله عز وجل ، ومن فضل الله على داود أنه قد بلغ من الشفافية والتجرد فى تسابيحه أن انزاحت الحجب بينه وبين الكائنات ، فاتصلت حقيقتها بحقيقته فى تسبيح بارئها وبارئه ورجعت معه الجبال والطير إذ لم يعد بين وجوده ووجودها فاصل ولا حاجز حين اتصلت كلها بالله صلة واحدة مباشرة تنزاح معها الفوارق بين نوع من خلق الله ونوع ، وبين كائن من خلق الله وكائن، وترتد كلها إلى حقيقتها اللدنية الواحدة التى كانت تغشى الفواصل والفوارق فإذا هى تتجاوب فى تسبيحها للخالق وتتلاقى فى نغمة واحدة وهى درجة من الإشراق والصفاء والتجرد لا يصل إليها أحد إلا بفضل الله ـ عز وجل .

قال صاحب الظلال : « حين انطلق صوت داود عليه السلام يرتل مزاميره ويمجد خالقه ، رجّعت معه الجبال والطير ، وتجاوب الكون بتلك الترانيم السارية فى كيانه الواحد المتجهة إلى بارئه الواحد ، وإنها للحظات عجيبة لا يتذوقها إلا من عنده بها خبر ، ومن جرب نوعها ولو فى لحظة من حياته » .

ثم طرف آخر من فضل الله على نبى الله داود عليه السلام وهو تسخير الحديد له بإلانته له ، واستخدامُ هذا الحديد دروعاً للجسم لتقيه ، فألهم الله داود أن يصنع الدروع رقائق متداخلة متموجة لينة يسهل تشكيلها وتحريكها .

ثم يأتى إنعام الله لسليمان عليه السلام من تسخير الجن والرياح ، وإذابة النحاس ، وتسخير الجن لنبى الله سليمان عليه السلام، ويذكر السياق أن من عصى منهم ناله عذاب الله شديد ، ويأتى التعقيب لبيان خضوع الجن لله ، وكان بعض المشركين يعبدهم من دون الله ، وهم مثلهم معرضون للعقاب عندما يزيغون عن أمر الله .

وهم مسخرون لسليمان عليه السلام يعملون له ما أراد من محاريب وهى أماكن العبادة ، والتماثيل الصور من نحاس وخشب وغيره ، والجوابى جمع جابية ، وهى : الحوض الذى يجبى فيه الماء ،

وقد كانت الجن تُصنع لسليمان جفانا كبيرة للطعام تشبه الجوابى ، وتصنع له قدورًا ضخمة للطبخ راسية لضخامتها .

وهذه كلها نماذج مما سخر الله الجن لسليمان لتقوم له به حيث شاء بإذن الله ، وكلها أمور خارقة لا سبيل إلى تصورها أو تعليلها إلا بأنها خارقة من صنع الله ، وهذا هو تفسيرها الواضح الوحيد .

ويختم هذا بتوجيه الخطاب إلى آل داود بأن يعلموا شكرَ الله ، لا للتباهى والتعالى بما سخره الله ، والعمل الصالح شكر لله كبير .

بمناسبة قوله تعالى : ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ﴾ ، **قال ابن كثير** : « فيه دلالة على أن الشكر يكون بالفعل كما يكون بالقول والبينة كما قال الشاعر :

أفادتكم النعماء منى ثلاثة　　　يدى ولسانى والضمير المحجبا

قال أبو عبد الرحمن السلمى : الصلاة شكر ، والصيام شكر ، وكل خير تعمله لله عز وجل شكر ، وأفضل الشكر : الحمد » .

وفى قوله تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ يقول **صاحب الظلال** : « هو تعقيب قرآنى يكشف عن جانب من عظمة فضل الله ، حتى ليقل القادرون على شكرها ، ويكشف من جانب آخر عن تقصير البشر فى شكر نعمة الله وفضله ..وهم مهما بالغوا فى الشكر قاصرون عن الوفاء، فكيف إذا قصروا وغفلوا عن الشكر من الأساس » .

فى قصة نبى الله سليمان خطاب ممن كانوا يعبدون الجن فى الجزيرة العربية بأنهم لا يعلمون الغيب ، بل هم سحرة لعبد من عباد الله ، وهؤلاء هم محجوبون عن الغيب القريب ، وبعض الناس يطلب عندهم أسرار الغيب البعيد ؟ !

وماذا يملك المخلوق الإنسانى المحدود والطاقة من الشكر على آلاء الله وهى غير محدودة؟.. وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها .. وهذه النعم تغمر الإنسان من فوقه ومن تحت قدميه وعن أيمانه وعن شمائلهم وتكمن فيه هو ذاته وتفيض منه وهو ذاته إحدى هذه الآلاء الضخام .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ وجوب شكر الله عز وجل بكل أنواعه ، بالقول والفعل .

٢ ـ الحرص على قوة الدولة الإسلامية والاستفادة بطاقات أبنائها .

٣ ـ التسليم بقضاء الله وقدره .

لقد كان لسبإ في مسكنهم ءاية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ﴿١٥﴾ فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلنهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل ﴿١٦﴾ ذلك جزينهم بما كفروا وهل نجزى إلا الكفور ﴿١٧﴾ وجعلنا بينهم وبين القرى التى بركنا فيها قرى ظهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياما ءامنين ﴿١٨﴾ فقالوا ربنا بعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلنهم أحاديث ومزقنهم كل ممزق إن فى ذلك لأيت لكل صبار شكور ﴿١٩﴾ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين ﴿٢٠﴾ وما كان له عليهم من سلطن إلا لنعلم من يؤمن بالأخرة ممن هو منها فى شك وربك على كل شىء حفيظ ﴿٢١﴾ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموت ولا فى الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ﴿٢٢﴾

٤٣٠

معانى الكلمات :

سيل العرم : سيل السد أو المطر الشديد .

أكل خمط : ثمر مرّ حامض .

أثل : شجر لا ثمر له .

سدر : شجر النبق .

قدرنا فيها السير : حددنا فيها المسافة .

باعد بين أسفارنا : اجعل المسافة بين القرى طويلة .

جعلناهم أحاديث : جعلهم على ألسنة الناس .

مزقناهم : فرقناهم .

ظهير : معين .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يعلم المؤمن جانباً من قصة أهل سبأ .

٢ ـ أن يشعر المؤمن بسوء اتباع خطوات الشيطان .

٣ ـ أن يحذر المسلم من غواية الشيطان ، وأن يداوم على الشكر لله .

المحتوى التربوى :

بعد ذكر قصة آل داود وما تمثله من الشكر لله عز وجل قد رأينا أن قصة آل داود تعرض صفحة الإيمان بالله والشكر على أفضاله وحسن التصرف فى نعمائه ، وتأتى صفحة مقابلة وهى قصة سبأ، وما تمثله من الجحود والنكران ، وقد مضى فى سورة النمل ما كان بين سليمان وبين ملكتهم من قصص وهنا يجيء نبؤهم بعد قصة سليمان مما يوحى أن الأحداث التى تتضمنها وقعت بعد ما كان بينها وبين سليمان من نبى فقد نعمت سبأ بالجنان من اليمين والشمال ، وهذه آيات تذكر بالوهاب ، ولكن سبأ جحدوا نعمة ربهم وأعرضوا عن شكر الله ، وعن العمل الصالح ، فسلبت منهم هذه النعم جزاء صدهم ، وضيق الله عليهم فى الرزق ، وبدلهم من

الرفاهية والنعماء خشونة وشدة ، ولكنه لم يمزقهم ولم يفرقهم ، وكان العمران ما يزال متصلا بينهم وبين القرى المباركة : مكة فى الجزيرة ، وبيت المقدس فى الشام ، فقد كانت اليمن ما تزال عامرة فى شمال بلاد سبأ ، ومتصلة بالقرى المباركة ، والطريق بينهما عامر مطروق ، مسلوك مأمون .

وقيل : كان المسافر يخرج من قرية فيدخل الأخرى قبل دخول الظلام ، فكان السفر فيها محدود المسافات ، مأمونا على المسافرين ، كما كانت الراحة موقورة لتقارب المنازل ، وتقارب المحطات فى الطريق .

وغلبت الشقوة على سبأ ، فلم ينفعهم النذير الأول ، ولم يوجههم إلى التضرع إلى الله ، لعله يرد عليهم ما ذهب من الرفاء ، بل دعوا دعوة الحمق والجهل ، فطلبوا الأسفار البعيدة المدى ، التى لا تقع إلا مرات متباعدة على مدار العام ، لا تلك السفرات القصيرة المتداخلة المنازل ، التى لا تشبع لذة الرحلات ، وكان هذا من بطر القلب وظلم النفس ، واستجيبت دعوتهم ، ولكن كما ينبغى أن تستجاب دعوة البطر ، فشردوا ومزقوا وتفرقوا ، وعادوا أحاديث يرويها الرواة بعد أن كانوا أمة ذات وجود فى الحياة .

إن الآيات تظهر فضل الشكر وسوء عاقبة البطر والنكران ، وهو ما يجب أن يعيه المسلم حتى تتنزل رحمات الله عز وجل عليه إن شكر ، أما البطر فعواقبه وخيمة وهو سلب نعم الله منه .

ذكر ابن كثير عن ابن خيرة ـ كان من أصحاب على ﷺ قال : جزاء المعصية : الوهن فى العبادة ، والضيق فى المعيشة ، والتعسر فى اللذة ، قيل : وما التعسر فى اللذة ؟ قال : لا يصادف لذة حلالا إلا جاءه من ينغصه إياها .

ثم تتابع الآيات ذكر سبب غوايتهم وهو اتباعهم طريق الشيطان وغوايته لهم ، فالشيطان يغوى المؤمنين ويهوى إضلالهم ، لكن هناك فئة أو قلة مؤمنة تستعصى على الغواية ، وتثبت أنّ هنالك حقاً ثابتاً يعرفه من يطلبه ، وأن إبليس ليس له قوة على المؤمنين إنما هو تسليطه عليهم ليثبت على الحق من يثبت ، وليزيغ منهم من لا يبتغى الحق ويتحراه بلا عاصم من رقابة ولا تطلع لليوم الآخر .

ثم التعقيب القرآنى ﴿ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ وفيه رد العمل إلى الله ، والطمأنينة فى نفس المؤمن . أن الله مدبر للأمور والأحداث ، وعليمٌ بغواية إبليس ، ودفع للمؤمنين بأن إبليس ليس له سلطان قاهر على المؤمنين إلا تسليطه ليظهر المكنون فى علم الله من المصائر والنتائج ، فى

هذا المجال الواسع تتصل قصة سبأ بقصة كل قوم فى كل زمان ومكان ، ويتسع مجال النص القرآنى ومجال هذا التعقيب فلا يعود قاصراً على قصة سبأ، إنما يصلح تقريراً لحال البشر أجمعين، فهى قصة الغواية والهداية وملابساتها وأسبابها وغاياتها ونتائجها فى كل حال .

ثم يأتى النسق القرآنى بأمر للرسول بأن يخاطب المشركين مخاطبة تبكيت بأنهم لا يجدون من يغيثهم ولا ينصرهم من الآلهة المزعومة التى كانوا يدعونها ، ويرجح **صاحب الظلال** أن هذه الآلهة هى : « الملائكة الذين كانت العرب تدعوهم بنات الله ، وتزعم لهم شفاعة عند الله ، ولعلهم ممن قالوا عنهم : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾» .

ويلحظ **صاحب الأساس** علاقة بين الآيات بقوله : « إن هناك ارتباطاً بين رؤية الآية ، والشكر لله ، والإنابة إليه ، وهناك ارتباط بين الشكر لله وبين الإيمان باليوم الآخر ، فالسورة تبدأ بذكر قول للكافرين بعيد استبعادهم لليوم الآخر ، ثم ردّ عليه ، ثم جاءت قصة داود نموذجاً على الشكر ، ثم جاءت قصة سبأ نموذجاً على الكفر » .

ثم يأتى أمر من الله لرسول الله ﷺ بأن يجادل المشركين بالحكمة مفندا معتقداتهم ، وأن يطلب منهم أن يدعوا آلهتهم المزعومة التى لا تملك شيئاً فى السماء ولا فى الأرض ، وهذا كله فى مقابل الصورة التى عرضت فى أول السورة ، وهو أن الله هو المالك لما فى السموات وما فى الأرض ، وأن الله لا يغيب عنه شىء ولا سبيل لأن يدَّعوا ملكية شىء فى السموات أو فى الأرض فالمالك لشىء يتصرف فيه وفق مشيئه . فماذا يملك أولئك المزعومون من دون الله ؟ وفى أى شىء يتصرفون تصرف المالك فى هذا الكون العريض ؟ لا يملكون فى السموات والأرض مثقال ذرة ملكية خالصة ولا على سبيل المشاركة : ﴿ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ ﴾ والله سبحانه وتعالى لا يستعين بهم فى شىء فما هو فى حاجة إلى معين : ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ - الحذر من جحود نعم الله والكفر بها .

٢ - الحذر من دعاء المؤمن على نفسه حتى لا يوافق ساعة إجابة .

٣ - أن التجارة والسعى على الأرزاق مما يحبه الله ويثيب عليه .

٤ - الحذر من غواية الشيطان وضلاله .

الجزء الثاني والعشرون — سورة سبأ

وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن
قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ
﴿٢٣﴾ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ
وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل
لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ
يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ
﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ
بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾
قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ
﴿٣٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا
بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ
رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ
ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾

الحزب ٤٤

٤٣١

معانى الكلمات :

فزع عن قلوبهم : كشف الفزع والخوف عنهم .

يفتح بينكم : يحكم بينهم .

الفتاح : الحكم العدل .

موقونون : محبوسون للحساب .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يعرف المسلم أسلوب الحوار مع المشركين والعصاة .

٢ ـ أن يشعر المسلم بعظم عون الله للمؤمنين .

٣ ـ أن يجيد المسلم الرد على المعاندين والعصاة .

المحتوى التربوى :

تبدأ الآيات بتقرير الشفاعة وأنها بإذن الله عز وجل ، فالشفاعة كما يقول **صاحب الظلال** : « مرهونة بإذن الله، والله لا يأذن فى الشفاعة فى غير المؤمنين المستحقين لرحمته ، فأما الذين يشركون به فليسوا أهلا لأن يأذن بالشفاعة فيهم ، لا للملائكة ولا لغيرهم من المأذونين بالشفاعة منذ الابتداء » .

وأكبر شفيع عند الله هو رسول الله ﷺ ، وذلك فى المقام المحمود يوم الفصل قال ﷺ : « فأسجد لله تعالى فيدعنى ما شاء أن يدعنى ، ويفتح على بمحامد لا أحصيها الآن ، ثم يقال : يامحمد ارفع رأسك ، وقل يسمع ، وسله تعطه ، واشفع تشفع » .

ثم تستمر الآيات فى تذكير الناس بالله بذكر مشهد الفزع يوم القيامة ، وذكر هذا المشهد يلائم ذكر الشفاعة ، فالناس يومها يطول بهم الانتظار ، ويطول التوقع ، وتعنو الوجوه ، وتسكن الأصوات ، وتخشع القلوب فى انتظار الإذن من الله ، وتظهر عندها رحمة الله بالمؤمنين وإكرام الله لنبيه محمد ﷺ بالشفاعة للمؤمنين .

يقول صاحب الظلال : « تصدر الكلمة الرهيبة ، فتنتاب الرهبة الشافعين والمشفوعين لهم ، ويتوقف إدراكهم عن الإدارك ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ ، وكشف الفزع الذى أصابهم ، وأفاقوا من الروعة التى غمرتهم فأذهلتهم ﴿ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ﴾ يقولها بعضهم لبعض ، لعل منهم من يكون قد تماسك حتى وعى ﴿ قَالُواْ ٱلْحَقَّ ﴾ قال ربكم: الحق . الحق الكلى، الحق الأزلى، الحق اللدنى ، فكل قوله الحق ، ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ وصف فى المقام الذى يتمثل فيه العلو والكبر للإدراك من قريب » .

ثم تنتقل الآيات من ذكر مشهد الفزع يوم القيامة إلى مشهد من الأرض ، وهو سعى العباد فى الأرض ، ومنح الرزق لهم ورزق الله للعباد مسألة واقعة فى حياتهم ، رزق السماء من مطر وحرارة وضوء ونور ، ورزق الأرض من نبات وحيوان وعيون ماء وزيوت ومعادن وكنوز .

وتظهر الآيات سمو الأسلوب فى الجدال مع المشركين يقول الرسول للمشركين : إن أحدنا لابد أن يكون على هدى ، والآخر لابد أن يكون على ضلال ، ثم يدع تحديد المهتدى منهما والضال ؛ ليثير التدبر والتفكر فى هدوء لا تغشى عليه العزة بالإثم ، والرغبة فى الجدال.

فالداعية هاد ومعلم يبغى هدى المدعوين وإرشادهم لا إذلالهم وإفحامهم ، والجدال على هذا النحو أقرب إلى لمس قلوب المستكبرين المعاندين المتطاولين .

وفى قوله تعالى : ﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ، **يقول الرازى** : « أضاف الإجرام إلى النفس ، وقال فى حقهم ﴿ وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ذكر بلفظ لجميل لئلا يحصل الإغضاب المانع من الفهم ، وقوله ﴿ لَّا تُسْـَٔلُونَ ﴾ ﴿ وَلَا نُسْـَٔلُ ﴾ زيادة حث على النظر ، وذلك لأن كل أحد إذا كان مؤاخذاً بجرمه ، فإذا احترز نجا ، ولو كان البرىء يؤاخذ بالجرم لما كفى النظر » .

ثم تستمر الآيات فى ذكر ما يجب على الرسول ﷺ فى حواره مع المشركين ، وهو أن الله هو الذى يفصل بين العباد، وأن معبوداتهم لا تنفعهم شيئاً ، وذلك كله تهيئة لتوضيح مهمة رسول الله ﷺ الذى ذكرت فى الآية التالية : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . فالرسول حينما يدعوهم للخير لا يدعوهم لنفسه لا لملك ولا لسلطة بل

لتبشير المؤمنين بالخيرات إن أحسنوا ، وتحذيرهم من الكفر ؛ لأن ذلك هلاكا لهم ، فليس بين أصحاب الحق وأصحاب الباطل إلا الدعوة والبيان ، وأمرهم بعد ذلك إلى الله .

هذه الآية تقرر فردية التبعة والمسؤولية ، لكن المشركين لم يعوا ذلك بل يسألون الرسول فى عنت وعناد عن يوم القيامة ، وهذا السؤال كما **يقول صاحب الظلال** : « يوحى بجهلهم لوظيفة الرسول ، وعدم إدراكهم لحدود الرسالة ، والقرآن حريص على تجريد عقيدة التوحيد ، فما محمد إلا رسول محدد الوظيفة ، وهو قائم فى حدود وظيفته لا يتخطاها ، والله هو صاحب الأمر ، هو الذى أرسله ، وهو الذى حددّ له عمله وليس من عمله أن يتولى ـ ولا حتى أن يعلم ـ تحقيق الوعد والوعيد ذلك موكول إلى ربه وهو يعرف حدوده فلا يسأل مجرد سؤال عن شىء لم يطلعه عليه ربه ولم يكل إليه أمره وربه يكلفه أن يرد عليهم ردًا معينًا فيقوم به : ﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ » .

وتستمر الآيات فى إيراد عناد المشركين ورد المسلمين عليهم ، فالكفار يستعجلون بالوعد والوعيد ، وهو دليل على عدم إدراك هذه الحقيقة الكلية ، ومن ثم فإن أكثر الناس لا يعلمون ، وعدم العلم يقودهم إلى السؤال والاستعجال ؛ وهم محجوبون عن رذيلة حكمة الله فى الكون ، فكل ميعاد يجىء فى أجله الذى قدره الله له ، لا يستأخر لرغبة أحد ، ولا يستقدم لرجاء أحد ، وليس شىء من هذا عبثا ولا مصادفة ، فكل شىء مخلوق بقدر ، وقدر الله يرتب الأحداث والمواعيد والآجال وفق حكمته المستورة التى لا يدركها أحد من عباده إلا بقدر ما يكشف الله له والاستعجال بالوعد والوعيد دليل على عدم إدراك هذه الحقيقة الكلية ، ومن ثم فإن أكثر الناس لا يعلمون وعدم العلم يقودهم إلى السؤال والاستعجال .

ثم تنقل الآيات ذم التقليد واتباع الكافرين فى الضلال ، فالذين كفروا بالقرآن وهديه متابعة لرؤوس الكفر وصناديده يرون العذاب ماثلا أمامهم فيقولون لرؤوس الكفار : ﴿ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ ، كلمة يقولونها يوم القيامة غير خائفين، كان يمنعهم الذل والضعف والاستسلام ، وبيع الحرية التى وهبها لهم ، والكرامة التى منحها لهم .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الأساس فى الثواب والجزاء عند الله هو العمل الصالح .

٢ ـ الثقة بنصر الله للمؤمنين إذا أخلصوا العبادة لله .

٣ ـ القرآن الكريم يكرم العقل الإنسانى ويدعو للحوار الهادئ .

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ
عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ
اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ
تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ
لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا
هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣) وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ
مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٣٤)
وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥)
قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا
زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ
بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي
آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (٣٨) قُلْ
إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا
أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩)

معانى الكلمات :

صددناكم : منعناكم .

مجرمين : مصرين على الكفر .

أنداداً : شركاء .

الأغلال : القيود .

مترفوها : رؤساؤها المنعمون .

يبسط الرزق : يوسعه .

يقدر : يضيق .

زلفى : قربى .

الغرفات : الجنات .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يعلم المسلم عاقبة الركون للنعمة ، وعاقبة الترف الزائد عن الحد .

٢ ـ أن يدرك المسلم قيمة المال ووظيفته فى الحياة .

٣ ـ أن يستعمل المؤمن نعم الله فيما أحل الله .

المحتوى التربوى :

يقرر السياق ضيق الذين استكبروا بالذين استضعفوا ، فهم فى البلاء سواء ، وهؤلاء الضعفاء يريدون أن يحملوهم تبعة الإغواء الذى صار بهم إلى هذا البلاء ، وعندئذ يردون عليهم باستكبار ، ويجبهونهم بالسب الغليظ .

تسوق الآيات رد المشركين من المتبوعين على الأتباع ، ونلحظ فى ردهم كما **يقول صاحب الظلال** : « التخلى عن التبعية والإقرار بالهدى ، وقد كانوا فى الدنيا لا يقيمون وزناً للمستضعفين ولا يأخذون منهم رأيا ، ولا يعتبرون لهم وجوداً ، ولا يقبلون منهم مخالفة ولا مناقشة ، أما اليوم ـ وأمام العذاب فهم يسألونهم فى إنكار : ﴿ أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾ من ذات أنفسكم ، لا تهتدون ؛ لأنكم مجرمون .

ولو كانوا فى الدنيا لقبع المستضعفون لا ينبسون ، ولكنهم فى الآخرة حيث تسقط الهالات الكاذبة والقيم الزائفة وتتفتح العيون المغلقة ، وتظهر الحقائق المستورة ، ومن ثم لا يسكت المستضعفون ولا يخنعون ، بل يجبهون المستكبرين بمكرهم الذى لم يفتر نهارًا ولا ليلاً عن الهدى ولا يعفى هؤلاء المستضعفون من المسؤولية **يقول صاحب الظلال** : « والمستضعفون عليهم وزرهم ، فهم مسؤولون عن اتباعهم للطغاة ، لا يعفيهم أنهم كانوا مستضعفين ، لقد كرمهم الله بالإدراك والحرية ، فعطلوا الإدراك وباعوا الحرية ، ورضوا لأنفسهم أن يكونوا ذيولاً ، وقبلوا لأنفسهم أن يكونوا مستذلين فاستحقوا العذاب جميعاً ، وأصابهم الكمد والحسرة » .

إن الآيات تعيد التذكير بفردية التبعة والمسؤولية فإنه لا وساطة عند الله ولا كرامة إلا بالعمل الصالح ، وكذلك الحذر من السير فى ركاب الظالمين ، وعدم الركون إلى الظالمين حتى لا يمسنا النار .

ثم تنقل الآيات إلى التحذير من الترف ، وأن المترفين فى كل أمة هم رؤوس الظلم وصناديد الكفر ، ويفصل ذلك **صاحب الظلال بقوله** : « هى قصة معادة ، وموقف مكرور على مدار الدهور ، وهو الترف يُغلظ القلوب ، ويُفقدها الحساسية ، ويفسد الفطرة ويغشيها ، فلا ترى دلائل الهداية فتستكبر وتصر على الباطل ولا تتفتح للنور .

والمترفون تخدعهم القيم الزائفة والنعيم الزائل ، ويغرهم ماهم فيه من ثراء وقوة ، فيحسبونه مانعهم من عذاب الله، ويخالون أنه آية الرضا عنهم أو أنهم فى مكان أعلى من الحساب والجزاء» .

فالآيات تعرض أسباب الترف والصد والاستكبار وهو كثرة الأموال والأولاد ، وهذا يذكرنا بصاحب الجنتين فى سورة الكهف ﴿ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ ، وتأتى الآيات بعد ذلك لتعرض أن ميزان القيم عند الله ليس له علاقة بقبض الرزق فليس قبض الرزق دليلا على الغضب من الله ، وليس بسط الرزق دليلا على الرضا من الله بقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وهذه المسألة : مسألة بسط الرزق وقبضه يبسط القول فيها **صاحب الظلال** : « هذه مسألة يحيك منها شىء فى صدور كثيرة ، ذلك حين تتفتح الدنيا أحيانا على أهل الشر ، والباطل والفساد ، ويحرم من أعراضها أحيانا على أهل الخير والصلاح،فيحسب بعض الناس أن الله ما كان ليغدق على أحد إلا وهو عنده ذو مقام أو يشك بعض الناس فى قيمة الخير والحق والصلاح. وهم يرونها محوطة بالحرمان !

ويفصل القرآن هنا بين أعراض الحياة الدنيا والقيم التى ينظر الله إليها . ويقرر أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وأن هذه مسألة ومسألة رضاه وغضبه مسألة أخرى ولا علاقة بينهما .

وقد يضيق تالله على أهل الشر كما يضيق على أهل الخير ولكن العلل والغايات لا تكون واحدة فى جميع هذه الحالات .

لقد يغدق الله على أهل الشر استدراجاً لهم ليزدادوا سوءاً وبطراً وإفساداً ، فيتضاعف رصيدهم من الإثم والجريمة ثم يأخذهم الله فى الدنيا أو فى الآخرة وفق حكمته وتقديره بهذا الرصيد الأثيم وقد يحرمهم فيزدادوا شرًا وفسوقًا وجريمة وجزعًا وضيقًا ويأسًا من رحمة الله وينتهوا بهذا إلى مضاعفة رصيدهم من الشر والضلال .

ولقد يغدق الله على أهل الخير ؛ ليمكنهم من أعمال صالحة كثيرة ما كانوا بالغيها لو لم يبسط لهم فى الرزق ، وليشكروا نعمة الله عليهم بالقلب واللسان والفعل الجميل ، ويذخروا بهذا كله رصيدًا من الحسنات يستحقونه عند الله بصلاحهم وبما يعلمه من الخير فى قلوبهم ، وقد يحرمهم فيبلو صبرهم على الحرمان ، وثقتهم بربهم ، وينتهوا بهذا إلى مضاعفة رصيدهم من الخير والرضوان »

بمناسبة قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ ﴾ **قال ابن كثير** : « روى الإمام أحمد عن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » .

ثم وضحت الآيات بعد ذلك أن القرب من الله أو البعد ليس له علاقة بالأموال والأولاد إلا من عمل صالحاً فيها ، فى الأموال بمراعاة الله فى كسبها وإنفاقها فى وجوه الخير ؛ والأولاد فى تنشئتهم على طاعة الله عز وجل .

فى قوله تعالى : ﴿ وَهُمۡ فِى ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ ، قال رسول الله ﷺ : « إن فى الجنة لغرفا ترى ظهورها من بطونها ، وبطونها من ظهورها ، فقال أعرابى : لمن هى ؟ قال ﷺ : « لمن طيب الكلام ، وأطعم الطعام ، وأدام الصيام ، وصلى بالليل والناس نيام » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ إن العمل الصالح والتقوى هما أساسا القربى من الله عز وجل .

٢ ـ أن يؤمن المسلم بالرزق ، وأن يكون مطمئن القلب لما قدره الله .

٣ ـ الحذر من الركون إلى النعمة ، وأن يؤدى المؤمن حق الله فيما وهب .

معانى الكلمات :

يحشرهم : يجمعهم للحساب .

إفك مفترى : كذب مختلق .

نكير : عاقبة إنكارى عليهم .

جنة : جنون .

أجرى : جزائى .

يقذف : يلقى الحق فى قلوب من يختارهم .

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يعرف المؤمن أسلوب الحوار مع العصاة .

٢ ـ أن يشعر المؤمن بعظمة الرسالات السماوية .

٣ ـ أن يجيد المسلم الحوار مع المدعويين .

المحتوى التربوى :

تعرض الآيات نموذجاً للكفار يوم القيامة الذين يعبدون الملائكة ، وتبرأ الملائكة منهم ومن عبادتهم إياهم ، فكأنما هذه العبادة كانت باطلا أصلا ، وكأنها لم تقع ولم تكن لها حقيقة ، إنما هم يتولون الشيطان ، إما بعبادته والتوجه ، وإما بطاعته فى اتخاذ شركاء من دون الله ، وهم حين عبدوا الملائكة إنما كانوا يعبدون الشيطان ! ذلك إلى أن عبادة الجن عرفت بين العرب ، وكان منهم فريق يتوجه إلى الجن أو الاستعانة بهم .

ويتغير السياق من الحكاية والوصف إلى الخطاب والمواجهة ، ويوجه القول القول إليهم بالتأنيب والتبكيت ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ لا الملائكة يملكون للناس شيئا ، ولا هؤلاء الذين كفروا يملك بعضهم لبعض شيئا ، والنار التى كذب بها الظالمون ، وكان يقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ، ها هم أولاء يرونها واقعا لا شك فيه .

إن عرض هذه الصور أمام الدعاة لتثبيت قلوبهم أمام الكافرين والمعاندين ، فهم يوم القيامة فى موقف الخذلان والحسرة والأسى، ويدخلون أشد العذاب، فالنار التى أنذروا منها يدخلونها، والملائكة الذين عبدوهم من دون الله يتبرؤون منها ومن عبادتهم إياهم .

وتتابع الآيات ذكر نماذج من استحقاقهم للعذاب وهو تكذيبهم بالأنبياء ، وكفرهم بما جاؤوا به ، **يقول صاحب الظلال** : « لقد قابلوا الحق الواضح البين الذى يتلوه عليهم رسول الله ﷺ برواسب غامضة من آثار الماضى ، وتقاليد لا تقوم على أساس واضح ، وليس لها قوام متماسك، ولقد أحسوا خطورة ما يواجههم به القرآن الكريم من الحق البسيط المستقيم المتماسك، أحسوا بخطورته على ذلك الخليط المشوش من العقائد والتقاليد » .

وفى اتهام الكفار للقرآن بأنه مفترٍ كلام لا حجة عليه أمام أتباعهم ، فحاولوا أن يعللوا وقعه الظاهر فى القلوب ، فقالوا : إنه سحر مبين .

ويقول صاحب الظلال فى ذلك : « هى سلسلة من الاتهامات ، حلقة بعد حلقة ، يواجهون بها الآيات البينات كى يحولوا بينها وبين القلوب ، ولا دليل على دعواهم ، ولكنها حملة من الأكاذيب لتضليل العامة والجماهير، أما الذين كانوا يقولون هذا القول ـ وهم الكبراء والسادة فقد كانوا على يقين أنه قرآن كريم ، فوق مقدور البشر ، وفوق طاقة المتكلمين » .

وتردّ الآيات على الكافرين رداً يدفع دعواهم الباطلة بأن هؤلاء القوم أميون لم يؤتوا من قبل كتابا يقيسون به الكتب، ويعرفون به الوحى، فيفتوا بأن ما جاءهم اليوم ليس كتاباً وليس وحياً ، وليس من عند الله ولم يرسل إليهم من قبل رسول ، فهم يهرفون إذن بما لا علم لهم به ، ويدعون ما ليس يعلمون .

وتستمر الآيات فى التسرية عن المؤمنين بأن الكفار الذين يعاندون الرسول الخاتم ليس لهم مثل قوة الأمم التى سبقتهم والتى أهلكها الله ، وهو تخفيف عن الدعاة فى كل عصر بأن القوة الحقيقية هى التمسك بحبل الله ، واللوذ بحماه ، والثقة بنصر الله ؛ لأن أسباب العباد منقطعة وأسباب الله موصولة .

قال الفخر الرازى فى قوله تعالى : ﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ﴾ : « أى الذين من قبلهم ما بلغوا معشار ما آتينا قوم محمد من البيان والبرهان ، وذلك لأن كتاب محمد ﷺ أكمل من سائر الكتب وأوضح ، ومحمد ﷺ أفضل من جميع الرسل وأفصح ، وبرهانه أوفى ، وبيانه أشفى » .

وفى هذا السياق دعوة خالصة للكافرين بمنهج البحث عن الحق ، ومعرفة الافتراء من الصدق ، وتقدير الواقع الذى يواجهونه من غير زيف ولا دخل ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ

شَدِيدٍ﴾ ويوضح ذلك **صاحب الظلال** بقوله : « إنه دعوة إلى القيام لله ، بعيداً عن الهوى ، بعيداً عن المصلحة ، بعيداً عن ملابسات الأرض، بعيداً عن الهواتف والدوافع التى تشتجر فى القلب ، فتبعد به عن الله ، بعيداً عن التأثر بالتيارات السائدة فى البيئة .

دعوة إلى التعامل مع الواقع البسيط لا مع القضايا والدعاوى الرائجة ولا مع العبارات المطاطة التى تبدد القلب والعقل فى مواجهة الحقيقة فى بساطتها .

دعوة إلى منطق الفطرةالهادئ الصافى بعيدًا عن الضجيج والخلط واللبس والرؤية المضطربة والغبش الذى يحجب صفاء الحقيقة .

وهى فى الوقت ذاته منهج فى البحث عن الحقيقة منهج بسيط يعتمد على التجرد من الرواسب والغواشى والمؤثرات وعلى مراقبة الله وتقواه .

وهى واحدة إن تحققت صح المنهج واستقام الطريق .. القيام لله .. لا لغرض ولا لهوى ولا لمصلحة ولا لنتيجة .. التجرد .. الخلوص .. ثم التفكر والتدبر بلا مؤثر خارج عن عن الواقع الذى يواجهه القائمون لله المتجردون » .

فى قوله تعالى : ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ **يقول صاحب الأساس** : « **الحكمة فى تفرقهم** وفرادى أن الاجتماع مما يشوش الخواطر ، ويعمى البصائر ، ويمنع من الرؤية ، ويقل الإنصاف فيه ، ويكثر الاعتساف ، ويثور عجاج التعصب ، أما الاثنان فيتفكران ، ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه، وكذلك الفرد يتفكر فى نفسه بعدل ونصفة ويعرض فكره على عقله ، وهذه الآية أصل فى موضوع الدعوة إلى الله ، إذ تبين أهمية الدعوة الفردية : ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ أى : ليس بمحمد ﷺ جنون والمعنى ثم تتفكروا فتعلموا أن ليس بمحمد ﷺ من جنون ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ وهو عذاب الآخرة » .

ثم يدعوهم السياق إلى أن يكفروا : ما مصلحته ، وماذا يعود عليه وهو لم يسأل أجرا ؟ يقول لهم : إن الله كلفنى وهو الذى يأجرنى ، وهو يعلم ويرى ، وهو علىّ شهيد ، ومن ذا يقف أمام هذا الحق الذى جئتكم به ، فالله يقذف به عن علم ويوجهها على علم .

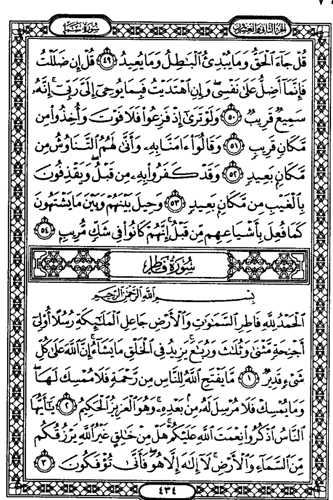
ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ حسن الجدال مع الكفار والعصاة .

٢ ـ الدعوة إلى الله ، وعدم الرهبة من الكفار وعنادهم .

٣ ـ أهمية تنوع وسائل الدعوة الفردية منها والجماعية .





الجزء الثاني والعشرون — سورة سبأ

قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ۖ وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾

سُورَةُ فَاطِرٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾

٤٣٤

معانى الكلمات :

ما يبدئ الباطل وما يعيد : الباطل لا يقدر أن ينشئ خلقاً أو يعيدهم . فلا فوت : فلا نجاة . مكان قريب : موقف الحساب . أنى لهم التناوش من مكان بعيد : من أين لهم أن يتناولوا الإيمان تناولاً سهلا .أشياعهم: أمثالهم وأشباههم . مريب : موقع فى الشك والقلق .

« سورة فاطر »

فاطر : خالق على غير مثال سبق . أولى أجنحة : لها أجنحة . ما يفتح الله الناس:ما يرسل الله للناس .فلا ممسك لها : فلا مانع لها.فأنى تؤفكون: فكيف تصرفون عن توحيده .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يعلم المؤمن فائدة التفكر والتدبر فى خلق الله وأحكامه .

٢ ـ أن يدرك المؤمن إعجاز قدرة الله فى خلقه .

٣ ـ أن يكثر المؤمن شكر الله على نعمه وعطاياه .

المحتوى التربوى :

يقرر السياق بأن الحق قد جاء فى صورة من صوره ؛ فى الرسالة ، وفى قرآنها ، وفى منهجها المستقيم ، فأعلن هذا الإعلان وقرر ، بأن الحق قد جاء ، جاء باستعلائه وسيطرته ، والباطل قد انتهى أمره ، وما عادت له حياة وما عاد له مجال .

يقول صاحب الظلال : « إنه الإيقاع المزلزل ، الذى يشعر من يسمعه أن القضاء المبرم قد قضى .. وإنه لكذلك ، فمنذ جاء القرآن استقر منهج الحق واتضح ، ولم يعد الباطل إلا مماحكة ومماحلة أمام الحق الواضح الحاسم الحازم ، ومهما يقع من غلبة مادية للباطل فى بعض الأحوال والظروف ؛ لا أنها ليست غلبة على الحق ، إنما هى غلبة على المنتمين إلى الحق ، غلبة الناس لا المبادئ ، وهذه موقوتة ثم تزول ، أما الحق فواضح بين صريح » .

والإيقاع الأخير : ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ﴾ فلا عليكم إذن إن ضللت فإنما أضل على نفسى وإن كنت مهتديًا فإن الله هو الذى هدانى بوحيه لا أملك لنفسى منه شيئًا إلا بإذنه وأنا تحت بمشيئته أسير فضله .

إن دعوات باطلة هدامة مرت منذ قيام الإسلام تحاول هدمه وتحطيمه ، لكن زالت هذه الدعوات وأصحابها ، وبقى الإسلام قوياً يكسب أنصاراً جددًا حتى في الأوقات التى ضعف المسلمون .

ثم يأتى خطاب النبى للمستكبرين ليؤكد فردية التبعية ، والإقرار لله بالفضل ، وإفراد الله بالسؤال والمناجاة ، وهكذا الدعاة إلى الله كما يقول صاحب الظلال : « يجدون الله ، هكذا كانوا يجدون صفاته هذه فى نفوسهم ، كانوا يجدونها رطبة بالحياة الحقيقة ، كان يحسون أن الله يسمع لهم ، وهو قريب منهم ، وأنه معنى بأمرهم عناية مباشرة وأن شكواهم ونجواهم تصل إليه بلا واسطة وأنه لا يهملها ولا يكلها إلى سواه ، ومن ثم كانوا يعيشون فى أنس من ربهم .. فى كنفه . فى جواره . فى عطفه . فى رعايته . ويجدون هذا كله فى نفوسهم حيا ، وقعا ، بسيطا » .

وتختم سورة سبأ بمشهدين من مشاهد يوم القيامة ، وذلك حين يرون العذاب فيلجؤون إلى الإيمان فهم فى الدنيا كانوا بعيدين عن الإيمان ومنكرين لليوم الآخرة ، وهم فى الآخر بعيدون عن الإيمان ولاقوا جزاء كفرهم عذابا شديداً مثل الأمم الذى كفرت من قبل ؛ ذلك لأن الجزاء من جنس العمل .

« سورة فاطر »

سورة فاطر سورة مكية آياتها خمس وأربعون وتسمى أيضاً سورة الملائكة وهذه السورة المكية نسق خاص فى موضوعها وفى سياقها ، فهى تمضى فى إيقاعات تتوالى على القلب البشرى من بدئها إلى نهايتها ، إيقاعات موحية مؤثرة تهزه هزًا وتوقظه من غفلته ليتأمل عظمة هذا الوجود وروعة هذا الكون وليتدبر آيات الله المبثوثة فى تضاعيفه المتناثرة فى صفحاته ، وليتذكر من آلاء الله ويشعر برحمته ورعايته وليتصور مصارع الغابرين فى الأرض ومشاهدهم يوم القيامة وليخشع ويعنو وهو يواجه بدائع صنع الله وآثار يده فى أطواء الكون وفى أغوار النفس وفى حياة البشر وفى أحداث التاريخ والسمة البارزة فى هذه الإيقاعات هى تجميع الأمور كلها فى يد القدرة المبدعة ، وإظهار طلاقة القدرة لله .

تبدأ الآيات بتقرير الحمد لله عز وجل ، فهذه السورة قوامها توجيه القلب ، وإيقاظه لرؤية آلائه ، واستشعار رحمته ، فهذا الكون وما فيه من ضخامة أجزائه وتباعد أفلاكه ومداراته من أسرار التناسق فيها لو اختلت فيه نسبه صغيرة لتحطمت كلها وتناثرت بدداً .

يعيب صاحب الظلال على من يمرّ بهذه الآيات دون أن يقف أمامها ويتدبر مدلولاتها بقوله: « نمر على مشاهد السموات والأرض ذاتها بمثل هذه البلادة لا تقف أمامها إلا قليلا ذلك أن حسّا قد تبلد » .

ولا يحتاج القلب المفتوح الواعى الموصول بالله إلى علم دقيق بمواقع النجوم فى السماء ، ولا يحتاج القلب المفتوح الواعى الموصول بالله إلى علم دقيق يستشعر الروعة والرهبة أمام هذا الخلق الهائل الجميل العجيب .

وبمناسبة ذكر الأجنحة مثنى وثلاث ورباع ، حيث لا يعرف الإنسان إلا شكل الجناحين للطائر . يذكر أن الله يزيد فى الخلق ما يشاء « فيقرر طلاقة المشيئة ، وعدم تقيدها بشكل من أشكال الخلق » .

ثم يأتى قوله تعالى : ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ هذه حقيقة لو استقرت فى قلب بشرى يتم فيه تحول كامل فى تصوراته ومشاعره واتجاهاته وموازينه وقيمه فى هذه الحياة جميعاً .

ورحمة الله تراها فى الممنوع كما تراها فى الممنوح ، ويجدها من يفتحها الله له فى كل شىء ومن ألطف ما قيل فى ذلك قول صاحب الظلال : « ورحمة الله لا تعز على طالب فى أى مكان ولا فى أى حال ، وجدها إبراهيم عليه السلام فى النار ، ووجدها يوسف عليه السلام فى الجب كما وجدها فى السجن ، ووجدها يونس عليه السلام فى بطن الحوت فى ظلمات ثلاث ، ووجدها موسى عليه السلام فى اليم وهو طفل مجرد من كل قوة ومن كل حراسة. كما وجدها فى قصر فرعون وهو عدو متربص له » .

إنه صورة لو استقرت فى قلب إنسان لصمد كالطود للأحداث والأشياء والأشخاص والقوى والقيم والاعتبارات ، ولو تضافر عليها الإنس والجن ، وهم لا يفتحون رحمة الله حين يمسكها ، ولا يمسكونها حين يفتحها .. ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ استحضار صورة اليوم الآخر دائماً أمام المؤمنين ، ليزداد يقينهم بالله وثقتهم به .

٢ ـ مداومة حمد الله وشكره على آلائه .

٣ ـ الثقة بالله والطمأنينة فى أحكامه .

٤ ـ إفراد الله بالسؤال والحاجة ؛ لأنه مالك الأمور كلها ومدبرها .

الجزء الثاني والعشرون — سورة فاطر

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾

٤٣٥

معانى الكلمات :

فلا تغرنكم : فلا تخدعنكم .

الغرور: ما يغر ويخدع من شيطان وغيره .

حزبه : أتباعه الذين أطاعوه . **السعير** : جهنم . **زين** : حسن له .

سوء عمله : عمله القبيح . **تثير سحابا** : تبعثه وتحركه . **النشور** : بعث الموتى من القبور . **العزة** : الشرف والقوة . **يمكرون السيئات** : يدبرون الفتن . **يبور** : يفسد ويبطل . **أزواجاً** : ذكورًا وإناثا . **يعم** : يطول عمره . **معمر** : طويل العمر .

كتاب : اللوح المحفوظ . **يسير** : سهل وهين .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يعرف المسلم طريق العزة ، ومعرفة أثر القول الطيب والعمل الصالح .

٢ ـ أن يدرك المسلم هوان أمر الكافرين والظالمين .

٣ ـ أن يبادر المسلم بالأعمال الصالحة التى تقربه من ربه ، وأن يحذر الشيطان وإغوائه .

المحتوى التربوى :

يتجه هذا المقطع بالخطاب لرسول الله ﷺ بالبشرية والتسلية عن تكذيبهم له ، وإرجاع الأمر كله لله ، وأن الرسول ليس بدعاً من الرسل ، فالرسل والأنبياء والدعاة فى كل مكان وزمان تعرضوا للتكذيب والصد والعنت ؛ ذلك لأنهم يأتون بالحق الذى يهدد مصالح الظالمين .

الآية جاءت بعد ذكر أن الرحمة بيد الله ، وأن النفع والضر ، وقبض الرزق وبسطه عند مقدر الأمور ، لتظهر أن الكافرين لا يملكون إلا التكذيب ، أما العواقب فهى متروكة لله وحده ، يدبر أمرها كما يريد .

ثم تتولى الآيات بالتحذير من الحياة الدنيا وزخرفها والتحذير من الشيطان وإغوائه ، وإلباس الباطل حقا ، والحق باطلا ، إن الآيات تستثير قوة الإنسان بأن الاعتصام بحبل الله بكون محاربة أهواء النفس وإغواء الشيطان ، وعدم الانخداع بزخرف الدنيا .

إن من نعم الله عز وجل على الإنسان بأن وضح الله الطريق المستقيم ، ومن رحمة الله أيضاً أن ذكر لنا الأعداء الذين يقفون فى هذا الطريق وهو الشيطان وزخرف الدنيا وغيرها .

بل إن الرحمة فى كل مظاهرها تظهر فى تصويره طبيعة الغواية بأن يزين الشيطان سوء عمله فيراه حسنا ، أن يعجب بنفسه وبكل ما يصدر عنه ، مفتون بكل ما يتعلق بذاته ، **ويقول صاحب الظلال** فى ذلك : « هذا هو البلاء الذى يصيبه الشيطان على إنسان ، وهذا هو المقود الذى يقوده منه إلى الضلال ، فإلى البوار ! إن الذى يكتب الله له الهدى والخير يضع فى قلبه الحساسية والحذر والتلفت والحساب ، فلا يأمن مكر الله ، ولا يأمن تقلب الدنيا ، ولا يأمن الخطأ والذلل ، ولا يأمن من تقلب الدنيا » .

وحول الغرور وقبحه وسوء أثره **يقول صاحب الظلال** : « هو هذا الستار الذى يعمى قلبه وعينه فلا يرى مخاطر الطريق ، ولا يحسن عملاً ؛ لأنه مطمئن إلى حسن عمله وهو سوء ، ولا يصلح خطأ لأنه واثق أنه لا يخطئ! ولا يصلح فاسداً لأنه مستيقن أنه لا يفسد ! » .

وما دام هذا حال الضلاّل فتأتى الآيات لتعزى الرسول بألا يحزن على ضلال المعاندين ، فهو رفق من الله بالرسول والدعاة ، وتوجيه أن يخلص الدعاة فى دعوتهم ، فإذا رأوا الناس فى الوقت ذاته يصدون عنها ، ويعرضون بألا يلتفتوا إلى ذلك ولا ييأسوا على من لم يقدر له الله الصلاح والفلاح .

ثم تأتى الآيات بمشهد كونى وهو نزول المطر بعد إثارة الرياح للسحاب ، وهذا المشهد دليل واقعى ملموس ، لا سبيل أمامه إلى المكابرة ، وخاصة فى البيئة الجاهلية المقفرة ، وهذا تنوع فى وسائل الدعوة خاصة أمام المعاندين بالنظر للكون المنظور وآلاء الله فيه .

ثم يأتى السياق القرآنى ليوضح سبيل العزة الحقيقية، وليست العزة الزائفة فقد كان المشركون يشركون استبقاء لمكانتهم الدينية فى مكة ، وما يقوم عليه من سيادة لقريش على القبائل بحكم العقيدة التى تحقق لهم مغانم متعددة مما جعلهم يقابلون الرسول بقولهم : ﴿ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾ (القصص : ٥٧)

لكن الله يقول : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ وهذه الحقيقة كفيلة حين تستقر فى القلوب أن تبدل المعايير كلها وتبدل الوسائل والخطط أيضا إن الفرة كلها لله وليس شىء منها عند أحد سواه فمن كان يريد فليطلبها من مصدرها الذى ليس لها مصدر غيره ، ليطلبها من عند الله ، فهو واجدها ، وهو مانحها وفى ذلك يقول **صاحب الظلال** : « إنها حقيقة أساسية من حقائق العقيدة الإسلامية ، وهى حقيقة كفيلة بتعديل القيم والموازين ، ويكفى أن تستقر فى أى قلب، ليقف به أمام الدنيا كلها عزيزاً ثابتا إنه لن يحنى رأسه لمخلوق متجبر ولا لعاصفة طاغية» .

ومن هنا يذكر الكلم الطيب والعمل الصالح : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ ولهذا التعقيب المباشر بعد ذكر الحقيقة الضخمة مغزاه وإيحاؤه . فهو إشارة إلى أسباب العزة ووسائلها لمن يطلبها عند الله القول الطيب والعمل الصالح . القول الطيب الذى يصعد إلى الله فى علاه والعمل الصالح الذى يرفعه الله إليه ويكرمه بهذا الارتفاع ومن ثم يكرم صاحبه ويمنحه العزة والاستعلاء .

إن العزة ليست عنادًا جامحًا يستكبر على الحق ويتشامخ بالباطل وليست طغيانًا فاجرًا يضرب فى عتو وتجبر وإصرار إنما العزة استعلاء على شهوة النفس واستعلاء على القيد والذل واستعلاء على الخضوع الخانع لغير الله أما وسائل العزة الباطلة فقد ظهرت فى قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ ويمكرون هنا مضمنة معنى يدبرون ولكنه عبر بها لغلبة استعمالها فى السوء فهؤلاء لهم عذاب شديد فوق أن مكرهم وتدبيرهم يبور فلا يحيا ولايثمر فالمكر السيئ قولاً وعملاً، فليس سبيلا إلى العزة ولو حقق العزة الطاغية الباغية فى بعض الأحيان إلى البوار وإلى العذاب الشديد .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الحذر من الشيطان وغوايته وضلاله .

٢ ـ ألا يغتر الإنسان بعمله ، وأن يحاسب نفسه ليعرف مواضع النقص والخطأ .

٣ ـ السعى لنيل العزة من مصدرها وهو الله عز وجل ، ووسائلها مثل القول الطيب ، والعمل الصالح .

٤ ـ عدم الاغترار بالعزة المستمدة من الطغيان فهى إلى هلاك وبوار .

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۚ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ۞ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

معانى الكلمات :

عذاب فرات : حلو عذب .

سائغ شرابه : سهل انحداره فى الحلق .

أجاج : شديد الملوحة . **لحماً طرياً** : الأسماك . **حلية** : مثل اللؤلؤ والمرجان .

مواخر : سفن تشق الماء .

يولج : يدخل . **قطمير** : قشرة رقيقة على نواة التمر . **يذهبكم** : يهلككم .

بعزيز : بصعب . **وزر** : ذنب .

مثقلة : أى نفس أثقلتها الذنوب .

تزكى : تطهر من الشرك .

المصير : المرجع والنهاية .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يعرف المسلم صفة الجزاء يوم القيامة، وأن فردية العمل يتبعها فردية الثواب والعقاب

٢ ـ أن يشعر المسلم بالأمانة التى كلفه الله بها .

٣ ـ أن يبادر المسلم بالأعمال الصالحة ، والأقوال الطيبة مستحضراً يوم القيامة .

المحتوى التربوى :

تواصل الآيات ذكر آيات الله فى خلقه ، من خلق الماء وتنويعه بين الماء العذب ، والماء الأجاج ، وما فيهما من النعم مثل الأسماك والحلية من الجواهر الكريمة ، وفيه حمل الناس فى الفلك .

وفى بيان التقدير العجيب فى تصميم هذا الكون الضخم يقول أحد العلماء : « وعلى الرغم من الانبعاثات الغازية من الأرض طوال الدهور ـ ومعظمها سام ـ فإن الهواء دون تلويث فى الواقع ، ودون تغير فى نسبته المتوازنة اللازمة لوجود الإنسان ، وعجلة الموازنة العظيمة هى تلك

الكتلة الفسيحة من الماء أى المحيط ـ الذى استمدت منه الحياة والغذاء والمطر والمناخ المعتدل ، والنباتات ، وأخيراً الإنسان نفسه » .

إن هذه الآيات تتطلب من المسلم التأمل والتدبر ، ومخاطبة تبلد الحس إلى النظر فى هذا الكون ، فى هذه المياة السائغة للشرب ماذا لو تحولت كلها لملح أجاج ؟ وفى داخل هذه المياه الأسماك التى منحها الله للإنسان لحماً طرياً ، ولم يتكلف الإنسان حتى تغذيتها ، وفيها الحلية من اللؤلؤ والمرجان وغيرها ، وتقطع بطرق خاصة وتتخذ منه الحلى ، وفى الماء أودع الله فيه نسبة من الكثافة ليحمل السفن فوقه للسفر والتجارة .

قال الشوكانى : « قال أكثر المفسرين : إن المراد من الآية : ضرب المثل فى حق المؤمن والكافر، والكفر والإيمان، فكما لا يستوى البحران كذلك لا يستوى المؤمن والكافر، ولا الكفر ولا الإيمان » .

ثم مشهد آخر تعرضه الآيات مشهد دخول الليل فى النهار والضياء يغيب قليلا قليلا ، والظلام يدخل قليلا قليلا ، ومشهد دخول النهار فى الليل ، وينتشر الضياء رويداً رويداً ، ويتلاشى الظلام رويداً رويداً ، ثم مشهد آخر هو مشهد الشمس والقمر وحركتهما دائماً ، ويتأمل **صاحب الظلال** فى هذه المشاهد فيقول : « وهذه الحركة الدائبة التى لا تفتر ولا تحتل حركة مشهودة لا يحتاج تدبرها إلى علم وحساب ! ومن ثم فهى آية معروضة فى صفحة الكون لجميع العقول ، وجميع الأجيال على السواء ، وقد ندرك نحن اليوم علمها الظاهر أكثر مما كان يدرك المخاطبون بهذا القرآن لأول مرة ، وليس هذا هو المهم ، إنما المهم أن توحى إلينا ما كانت توحيه إليهم ، وأن تهز قلوبنا كما كانت تهز قلوبهم ، وأن تثير فينا من التدبر ورؤية يد الله المبدعة ، وهى تعمل فى هذا الكون العجيب ما كانت تثير فيهم . والحياة حياة قلوب » .

ثم يتتابع النسق القرآنى بعد ذكر جوانب القدرة الإلهية بذكر ضعف معبودات الكافرين من الأوثان أو الملائكة فهى لا تملك نفع أنفسها أو ضرها فكيف بغيرها ، والإخبار بأن الناس فقراء إلى الله عز وجل ، وأن الله حين يدعوهم إلى الإيمان بالله فهو غنى عن عبادتهم وحمدهم .

يقول الإمام النسفى : « ولم يسم الله الناس بالفقراء للتحقير بل للتعريض على الاستغناء ، ولهذا وصف نفسه بالغنى الذى هو مطمع الأغنياء وذكر الحميد ليدل به على أنه الغنى النافع بغناه خلقه » .

وفضل الله على الإنسان سابغ فى النعم التى أنعمها عليه ينال من الله كل الرعاية ، ويستخلفه فى الأرض ، ويهبه كل أدوات الخلافة ، ويضل هذا المخلوق ويتبجح حتى ليشرك بربه وينكره ، يرسل الله إليه الرسل، رسولاً بعد رسول، وينزل على الرسل الكتب والخوارق، ويطرد فضل الله ويفيض حتى لينزل فى كتابه الأخير قصصا يحدث بها الناس ، ويقص عليهم ما وقع لأسلافهم ، كل ذلك والبشر يقابلون هذه الرعاية بالنكران والجحود ، فتأتى الآيات لتذكرهم هؤلاء الناس بضعفهم لئلا يركبهم الغرور وهم يرون الله يملى لهم .

الآيات تذكرة للدعاة بالصبر على المدعوين لأقصى درجاته ، وعدم تعجل الاستجابة ، فالكل إلى الله فقيرو ضعيف المؤمن والكافر ، لذا فإن الدعاة أجرهم على الله فبفضله الجزيل يكافئهم ، وألا يأسوا من عنت الكافرين لأنهم محاويج ضعاف ، وما بأيديهم من فضل الله الذى يعطيه من أحب ومن لا يحب .

ويلمس السياق لمسة أخرى حقيقة فردية التبعة ، والجزاء الفردى الذى لا يغنى فيه أحد عن أحد شيئًا ، فما بالنبى ﷺ من حاجة إلى هدايتهم يحققها لنفسه فهو محاسب على عمله وحده كما أن كلاً منهم محاسب على ماكسبت يداه يحمل حمله وحده لا يعينه أحد عليه ومن يتطهر فإنما يتطهر لنفسه وهو الكاسب وحده لا سواه والأمر كله صائر إلى الله وعن ثمرة ذلك **يقول صاحب الظلال** : « وحقيقة فردية التبعة والجزاء ذات أثر حاسم فى الشعور الأخلاقى وفى السلوك العلمى سواء ، فشعور كل فرد بأنه مجزىّ بعمله ، لا يؤاخذ بكسب غيره ، ولا يتخلص هو من كسبه عامل قوى فى يقظته لمحاسبة نفسه قبل أن تحاسب مع التخلى عن كل أمل خادع فى أن ينفعه أحد بشىء أو أن يحمل أحد عنه شيئًا . كما أنه فى الوقت ذاته عامل مطمئن فلا يقلق الفرد خيفة أن يؤخذ بجريرة الجماعة فيطيش وييئس من جدوى عمله الفردى الطيب مادام قد أدى واجبة فى النصح للجماعة ومحاولة ردها عن الضلال بما يملك من وسيلة » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ التأمل والتفكر فى خلق الله طريق إلى اليقين بالله .

٢ ـ إفراد الله بالسؤال وطلب الحاجات .

٣ ـ ألا يغفل عن شكر ربه وحمده على نعمه وآلائه .

٤ ـ أن كل إنسان مسؤول عن عمله ، وهذا لا يعفيه من النصيحة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

الجزء الثاني والعشرون — سورة فاطر

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾

٤٣٧

معانى الكلمات :

الحرور : شدة الحرّ ليلا .

البينات : الأدلة الواضحة .

الزبر : الصحف المليئة بالمواعظ .

نكير : إنكارى وتعذيبى لهم .

جدد: طرائق فى الجبال تخالف لون الجبل ، ولها خطوط مختلفة الألوان .

غرابيب سود : شديدة السواد .

الأنعام : الإبل والبقر والغنم والماعز .

عزيز : غالب يفعل ما يريد .

لن تبور : لن تكسد .

ليوفيهم أجورهم : ليعطيهم أجورًا وافية .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يعرف المسلم بعض نعم الله عز وجل .

٢ ـ أن يشعر المسلم بجمال وروعة خلق الله عز وجل .

٣ ـ أن يديم المسلم التدبر والتفكر فى الكون ، والتدبر فى تلاوة القرآن .

المحتوى التربوى :

تبدأ الآيات هنا بذكر مقابلات لتوضيح البون بين الإيمان والكفر ، والخير والشرّ ، والهدى والضلال ، **قال ابن كثير** : يقول تعالى : كما لا يستوى هذه الأشياء المتباينة المختلفة كالأعمى والبصير لا يستويان بل بينهما بون كبير ، وكما لا تستوى الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور كذلك لا تستوى الأحياء ولا الأموات وهذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمنين وهم الأحياء وللكافرين وهم الأموات ، ولن يستوى عند الله والكفر والخير والشر والهدى والضلال كما لا يستوى العمى والبصر والظلمة والنور والظل والحرور والحياة والموت وهى مختلفة الطبائع من الأساس ويعبر عن ذلك **صاحب ظلال بقوله** : « إن الإيمان نور، نور فى القلب نور فى الجوارح، ونور فى الحواس ، نور يكشف حقائق الأشياء والقيم والأحداث » .

والإيمان بصر ، يرى رؤية حقيقية صادقة غير مهزوزة ولا مخلخلة ويمضى بصاحبه فى الطريق على نور وعلى ثقة وفى اطمئنان .

والإيمان ظل ظليل تستروحه النفس ويرتاح له القلب، ظل من هاجرة الشك والقلق والحيرة فى التيه المظلم بلا دليل .

والإيمان حياة،حياة فى القلوب والمشاعر، حياة فى القصد والاتجاه ، كما أنه حركة بانية، مثمرة قاصدة لا خمود فيها ولا همود ، ولا عبث فيها ولا ضياع .

والكفر ظلمة أو ظلمات فعندما يبعد الناس عن نور الإيمان يقعون فى ظلمات من شتى الأنواع والأشكال ، ظلمات تعز فيها الرؤية الصحيحة لشيء من الأشياء .

والكفر هاجرة حرور تلفح القلب فيه لواقح الحيرة والقلق وعدم الاستمرار على هدف، وعدم الاطمئنان إلى نشأة أو مصير ، ثم تنتهى إلى حرّ جهنم ولفحة العذاب هناك !

والكفر موت . موت فى الضمير ، وانقطاع عن مصدر الحياة الأصيل وانفصال عن الطريق الواصل » .

إن القرآن يضرب الأمثلة لمحاولة إقناع المعاندين ، وهذا ما يثير فى الدعاة العزم لتنوع خطابهم للمدعوين ، فالدعوة إلى الله ليست محصورة فى الوعظ والتوجيه ، بل ذكر الأمثلة الماثلة أمام الناس أدعى إلى استجابتهم ، وتحريك الإيمان الخامد فى صدورهم .

ثم تأتى الآيات بلمسة حانية رفيقة بالدعاة ، فلا يحزن الدعوة إذا أخلصوا الدعوة ولم تلامس دعوتهم بعض القلوب فهى قلوب ميتة ، وما على الرسل والدعاة إلا التبشير بالجنة والإنذار من النار ، وهم لا يطلبون أجراً إلا من الله ويحملون للناس نجاتهم .

وسنة الله فى عباده أن يرسل رسلاً إلى الأقوام ، فيلقى الرسول مؤمنين به ويلقى معاندين مستكبرين ، هذا ليس عن تقصير من الرسل ، ولا عن نقص من الدليل ، بل إن الرسل يحملون لهم الحجج الواضحات والمواعظ والنصائح والمعجزات والخوارق وأخبار من سبقهم ، بل إن حياة الرسل نفسها وأخلاقهم دليل على صدق رسالتهم .

لكن الكفار والمستكبرين يعاندون حفاظاً على مصالحهم التى تحميها العقائد الباطلة ، وكل هذا تسرية للدعاة بألا يأسوا من ظلم معانديهم وصدهم فهذا دأب من قبلهم ، بل هذا دليل على صدق دعوتهم ، واستقامة طريقهم .

ومن كمال البشرية عن المؤمنين ختام الآيات بقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ فكما لا يستوى الكفر والإيمان، فلا يتساوى الجزاء، بل إن الجزاء على قدر الإنكار، ولقد كان الإنكار شديداً ، وكان الأخذ تدميراً ، فليحذر الماضون على سنة الأولين أن يصيبهم ما أصاب الأولين .

ثم تشير الآيات إلى كمال قدرة الله عز وجل بخلق الأشياء المتنوعة من الشىء الواحد ، فالماء الذى أنزله الله ينتج أنواعاً من الثمار ، ولا تجد نوعاً من الثمار يماثل نوعاً آخر ، بل لا تجد ثمرة واحدة يماثل لون أخواتها من النوع الواحد .

ثم انتقلت الآيات من الثمرة إلى الصخرة ، فالجبال صخورها مختلفة أشكالها ، فالجدد البيض مختلف ألوانها ، والجدد الحمر مختلف ألوانها فيما بينها ، وكذلك الجدد السود .

وكان الختام المناسب لهذا العرض البهيج قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ لأن هم الذين يعرفون الله معرفة حقيقية يعرفون آثار صنعته ، ويعرفونها للناس .

قال القاشانى : « أى ما يخشى الله إلا العلماء العارفون به لأن الخشية ليست هى خوف العقاب ، بل هيئة فى القلب يحصل له خشوع وانكسار خشوعية انكسارية عند تصور وصف العظمة واستحضاره لها ، فمن لم يتصور عظمته لم يمكنه خشيته .

ومن كتاب الكون تنتقل الآيات إلى الكتاب المنزل والإرشاد لطريق الله بقراءة وتدبر آياته ، كما **يقول صاحب الظلال** : « وتلاوة كتاب الله تعنى شيئاً آخر غير المرور بكلماته بصوت أو بغير صوت ، تعنى تلاوته عن تدبر ، ينتهى إلى إدراك وتأثر ، وإلى عمل بعد ذلك وسلوك ، ومن ثم يتبعها بإقامة الصلاة ، وبالإنفاق سراً وعلانية من رزق الله » .

وإزاء حسن الأداء يتفضل الله على عباده بجزيل الجزاء ، يصف جل جلاله نفسه بأنه غفور يغفر التقصير ، وشكر الله كناية عما يصاحب الشكر عادة من الرضا وحسن الجزاء .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ تنوع وسائل الدعوة ما بين الوعظ والتفكر فى الكون والتدبر فى القرآن .

٢ ـ أن يصبر الدعاة على التكذيب والعنت .

٣ ـ أن يشكر المسلم ربه باللسان والقلب والجوارح .

الجزء الثاني والعشرون — سورة فاطر

والذي أوحينا إليك من الكتب هو الحق مصدقا لما بين
يديه إن الله بعباده لخبير بصير ﴿٣١﴾ ثم أورثنا الكتب
الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم
مقتصد ومنهم سابق بالخيرت بإذن الله ذلك هو
الفضل الكبير ﴿٣٢﴾ جنت عدن يدخلونها يحلون
فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير ﴿٣٣﴾
وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور
شكور ﴿٣٤﴾ الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا
فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب ﴿٣٥﴾ والذين كفروا لهم
نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من
عذابها كذلك نجزي كل كفور ﴿٣٦﴾ وهم يصطرخون
فيها ربنا أخرجنا نعمل صلحا غير الذي كنا نعمل
أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير
فذوقوا فما للظلمين من نصير ﴿٣٧﴾ إن الله علم
غيب السموت والأرض إنه عليم بذات الصدور ﴿٣٨﴾

٤٣٨

معانى الكلمات :

اصطفيناه : اخترناه .

ظالم لنفسه : رجحت سيئاته على حسناته .

مقتصد : استوت حسناته وسيئاته .

جنات عدن : جنات إقامة دائمة .

يحلون : يلبسون الحلى .

أحلنا : أسكننا .

لغوب : إعياء وضعف .

كفور : مبالغ فى الكفر والعصيان .

يصطرخون : يستغيثون .

نعمركم : نسكنكم فى الدنيا عمراً طويلاً .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يتعرف المسلم على بعض واجبات الدعوة إلى الله .

٢ ـ أن يشعر المسلم بثقل التبعة الملقاة عليه ، ويدرك واجبات الاصطفاء الربانى لهذه الأمة .

٣ ـ أن يشغل المسلم كل أوقاته فى طاعة الله .

المحتوى التربوى :

فى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ تنبيه بما يجب على الدعاة أن يؤمنوا بأنهم يحملون الرسالة العظمى ، ومع الدليل على ذلك كما **يقول صاحب الظلال** : « ودلائل الحق فى هذا الكتاب القرآن واضحة فى صلبه فهو الترجمة الصحيحة لهذا الكون فى حقيقته ، أو هو الصفحة المقروءة ، والكون هو الصفحة الصامتة ، وهو مصدق لما قبله من الكتب الصادرة من مصدره ، والحق واحد لا يتعدد فيها وفيه ، وهى كلمات توحى لهذه الأمة ومنزلة نزله للناس وهو على علم بهم ، وخبرة بما يصلح لهم ويصلحهم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ هذا هو الكتاب فى ذاته وقد أورثه الله لهذه الأمة المسلمة ، اصطفاها لهذه الوراثة،

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ بكرامتها على الله ، كما توحى إليها ضخامة التبعة الناشئة عن هذا الاصطفاء وعن تلك الوراثة ، وهى تبعة ضخمة ذات تكاليف » .

وهذه الأمة إزاء التبعة ثلاثة أقسام : قسم ظالم لنفسه ربت سيئاته على حسناته ، وقسم مقتصد تساوت سيئاته وحسناته ، وقسم سابق بالخيرات ربت حسناته على سيئاته ، وكل هؤلاء فى الجنة حتى من أساء منهم وهنا يظهر فضل الله ورحمته على خلقه .

ولعل ذكر الفريق الأول ، لأنه الأكثر عدداً ، أو كما **يقول الإمام النسفى** : « وإنما قدم الظالم للإيذان بكثرتهم ، وأن المقتصدين قليل بالإضافة والسابقون أقل من القليل ».

عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال ذات يوم : « شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى قال ابن عباس ﷺ : « السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب ، والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله ، والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعة محمد ﷺ ».

وتأتى الآيات بمشهد الثواب وهو نعيم مادى ملموس ، ونعيم نفسى محسوس ، وفى ذلك **يقول صاحب الظلال** : « وذلك بعض المتاع ذى المظهر المادى . الذى يلبى رغائب النفوس وبجانبه الرضا وذلك الأمن وذلك الاطمئنان : ﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ﴾ والدنيا بما فيها من قلق على المصير ، ومعاناة للأمور تعد حزنا بالقياس إلى هذا النعيم المقيم والقلق يوم الحشر على المصير مصدر حزن كبير ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ غفر لنا وشكر لنا أعمالنا بما جازانا عليها ، ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ ﴾ للإقامة والاستقرار ﴿ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ فما لنا عليه من ، إنما هو الفضل يعطيه من يشاء » .

هذه الآيات دفع للأمة المصطفاة أن تجدّ فى تبليغ رسالتها ؛ لأن الله وعدها بالثواب والفضل حتى لو لم تكن أعمالنا تساوى تلك المنزلة ، وتقوية للنفوس التى قد تضعف وهى فى طريق الدعوة إلى الله بأن الجنة يسر ورخاء ، لكنها فى الدنيا حفت بالمكاره والشدائد ، فيقول ابن كثير فى قوله تعالى : ﴿ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ أى أنهم لا تعب على أبدانهم ولا أرواحهم ؛ لأنهم كانوا يدئبون أنفسهم فى العبادة فى الدنيا ، فسقط عنهم التكليف بدخولها ، وصاروا فى راحة دائمة مستمرة . قال الله تعالى : ﴿ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾ (الحاقة) .

ثم تأتى صورة عذاب الكافرين الذى عاشوا فى الحياة الدنيا فسادا وتمتعوا بالملذات ، فيعرضهم القرآن وهم يصطلون بنار جهنم ، ويطلبون الإغاثة فلا يغاثون ، ويندمون ويتحدون

ولكن بعد فوات الأوان ، ويأتى التأنيب القاسى من الله بأن الله مدّ لهم العمر حتى ينالوا كرمه لكنهم أعرضوا عن الحق فالعذاب مصيرهم لأنهم ظالمون .

لقد قطعت الآية الحجة عن المعاندين والظالمين بأن الله أعطى لهم عُمْراً ، وجاءتهم الرسل يخبرونهم لكن أعرضوا فساء مصيرهم .

قال صاحب الأساس فى تفسيره : « اختلف المفسرون فى العمر الذى يؤنب عليه الإنسان إذا لم يسلم فى قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ قال النسفى : وهو متناول لكل عمر تمكن فيه المكلف من إصلاح شأنه وإن قصر ، إلا أن التوبيخ فى المتطاول أعظم وأخرج البخارى فى صحيحه قال : قال رسول الله ﷺ : « أعذر الله عز وجل إلى امرئ أخر عمره حتى بلغ ستين سنة » .

إن الحياة ابتلاء من الله لخلقه ليميز الله المؤمن من الكافر ومن رحمة الله بنا أن عرض نماذج من الأمم السابقة عتت ، وعرض لنا نماذج آمنت ، وأبان لنا ربنا جل وعلا بآل كل فريق ، كما قال صاحب الظلال فى عرضه للصورتين : « إنهما صورتان متقابلتان ، صورة الأمن والراحة ، تقابلها صورة القلق والاضطراب ، ونعمة الشكر والدعاء تقابلها ضجة الاصطراخ والنداء ، ومظهر العناية التكريم ، يقابله مظهر الإهمال والتأنيب والجرس اللين والإيقاع الرتيب يقابلهما الجرس الغليظ والإيقاع العنيف فيتم التقابل ويتم التناسق فى الجزئيات وفى الكليات سواء » .

وأخيرًا يجىء التعقيب على هذه المشاهد جميعًا وعلى ما سبقها من اصطفاء وتوريث : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ والعلم الشامل اللطيف الدقيق أنسب تعقيب على تنزيل الكتاب وعلى اصطفاء من يرثونه ويحملونه .. وعلى تجاوز الله عن ظلم بعضهم لنفسه وعلى تفضله عليهم بذلك الجزاء وعلى حكمه على الذين كفروا بذلك المصير .. فهو عالم غيب السموات والأرض وهو عليم بذات الصدور .. وبهذا العلم الشامل اللطيف الدقيق يقضى فى كل هذه الأمور .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ إدراك المسلم بالتبعة الملقاة على عاتقه ، والاصطفاء الربانى له .

٢ ـ الحث على استثمار الوقت والطاقة فى الطاعة .

٣ ـ أن يقرّ قلب المؤمن فى كل أموره طالما كان مستقيمًا فى كل أموره .

الجزء الثاني والعشرون — سورة فاطر

هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا
يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ
كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا (٣٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن
دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ
أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ
بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا (٤٠) ۞ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ
إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤١) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن
جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ
مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤٢) اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ
وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ
الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا
(٤٣) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن
قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ
فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤)

٤٣٩

معانى الكلمات :

مقتا : غضبا .

خساراً : هلاكًا وخسرانًا .

بينة : حجة وبرهان .

غروراً : باطلا أو خداعاً .

جهد : غاية اجتهادهم .

أهدى : أكثر هداية .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يتعرف المؤمن على مصير الأمم المكذبة .

٢ ـ أن يشعر المسلم بمعية الله للمؤمنين .

٣ ـ أن يكثر المسلم من التدبر فى نفسه وفى الكون من حوله .

المحتوى التربوى :

ثم تمضى الآيات تنبه المؤمن لتذكير الإنسان والأجيال الماضية **ويقول صاحب الظلال :** « إن تتابع الأجيال فى الأرض ، وذهاب جيل ومجىء جيل ، وانتهاء دولة وقيام دولة ، يشعر الحاضرين أنهم سيكونون بعد حين غابرين، فيتأمل الآتون بعدهم آثارهم ويتذاكرون أخبارهم ، كما هم يتأملون آثار من كانوا قبلهم ويتذاكرون أخبارهم ، وجدير بأن يوقظ الغافلين إلى اليد التى تدير الأعمار ، وتقلب الصولجان ، وتديل الدول ، وتورث الملك ، وكل شىء يمضى وينتهى ، ويزول ، والله وحده هو الباقى الدائم الذى لا يزول ولا يحول » .

ومن كان شأنه أن ينتهى ويمضى ، فلا يخلد ولا يبقى ، قد كان شأنه أنه سائح فى رحلة ذات أجل ، من كان شأنه هذا جدير بأن يحسن ثواءه القليل ، ويترك وراءه الذكر الجميل ، ويقدم بين يديه ما ينفعه فى مثواه الأخير .

ولا تفتأ الآيات تذكرنا بفردية التبعية ولا يحمل أحد عن أحد شيئاً ، ولا يدفع أحد عن أحد شيئاً ، والقرب من الله بالإيمان ، والبعد والمقت والخذلان بالكفر .

ولإقامة الحجة على الآخرين تتنوع وسائل الدعوة ، فتنتقل الآيات من التفكر فى الإنسان وتوالى الأجيال إلى إثبات ضعف الإنسان وأنه جرم صغير خلقه الله وأنشأه ، وأن معبودات المشركين هى نفسها من مخلوقات الله .

فى قوله تعالى : ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ﴾ يقول **صاحب الظلال** : « يحتمل أن يكون هذا السؤال الإنكارى موجهاً إلى المشركين أنفسهم ـ لا إلى الشركاء ـ فإن إصرارهم على شركهم قد يوحى بأن يستمدون عقيدتهم هذه من كتاب أو قوة من الله فهم على بينة منه وبرهان، وليس هذا صحيحاً ولا يمكن أن يدعوه ، وعلى هذا المعنى يكون هناك إيحاء بأن أمر العقيدة إنما يتلقى من كتاب الله بين ، وأن هذا هو المصدر الوحيد الوثيق ، وليس لهم من هذا شيء يدعونه ، بينما الرسول ﷺ قد جاءهم بكتاب من عند الله بين ، فما لهم يعرضون عنه وهو السبيل الوحيد لاستمداد العقيدة » .

إن الآيات تشير لمقومات العزة عند المسلمين وهو الإيمان بالله والتمسك بكتابه الذى يهدى للخير وإلى طريق مستقيم ، بينما الكافرون ضالون مضلون يعد بعضهم بعضًا أن طريقتهم هى المثلى ، وأنهم هم المنتصرون ، وإن هم إلا مخدوعون مغرورون يغر بعضهم بعضا ، ويعيشون فى هذا الغرور الذى لا يجدى شيئاً ، هم الأخسرون أعمالا ، ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً .

إن كل بيت يبنيه بشرٌ قد يتعرض للتصدى أو السقوط ، مهما كانت قوة بنائه والآلات الدائرة التى هى من صنع البشر قد تتعرض للتوقف لعطب فيها ، لكن نظرة إلى السموات والأرض ، إلى هذه الأجرام التى لا تحصى تدور فى أفلاكها محافظة على مداراتها ، لا تختل ، ولا تخرج عنها ، وكلها لا تقوم على عمد، ولا تسند على شىء من هنا أو هناك، والله يحفظها من أن تزول بقدرته، بل إن زالت السموات والأرض واختلت وتناثرت بددًا فما أحد بقادر على أن يمسكها بعد ذلك أبداً ، وذلك هو الموعد الذى ضربه القرآن كثيراً لنهاية هذا العالم ، حين يختل نظام الأفلاك وتضطرب وتتحطم وتتناثر .

إن الآيات تنبه المؤمن أن يسير فى دعوته قرير العين ؛ مطمئن النفس لأنه موصول بالقدرة الخفية القاهرة ، ولأن منهجه هو كتاب الله الكريم .

وفى قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ حليما يمهل الناس ولا ينهى هذا العالم بهم ، ولا يأخذ بنواصيهم إلى الحساب والجزاء لا فى الأجل المعلوم ، ويدع لهم الفرصة للتوبة والعمل والاستعداد ، ﴿ غَفُورًا ﴾ لا يؤاخذ الناس بكل ما اجترموا ، بل يتجاوز عن كثير من سيئاتهم ويغفرها متى علم فيهم خيراً .

وهذا أمر الله عز وجل مع خلقه الذين أكلوا من رزقه وجحدوا نعمته ، فخليق بالدعاة أن يتحلوا بالصبر والأناة مع من يدعونهم .

ثم تورد الآيات تقريع الذين أخلفوا العهد مع الله ؛ الذين أقسموا أن يؤمنوا إذ جاءهم نذير لكن لم يوفوا بما عاهدوا لا شكا فى الرسول النذير لكن كبراً ومكرا سيئاً منهم ، وهنا تظهر رحمة الله بتذكيرهم أن أمماً قبلهم سبقت بالكفر فنالت عقاباً من الله لأن الأمور لا تمضى جزافاً ، والحياة لا تجرى فى الأرض عبثاً .

والقرآن يقرر هذه الحقيقة بل يأمر بالسير فى الأرض ؛ لننظر فى مصير الذين عتوا وكذبوا، وعاندوا من قبل هلكوا ، وأصابهم العذاب وأورث الله المؤمنين ديارهم ، ولم تنفعهم قوتهم .

والسير فى الأرض بعين مفتوحة وقلب يقظ والوقوف على مصارع الغابرين وتأمل ما كانوا فيه وما صاروا إليه ... كل أولئك خليق بأن تستقر فى القلب ظلال وإيحاءات ومشاعر وتقوى ومن ثم هذه التوجيهات المكررة فى القرآن للسير فى الأرض والوقوف على مصارع الغابرين وآثار الذاهبين وإيقاظ القلوب من الغفلة التى تسدر فيها فلا تقف وإذا وقفت لا تحس وإذا أحست لا تعتبر وينشأ عن هذه الغفلة غفلة أخرى عن سنن الله الثابتة وقصور عن إدراك الأحداث وربطها بقوانينها الكلية ، وهى الميزة التى تميز الإنسان المدرك من الحيوان الذى يعيش حياته منفصلة اللحظات والحالات لا رابط لها ولا قاعدة تحكمها ، والجنس البشرى كله وحدة أمام وحدة السنن الإلهية .

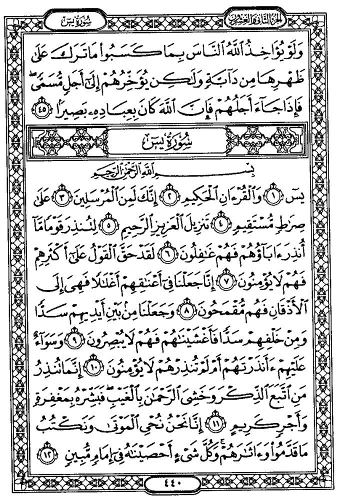
ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ فردية التبعية ، فكل يجازى بعمله .

٢ ـ الحذر من اتباع السوء والمضلين .

٣ ـ المكر السيىء يعود على أهله أشد سوءاً .

٤ ـ أن التفكر فى الكون والإنسان وبدائع الصنائع فيهما يقود إلى الإيمان بالله .


الجزء الثاني والعشرون — سورة يس

وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾

سورة يس

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾

٤٤٠

معانى الكلمات :

بما كسبوا : أى بسبب ذنوبهم . **من دابة** : أى من إنسان أو حيوان . **يس** : حرفان للتنبيه على إعجاز القرآن، وقيل: معناهما : يا إنسان ، وقيل: معناهما : يا سيد البشر،وقيل: من أسماء الرسول ﷺ. **الحكيم** : المحكم الذى لا يلحقه تغيير . **صراط مستقيم** : شرع مستقيم لا انحراف فيه .**حق القول**: وجب العذاب . **أغلالا** : قيوداً . **مقمحون** : رافعو رؤوسهم لا يستطيعون خفضها . **نكتب** : نسجل ما عملوا . **آثارهم**:ما سنوه لغيرهم من عمل حسن أو قبيح.

أحصيناه: أثبتناه وحفظناه . **إمام مبين** : أصل بين واضح .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يعرف المؤمن مظاهر رحمة الله بعباده .

٢ ـ أن يشعر المؤمن بآثار رحمة الله عليه .

٣ ـ أن يتبع المسلم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

المحتوى التربوى :

يأتى ختام سورة فاطر يكشف عن حلم الله ورحمته إلى جانب قوته وقدرته ، ويؤكد أن إمهال الله للناس عن حلم وعن رحمة ، لا يؤثر فى دقة الحساب وعدل الجزاء فى النهاية : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ وإن ما يرتكبه الناس من كفر لنعمة الله ، ومن شر فى الأرض وفساد ، ومن ظلم فى الأرض وطغيان ، إن هذا كله لفظيع شنيع ولو يؤاخذ الله الناس به لتجاوزهم ـ لضخامته وشناعته وبشاعته ـ إلى كل حىّ على ظهر هذه الأرض ، ولأصبحت الأرض كلها غير صالحة إطلاقاً ، لا لحياة البشر فحسب ، ولكن لكل حياة أخرى والتعبير على هذا النحو يبرز شناعة ما يكسب الناس وبشاعته

وأثره المفسد المدير للحياة كلها لو أخذهم الله به غير أن الله حليم لا يعجل على الناس ويفسح لهم فى الفرصة لعلهم يحسنون صنعاً ، ثم يأتى وقت الحساب فى الآخرة فلا يظلم أحد شيئاً ﴿ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ يؤخرهم أفرادًا إلى أجلهم الفردى حتى تنقضى أعمارهم فى الدنيا ويؤخرهم جماعات إلى أجلهم فى الخلافة المقدرة لهم حتى يسلموها إلى جيل آخر ويؤخرهم جنسًا إلى أجلهم المحدد لعمر هذا العالم ومجىء الساعة الكبرى .

إن الآيات تستثير فى المؤمن عواطف الرحمة والحلم والصبر على الناس حتى يستميل قلوبهم ، لأن الناس جبلت قلوبهم على الميل لمن يرفق ، والانفضاض عن الفظ الغليظ .

سورة يس :

سورة يس مكية آياتها ثلاث وثمانون ، وهى ذات فواصل قصيرة وإيقاعات سريعة ، وقصر الفواصل مع سرعة الإيقاع يطبع السورة بطابع خاص فتلاحق إيقاعاتها وتدق على الحس دقات متوالية ، يعمل على مضاعفة أثرها ما تحمله معها من الصور والظلال التى تخلعها المشاهد المتتابعة من بدء السورة إلى نهايتها وهى متنوعة وموحية وعميقة الآثار . وهى تهتم بقضايا العقيدة ، وتركز بصفة خاصة على قضية البعث والنشور .

تبدأ السورة التى تتناول قضية العقيدة ـ بالحديث عن القرآن ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ **قال صاحب الظلال** : « ويصف القرآن ، وهو يقسم به بأنه القرآن الحكيم ، والحكمة صفة العاقل ، والتعبير على هذا النحو يخلع على القرآن صفة الحياة والقصد والإرادة ، وهى من مقتضيات أن يكون حكيما ، ومع أن هذا مجاز إلا أنه يصور حقيقة ويقربها ـ فإن لهذا القرآن لروحًا ، وإن له لصفات الحىّ الذى يعاطفك وتعاطفه حين تُصفِّى له قلبك وتصفى له روحك ! وإنك لتشتاق إليه كما تشتاق إلى ملامح الصديق وسماته ، ولقد كان رسول الله ﷺ يحب أن يسمع تلاوة القرآن من غيره ، ويقف ينصت إذا سمع من يرتل هذا القرآن ، كما يقف الحبيب وينصت لسيرة الحبيب» .

والقرآن حكيم يخاطب كل أحد بما يدخل فى طوقه ، والقرآن حكيم ، يربى بحكمه . وفق منهج عقلى ونفسى مستقيم .

ثم يأتى القسم من الله عز وجل بأن محمداً هو الرسول، والله سبحانه ليس بحاجة إلى القسم ، ولكن هذا القسم منه ـ جل جلاله ـ يخلع على المقسم به عظمة وجلالاً .

فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ ﴾ هذا بيان لطبيعة الرسالة بعد بيان طبيعة الرسول ، فطبيعة الرسالة الاستقامة ، وهذه الاستقامة لها توابع ، فيقول صاحب

الظلال : « هى لاستقامتها ـ بسيطة لا تعقيد فيها ولا التواء ، لا تعقد الأمور ولا توقع فى إشكلات من القضايا والتصورات والأشكال الجدلية ، وإنما تصدع بالحق فى أبسط صوره .

وضوح الشريعة والطريق ذلك لأنها رسالة للناس كافة ، ولتكون ملائمة لحياة الناس البادى والحاضر ، والأمى والعالم ، وساكن الكوخ وساكن العمارة ، ويجد فيها كل حاجته ، ويدرك منها ما تستقيم به حياته ونظامه وروابطه فى يسر ولين » .

ثم تستمر الآيات فتعرض مصدر الإنذار وهو الله العزيز الرحيم : ﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ، والمنذرون كفار قريش الذين لم ينذر آباؤهم من قبل فكانوا غافلين عن الهدى ، وهنا تظهر رحمة الله على عباد بإرسال الرسل ، وتهيئة الدعاة من بعد الرسل لإنذار الناس ؛ ذلك لأن الغفلة أشد ما يفسد القلوب ، فالقلب الغافل معطل عن وظيفته معطل عن الالتقاط والتأثر والاستجابة ، تمر به دلائل الهدى أو يمر بها دون أن يحسها أو يدركها ، ودون أن يستقبل أو ينبض ، ومن ثم كان الإنذار هو أليق شىء بالغفلة التى كان فيها القوم الذين مضت الأجيال دون أن ينذرهم منذر أو ينبههم منبه ، فهم من ذرية إسماعيل ولم يكن لهم بعده من رسول فيها فالإنذار قد يوقظ الغافلين المستغرقين فى الغفلة الذين لم يأتهم ، ولم يأت آباءهم نذير .

ثم يكشف عن مصير هؤلاء الغافلين ، فلقد قضى الله فى أمرهم ، وحق قدر الله على أكثرهم بما علمه من حقيقتهم أنهم لا يؤمنون ، ويصورهم السياق كأنهم مغلولون ممنوعون ، إن أيديهم مشدودة بالأغلال إلى الأعناق ، موضوعة تحت أذقانهم ، ومن ثم فإن رؤوسهم مرفوعة قصرًا لا يملكون أن ينظروا بها إلى الأمام ، وهم إلى هذا محال بينهم وبين الحق بالحواجز والسدود ، مغطى على أبصارهم فلا يبصرون ، ولا ينفع الإنذار قلب غير مهيأ للإيمان على هذا الشاكلة ، إنما يوقظ القلب الحى المستعد للتلقى .

ويأتى السياق بالإنذار أن كل ما قدمت أيديهم من عمل ، وكل ما خلفته أعمالهم من آثار كلها تكتب وتحصى ، وقد عددها الله عز وجل وبينها فى الوح المحفوظ .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الحذر من الذنوب والمعاصى ، وعدم الاغترار بحلم الله وإمهال الله للعاصين .

٢ ـ أن يقبل المسلم على القرآن بكل جوارحه .

٣ ـ أن يدعو المسلم إلى الله عز وجل بقدر علمه وطاقته .

٤ ـ أن يتذكر المسلم دائماً يوم الحساب .

وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾
إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ
إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ
ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ
إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾
قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم
مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم
بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ
يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن
لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى
فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن
يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا
يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ
بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى
يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾

معانى الكلمات :

أصحاب القرية : أنطاكية .

عززنا : قوينا .

تطيرنا : تشاء منا .

لنرجمنكم : نرميكم بالحجارة .

مسرفون : كثيرو العصيان والإجرام .

أقصى : أبعد .

فطرنى : أى خلقنى .

لا تغن عنى : لا تنفع شيئًا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يعرف المسلم قصة مؤمن قرية أهل أنطاكية .

٢ ـ أن يشعر بضخامة المهمة التى قام بها الرسول ، وعظم التضحيات التى أدوها .

٣ ـ أن يصبر الدعاة فى دعوتهم لله عز وجل .

المحتوى التربوى :

وللتنوع فى وسائل التوجيه والنصح ، يأتى عرض قضية الوحى والرسالة ، وقضية البعث والحساب فى صورة قصصية بعد عرضها فى صورة تقريرية ، لتكون عواقب التكذيب والإيمان معروضة كالعيان .

والقرآن فى عرضه لهذه القصة لا يذكر اسم القرية التى وقعت فيها السورة أو موضعها ؛لأن الهدف من ذلك مضمون القصة والعبرة منها ، لأن ذلك نموذج يتكرر فى كل زمان ومكان ، ولأن ذكر اسم القرية أو موضعها لا يزيد فى دلالة القصة أو إيحائها .

فهى قرية مؤمنة أرسل الله لها رسولين فكذبوهما ، فعززهما الله بثالث ، فاعترضوا بثلاثة اعتراضات : ﴿ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ ﴾ ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ .

والاعتراض على بشرية الرسل نموذج تكرر وتبدو فيه كما يقول **صاحب الظلال** : « سذاجة التصور والإدراك ، كما يبدو فيه الجهل بوظيفة الرسول ، فقد كانوا يتوقعون أن يكون هناك سر غامض فى شخصية الرسول وحياته تكمن وراءه الأوهام والأساطير ؟ كيف يكون شخصية مكشوفة بسيطة لا أسرار فيها ولا ألغاز حولها شخصية بشرية عادية من الشخصيات التى تمتلئ بها الأسواق والبيوت .

إن الرسالة منهج إلهى تعيشه البشرية وحياة الرسول هى النموذج الواقعى وفق ذلك المنهج الإلهى ، ومن ثم كانت حياة الرسول ﷺ معروضة لأنظار أمته ، وسجل القرآن المعالم الرئيسية فى هذه الحياة بأصغر تفصيلاتها، وأحداثها، حتى خطرات قلبه سجلها القرآن فى بعض الأحيان، لتطلع عليها الأجيال ، وترى فيها قلب ذلك النبى الإنسان .

وهذه البشرية من الرسل لتثبت أن الدين شامل لجميع مناحى الحياة ، وقد كان النبى راعياً وتاجراً ومعلماً قائداً ونقل أمة من رعى الغنم لقيادة الأمم قيادة جلبت الخير للبشرية ، وحين تركت قيادة البشرية انتشر فيها الخسف والجور والطغيان .

وتأتى الآيات برد الرسل على المكذبين بأنهم مرسلون وإن وظيفتهم هى التبليغ ، ولكن المكذبين تأخذهم العزة بالإثم بأنهم يتشاءمون من المرسلين بل يهددونهم بالإيذاء ، ولكن ثبات الرسل يظهر بردهم بأن تشاؤم الكفار من عند أنفسهم .

هنا يظهر موقف الدعاة أمام خرافات المشركين بإنكارها وأنه لا تشاؤم بالوجوه أو الأمكنة أو بالكلمات ، فهى خرافة لا تستقيم على أصل مفهوم ، وأن حظ الناس ونصيبهم من خير ومن شر لا يأتيهم من خارج نفوسهم ، إنما هو معهم ، مرتبط بنواياهم وأعمالهم متوقف على كسبهم وأعمالهم .

وجاءت الآيات هنا لتعرض نموذج الإيمان ، فجاء رجل من أبعد مكان فى المدينة يسعى ويعلن إيمانه وينصح قومه باتباع المؤمنين ، وهذا الموقف له معان جمة منها :

ـ أن الفطرة السليمة هى التى تستجيب للحق وتؤمن به .

ـ وأن قلة عدد المستجيبين للرسل والدعاة لا يعنى أن الرسل لم يؤدوا ما عليهم ، لأن وظيفتهم هى البلاغ .

ـ أن الإيمان له قوة تحرك أصحابه إلى الحق مهما كانت قوة الظالمين .

ويقول صاحب الظلال : « فهذا رجل سمع الدعوة فاستجاب لها ، بعد ما رأى فيها من دلائل الحق والمنطق ما يتحدث عنه فى مقالته لقومه ، وحينما استشعر قلبه حقيقة الإيمان تركت هذه الحقيقة فى ضميره فلم يطق عليها سكوتا ، ولم يقبع فى داره بعقيدته ، وهو يرى الضلال من حوله والجحود والفجور ، ولكنه سعى بالحق الذى استقر فى ضميره وتحرك فى شعوره ، سعى به

إلى قومه وهم يكذبون ويجحدون ويتوعدون ويهددون ، وجاء من أقصى المدينة يسعى ليقوم بواجبه فى دعوة قومه إلى الحق ، وفى كفهم عن البغى .

ظاهر أن الرجل لم يكن ذا جاه ولا سلطان ، ولم يكن فى عزوة من قوة أو منعة من عشيرته ، ولكنها العقيدة الحية فى ضميره تدفعه وتجيء بهمن أقصى المدينة إلى أقصاها » .

وجاءت الآيات بذكر دلائل صدق الرسل ، وبراهين كذب المشركين ، فالرسل لا يطلبون أجراً ؛ لأن ثوابهم لا يستطيع البشر أن يوفوه ، والرسل مهتدون ، لأنهم يدعون إلى نهج واضح ، ويدعون إلى عقيدة لا خرافة فيها ولا غموض ، ويستمر مؤمن هذه القرية فى ذكر دلائل الإيمان بأن الفطر مجذوبة إلى خالقها ، وأننا بعجزنا وضعفنا نلجأ إلى الخالق ، وهل أضل ممن ينحرف عن الخالق إلى آلهة ضعاف لا يحمونه ولا يدفعون عنه الضرر حين يريد به خالقه ذلك ، وإذا بصوت الفطرة يلقيه على مسامعهم بأنه قد آمن وهم شهود على إيمانه ، ونرى الشهيد الجاهر بالحق وقد دخل الجنة ، فتمنى لو رآه قومه ، ليعرفوا الحق بما آتاه الله من الرضا والكرامة .

وقد لاحظ صاحب الأساس عدة فوائد من هذه القصة فيقول :

١ ـ من فقه الدعوة فى هذه القصة أن تكليف ثلاثة فى شأن الدعوة غاية فى القوة ؛ فقد أرسل الله عز وجل أولاً اثنين لأهل القرية كما أرسل موسى وهارون إلى فرعون ثم عزز بثالث هنا ، ومن ثم نفهم أن تكليف ثلاثة فى مهمة دعوية أقوى .

٢ ـ من قوله تعالى :﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾ فهم بعضهم أن أطراف المدينة أقرب إلى الفطرة ومن ثم منهم.أدعى إلى الاستجابة وبعضهم يقول : إن الحادثة تدل على أن وسط المدينة أكثر تمسكًا بما ورثوه من عقائد وهذا كما ينطبق على عقائد باطلة ينطبق على عقائد حق وبالتالى يختلف هذا باختلاف ما إذا كان البلد إسلاميًا أولا .

٣ ـ نادرًا ما تجد خيرًا أو قدوة عليا فى أمة يس من الأمم إلا وتجد فى أمتنا مثله ، فهذا عروة بن مسعود الثقفى يشبه حاله حال مؤمن يسن .

٤ ـ من قصة يس ندرك ضلال من يظن أن القتل فى سبيل الله علامة على خطأ السير أو علامة على تهور صاحبه ، إن القتل فى سبيل الله له مردوده الكبير فى العمل الإسلامى، إن فى نفسية الظالمين أو فى نفسية المؤمنين فى الدنيا والآخرة ؛ الشهيد وعلى المسلمين بل على العالم كله .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ عدم السكوت على البدع والمنكرات المنتشرة فى المجتمع .

٢ ـ تنوع وسائل الدعوة من الوعظ وذكر الأمثال والقصص وغيرها .

٣ ـ ألا ييأس الدعاة فى الدعوة .

٤ ـ أن يديم المسلم التفكر فى خلق الله عز وجل .

الجزء ٢٣ الحزب ٤٥

۞ وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما
كنا منزلين (٢٨) إن كانت إلا صيحة وٰحدة فإذا هم خٰمدون
(٢٩) يٰحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به
يستهزءون (٣٠) ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون
أنهم إليهم لا يرجعون (٣١) وإن كل لما جميع لدينا محضرون
(٣٢) وءاية لهم الأرض الميتة أحيينٰها وأخرجنا منها حبا
فمنه يأكلون (٣٣) وجعلنا فيها جنٰت من نخيل
وأعنٰب وفجرنا فيها من العيون (٣٤) ليأكلوا من ثمره
وما عملته أيديهم أفلا يشكرون (٣٥) سبحٰن الذى
خلق الأزوٰج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم
ومما لا يعلمون (٣٦) وءاية لهم اليل نسلخ منه النهار
فإذا هم مظلمون (٣٧) والشمس تجرى لمستقر لها
ذٰلك تقدير العزيز العليم (٣٨) والقمر قدرنٰه منازل حتى
عاد كالعرجون القديم (٣٩) لا الشمس ينبغى لها أن تدرك
القمر ولا اليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون (٤٠)

٤٤٢

معانى الكلمات :

صيحة واحدة : صوتا مهلكاً .

خامدون : ميتون لا حراك بهم .

القرون : الأمم .

آية : علامة .

الأرض الميتة : اليابسة .

نسلخ منه النهار : تنزع من مكانه الضوء .

قدرناه منازل : قدر الله سيره .

العرجون القديم : غصن النخل الذى اصفر وتقوس.

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يتعرف المسلم على بعض جوانب الإعجاز الإلهى .

٢ ـ أن يشعر المؤمن بقدرة الله فى خلقه ، ويدرك حجم التبعة الملقاة على عاتقه .

٣ ـ أن يبلغ المؤمن دعوة ربه ، بكل وسيلة ممكنة .

المحتوى التربوى :

يعرض السياق جزاء الظطاغين ، فقد كانوا أهون على الله من أن يرسل عليه الملائكة لتدمره ، فهو ضعيف ضعيف ، ولا يطيل هنا فى وصف مصرع القوم ، تهوينا لشأنهم ، وتصغيرًا لقدرهم ، فما كانت إلا صيحة واحدة أخمدت أنفاسهم،ويسدل الستار على مستعدهم البائس المهين الذليل.

ثم يبدأ الحديث بالتعميم فى موقف المكذبين بكل ملة ودين ، ويعرض صورة البشرية الضالة على مدار القرون ، وينادى على العباد نداء الحسرة وهم لا يتعظون بمصارع الهالكين الذين يذهبون أمامهم ولا يرجعون إلا يوم الدين .

وأسباب الحسرة يعرضها **صاحب الظلال** بقوله : « العباد تتاح لهم فرصة النجاة فيعرضون عنها ، وأمامهم مصارع الهالكين قبلهم لا يتدبرونها ولا ينتفعون بها ، ويفتح الله لهم أبواب رحمته

بإرسال الرسل إليهم الحين بعد الحين، ولكنهم يتجافون أبواب الرحمة، ويسيئون الأدب مع الله، ولقد كان فى هلاك الأولين الذاهبين لا يرجعون .. عظة لمن يتدبر ، ولكن العباد البائسين لا يتدبرون وهم صائرون إلى ذات المصير .. » .

إن الحيوان ليرجف حين يرى مصرع أخيه أمامه ، ويحاول أن يتوقاه قدر ما يستطيع ، فما بال الإنسان يرى المصارع تلو المصارع ، ثم يسير مندفعاً فى ذات الطريق والغرور يملى له ويخدعه عن رؤية المصير المطروق : وهذا الخط الطويل من مصارع القرون معروض على الأنظار ولكن العباد كأنهم عمى لا يبصرون » .

ثم تعرض الآيات مشاهد فى الكون تحدث عن وجود الله ، فيلتفت إليها المنتبهون ، ولينبَّه إليه الغافلون ليؤمنوا بالله عن طريق التفكر فى معجزاته مثل معجزة الحياة فهى معجزة لا تملك يد البشر أن تجريها ، فرؤية الزرع النامى ، والثمر اليانع لتفتح العين والقلب على يد الله المبدعة .

بل إن هذه المعجزة لتنبه الدعاة أن الكفار المتسلطين وهم مثل الأموات قد تبعث فيهم الهداية بقدر الله وأمره ، كما يبعث الله الحياة فى الأرض الميتة .

وتستمر الآيات فى إيراد معجزات فى خلقه وفضله عليهم بخلقه عز وجل الأحياء أزواجاً النبات فيها كالإنسان ويشير لجانب الإعجاز فى ذلك **صاحب الظلال** بقوله : « إن الوحدة لتشى موحدة اليد المبدعة، التى توجد قاعدة التكوين مع اختلاف الأشكال والأحجام والأنواع والأجناس والخصائص والسمات ، فى هذه الأحياء التى لا يعلم علمها إلا الله » ، فالخلق مختلفون فى كل شىء الأطوال والأوزان والألسنة والأمزجة حتى التوأمين لا تجد التطابق بينهما تاماً ، بل إن الثمرات مختلفة فى كل شىء فكل نوع مختلف عن النوع الآخر فى الحج والطعم وكيفية الزرع والسقى والحصاد بل إن الثمرتين من النوع لا تجدهما متماثلتين .

ومن معجزات الأرض إلى معجزات السماء تنتقل بنا الآيات بذكر معجزة تعاقب الليل والنهار التى تتكرر كل يوم بميزان محسوب رقيق ـ فيما عدا بعض المواقع التى يدوم فيها النهار كما يدوم فيها الليل أسابيع وأشهراً قرب القطبين فى الشمال والجنوب وهو مع تكراره اليومى عجيبة تدعو إلى التأمل والتفكر .

ومعجزة الليل والنهار مرتبطة بعجزة هى أكبر هى معجزة الشمس التى تجرى فى اتجاه واحد فى الفضاء الكونى لا تتوقف إلا بإذن الله فى مستقر لا يعلمه إلا خالقها ، تجرى بميزان محسوب دقيق . وهذه الكتلة الهائلة تتحرك وتجرى فى الفضاء ، لا يسندها شىء ، ندرك طرفاً من صفة القدرة التى تصرف الوجود عن قدرة وعلم . ثم معجزة كونية تعرضها الآيات وهى معجزة

القمر الذى يبدأ هلالاً ثم ينمو ليلة بعد ليلة حتى يستدير بدراً ، ثم يأخذ فى التناقص حتى يعود هلالاً مقوساً كالعرجون القديم .

فى قوله تعالى : ﴿ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ ، يقول **صاحب الظلال** ـ بتصرف : « إنه تعبير موح عجيب فالقمر فى لياليه الأولى هلال ، وفى لياليه الأخيرة ، ولكنه فى الأولى يبدو وكأن فيه نضارة وفتوة ، وفى الأخيرة يطلع وكأنما يغشاه سهوم ووجوم ، ويكسوه شحوب وذبول .. ذبول العرجون القديم وهو العذق الذى يكون فيه البلح من النخلة » .

والحياة مع القمر ليلة بعد ليلة تثير فى الحس مشاعر وخواطر ندية ثرية موحية عميقة ، والقلب البشرى الذى يعيش مع القمر دورة كاملة ، لا ينجو من تأثرات واستجابات ، ومن سبحات مع اليد المبدعة للجمال والجلال المدبرة للأجرام بذلك النظام سواء كان يعلم سر هذه المنازل والأشكال القمرية المختلفة أولا يعلم فالمشاهدة وحدها كفيلة بتحريك القلب واستجاشة الشعور وإثارة التدبر والتفكير » .

يقول **صاحب الأساس** فى قوله تعالى : ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ : .. هناك قراءة أخرى ذكرها ابن كثير للآية وهى : « والشمس تجرى لا مستقر لها » لا قرار لها ولا سكون .

وفى ختام هذا المشهد تأتى الآيات لتقرر دقة النظام الكونى فى قوله تعالى : ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ . فكل نجم وكل كوكب لا يتجاوز جريانه أو دورانه وقدر الله ذلك ليحفظ هذا الكون من التصادم أو التصدع ؛ وإن الإنسان ليتضاءل وهو ينظر إلى هذه الملايين التى لا تحصى من النجوم الدوارة ، والكواكب السيارة ، وهى مع ضخامتها أشبه بحركة السفن فى الخضم الفسيح ، هى نقطة سابحة فى ذلك الفضاء المرهوب .

والتفكر فى هذه المعجزات وحسن عرضها أمام الناس يقودهم للإيمان ؛ لأنها تلامس أدق تفاصيل حياتهم ، ولها دور فى منافعهم ومعايشهم .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الله لا يغفل عن الظالمين وإن أمهلهم لبعض الوقت .

٢ ـ أن يحسن المسلم أخذ العبرة والعظة من قصص السابقين .

٣ ـ شكر الله فى كل مكان وآن وحال .

٤ ـ دوام التفكر فى خلق الله عز وجل ، وإدراك جانب الإعجاز فى ذلك .

وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ (٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ (٤٤) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥) وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤٦) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٤٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٤٨) مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠) وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ (٥١) قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣) فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤)

معانى الكلمات :

فلا صريخ: فلا مغيث . **متاعاً إلى حين**: أى إلى موعد مقدور لإهلاكها . **اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم** : تجنبوا غضب الله ، وارتكاب الذنوب . **أنطعم من لو يشاء الله أطعمه** : يقول الكافرون استهزاء : هؤلاء الذين تأمروننا بالإنفاق عليهم لو أراد الله لأغناهم وأطعمهم من رزقه . **لوعد** :يوم القيامة . **صيحة واحدة** : أى نفخة الموت .

يخصمون : أى يختصمون ويتجادلون .

فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون : فإذا بهؤلاء الأموات يخرجون من قبورهم مسرعين . **يا ويلنا** : يا هلاكنا .

محضرون : مجموعون فى موقف الحساب .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يتعرف المسلم على فضل الزكاة والإنفاق فى سبيل الله ، وسوء عاقبة كتمانهما .

٢ ـ أن يشعر المؤمن بفضل الله عليه فيما بين يديه من نعم الله .

٣ ـ أن يؤدى المسلم شكر نعمة الله عز وجل عليه بالزكاة والصدقة وغيرهما من أنواع الشكر

المحتوى التربوى :

يقول صاحب الظلال : « إن فى السياق مناسبة لطيفة بين النجوم والكواكب السابحة فى أفلاكها والفلك المشحون السابح فى الماء يحمل ذرية بنى آدم ! مناسبة فى الشكل ومناسبة فى الحركة ومناسبة فى تسخير هذا وذلك بأمر الله وحفظه بقدرته فى السموات والأرض سواء وهذه آية كتلك ، يراها العباد ، ولا يتدبرونها ، بل هذه أقرب إليهم وأيسر تدبرًا لو فتحوا قلوبهم للآيات » .

نعمة أخرى على العباد تذكرها الآيات هى نعمة البحر وتهيئة الماء ووضع خواص فيه لحمل السفن ، وهى نعمة يشعر بها من يركب البحر فى السفن التى خلقها الله لعباده ، بل إن الإعجاز

الذى ذكر فى الآية يسع كل العصور كما قال **صاحب الأساس** فى تفسيره عند قوله تعالى : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ فالفلك فى الآية هى السفن ، والسفن تصنع من خشب وحديد ، أو من حديد فقط ، ومما يشبه السفن من وسائل حديثة تسير فى البر السيارات والقطارات والدبابات والطائرات ، وهى لم تكن موجودة زمن نزول الوحى .

إن هذه الآية تشير لشمولية القرآن والمنهج الذى جاء به الإسلام ، كما تشير إلى أن الإعجاز فى خلق السموات والأرض واقع إلى قيام الساعة مهما أتى الخلق من عجائب المخترعات ، وبديع الاكتشافات .

ثم تأتى الآيات بعد ذلك بذكر امتنان الله عز وجل على عباده بأنهم إذا ركبوا فى السفن أدركتهم رحمة الله ؛ لأن السفينة فى البحر كالريشة فى مهب الريح مهما ثقلت وضخمت وأتقن صنعها ، وإلا تدركها رحمة الله فهى هالكة هالكة ، والذين ركبوا يعرفون أخطاره وأهواله .

يقول صاحب الظلال عن هذه الآيات : « هى بذاتها كافية أن تثير فى القلب المفتوح هزة ورعشة وانتفاضة ، وأن تخلطه بهذا الوجود ، هذا الكتاب المفتوح الذى تشير كل صفحة من صفحاته إلى عظمة الخالق ، ولطيف تدبيره وتقديره » .

والعجب بعد ذلك هؤلاء الكفار حين تلامس هذه الآيات الكونية حياتهم ومعايشهم فى برهم وبحرهم لكنهم فى غفلة لا تتوجه أنظارهم ، ولا تستيقظ قلوبهم ، وتتتابع الآيات على هؤلاء الكفار والمعاندين وتتوالى الرسل لينذروهم لكنهم يعرضون ، بل إنهم حين يطالبون بالإنفاق لإطعام الفقراء يتطاولون على من يدعونهم قائلين لهم : ﴿ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ .

إن هذا الموقف يشى بمعان كثيرة منها :

ـ إن المنكرين لله يجب أن تكثف الدعوة إليهم ، وينوع الأسلوب لأنهم أغلظ الناس قلبا لتقبل الإيمان ، فيذكرون بالأمم السابقة التى ظلمت وتجبرت ، ويهددون بيوم الحساب وما فيه من أهوال ، وبالنعمة التى بين أيديهم ومقتضيات دوامها ، ومقتضيات زوالها .

ـ كما أن تصور الكافرين أنهم المطعمون يشى بعدم إدراكهم سنن الله عز وجل كما **يقول صاحب الظلال** بتصرف : « فالله رازق الجميع ، وكل ما على الأرض من أرزاق ينالها العباد هى من خلقه ، ولكن اقتضت مشيئة الله أن تكون للناس حاجات لا ينالونها إلا بالكدح والكدّ ، كما اقتضت أن يتفاوت الناس فى المواهب والاستعدادات حتى تفاوتت الأرزاق بين أيدى العباد

فمنهم الأثرياء ومنهم الفقراء ، ويعالج الإسلام ذلك بخروج أصحاب الثراء عن قدر من مالهم يعود على الفقراء ، ويكفل طعامهم وضرورياتهم ، ولهذا القدر تصلح نفوس كثيرة من الفقراء والأغنياء سواء ، فقد جعله الإسلام زكاة ، وجعل فى الزكاة معنى الطهارة ، وجعلها كذلك عبادة ، وألف بها بين الفقراء والأغنياء فى مجتمعه الفاضل الذى ينشئه على غير مثال ».

فقولة أولئك المحجوبين عن إدارك حكمة الله فى الحياة : ﴿ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥ ﴾ وتطاولهم على الداعين إلى الانفاق بقولهم : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ .. إن هو إلا الضلال المبين الحقيقى عن إدارك طبيعة سنن الله وإدراك حركة الحياة وضخامة هذه الحركة وعظمة الغاية التى تتنوع من أجلها المواهب والاستعدادات وتتوزع بسببها الأموال والأرزاق .

والإسلام يضع النظام الذى يضمن الفرص العادلة لكل فرد ، ثم يدع النشاط الإنسانى المتنوع اللازم للخلافة فى الأرض يجرى مجراه النظيف ثم يعالج الآثار السيئة بوسائله الواقية .

ويقول صاحب الأساس : بمناسبة قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ . دل هذا على أن الكفر معدن الشح ، وأن الحياة البشرية بدون إيمان لا يمكن أن يقوم فيها نظام اقتصادى متراحم متعاطف ، ومن ثم نلاحظ أن التكافل (فى النظم الوضعية) لا يقوم إلا بسيف القانون ، أما فى النظام الإسلامى فسيف التشريع قائم ، ومع ذلك فللتراحم البشرى وللتعاطف محله ، وبدون ذلك لا تستقيم الحياة البشرية ، فسيف القانون لا يطول كل الأحوال ، والتراحم والتعاطف لا يكفيان فى كل الحالات » .

ثم تنتقل الآيات لذكر إنكار المشركين ليوم البعث كما أنكروا آلاء الله فى الحياة الدنيا . وتحذير الله لهم بأن يوم القيامة سيأتيهم وهم يختصمون ويتشاجرون على عادتهم ، فيموتون ثم يبعثون ويحاسبون ويرون جزاء الصد والعنت والإنكار وثواب الإيمان والتسليم لله .

فى الآيات ما يشير إلى أن المعصية تقود إلى معصية أخرى فالمشركون أنكروا آلاء الله ونعمه فامتنعوا عن شكرها بالإنفاق وكفروا بيوم القيامة الذى حُذروا من عقاب الله فيه .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أن القرآن صالح لكل زمان ومكان وأنه منهج الله الذى وضعه لعباده .

٢ ـ الحذر من المعاصى صغيرها وكبيرها .

٣ ـ أن نحذر من البخل وأهله وأن نوطن أنفسنا على الجود والسخاء ما أمكن ذلك .

٤ ـ تذكر يوم القيامة وشدائده .

الجزء الثالث والعشرون — سورة يس

إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾

٤٤٤

معانى الكلمات :

شغل : نعيم عظيم يشغلهم عما سواه .

فاكهون : متلذذون أو فرحون .

الآرائك : السرر المزينة . **متكئون** : جالسون فى استرخاء ومتعة . **امتازوا** : أى انفردوا عن المؤمنين . **جبلا كثيراً** : خلقاً كثيرين أضل الشيطان. **اصلوها** : ادخلوها أو قاسوا حرها . **نختم على أفواههم** : نمنعهم من الكلام يوم القيامة . **طمسنا على أعينهم**: أعميناهم . **لمسخنا على مكانتهم** : جعلناهم متجمدين فى مكان معاصيهم . **نعمره** : نجعل عمره طويلا . **ننكسه فى الخلق** : نجعله يمر فى مراحل الضعف فيصير كالطفل لا يعلم شيئاً .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يتعرف المؤمن على صور ومشاهد الكافرين فى الآخرة .

٢ ـ أن يمتلئ قلب المؤمن خشية من الله عز وجل .

٣ ـ أن يتدارس المؤمن القرآن بتدبر وخشية .

المحتوى التربوى :

وبعد عرض عقاب الكافرين تعرض الآيات جزاء المؤمنين فهم بسبب شكرهم لربهم مشغولون بما فيه من النعيم كما شغلوا بربهم فى دنياهم ، هم وأزواجهم فى راحة فى الآخرة ، كما أتعبوا أجسامهم فى طاعته فى الدنيا ، والتكريم الأكبر هو رضا الله عنهم وإلقائه السلام عليهم .

وأما الآخرون الضالون فلا يطوى السياق القرآنى موقفهم وحسابهم بل يعرضه السياق القرآنى معرض التبكيت والتنكيل ، ويعزلون عن المؤمنين فى موقف الحساب ، وقد كان هؤلاء الكافرون يتجنبون المؤمنين فى الدنيا كبرًا ، ويوبخهم الله على كفرهم وقد أرسل إليهم الرسل ،

وكانت الدلائل الواضحة أمامهم فى الدنيا . فالآيات تعرض هنا أيضاً طريق الرشد الذى حاد عنه المشركون وهو الطريق المستقيم هذا الطريق ضلّ عنه خلق كثيرون ذلك أن الإيمان اصطفاء من الله لعباده الذين تفتحت قلوبهم وعقولهم ، وفقهوا تبعات هَذا الإيمان ، وصبروا على ما ابتلوا من الأذى والشهوات لكن الضالين لم يعقلوا ولم يهتدوا .

ثم تأتى الآيات بمشهد يخذل الكفار بعضهم بعضاً وتشهد عليهم جوارحهم ، وتتفكك شخصياتهم مزقًا وآحادا ، يكذب بعضها بعضًا وتعود كل جارحه إلى ربها مفردة ويثوب كل عضو إلى بارئه مستسلمًا إنه مشهد عجيب رهيب تذهل من تصوره القلوب . وكذلك انتهى المشهد وألسنتهم معقودة وأيديهم تتكلم وأرجلهم تشهد على غير ما كانوا يعهدون من أمرهم وعلى غير ما ينتظرون ، ولو شاء الله لفعل بهم غير ذلك ولأجرى عليهم من البلاء ما يريد الخير الإيمان .

فى قوله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ **يقول الإمام الشوكانى** : « وقيل : سبب الختم على أفواههم ليعرفهم أهل الموقف ، وقيل : ختم على أفواههم لأجل أن يكون الإقرار من جوارحهم ؛ لأن شهادة الناطق أبلغ فى الحجة لخروجه مخرج الإعجاز ، وقيل : ليعلموا أن أعضاءهم التى كانت أعواناً لهم فى معاصى الله صارت شهوداً عليهم ، وجعل ما تنطق به الأيدى كلاماً وإقراراً ؛ لأنها كانت المباشرة لغالب المعاصى ، وجعل نطق الأرجل شهادة ؛ لأنها حاضرة عند كل معصية وكلام الفاعل إقرار ، وكلام الحاضر شهادة ، وهذا اعتبار بالغالب ، وإلا فالأرجل قد تكون مباشرة للمعصية كما تكون الأيدى مباشرة لها » .

إن الآيات تظهر قدرة الله على الكافرين أنه لو شاء لجعل الكافرين فى مشهد مثير للسخرية منهم فهم عميان مطموسون ثم هم قد جمدوا فجأة فى مكانهم ، واستحالوا تماثيل لا تمضى ولا تعود ، هذا كله وقد كانوا هم أنفسهم يستخفون بالوعيد ويستهزئون منه .

بل إن الآيات لا تكتفى بإيراد ضعف الكافرين فى الآخرة وقدرة الله عليهم ، بل تعرض ضعفهم فى الدنيا فى قوله تعالى : ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ فإنهم إن عمروا طويلاً فإنهم صائرون إلى شيخوخة وهرم ، ثم إلى خرف ونكسة فى الشعور والتفكير ، ويبسط فى ذلك **صاحب الظلال** بقوله : « والشيخوخة نكسة إلى الطفولة بغير ملاحة الطفولة وبراءتها المحبوبة ، وما يزال الشيخ يتراجع ، وينسى ما علم وتضعف أعصابه ، ويضعف فكره ، ويضعف احتماله ، حتى يرتد طفلا ، ولكن الطفل محبوب اللثغة ، تبسم له القلوب والوجوه عند

كل حماقة ، والشيخ مجتوى لاتقال له عثرة إلا من عطف ورحمة ، وهو مثار السخرية كلما بدت عليه مخايل الطفولة وهو عجوز ، وكلما استحمق وقد قوست ظهره السنون .

﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾ وردت قضية الوحى فى أول السورة والآن تجيء فى صورتها هذه للرد على ما كان يدعيه بعضهم من وصف النبى ﷺ بأنه شاعر ووصف القرآن الذى جاء به بأنه شاعر وما كان يخفى على كبراء قريش أن الأمر ليس كذلك ، وأن ما جاءهم به محمد ﷺ قول غير معهود فى لغتهم وما كانوا من الغفلة بحيث لا يفرقون بين القرآن والشعر إنما كان هذا طرفًا من حرب الدعاية التى شنوها على الدين الجديد وصاحبه ﷺ فى أوساط الجماهير معتمدين فيها على جمال النسق القرآنى المؤثر .. وهنا ينفى الله سبحانه وتعالى أنه علَّم الرسول الشعر وإذا كان الله لم يعلمه فلن يعلم .

ثم ينفى لياقة الشعر بالرسول ﷺ : ﴿ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾ فالشعر منهج غير منهج النبوة الشعر انفعال وتعبير عن هذا الانفعال والانفعال يتقلب من حال إلى حال والنبوة وحى على منهج ثابت على صراط مستقيم يتبع ناموس الله الثابت الذى يحكم الوجود كله ولا يتبدل مع الأهواء الطارئة تقلب الشعر مع الانفعالات المتجددة التى لا تثبت على حال ..

والنبوة اتصال دائم بالله ، وتلق مباشر عن وحى الله ، ومحاولة دائمة لرد الحياة إلى الله ، وبالتالى فإن القرآن ليس من جنس الشعر ، هو ذكر من الله يوعظ به الإنس والجن ، ذكر لله يشتغل به القلب ، وقرآن يشتل به اللسان ، وهو منزل ليؤدى وظيفة محددة .

يقول صاحب الظلال : « ويضع التعبير القرآنى الككفر فى مقابل الحياة، فيجعل الكفر موتا، ويجعل استعداد القلب للإيمان حياة ، ويبين وظيفة هذا القرآن بأنه نزل على الرسول ﷺ لينذر من به حياة ، فيجدى فيهم الإنذار ، فأما الكافرون فهم موتى لا يسمعون النذير ... وهكذا يعلم الناس أنهم إزاء هذا القرآن فريقان : فريق يستجيب فهة حى، وفريق لا يستجيب فهو ميت ، ويعلم هذا الفريق أن قد حق عليه القول ، وحق عليه العذاب » .

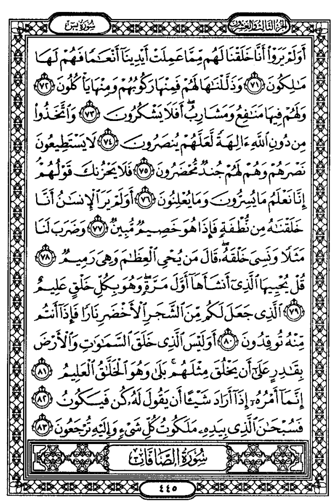
ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الحذر من الشيطان ووسوسته وإغرائه .

٢ ـ ضرورة إخلاص العبادة لله عز وجل .

٣ ـ الإيمان هو الحياة الحقيقية للقلب ، والكفر هو الموت بعينه .

٤ ـ ضرورة الارتباط بالقرآن ترتيلا ومدارسة وتدبراً .



معانى الكلمات :

أنعاماً : الإبل والبقر والغنم والمعز .

ذللناها : سخرناها .

خصيم مبين : شديد الخصومة .

رميم : بالية متفتتة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يعلم المؤمن فضل التفكر فى خلق الله .

٢ ـ أن يشعر المسلم بفضل الله عليه .

٣ ـ أن يديم المسلم التفكر ويكثر من الشكر لله .

المحتوى التربوى :

وتواصل الآيات عرض قضية الألوهية والوحدانية ، من خلال مشاهدات القوم أمامهم ، ونعم الله عليهم من الأنعام على اختلاف أنواعها ، ومن قدرة الله وتدبيره فيها ، وما أودع الله فيها من الخصائص كى تكون مسخرة ومهيأة للناس ، ويتأمل فى هذه النعم **صاحب الظلال** : « وحين ينظر الإنسان إلى هذه النعم ـ فإنه يحس لتوه أنه مغمور بفيض من نعم الله ، فيض يتمثل فى كل شىء حوله ، وتصبح كل مرة يركب فيها دابة ، أو يأكل قطعة من لحم ، أو يشرب جرعة من لبن ، أو يتناول قطعة من سمن أو جبن ، أو يلبس ثوباً من شعر أو صوف أو وبر إلى آخره ،

لمسة وجدانية تشعر قلبه بوجود الخالق ورحمته ، ويطرد هذا فى كل ما تمس يده من أشياء حوله ، وكل ما يستخدمه من حى أو جامد فى هذا الكون الكبير ، وتعود حياته كلها تسبيحاً لله وحمداً وعبادة آناء الليل وأطراف النهار » .

ورغم هذه النعم الماثلة لكن الناس لا يشكرون نعم الله عز وجل عليهم بل يعبدون معبودات شتى مثل الأصنام والجن والملائكة أو النجوم . ويتركون عبادة المنعم المتفضل الذى يكلأ الخلق برحمته ، ويرزقهم ، رغم أن ما يعبدونه من هذه الأصنام هم أنفسهم الذين يحمونها ، ومن يعبدون النار هم الذين يوقدونها ، ومن يعبدون الحيوان هم الذين يطعمونها . وفى قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ .

يقول صاحب الظلال : « وكان هذا غاية فى سخف التصور والتفكير ، غير أن غالبية الناس لم ترتق عن هذا السخف إلا من حيث الشكل ، فالذين يؤلهون الطغاة والجبارين اليوم ، لا يبعدون كثيراً من عباد تلك الأصنام والأوثان ، فهم جند محضرون للطغاة ، وهم الذين يدفعون عنهم ، ويحمون طغيانهم ، ثم هم فى الوقت ذاته يخرون للطغيان » .

وفى قوله تعالى : ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ **يقول الإمام الشوكانى** فى هذه الآية : « هذا القول ما يفيده قوله : ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً ﴾ والكلام من باب التسلية للرسول ، ويجوز أن يكون المراد بالقول المذكور : هو قولهم : إنه ساحر وشاعر ومجنون » .

ويقول **القاسمى فى تفسيره محاسن التأويل** : .. .تقديم السر لبيان إحاطة علمه تعالى بحيث يستوى السر عنده والعلانية أو للإشارة إلى الاهتمام بإصلاح الباطن . فإنه ملاك الأمر ..

ثم يعرض النص قضية البعث والنشور ، وقضية القدرة المطلقة لله عز وجل ، فالله خالق النطفة وبقدرته حول تلك النطفة إنساناً ثم أصبح هذا الإنسان يجادل ربه ويخاصمه ويطلب منه البرهان والدليل !

يجادل الإنسان فى الخلق وهو يصنع فى حياته أشياء وآلات ، وإذا أصاب هذه الآلات العطب صنع غيرها فلما يستعظم الإنسان على القدرة أن تعيده وتنشره بعد البلى والدثور!

ثم يزيد الله هذه القوة والقدرة إيضاحاً بأن ينتبه الناس لمشاهدة يرونها دائماً لكنهم يمرون عليها غافلين ، فهم يرون الأشجار الناضرة التى تروى بالماء ثم يصير هذا الشجر وقوداً للنار، والمعرفة العلمية الدقيقة العميقة لطبيعة الحرارة التى يختزنها الشجر الأخضر من الطاقة

الشمسية، وهو ريان بالماء ناضر بالخضرة .. هذه المعرفة العلمية تزيد العجيبة بروزاً فى الحس ووضوحاً ، ولو فتحنا لها قلوبنا لباحت لنا بأسرارها ، ولعشنا معها فى عبادة دائمة وتسبيح .

ثم يستطرد القرآن فى عرض دلائل القدرة وتبسيط قضية الخلق والإعادة للبشر أجمعين فى قوله تعالى : ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ فعند التفكر فى هذا الكون .. فى هذه الأرض التى نعيش عليها ، ويشاركنا ملايين الأجناس ؛ ثم نحن لا نعلم شيئاً من حجمها ، ولا شيئاً من حقيقتها ، ولا نعلم عنها حتى اليوم إلا القليل ، هذه الأرض تابع صغير للشمس التى تعيش أرضنا على حرارتها وضوئها وهذه الشمس تمثل مائة مليون مليون من المجرة التى تتبعها شمسنا وفى الكون مجرات كثيرة ، والكل فى حركة ، ويحفظ الله هذه الأفلاك فلا تصادم ولا اضطراب ، كل هذا دليل على هوان خلق الإنسان على الله عز وجل.

﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ وأين الناس من ذلك الخلق الهائل العجيب ؟ ﴿ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ ولكنَّ الله سبحانه يخلق هذا وذلك ويخلق غيرهما بلا كلفة ولا جهد ، ولا يختلف بالقياس إليه خلق الكبير وخلق الصغير : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ يكون هذا الشىء سماء أو أرضًا ويكون بعوضة أو نملة هذا وذلك سواء أمام الكلمة كن فيكون .. ليس هناك صعب ولا سهل وليس هنالك قريب ولا بعيد .. فتوجه الإرادة لخلق الشىء كاف وحده لوجوده كائنًا ما يكون .. إنما يقرب الله للبشر الأمور ليدركوها بمقياسهم البشرى المحدود ﴿ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ولفظة ملكوت بصياغتها هذه تضخم وتعظم حقيقة هذه العلاقة علاقة الملكية على كل شىء من هو المملوك .. ثم إن إليه وحده المرجع والمصير .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ التفكر فى خلق الله عز وجل .

٢ ـ وجوب شكر الله عز وجل .

٣ ـ إدراك حمق الكفر وتردى أهله .

٤ ـ أن يحسن المسلم الدعوة لعبادة الله عز وجل .

الجزء الثالث والعشرون — سورة الصافات

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣) إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (٥) إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (٧) لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠) فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ (١١) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٥) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ (١٩) وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١) ۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (٢٤)

٤٤٦

معانى الكلمات :

يقذفون من كل جانب : يرجمون من كل ناحية .

دحوراً : إبعاداً وطرداً .

واصب : دائم لا ينقطع .

خطف الخطفة : التقط الكلمة بسرعة خفية .

فأتبعه شهاب ثاقب: فلحقه كوكب مضيء فأحرقه .

لازب : لازم ملتزق بعضه ببعض .

داخرون : صاغرون أذلاء .

زجرة واحدة : صيحة واحدة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على طوائف الملائكة وعظمتها المقررة لعظمة خالقها الذى لا إله غيره .

٢ ـ أن ندرس الحكمة من وجود النجوم فى السماء .

٣ ـ أن نؤمن أن الشياطين حرموا من استراق السمع ، وأن البعث لابد منه .

المحتوى التربوى :

هذه السورة مكية تستهدف بناء العقيدة فى النفوس ، وتخليصها من شوائب الشرك فى كل صوره وأشكاله ، ولكنها بصفة خاصة ـ تعالج صورة معينة من صور الشرك التى كانت سائدة فى البيئة العربية الأولى ، هى الصورة التى كانت جاهلية العرب تستسيغها ، وهى تزعم أن هناك قرابة بين الله ـ سبحانه ـ وبين الجن ، وتستطرد فى تلك الأسطورة فتزعم أنه من التزاوج بين الله ـ تعالى ـ والجنة ولدت الملائكة ، ثم تزعم أن الملائكة إناث ، وأنهن بنات الله .

هذه الأسطورة تتعرض لحملة قوية فى هذه السورة تكشف عن تهافتها وسخفها ، ونظراً لأنها هى الموضوع البارز الذى تعالجه السورة ، فإنها تبدأ بالإشارة إلى طوائف من الملائكة يقسم الله عز وجل بها ؛ إظهاراً لعظم شأنها وكبر فوائدها ، وتنبيها إلى الاعتبار بصفتها وما تستدعيه من سمتها .

يقول النسفى : « أقسم سبحانه وتعالى بطوائف الملائكة أو بنفوسهم الصافات أقدامها فى الصلاة ، فالزجرات السحاب سوقا أو عن المعاصى بالإلهام ، فالتاليات لكلام الله من الكتب المنزلة وغيرها ، وهو قول ابن عباس وابن مسعود ومجاهد ، أو بنفوس العلماء العمال الصافات أقدامها فى التهجد وسائر الصلوات ، فالزجرات بالمواعظ والنصائح ، فالتاليات آيات الله والدارسات شرائعه، أو بنفوس الغزاة فى سبيل الله التى تصف الصفوف، وتزجر الخيل للجهاد، وتتلو الذكر مع ذلك » .

يقسم الله سبحانه بهذه الطوائف من الملائكة على وحدانيته ، فليس له شريك فى الإلهية فأخلصوا له الحب والخوف والرجاء وسائر أنواع العبادة ، والله سبحانه رب السموات والأرض وما بينهما ، فهو الخالق لهذه المخلوقات والرازق لها ، المدبر لها ، فكما أنه لا شريك له فى ربوبيته إياها ، فكذلك لا شريك له فى ألوهيته ، وكثيراً ما يقرر تعالى توحيد الإلهية بتوحيد الربوبية لأنه دال عليه ، وقد أقر به أيضاً المشركون فى العبادة ، فيلزمهم بما أقروا به على ما أنكروه :

وخص الله المشارق بالذكر ، لدلالتها على المغارب ، أو لأنها مشارق النجوم التى يذكر لها فائدتين عظيمتين : **إحداهما** : كونها زينة للسماء ؛ إذ لولاها لكانت السماء جرما مظلما لا ضوء فيها ، ولكن زينتها فيها لتستنير أرجاؤها وتحسن صورتها ، ويهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ، ويحصل فيها من المصالح ما يحصل ، **والثانية** : حراسة السماء عن كل شيطان مارد يصل بتمرده إلى استماع الملأ الأعلى ، وهم الملائكة ، فإذا استمعت قذفتها بالشهب الثواقب من كل جانب طرداً لهم ، وإبعاداً عن استماع ما يقول الملأ الأعلى ، فهم فى الدنيا مرجومون بالشهب ، وقد أعد لهم فى الآخرة نوعًا من العذاب دائمًا غير منقطع .

ولولا أنه تعالى استثنى لكان ذلك دليلا على أنهم لا يستمعون شيئاً أصلا ، ولكن استثنى من تلقف من الشياطين المردة ، الكلمة الواحدة على وجه الخفية والسرقة ، وتارة يدركه الشهاب قبل أن يوصلها إلى أوليائه فينقطع خبر السماء وتارة يخبر بها قبل أن يدركه الشهاب فيكذبون معها مائة كذبة يروجونها بسبب الكلمة التى سمعت من السماء .

ولما بين هذه المخلوقات العظيمة قال . اسأل منكرى خلقهم بعد موتهم ، هل إيجادهم بعد موتهم أشد خلقا وأشق أم من خلقنا من هذه المخلوقات ؟ فلا بد أن يقرر أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، ومن هان عليه خلق هذه الخلائق العظيمة كان خلق البشر أهون عليه ، وذكر خلقهن من طين احتجاجًا عليهم بأن الطين اللازب الذى خلقوا منه تراب . فمن أين استنكروا أن يخلقوا من تراب .

يقول صاحب **الأساس** : « هذه الآية جسر للانتقال إلى موضوع اليوم الآخر ، وهى جسر يبين أن موضوع اليوم الآخر مرتبط بموضوع الإيمان بالله ، فالسياق أشعرنا أن مجرد معرفة أن الله هو الخالق لما ذكر ، فهذا يقتضى إيماناً بالبعث ، والسياق أشعرنا أن الكافرين لا يعطون هذا

اللازم حقه ، ومن ثمّ أمر الله سبحانه رسوله أن يوجه لهم هذا السؤال ليقيم عليهم الحجة من خلاله ، ومن هذا نفهم أن الذى لا يؤمن باليوم الآخر ليس مؤمناً بالله أصلاً » .

ثم يلتفت السياق إلى عجب الرسول ﷺ من تكذيب من كذب بالبعث ، بعد أن أراهم الله من الآيات العظيمة والأدلة المستقيمة ، وهو حقيقة محل عجب واستغراب ؛ لأنه مما لا يقبل الإنكار ، وأعجب من إنكارهم وأبلغ منه أنهم يسخرون ممن جاء بالخبر عن البعث ، فلم يكفهم مجرد الإنكار ، حتى زادوا السخرية بالقول الحق ، ومن العجب أيضاً أنهم إذا ذكروا ما يعرفون فى فطرهم وعقولهم وفطنوا له ، وألفت نظرهم إليه لا يذكرون ذلك ، ومن العجب أيضاً أنهم إذا أقيمت عليهم الأدلة يسخرون منها ويعجبون ، ومن العجب أيضاً قولهم للحق لما جاءهم ما هو إلا سحر ظاهر ، وما هو الذى سموه سحراً ؟ إنه البعث ، فهم يتساءلون سؤال إنكار أنبعث إذا كنا تراباً وعظاماً أو أيبعث أيضاً آباؤنا الأقدمون ؟ ويعنون أنهم أقدم ، فبعثهم أبعد وأبطل .

ولما كان هذا منتهى ما عندهم وغاية ما لديهم ، أمر الله رسوله أن يجيبهم بجواب مشتمل على ترهيبهم ، فقال : قل نعم ستبعثون أنتم وآباؤكم الأولون وأنتم ذليلون صاغرون ، لا تمتنعون ولا تستعصون على قدرة الله ، وما هى إلا صيحة واحدة فإذا هم أحياء بصراء ينظرون إلى سوء أعمالهم أو ينتظرون ما يحل بهم ، وعندئذ يرجعون على أنفسهم بالملامة ، ويعترفون بأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم فى الدار الدنيا، فإذا عاينوا أهوال القيامة ندموا كل الندم حيث لا ينفعهم الندم ، وقالوا : هذا اليوم الذى ندان فيه أى نجازى بأعمالنا ، والويل كلمة يقولها وقت الهلكة ، ويقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ : هذا يوم القضاء الذى كنتم به تكذبون ، ثم يؤمر بهم إلى النار التى بها كانوا يكذبون ، فيقال : احشروا الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك والمعاصى ، وأزواجهم الذين من جنس عملهم كل يضم إلى من يجانسه فى العمل ، وما كانوا يعبدونها من الأصنام والأنداد فاجمعوهم وسوقوهم سوقا عنيفا إلى جهنم، وبعد ما يتعين أمرهم إلى النار يقال : قفوهم قبل أن توصلوهم إلى جهنم ، إنهم مسؤلون عما كانوا يفترونه فى الدنيا ، ليظهر على رؤوس الأشهاد وكذبهم وفضيحتهم .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الملائكة خلق عظيم من خلق الله تعالى ـ مطيعون لربهم ، عابدون له منفذون لأوامره يجب الإيمان بهم .

٢ ـ الشياطين أعداء الإنسان ولا يجوز طاعتهم ، وهم لا يملكون نفعا ولا ضراً ، ولا يعلمون غيباً .

٣ ـ عدم الانتفاع بالإيمان عند معاينة العذاب .

الجزء الثالث والعشرون — سورة الصافات

مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ
عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨)
قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ
بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١)
فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ
(٣٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ
لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا
لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧) إِنَّكُمْ
لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ
(٣٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (٤١)
فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ
(٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (٤٥) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ
(٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧) وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ
الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ (٤٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ
بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١)

٤٤٧

معانى الكلمات :

مستسلمون عاجزون جميعاً عن الانتصار .

سلطان : قوة وقدرة .

طاغين : مجاوزين الحد فى العصيان .

بكأس : بخمر أو بقدح فيه خمر .

معين : شراب نابع من عيون الجنة .

ينزفون : يسكرون .

بيض مكنون : لؤلؤ مستور .

قرين : مرافق .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نؤمن بقدرة الله تعالى على بعث الناس بعد موتهم للحساب والجزاء .

٢ ـ أن نتعرف على موقف المعاندين المستهزئين يوم القيامة وما سيلاقونه من عذاب .

٣ ـ أن نعلم جزاء عباد الله المخلصين وما سيكونون فيه من نعيم وتكريم لنسارع بالعمل حتى نكون منهم .

المحتوى التربوى :

هاهم أولاء قد هدوا إلى صراط الجحيم ، ووقفوا على استعداد للسؤال وها هو ذا الخطاب يوجه إليهم بالتفريغ فى صورة سؤال برىء ما لكم لا ينصر بعضكم بعضًا وأنتم هاهنا جميعاً ؟ وكلكم فى حاجة إلى الناصر المعين ؟! ومعكم آلهتكم التى كنتم تعبدون ، ولا جواب بطبيعة الحال ولا كلام، إنما يرد التعليق والتعقيب بأنهم منقادون لأمر الله ، لا يخالفونه ولا يحيدون عنه ، أو قد أسلم بعضهم بعضا ، وخذله عن عجز ، فكلهم مستسلم غير منتصر .

ثم أقبلوا فيما بينهم يلوم بعضهم بعضا على إضلالهم وضلالهم ، فقال الأتباع للمتبوعين : إنكم كنتم تحملوننا على الضلال ، وتقهروننا بالقدرة منكم علينا ؛ لأنا كنا أذلاء وكنتم أعزاء ،

فقال القادة والرؤساء من الجن والإنس للأتباع : بل أبيتم أنتم الإيمان ، وأعرضتم عنه مع تمكنكم منه ، مختارين له على الكفر غير ملجئين ، وما كان لنا من تسلط نسلبكم به تمكنكم واختياركم بل كنتم قوما مختارين للطغيان ، فلزمنا جميعاً وعيد الله بأنا لذائقون لعذابه لا محالة ، لعلمه بحاله .

ثم بينوا أن ضلال الفريقين ووقوعهم فى العذاب كان أمراً مقضياً لا محيص لهم عنه ، وإن غاية ما فعلوا بهم أنهم دعوهم إلى الغى لأنهم كانوا على الغى فأحبوا أن يكونوا مثلهم ، وفيه إيماء بأن غوايتهم فى الحقيقة ليست من قبلهم؛ إذ لو كان كل غواية لإغواء غاوٍ فمن أغواهم ، وإن الأتباع والمتبوعين يشتركون فى العذاب يومئذ ، كما كانوا مشتركين فى الغواية .

ومثل ذلك الفعل نفعل بالمشركين ، الذين كانوا إذا سمعوا بكلمة التوحيد استكبروا وأبوا إلا الإشراك ، فهم يستكبرون أن يقولوها كما يقولها المؤمنون ، ويقولون : أنحن نترك عبادة آلهتنا وآلهة آبائنا عن قول هذا الشاعر المجنون ، يصفون رسول الله ﷺ بذلك ، وحاشاه .

يقول صاحب الأساس : « إن هذا يدل على أن أصل البلاء ومشكلته الكبرى هو الشرك ، وأن الداء الذى ينبع عنه كل شر هو الشرك ، فعنه ينبثق الكفر باليوم الآخر ، وعنه ينبثق الكفر بالرسل عليهم الصلاة والسلام ، ومن ثم قلنا : إن السياق الرئيسى للسورة يصب فى موضوع التوحيد والمواضيع الأخرى التى تتحدث عنها السورة كلها تتفرع عن هذا الأصل » .

ثم يكمل التعليق متوجهاً فيه بالتأنيب والتقبيح لقائل هذا الكلام المرذول ، فرد عليهم بأن ما جاء به من التوحيد حق قام به البرهان وتطابق عليه المرسلون ، ومجيئه صدق المرسلين ، فلولا مجيئه وإرساله لم يكن الرسل صادقين ، فهو آية ومعجزة لكل رسول قبله ؛ لأنهم أخبروا به وبشروا ، وأخذ الله عليهم العهد والميثاق ، لئن جاءهم ليؤمنن به ولينصرنه ، وأخذوا ذلك على أممهم ، فلما جاء ظهر صدق الرسل الذين قبله ، وتبين كذب من خالفهم ، فلو قدر عدم مجيئه ، وهم قد أخبروا به لكان ذلك قادحًا فى صدقهم، وصدق أيضاً المرسلين بأن ما جاء بها جاؤوا به ، ودعا إلى ما دعوا إليه ، وآمن بهم ، وأخبر بصحة رسالتهم ونبوتهم وشرعهم .

ثم أخبر الله تعالى بالقول الفصل الذى لا يحتمل غير الصدق واليقين وهو الخبر الصادر منه تعالى ، بأن منهم سيذوقون العذاب الشديد بالإشراك وتكذيب الرسل ، وليس عقابهم وتعذيبهم هذا ظلماً ، ثم استثنى الله تعالى من ذلك عباده المخلصين .

قال ابن كثير : « ليسوا يذوقون العذاب الأليم ولا يناقشون فى الحساب ، بل متجاوز عن سيئاتهم إن كان لهم سيئات ، ويجزون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، إلى ما يشاء الله من التضعيف » .

وهم ـ أولاً عباد الله المخلصون وفى هذا إشارة إلى أعلى مراتب التكريم ، ولهم رزق غير مجهول ، رزق عظيم جليل ، لا يجهل أمره ، ولا يبلغ كنهه ، فلهم فواكه من جميع أنواع الفواكه التى تتفكه بها النفس للذتها وطعمها ، وهم ـ ثانيا ـ مكرمون لا مهانون محتقرون بل معظمون مجلون موقرون ، قد أكرم بعضهم بعضاً ، وأكرمتهم الملائكة الكرام ، وصاروا يدخلون عليهم من كل باب ، ويهنئونهم ببلوغ أهنأ الثواب ، وأكرمهم أكرم الأكرمين ، وجاء عليهم بأنواع الكرامات من نعيم القلوب والأرواح والأبدان فى الجنات التى النعيم وصفها ، والسرور نعتها ، وذلك لما جمعته مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وسلمت من كل مخل بنعيمها من جميع المكدرات والمنغصات .

ومن كرامتهم عند ربهم ، وإكرام بعضهم بعضاً ، أنهم على سرر وهى المجالس المرتفعة المزينة بأنواع الأكسية الفاخرة ، المزخرفة المجملة ، فهم متكئون عليها على وجه الراحة والطمأنينة والفرح ، متقابلون فيما بينهم قد صفت قلوبهم ومحبتهم فيما بينهم ، ونعموا باجتماع بعضهم مع بعض ، فإن مقابلة وجوههم تدل على تقابل قلوبهم وتأدب بعضهم مع بعض ، ويتردد الولدان المستعدون لخدمتهم بالأشربة اللذيذة بالكاسات الجميلة المنظر ، المترعة من الرحيق المختوم بالمسك وهى كاسات الخمر ، وتلك الخمر لونها بيضاء من أحسن الألوان ، وفى طعمها لذة يتلذذ شاربها بها وقت شربها وبعده ، وأنها سالمة من غول العقل وذهابه ونزفه ونزف مال صاحبها ، وليس فيها صداع ولا كدر ، فلما ذكر طعامهم وشرابهم ومجالسهم وعموم النعيم وتفاصيله ، لكن فصل هذه الأشياء لتعلم فتشتاق النفوس إليها ، ذكر أزواجهم فعند أصحاب النعيم فى محلاتهم القريبة حور حسان ، كاملات الأوصاف قاصرات الطرف ، إما أنها قصرت طرفها على زوجها لعفتها وإما لأنها قصرت طرف زوجها عليها لكمالها وجمالها ، وتلك الزوجات حسان الأعين جميلاتها ملاح الحدق ، وهن كالبيض المستور من حسنهن وصفائهن ، وكون ألوانهن أحسن الألوان وأبهاها ، ليس فيه كدر ولا شين .

ولما ذكر الله تعالى نعيمهم وتمام سرورهم بالمآكل والمشارب ، والأزواج الحسان والمجالس الحسنة ، ذكر تذاكرهم فيما بينهم ، ومطارحتهم للأحاديث عن الأمور الماضية ، وأنهم ما زالوا فى المحادثة والتساؤل حتى أفضى ذلك بهم ، إلى أن قال قائل منهم : إن لى جليسًا فى الدنيا ...

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ علينا أن نحسن اختيار أصدقائنا ونتجنب أصدقاء السوء فالمرء على دين خليله .

٢ ـ بيان فضل الله إذ يجزى المؤمنين الحسنة بعشر أمثالها إلى أكثر من سبعمائة ضعف .

٣ ـ تقرير البعث وبيان بعض ما يجرى فيه من قول وعمل .

الجزء الثالث والعشرون — سورة الصافات

يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾

٤٤٨

معانى الكلمات :

لمدينون : لمحاسبون ومجزيون بأعمالنا ؟ !

لتردين : لتهلكنّى .

المحضرين : المسوقين إلى جهنم المحضرين فيها .

نزلا : ضيافة .

فتنة : ابتلاء وتعذيبا .

أصل الجحيم : قعر جهنم .

طلعها : ثمرها .

لشوبا من حميم : خلطا من ماء حار جدًّا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم كيف كان المكذبون يسخرون من المؤمنين ويعدونهم متخلفين عقلياً .

٢ ـ أن نعلم أحسن الأساليب فى الدعوة وهو الترهيب والترغيب .

٣ ـ أن نتعرف على قصة نوح ﷺ ، وإجابة الله دعاءه .

المحتوى التربوى :

يمضى السياق فى الحكاية المصورة التى يتذاكر فيها عباد الله المخلصون الماضى والحاضر ، وأحدهم يستعيد ماضيه ، ويقص على إخوانه طرفا مما وقع له ، لقد كان صاحبه وقرينه ذاك يكذب باليوم الآخر ، ويسائله فى دهشة : أهو من المصدقين بأنهم مبعوثون محاسبون بعد إذ هم تراب وعظام ؟ !

وبينما هو ماض فى قصته يعرضها فى سمره مع إخوانه ، يخطر له أن يتفقد صاحبه وقرينه ذاك ليعرف مصيره ، وهو يعرف بطبيعة الحال أنه قد صار إلى الجحيم ، فيتطلع ويدعو إخوانه إلى التطلع معه، وعندئذ يتوجه إلى قرينه الذى وجده فى وسط الجحيم، يتوجه إليه ليقول له: يا هذا ،

لقد كدت توردنى المهالك بوسوستك ، لولا أن الله قد أنعم علىّ فعصمنى من الاستماع إليك ، ولولا هذه النعمة لكنت من الذين يساقون إلى الموقف وهم كارهون .

ويقول المؤمن مبتهجا بنعمة الله على أهل الجنة بالخلود الدائم فيها ، والسلامة من العذاب ـ استفهام بمعنى الإثبات والتقرير ، أى يقول لقرينه المعذب : أفتزعم أننا لسنا نموت سوى الموتة الأولى ، ولا بعث بعدها ولا عذاب.

ولما ذكر تعالى نعيم الجنة ، ووصفه بهذه الأوصاف الجميلة مدحه وشوق العاملين ، وحثهم على العمل ، فقال : إن الذى حصل لهم به كل خير ، وكل ما تهوى النفوس وتشتهى ، واندفع عنهم به كل محذور ومكروه ، فهل فوز يطلب فوقه ؟ أم هو غاية الغايات ونهاية النهايات ، حيث حل عليهم رضا رب السموات والأرض،وفرحوا بقربه،وتنعموا بمعرفته،واستروا برؤيته وطربوا لكلامه ؟

وهذا النعيم الذى لا يدركه فوت ، ولا يخشى عليه من نفاد ، ولا يعقبه موت ، ولا يتهدده العذاب ، لمثل هذا فليعمل العاملون ، فهذا هو الذى يستحق الاحتفال ، وما عداه مما ينفق فيه الناس أعمارهم على الأرض زهيد حين يقاس إلى هذا الخلود ، فهو أحق ما أنفقت فيه نفائس الأنفاس ، وأولى ما شمر إليه العارفون الأكياس ، والحسرة كل الحسرة أن يمضى على الحازم وقت من أوقاته وهو غير مشتغل بالعمل الذى يقرب لهذه الدار ، فكيف إذا كان يسير بخطاياه إلى دار البوار ؟! ولكى يتضح الفارق الهائل بين هذا النعيم الخالد الآمن الدائم الراضى ، والمصير الآخر الذى ينتظر الفريق الآخر ، فإن السياق يستطرد إلى ما ينتظر هذا الفريق بعد موقف الحشر والحساب الذى ورد فى مطلع المشهد الفريد فيقول : أذلك النعيم الذى وصفناه لأهل الجنة خير أم العذاب الذى يكون فى الجحيم من جميع أصناف العذاب ؟ فأى : الطعامين أولى ؟ الذى وصف فى الجنة أم طعام أهل النار ؟ النعيم المقيم أم شجرة الزقوم ؟

وما شجرة الزقوم ؟ قد يحتمل أن يكون المراد بذلك جنس شجر يقال له : الزقوم ، أو أنها شجرة مر يكون بتهامة ، هذه الشجرة غذيت من النار ومنها خلقت ، وهى محنة وعذاب للظالمين فى الآخرة أو ابتلاء فى الدنيا ، ولما سمعوا أنها فى النار قالوا : كيف ذلك والنار تحرق الشجر ولم يعلموا أن من قدر على خلق ما يعيش فى النار ويلتذ بها ، فهو أقدر على خلق الشجر فى النار وحفظه من الإحراق ، فهى شجرة منبتها فى قعر جهنم ، وأغصانها ترتفع إلى دركاتها .

يقول العلامة السعدى : « فهذا مخرجها ومعدنها أشر المعادن وأسوؤها ، وشر المغرس يدل على شر الغراس وخسته ، ولهذا نبهنا الله على شرها بما ذكر أين تنبت به ، وبما ذكر من صفة ثمرتها ، وأنها كرؤوس الشياطين فلا تسأل بعد هذا عن طعمها ، وما تفعل فى أجوافهم وبطونهم وليس عنها مندوحة ولا معدل » .

وإذا أكلوا منها شاكت حلوقهم وهى كرؤوس الشياطين ـ وحرقت بطونهم ـ وهى تنبت فى أصل الجحيم ولا تحترق لأنها من نوع الحميم ، وتطلعوا إلى برد الشراب ينقع الغلة ويطفئ اللهيب ، فإنهم لشاربون عليها ماء ساخنا مشوباً غير خالص ، وبعد هذه الوجبة يغادرون تلك المائدة عائدين إلى مقرهم المقيم ، ويا له من نزل ، ويا له من معاد ؛ ليذوقوا من عذابه الشديد وحره العظيم ، ما ليس عليه مزيد من الشقاء .

وكأنه قيل : ما الذى أوصلهم إلى هذه الدار؟ فقال: إنهم وجدوا آباءهم عريقين فى الضلالة ، وهم فى الوقت ذاته مقلدون لا يفكرون ولا يتدبرون ، بل يطيرون معجلين يقفون خطا آبائهم الضالين غير ناظرين ولا متعقلين ، وهم وآباؤهم صورة من صور الضلال التى يمثلها أكثر الأولين ، وكان ضلالهم بعد الإنذار والتحذير ، ولكن كيف كانت العاقبة ؟ كيف كانت عاقبة المكذبين ؟ وكيف كانت عاقبة عباد الله المخلصين ، إنها معروضة فى سلسلة القصص ، وهذا الإعلان فى مقدمتها للتنبيه .

ثم ذكر أنموذجًا من عواقب الأمم المكذبين ، فيخبر تعالى عن عبده ورسوله نوح ﵇أول الرسل ، أنه لما دعا قومه إلى الله تلك المدة الطويلة ، فلم يزدهم دعاؤه إلا فرارا ، فنادى ﵇ ربه بألا يترك على الأرض أحدًا من الكافرين ، وأن ينصره على القوم المفسدين ، فاستجاب الله له ، ومدح تعالى نفسه بأنه خير من يستجيب لدعاء الداعين ، وسماع تبتلهم وتضرعهم ، فقد أجابه إجابة طابق ما سأل ، نجاه وأهله من الكرب العظيم .

يقول ابن كثير : « لما ذكر تعالى عن أكثر الأولين أنهم ضلوا عن سبيل النجاة ، شرع يبين ذلك مفصلا ، فذكر نوحا ﵇ ، وما لقى من قومه من التكذيب ، وأنه لم يؤمن منهم إلا القليل مع طول المدة ، لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، فلما طال عليه ذلك واشتد عليه تكذيبهم ، وكلما دعاهم ازدادوا نفرة ، فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر ، فغصب الله لغضبه ... » .

ويقول صاحب الأساس : « فى التمثيل بقصة نوح ﵇ فى سياق السورة توضيح لنجاة عباد الله المخلصين ، من عذاب الدنيا ، وتوضيح لقيمة الإيمان ، ونموذج على إرسال الله الرسل للإنذار ، ونموذج على أن هؤلاء الرسل هم المثل الأعلى للأخلاق الربانية من إحسان وإيمان » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ يجب ألا نقلد الآخرين تقليدًا أعمى فى كل شىء ، وإنما نفكر ونتدبر فى كل عمل قبل أن نقوم به ، حتى يكون موافقا لأمر الله تعالى ورسوله .

٢ ـ التحذير من قرناء السوء .

٣ ـ الحث على كثرة الأعمال الصالحة ، والبعد عن الأعمال الفاسدة .

وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ (٧٨) سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ (٨٢) ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ (٨٣) إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦) قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ (٩٨) وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ (١٠٢)

٤٤٩

معانى الكلمات :

الآخرين : الكافرين الذين لم يؤمنوا .

شيعته : من سار على منهاجه وملته .

سليم : نقى ، طاهر ، نظيف .

أئفكًا : أكذبًا وباطلًا .

فنظر : فتأمل .

سقيم : مريض .

فراغ : فذهب .

يزفون : يسرعون .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم فضل الإيمان وكرامة أهله عند الله فى الدنيا والآخرة .

٢ ـ أن نؤمن بأن أصل الدين واحد ، فالإسلام دين الله .

٣ ـ أن نعلم ابتلاء إبراهيم عليه السلام ، ووجوب بر الوالدين .

المحتوى التربوى :

تتضمن الإشارة هنا نجاة نوح عليه السلام وأهله من الكرب العظيم ، كرب الطوفان الذى لم ينج منه إلا من أراد له الله النجاة وقدر له الحياة ، وتتضمن قدر الله بأن يجعل من ذرية نوح عماراً لهذه الأرض وخلفاء ، وأن يبقى ذكره فى الأجيال الآتية إلى آخر الزمان ، وتعلن فى الخافقين سلام الله على نوح جزاء إحسانه ، وأى جزاء بعد سلام الله ، والذكر الباقى بعد سلام الله ، والذكر الباقى مدى الحياة . أما مظهر الإحسان وسبب الجزاء فهو الإيمان ، وهذه هى عاقبة المؤمنين .

يقول صاحب الأساس : « فى قوله تعالى عن نوح عليه السلام : ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ إشارة إلى كون نوح عليه السلام من الموحدين المؤمنين ، ومن ثم فإن قصة نوح خدمت سياق السورة من عدة

نواحٍ ، **أولاً** : فى موضوع التوحيد ، **ثانياً** : فى موضوع بعثة الرسل جميعاً بالتوحيد ، **ثالثا** : فى موضوع إنجاء الله المؤمنين من العذاب ، **رابعاً** : فى إبراز قيمة الإيمان فى موازين الله عز وجل » .

فالإيمان أرفع منازل العباد وأنه مشتمل على جميع شرائع الدين وأصوله وفروعه ، لأن الله مدح به خواص خلقه، وأما غير المؤمنين من قوم نوح ، فقد كتب الله عليهم الهلاك والفناء مكان مصيرهم الغرق ، ومضت سنة الله منذ فجر البشرية البعيد .

ثم تجىء قصة إبراهيم عليه السلام وهو ممن شايع نوحًا عليه السلام فى الإيمان وأصول الشريعة ، ولا يبعد اتفاق شرعهما فى الفروع أو غالبا ، وكان بينهما نبيان هود وصالح صلوات الله عليهم ، والقصة أكبر موعظة لكفار قريش؛ لأنهم ينتمون إلى إبراهيم ويدعون أنهم على ملته وملة ولده إسماعيل ؛ فلذا أطال الحديث فيها .

وتجىء القصة فى حلقتين رئيسيتين:حلقة دعوته لقومه، وتحطيم الأصنام ، وهمهم به ليقتلوه ، وحماية الله له وخذلان شانئيه ـ وهى حلقة تكررت من قبل فى سور القرآن ، وحلقة جديدة لا تعرض فى غير هذه السورة ، وهى الخاصة بحادث الرؤيا والذبح والفداء ، مفصلة المراحل والخطوات والمواقف ، فى أسلوبها الأخاذ وأدائها الرهيب ، ممثلة أعلى صور الطاعة والتضحية والفداء والتسليم فى عالم العقيدة فى تاريخ البشرية الطويل ، وتبدأ القصة بعقد صلة العقيدة والدعوة والطريق بين إبراهيم ونوح عليهما السلام ويبرز من صفة إبراهيم سلامة القلب وصحة العقيدة وخلوص الضمير ، وصورة الاستسلام الخالص تتمثل فى مجيئه لربه ، وصورة النقاء والطهارة والبراءة والاستقامة تتمثل فى سلامة قلبه .

وبهذا القلب السليم ، استنكر ما عليه قومه واستبشعه ، استنكار الحس السليم لكل ما تنبو عنه الفطرة الصادقة من تصور ومن سلوك ، وإذا به يهتف بأبيه وقومه هتاف الفطرة السليمة فى استنكار شديد ، ماذا تعبدون ؟! إن ما تعبدون ليس من شأنه أن يعبد، ولا أن يكون له عابدون ، وما يعبده الإنسان فى شبهة من حق ، إنما هو الإفك المحض ، والافتراء الذى لا شبهة فيه ، فهل أنتم تقصدون إلى الإفك قصداً وإلى الافتراء عمداً ، وما هو تصوركم لله، وهى كلمة يبدو فيها استنكار الفطرة السليمة البريئة،وهى تطلع على الأمر البين الذى يصدم الحس والعقل والضمير.

ويسقط السياق هنا ردهم عليه وحوارهم معه ، ويمضى مباشرة فى المشهد التالى إلى عزيمته التى قررها فى نفسه تجاه هذا الإفك المكشوف ؛ فينظر فى النجوم راميا ببصره إلى السماء ، متفكراً فى نفسه كيف ـ يحتال لإصلاح اعتقادهم ، أو أراهم أنه ينظر فى النجوم لاعتقادهم علم النجوم ، فأوهمهم أنه استدل بأمارة على أنه يسقم لئلا يخرجوه إلى معبدهم ، فإنه كان أغلب أسقامهم الطاعون ، وكانوا يخافون العدوى ، وأراد أنى سقيم القلب لكفركم، فتركوه هاربين مخافة العدوى ، فذهب إلى آلهتهم فى خفية ، فقال للأصنام استهزاء : ألا تأكلون يعنى الطعام الذى كان عندهم ولم تجبه الأصنام بطبيعة الحال ويسأل فى تهكم لم لا تنطقون ؟ ! وهنا يفرغ شحنة

الغيظ فعلا لا قولا فجعل يضربها بقوته ونشاطه ، حتى جعلها جذاذا وترك كبيرها لعل القوم يرجعون إليه .

وتسامع قومه بالخبر وعرفوا من الفاعل ، فأقبلوا إليه بعد ما رجعوا يزف بعضهم بعضا مسرعين ، فلما جازوه ليعاتبوه أخذ فى تأنيبهم وعيبهم ، فقال : أتعبدون ما تصنعون بأيديكم وتتركون الإخلاص لله الذى خلقكم وخلق أعمالكم بإقداره إياكم عليها ، ولما قهرهم بالحجة قصدوا تعذيبه ؛ لئلا يظهر للعامة عجزهم ، فاتخذوا منطق الحديد والنار الذى لا يعرف الطغاة منطقا سواه ، ويختصر السياق هنا ما حدث بعد ما بنوا بنيانا غاليا مرتفعا وأوقدوا فيه النار التى ألقوا فيها إبراهيم عليه السلام ، يختصر السياق هذا ليعرض العاقبة التى تحقق وعد الله لعباده المخلصين ووعيده لأعدائهم المكذبين ، وأين يذهب كيد العباد إذا كان الله يريد ، وماذا يملك أولئك الضعاف إذا كانت رعاية الله تحوط عباده المخلصين .

وتأتى الحلقة الثانية فى القصة ممثلة فى الهجرة والتضحية والفداء، وطوى إبراهيم عليه السلام صفحة لينشر أخرى . فيترك أباه وقومه وأهله وبيته ووطنه وكل ما يربطه بهذه الأرض وبهؤلاء الناس ، ويدع وراءه كذلك كل عائق وكل شاغل ويهاجر إلى ربه متخففا من كل شىء ، وهى هجرة نفسية قبل أن تكون مكانية ، هجرة كاملة من حال إلى حال، ومن أواصر شتى إلى آصرة واحدة لا يزحمها فى النفس شىء ، إنه التعبير عن التجرد والخلوص والاستسلام والطمأنينة واليقين ، وكان إبراهيم حتى هذه اللحظة وحيداً لا عقب له فاتجه إلى ربه الذى أعلن أنه ذاهب إليه ، اتجه إليه يسأله الذرية المؤمنة والخلق الصالح ليعينه على الدعوة ويؤنسه فى الغربة ، فيبشر بالولد وبأنه ذكر يبلغ أوان الحلم ، فلما وجد الولد وبلغ أن يسعى معه فى أعماله ، قال إبراهيم عليه السلام : لابنه إنى رأيت فى الرؤيا ـ ورؤيا الأنبياء حق ، أن الله أمرنى بذبحك فما رأيك ؟ وشاوره فيه وهو حتم ليعلم ما عنده فيما نزل من بلاء الله فيثبت قدمه إن جزع ويأمن عليه إن سلم ، وليوطن نفسه عليه فيهون عليه ويكتسب المثوبة بالانقياد له قبل نزوله .

ويتلقى إسماعيل عليه السلام الأمر فى طاعة واستسلام ورضا ويقين ، ويحس ما أحسه من قلب أبيه فيقول مودة وقربى : امض لما أمرك الله ، وأخبره أنه موطن نفسه على الصبر وقرن ذلك بمشيئة الله حتى لا تكون بطولة ولا شجاعة ولا اندفاعا ، وإنما مرجعه رضا التسليم ونبل الطاعة وروعة الإيمان .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ رؤيا الأنبياء حق ، وهى نوع من وحى الله تعالى لهم .

٢ ـ الفطرة النقية السليمة لا تقبل الشرك وتميل إلى التوحيد .

٣ ـ الإيمان يمد الإنسان بالقوة التى تجعله يتغلب على جميع العقبات ، والله نعم المعين .

فلما أسلما وتله للجبين (١٠٣) وناديناه أن يا إبراهيم (١٠٤) قد
صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين (١٠٥) إن هذا لهو
البلاء المبين (١٠٦) وفديناه بذبح عظيم (١٠٧) وتركنا عليه في
الآخرين (١٠٨) سلام على إبراهيم (١٠٩) كذلك نجزي المحسنين
(١١٠) إنه من عبادنا المؤمنين (١١١) وبشرناه بإسحاق نبيا من
الصالحين (١١٢) وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما
محسن وظالم لنفسه مبين (١١٣) ولقد مننا على موسى
وهارون (١١٤) ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم
(١١٥) ونصرناهم فكانوا هم الغالبين (١١٦) وآتيناهما الكتاب
المستبين (١١٧) وهديناهما الصراط المستقيم (١١٨) وتركنا
عليهما في الآخرين (١١٩) سلام على موسى وهارون
(١٢٠) إنا كذلك نجزي المحسنين (١٢١) إنهما من
عبادنا المؤمنين (١٢٢) وإن إلياس لمن المرسلين (١٢٣)
إذ قال لقومه ألا تتقون (١٢٤) أتدعون بعلا وتذرون أحسن
الخالقين (١٢٥) الله ربكم ورب آبائكم الأولين (١٢٦)

٤٥٠

معانى الكلمات :

أسلما : استسلما وخضعا . **تله للجبين** : ألقاه على وجهه .

مننا : أنعمنا .

الكرب : الغم .

المستبين : الكامل فى بيانه .

الصراط : الطريق .

إلياس : أحد أنبياء بنى إسرائيل .

بعلا : اسم صنم عبدوه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على إبراهيم عليه السلام وعلو مقامه عند ربه .

٢ ـ أن نعلم إكرام الله لرسوليه : موسى وهارون عليهما السلام .

٣ ـ أن نعلم فضل الإحسان والإيمان .

المحتوى التربوى :

يخطو السياق وراء الحوار والكلام إلى التنفيذ ، ومرة أخرى يرتفع نبل الطاعة ، وعظمة الإيمان ، وطمأنينة الرضا وراء كل ما تعارف عليه بنو الإنسان ، إن الرجل يمضى فيكب ابنه على جبينه استعداداً ، وإن الغلام يستسلم فلا يتحرك امتناعا ، وقد وصل الأمر إلى أن يكون عيانا .

يقول صاحب الظلال : « لقد أسلما فهذا هو الإسلام ، هذا هو الإسلام فى حقيقته ، ثقة وطاعة وطمأنينة ورضا وتسليم ، وتنفيذ ، وكلاهما لا يجد فى نفسه إلا هذه المشاعر التى لا يصنعها غير الإيمان العظيم ، إنها ليست الشجاعة والجراءة ، وليس الاندفاع والحماسة ، لقد يندفع المجاهد فى الميدان ، يقتل ويُقتل ، ولقد يندفع الفدائى وهو يعلم أنه قد لا يعود ، ولكن

هذا كله شيء والذى يصنعه إبراهيم وإسماعيل هنا شيء آخر ، ليس هنا دم فائر ، ولا حماسة دافعة، ولا اندفاع فى عجلة تخفى وراءها الخوف من الضعف والنكوص ، إنما هو الاستسلام الواعى المتعقل القاصد المريد ، العارف بما يفعل ، المطمئن لما يكون ، لا بل هنا الرضا الهادئ المستبشر المتذوق للطاعة وطعمها الجميل » .

وهنا كان إبراهيم وإسماعيل قد أديا ، كان قد أسلما ، كان قد حققا الأمر والتكليف ، ولم يكن باقيا إلا أن يذبح إسماعيل ، ويسيل دمه وتزهق روحه ، وهذا أمر لا يعنى شيئا فى ميزان الله ، بعد ما وضع إبراهيم وإسماعيل فى هذا الميزان من روحهما وعزمهما ومشاعرهما كل ما أراده منهما ربهما ، وصرع إبراهيم إسماعيل على شقه فوقع جبينه على الأرض ، وهو أحد جانبى الجبهة ، وقيل : كبه على وجهه بإشارته لئلا يرى فيه تغيراً يرق له فلا يذبحه ، وكان ذلك عند الصخرة بمنى أو فى الموضع المشرف على مسجده أو المنحر الذى ينحر فيه اليوم .

يقول صاحب الظلال : « كان الابتلاء قد تم ، والامتحان قد وقع ، ونتائجه قد ظهرت ، وغاياته قد تحققت ، ولم يعد إلا الألم البدنى ، وإلا الدم المسفوح ، والجسد الذبيح ، والله لا يريد أن يعذب عباده بالابتلاء ، ولا يريد ماءهم وأجسادهم فى شيء ، ومتى خلصوا له واستعدوا للأداء بكلياتهم فقد أدوا ، وقد حققوا التكليف ، وقد جاوزوا الامتحان بنجاح ، وعرف الله من إبراهيم وإسماعيل صدقهما ، فاعتبرهما قد أديا وحققا وصدقا » .

وفى تلك الحال المزعجة ، والعزم الأكيد والإتيان بالمقدمات نودى إبراهيم : قد فعلت ما أمرت به ، وحصل المقصود من رؤياك ولم يبق إلا إمرار السكين ، والله لا يريد إلا الإسلام والاستسلام بحيث لا يبقى فى النفس ما تكنه عن الله أو تعزه عن أمره أو تحتفظ به دونه ، ولو كان هو الابن فلذة الكبد ، ولو كانت هى النفس والحياة .

ثم كان ما كان مما ينطق به الحال ولا يحيط به المقال من استبشارهما وشكرهما الله على ما أنعم عليهما من دفع البلاء بعد حلوله والتوفيق لما لم يوفق غيرهما لمثله،وإظهار فضلهما به على العالمين ، مع إحراز الثواب العظيم إلى غير ذلك ، ويأتى التعليل بأنا نجزيهم باختيارهم لمثل هذا البلاء ، ونجزيهم بتوجيه قلوبهم ورفعها إلى مستوى الوفاء ، ونجزيهم بإقدارهم وإصبارهم على الأداء ، ونجزيهم كذلك باستحقاق الجزاء ، ومضت بذلك سنة النحر فى الأضحى ذكرى لهذا الحادث العظيم الذى يرتفع منارة لحقيقة الإيمان ، وجمال الطاعة وعظمة التسليم ، والذى ترجع إليه الأمة المسلمة لتعرف فيه حقيقة أبيها إبراهيم ، الذى تتبع ملته ، وترث نسبه وعقيدته .

وهذا هو الابتلاء البين الذى يتبين فيه المخلص من غيره أو المحنة البينة الصعوبة فإنه لا أصعب منها ، وتم الفداء بكبش عظيم الجثة سمين ، وهو عظيم القدر لأنه يفدى به الله نبيا ابن

نبى ، والفادى على الحقيقة هو إبراهيم عليه السلام ، والله هو المعطى له الآمر به ، وما من أمة بعد إبراهيم عليه السلام إلا وهى تسلم على إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه وهذا جزاء المحسنين بأن يُبارك لهم فى الذكر الحسن والسلام والتكريم بعد البلاء ، وهذا جزاء الإيمان ، وتلك حقيقته فيما كشف عنه البلاء المبين .

ثم يتجلى علبه ربه بفضله مرة أخرى ونعمته فيهب له إسحاق فى شيخوخته ، ويباركه ويبارك إسحاق ، ويجعل إسحاق نبيا من الصالحين ، وتتلاحق من بعدهما ذريتهما ، ولكن وراثة هذه الذرية لهما ليست وراثة الدم والنسب ، إنما هى وراثة الملة والمنهج ، فمن اتبع فهو محسن ، ومن انحرف فهو ظالم لا ينفعه نسب قريب أو بعيد .

ومن ذريتهما موسى وهارون ، ويذكر تعالى منته على عبديه ورسوليه موسى وهارون ابنى عمران . بالنبوة والرسالة والدعوة إلى الله تعالى ، ونجاتهما وقومهما من عدوهما فرعون ، ونصرهما عليه حتى أغرقه الله وهم ينظرون، وإنزال الله عليهما الكتاب المستبين ، وهو التوراة التى فيها الأحكام والمواعظ وتفصيل كل شىء ، وأن الله هداهما الصراط المستقيم ، بأن شرع لهما دينا وتحية فى الآخرين ، ومن باب أولى وأحرى فى الأولين ، ومثل ذلك الجزاء نجزى به المحسنين الذين أحسنوا الاعتقاد والعمل ، والإيمان أصل كل خير .

وتأتى قصة إلياس عليه السلام والأرجح أنه النبى المعروف فى العهد القديم باسم إيلياء، وقد أرسل إلى قوم فى سورية كانوا يعبدون صنما يسمونه بعلا ، وما تزال آثار مدينة (بعلبك) تدل على آثار هذه العبادة .

ولقد دعا إلياس عليه السلام قومه إلى التوحيد مستنكراً عبادتهم لبعل ، وتركهم أحسن الخالقين ربهم ورب آبائهم الأولين ؛ إسحاق ويعقوب وإبراهيم ، وهو المستحق للعبادة وحده لا شريك له ، وكما استنكر إبراهيم عبادة أبيه وقومه للأصنام ، وكما استنكر كل رسول عبادة قومه الوثنيين كان إلياس عليه السلام مستنكراً .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ يستجيب الله تعالى دعاء المخلصين من عباده إذا تضرعوا إليه واستغفروه .

٢ ـ حسن الأدب مع الوالدين وطاعتهما ومساعدتهما فى أعمالهما ؛ امتثالا لأمر الله تعالى ـ وعرفانا بفضلهما .

٣ ـ الحلم من الصفات الطيبة التى يتحلى بها المؤمن فيكون راضى النفس ، واسع الصدر .

٤ ـ الاستعانة بالله فى جميع الأمور أمر مطلوب .

الجزء الثالث والعشرون — سورة الصافات

فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾
وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ
نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا
لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا
فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ
مُصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ
الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ
مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ
كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾
۞ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً
مِنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾
فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ
وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ
شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ
اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾

الحزب ٤٦

٤٥١

معانى الكلمات :

محضرون : مجموعون فى العذاب .

الغابرين : الهالكين .

المدحضين : المغلوبين .

فنبذناه : فأخرجناه .

بالعراء : بالأرض الفضاء .

سقيم : مريض هزيل .

يقطين : شجر القرع .

إفكهم : كذبهم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على قصة لوط عليه السلام حين نجاه الله وأهله جميعا ما عدا امرأته الكافرة .

٢ ـ أن نتعرف على قصة يونس عليه السلام .

٣ ـ أن نتعلم كيف نتعظ بالأحداث ونعتبر بالتاريخ .

المحتوى التربوى :

يمضى السياق فيذكر العاقبة وهى التكذيب ، والله سبحانه يقسم ويؤكد أنهم سيحضرون مكرهين ليلقوا جزاء المكذبين إلا من آمن منهم واستخلصه الله من عباده فيهم ، ويختم ذكر إلياس عليه السلام تلك الخاتمة المكررة المقصودة فى السورة لتكريم رسل الله بالسلام عليهم من قبله ، ولبيان جزاء المحسنين وقيمة إيمان المؤمنين .

ثم تأتى قصة لوط ، وهى أشبه باللمحة التى جاءت عن قصة نوح ، فهى تشير إلى رسالة لوط ونجاته مع أهله إلا امرأته ، وتدمير المكذبين الضالين ، وتنتهى بلمسة لقلوب العرب الذين

يمرون على دار قوم لوط فى الصباح والمساء ، ولا تستيقظ قلوبهم ولا تستمع لحديث الديار الخاوية ، ولا تخاف عاقبة كعاقبتها الحزينة .

قال النسفى : « وإنما لم يختم قصة لوط ويونس بالسلام كما ختم قصة من قبلهم ؛ لأن الله تعالى قد سلم على جميع المرسلين فى آخر السورة ، فاكتفى بذلك عن ذكر كل واحد منفرداً بالسلام » .

وتختم قصص السورة بصاحب الحوت يونس ﷺ ، ولا يذكر القرآن أين كان قوم يونس ، ولكن المفهوم أنهم كانوا فى بقعة قريبة من البحر ، وتذكر الروايات أن يونس ضاق صدراً بتكذيب قومه ، فأنذرهم بعذاب قريب ، وغادرهم مغاضبًا آبقا ، فقاده الغضب إلى شاطئ البحر حيث ركب سفينة مشحونة ، وفى وسط اللجة ناوأتها الرياح والأمواج وكان هذا إيذانا عند القوم بأن من بين الركاب راكبا مغضوبا عليه ، لأنه ارتكب خطيئة ، وأنه لابد أن يلقى فى الماء لتنجو السفينة من الغرق ، فاقترعوا على من يلقونه من السفينة لتخف بهم السفينة فوقعت القرعة على نبى الله يونس ﷺ ، وكان معروفا عندهم بالصلاح ، ولكن سهمه خرج بشكل أكبر فألقوه فى البحر أو ألقى هو نفسه ، وأمر الله تعالى حوتا من البحر الأخضر أن يشق البحار ، وأن يلتقم يونس ﷺ فلا يهشم له لحما ، ولا يكسر له عظما ، فجاء ذلك الحوت والتقمه وذهب به فطاف به البحار كلها .

التقمه الحوت وهو مستحق للوم ؛ لأنه تخلى عن المهمة التى أرسله الله بها ، وترك قومه مغاضبا قبل أن يأذن الله له ، ولما استقر فى بطن الحوت حسب أنه قد مات ، ثم حرك رأسه وأطرافه فإذا هو حى ، وعندما أحس بالضيق فى بطن الحوت سبح الله واستغفره ، وذكر أنه كان من الظالمين ، فسمع الله دعاءه واستجاب له فلفظه الحوت ، ولولا ما تقدم له من العمل فى الرخاء لظل فى بطن الحوت إلى يوم البعث .

وقد خرج من بطن الحوت بالأرض الخالية العارية من كل أحد ، بل ربما كانت عارية من الأشجار والظلال ، وقد سقم ومرض بسبب حبسه فى بطن الحوت ، حتى صار مثل الفرخ الممعوط من البيضة ، وأنبت الله تعالى عليه شجرة من القرع تظله بظلها الظليل ؛ لأنها باردة باردة الظلال ، ولا يسقط عليها ذباب ، وهذا من لطفه به وبره ، فلما استكمل عافيته رده الله إلى قومه الذين تركهم مغاضبا وكانوا قد خافوا ما أنذرهم به من العذاب بعد خروجه ، فآمنوا ، واستغفروا ، وطلبوا العفو من الله فسمع لهم ولم ينزل بهم عذاب المكذبين ، وكانوا مائة ألف يزيدون ولا ينقصون ، وقد آمنوا أجمعين .

وهذه اللمحة بسياقها هاهنا تبين عاقبة الذين آمنوا ، بجانب ما تبينه القصص السابقة من عاقبة الذين لا يؤمنون ، فيختار قوم محمد ﷺ إحدى العاقبتين كما يشاؤون ، وعلى ضوء ذلك

القصص وما اشتمل عليه من حقيقة الصلة بين الله وعباده ، ومن أخذه المكذبين بهذه الحقيقة ، الذين يعبدون غير الله أو يشركون معه بعض خلقه .

وعلى ضوء هذه الحقيقة يوجه السياق الرسول ﷺ أن يناقش معهم تلك الأسطورة التى يزعمون فيها أن الملائكة بنات الله ، فهو يحاصر أسطورتهم فى كل مسار بها ، ويحاجهم بمنطقهم ومنطق بيئتهم التى يعيشون فيها ، وهم كانوا يؤثرون البنين على البنات ، ويعدون ولادة الأنثى محنة ، ويعدون الأنثى مخلوقا أقل رتبة من الذكر ، ثم هم الذين يدعون أن الملائكة إناث ، وأنهم بنات الله .

وهنا يقول الله تعالى لنبيه ﷺ : اسأل المشركين بالله غيره ، الذين عبدوا الملائكة ، وزعموا أنها بنات الله ، فجمعوا بين الشرك بالله ووصفه بما لا يليق بجلاله، وهذه قسمة ضيزى، وقول جائر؛ من جهة جعلهم الولد لله تعالى ، ومن جهة جعلهم أردأ القسمين وأخسهما له فى نظرهم ، وهو البنات التى لا يرضونهن لأنفسهم ، واستأثروا هم بالبنين ، أو اختار الله البنات وترك لهم البنين ، وهذا أو ذاك لا يستقيم ، فاسألهم عن هذا الزعم المتهافت السقيم ، أليس هذا منتهى الحماقة والجهل وسوء التقدير، وكيف حكموا على الملائكة أنهم إناث وما شاهدوا خلقهم، **قال النسفى**: « تخصيص علمهم بالمشاهدة استهزاء بهم ، وتجهيل لهم ؛ لأنهم كما لم يعلموا ذلك مشاهدة ، لم يعلموه بخلق الله علمه فى قلوبهم ، ولا بإخبار صادق ، ولا بطريق استدلال ، أو معناه أنهم يقولون ذلك عن طمأنينة نفس لإفراط جهلهم كأنهم شاهدوا خلقهم » .

ويستعرض السياق نص مقولتهم المفتراة الكاذبة على الله ، وهم كاذبون حتى بحكم عرفهم الشائع ومنطقهم الجارى فى اصطفاء البنين على البنات ، فكيف اصطفى الله البنات على البنين ؟

قال ابن كثير : « ذكر الله تعالى عنهم فى الملائكة ثلاثة أقوال فى غاية الكفر والكذب : فأولا جعلوهم بنات الله ، فجعلوا لله ولدا ـ تعالى وتقدس ، وجعلوا ذلك الولد أنثى ، ثم عبدوهم من دون الله ـ تعالى وتقدس وكل منها كاف للتخليد فى نار جهنم » .

ثم قال تعالى منكراً عليهم : أأختار الله البنات على البنين ؟! وأى شىء يحمله على هذا ، وهذا استفهام توبيخ .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ لا ينفع الإنسان أمام الله تعالى ـ يوم الحساب إلا عمله الذى قدمه فى هذه الدنيا .

٢ ـ ضرورة الاتعاظ بما حدث للسابقين ، والاعتبار بأحداث التاريخ .

٣ ـ الله تعالى يتقبل دعاء الضارعين إليه ، وخاصة عند الشدائد ما داموا مخلصين لله دعاءهم .

مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾

سورة ص

معانى الكلمات :

سلطان : حجة وبرهان .

الجنة : الجن .

بفاتنين : بمضلين أو مفسدين .

صال الجحيم : داخلها أو مقاسٍ حرها .

الصافون : الواقفون فى العبادة صفوفا .

كلمتنا : وعدنا .

فتول : فأعرض .

بساحتهم : بأرضهم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على مناقشة من يزعم أن بينه تعالى وبين الجنة نسبا .

٢ ـ أن نتعرف على مواجهة الكافرين بما كانوا يقولون من الإيمان إذ جاءهم الرسول وقد كفروا به .

٣ ـ أن نعلم أن الله وعد عباده المؤمنين بالغلبة والنصر ، وأنه لا محالة واقع.

المحتوى التربوى :

يمضى السياق فى استفهام توبيخ الكافرين ، فما الذى يجعلهم يحكمون هذا الحكم الفاسد ؟ ! أما لهم عقول يتدبرون بها ما يقولون ، فيرون فى تذكرهم أنهم بهذا يجعلون لله المقام الأدنى ولأنفسهم المقام الأعلى على حسب تصوراتهم وقيمهم .

ومن أين تستمدون السند والدليل على الحكم المزعوم ؟ ألكم حجة ظاهرة أو دليل مصدق نزل عليكم من السماء بأن الملائكة بنات الله ؟ فهاتوا برهانًا على ذلك يكون مستند إلى كتاب منزل من السماء عن الله تعالى أنه اتخذ ما تقولونه ، فإن ما تقولونه لا يمكن استناده إلى عقل ، بل لا يجوزه العقل بالكلية ، وقد جعل هؤلاء المشركون بالله بين الله وبين الجنة نسبا ، حيث زعموا

أن الملائكة بنات الله ، وأن أمهاتهم سروات الجن ، والحال أن الجنة قد علمت أنهم محضرون بين يدى الله ، ليجازيهم عباداً أذلاء ، فلو كان بينهم وبينه نسب لم يكونوا كذلك .

وهنا ينزه ذاته سبحانه عن هذا الإفك المتهافت ، سبحان الله الملك العظيم ، الكامل الحليم عما يصفه به المشركون من كل وصف أوجبه كفرهم وشركهم ، ومن مجموع هذا نفهم أن عباد الله المخلصين هم الموحدون ، وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم ، فهؤلاء الذين يصفون الله عز وجل بما هو أهله .

ويواجه السياق المشركين أنكم ومن عبدتموه مع الله ، لاتقدرون أن تفتنوا وتضلوا أحداً إلا من قضى الله أنه من أهل الجحيم ، فينفذ فيه القضاء الإلهى ، والمقصود من هذا بيان عجزهم وعجز آلهتهم عن إضلال أحد ، وبيان كمال قدرة الله تعالى ، أى : فلا تطمعوا بإضلال عباد الله المخلصين وحزبه المفلحين .

قال صاحب الأساس : « بين الله عز وجل فى هذه الآيات أن الدعاة إلى الشرك لا يفتنون إلا من استوجب النار ، وبهذا علمنا أن المستجيبين للرسل هم أهل الجنة ، لأنهم أهل التوحيد الذى بدونه لا يدخل أحد الجنة ؛ وبهذه الآيات عرفنا أن كل الكلام السابق من نسبة الولد والأخ والزوجة إلى الله ، كل ذلك مخل بالتوحيد وهو شرك ، ثم حدثنا الله عز وجل عن الملائكة الذين زعم المشركون أنهم بنات الله ما هو مقالهم وما هو فعلهم » .

ثم عرفنا الله ماهية مقام العبودية الكامل الذى يتحقق به الملائكة عليهم الرضوان ، وهو مقام جدير أن يقتدى به ، ولذلك فإن رسول الله ﷺ كان يؤدب المسلمين عليه ، وهو مقام يتنافى مع ما ينسبه المشركون للملائكة من معان .

ويرد الملائكة على الأسطورة ، بأن لكل منهم مقامه الذى لا يتعداه ، فهم عباد من خلق الله ، لهم وظائف فى طاعة الله ، فهم يصفون للصلاة ، ويسبحون بحمد الله ، ويقف كل منهم على درجة لا يتجاوز حده ، والله هو الله ، ويعود السياق للحديث عن المشركين الذين يطلقون هذه الأساطير ، فيعرض عهودهم ووعودهم ، يوم كانوا يحسدون أهل الكتاب على أنهم أهل كتاب ؛ ويقولون لو كان عندنا ذكر من الأولين ـ من إبراهيم أو من جاء بعده ـ لكنا على درجة من الإيمان يستخلصنا الله من أجلها ويصطفينا ، حتى إذا جاءهم ذكر هو أعظم ما جاء إلى هذه الأرض تنكروا لما كانوا يقولون وكفروا به ، فسوف يعلمون العذاب حين يقع منهم .

يقول صاحب الظلال: « يقرر وعد الله لرسله بالنصر والغلبة، والوعد واقع وكلمة الله قائمة، ولقد استقرت جذور العقيدة فى الأرض، وقام بناء الإيمان، على الرغم من جميع العوائق ، وعلى الرغم من تكذيب المكذبين ، وعلى الرغم من التنكيل بالدعاة والمتبعين، ولقد ذهبت عقائد المشركين والكفار ، وذهبت سطوتهم ودولتهم ، وبقيت العقائد التى جاء بها الرسل تسيطر على قلوب الناس وعقولهم ، وتكيف تصوراتهم وأفهامهم ، وما تزال على الرغم من كل شىء هى أظهر وأبقى ما يسيطر على البشر فى أنحاء الأرض .

وكل المحاولات التى بذلت لمحو العقائد الإلهية التى جاء بها الرسل ، وتغليب أية فكرة أو فلسفة أخرى قد باءت بالفشل ، باءت بالفشل حتى فى الأرض التى نبعث منها ، وحقت كلمة الله لعباده المرسلين أنهم لهم المنصورون ، وأن جنده لهم الغالبون ، وهذه بصفة عامة ، وهى ظاهرة ملحوظة فى جميع بقاع الأرض فى جميع العصور .

وهى كذلك متحققة فى كل دعوة لله ، يخلص فيها الجند ، ويتجرد لها الدعاة ، إنها غالبة منصورة مهما وضعت فى سبيلها العوائق ، وقامت فى طريقها العراقيل ، ومهما رصد لها الباطل من قوى الحديد والنار ، وقوى الدعاية والافتراء ، وقوى الحرب والمقاومة ، وإن هى إلا معارك تختلف نتائجها ، ثم تنتهى إلى الوعد الذى وعده الله لرسله، والذى لا يخلف ولو قامت قوى الأرض كلها فى طريقه ، الوعد بالنصر والغلبة والتمكين ، هذا الوعد سنة من سنن الله الكونية ، سنة ماضية » .

وقال : « ولقد يريد البشر صورة معينة من صور النصر والغلبة لجند الله وأتباع رسله ، ويريد الله صورة أخرى أكمل وأبقى ، فيكون ما يريده الله ..ولقد يهزم جنود الله فى معركة من المعارك ، وتدور عليهم الدائرة،ويقسو عليهم الابتلاء،لأن الله يعدهم للنصر فى معركة أكبر،ولأن الله يهيئ الظروف من حولهم ليؤتى النصر يومئذ ثماره فى مجال أوسع ، وفى خط أطول ، وفى أثر أدوم » .

وبعد هذا الإعلان القاطع أمر الله رسوله بالإعراض عمن عاندوا ولم يقبلوا الحق حتى يأتى الموعد لنصرك عليهم فى اليوم الذى تراهم فيه ويرون هم ما ينتهى إليه وعد الله فيك وفيهم ، فإذا أنزل الكتاب بهم وقريباً منهم صبحهم بما يسوء وقدم له النذير ، ثم كرر الأمر بالتولى عنهم وتهديدهم بوقوع العذاب ، كما يكرر الإشارة إلى هول ما سيكون ، ويدعه مهملًا يوحى بالهول المرهوب .

ولما ذكر فى هذه السورة كثيراً من أقوالهم الشنيعة التى وصفوه بها نزه نفسه عنها ، وخصها بالعزة ، وبالسلام من الله على رسله وبإعلان الحمد لله الواحد رب العالمين بلا شريك ، فجميع أنواع الحمد من الصفات الكاملة العظيمة؛الأفعال التى ربى بها العالمين،وأدر عليهم فيها النعم، وصرف عنهم بها النقم ، ودبرهم تعالى فى حركاتهم وسكونهم ، فى جميع أحوالهم كلها لله تعالى ، فهو المقدس عن النقص ، المحمود بكل كمال ، المحبوب المعظم .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ إثبات عقيدة التوحيد الخالص ، وتنزيه الله تعالى عن الشريك والزوج والولد .

٢ ـ الملائكة عباد لله يقومون بتنفيذ أوامره ولكل منهم مقامه ووظيفته ، والجن من خلق الله تعالى .

٣ ـ وعد الله واقع لا محالة ، وكلمة الله قائمة .

الجزء الثالث والعشرون سورة ص

بسم الله الرحمن الرحيم

صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾

سورة ص

معانى الكلمات :

عزة : استكبار عن الحق .

شقاق : خلاف وعداوة .

يراد : مدبر .

اختلاق : كذب وافتراء .

فليرتقوا : فليصعدوا .

الأيكة : الشجر الكثير الملتف .

فواق : توقف .

قطنا : نصيبنا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم ما كان عليه المشركون من كبرياء وعداء للنبى ﷺ .

٢ ـ أن نتعرف على جهل المشركين فى إنكارهم « لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

٣ ـ أن نؤمن بأن مجتمع الباطل مجتمع حقير مهزوم .

المحتوى التربوى :

هذه السورة مكية وتعالج السور المكية قضية التوحيد ، وقضية الوحى إلى محمد ﷺ وقضية الحساب فى الآخرة ، وتعرض هذه القضايا الثلاث فى مطلعها .

ويبدأ الله تعالى بأحد حروف المعجم ، يقسم به الله سبحانه كما يقسم بالقرآن ذى الذكر ، وهذا الحرف من صنعة الله تعالى فهو موجود، ومذهب السلف فيه أن يقال : الله أعلم بمراده به ، إذ هو من المتشابه الذى يجب الإيمان به ويوكل أمر معناه إلى من أنزله .

ويقسم الله تعالى بكتاب الله تعالى ، والقرآن يشتمل الذكر كما يشتمل غيره من التشريع والقصص والتهذيب ، ولكن الذكر والاتجاه إلى الله هو الأول ، وهو الحقيقة الأولى فى هذا القرآن ، وقد يكون معنى (ذى الذكر) أى المذكور المشهور ، وهو وصف أصيل للقرآن .

وهناك ما لا يحتاج إلى ذكر المقسم عليه ، فإن حقيقة الأمر ، أن المقسم به عليه شيء واحد ، وهو هذا القرآن الموصوف بهذا الوصف ، علم ضرورة العباد إليه فوق كل ضرورة ، وكان الواجب عليهم تلقيه بالإيمان والتصديق، والإقبال على استخراج ما يتذكر به منه ، فهدى الله من هدى لهذا ، وأبى الكافرون به وبمن أنزله ، وصار معهم عزة وامتناع عن الإيمان به ، واستكبار وشقاق له ، أى : مشاقة ومخاصمة فى رده وإبطاله ، وفى القدح بمن جاء بعده .

وعقب على الاستكبار والمشاقة بصفحة الهلاك والدمار لمن كان قبلهم ، ممن كذبوا مثلهم ، واستكبروا استكبارهم ، وشاقوا مشاقتهم ، ومشهدهم وهم يستغيثون فلا يغاثون ، وقد تخلى عنهم الاستكبار وأدركتهم الذلة، وتخلوا عن الشقاق ولجؤوا إلى الاستعطاف ، ولكن بعد فوات الأوان ، فلعلهم حين يتملون هذه الصفحة أن يطامنوا من كبريائهم ، وأن يرجعوا عن شقاقهم ، وأن يتمثلوا أنفسهم فى موقف أولئك ـ القرون، ينادون ويستغيثون ، وفى الوقت أمامهم فسحة ، قبل أن ينادوا ويستغيثوا ، ولات حين مناص ولا موضع حينذاك للغوث ولا للخلاص .

يطرق قلوبهم تلك الطرقة ، ويوقع عليها هذا الإيقاع قبل أن يعرض تفصيل تلك العزة ، وهذا الشقاق ، ثم يفصل الأمر ، ويحكى ما هم فيه من عزة وشقاق ، فقد عجب هؤلاء المكذبون فى أمر ليس محل عجب ، أن جاءهم منذر منهم، ليتمكنوا من التلقى عنه، وليعرفوه حق المعرفة ، ولأنه من قومهم ، فلا تأخذهم النخوة القومية عن اتباعه ، فهذا مما يوجب الشكر عليهم ، وتمام الانقياد له ، ولكنهم عكسوا القضية ، فتعجبوا تعجب إنكار وقالوا : ساحر كذاب ، قالوا ذلك استبعادًا لأن يكون الله قد أوحى إلى رجل منهم ، وقالوا كذلك تنفيرًا للعامة من محمد ﷺ وتهويشا على الحق الواضح فى حديثه ، والصدق المعروف عن شخصه .

والحق الذى لا مرية فيه أن كبراء قريش لم يصدقوا أنفسهم لحظة ، وهم يقولون عن محمد ﷺ الذى يعرفونه حق المعرفة : إنه ساحر وإنه كذاب ، إنما كان سلاحا من أسلحة التهويش والتضليل وحرب الخداع التى يتقنها الكبراء ، ويتخذونها لحماية أنفسهم ومراكزهم من خطر الحق الذى يتمثل فى هذه العقيدة ، ويزلزل القيم الزائفة والأوضاع الباطلة التى يستند إليها أولئك الكبراء .

وعجبوا كذلك من دعوته إياهم إلى عبادة الله الواحد، وهى أصدق كلمة وأحقها بالاستماع ، وقالوا : أصير الآلهة آلها واحداً ، كيف ينهى عن اتخاذ الشركاء والأنداد ، ويأمر بإخلاص العبادة لله وحده ؟!

قال ابن كثير : « أى أزعم أن المعبود واحد لا إله إلا هو ؟ أنكر المشركون ذلك ـ قبحهم الله تعالى ـ وتعجبوا من ترك الشرك بالله ، فإنهم كانوا قد تلقوا عن آبائهم عبادة الأوثان ، وأشربته قلوبهم ، فلما دعاهم رسول الله ﷺ إلى خلع ذلك من قلوبهم ، وإفراد الإله بالوحدانية أعظموا ذلك وتعجبوا » .

يقول صاحب الظلال : « ويصور التعبير القرآنى فى طريقتهم مقاومة هذه الحقيقة فى نفوس الجماهير ، وتثبيتهم على ماهم عليه من عقيدة موروثة متهافتة ، وإيهامهم أن وراء الدعوة الجديدة خبيئا غير ظاهرها ، وأنهم هم الكبراء العليمون ببواطن الأمور ، مدركون لما وراء هذه الدعوة من خبىء، فليس هو الدين، وليست هى العقيدة ، إنما هو شىء آخر يراد من وراء هذه الدعوة، شىء ينبغى أن تدعه الجماهير لأربابه ... ، إنها الطريقة المألوفة المكرورة التى يصرف بها الطغاة جماهيرهم عن الاهتمام بالشؤون العامة ، والبحث وراء الحقيقة ، ذلك أن اشتغال الجماهير بمعرفة الحقائق بأنفسهم خطر على الطغاة ، وخطر على الكبراء ، وكشف للأباطيل التى يغرقون فيها الجماهير ، وهم لا يعيشون إلا بإغراق الجماهير فى الأباطيل » .

ثم يموهون على الناس بظواهر العقيدة القريبة منهم ، عقيدة أهل الكتاب ، بعد ما دخلت إليها الأساطير التى حرفتها عن التوحيد الخالص ، وأنهم ما سمعوا بهذا القول الذى قاله ، والدين الذى دعا إليه فى الوقت الأخير ، فما أدركنا عليه آباءنا وآباءهم ، فامضوا على الذى مضوا عليه ، وما هذا الذى دعا إليه محمد إلا إختلاقًا اختلقه ، وكذب افتراه ، وما الذى فضله علينا حتى ينزل الذكر عليه من دوننا ، ويخلصه الله به ، وأخبر تعالى من أين صدرت وأنهم ليس عندهم علم ولا بينة .

وهؤلاء الذين قالوا هذه الأقوال ، وتجرؤوا عليها ، حيث كانوا متمتعين فى الدنيا لم يصبهم من عذاب الله شىء ، فلو ذاقوا عذابه لم يتجرؤوا ، وبأى حق يوزعون عطاء الله وهم لا يملكون خزائن رحمته ؟ ! وهو الغالب الذى يعطى ما يشاء لمن يشاء ، وهم لا يملكون السموات والأرض وما بينهما فما بالهم يدخلون فى شؤون المالك المتصرف فيها يملك بها يشاء ؟ وهؤلاء هم جند من الكفار المتحزبين على الرسل مهزوم مكسور عما قريب ، ثم يحذرهم الله تعالى أن يفعل بهم ما فعل بالأمم من قبلهم ، الذين كانوا أعظم قوة منهم وتحزبا على الباطل واجتمعوا بقوتهم على رد الحق ، وهم : قوم نوح وعاد وقوم هود وفرعون صاحب القوة الهائلة والجنود العظيمة ، وثمود وقوم صالح ، وقوم لوط ، وأصحاب البساتين الملتفة وهم قوم شعيب ، وإنْ كل من هؤلاء إلا كذب الرسل فحق عليهم عقاب الله فلينظروا فما هى إلا نفخة واحدة ما لها من رجوع تستأصلهم ، وهؤلاء المكذبون من جهلهم مستعجلين للعذاب وما قسم لهم به منه قبل أن يأتى يوم الحساب .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ـ الذكر هو الحقيقة الأولى فى هذا القرآن .

٢ ـ إذا أراد الله أن يعطى نعمة لأحد فلا مانع لإرادته .

٣ ـ من حكمة الله تعالى أنه جعل الرسل بشراً ، حتى لا يكون للإنسان عذر فى عدم تنفيذ منهج الله .

الجزء الثالث والعشرون — سورة ص

اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾
إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ
مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ
وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ۞ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا
الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ
خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ
وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً
وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ
لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي
بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ
مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩
﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ
﴿٢٥﴾ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ
بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ
عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾

ربع الحزب ٤٦ — سجدة

٤٥٤

معانى الكلمات :

الأيد : القوة .

أواب : رجَّاع بالتوبة إلى الله .

محشورة : مجموعة .

شددنا ملكه : قويناه .

تشطط : تظلم .

أكفلنيها : اتركها لأمتلكها .

عزنى فى الخطاب : غلبنى فى القول .

الخلفاء : الشركاء .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم آية تسخير الله تعالى الجبال والطير لداود تسبح معه .

٢ ـ أن نتعرف على رعاية الله الدائمة لرسله وتعليمهم وتوجيههم وعتابهم على أقل الأشياء .

٣ ـ أن نؤمن بجواز تشكل الملائكة فى صورة بنى آدم .

المحتوى التربوى :

يقول صاحب الظلال : « يلتفت السياق إلى الرسول ﷺ يسليه عن حماقة القوم وسوء أدبهم مع الله ، واستعجالهم بالجزاء وتكذيبهم بالوعيد ، وكفرهم برحمة الله ، ويدعوه أن يذكر ما وقع للرسل قبله من ابتلاء ، وما نالهم من رحمة الله بعد البلاء ، حتى يدع ما يعاينه من قومه من تكذيب واتهام وتعجيب وافتراء ، ويصبر على ما يواجهونه به مما تضيق به الصدور ، وهذا القصص يعرض فى الوقت ذاته ـ آثار رحمة الله بالرسل قبله : وما أغدق عليهم من نعمة وفضل ، وما آتاهم من ملك وسلطان ومن رعاية وإنعام ، وذلك رداً على عجب قومه من اختيار الله له ، وما هو ببدع من الرسل ، وفيهم من آتاه الله إلى جانب الرسالة الملك والسلطان ، وفيهم من سخر له الجبال ـ يسبحن معه والطير ، وفيهم من سخر له الريح والشياطين ، كداود وسليمان ، فما وجه العجب فى أن يختار الله محمداً الصادق لينزل عليه الذكر من بين قريش فى آخر الزمان ؟

كذلك يصور هذا القصص رعاية الله الدائمة لرسله ، وحياطتهم بتوجيهه وتأديبه ، فقد كانوا بشراً ـ كما أن محمداً ﷺ بشر ـ وكان فيهم ضعف البشر ، وكان الله يرعاهم فلا يدعهم لضعفهم ، إنما يبين لهم ويوجههم ، ويبتليهم ليغفر لهم ويكرمهم ، وفى هذا ما يطمئن قلب الرسول ﷺ إلى رعاية ربه له » .

ويبدأ السياق بالإشارة إلى الطريق المطروق فى حياة الرسل ؛ الطريق الذى يضمهم أجمعين ، فكلهم سار فى هذا الطريق ، كلهم عانى ، وكلهم ابتلى ، وكلهم صبر ، وكان الصبر هو زادهم جميعاً ، وسجلوا لنا كيف تنتصر الروح ـ الإنسانية ـ على الآلام والضرورات ، فكان هذا دعوة من الله لرسوله بأن يصبر على ما يقولون كما صبر مَنْ قبله أولوا العزم من الرسل ، فإن قولهم لا يضر الحق شيئا ، ولا يضرونك فى شيء ، وإنما يضرون أنفسهم .

ولما أمر الله رسوله بالصبر على قومه ، أمره أن يستعين على الصبر بالعبادة لله وحده ، ويتذكر حال العابدين ، ومن أعظم العابدين نبى الله داود عليه السلام ، صاحب القوة العظيمة على عبادة الله تعالى فى بدنه وقلبه ، ومع قوته وسلطانه أواب يرجع إلى ربه طائعا تائبا عابدا ذاكرا ، وبلغ من قوة استغراقه فى الذكر ، ومن حسن حظه فى الترتيل، أن تزول الحواجز بين كيانه وكيان هذا الكون ، وتتصل حقيقته بحقيقة الجبال والطير فى صلتها كلها ببارئها ، وتمجيدها له وعبادتها ، فإذا الجبال تسبح معه ، وإذا الطير محموعة عليه ، تسبح معه لمولاها ومولاه .

يقول صاحب الظلال : « ولقد يقف الناس مدهوشين أمام هذا النبأ ... الجبال الجامدة تسبح مع داود بالعشى والإشراق ، حينما يخلو إلى ربه ، يرتل ترانيمه فى تمجيده وذكره ، والطير تتجمع على نغماته لتسمع له وترجع معه أناشيده ، لقد يقف الناس مدهوشين للنبأ ؛ إذ يخالف مألوفهم ، ويخالف ما اعتادوا أن يحسوه من العزلة بين جنس الإنسان وجنس الطير ، وجنس الجبال .

ولكن فيم الدهش ؟ وفيم العجب ؟ إن لهذه الخلائق كلها حقيقة واحدة وراء تميز الأجناس والأشكال والصفات والسمات ، حقيقة واحدة يجتمعون فيها ببارئ الوجود كله : أحيائه وأشيائه جميعاً ، وحين تصل صلة الإنسان بربه إلى درجة الخلوص والإشراق والصفاء ، فإن تلك الحواجز تنزاح ، وتنساح الحقيقة المجردة لكل منهم ، فتتصل من وراء حواجز الجنس والشكل والصفة والسمة التى تميزهم وتعزلهم فى مألوف الحياة .

وقد وهب الله عبده داود هذه الخاصية ، وسخر الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق ، وحشر عليه الطير ترجع مع ترانيمه تسبيحا لله ، وكانت هذه هبة فوق الملك والسلطان ، مع النبوة والاستخلاص » .

وذكر سبحانه منته عليه بالملك العظيم ، وقواه بها أعطاه من الأسباب وكثرة العدد والعُدَد التى بها قوى الله ملكه ، ثم ذكر منته عليه بالعلم فقد آتاه النبوة والعلم العظيم ، وفصل الخصام بتمييز الحق عن الباطل ، والكلام الملخص الذى ينبه المخاطب على المقصود من غير التباس يراعى فيه مظان الفصل والوصل والعطف والاستئناف والإضمار والإظهار والحذف والتكرار ونحوها .

يقول صاحب الأساس : « نلاحظ أن الله ـ عز وجل ـ وصف داود ﷺ بالقوة والأوبة وهما مطلوبان من كل مسلم أن يكون قويا رجاعا إلى الله عز وجل ، وهاتان الصفتان فى سياق السورة تبينان أن المسلم يجابه الكفر بالصبر والقوة والرجوع إلى الله » .

ولما ذكر تعالى أنه أتى نبيه داود الفصل فى الخطاب بين الناس ، وكان معروفا بذلك مقصوداً ، ذكر الله ـ تعالى ـ نبأ خصمين اختصما عنده وهذه قضية جعلها الله فتنة لداود ، وموعظة لخلل ارتكبه ، فتاب عليه وغفر له ، قيض له هذه القضية ، فقال لنبيه محمد ﷺ هل أتاك خبر الخصماء ، وظاهر الاستفهام ومعناه الدلالة على الأنباء العجيبة ، وبيان هذا الخبر أن داود النبى الملك ، كان يخصص بعض وقته للتصرف فى شؤون الملك ، وللقضاء بين الناس ، ويخصص البعض الآخر للخلوة والعبادة ، وترتيل أناشيده تسبيحا لله فى المحراب ، وكان إذا دخل المحراب للعبادة والخلوة لم يدخل إليه أحد حتى يخرج هو إلى الناس ، فلم يشعر إلا بشخصين قد تسورا عليه المحراب واحتاطا به يسألانه عن شأنهما ، ففزع منهم فما يتسور المحراب هكذا مؤمن ولا أمين ، فبادرا يطمئنانه وقالا قد جئنا للتقاضى أمامك ، فاحكم بيننا بالعدل ولا تمل مع أحدنا ، وأرشدنا إلى طريق الصواب ، فنص أحدهما على الأخوة فى الدين أو النسب أو الصداقة لاقتضائها عدم البغى ، وأن بغيه الصادر منه أعظم من غيره ، وقال : إن أخى هذا له تسع وتسعون نعجة ، ولى نعجة واحدة ، فقال : ملكنيها ،واجعلنى أكفلها كما أكفل ما تحت يدى أو اجعلها فى نصيبى ، وشدد علىّ فى القول وأغلظ .

فقال داود ـ لما سمع كلامه ـ ومن المعلوم من السياق السابق من كلامهما أن هذا هو الواقع ، فلهذا لم يحتج أن يتكلم الآخر : لقد ظلمك بفعله هذا ، وإن كثيرا من الشركاء والأصحاب، والمتخالطين مع بعضهم فى بيت أو سجن أو دائرة ليظلم بعضهم بعضا إلا من آمن وعمل صالحا ، فهذا القليل الصالح وحده لا يظلم بعض بعضا فى الخلطة ، وعند هذه المرحلة اختفى الرجلان ، فقد كانا ملكين جاءا للامتحان، فعلم داود وأيقن أنه اختبار أختبرناه ودبرنا عليه هذه القضية لينبه ، فاستغفر ربه وسقط على وجهه ساجداً لله ، ورجع إلى ربه بالتوبة ، فغفرنا له ما كان منه مما يقال فيه إن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، وهو ﷺ له منزلة عالية وقربة منه ، وكان بعد التوبة أحسن منه قبلها ، وذكر الله أنه استخلفه على الملك فى الأرض فاحكم بين الناس بحكم الله ، ولا تتبع هوى النفس فيضلك عن دين الله ، فالذين يبتعدون عن الحق لهم عذاب شديد بما تركوا أن يعملوا ليوم الحساب .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ يحوط الله عز وجل عباده الصالحين بالرعاية الدائمة ، وعلى المسلم أن يتأسى بالصالحين .

٢ ـ وجوب التوبة عند الوقوع فى الذنب .

٣ ـ وجوب الحكم بالعدل على كل من حكم ، ولا عدل فى غير الشرع الإلهى .

الجزء الثالث والعشرون — سورة ص

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾

٤٥٥

معانى الكلمات :

أواب : كثير الرجوع إلى الله بالتوبة .

الصافنات : الخيل الواقفة على ثلاث أرجل وطرف حافر الرابعة .

الجياد : السريعة الجرى .

فطفق مسحا بالسوق والأعناق : أى أخذ يمسح بسوق الخيل وأعناقها .

فتنا : ابتلينا واختبرنا .

رخاء : منقادة .

مقرنين فى الأصفاد : مقيدين بالسلاسل .

اركض : اضرب .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن أمر الكون كله قائم على الحق والعدل .

٢ ـ أن نتعرف على قصة سليمان عليه السلام .

٣ ـ أن نعلم أن الابتلاء على قدر الإيمان .

المحتوى التربوى :

يخبر تعالى عن تمام حكمته فى خلقه السموات والأرض ، وأنه لم يخلقها عبثا ولعبا من غير فائدة ولا مصلحة ، ثم أخبر تعالى أن خلق السموات والأرض باطلا ظن الكافرين الذين لا يرون بعثا ولا معاداً ، وإنما يعتقدون أن ليس إلا هذه الدار فقط ، فويل لهم يوم معادهم ونشورهم من النار المعدة لهم ، ثم بين تعالى أنه ـ عز وجل ـ من عدله وحكمته لا يساوى بين المؤمنين والكافرين ، ويأتى استفهام لإنكار ، فلو بطل الجزاء ـ كما يقول الكافرون ـ لاستوت أحوال من أصلح وأفسد واتقى وفجر ، ومن سوّى بينهم كان سفيها ولم يكن حكيما ، وهم لا يستوون عند الله ، وإذا كان الأمر كذلك فلابد من دار أخرى يثاب فيها المطيع ، ويعاقب فيها هذا الفاجر ، وهذا الإرشاد يدل العقول السليمة والفطر المستقيمة على أنه لابد من معاد وجزاء .

ولما كان القرآن يرشد إلى المقاصد الصحيحة ، والمآخذ العقلية الصريحة ، فقد جاء فيه خير كثير ، وعلم غزير ، فيه كل هدى من ضلالة ، وشفاء من داء ، ونور يستضاء به فى الظلمات ، وكل حكم يحتاج إليه المكلفون وفيه من الأدلة القطعية على كل مطلوب ، ما كان به أجل كتاب طرق العالم منذ أنشأه الله ، وتذكر الحكمة من إنزاله ، وهى ليتدبر الناس آياته ، فيستخرجوا علمها ويتأملوا أسرارها وحكمها ، فإنه بالتدبر فيه ، والتأمل لمعانيه ، وإعادة الفكر فيها مرة بعد مرة ، تدرك بركته وخيره ، وهذا يدل على الحث على تدبر القرآن ، وأنه من أفضل الأعمال ، وأن القراءة المشتملة على التدبر أفضل من سرعة التلاوة التى لا يحصل بها هذا المقصود ، وليتذكر أولو العقول الصحيحة ، يتذكرون بتدبرهم لها كل علم مطلوب ، فدل هذا على أنه يحسب لب الإنسان وعقله ، يحصل له التذكر والانتفاع بهذا الكتاب .

ولما أثنى تعالى على داود ، وذكر ما جرى له ومنه ، أثنى على ابنه سليمان عليهما السلام ، وأنه أنعم به على داود ، وأقر به عينه ، ونعم العبد سليمان عليه السلام ، فإنه اتصف بما يوجب الحمد ، وهو رجاع إلى الله فى جميع أحواله بالتأله والإنابة ، والمحبة والذكر والدعاء والتضرع ، والاجتهاد فى مرضاة الله ، وتقديمها على كل شىء ، ولهذا لما عرضت عليه الخيل الجياد السبق الصافنات التى ترفع إحدى قوائمها عند الوقوف ، وكان لها منظر رائق ، وجمال معجب ، خصوصا للمحتاج إليها كالملوك ، فما زالت تعرض عليه حتى غابت الشمس فى الحجاب ، فألهته عن صلاة المساء ، وذكره ، فقال ندما على ما مضى منه ، وتقربا إلى الله بما ألهاه عن ذكره ، وتقديمًا لحب الله على حب غيره : إنى آثرت حب الخيل ، فردوها علىّ ، فردوها عليه فجعل يضرب أعناقها وسيقانها جزاء ما شغلته عن ذكر ربه ، ورواية أخرى أنه إنما جعل يمسح سوقها وأعناقها إكراما لها ؛ لأنها كانت خيلا فى سبيل الله ، وكلتا الروايتين لا دليل عليها ويصعب الجزم بشىء عنها .

قال القاسمى : « وفتنة الله تعالى لسليمان إنما هى اختباره حتى ظهر فضله فقط ، وما عدا هذا انحرافات ولدها زنادقة اليهود وأشباههم ، وأما الجسد الملقى على كرسيه فقد أصاب الله تعالى به ما أراد ، نؤمن بهذا كما هو ، ونقول : صدق الله عز وجل ، كل من عند الله ربنا ، ولو جاء نص صحيح فى القرآن أو عن رسول الله ﷺ بتفسير هذا الجسد ما هو ، لقلنا به ، فإذا لم يأت بتفسيره ما هو نص ولا خبر صحيح ، فلا يحل لأحد القول بالظن الذى هو أكذب الحديث فى ذلك ، فيكون كاذبا على الله عز وجل » .

وكل ما نخرج به هو أنه كان هناك ابتلاء من الله وفتنة لنبى الله سليمان عليه السلام فى شأن يتعلق بتصرفاته فى الملك والسلطان كما يبتلى الله أنبياءه ليوجههم ويرشدهم ويبعد خطاهم عن الزلل ، وأن سليمان أناب إلى ربه ورجع ، وطلب المغفرة ، واتجه إلى الله بالدعاء والرجاء ، وأقرب تأويل لهذا الطلب من سليمان عليه السلام أنه لم يرد به أثرة ، إنما أراد الاختصاص الذى يتجلى فى صورة معجزة ، فقد أراد به النوع ، أراد به ملكا ذا خصوصية تميزه من كل ملك أخر يأتى بعده ، وذا طبيعة معينة ليست مكررة لا معهودة فى الملك الذى يعرفه الناس ، وقد استجاب له ربه ، فأعطاه فوق الملك المعهود ، ملكا خاصا لا يتكرر ، فسخر الشياطين له ، يبنون ما يريد ، ويغوصون له فى البحر ، يستخرجون الدر والحلى ، ومن عصاه منهم قرنه فى الأصفاد وأوثقه ، ويقول تعالى : هذا

الذى أعطيناك عطاؤنا ، فأعط منه ما شئت من المنة أو أمسك عن العطاء ولا حساب عليك فى ذلك ، ثم نبه الله تعالى على أن سليمان ذو حظ عظيم عند الله يوم القيامة ومن المقربين .

يقول العلامة السعدى : « من الفوائد والحكم فى قصة داود وسليمان عليهما السلام ..: إن الله تعالى يمدح ويحب القوة فى طاعته ، قوة القلب والبدن ، فإنه يحصل منها من آثار الطاعة وحسنها وكثرتها ما لا يحصل مع الوهن وعدم القوة ، وأن العبد ينبغى له تعاطى أسبابها ، وعدم الركون إلى الكسل والبطالة المخلة بالقوى المضعفة للنفس .

ومنها : إن الرجوع إلى الله فى جميع الأمور من أوصاف أنبياء الله وخواص خلقه ، كما أثنى الله على داود وسليمان بذلك ، فليقتد بهما المقتدون ، وليهتد بهداهم السالكون ...

ومنها : إنه لا يمنع الحاكم من الحكم بالحق سوء أدب الخصم وفعله ما لا ينبغى .

ومنها : كمال حلم داود عليه السلام فإنه ما غضب عليهما حين جاءاه بغير استئذان ، وهو الملك ، ولا انتهرهما ولا وبخهما ...

ومنها : إن الموعوظ والمنصوح ولو كان كبير القدر ، جليل العلم ، إذا نصحه أحد أو وعظه ، لا يغضب ولا يشمئز ، بل يبادره بالقبول والشكر ، فإن الخصمين نصحا داود ، فلم يشمئز ولم يغضب ، ولم يثنه ذلك عن الحق ، بل حكم بالحق الصرف ...

ومنها : إن كل ما أشغل العبد عن الله ، فإنه مشؤوم مذموم ، فليفارقه وليقبل على ما هو أنفع له .. » .

ويذكر تعالى عبده ورسوله أيوب عليه السلام ، وما كان ابتلاه تعالى به من الضر فى جسده وماله وولده ، فقال : اذكر فى هذا الكتاب ذى الذكر عبدنا أيوب بأحسن الذكر ، وأثنى عليه بأحسن الثناء ، حين أصابه الضر ، فصبر على ضره ، فلم يلجأ لغير ربه ولا لجأ إلا إليه ، فنادى ربه داعيا أن الشيطان مسه بأمر مشق متعب معذب وكان سلط على جسده فنفخ فيه حتى تقرح ، ثم تقيح بعد ذلك واشتد به الأمر ، وكذلك هلك أهله وماله ، فقيل له : اضرب الأرض برجلك لينبع لك منها عين تغتسل منها وتشرب ، فيذهب عنك الضر والأذى ففعل ذلك ، فذهب عنه الضر ، وشفاه الله تعالى .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الإنسان يبتلى فى الحياة على قدر إيمانه ؛ لذا كان الأنبياء أعظم الناس ابتلاء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل .

٢ ـ ضرورة التضرع إلى الله والشكوى إليه ـ سبحانه ـ ولا ينافى الصبر الذى أمر الله به .

٣ ـ كما يختبر الله تعالى عباده بالفقر والمرض وغيرهما يختبرهم كذلك بالغنى والصحة وغيرهما، والمؤمن من يشكر ربه فى السراء والضراء ، فلا تطغيه النعم ، ولا ييأس من رحمة الله عند البلاء .

الجزء الثالث والعشرون — سورة ص

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾

نصف الحزب ٤٦

٤٥٦

معانى الكلمات :

ضغثا : حزمة من العيدان .

ولا تحنث : الحنث عدم تنفيذ ما حلف عليه .

أواب : يرجع إلى الله فى جميع أموره .

أولى الأيدى : أصحاب القوة فى الطاعة .

الأبصار : المعرفة فى الدين والدنيا .

أخلصناهم : خصصناهم .

أتراب : مستويات فى الشباب .

مقتحم معكم : داخل معكم النار .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نؤمن بالآخرة ونتذكرها دائما .

٢ ـ أن نعلم فضيلة الائتساء بالصالحين من عباد الله تعالى .

٣ ـ أن نتعرف على مذمة الطغيان وجزاء أهله يوم القيامة .

المحتوى التربوى :

يبرز السياق رحمة الله وفضله على عباده الذين يبتليهم فيصبرون على بلائه ، وترضى نفوسهم بقضائه ، وتقول بعض الروايات : إن الله أحيا له أبناءه ووهب له مثلهم ، وليس فى النص ما يحتم أنه أحيا له من مات ، وقد يكون معناه أنه بعودته إلى الصحة والعافية قد استرد أهله الذين كانوا بالنسبة إليه ـ كالمفقودين ، وأنه رزقه بغيرهم زيادة فى الإنعام والرحمة والرعاية ، مما يصلح ذكرى لذوى العقول والإدراك .

وأما قسمه ليضربن زوجه ، فرحمة من الله وبزوجه التى قامت على رعايته ، وصبرت على بلائه وبلائها به ، أمره الله أن يأخذ مجموعة من العيدان بالعدد الذى حدده ، فيضربها ضربة واحدة ، تجزئ عن يمينه ، فلا يحنث فيها ، وهذا التيسير ، وذلك الإنعام ، كانا جزاء على ما علمه الله من عبده أيوب من الصبر على البلاء ، وحسن الطاعة والالتجاء .

قال القاسمى : « قد رووا هنا آثاراً فى المحلوف عليه لم يصح منها شىء ، فالله أعلم به ولا ضرورة لبيانه ؛ إذ القصد الإعلام برحمة أخرى ، ونعمة ثانية عليه صلوات الله ، وهى الدلالة إلى المخرج من الحنث برخصة وطريقة سهلة سمحة ترفع الحرج » .

ويقول تعالى : واذكر عبادنا الذين أخلصوا لنا العبادة ذكراً حسنا : إبراهيم الخليل ، وابنه إسحاق وابن ابنه يعقوب صاحب القوة على عبادة الله تعالى ، والبصيرة فى دين الله ، فوصفهم بالعلم النافع ، والعمل الصالح الكثير ، فإنا صفيناهم عن شوب صفات النفوس وكدورة الحظوظ ، وجعلناهم لنا خالصين ـ بالمحبة الحقيقية ، فقد استخلصناهم لوجهنا بسبب تذكرهم لعالم القدس ، وإعراضهم عن معدن الرجس ، مستشرفين لأنوارنا ، لا التفات لهم إلى الدنيا وظلماتها أصلا ، وإنهم عندنا لمن المختارين من أبناء جنسهم لقربنا ، والمنزهين عن شوائب الشرور .

واذكر هؤلاء الأنبياء بأحسن الذكر ، وأثنِ عليهم أحسن الثناء ، فإن كلا منهم من الأخيار الذين اختارهم الله من الخلق ، واختار لهم أكمل الأحوال من الأعمال والأخلاق ، والصفات الحميدة والخصال السديدة ، هذا ذكر هؤلاء الأنبياء الصفوة وذكر أوصافهم ، ذكر فى هذا القرآن ذى الذكر بأحوالهم المتذكرون ، ويشتاق إلى الاقتداء بأوصافهم الحميدة المقتدون ، ويعرف ما منّ الله عليهم به من الأوصاف الذكية ، وما نشر لهم من الثناء بين البرية ، فهذا نوع من أنواع الذكر ، وهو ذكر أهل الخير ، ومن أنواع الذكر ، ذكر جزاء أهل الخير وأهل الشر ؛ ولهذا قال : إن للمتقين ربهم بامتثال الأوامر واجتناب النواهى ، من كل مؤمن ومؤمنة لمرجعًا مستحسنا ، ثم فسره وفصله ، فقال: جنات إقامة لا يبغى صاحبها بدلا منها ، من كمالها وتمام نعيمها ، وليسوا بخارجين منها ولا بمخرجين ، وهذه الجنات مفتحة لأجلهم أبواب منازلها ومساكنها ، لا يحتاجون أن يفتحوها هم ، بل هم مخدومون ، وهذا دليل أيضاً على الأمان التام ، وأنه ليس فى جنات عدن ، ما يوجب أن تغلق لأجله أبوابها ، وهم متربعون فيها على سرر ، يأمرون خدامهم أن يأتوا بفاكهة كثيرة وشراب من كل ما تشتهيه نفوسهم ، وتلذه أعينهم ، وهذا يدل على كمال النعيم ، وكمال الراحة والطمأنينة وتمام اللذة .

وعندهم من أزواجهم من الحور العين قاصرات الطرف عن غير أزواجهن فلا يلتفتن إلى غير بعولتهن ، وهن أتراب لأزواجهم متساويات فى السن والعمر ، وهذا الوعد للمتقين ليوم تجزى كل نفس بما عملته ثم أخبر تعالى عن الجنة أنه لا فراغ لها ولا زوال ولا انقضاء ولا انتهاء ، وهذا المذكور من النعم والكرامات لرزقنا الذى أنعمنا به عليكم ما له من انقطاع ولا يفنى أبداً ، فنعم الجنة لا تنقطع عن أهلها .

ولما ذكر الله تعالى مآل السعداء ، ثنى بذكر حال الأشقياء ومرجعهم ومآبهم دار معادهم وحسابهم ، وأن حال السعداء كان كما ذكر ، أما الخارجون عن طاعة الله عز وجل ، المخالفون لرسل الله ﷺ ، فلهم سوء المنقلب والمرجع ، ثم فسره بأنه جهنم ؛ يدخلونها فتغمرهم من جميع

جوانبهم ، فبئس المعد لهم مسكناً ومستقراً ، فشبه ما تحتهم من النار بالمهاد الذى يفترشه النائم ، وهذا حميم وهو الماء الذى قد انتهى حره ، وغساق وهو الماء البارد الذى لا يستطاع من شدة برده المؤلم .

ليس هذا فحسب ، بل وعذاب آخر أو مذوق آخر أو نوع آخر من شكل العذاب أو المذوق لهم منه عدة أصناف من أصناف العذاب يعذبون بها ، فلأهل النار حميما وغساقا وأنواعا من العذاب من مثل الحميم والغساق ، والزمهرير ، والسموم ، وشرب الحميم ، وأكل الزقوم والصعود والهوى إلى غير ذلك من الأشياء المختلفة المتضادة ، والجميع مما يعذبون به ، ويهانون بسببه .

وعند تواردهم على النار يشتم بعضهم بعضا ، ويقول بعضهم لبعض : هذه جماعة داخلة معكم إلى النار ، لا مرحبا بهم فإنهم من أهل النار ، وهذا إخبار من الله سبحانه بانقطاع المودة بين الكفار ، وأن المودة التى كانت بينهم تصير عداوة ، وقال الأتباع عند سماع ما قاله الرؤساء لهم : بل أنتم لا مرحبا بكم ولا كرامة لكم ، وعللوا ذلك بقولهم : أنتم قدمتم العذاب أو الصلى لنا ، وأوقعتمونا فيه ، ودعوتمونا إليه بما كنتم تقولون لنا من أن الحق ما أنتم عليه ، وأن الأنبياء غير صادقين فيما جاؤوا ، فبئس المقر جهنم لنا ولكم .

ثم حكى عن الأتباع أيضاً أنهم أردفوا هذا القول بقول آخر ، وهو دعوة فيها الحنق والضيق والانتقام : بأن من قدم لنا هذا العذاب بدعائه إيانا إلى الكفر فزده عذابا مضاعفا فى النار ؛ عذابا بكفره ، وعذابا بدعائه إيانا .

قال صاحب الظلال : « تتضمن السورة رداً على استعجالهم بالعذاب ، وقولهم : ﴿ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ فيعرض بها ـ بعد القصص ـ مشهدًا من مشاهد القيامة ، يصور النعيم الذى ينتظر المتقين ، والجحيم التى تنتظر المكذبين ، ويكشف عن استقرار القيم الحقيقية فى الآخرة بين هؤلاء وهؤلاء ، حين يرى الملأ المتكبرون مصيرهم ومصير الفقراء الضعاف الذين كانوا يهزؤون بهم فى الأرض ويسخرون ، ويستكثرون عليهم أن تنالهم رحمة الله ، وهم ليسوا من العظماء ولا الكبراء ، وبينما المتقون لهم حسن مآب .. فإن للطاغين لشر مآب ، وهم يتلاعنون فى جهنم ويتخاصمون ... » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ – إذا اتقى الإنسان ربه جعل الله له من أمره فرجا ومخرجا .

٢ – على الإنسان أن يبر فى يمينه إذا حلف ، أو يكفر عنها إذا وجد غيرها خيراً منها .

٣ – بيان فضيلة القوة فى العبادة والبصيرة فى الدين ، وعلى المسلم أن يتخذ أسبابها .

وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾

معانى الكلمات :

زاغت : مالت .

منذر : مخوف .

يختصمون : يتناقشون .

سويته : أتممت خلقه .

رجيم : لعين مطرود من رحمة الله

فأنظرنى : فأمهلنى

لأغوينهم : لأضلنهم .

المخلصين : المستخلصين المحفوظين .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على مشهد الكافرين وهم يبحثون عن المؤمنين فى الآخرة .

٢ ـ أن نعلم قصة خلق آدم وما تقرر يوم ذاك .

٣ ـ أن نؤمن بأن إبليس عدو لبنى آدم .

المحتوى التربوى :

يمضى السياق فى تصوير حال المشركين ، فها هم فى النار يفتقدون المؤمنين ، الذين كانوا يتعالون عليهم فى الدنيا ويظنون بهم شراً ، ويسخرون من دعواهم فى النعيم ها هم أولاء يفتقدونهم فلا يرونهم معهم مقتحمين فى الدنيا، ويظنون بهم شرا ، ويسخرون من دعواهم فى النعيم ، ها هم أولاء يفتقدونهم فلا يرونهم معهم مقتحمين فى النار ، فيتساءلون : أين هم ؟ أين ذهبوا ؟ أم نراهم هنا ولكن زاغت عنهم أبصارنا ؟ بينما هؤلاء الرجال الذين يتساءلون عنهم هناك فى الجنات ، ويختم المشهد بتقرير واقع أهل النار ، فهذا الذى ذكره الله ما فيه شك ولا مرية وهو واقع ثابت، فما أبعد مصيرهم عن مصير المتقين الذين كانوا يسخرون منهم ، ويستكثرون اختيار الله لهم ، وما أبأس نصيبهم الذى كانوا يستعجلون به وهم يقولون : ﴿ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾.

يعود السياق إلى تقرير القضايا التى عرضت فى مقدمتها : قضية التوحيد والوحى ، وقضية الجزاء فى الآخرة ، ويستعرض قصة آدم دليلا على الوحى بما دار فى الملأ الأعلى ذات يوم ، وما تقرر يوم ذاك من الحساب على الهدى والضلال فى يوم الحساب ، فيبدأ بخطاب الرسول ﷺ أن يقول للكافرين : ما أنا إلا رسول منذر ، أنذركم عذاب الله تعالى ، وأقول لكم إن دين الحق توحيد الله ، وأن تعتقدوا أن لا إله إلا الله الواحد بلا ند ولا شريك ، القهار لكل شىء فهو قد قهر كل شىء وغلبه ، وهو مالك جميع ذلك ومتصرف فيه العزيز الذى لا يغلب إذا عاقب ، الغفار لذنوب من التجأ إليه .

قال صاحب الأساس : « كأن السياق بعد أن عرض مواقف الكافرين المتعنتة ، وعرض ما به تقوم الحجة يبين لرسوله ﷺ أن نور الحق لابد من إظهاره ، وأن الرسالة لابد من تبليغها ، وأن أسس الدعوة ينبغى الجهر بها على كل حال ،وأن الرسول ﷺ فى واقع الأمر وحقيقة الحال منذر ، قَبِل الناسُ إنذارَه أو رفضوه ، استفادوا من ذلك أو لم يستفيدوا ، وإذ يتقرر الإعلان هذا يأتى أمر جديد فيه إعلان عن قيمة الإعلان الأول ، وفيه إقامة حجة جديدة عليهم ، فالملاحقة ينبغى أن تستمر حتى يلقى الكفر سلاحه » .

ويستمر السياق فى توجيه الخطاب للرسول ﷺ بأن يقول لهم ـ مخوفا ومحذراً ومنهضاً لهم ومنذراً : ما أنبأتكم به من البعث والنشور والجزاء على الأعمال ، خبر عظيم ينبغى الاهتمام الشديد بشأنه ، ولا ينبغى إغفاله ، ولكن أنتم عنه غافلون ، كأنه ليس أمامكم حساب ولا عقاب ولا ثواب .

قال الرازى : « واعلم أن قوله : ﴿ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ ترغيب فى النظر والاستدلال ، ومنع من التقليد؛ لأن هذه المطالب مطالب شريفة عالية ، فإن بتقدير أن يكون الإنسان فيها على الحق ، يفوز بأعظم أبواب السعادة ، وبتقدير أن يكون الإنسان فيها على الباطل ، وقع فى أعظم أبواب الشقاوة ، فكانت هذه المباحث أنباء عظيمة ومطالب عالية بهية ، وصريح العقل يوجب على الإنسان أن يأتى فيها ـ بالاحتياط التام ، وألا يكتفى بالمساهلة والمسامحة » .

ويذكر الرسول ﷺ أن إخباره عن محاورة الملأ الأعلى من الملائكة وآدم وإبليس وما جرى بينهم ، على ما ورد فى الكتب المتقدمة من غير سماع ومطالعة كتاب ، لا يتصور إلا بالوحى ، ولولا الوحى من أين كنت أدرى باختلاف الملأ الأعلى ؟ يعنى فى شأن آدم عليه السلام وامتناع إبليس من السجود له ومحاجته ربه فى تفضيله عليه ، وما يوحى إلى إلا للإنذار والبلاغ ولا أفرط فى ذلك .

ويأخذ السياق فى عرض قصة البشرية ، وما دار فى الملأ الأعلى بشأنها منذ البدء ، مما يحدد خط سيرها ، ويرسم أقدارها ومصائرها ، وهو ما أرسل الله محمداً ﷺ ليبلغه وينذر به فى آخر الزمان ، وما ندرى نحن كيف قال الله أو كيف يقول للملائكة ، وما ندرى كذلك كيف يتلقى الملائكة عن الله ، ولا ندرى عن كنههم إلا ما بلغنا من صفاتهم فى كتاب الله ، ولا حاجة بنا إلى

الخوض فى شىء من هذا الذى لا طائل وراء الخوض فيه ، إنما نمضى إلى مغزى القصة ودلالتها كما يقصها القرآن فالله أعلم الملائكة قبل خلق آدم ﷺ بأنه سيخلق بشراً من طين ، وتقدم إليه بالأمر : متى فرغ من خلقه وتسويته فليسجدوا له إكراماً وإعظاما واحتراما ، وامتثالا لأمر الله عز وجل .

يقول صاحب الظلال :« ما كان لهذا الكائن الصغير الحجم، المحدود القوة ، القصير الأجل ، المحدود المعرفة ما كان له أن ينال شيئا من هذه الكرامة لولا تلك اللطيفة الربانية الكريمة (النفخة العلوية التى جعلت منه إنسانا) وإلا فمن هو ؟ إنه ذلك الخلق الصغير الضئيل الهزيل الذى يحيا على هذا الكوكب الأرضى مع ملايين الأنواع والأجناس من الأحياء ، وما الكوكب الأرضى إلا تابع صغيرة من توابع أحد النجوم ، ومن هذه النجوم ملايين الملايين فى ذلك الفضاء الذى لا يدرى إلا الله مداه .. فبإذا يبلغ هذا الإنسان لتسجد له ملائكة الرحمن ، إلا بهذ السر اللطيف العظيم ؟ إنه بهذا السر كريم كريم ، فإذا تخلى عنه أو انفصم منه ارتد إلى أصله الزهيد من طين » .

ولقد استجاب الملائكة لأمر ربهم كما هى فطرتهم ، وكيف كان سجودهم ؟ وأين ؟ ومتى ؟ كل أولئك غيب من غيب الله ، ومعرفته لا تزيد فى مغزى القصة شيئا ، فهم قد سجدوا كلهم إلا إبليس لم يسجد واستكبر عن أمر ربه واستكبر على آدم، وكان من الكافرين فى علم الله ، فقال الله موبخا ومعاتبا : ما منعك عن السجود امتثالا لأمرى ، وإعظاما لخطابى لمن خلقته بلا واسطة ؟ هل الكبر أم العلو هو الذى جعلك ترفض السجود ؟!

استنكف إبليس عن السجود لآدم ، وخاصم ربه عز وجل فيه ، وادعى أنه خير من آدم ، فإنه مخلوق من نار ، وآدم مخلوق من طين ، والنار خير من الطين فى زعمه ، وقد أخطأ فى ذلك ، وخالف أمر الله ، وكفر بذلك فأبعده الله ، وأرغم أنفه ، وطرده عن باب رحمته ومحل أنسه ، وحضرة قدسه ، وسماه إبليس إعلاما له بأنه قد أبلس من الرحمة ، وأنزله من السماء مذموما مدحورا إلى الأرض ، فسأل الله النظرة إلى يوم البعث ، فأنظره الحليم الذى لا يعجل على من عصاه ، فلما أمن الهلاك إلى يوم القيامة تمرد وطغى ، وأظهر العداوة لربه ولآدم وذريته ، وأقسم بعزة الله ليغوينهم كلهم أجمعين إلا عباد الله المخلصين ، فقد علم أن الله سيحفظهم من كيده ، وأنه عاجز من كل وجه ، وأنه لا يضل أحداً إلا بمشيئة الله تعالى ، فاستعان بعزة الله على إغواء ذرية آدم هذا وهو عدو الله حقا ، ونحن نستعين بعزة الله وعظمته وقدرته ، ورحمته الواسعة لكل مخلوق أن يعيننا على محاربته وعداوته ، والسلامة من شره وشركه .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الحسد والكبر صفتان مذمومتان تجران إلى لعنة الله .

٢ ـ الشيطان عدو الإنسان فيجب الحذر منه والحرص على مخالفته وعدم اتباع وسوسته .

٣ ـ المؤمن غالب لشيطانه بقوة إيمانه واتصاله بالرحمن .

قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾

سُورَةُ الزُّمَرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٥﴾

٤٥٨

معانى الكلمات :

المتكلفين : المتصنعين .

ذكر : عظة وعبرة .

أولياء : شركاء .

زلفى : تقريبا إلى الله .

كفار : مبالغ فى كفره .

يكور الليل على النهار : يلفه على النهار .

ويكور النهار على الليل : يلفه على الليل .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن المعركة بين الشيطان وبين آدم وذريته قائمة والعاقبة فى وعد الله واضحة .

٢ ـ أن نؤمن أن القرآن الكريم منزل من عند الله الذى أنزله بحكمة وتدبير .

٣ ـ أن نتعلم كيفية التدبر فى خلق السموات والأرض ، وظاهرة الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر .

المحتوى التربوى :

يعلن سبحانه إرادته ، ويحدد منهجه ، فالله عز وجل هو الحق ، وقوله الحق ، ويقسم الله عز وجل أن يملأ جهنم من المتبوعين والتابعين أجمعين لا يترك منهم أحدًا ، ولما بين الرسول للناس الدليل ووضح لهم السبيل ، قال الله له: قل ما أسألكم على القرآن أو الوحى أو الإنذار من أجر ، ما أسألكم على هذا البلاغ وهذا النصح أجراً تعطونيه من عرض الحياة الدنيا حتى تظنوا بى الظنون ، وما أنا من الذين يتصنعون ويتحلَّون بما ليسوا من أهله ، وما عرفتمونى قط متصنعا ولا مدعيا بما ليس عندى ، حتى أنتحل النبوة ، وأتقوَّل القرآن ، وأمره أن يلفت نظرهم إلى خصائصه الذاتية التى تدل ـ وحدها ـ على أنه لا يمكن أن يكون إلا رسولا صادقا لله ، ثم أمره أن يلفت نظرهم إلى خصائص القرآن ، فما القرآن إلا ذكر من الله للثقلين أوحى إلى فأنا أبلغه

ولتعلمَّن خبر القرآن وما فيه من الوعيد خصائص القرآن ؛ فما القرآن إلا ذكر من الله للثقلين أوحىَ إلى ، فأنا أبلغه ، ولتعلمن خبر القرآن وما فيه من الوعد والوعيد ، وذكر البعث والنشور بعد الموت أو يوم القيامة .

قال صاحب الظلال : « إنها الدعوة الخالصة للنجاة التى لا يطلب صاحبها أجراً وهو الداعية السليم ، الذى ينطق بلسانه ، لا يتكلف ولا يتصنع ، ولا يأمر إلا بما يوحى منطق الفطرة القريب ، وإنه للتذكير للعالمين أجمعين فقد ينسون ويغفلون ، وإنه للنبأ العظيم الذى لا يلقون بالهم إليه اليوم ، وليعلمن نبأه بعد حين ، نبأه فى الأرض ـ وقد علموه بعد سنوات من هذا القول ـ ونبأه فى اليوم المعلوم ، عندما يحق وعد الله اليقين : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

سورة الزمر

هذه السورة تكاد تكون مقصورة على علاج قضية التوحيد ، وهى تطوف بالقلب البشرى فى جولات متعاقبة ، وتوقع على أوتاره إيقاعات متلاحقة ، وتهزه هزاً عميقاً متواصلاً لتطبع فيه حقيقة التوحيد وتمكنها ، وتنفى عنه كل شبهة ، وكل ظل يشوب هذه الحقيقة .

جاءت مقدمة السورة لتقرر أن منزل القرآن الذى لا ريب فيه هو الله العزيز الحكيم ، وفى ذكر اسم الله العزيز فى هذه المقدمة بيان أن الله لم ينزل كتابه ذلك ، وأن ما فيه من تكليف إنما هو تكليف عزيز فى سلطانه ، وفى ذلك إشعار إلى أنه سيحاسب ويعاقب لمن خالف كتابه ، فذلك شأن العزيز ، وفى ذكر اسم الله الحكيم فى هذه المقدمة إشعار بأن كتابة حكيم ، فالحكيم يصدر عنه ما هو حكيم ، وقد أنزله عز وجل بسبب إثبات الحق وإظهاره وتفصيله ، ونزل مشتملا على الحق لهداية الخلق على أشرف الخلق ، عظمت فيه النعمة وجلت ، ووجب القيام بشكرها ، وذلك بإخلاص الدين لله ، جميع الدين من الشرائع الظاهرة والشرائع الباطنة : الإسلام والإيمان والإحسان ، بأن تفرد الله وحده بها ، وتقصد به وجهه لا غير ذلك من المقاصد .

ثم يبين السياق أنه تعالى كما أنه له الكمال كله ، وله التفضل على عباده من جميع الوجوه ، فكذلك له الدين الخالص الصافى من جميع الشوائب ، فهو الدين الذى ارتضاه لنفسه ، وارتضاه لصفوة خلقه وأمرهم به؛لأنه متضمن للتأله لله فى حبه وخوفه ورجائه،وللإنابة إليه فى عبوديته، والإنابة إليه فى تحصيل مطالب عباده ، والله لا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده لا شريك له ، فلذلك أمر بالتوحيد والإخلاص ، ونهى عن الشرك به ، وأخبر بذم من أشرك به ، والذين اتخذوا من دون الله آلهة فإنهم يقولون : ما نعبدهم إلا ليشفعوا لهم عند الله تعالى فى نصرهم ورزقهم ، وما ينوبهم من أمور الدنيا ، أما الآخرة فكانوا جاحدين لها كافرين بها .

والحكمة فى كون الشرك لا يغفره الله تعالى ؛ لأنه يتضمن القدح فى الله تعالى ، والله يحكم بين المخلصين من عباده، والمشركين فى الذى كانوا يختلفون فيه ، فالمشركون ينازعون ويفلسفون ،

ويجادلون ويدعون ويبررون ، وسيجزى الله كل عامل بعمله ، وهو سبحانه ما يرشد إلى الهداية من قصد الكذب والافتراء على الله تعالى ، وقلبه كافر بآياته وحججه وبراهينه ، فإذا اجتمعت صفة الكذب والكفران فى إنسان فإن الله لا يلهمه الهداية ، فليحذر امرؤ من صفتى الكذب ، والكفران ، ولو جاز اتخاذ الولد على ما تظنون لاختار مما يخلق ما يشاء ، لا ما تختارون أنتم وتشاؤون .

وقد أشعرتنا الآية أن بعضا ممن عبدوا مع الله غيره ليتقربوا ـ فى زعمهم ـ إليه ، عبدوهم بعد أن خلعوا عليهم صفات النبوة لله عز وجل ؛ كبعض العرب إذ قالوا : الملائكة بنات الله ، والنصارى الذين قالوا : المسيح ابن الله ، واليهود الذين قالوا : عزير بن الله ، وقد رد الله هذا القول وفنّده ، ثم نزه ذاته تعالى وتقدس وتنزه عن أن يكون له ولد ، فهو الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذى كل شىء عبد لديه ، فقير إليه ، وهو الغنى عمّا سواه ، الذى قد قهر الأشياء ، فدانت له وذلت وخضعت ، وإذا كان كذلك فقد كذب من نسب إليه الشريك والولد .

وتأتى اللفتة إلى ملكوت السموات والأرض ، وإلى ظاهرة الليل والنهار ، وإلى تسخير الشمس والقمر ، فتوحى إلى الفطرة بحقيقة الألوهية التى لا يليق معها أن يكون هناك ولد ولا شريك ، فالذى يخلق هذا الخلق وينشئه إنشاء ، لا يحتاج إلى الولد ولا يكون معه شريك .

يقول صاحب الظلال : « وآية الوحدانية ظاهرة فى طريقة خلق السموات والأرض ، وفى الناموس الذى يحكم الكون ، والنظر المجرد إلى السموات والأرض يوحى بوحدة الإرادة الخالقة المدبرة ، وما كشفه الإنسان ـ حتى اليوم ـ من دلائل الوحدة فيه الكفاية .... وفى كل يوم يكشف الإنسان عن جديد من دلائل الوحدة فى تصميم هذا الوجود ، ويكشف عن حق ثابت فى هذا التصميم لا يتقلب مع هوى ، ولا ينحرف مع ميل ، ولا يتخلف لحظة ولا يحيد ... ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ وأنزل الكتاب بالحق ، فهو الحق الواحد فى ذلك الكون وفى هذا الكتاب ، وكلاهما صادر من مصدر واحد ، وكلاهما آية على وحدة المبدع العزيز الحكيم » .

وسخر الليل والنهار يجريان متعاقبين لا يفتران ، كل منهما يطلب الآخر طلبا حثيثاً ، وفى هذا إشارة واضحة إلى كروية الأرض ؛ إذ التكوير لا يكون إلا للشىء الدائرى ، **فالتكوير** : اللى واللف ، وسخر الله الشمس والقمر كل يجرى فى مداره وهما مسخران بأمر الله ، وستجرى الشمس وسيجرى القمر لأجل علم انتهائه عند الله وحده ، ومع القوة والقدرة والعزة الإلهية ، فالله عز وجل غفار لمن يتوب إليه ممن يكذبون عليه ويكفرون به .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ المسلم يتصف بمحاسن الأخلاق ، ولا يتكلف ما ليس فيه .

٢ ـ إن الله تعالى لا يقبل إلا ما كان خالصا لوجهه الكريم .

٣ ـ لا وساطة فى الإسلام بين العباد وربهم .

الجزء الثالث والعشرون — سورة الزمر

خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم
مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ
خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ
الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ
اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ
لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾
۞ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ
نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا
لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ
النَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ
الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ
لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ
آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ
وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾

نصف الحزب ٤٦

٤٥٩

معانى الكلمات :

زوجها : حواء .

خلقا من بعد خلق : أطوارًا بعد أطوار .

فأنى تصرفون : كيف تصرفون .

منيباً : راجعا .

خوله : أعطاه .

أندادا : أمثالا .

ليضل : ليصد .

قانتًا آناء الليل : مطيعًا لله جميع ساعات الليل .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم فضل الله تعالى على العباد فى خلقهم ورزقهم .

٢ ـ أن نؤمن بغنى الله تعالى عن خلقه ، وافتقار الخلق إليه .

٣ ـ أن نعلم فضل العالم على الجاهل .

المحتوى التربوى :

ينتقل السياق إلى لمسة فى أنفس العباد ، ويشير إلى آية الحياة القريبة منهم فى أنفسهم ، وفى الأنعام المسخرة لهم ، فمن عزته سبحانه أنه خلقكم من نفس واحدة وهى آدم على كثرتكم وانتشاركم، واختلاف أجناسكم وأصنافكم، وألسنتكم وألوانكم ، ثم جعل منها زوجها حواء ، وذلك ليسكن إليها وتسكن إليه، وتتم بذلك النعمة، وخلق لكم من ظهور الأنعام ثمانية أزواج، وقد أنزل الله الماء فأخرج به النبات الذى تعيش عليه الأنعام فكأنه أنزلها ، والأنعام الثمانية كما جاءت فى آية أخرى : هى الضأن والمعز والبقر والإبل من كل ذكر وأنثى ، وكل من الذكر والأنثى يسمى زوجا عند اجتماعهما ، فهى ثمانية فى مجموعها .

ثم يعود ـ بعد هذه الإشارة ـ إلى وحدة خاصية الزوجية فى الناس والأنعام إلى تتبع مراحل الخلق للأجنة فى بطون أمهاتها من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى العظام ، إلى الخلق الواضح فيه

عنصر البشرية ، وذلك فى ظلمات ثلاث : ظلمة الكيس الذى يغلف الجنين ، وظلمة الرحم الذى يستقر فيه هذا الكيس ، وظلمة البطن الذى يستقر فيه الرحم ، ويد الله تخلق هذه الخلية الصغيرة خلقا من بعد خلق، وعين الله ترعى هذه الخلية وتودعها القدرة على النمو، والقدرة على التطور ، والقدرة على الارتقاء ، والقدرة على السير فى تمثيل خطوات النفس البشرية كما قدر لها بارئها .

وتتبع هذه الرحلة القصيرة الزمن البعيدة الآماد ، وتأمل هذه التغيرات والأطوار ، وتدبر تلك الخصائص العجيبة التى تقود خطا هذه الخلية الضعيفة فى رحلتها العجيبة ... فى تلك الظلمات وراء علم الإنسان وقدرته وبصره » هذا كله من شأنه أن يقود القلب البشرى إلى رؤية يد الخالق المبدع ، رؤيتها بآثارها الحية الواضحة الشاخصة ، والإيمان بالوحدانية الظاهرة الأثر فى طريقة الخلق والنشأة ، فكيف يصرف قلب عن رؤية هذه الحقيقة؟

وأمام هذه الرؤية الواضحة لآية الوحدانية المطلقة ، وآية القدرة الكاملة ، يقفهم أمام أنفسهم ، فى مفرق الطريق بين الكفر والشكر ، وأمام التبعة الفردية المباشرة فى اختيار الطريق ، ويلوح لهم بنهاية الرحلة، وما ينتظرهم هناك من حساب، يتولاه الذى يخلقهم فى ظلمات ثلاث ، والذى يعلم ما تكن صدورهم من خفايا الصدور ، وهذه الرحلة فى بطون الأمهات هى مرحلة فى الطريق الطويل ، تليها مرحلة الحياة خارج البطون ، ثم تعقبها المرحلة الأخيرة مرحلة الحساب والجزاء بتدبير المبدع العليم الخبير .

والله ـ سبحانه ـ غنى عن العباد الضعاف المهازيل ، إنما هى رحمته وفضله أن يشملهم بعنايته ورعايته ، وهم من هم من الضعف والهزال ؛ فإيمانكم لا يزيد فى ملكه شيئا ، وكفركم لا ينقص منه فتيلا ، ولكنه لا يرضى عن كفر الكافرين ولا يحبه ، ويعجبه الإيمان منكم ويحبه لكم ويجزيكم عليه خيرا ، وكل فرد مأخوذ بعمله ، محاسب على كسبه ، ولا يحمل أحد عبء أحد ، فلكل حمله وعبؤه ، والمرجع فى النهاية إلى الله دون سواه ، ولا مهرب منه ولا ملجأ عند غيره ، ولا يخفى عليه من أمركم شىء ، وهذه هى العاقبة ، وتلك هى دلائل الهدى ، وهذا هو مفرق الطريق ، ولكل أن يختار عن بينة وعن تدبر وبعد العلم والتفكير .

وبعد أن عرض السياق قصة وجودهم وخلقهم من نفس واحدة ، وتزويجها من جنسها ، يلمس القلوب لمسة أخرى وهو يعرض عليهم صورتهم فى الضراء وصورتهم فى السراء ، ويريهم تقلبهم وضعفهم وادعاءهم وقلة ثباتهم على نهج إلا حين يتصلون بربهم ويتطلعون إليه ، ويقنتون له ، فيعرفون الطريق ، ويعلمون الحقيقة ، وينتفعون بما وهبهم الله من خصائص الإنسان .

فيخبر تعالى عن كرمه بعبده وإحسانه وبره ، وقلة شكر عبده ، وأنه حين يمسه الضر ؛ من مرض أو فقر أو وقوع فى كربة، أنه يعلم أنه لا ينجيه فى هذا الحال إلا الله، فيدعوه متضرعا منيبا ، ويستغيث به فى كشف ما نزل به ويلح فى ذلك ، وحين يذهب الضر ويأتى الرخاء ، ويعطيه الله نعمة منه ، ويرفع عنه البلاء ، نسى هذا العبد ربه الذى كان يتضرع إليه ، ونسى الضر الذى كان

يدعو الله إلى كشفه ، وأشرك بالله وجعل له أنداداً ، وسبيل الله واحد لا يتعدد ، وإفراده بالعبادة والتوجه والحب هو وحده الطريق إليه .

يقول صاحب الظلال : « والعقيدة فى الله لا تحتمل شركة فى القلب ؛ لا تحتمل شركة من مال ولا ولد ولا وطن ولا أرض ولا صديق ولا قريب ، فأيما شركة قامت فى القلب من هذا وأمثاله فهى اتخاذ أنداد لله ، وضلال عن سبيل الله ، منته إلى النار بعد قليل من المتاع فى هذه الأرض : ﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ ، وكل متاع فى هذه الأرض قليل ، حين يقاس إلى أيام الله » .

أقامت هذه الآية الحجة على الكفار بأنهم جاحدون لنعم الله العامة والخاصة ، فالطبيعة الكافرة طبيعة جحود على خلاف الطبيعة المؤمنة ، ومن ثم تأتى الآية اللاحقة لتبين الفارق البعيد بين موقف الكافر وموقف المؤمن ، فهذه مقابلة بين العامل بطاعة الله وغيره ، وبين العالم والجاهل ، وأن هذا من الأمور التى تقرر فى العقول تبيانها ، وعلم علما يقينا تفاوتها ، فليس المعرض عن طاعة ربه ، المتبع لهواه ، كمن هو قانت مطيع لله بأفضل العبادات وهى الصلاة ، وأفضل الأوقات وهى أوقات الليل فوصفه بكثرة العمل وأفضله ، ثم وصفه بالخوف والرجاء ، وذكر أن متعلق الخوف عذاب الآخرة ، على ما سلف من الذنوب وأن متعلق الرجاء رحمة الله ، فوصفه بالعمل الظاهر والباطن ، فهل يستوى هذا والذى قبله ممن جعل لله أنداداً ليضل عن سبيله ، وأى علم لمن يجهل ربه ، وما يتعظ بوعظ الله أولو العقول .

يقول صاحب الظلال : « وهذا هو الطريق إلى العلم الحقيقى والمعرفة المستنيرة ، هذا هو .. القنوت لله وحساسية القلب ، واستشعار الحذر من الآخرة ، والتطلع إلى رحمة الله وفضله ، ومراقبة الله هذه المراقبة الواجفة الخاشعة ... هذا هو الطريق » .

وبعد عرض هاتين الصورتين يتجه إلى الذين آمنوا يناديهم آمراً لهم بأفضل الأوامر ، وهى التقوى ، ذاكراً لهم السبب الموجب للتقوى ، وهو ربوبية الله لهم وإنعامه عليهم ، المقتضى ذلك منهم أن يتقوه ، وذكر لهم الثواب المنشط فى الدنيا ، فالمحسنون لهم حسنة فى الدنيا تقابلها حسنة فى الآخرة ، ولا عذر للمفرطين فى الإحسان ، فإن اعتلوا بأنهم لا يتمكنون فى أوطانهم من التوفر على الإحسان ، قيل لهم : إن أرض الله واسعة ، وبلاده كثيرة ، فتحولوا إلى بلاد أخر ، ومن ثم يشير إلى الصبر ، وجزائه لا يوزن لهم ولا يكال إنما يغرف لهم غرفا .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ كل إنسان مسؤول عن نفسه مسؤولية مباشرة فى اختيار طريق الكفر أو طريق الشكر .

٢ ـ المؤمن شاكر فى السراء صابر الضراء .

٣ ـ فضل العالم على الجاهل لعمله بعلمه .

قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ ۗ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ ۚ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَعْدَ اللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾

٤٦٠

معانى الكلمات :

ظلل من النار : طبقات بعضها فوق بعض .

اجتنبوا الطاغوت : ابتعدوا عن الأوثان .

أنابوا : رجعوا .

حق : وجب .

فسلكه ينابيع : فأدخله فى العيون والمجارى المائية .

يهيج : ييبس ويجف .

حطاما : فتاتا وهشيما .

ذكرى : عظة وعبرة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نتعرف على بعض أهوال الآخرة وعذاب النار فيها .

٢ - أن نعلم أهل البشرى ، وما أعده الله تعالى لأهل التقوى .

٣ - أن نؤمن بوحدانية الله وقدرته من خلال التأمل فى حياة النبات .

المحتوى التربوى :

يبدأ السياق بتوجيه الرسول ﷺ إلى إعلان كلمة التوحيد الخالصة ، وإعلان خوفه وهو النبى المرسل من عاقبة الانحراف عنها ، وإعلان تصميمه على منهجه وطريقه ، وتركهم هم إلى منهجهم وطريقهم ، وبيان عاقبة هذا الطريق وذاك يكون يوم الحساب .

فيعلن النبى ﷺ أنه مأمور أن يعبد الله وحده ، ويخلص له الدين وحده ، وأن يكون بهذا أول المسلمين ، وأنه يخاف عذاب يوم عظيم إن هو عصى ربه ، وهذا الإعلان ذو قيمة كبرى فى تجريد عقيدة التوحيد كما جاء بها الإسلام، فالنبى ﷺ فى هذا المقام هو عبد الله ، هذا مقامه لا يتعداه ، وفى مقام العبادة يقف العبيد كلهم صفا ، وترتفع ذات الله سبحانه متفردة فوق جميع العباد ، وهذا هو المراد .

وعند ذلك يقر معنى الألوهية ، ومعنى العبودية ، ويتميزان فلا يختلطان ولا يشتبهان ، وتتجرد صفة الوحدانية لله سبحانه بلا شريك ولا شبيه ، وحين يقف محمد رسول الله ﷺ فى مقام العبودية لله وحده يعلن هذا الإعلان ، ويخاف هذا الخوف من العصيان .

ومرة أخرى يكرر الإعلان مع الإصرار على الطريق ، وترك المشركين لطريقهم ونهايته الأليمة ، مرة أخرى يعلن: إننى ماض فى طريقى ، أخص الله بالعبادة ، وأخلص له الدينونة ، فأما أنتم فامضوا فى الطريق التى تريدون ، واعبدوا ما شئتم من دونه ، ولكن هنالك الخسران الذى ما بعده خسران ، خسران النفس التى تنتهى إلى جهنم ، وخسران الأهل سواء كانوا مؤمنين أم كافرين ، فإن كانوا مؤمنين فقد خسرهم المشركون ؛ لأن هؤلاء إلى طريق وهؤلاء إلى طريق،وإن كانوا مشركين مثلهم فكلهم خسر نفسه بالجحيم،واستبدلوا بالجنة ناراً ، وبالدرجات دركات ؛ وهذا الخسران ليس مثله خسران، وهو خسران مستمر ، لا ربح بعده ، بل ولا سلامة .

يقول الفخر الرازى - رحمه الله : «إن كلمة هو فى قوله : ﴿ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ تفيد الحصر ، كأنه قيل : كل خسران فإنه يصير فى مقابلته كلا خسران ، ووصفه بكونه مبينا يدل على التهويل...، وإن من أعطاه الله الحياة والعقل والتمكن ، ثم إنه لم يستفد منها لا معرفة الحق ولا عمل الخير البته كان محروما عن الربح بالكلية،وإذا مات فقد ضاع رأس المال بالكلية فكان ذلك خسرانا ، فهذا بيان كونه خسرانا ..،وأما بيان كون ذلك الخسران مبينا،فهو أن من لم يربح الزيادة ولكنه مع ذلك سلم من الآفات والمضار،فهذا كما لم يحصل له مزيد نفع لم يحصل له أيضا مزيد ضرر،أما هؤلاء الكفار فقد استعملوا عقولهم التى هى رأس مالهم فى استخراج وجوه الشبهات، وتقويه الجهالات والضلالات ، واستعملوا قواهم وقدرهم فى أفعال الشر والباطل والفساد ، فهم قد جمعوا بين أمور فى غاية الرداءة . أولها : أنهم أتعبوا أبدانهم وعقولهم طلبا فى تلك العقائد الباطلة والأعمال الفاسدة ، وثانيها : أنهم عند الموت يضيع عنهم رأس المال من غير فائدة . وثالثها : إن تلك المتاعب الشديدة التى كانت موجودة فى الدنيا فى نصرة تلك الضلالات تصير أسبابا للعقوبة الشديدة والبلاء العظيم بعد الموت ، وعند الوقوف على هذه المعانى يظهر أنه لا يعقل خسران أقوى من خسرانهم ، ولا حرمان أعظم من حرمانهم ، ونعوذ بالله منه » .

ثم يعرض مشهد الخسران المبين ، وهو مشهد رعيب حقا ، مشهد النار فى هيئة أطباق من فوقهم وأطباق من تحتهم ، وهى محيطة بهم ، فهو مشهد رهيب يعرضه الله لعباده وهم مازالوا فى الأرض يملكون أن ينأوا بأنفسهم عن طريقه ، ويخوفهم مغبته لعلهم يجتنبونه ، ويناديهم ليحذروا ويتقوا ويسلموا . وعلى الضفة الأخرى يقف الناجون ، الذين خافوا هذا المصير المشؤوم ، واجتنبوا عبادة الشياطين ، فهم اجتنبوا عبادة غير المعبود فى أية صورة من صور العبادة ، وهم الذين أنابوا إلى ربهم ، وعادوا إليه ، ووقفوا فى مقام العبودية له وحده ، هؤلاء لهم البشرى صادرة إليهم من الملأ الأعلى ، والرسول ﷺ يبلغها لهم بأمر الله ، إنها البشرى العلوية يحملها إليهم رسول كريم ، وهذا وحده نعيم .

هؤلاء من صفاتهم أنهم يستمعون ما يستمعون من القول ، فتلتقط قلوبهم أحسنة وتطرد ما ما عداه ، فلا يلحق بها ولا يلصق إلا الكلم الطيب الذى تزكو به النفوس والقلوب ، وقد علم الله فى نفوسهم خيراً فهداهم إلى استماع أحسن القول والاستجابة له ، والهدى هدى الله ، وأولئك هم أصحاب العقول والفطر المستقيمة .

قال النسفى رحمه الله : « أراد أن يكونوا نقادا فى الدين يميزون بين الحسن والأحسن ، والفاضل والأفضل ، فإذا اعترضهم أمران واجب وندب ، اختاروا الواجب ، وكذا المباح والندب ، حرصا على ما هو أقرب عند الله ، وأكثر ثوابا ، أو يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن أو يستمعون أوامر الله فيتبعون أحسنها ، نحو : القصاص والعفو ونحو ذلك ، أو يستمعون الحديث مع القوم فيه محاسن ومساوئ فيحدث بأحسن ما سمع ، ويكف عما سواه .

وقبل أن يعرض السياق مشهد هؤلاء فى نعيمهم فى الآخرة يقرر أن عبدة الطاغوت قد وصلوا فعلا إلى النار ، وأن أحد لا يملك أن ينقذهم من النار ، والخطاب لرسول الله ﷺ فإذا كان لا يملك هو إنقاذهم من النار التى هم فيها فمن يملكها إذن سواه ؟! ويخبر سبحانه عن عباده السعداء وما أعد لهم ، فلهم منازل فى الجنة رفيعة ، وفوقها منازل أرفع ، فللكفار ظلل من النار وللمتقين غرف طباق فوق طباق مبنيات محكمات مزخرفات عاليات ، تسلك الأنهار خلال ذلك كما يشاؤون وأين أرادوا ، وهذا وعد الله وهو كائن لا محالة .

ويلتفت السياق إلى حياة النبات فى الأرض عقب إنزال الماء من السماء وانتهائها إلى غايتها القريبة ، وهذه الظاهرة يوجه إليها القرآن الأنظار للتأمل والتدبر ، فأصل الماء فى الأرض من السماء ، فإذا أنزل الماء من السماء كمن فى الأرض ، ثم يصرفه تعالى فى أجزاء الأرض كما يشاء وينبعه عيونا ما بين صغار وكبار ، بحسب الحاجة إليها ، فليس فى الأرض ماء إلا نزل من السماء ولكن عروق فى الأرض تغيره ؛ ثم يخرج بالماء زرعا مختلفا هيئاته من خضرة وحمرة وصفرة وبياض ، وأصنافه من بر وشعير وسمسم وغير ذلك ، ثم يجف فتراه مصفرا قد خالطه اليبس ثم يجعله فتاتا متكسرا ، وفى هذا عبرة لأصحاب العقول أن الدنيا تكون هكذا والإنسان صائر إلى الموت ، فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ النبى مثل عباد الله يخاف عذابه ويرجو رحمته مع أنه نبى ورسول .

٢ـ الخاسرون الحقيقيون هم الذين خسروا أنفسهم بتعريضها لدخول جهنم وخسروا أهلهم.

٣ ـ من صفات المؤمنين المتقين أنهم يستمعون القول فلا يتمسكون إلا بأحسن شيء .

٤ ـ آيات الله ـ تعالى ـ مبثوثة فى الكون ، وعلى المسلم تدبرها .

الجزء الثالث والعشرون — سورة الزمر

أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل
للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين ﴿٢٢﴾
الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه
جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم
إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن
يضلل الله فما له من هاد ﴿٢٣﴾ أفمن يتقي بوجهه سوء
العذاب يوم القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون
﴿٢٤﴾ كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث
لا يشعرون ﴿٢٥﴾ فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب
الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴿٢٦﴾ ولقد ضربنا للناس في
هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون ﴿٢٧﴾ قرآنا عربيا
غير ذي عوج لعلهم يتقون ﴿٢٨﴾ ضرب الله مثلا رجلا فيه
شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا
الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴿٢٩﴾ إنك ميت وإنهم ميتون
﴿٣٠﴾ ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴿٣١﴾

٤٦١

معانى الكلمات :

فويل : فهلاك .

كتابا متشابها : قرآنا يشبه بعضه بعضا .

تقشعر : تضطرب .

تلين جلودهم : تطمئن وتسكن .

يتقى بوجهه : يعرض نفسه .

غير ذى عوج : لا اختلاف فيه ولا خطأ .

متشاكسون : متنازعون مختلفون .

سلماً : خالصا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف عاقبة من يستجيبون لذكر الله وعاقبة من غلظت قلوبهم وتحجرت .

٢ ـ أن نعلم بعض خصائص كتاب رب العالمين .

٣ ـ أن نتعلم حقيقة التوحيد وحقيقة الشرك .

المحتوى التربوى :

يذكر السياق أن الله يشرح للإسلام قلوبا يعلم منها الخير ، ويصلها بنوره فتشرق به وتستضيء ، والفرق بين هذه القلوب ، وقلوب أخرى قاسية فرق بعيد ، فهل يستوى من وسع الله صدره للإسلام فاهتدى فهو على بيان وبصيرة كمن طبع على قلبه فقسا قلبه فبعد عن الحق ، فويل للقاسية قلوبهم فلا تلين عند ذكر الله ولا تخشع ولا تعى ولا تفهم ، فأولئك فى غواية ظاهرة وضلال بعيد .

قال صاحب الظلال : « وهذه الآية تصور حقيقة القلوب التى تتلقى الإسلام فتنشرح له وتندى به ، وتصور حالها مع الله ، حال الانشراح والتفتح والنداوة والبشاشة والإشراق والاستنارة، كما تصور حقيقة القلوب فى قساوتها وغلظتها وموتها وجفافها ، وعتمتها وظلامها ، ومن يشرح الله صدره للإسلام ، ويمد له من نوره ، ليس قطعا كالقاسية قلوبهم من ذكر الله ، وشتان شتان بين هؤلاء وهؤلاء .

ويقول صاحب الأساس عن الآية التالية : أنها ذكرت « أربع خصائص لهذا القرآن ، كلها تشهد أنه كتاب رب العالمين .

أ ـ ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ ﴾ فالقرآن أحسن الحديث ، فكلمته أحسن الكلم ، ومعانيه أحسن المعانى .... فالكلمة القرآنية فى محلها لا يمكن أن يكون غيرها أحسن منها ، ولا يمكن أن يحل غيرها محلها ، وهذا وحده معجزة ، فكيف إذا اجتمع مع ذلك حسن المعنى ، وحسن الجرس ، وحسن الأسلوب ، وأنواع أخرى من الحسن لا يحاط بها ؟ !!

ب ـ ﴿ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا ﴾ فهو يشبه بعضه بعضا فى الصدق والبيان ، والوعظ ، والحكمة ، والإعجاز والإخبار ، والتذكير والتبشير والإنذار ، فكل جزء منه تظهر فيه خصائص القرآن كله مع تعدد المواضيع وكثرتها وتنوعها ، وهذا وحده معجز ، وإلا فأى كتاب فى العالم يتحدث عن الإبداع بنفس الأسلوب الذى يتحدث فيه عن قضايا الإرث .

جـ ـ ﴿ مَّثَانِيَ ﴾ جمع مثنى بمعنى : مردد ومكرر ، لما ثنىّ من قصصه وأنبائه وأحكامه ، وأوامره ومعانيه ونواهيه ، ووعده ووعيده ، ومواعظه ، وقد رأينا فى هذا التفسير كيف أن بعض المعانى تثنى مرات ومرات ، وفى كل مرة تجد أسلوبا جديداً وروحا جديدة ، وعرضا جديداً بشكل عجيب مدهش ، غير مستطاع للبشر ، وهذه وحده مظهر من مظاهر الإعجاز فى هذا القرآن يدل على أنه من عند الله .

د ـ ﴿ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾ إن التأثير الذى يحدثه القرآن فى القلوب المؤمنة المخبتة شىء عجيب ، وقد وصفته الآية هنا ، ووصفته آيات كثيرة فى القرآن ، إن مثل هذا التأثير لا يمكن أن يكون على مثل هذه الشاكلة ، لولا أنه من عند الله ، .. » .

فالذين يخشون ربهم ويتقونه ، ويعيشون فى حذر وخشية ، وفى تطلع ورجاء ، يتلقون هذا الذكر فى وجل وارتعاش ، وفى تأثر شديد تقشعر منه الجلود ثم تهدأ نفوسهم وتأنس قلوبهم بهذا الذكر ، فتلين جلودهم وقلوبهم وتطمئن إلى ذكر الله ، وهى صورة حية حساسة ترسمها الكلمات فتكاد تشخص فيها الحركات ، فما ترتعش القلوب هكذا إلا حين تحركها أصبع الرحمن إلى الهدى والاستجابة والإشراق ، والله يعلم من حقيقة القلوب ما يجازيها عليه بالهدى أو بالضلال ، فهو يضله بما يعلمه من حقيقته المستقرة على الضلال التى لا تقبل الهدى ولا تجنح إليه ، بحال.

ثم يعرض ما ينتظر أهل الضلال يوم القيامة فى مشهد بائس فى موعد حصاد الأعمال ، والإنسان يقى وجهه عادة بيديه وجسمه ، فأما هنا فهو لا يملك أن يدفع عن نفسه النار بيديه ولا برجليه، فيدفعها بوجهه ، ويتقى به سوء العذاب ، مما يدل على الهول والشدة والاضطراب ، وفى زحمة هذا العذاب يتلقى التأنيب ، وتدفع إليه حصيلة حياته ، ويالها من حصيلة ، تقول لهم خزنة النار تقريعا وتوبيخا : ذوقوا وبال كسبكم .

ويلتفت السياق إلى الحديث عن المكذبين الذين يواجهون محمداً ﷺ ليعرض عليهم ما جرى للمكذبين قبلهم لعلهم يتداركون أنفسهم ، فقد كذب من قبلهم من القرون الماضية رسلهم ، فأتاهم العذاب من الجهة التى لا يحتسبون ، ولا يخطر ببالهم أن الشر يأتيهم منها ، فأذاقهم الله الذل والصغار كالمسخ والخسف ، والقتل والجلاء ، ونحو ذلك من عذاب الله فى الحياة الدنيا ، فافتضحوا عند الله وعند خلقه ، ولعذاب الآخرة أكبر من عذاب الدنيا ، ولو كانوا يعلمون الحقيقة كاملة لآمنوا .

ويخبر تعالى بقوله : قد بينا للناس فيه بضرب كل نوع من أنواع الأمثال ، ليتعظوا ، فإن المثل يقرِّب المعنى إلى الأذهان ، وهو قرآن بلسان عربى مبين لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا لبس ، بل هو بيان ووضوح وبرهان ، وإنما جعله الله تعالى كذلك وأنزله بذلك لعلهم يحذرون ما فيه من الوعيد ، ويعملون بما فيه من الوعد .

قال النسفى عن الآية التالية : « مثل الكافر ومعبوديه بعبد اشترك فيه شركاء بينهم تنازع واختلاف ، وكل واحد منهم يدعى أنه عبده ، فهم يتجاذبونه ، ويتعاورونه فى مهن شتى ، وهو متحير لا يدرى أيهم يرضى بخدمته ، وعلى أيهم يعتمد فى حاجاته ، وممن يطلب رزقه ، وممن يلتمس رفقه ، فهمه مشاع وقلبه أوزاع ، ومثل المؤمن بعبد له سيد واحد فهمه واحد وقلبه مجتمع) .

وقال صاحب الظلال : « وهذا المثل يصور حقيقة التوحيد وحقيقة الشرك فى جميع الأحوال ، فالقلب المؤمن بحقيقة التوحيد هو القلب الذى يقطع الرحلة على هذه الأرض على هدى ؛ لأن بصره أبداً معلق بنجم واحد على الأفق فلا يلتوى به الطريق ، ولأنه يعرف مصدراً واحداً للحياة والقوة والرزق ، ومصدراً واحداً للنفع والضر ، ومصدراً واحداً للمنح والمنع ، فتستقيم خطاه إلى هذا المصدر الواحد ... ويخدم سيداً واحداً يعرف ماذا يرضيه فيفعله ، وماذا يغضبه فيتقيه .. ويعقب على هذا المثل الناطق الموحى ، بالحمد لله الذى اختار لعباده الراحة والأمن والطمأنينة والاستقامة والاستقرار ، وهم مع هذا ينحرفون ، وأكثرهم لا يعلمون .

ويعقب على هذا بأن الموت نهاية كل حى ، ولا يتفرد بالبقاء إلا الله ، والموت ليس نهاية المطاف ، فيوم القيامة يختصم العباد فيما كان بينهم من خلاف ، ويجىء رسول الله ﷺ أمام ربه ، ويوقف القوم للخصومة فيما كانوا يقولونه ويأتونه ، ويواجهون به ما أنزل الله إليهم من الهدى .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ المؤمن يسير فى الحياة على نور وبصيرة من ربه تعالى .

٢ ـ القرآن الكريم يتلقاه المؤمنون فيخشعون ويتأثرون ، ويتلقاه الجاحدون والظالمون فلا يتأثرون ولا يستجيبون .

٣ ـ المؤمن ثابت القدمين على الأرض ، متطلع إلى إله واحد فى السماء .

سُورَةُ الزُّمَر — الجزء الرابع والعشرون — الجزء ٢٤ الحزب ٤٧

۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ
إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى
جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾
لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾
لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم
بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ
عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ
ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ
أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ
أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ
ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟
عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾
مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾

٤٦٢

معانى الكلمات :

مثوى : مكان .

بعزيز : بقادر .

أفرأيتم : أخبرونى .

كاشفات ضره : تدفع عنه السوء .

ممسكات رحمته : تمنع رحمته .

مكانتكم : حالتكم وعداوتكم للدين .

يخزيه : يذله .

مقيم : دائم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم جزاء الكاذبين على الله ورسوله ﷺ ، وجزاء المحسنين .

٢ ـ أن نؤمن بكفاية الله لعباده المؤمنين .

٣ ـ أن نتعرف على سذاجة عقول الكافرين ، ووعيدهم بالعذاب المقيم .

المحتوى التربوى :

بين السياق من تكون بينهم الخصومة، فيجىء الرسول ﷺ أمام ربه ويوقف القوم للخصومة فيما كانوا يقولونه ويأتونه ، ويواجهون به ما أنزل الله إليهم من الهدى ، ويكون السؤال للتقرير فليس هنالك من هو أظلم ممن كذب على الله فزعم أن له بنات وأنه له شركاء وكذب بالصدق الذى جاء به رسوله ، فلم يصدق بكلمة التوحيد ، إنه الكفر وفى جهنم مثوى للكافرين ، على سبيل التقرير الذى يرد فى صورة سؤال الزيادة والإيضاح والتوكيد .

هذا طرف من الخصومة فأما الطرف الآخر فهو الذى جاء بالصدق من عند الله ، وصدق به فبلغه عن عقيدة واقتناع ، ويشترك مع رسول الله ﷺ فى هذه الصفة كل الرسل قبله ، كما يشاركه

فيها كل من دعا إلى هذا الصدق وهو مقتنع به مؤمن بأنه الحق ، ويشارك قلبه لسانه فيما يدعو إليه ، وهؤلاء هم المتقون .

ويتوسع فى عرض صفة المتقين هؤلاء وما أعده لهم من جزاء ، فلهم كل ما يخطر للنفس المؤمنة من رغائب ، ويقرر أن هذا لهم عند ربهم ، فهو حقهم الذى لا يخيب ولا يضيع لهم الخير والكرامة ، وفضل يزيد على العدل يعاملهم به ، متفضلا محسنا ، فالعدل أن تحسب الحسنات وتحسب السيئات ثم يكون الجزاء ، والفضل هو هذا الذى يتجلى به الله على عباده المتقين هؤلاء أن يكفر عنهم أسوأ أعمالهم ، فلا يبقى لها حساب فى ميزانهم ، وأن يجزيهم أجرهم بحساب الأحسن فيما كانوا يعملون ، فتزيد حسناتهم وتعلو وترجح فى الميزان ، إنه فضل الله يؤتيه من يشاء كتبه الله على نفسه بوعده فهو واقع يطمئن إليه المتقون المحسنون .

قال الفخر الرازى رحمه الله « إنه جرت العادة أن المبطلين يخوفون المحقين بالتخويفات الكثيرة ، فحسم الله مادة هذه الشبهة بقوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ وذكره بلفظ الاستفهام ، والمراد تقرير ذلك فى النفوس والأمر كذلك ؛ لأنه ثبت أنه عالم بجميع المعلومات قادر على كل الممكنات ، غنى عن كل الحاجات ، فهو تعالى عالم حاجات العباد ، وقادر على دفعها وإبدالها بالخيرات والراحات ، وهو ليس بخيلا ولا محتاجا حتى يمنعه بخله وحاجته عن إعطاء ذلك المراد ، وإذا ثبت هذا كان الظاهر أنه سبحانه يدفع ويزيل البليات ، ويوصل إليه كل المرادات ، فلهذا قال : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾، ولما ذكر المقدمة رتب عليها النتيجة المطلوبة ... فلما ثبت أن الله كاف عبده كان التخويف بغير الله عبثا وباطلا ... ولما أطنب فى شرح الوعيد والوعد ، والترهيب والترغيب ختم الكلام بخاتمة هى الفصل الحق فقال : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ﴾ ويعنى هذا الفصل لا ينفع والبينات إلا إذا خص الله العبد بالهداية والتوفيق ، وقوله : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴾ تهديد للكفار » .

فالله عز وجل منيع الجناب ، لا يضام من استند إلى جنابه ، ولجأ إلى بابه ؟! فإنه العزيز الذى لا أعز منه ، ولا أشد منه انتقاما ممن كفر به وأشرك ، وعاند رسوله ﷺ ، وفى الآية وعد للمؤمنين بأنه ينتقم لهم من الكافرين ، وينصرهم عليهم .

ولئن سألت هؤلاء الضلال الذين يخوفونك بالذين من دونه ، وأقمت عليهم دليلا من أنفسهم ، فقلت من خلق السموات والأرض ؟ لم يثبتوا لآلهتهم من خلقها شيئا وليقولن الله الذى خلقها وحده ، ولما تقرر فى الفطر والعقول من استيقان ذلك ، ولوضوح الدليل عليه ، قل تبكيتا لهم : أخبرونى أرأيتم ما تعبدون من دون الله ، إن أرادنى الله بأى ضر كان هل هن كاشفات ضره بإزالته بالكلية أو بتخفيفه من حال إلى حال ؟ أو أرادنى برحمة يوصل إلىّ بها منفعة

فى دينى أو دنياى ، هل هن ممسكات رحمته ومانعاتها عنى ؟ سيقولون : لا يكشفون الضر ولا يمسكون الرحمة .

قل لهم بعد ما تبين الدليل القاطع على أنه وحده المعبود ، وأنه الخالق للمخلوقات ، النافع الضار وحده ، وأن غيره عاجز من كل وجه عن الخلق والنفع والضر ، مستجلباً كفايته مستدفعا مكرهم وكيدهم : حسبى الله ، عليه يعتمد المعتمدون فى جلب مصالحهم ودفع مضارهم ، فالذى بيده ـ وحده ـ الكفاية هو حسبى ، سيكفينى كل ما أهمنى وما لا أهتم به .

وفى طلاقة اليقين قل : يا قوم اعملوا على حالكم التى أنتم عليها وجهتكم من العداوة التى تمكنتم منها وطريقتكم ، وهذا تهديد ووعيد فإنى عامل على مكانتى وطريقتى ومنهجى ، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يجزيه ويذله فى الدنيا ، ويحل عليه عذاب دائم مستمر لا محيد له عنه ، وذلك يوم القيامة، وفى الآية أمر بالتوعد بكونه مقصوراً عليهم ، غالبا عليهم فى الدنيا والآخرة ؛ لأنهم إذا أتاهم الخزى والعذاب ، فذاك عزه وغلبته ، من حيث إن الغلبة تتم له بعز عزيز ، يعز أولياءه ، ويذل أعداءه .

يقول صاحب الظلال: « هذه الآيات الأربع تصور منطق الإيمان الصحيح فى بساطته وقوته ، ووضوحه ، وعمته ، كما هو فى قلب كل مؤمن برسالة ، وكل قائم بدعوة ، وهى وحدها دستوره الذى يغنيه ويكفيه ، ويكشف له الطريق الواصل الثابت المستقيم ... وهى تصور حقيقة المعركة بين الداعية إلى الحق ، وكل ما فى الأرض من قوى مضادة ، كما تصور الثقة واليقين والطمأنينة فى القلب المؤمن ، بعد وزن هذه القوى بميزانها الصحيح ... فمن ذا يخيفه ، وماذا يخيفه إذا كان الله معه؟ وإذا كان هو قد اتخذ مقام العبودية وقام بحق هذا المقام؟ ومن ذا يشك فى كفاية الله لعبده ، وهو القوى القاهر فوق عباده ... فكيف يخاف وإرادة الله هى النافذة ومشيئته هى الغالبة ، وهو الذى يقضى فى العباد قضاءه فى ذوات أنفسهم ، وفى حركات قلوبهم ومشاعرهم ... فما الذى يخشاه داعية إلى الله ؟ ما الذى يخشاه وما الذى يرجوه ؟ وليس أحد بكاشف الضر عنه ؟ وليس أحد بمانع الرحمة عنه ؟ وما الذى يقلقه أو يخيفه أو يصده عن طريقه ؟ والله صاحب هذه الدعوة التى يحملها الرسل ويتولاها الدعاة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الترغيب فى الصدق فى الاعتقادات والأقوال والأعمال .

٢ ـ الله عز وجل يجازى كلا بما يستحق ، وإنه لينتقم ممن يستحق الانتقام .

٣ ـ وجوب التوكل على الله واعتقاد كفايته لأوليائه .

الجزء الرابع والعشرون — سورة الزمر

إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ
فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم
بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي
لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ
وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ
لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ
قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾
قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ
إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ
قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن
دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ
فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا
مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾

٤٦٣

معانى الكلمات :

لآيات : لعلامات .

اشمأزت : نفرت وأعرضت .

من دونه : من غيره .

فاطر : مبدع وخالق .

الغيب والشهادة : السر والعلانية .

بدا لهم : ظهر لهم .

يحتسبون : يتوقعون .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على مظاهر قدرة الله تعالى فى الموت والحياة .

٢ ـ أن نعلم سفه المشركين وضلالهم فى عصيانهم عند سماع التوحيد ، وفرحهم عند سماع الشرك .

٣ ـ أن نقف على حال المشركين فى يوم القيامة .

المحتوى التربوى :

لما أطنب الله تعالى فى فساد مذاهب المشركين تارة بالدلائل والبينات، وتارة بضرب الأمثال، وتارة بذكر الوعد والوعيد أردفه بكلام يزيل ذلك الخوف العظيم عن قلب الرسول ﷺ ، فقال : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ الكامل الشريف لنفع الناس ولاهتدائهم به ، وجعلنا إنزاله مقرونا بالحق وهو المعجز الذى يدل على أنه من عند الله فمن اهتدى فنفعه يعود إليه ، ومن ضل فضير ضلاله يعود إليه ، وأنت لست مأموراً بأن تحملهم على الإيمان على سبيل القهر بل القبول وعدمه مفوض إليهم ، وذلك لتسلية الرسول فى إصرارهم على الكفر.

والوكيل عليهم هو الله،وهم فى قبضته فى صحوهم ونومهم وفى كل حالة من حالاتهم ، وهو يتصرف بهم كما يشاء،والله يستوفى الآجال للأنفس التى تموت،وهو يتوفاها كذلك فى منامها ـ وإن لم تمت بعد ـ ولكنها فى النوم متوفاة إلى حين ، فالتى حان أجلها يمسكها فلا تستيقظ، والتى لم يحن أجلها بعد يرسلها فتصحو ، إلى أن يحل أجلها المسمى ، فالأنفس فى قبضته دائما فى صحوها ونومها ، وصاحب هذه القدرة العظيمة هو صاحب الحق المطلق فى الطاعة والعبادة ، ولا تنبغى العبادة إلا له ، وفى هذا علامات على قدرة الله وعلمه لقوم يجيلون فى ذلك أفكارهم ويعتبرون أنهم هكذا فى قبضة الله دائما ، وهو الوكيل عليهم ، ولست عليهم بوكيل ، وإنهم إن يهتدوا فلأنفسهم وإن يضلوا فعليها ، وإنهم محاسبون إذن وليسوا بمتروكين ، فماذا يرجون إذن للفكاك والخلاص ؟ ! وهو سؤال للتهكم والسخرية من زعمهم أنهم يعبدون تماثيل الملائكة ليقربوهم إلى الله زلفى : ﴿ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ ؟ ، يعقبه تقرير جازم بأن لله الشفاعة جميعاً ، فهو الذى يأذن بها لمن يشاء على يد من شاء ، فهل مما يؤهلهم للشفاعة أن يتخذوا من دون الله شركاء ؟ !

والله سبحانه له ملك السموات والأرض ، فليس هنالك خارج على إرادته فى هذا الملك ، ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (البقرة : ٢٨) فلا مهرب ولا مفر من الرجوع إليه وحده فى نهاية المطاف .

يقول صاحب الظلال : « وفى هذا الموقف الذى يتفرد فيه الله سبحانه بالملك والقهر يعرض كيف هم ينفرون من كلمة التوحيد ، ويهشون لكلمة الشرك ، الذى ينكره كل ما حولهم فى الوجود ، والآية تصف واقعة حال على عهد النبى ﷺ حين كان المشركون يهشون ويبشون إذا ذكرت آلهتهم ، وينقبضون وينفرون إذا ذكرت كلمة التوحيد ، ولكنها تصف حالة نفسية تتكرر فى شتى البيئات والأزمان ، فمن الناس من تشمئز قلوبهم وتنقبض نفوسهم كلما دعوا إلى الله وحده إلها ، وإلى شريعة الله وحدها قانونا ، وإلى منهج الله وحده نظاما ، حتى إذا ذكرت المناهج الأرضية والنظم الأرضية والشرائع الأرضية هشوا وبشوا ورحبوا بالحديث ، وفتحوا صدورهم للأخذ والرد ، هؤلاء بعينهم الذى يصور الله نموذجا منهم فى هذه الآية ، وهم بذاتهم فى كل زمان ومكان ، وهم الممسوخو الفطرة ، المنحرفو الطبيعة ، الضالون المضلون ، مهما تنوعت البيئات والأزمنة ، ومهما تنوعت الأجناس والأقوام » .

والجواب على هذا المسخ والانحراف والضلال هو ما لقنه الله لرسوله ﷺ فى مواجهة مثل هذه الحال:قال اللهم يا فاطر السموات والأرض ويا عالم السر والعلانية ، أنت تقضى بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون من الهدى والضلال وتفصل بينهم يوم معادهم ونشورهم وقيامهم من قبورهم .

ثم يحدثنا الله عز وجل عن موقف الكافرين يوم الفصل ، فلو أن هؤلاء الظالمين بشركهم وهو الظلم العظيم لو أن لهؤلاء ما فى الأرض جميعا مما يحرصون عليه وينأون عن الإسلام

اعتزازا به ، ومثله معه لقدموه فدية مما يرون من سوء العذاب يوم القيامة ، ولا يفصح التعبير عما بدا لهم من الله ولم يكونوا يتوقعونه لا يوضح عنه ، ولكنه هكذا هائل مذهل مخيف فهو الله ، الله الذى يبدو منه لهؤلاء الضعاف مالا يتوقعون ، هكذا بلا تعريف ولا تحديد ، وعلى المسلم أن يعرف قلبه طريق الخوف الذى يتورع به عن الآثام ظاهراً وباطنا ، ويعجزه عن محارم الله .

يقول ابن القيم فى المدارج عن الخوف : « يعنى الخروج عن سكون الأمن باستحضار ما أخبر الله له من الوعد والوعيد ، قال صاحب المنازل :«وهو على ثلاث درجات . **الدرجة الأولى**: الخوف من العقوبة ، وهو الخوف الذى يصح به الإيمان ، وهو خوف العامة ، وهو يتولد من تصديق الوعيد وذكر الجناية ، ومراقبة العامة » ، والخوف مسبوق بالشعور والعلم فمحال خوف الإنسان مما لا شعور له به ، وله متعلقان : أحدهما نفس المكروه لمحذور وقوعه . **والثانى** : السبب والطريق المفضى إليه ، فعلى قدر شعوره بإفضاء السبب إلى المخوف ، وبقدر المخوف : يكون خوفه ، وما نقص من شعوره بأحد هذين نقص من خوفه بحسبه ، فمن لم يعتقد أن سبب كذا يفضى إلى محذور كذا : لم من ذلك السبب ، ومن اعتقد أنه يفضى إلى مكروه ما ، ولم يعرف قدره لم يخف منه ذلك الخوف ، فإذا عرف قدر المخوف ، وتيقن إفضاء السبب إليه : حصل له الخوف هذا معنى تولده من تصديق الوعيد وذكر الجناية ومراقبة العامة .

قال:« **الدرجة الثانية**: خوف المكر فى جريان الأنفاس المستغرقة فى اليقظة ، المشوبة بالحلاوة ، يريد : أن من حصلت له اليقظة بلا غفلة ، واستغرقت أنفاسه فيها ؛ استحلى ذلك فإنه لا أحلى من الحضور فى اليقظة ، فإنه ينبغى أن يخاف المكر وأن يسلب هذا الحضور واليقظة والحلاوة ، فكم من مغبوط بحاله انعكس عليه الحال ، ورجع من حسن المعاملة إلى قبيح الأعمال .

قال : « **الدرجة الثالثة** : درجة الخاصة ، وليس فى مقام أهل الخصوص وحشة الخوف إلا هيبة الجلال وهى أقصى درجة يشار إليها فى غاية الخوف ، ... وأهل الخصوص أهل وصول إلى الله وقرب منه ، فليس خوفهم خوف وحشة ... ، وهذا بخلاف هيبة الجلال ، فإنها متعلقة بذاته تعالى وصفاته ، وكلما كان عبده به أعرف وإليه أقرب ،كانت هيبته وإجلاله فى قلبه أعظم، وهى أعلى من درجة خوف العامة » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ كل من دعا إلى الصدق واتبعه وآمن به ، فله عند الله تعالى أعظم الجزاء .

٢ ـ من فضل الله تعالى على عباده المتقين أنه يكفر عنهم أسوأ أعمالهم ، ويجزيهم أجرهم بأحسن الأعمال وأفضلها .

٣ ـ أعداء المسلمين أعداء عقيدة ينفرون من كلمة التوحيد ، لا يجيبون إلا من اتبع طريقتهم .

٤ ـ الخوف من الله والاستعداد ليوم القيامة طريق العمل .

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ۚ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾

ربع الحزب ٤٧

معانى الكلمات :

بدا لهم : ظهر لهم .

حاق بهم : أحاط بهم .

فتنة : اختبار وامتحان .

يبسط : يوسع .

يقدر : يضيق .

أسرفوا : أكثروا من الذنوب .

تقنطوا : تيأسوا .

جنب الله : حق الله .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على تناقض أهل الكفر والجهل والضلال .

٢ ـ أن نعلم سنن التربية الإلهية ، وحكم التدبير لشؤون الخلق .

٣ ـ أن نعرف فضل الله ورحمته على عباده،وبيان الأخذ بالعزائم وترك الرخص لغير ضرورة.

المحتوى التربوى :

يمضى السياق فى بيان أحوال الظالمين المفزعة يوم يرجعون للحكم بينهم يوم القيامة ، فالموقف يزداد سوءاً حين ينكشف لهم قبح ما فعلوا ، وحين يحيط بهم ما كانوا به يستهزئون من الوعيد والنذير ، وهم فى ذلك الموقف الأليم الرعيب .

وبعد هذا المشهد المعترض لبيان حالهم يوم يرجعون إلى الله الذى به يشركون ، والذى تشمئز قلوبهم حين يذكر وحده ، وتستبشر حينما تذكر آلهتهم المدعاة ، بعد هذا يعود إلى تصوير حالهم العجيب ، فهم ينكرون وحدانية الله ، فأما حين يصيبهم الضر فهم لا يتوجهون إلا له وحده ضارعين منيبين ، حتى إذا تفضل عليهم وأنعم ، راحوا يتبجحون وينكرون .

قال صاحب الظلال : « والآية تصور نموذجًا مكررًا للإنسان ، ما لم تهتد فطرته إلى الحق ، وترجع إلى ربها الواحد ، وتعرف الطريق إليه ، فلا تضل عنه فى السراء والضراء .

إن الضر يسقط عن الفطرة ركام الأهواء ، والشهوات ، ويعريها من العوامل المصطنعة التى تحجب عنها الحق الكامن فيها وفى ضمير هذا الوجود،فعندئذ نرى الله ونعرفه ونتجه إليه وحده، حتى إذا مرت الشدة وجاء الرخاء، نسى هذا الإنسان ما قاله فى الضراء ، وانحرفت فطرته بتأثير الأهواء ، وقال عن النعمة والرزق والفضل ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ قالها قارون ، وقالها كل مخدوع بعلم أو صفة أو صنعته حيلة يعلل بها ما اتفق له من مال أو سلطان ، غافلا عن مصدر النعمة ، وواهب العلم والقدرة ، ومسبب الأسباب ، ومقدر الأرزاق ، ﴿ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ هى فتنة للاختبار والامتحان ؛ ليتبين إن كان سيشكر أو سيكفر ، وإن كان سيصلح بها أو سيفسد ، وإن كان سيعرف الطريق أن يجنح إلى الضلال » .

والقرآن ـ رحمة بالعباد ـ يكشف لهم عن السر ، وينبههم إلى الخطر ويحذرهم الفتنة ، ويلمس قلوبهم بعرض مصارع الغابرين قبلهم ، وقد قال هذه المقالة وهو قوله : ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ الذين من قبلهم كقارون مثلا ، فانتهت بهم إلى السوء والوبال ولم يغن عنهم علمهم ولا مالهم ولا قوتهم شيئا ، وهؤلاء سيصيبهم ما أصاب الغابرين ، فسنة الله لا تتبدل ، والله لا يعجزه خلقه الضعاف المهازيل ، أولم يعلموا عن طريق ما يشاهدونه أن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ، سواء كان صالحا أم طالحا ، فرزقه مشترك بين البرية ، والإيمان والعمل الصالح يخص به خير البرية ، وفى بسط الرزق وقبضه لعلامات لأهل الإيمان ، لعلمهم أن مرجع ذلك عائد إلى الحكمة والرحمة ، وأنه أعلم بحال عبيده ، فقد يضيق عليهم الرزق لطفاً بهم ، لأنه لو بسطه لبغوا فى الأرض ، فيكون تعالى مراعيا فى ذلك صلاح دينهم الذى هو مادة سعادتهم وفلاحهم والله أعلم .

ولما صور الله الحال المفزعة التى يكون عليها الظالمون يوم القيامة، عاد بفتح أبواب رحمته على مصاريعها بالتوبة، ويطمع فى رحمته ومغفرته أهل المعاصى مهما يكونوا قد أسرفوا فى المعصية ، ويدعهم إلى الأوبة إليه كائنة ما كانت ، وإنها الدعوة للأوبه .

دعوة العصاة المسرفين الشاردين المبعدين فى تيه الضلال ، دعوتهم إلى الأمل والرجاء والثقة بعفو الله ، إن الله رحيم بعباده ، وهو يعلم ضعفهم وعجزهم ، ويعلم العوامل المسلطة عليهم من داخل كيانهم ، ومن خارجه ، ويعلم أن الشيطان يقعد لهم كل مرصد ، ويأخذ عليهم كل طريق ويعلم أن بناء هذاالمخلوق الإنسانى بنأواه وأن مسكين سرعان ما يسقط إذا أفلت من يده الحبل ويعلم الله ـ سبحانه ـ عن هذا المخلوق كل هذا فيمد له فى العون ، ويوسع له فى الرحمة ، ولا يأخذه بمعصيته حتى يهيئ له جميع الوسائل ليصلح خطأه ويقيم خطأه على الصراط ، وبعد أن يلج فى المعصية ويسرف فى الذنب ، ويحسب أنه قد طرد وانتهى أمره ، ولم يعد ولا يستقبل ، فى هذه اللحظة لحظة اليأس والقنوط يسمع نداء الرحمة الندى اللطيف .

قال الفخر الرازى : « اعلم أن هذه الآية تدل على الرحمة من وجوه :

الأول : إنه سمى الذنب بالعبد والعبودية مفسرة بالحاجة والذلة والمسكنة ، واللائق بالرحيم الكريم إفاضة الخير والرحمة على المسكين المحتاج .

الثانى : إنه تعالى أضافهم إلى نفسه بياء الإضافة فقال : ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ ﴾ وشرف الإضافة إليه يفيد الأمن من العذاب .

الثالث : إنه تعالى قال : ﴿ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ ﴾ ومعناه أن ضرر تلك الذنوب ما عاد إليه بل هو عائد إليهم ...

الرابع : إنه قال : ﴿ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ ﴾ ونهاهم عن القنوط فيكون هذا أمراً بالرجاء والكريم إذا أمر بالرجاء فلا يليق به إلا الكرم .

الخامس : إنه تعالى قال أولا : ﴿ يَٰعِبَادِيَ ﴾ وكان الأليق أن يقول لا تقنطوا من رحمتى لكنه ترك هذا اللفظ وقال : ﴿ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ ﴾ لأن قولنا : الله أعظم أسماء الله وأجلها ، فالرحمة المضافة إليه يجب أن تكون أعظم أنواع الرحمة والفضل .... » .

فقل يا أيها الرسول أنت ومن قام مقامك من الدعاة لدين الله ، مخبراً للعباد عن ربهم ألا ييأسوا من رحمة الله ، فهى دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة وإخبار بأن الله تبارك وتعالى يغفر الذنوب جميعا لمن تاب منها ورجع عنها ، وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر ، فارجعوا إليه وتوبوا واستسلموا له بالانقياد لشرعه والتسليم لقدره قبل نزول العقاب وحلول النقمة ثم لا تنصرون .

وكأنه قيل : ما هى الإنابة والإسلام ، وما جزئياتها وأعمالها ؟ فأجاب تعالى : ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ مما أمركم من الأعمال الباطنة ؛ كمحبة الله وخشيته ، وخوفه ورجائه ، والنصح لعباده ، ومحبة الخير لهم ، وترك ما يضاد ذلك ، ومن الأعمال الظاهرة ، كالصلاة والزكاة والصيام والحج والصدقة ونحو ذلك .

مما أمر الله به ، وهو أحسن ما أنزل إلينا من ربنا ، فاتبعوه قبل أن يفجأكم العذاب وأنتم غافلون .

حذرهم ألا يستمروا على غفلتهم حتى يأتيهم يوم يندمون فيه ، ولا تنفع الندامة ، لئلا تقول نفس من الأنفس يا حسرتى على ما قصرت فى أمر الله أو فى طاعة الله ، وإنه كنت لمن المستهزئين

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الغرور والكبر يورد المهالك ، ويؤذى صاحبه يوم القيامة .

٢ ـ بيان فضل الله ورحمته على عباده بقبول التوبة والرجاء لله مطلوب .

٣ ـ استنهاض الهمم فى امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه قبل حلول العذاب .

أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾

معانى الكلمات :

كرة : رجعة إلى الدنيا .

مثوى : مأوى ومسكن .

بمفازتهم : بفوزهم بالجنة ونعيمها .

وكيل : قائم بتدبير كل شيء .

مقاليد : مفاتيح أو خزائن .

ليحبطن : ليبطلن .

مطويات بيمينه : مجموعات فى يمينه .

سبحان الله : تقدس وتنزه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم فضل التقوى والإحسان وفضل المتقين والمحسنين .

٢ ـ أن نتعرف على أحوال الكافرين والمتكبرين وأحوال أهل التقوى .

٣ ـ أن نوقن أن الله هو المالك المتصرف فى كل شيء.

المحتوى التربوى :

يستمر السياق فى بيان ما سوف يكون يوم القيامة حثا للنفوس على أن تشمر عن ساعد الطاعة ، قبل أن يأتى يوم الحساب فتتعلل بقولها : إن الله كتب علىّ الضلال ، ولو كتب علىّ الهدى لاهتديت واتقيت ، وهى علالة لا أصل لها ، فالفرصة ها هى ذى سانحة ، ووسائل الهدى ما تزال حاضرة ، وباب التوبة ها هو ذا مفتوح ، أن تقول حين ترى العذاب لو أن لى رجعة إلى الدنيا ، وهى أمنية لا تنال ، فإذا انتهت هذه الحياة فلا كرة ولا رجوع ، وها أنتم أولاء فى دار العمل ، وهى فرصة واحدة إذا انقضت لا تعود ، وستسألون عنها مع التبكيت والترذيل ، فقد جاءتك أيها العبد النادم على ما كان منه آياتى فى الدار الدنيا ، وقامت حججى عليك

فكذبت بها واستكبرت عن اتباعها ، وكنت من الكافرين بها الجاحدين لها ، وآثرت الضلالة على الهدى ، واشتغلت بضد ما أمرتك به ، فإنما جاء العذر من قبلك فلا عذر لك .

وبعد هذا الرد يعود السياق ليعرض علينا الحال يوم القيامة ؛ لنتدارك أمرنا فى الدنيا ونكون من المتقين ، فها هو المصير الأخير ؛ فريق مسود الوجوه من الخزى ، ومن الكمد ، ومن لفح الجحيم ، هو فريق المتكبرين فى هذه الأرض ، الذين دعوا إلى الله ، وظلت الدعوة قائمة حتى بعد الإسراف فى المعصية ، فلم يلبوا هاتف النجاة ، فهم اليوم فى خزى تسود له الوجوه ، وفريق ناج فائز لا يمسه السوء ولا يخالطه الحزن هو فريق المتقين ؛ الذين عاشوا فى حذر من الآخرة ، وفى طمع فى رحمة الله ، فهم اليوم يجدون النجاة والفوز والأمن والسلامة : ﴿ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ، ومن شاء بعد هذا فليلب النداء إلى الرحمة الندية الظليلة وراء الباب المفتوح ، ومن شاء فليبق فى إسرافه وفى شروره حتى يأخذهم العذاب وهم لا يشعرون . ويعرض السياق حقيقة التوحيد من جانب وحدانية الخالق الذى خلق كل شىء ، المالك المتصرف فى كل شىء ، فتبدو دعوة المشركين للنبى ﷺ إلى مشاركتهم عبادة آلهتهم فى مقابل أن يشاركوه عبادة إلهة ، تبدو هذه الدعوة مستغربة ، والله هو خالق كل شئ ، وهو المتصرف فى ملكوت السموات والأرض بلا شريك ، فأنى يعبد معه غيره ، وله وحده مفاتيح السموات والأرض ، وهو مالك أمرهما ، وهذا يقتضى أن تمتلئ القلوب له إجلالا وإكراما .

أما الذين كفروا بآيات الله الدالة على الحق واليقين والصراط المستقيم ، وأولئك هم الذين خسروا ما به تصلح القلوب من التأله والإخلاص لله ، وما به تصلح به الجوارح من طاعة الله ، وتعوضوا عن ذلك كل مفسد للقلوب والأبدان ، وخسروا جنات النعيم ، وتعرضوا عنها بالعذاب الأليم ، وأنت أيها الرسول قل لهؤلاء الجاهلين الذين دعوك إلى عبادة غير الله ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ ﴾ هذا الأمر صدر من جهلكم ، وإلا فلو كان لكم علم بأن الله تعالى الكامل من جميع الوجوه ، مسدى جميع النعم ، هو المستحق للعبادة ، دون من كان ناقصا من كل وجه ، لا ينفع ولا يضر لم تأمرونى بذلك .

وذلك لأن الشرك بالله محبط للأعمال ، مفسد للأحوال فهو يحذر منه ، ويبدأ أول ما يبدأ بالأنبياء والمرسلين ، وهم ـ صلوات الله عليهم ـ لا يتطرق إلى قلوبهم طائف الشرك أبداً ، ولكن التحذير هنا ينبه سواهم من أقوامهم إلى تفرد ذات الله سبحانه فى مقام العبادة ، وتوحد البشر فى مقام العبودية ، بما فيهم الأنبياء والمرسلون ، ويختم هذا التحذير من الشرك بالأمر بالتوحيد ؛

توحيد العبادة والشكر على الهدى واليقين ، وعلى آلاء الله التى تغمر عباده ، ويعجزون عن إحصائها وهم فيها مغمورون .

ثم يبين السياق أن هؤلاء ما قدروا الله حق قدره ، وهم يشركون به بعض خلقه ، وهم لا يعبدونه حق عبادته ، وهم لا يدركون وحدانيته وعظمته ، وهم لا يستشعرون جلاله وقوته ، ويكشف لهم عن جانب من عظمة الله وقوته وقدرته الطليقة التى لا تتقيد بشكل ولا تتحيز فى حيز ، ولا تتحدد بحدود ، فالأرضون السبع كلها مع عظمهن وبسطتهن لا يبلغن إلا قبضة واحدة من قبضاته ، والسموات مطويات كطى السجل بيمينه من غير تكييف له ولا تشبيه ولا تحريف ، ولا تبديل ولا تغيير . يقول ابن القيم : « إنهم لو عظموا الله وعرفوه حق عظمته وأطاعوه وشكروه ، فطاعته سبحانه واجتناب معاصيه والحياء منه بحسب وقاره فى القلب ، ولهذا قال بعض السلف : ليعظم وقار الله فى قلب أحدكم أن يذكره عندما يستحى من ذكره ، فيقرن اسمه به كما تقول :قبح الله الكلب والخنزير والنتن ونحو ذلك ، فهذا من وقار الله .

ومن وقاره ألا تعدل به شيئا من خلقه لا فى اللفظ ، بحيث تقول : والله وحياتك ، مالى إلا الله وأنت ، وما شاء الله وشئتَ ، ولا فى الحب والتعظيم والإجلال ، ولا فى الطاعة فتطيع المخلوق فى أمره ونهيه كما تطيع الله ، بل أعظم كما عليه أكثر الظلمة والفجرة ، ولا فى الخوف والرجاء ، ويجعله أهون الناظرين إليه ، ولا يستهين بحقه ، ويقول : هو مبنى على المسامحة ، ولا يجعله على الفضلة ، ويقدم حق المخلوق عليه ، ولا يكون الله ورسوله فى حدٍّ وناحية ، والناس فى ناحية وحد ، فيكون فى الحد والشق الذى فيه الناس دون الشق الذى فيه الله ورسوله ، ولا يعطى المخلوق فى مخاطبته قلبه ولبه ، ويعطى الله فى خدمته بدَنه ولسانه دون قلبه وروحه ، ولا يجعل مراد نفسه مقدما على مراد ربه ، فهذا كله من عدم وقار الله فى القلب » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ يوم القيامة لا تنفع حسرة ولا ندامة ، فاعمل فى دار العمل .

٢ ـ ليست سعة الأرزاق دليلا على رضا الله ، ولا ضيق الرزق دليلا على غضب الله تعالى ، وإنما الأرزاق بيد الله، يقسمها وفق مشيئته وحكمته .

٣ ـ بيد الله عز وجل كل شىء فلا يصح أن يطلب شىء من غيره أبداً ، أو يعدل به شىء من خلقه .

الجزء الرابع والعشرون — سورة الزمر

وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ
إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ
﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ
بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ
﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾
وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا
فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ
يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ
هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ
﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى
ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى
ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ
خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾
وَقَالُوا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ
نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾

٤٦٦

معانى الكلمات :

الصور : القرن الذى ينفخ فيه إسرافيل يوم القيامة .

فصعق : فمات .

وأشرقت الأرض: أضاءت أرض المحشر .

وفيت : أعطيت .

زمرا : جماعات متتابعة .

وينذرونكم : ويخوفونكم .

مثوى : مقام ومأوى .

نتبوأ : ننزل ونتصرف فى ملكها .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على أرض الموقف وكيف يكون الحساب .

٢ ـ أن نعلم نهاية المتكبرين وسوء مصيرهم .

٣ ـ أن نؤمن بيوم القيامة وما فيه من أهوال وشدائد ، وسوق إلى النار وسوق إلى الجنة .

المحتوى التربوى :

بعد ما بين السياق أن الله وحده هو الوكيل ، ولأنه هو الخالق ، ولأنه هو المالك ، ولأن الأرضين قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه يوم القيامة ، ومن ثم فإنه وحده المستحق للعبادة ، والمستحق للشكر ، وأن من يشرك به خاسر وحابط عمله ، وكون الله عز وجل هو الوكيل فإنه سيحاسب من رفض هدايته ورفض كتابه ، ومن ثم يعرض لنا السياق مشهداً من مشاهد يوم القيامة ، تذكر فيه كيف سيفعل الله عز وجل بالمتقين الذين اهتدوا بكتابه ، والكافرين الذين رفضوا كتابه ، ويبدأ بذكر النفخة الأولى ، وينتهى بانتهاء الموقف ، وسوق أهل النار إلى النار ، وأهل الجنة إلى الجنة ، وتفرد الله ذى الجلال ، وتوجه الوجود لذاته بالتسبيح والتحميد .

يقول صاحب الظلال : « وهو مشهد رائع حافل ، يبدأ متحركا ، ثم يسير وئيداً ، حتى تهدأ كل حركة ، وتسكن كل نأمة ، ويخيم على ساحة العرض جلال الصمت ورهبة الخشوع بين يدى الله الواحد القهار .

ها هى ذى الصيحة الأولى تنبعث ، فيصعق من يكون باقياً على ظهر الأرض من الأحياء ، ومن فى السموات كذلك إلا من شاء الله ـ ولا نعلم كم يمضى من الوقت حتى تنبعث الصيحة الثانية، ولا تذكر الصيحة الثالثة هنا ، صيحة الحشر والتجميع ، ولا تصور ضجة الحشر وعجيج الزحام ؛ لأن هذا المشهد يرسم هنا فى هدوء ويتحرك فى سكون ؛ فالجميع يقلبون أبصارهم فى الجهات نظر المبهوت إذا فاجأة خطب ، أو ينظرون أمر الله فيهم .

قال ابن كثير:« هذه النفخة هى الثانية ، وهى نفخة الصعق ، وهى التى يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض إلا من شاء الله كما جاء مصرحا به مفسراً فى حديث الصور المشهور، ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت ، وينفرد الحى القيوم الذى كان أولا وهو الباقى آخراً بالديمومة والبقاء ، ويقول : ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾ (غافر : ١٦) ثلاث مرات ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول : ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ (غافر : ١٦) أنا الذى كنت وحدى وقد قهرت كل شىء ، وحكمت بالفناء على كل شىء ، ثم يجىء يحيى أول من يحيى إسرافيل ، ويأمره أن ينفخ فى الصور أخرى ، وهى النفخة الثالثة : نفخة البعث ، قال الله عز وجل : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ أى : أحياء بعد ما كانوا عظاما ورفاتا صاروا أحياء ينظرون إلى أهوال يوم القيامة .

ويذكر السياق أرض الساحة التى يتم فيها الاستعراض ، ونور ربها الذى لا نور غيره فى هذا المقام ، ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ الحافظ لأعمال العباد ، ﴿ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ ﴾ ليقولوا كلمة الحق التى يعلمون ، وطوى كل خصام وجدال ـ فى هذا المشهد ـ تنسيقا لجوه مع الجلال والخشوع الذى يسود الموقف العام ، فلا حاجة إلى كلمة تقال ، ولا إلى صوت واحد يرتفع ، ومن ثم تجمل وتطوى عملية الحساب والسؤال والجواب التى تعرض فى مشاهد أخرى ؛ لأن المقام هنا مقام روعة وجلال .

قال الإمام فخر الدين الرازى : « إنه تعالى ذكر فى هذه الآية من أحوال ذلك اليوم أشياء :

أولها : قوله : ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ : ... **وثانيها** : قوله : ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ وفى المراد بالكتاب وجوه الأول : إنه اللوح المحفوظ الذى يحصل فيه شرح أحوال عالم الدنيا إلى وقت قيام القيامة ، الثانى : المراد كتب الأعمال **وثالثها** : قوله : ﴿ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾ والمراد أن يكونوا شهداء على الناس ... **ورابعها** : قوله : ﴿ وَٱلشُّهَدَآءِ ﴾ والمراد ما قاله فى ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ (البقرة : ١٤٣) أو أراد بالشهداء المؤمنين :

ولما بين الله تعالى أنه يحضر فى محفل القيامة جميع ما يحتاج إليه فى فصل الحكومات وقطع الخصومات ، بين تعالى أنه يوصل إلى كل أحد حقه ، وعبر تعالى عن هذا المعنى بأربع عبارات : **أولها** : قوله تعالى : ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ ، **وثانيها** : قوله ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾. **وثالثها** : قوله : ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ أى وفيت كل نفس جزاء ما عملت . **ورابعها** : قوله : ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ ويعنى أنه تعالى إذا لم يكن عالما بكيفيات أحوالهم فلعله لا يقضى بالحق لأجل عدم العلم ، أما إذا كان عالما بمقادير أفعالهم وبكيفياتها امتنع دخول الخطأ فى ذلك الحكم ، فثبت أنه تعالى عبر عن هذا المقصود بهذه العبارات المختلفة ، والمقصود المبالغة فى تقرير أن كل مكلف فإنه يصل إلى حقه » .

ثم يخبر تعالى عن حال الأشقياء الكفار كيف يساقون إلى النار ، وإنما يساقون سوقا عنيفا بزجر وتهديد ووعيد، هذا وهم عطاش ظماء ، صم وبكم وعمى ، ومنهم من يمشى على وجهه ، وبمجرد وصولهم إليها فتحت أبوابها سريعا ، لتعجل لهم العقوبة ، وقال لهم خزنتها من الزبانية الذين هم غلاظ الأخلاق ، شداد القوى ، على وجه التقريع والتوبيخ والتنكيل : ألم يأتكم رسل من جنسكم تتمكنون من مخاطبتهم والأخذ عنهم يتلون عليكم آيات ربكم ووحيه ويقيمون عليكم الحجج والبراهين على صحة ما دعوكم إليه ، ويحذرونكم من شر هذا اليوم ، فيقول الكفار لهم: بلى قد جاؤونا وأنذرونا وأقاموا علينا الحجج والبراهين،ولكن كذبناهم وخالفناهم، لما سبق إلينا من الشقوة التى كنا نستحقها حيث عدلنا عن الحق إلى الباطل ، وكل من رآهم وعلم حالهم يشهد عليهم بأنهم مستحقون للعذاب ، ولهذا لم يسند هذا القول إلى قائل معين ، بل أطلقه ليدل على أن الكون شاهد عليهم بأنهم مستحقون ما هم فيه بما حكم العدل الخبير عليهم به ، ولهذا قيل : ادخلوا أبواب جهنم ما كثين فيها لا خروج لكم منها ، ولا زول لكم عنها فبئس المصير بسبب تكبركم فى الدنيا وإبائكم عن اتباع الحق ، فهو الذى صيّركم إلى ما أنتم فيه فبئس الحال المال .

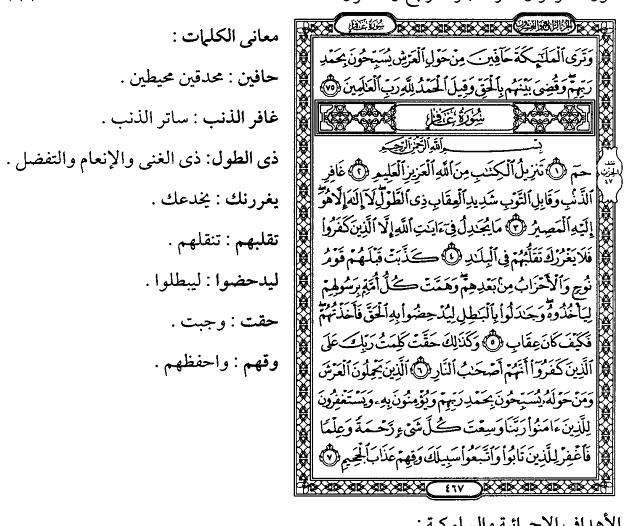
ثم يخبر عن حال السعداء المؤمنين حين يساقون على النجائب وفدًا إلى الجنة حتى إذا وصلوا إلى أبواب الجنة فتحت لهم إكراما وتعظيما ، وتلقتهم الملائكة الخزنة بالبشارة والسلام والثناء وكان ذلك بسبب تطهركم وكنتم طيبين وجئتم طيبين فما يكون فيها إلا الطيب وما يدخلها إلا الطيبون وهو الخلود فى ذلك النعيم ، ويقول المؤمنون وإذا عاينوا فى الجنة ذلك الثواب الوافر. الحمد لله الذى وعدنا الجنة فوفى لنا ، وأورثنا أرض الجنة ننزل منها أى مكان شئنا ونتناول منها أى نعيم أردنا ، فنعم أجر المجتهدين بطاعة ربهم .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ على المسلم أن يحاسب نفسه قبل أن يحاسبه ربه فى الآخرة .

٢ ـ التنديد بالاستكبار عن عبادة الله وعلى عباده تعالى .

٣ ـ الآخرة حساب بلا عمل ، وخلود فى الجنة أو النار ، والمؤمن خير من يعمل لآخرته .


وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

سُورَةُ غَافِرٍ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾

٤٦٧

معانى الكلمات :

حافين : محدقين محيطين .

غافر الذنب : ساتر الذنب .

ذى الطول: ذى الغنى والإنعام والتفضل .

يغررنك : يخدعك .

تقلبهم : تنقلهم .

ليدحضوا : ليبطلوا .

حقت : وجبت .

وقهم : واحفظهم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن الكون كله يتجه إلى ربه بالحمد فى خشوع واستسلام .

٢ ـ أن نتعرف على مصارع الغابرين .

٣ ـ أن نعلم حقيقة المعركة بين الإيمان والكفر .

المحتوى التربوى :

لما ذكر تعالى حكمه فى أهل الجنة والنار ، وأنه نزل كلا فى المحل الذى يليق به ويصلح له ، وهو العادل فى ذلك الذى لا يجور أخبر عن ملائكته أنهم محدقون من حول عرشه المجيد ، يسبحون بحمد ربهم ، ويمجدونه ويعظمونه ويقدسونه وينزهونه عن النقائص والجور ، وقد فصل القضية ، وقضى الأمر ، وحكم بالعدل بين الخلائق ؛ ونطق الكون أجمعه ناطقه وبهيمه ـ لله رب العالمين ، بالحمد فى حكمه وعدله ، ولهذا لم يسند القول إلى قائل بل أطلقه ، فدل على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد .

سورة غافر .

هذه السورة تعالج قضية الحق والباطل ، قضية الإيمان والكفر ، قضية الدعوة والتكذيب ، وأخيرًا قضية العلو فى الأرض والتجبر بغير الحق ، وبأس الله الذى يأخذ العالمين المتجبرين ، وعلى العموم ، فإن السورة كلها تبدو وكأنها مطارق تقع على القلب البشرى ، وتؤثر فيه بعنف وقد ترق أحيانا .

وهذه السورة بدأت كسبع سور كلها تبدأ بالحرفين : « حا : ميم » منها سورة واحدة يذكر فيها بعد هذين الحرفين ثلاثة حروف آخر : « عين . سين . قاف » ، وقد سبق الحديث عن الأحرف المقطعة فى أوائل السور ، وأنها إشارة إلى صياغة هذا القرآن منها ، وهو معجز لهم مع تيسير هذه الأحرف لهم ومعرفتهم بها ، وهى أحرف لغتهم التى يتحدثونها ويكتبونها .

وتأتى الإشارة إلى تنزيل الكتاب وهو القرآن من الله ذى العزة والعلم ، فلا يرام جنابه ، ولا يخفى عليه الذر وإن تكاثف حجابه ، وهو الغافر الذى يغفر ما سلف من الذنب ، ويقبل التوبة فى المستقبل لمن تاب إليه وخضع لديه ، وهو شديد العقاب لمن تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيا ، وعتا عن أوامر الله وبغى ، وهو صاحب السعة والغنى والخير الكثير المتفضل على عباده ، المتطول عليهم بما هم فيه من المنن والإنعام التى لا يطيقون القيام بشكر واحدة منها ، وله سبحانه الألوهية وحده لا شريك له ولا شبيه ، ولا نظير ، فلا إله غيره ولا رب سواه إليه المرجع والمآب، فيجازى كل عامل بعمله .

يقول صاحب الظلال : « وهكذا تتضح صلته تعالى بعباده وصلة عباده به تتضح فى مشاعرهم وتصوراتهم وإدراكهم ، فيعرفون كيف يعاملونه فى يقظة وفى حساسية ، وفى إدراك لما يُغضبه وما يرضيه ...وجاء الإسلام واضحا ناصعا يصل الناس بإلههم الحق، ويعرفهم بصفاته ، ويبصرهم بمشيئته ويعلمهم كيف يتقربون إليه ، وكيف يرجون رحمته ، ويخشون عذابه ، على طريق واضح قاصد مستقيم ... وبعد تقرير تلك الصفات العلوية وتقرير الوحدانية ، يقرر أن هذه الحقائق مسلمة من كل ما فى الوجود ، وكل من فى الوجود ، ففطرة الوجود كله مرتبطة بهذه الحقائق، متصلة بها الاتصال المباشر الذى لا تجادل فيه ولا تماحل، والوجود كله مقتنع بآيات الله الشاهدة بحقيقته ووحدانيته وما من أحد يجادل فيها إلا الذين كفروا وحدهم » .

ويكون الدرس للنذير الذى يرى أن إنذاره لا ينفع فى هؤلاء الكافرين ، ألا يغتر بما هم فيه منع الدنيا ، فالعبرة للعاقبة فى الدنيا والآخرة ، فمهما تقلبوا وتحركوا وملكوا ، واستمتعوا فهم إلى اندحار وهلاك وبوار ، ولقد سبقتهم أقوام وأحزاب على شاكلتهم ، توحى عاقبتهم بعاقبة كل من يقف فى وجه القوة الطاحنة العارمة التى يتعرض لها من يعرض نفسه لبأس الله ، فهى قصة

قديمة من عهد نوح ، ومعركة ذات مواقع متشابهة فى كل زمان ، وهذه الآية تصور هذه القصة ، قصة الرسالة والتكذيب والطغيان على مدى القرون والأجيال كما تصور العاقبة فى كل حال ، رسول يجيء فيكذبه طغاة قومه ، ولا يقفون عند مقارعة الحجة بالحجة ، إنما هم يلجؤون إلى منطق الطغيان الغليظ ، فيهمون أن يبطشوا بالرسول ، ويموهون على الجماهير بالباطل ليغلبوا به الحق ، وهنا تتدخل يد القدرة الباطشة ، فتأخذهم أخذا يعجب ويدهش ، ولقد كان عقابا مدمرًا قاضيا عنيفا شديدا ، ومتى حقت كلمة الله على أحد فقد وقعت وقضى الأمر وبطل كل جدال .

يقول صاحب الظلال : « وهكذا يصور القرآن الحقيقة الواقعة ، حقيقة المعركة بين الإيمان والكفر ، وبين الحق والباطل ، وبين الدعاة إلى الله الواحد والطغاة الذين يستكبرون فى الأرض بغير الحق ... هذه الحقيقة ـ حقيقة المعركة والقوى البارزة فيها ... يصورها القرآن لتستقر فى القلوب ، وليعرفها ـ على وجه خاص ـ أولئك الذين يحملون دعوة الحق والإيمان فى كل زمان ومكان، فلا تتعاظمهم قوة الباطل الظاهرة فى فترة محدودة من الزمان، ورقعة محدودة من المكان، فهذه ليست الحقيقة ، إنما الحقيقة هى التى يصورها لهم كتاب الله ، وتنطق بها كلمة الله ، وهو أصدق القائلين وهو العزيز العليم » .

ويتصل بتلك الحقيقة الأولى أن حملة العرش ومن حوله . وهم من بين القوى المؤمنين فى هذا الوجود ـ يذكرون المؤمنين من البشر عند ربهم ، ويستغفرون لهم ، ويستنجزون وعد الله إياهم ، بحكم رابطة الإيمان بينهم وبين المؤمنين ونحن لا نعرف ما هو العرش ؟ ولا نملك صورة له ، ولا نعرف كيف يحمله حملته ، ولا كيف يكون من حوله ، وكل ما يتصل بالحقيقة التى يقررها سياق السورة أن عبادا مقربين من الله ، يسبحون بحمد ربهم ، ويؤمنون به ، وهم يتوجهون بعد تسبيح الله إلى الدعاء للمؤمنين من الناس بخبر ما يدعو به مؤمن لمؤمن ، وهم يبدؤون دعاءهم بأدب يعلمنا كيف يكون أدب الدعاء ، فهم فى طلب الرحمة للناس إنما يستمدون من رحمة الله التى وسعت كل شيء ويحيلون إلى علم الله الذى وسع كل شيء ، فاصفح عن المسيئين إذا تابوا وأنابوا وأقلعوا عما كانوا فيه ، واتبعوا ما أمرتهم به من فعل الخيرات وترك المنكرات ، وزحزحهم عن عذاب الجحيم ، وهو العذاب الموجع الأليم .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ على المسلم أن يختم كل عمل بالحمد لله ، فمنه تستمد القوة ، وله الفضل كله .

٢ ـ بيان أن الله عز وجل يمهل ولا يهمل وأن بطشه أليم شديد ، فلتقر قلوب المؤمنين .

٣ ـ من أدب الدعاء الثناء على الله عز وجل بما هو أهله .

رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ
مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ
يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ
أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾
قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا
فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ
ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ
ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ
لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾
فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾
رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن
يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ
عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾

٤٦٨

معانى الكلمات :

تؤمنوا : تذعنوا وتقروا بالشرك .

لمقت الله : لبغضه الشديد غضبه عليكم .

ينيب : يرجع إلى التفكر فى الآيات .

رفيع الدرجات : رافع السموات .

يلقى الروح : ينزل الوحى أو القرآن أو جبريل .

التلاق : الاجتماع فى المحشر .

بارزون : خارجون من القبور .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على ما يكون من أمر الكافرين يوم القيامة .

٢ ـ أن نتعلم التدبر فى الكون وفى الآيات التى بثها الله فى أنحائه .

٣ ـ أن نؤمن أن الكون وما فيه ملك لله العزيز الجبار .

المحتوى التربوى :

يستمر السياق فى إبراز دعاء الملائكة، فهم يرتقون فى الدعاء من الغفران والوقاية من العذاب إلى سؤال الجنة واستنجاز وعد الله لعباده الصالحين ، ودخول الجنة نعيم وفوز ، يضاف إليه صحبة من صلح من الآباء ، والأزواج والذريات ، وهى نعيم آخر مستقل ، ثم هى مظهر من مظاهر الوحدة بين المؤمنين أجمعين ، فعند عقدة الإيمان يلتقى الآباء والأبناء والأزواج ، ولولا هذه العقدة لتقطعت بهم الأسباب ، والتعقيب على هذه الفقرة من الدعاء ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ يشير إلى القوة كما يشير إلى الحكمة ، وبها يكون الحكم فى أمر العباد .

وهذه الدعوة بعد الدعاء بإدخالهم جنات عدن ـ لفتة إلى الركيزة الأولى فى الموقف العصيب ، فالسيئات هى التى توبق أصحابها فى الآخرة ، وتوردهم مورد التهلكة ، فإذا وقى الله عباده

المؤمنين منها وقاهم نتائجها وعواقبها ، وكانت هذه هى الرحمة فى ذلك الموقف ، وكانت كذلك أولى خطوات السعادة ﴿ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ فمجرد الوقاية من السيئات هو أمر عظيم .

وبينما أن حملة العرش ومن حوله يتجهون إلى ربهم بهذا الدعاء لإخوانهم ، نجد الذين كفروا فى الموقف الذى تتطلع كل نفس فيه إلى المعين وقد عز المعين ، نجد الذين كفروا هؤلاء ـ وقد انبتت العلاقات بينهم وبين كل أحد وكل شىء فى الوجود ، وإذا هم ينادون من كل مكان بالترذيل والمقت والتأنيب ، وإذا هم فى موقف الذلة بعد الاستكبار ، وفى موقف الرجاء ولات حين رجاء .

فهم إذا دخلوا النار ومقتوا أنفسهم فيناديهم خزنة النار لمقت الله عز وجل وبغضه لأنفسكم أكبر من مقتكم أنفسكم ، فالله سبحانه كان يمقت أنفسكم الأمارة بالسوء والكفر حين كان الأنبياء يدعونكم إلى الإيمان فتأبون قبوله ، وتختارون عليه الكفر أشد مما تمقتونهن اليوم وأنتم فى النار ، إذا وقعتم فيها باتباعكم هواهن .

قال ابن كثير : « يقول تعالى مخبرًا عن الكفار أنهم ينادون يوم القيامة وهم فى غمرات النيران يتلظون، وذلك عندما باشروا من عذاب الله تعالى ما لا قِبَل لأحد به، فمقتوا عند ذلك أنفسهم ، وأبغضوها غاية البغض، بسبب ما أسلفوا من الأعمال السيئة التى كانت سبب دخولهم إلى النار ، فأخبرتهم الملائكة عند ذلك إخبارًا عاليا ، بأن نادتهم نداء بأن مقت الله تعالى لهم فى الدنيا حين كان يعرض عليهم الإيمان فيكفرون ، أشد من مقتكم أيها المعذبون أنفسكم اليوم فى هذه الحالة ، وما أوجع هذا التذكير ، وهذا التأنيب فى ذلك الموقف المرهوب العصيب ، والآن وقد سقط عنهم غشاء الخداع والضلال يعرفون أن المتجه لله وحده ، فيتجهون وكانوا من قبل يكفرون وينكرون ، فيقولون : ربنا ، أحييتنا أول مرة فنفخت الروح فى الموات فإذا هو حياة ، وإذا نحن أحياء ، ثم أحييتنا الأخرى بعد موتنا ، فجئنا إليك وإنك لقادر على إخراجنا مما نحن فيه ، وقد اعترفنا بذنوبنا التى اقترفناها ، فهل إلى نوع من الخروج سريع أو بطىء من النار لنتخلص منها ؟ أم اليأس واقع دون ذلك فلا خروج ولا سبيل إليه ؟

وجاء الجواب من خلال التعليل لبقائهم فى النار بأن الذى أنتم فيه ، ولا سبيل لكم إلى خروج منه قط بسبب كفركم بتوحيد الله ، وإيمانكم بالإشراك به ، فالحكم لله حيث حكم عليكم بالعذاب السرمدى ، العلى شأنه فلا يرد قضاؤه ، الكبير والعظيم سلطانه فلا يجد جزاؤه .

وفى ظل هذا المشهد يستطرد إلى شىء من صفة الله تناسب موقف الاستعلاء ، ويوجه المؤمنين فى هذا المقام إلى التوجه بالدعاء موحدين مخلصين له الدين ، فآيات الله ترى فى كل شىء فى هذا الوجود ، فى المجال الكبيرة من شمس وكواكب ، وليل ونهار ، ومطر وبرق ورعد ، وفى الدقائق الصغيرة من الذرة والخلية والورقة والزهرة ، وفى كل منها آية خارقة ، تتبدى عظمتها

حين يحاول الإنسان أن يقلدها ـ بل أن ينشئها ـ وهيهات هيهات التقليد الكامل الدقيق ، لأصغر وأبسط ما أبدعته يد الله فى هذا الوجود ، والله تعالى ـ هو الذى ينزل لكم من السماء رزقا وهو المطر الذى يخرج به من الزروع والثمار ، ما هو مشاهد بالحس من اختلاف ألوانه وطعومه وروائحه وأشكاله ، وهو ماء واحد ، فيا للقدرة العظيمة جعل المطر سبب الرزق ، وفاوت بين هذه الأشياء ، وما يعتبر ويتفكر فى هذه الأشياء إلا من هو رجاع ثواب إلى الله الذاكر لنعمه العارف لفضله .

وعلى ذكر الإنابة وما تثيره فى القلب من تذكر وتدبر يوجه الله المؤمنين ليدعوا الله وحده ، ويخلصوا له الدين ، غير عابئين بكره الكافرين ، ولن يرضى الكافرون من المؤمنين أن يخلصوا دينهم لله ، وأن يدعوه وحده دون سواه ، ولا أمل فى أن يرضوا عن هذا مهما لاطفهم المؤمنون أو هادنوهم ، فليمض المؤمنون فى وجهتهم يدعون ربهم وحده ، ويخلصون له عقيدتهم ، ويصغون له قلوبهم ، ويذكر من صفات الله فى هذا المقام الذى يوجه المؤمنين فيه إلى عبادة الله وحده ولو كره الكافرون ، يذكر من هذه الصفات أنه سبحانه : هو وحده صاحب الرفعة والمقام العالى ، وهو صاحب العرش المسيطر المستعلى ، وهو الذى يلقى أمره المحيى للأرواح والقلوب على من يختاره من عباده ، وهذا كناية عن الوحى بالرسالة على المختارين من العباد التى وظيفتهم هى الإنذار للناس من يوم التلاق ، وفى هذا اليوم يتلاقى البشر جميعا ، ويتلاقى الناس والملائكة والجن ، وجميع الخلائق التى تشهد ذلك اليوم المشهود ، فهو يوم التلاقى بكل معانى التلاقى .

ثم هو اليوم الذى يبرزون فيه بلا ساتر ولا واق ، ولا تزييف ولا خداع ، والله لا يخفى عليه منهم شىء فى كل وقت وفى كل حال ، ولكنهم فى غير هذا اليوم قد يحسبون أنهم مستورون ، وأن أعمالهم وحركاتهم خافية أما اليوم فيعلمون أنهم مفضوحون ، ويومئذ يتضاءل المتكبرون ، وينزوى المتجبرون ، ويقف الوجود كله خاشعا والعباد كلهم خضعا ، ويتفرد مالك الملك الواحد القهار بالسلطان ، وهو سبحانه متفرد فى كل آن ، فأما فى هذا اليوم فيتكشف هذا للعيان بعد انكشافه للجنان ، وينطلق صوت الجلال يسأل : ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾ وما فى الوجود كله يومئذ من سائل غيره ولا مجيب سبحانه على نفسه : لله الواحد القهار .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ المعركة بين الحق والباطل مستمرة والنصر فيها للحق وأتباعه دائماً ، وأهل الحق لا يتركون الميدان .

٢ ـ من يحبه الله ويرضى عنه يبعده عن ارتكاب الذنوب ويثبته على الطاعة .

٣ ـ لله وحده الملك فى الدنيا والآخرة .

ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ
لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ
يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾
وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ
بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى
ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ
كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ
بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ
كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ
قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا
وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ
فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ
عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟
نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٢٥﴾

٤٦٩

معانى الكلمات :

كسبت : عملت .

وأنذرهم : وخوفهم .

يوم الآزفة : يوم القيامة .

إذ القلوب لدى الحناجر: أى تبلغ الحناجر.

كاظمين: ممتلئين غما وحسرة لا يتكلمون .

حميم : صديق ينفعهم أو قريب .

واق : حافظ يحفظهم .

واستحيوا نساءهم : أبقوا بناتهم للخدمة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على أهوال يوم القيامة وصعوبة الموقف فيه .

٢ ـ أن نعلم سعة علم الله تعالى وأنه لا يخفى عليه شىء .

٣ ـ أن نعرف أن الأخذ بالذنوب سنة من سنن الله تعالى التى لا تتبدل ولا تتحول .

المحتوى التربوى :

لما قرر السياق أن الملك لله وحده فى ذلك اليوم ، عدد نتائج ذلك ، وهى أن كل نفس تجزى بما كسبت وعملت فى الدنيا من خير وشر ، وأن الظلم مأمون منه ؛ لأنه ليس بظلام للعبيد ، وأن الحساب لا يبطئ ؛ لأنه لا يشغله حساب عن حساب ، فيحاسب الخلق كلهم فى وقت واحد وهو أسرع الحاسبين .

ويستطرد السياق يوجه الرسول ﷺ إلى إنذار القوم بذلك اليوم ، فى مشهد من مشاهد القيامة يتفرد فيه الله بالحكم والقضاء ، بعد ما عرضه عليهم فى صورة حكاية لم يوجه لهم فيها الخطاب ، والآزفة : القريبة والعاجلة وهى القيامة ، واللفظ يصورها كأنها مقتربة زاحفة ، والأنفاس من ثم مكروبة لاهثة ، وكأنما القلوب المكروبة تضغط على الحناجر ، وهم كاظمون

لأنفاسهم ولآلامهم ولمخاوفهم ، والكظم يكربهم ، ويثقل على صدورهم ، وهم لا يجدون حميما يعطف عليهم ولا شفيعًا ذا كلمة تطاع فى هذا الموقف العصيب المكروب .

وهم بارزون فى هذا اليوم لا يخفى على الله منهم شىء ، حتى لفتة العين الخائنة ، وسر الصدر المستور والعين الخائنة تجتهد فى إخفاء خيانتها ، ولكنها لا تخفى على الله ، والسر المستور تخفيه الصدور، ولكنه مكشوف لعلم الله ، والله وحده هو الذى يقضى فى هذا اليوم قضاءه الحق ، وآلهتهم المدعاة لا شأن لها ولا حكم ولا قضاء ، والله يقضى بالحق عن علم وعن خبرة ، وعن سمع وعن رؤية ، فلا يظلم أحدًا ولا ينسى شيئًا .

يقول الفخر الرازى : « إنه تعالى ذكر فى هذه الآية جميع الأسباب الموجبة للخوف :

فأولها : إنه سمى ذلك اليوم يوم الآزفة ، أى يوم القرب من عذابه لمن ابتلى بالذنب العظيم ؛ لأنه من عاين تلك إذا قرب زمان عقوبته كان فى أقصى غايات الخوف ، حتى قيل : إن تلك الغموم والهموم أعظم الإيحاش من عين تلك العقوبة .

والثانى : قوله : ﴿ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ ﴾ والمعنى : إنه بلغ ذلك الخوف إلى أن انقلع القلب من الصدر وارتفع إلى الحنجرة والتصق بها ، وصار مانعا من دخول النفس .

والثالث : قوله : ﴿ كَـٰظِمِينَ ﴾ والمعنى : إنه لا يمكنهم أن ينطقوا وأن يشرحوا ما عندهم من الحزن والخوف ، وذلك يوجب مزيد القلق والاضطراب .

والرابع : قوله : ﴿ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ فبين أنه ليس لهم قريب ينفعهم ، ولا شفيع يطاع فيهم فتقبل شفاعته .

والخامس : قوله : ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ والمعنى أنه سبحانه عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، والحاكم إذا بلغ فى العلم إلى هذا الحد كان خوف المذنب منه شديدًا جديدًا ... وأما أفعال القلوب فهى معلومة لله تعالى ...

والسادس : قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ﴾ وهذا أيضا يوجب عظم الخوف ؛ لأن الحاكم إذا كان عالما بجميع الأحوال ، وثبت أنه لا يقضى إلا بالحق فى كل ما دق وجل ، كان خوف المذنب منه فى الغاية القصوى .

السابع : إن الكفار إنما عولوا فى دفع العقاب عن أنفسهم على شفاعة هذه الأصنام ؛ وقد بين الله تعالى أنه لا فائدة فيها البتة ، فقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ﴾ .

الثامن : قوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ أى يسمع من الكفار ثناءهم على الأصنام ، ولا يسمع منهم ثناءهم على الله،ويبصر خضوعهم وسجودهم لهم، ولا يبصر خضوعهم وتواضعهم

لله ، فهذه الأحوال الثمانية إذا اجتمعت فى حق المذنب الذى عظم ذنبه كان بالغا فى التخويف إلى الحد الذى لا تعقل الزيادة عليه » .

ثم يقص علينا الله عز وجل قصة من قصص السابقين كيف كانوا أشد قوة وآثاراً ، وكيف كذبوا رسل الله ، وكيف كانت عاقبتهم ، وكيف كان عقابهم شديدا ، هذه القصة قصة فرعون ، وذكر قصة فرعون فى هذا السياق له دلالته ؛ إذ الفراعنة كانوا أشد قوة وآثارًا فى الأرض كما هو مشهور .

يقول صاحب الظلال : « هذا المعبر بين قصة موسى عليه السلام وموضوع السورة قبلها يذكر المجادلين فى آيات الله من مشركى العرب بعبرة التاريخ قبلهم ، ورؤية مصارع الغابرين الذين وقفوا موقفهم ، وكانوا أشد منهم قوة وآثارا فى الأرض ، ولكنهم ـ مع هذه القوة والعمارة ـ كانوا ضعافا أمام بأس الله ، وكانت ذنوبهم تعزلهم عن مصدر القوة الحقيقية ، وتستعدى عليهم قوى الإيمان ومعها قوة الله العزيز القهار: ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ ولا واقى إلا الإيمان والعمل الصالح والوقوف فى جبهة الإيمان والحق والصلاح » .

ويذكر السياق القرآنى علة الأخذ بسبب أنهم كانت تأتيهم رسلهم بالدلائل الواضحات ، والبراهين القاطعات، فكفروا مع هذا البيان والبرهان كفروا وجحدوا فأهلكهم الله ودمرهم ، فهو صاحب قوة عظيمة وبطش شديد ، وعقابه أليم شديد موجع إذا عاقب .

وبعد هذا تبدأ من موقف عرض الرسالة على فرعون وملئه ، وتنتهى هنالك فى الآخرة وهم يتحاجون فى النار ، وهى رحلة مديدة ، ولكن السياق يختار لقطات معينة من هذه الرحلة هى التى تؤدى الغرض ، فهذا هو موقف اللقاء الأول ؛ موسى ومعه آيات الله ، ومعه الهيبة المستمدة من الحق الذى بيده ، وفرعون وهامان وقارون ومعهم باطلهم الزائف وقوتهم الظاهرة ومركزهم الذى يخافون عليه من مواجهة الحق ذى السلطان ، عندئذ لجؤوا إلى الجدال بالباطل ليدحضوا به الحق : ﴿ فَقَالُواْ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ ، ويعرض الموقف التالى : فلما جاءهم بالبرهان القاطع الدال على أن الله أرسله إليهم ، أمروا بقتل أبناء المؤمنين واستحياء نسائهم للخدمة ، وهذا أمر ثان من فرعون بقتل ذكور بنى إسرائيل ، أما الأول فكان لأجل الاحتراز من وجود موسى ، أو لإذلال هذا الشعب وتقليل عددهم أو لمجموع الأمرين ، وأما الأمر الثانى فللعلة الثانية ولإهانة هذا الشعب ، وما كيد الكافرين إلا فى ضياع .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ـ كل ما فى الوجود يدعو الإنسان إلى التفكير فى نفسه وفيما حوله من مخلوقات الله ؛ ليقوى إيمانه .

٢ ـ الحث على السير فى الأرض للاعتبار بما حدث للسابقين .

الجزء الرابع والعشرون — سورة غافر

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾

٤٧٠

معانى الكلمات :

ذرونى : اتركونى .

وليدع ربه : وليناد ربه .

عذت بربى : احتميت به .

بالبينات : بالمعجزات الظاهرة .

مسرف : مجاوز للحد .

ظاهرين : غالبين عالين .

دأب : عادة .

يوم التناد : يوم القيامة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن التهديد بالقتل شنشنة الجبارين والطغاة فى العالم .

٢ ـ أن نؤمن أن الله سبحانه هو ملاذ المستضعفين من كل خوف .

٣ ـ أن نتعلم كيف تكون الإيجابية من مؤمن آل فرعون .

المحتوى التربوى :

يذكر السياق القرآنى أن فرعون قال لملئه : دعونى أقتل موسى ، وهذا عزم من فرعون عليه لعائن الله ، فترى على قتل موسى ﷺ ، وليدع ربه فإنى لا أبالى منه ، وهذا فى غاية الجهل والتجهرم والعناد ، إنى أخاف أن يغير ما أنتم عليه ، وأن يظهر موسى فى الأرض التقاتل والتهايج والفوضى ، بحيث يذهب معه الأمن ، وتتعطل المزارع والمكاسب والمعايش ، ويهلك الناس قتلا وضياعا ، كأنه قال : إنى أخاف أن يفسد عليكم دينكم بدعوتكم إلى دينه ، أو يفسد عليكم دنياكم ، بما يظهر من الفتن بسببه ، ويخشى فرعون أن يضل موسى الناس ويغير رسومهم وعاداتهم ، وهذا كما يقال فى المثل : صار فرعون واعظا يشفق على الناس من موسى ﷺ وأما موسى ﷺ فالتجأ إلى الركن الركين والحصن الحصين ولاذ بالجناب الذى يحمى اللائذين ويجير

المستجيرين ، وسلم أمره إلى المستعلى على كل متكبر ، القاهر لكل متجبر ، القادر على حماية العائذين به من المستكبرين .

قال الفخر الرازى : « واعلم أن الكلمات التى ذكرها موسى عليه السلام تشتمل على فوائد :

الفائدة الأولى : إن لفظة ﴿إِنِّى﴾ تدل على التأكيد فهذا يدل على أن الطريق المؤكد المعتبر فى دفع الشرور والآفات عن النفس : الاعتماد على الله والتوكل على عصمة الله تعالى .

الفائدة الثانية : إنه قال : ﴿إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم﴾ ... فالله تعالى يصون دينه وإخلاصه عن وساوس شياطين الجن ، فكذلك عند توجه الآفات والمخافات من شياطين الإنس إذا قال المسلم : أعوذ بالله ، فالله يصونه عن كل الآفات والمخافات .

الفائدة الثالثة : قوله : ﴿بِرَبِّى وَرَبِّكُم﴾ والمعنى : كأن العبد يقول : إن الله سبحانه هو الذى ربانى ، وإلى درجات الخير رقانى ، ومن الآفات وقانى ، وأعطانى نعما لاحد لها ولا حصر ، فلما كان المولى ليس إلا الله وجب ألا يرجع العاقل فى دفع كل الآفات والمخالفات إلا إلى حفظ الله تعالى .

الفائدة الرابعة : إن قوله : ﴿وَرَبِّكُم﴾ فيه بعث لقوم موسى عليه السلام أن يقتدوا به فى الاستعاذة بالله ، والمعنى فيه أن الأرواح الطاهرة القوية إذا تطابقت على همة واحدة قوى ذلك التأثير جداً ، وذلك هو السبب الأصل فى أداء الصلوات فى الجماعات .

الفائدة الخامسة : إنه لم يذكر فرعون فى هذا الدعاء ؛ لأنه قد سبق له حق تربية على موسى من بعض الوجوه ، فترك التعيين رعاية لذلك الحق .

الفائدة السادسة : إن فرعون وإن كان أظهر ذلك الفعل إلا أنه لا فائدة فى الدعاء على فرعون بعينه ؛ بل الأولى الاستعاذة بالله فى دفع كل من كان موصوفا بتلك الصفة ، حتى يدخل فيه كل من كان عدوّا سواء كان مظهرا لتلك العداوة أو كان مخفيا لها .

الفائدة السابعة : إن الموجب للإقدام على إيذاء الناس أمران : **أحدهما** : كون الإنسان متكبرًا قاسى القلب ، **والثانى** : كونه منكرًا للبعث والقيامة .... » .

ثم يذكر السياق : أن رجلا من آل فرعون وقع الحق فى قلبه ولكنه كتم إيمانه انتدب يدفع عن موسى ، ويحتال لدفع القوم عنه ، إنه يبدأ بتفظيع ما هم مقدمون عليه ، فهل هذه الكلمة البريئة ﴿رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ المتعلقة باعتقاد قلب واقتناع نفس ، تستحق القتل ، ويرد عليها بإزهاق روح ؟ إنها فى هذه الصورة فعلة منكرة بشعة ظاهرة القبح والبشاعة ، ثم يخطو بهم خطوة أخرى ، فالذى يقول هذه الكلمة البريئة : ﴿رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ ويقولها ومعه حجته وليس حجة واحدة بل حجج كثيرة من الله، وقد جاءكم بها ، فإن يك كاذبا ولم يظهر لكم صحة ما جاءكم به ، فمن العقل والرأى

التام والحزم أن تتركوه ونفسه فلا تؤذوه فإن يك كاذبًا فإن الله سيجازيه على كذبه بالعقوبة فى الدنيا والآخرة ، وإن يك صادقًا وقد آذيتموه يصبكم بعض الذى يعدكم فإن يتوعدكم إن خالفتموه بعذاب فى الدنيا والآخرة فمن الجائز عندكم أن يكون صادقا ، فينبغى على هذا ألا تتعرضوا له ، بل اتركوه وقومه يدعوهم ويتبعونه ولو كان مسرفا كذابا لخذله الله وأهلكه.

ثم يذكرهم هذا المؤمن بأن الله أنعم عليهم بهذا الملك والظهور فى الأرض بالكلمة النافذة والجاه العريض ، فراعوا هذه النعمة بشكر الله تعالى وتصديق نبيه ﷺ ، واحذروا نقمة الله أن كذبتم رسوله ، فلن تغنى هذه الجنود ، ولا ترد عنا شيئا من بأس الله إن أرادنا بسوء ، وقال فرعون رادا على هذا المؤمن : ما أشير عليكم برأى إلا بما أرى من قتله ، وما أعلمكم إلا ما أعلم من الصواب ولا أدخر منه شيئا وهذا طريق الصواب والصلاح .

وقال الذى آمن متابعا دفاعه عن موسى : الذين كذبوا رسل الله فى قديم الدهر كقوم نوح وعاد وثمود ، والذين من بعدهم من الأمم المكذبة ، كيف حل بهم بأس الله ، وما رده الله عنهم راد ، وما الله يريد أن يظلم عباد ه فيعذبهم بغير ذنب أو يزيد على قدر ما يستحقون من العذاب ، ﴿ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴾ يوم القيامة ، وسمى بذلك لأن أصحاب النار ينادون أصحاب الجنة ، وأصحاب الجنة ينادون أصحاب النار ، وإذا زلزلت وانشقت من قطر إلى قطر ، وماجت وارتجت ، فنظر الناس إلى ذلك ذهبوا هاربين ، ينادى بعضهم بعضا أو إذا جىء بجهنم ذهب الناس هربا منها ، فتتلقاهم الملائكة فتردهم إلى مقام المحشر ؛ أو لأن الميزان عنده ملك ، إذا وزن عمل العبد فرجح نادى بأعلى صوته : ألا قد سعد فلان ابن فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً ، وإن خف عمله نادى ألا قد شقى فلان ابن فلان وينادى كل قوم بأعمالهم ، ينادى أهل الجنة أهل الجنة ، وأهل النار أهل النار ، أو لمناداة أهل النار أهل الجنة ، ولمناداة أصحاب الأعراف أهل الجنة وأهل النار .

ويحذر المؤمن قومه هذا اليوم الذى يولون الفرار فيه ، ولا عاصم يومئذ ولات حين فرار ، ومن أضله الله فلا هادى له ، والله يعلم من حال الناس وحقيقتهم من يستحق الهدى ومن يستحق الضلال .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ نصر الله تعالى لرسله والمؤمنين ليس فى فترة زمنية محددة ، وإنما هو نصر ثابت لكن فى الوقت الذى يريده الله.

٢ ـ ضرورة الإخلاص فى النصيحة والرفق بمن تنصحه .

٣ ـ مسؤولية الإنسان عن نفسه ، وعن أهله ، وعن مجتمعه الذى يعيش فيه .

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾

معاني الكلمات :

هلك : مات .

مرتاب : شاك فى الدين .

سلطان : برهان .

يطبع : يختم بالضلال .

صرحا : بناء مرتفعا .

الأسباب : طرق السموات والأرض وما يؤدى إليها .

تباب : خسران وهلاك .

دار القرار : محل الاستقرار .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف مذمة الله تعالى للمجادلين بغير سلطان وحجة .

٢ ـ أن نعلم سوء عاقبة المتكبرين .

٣ ـ أن نتعلم أهمية التذكير بالحساب والجزاء وما يتم فى الدار الآخرة من سعادة وشقاء .

المحتوى التربوى :

يذكر مؤمن آل فرعون قومه بموقفهم من يوسف ، ومن ذريته كان موسى ـ عليهما السلام ـ وكيف وقفوا موقف الشك من رسالته ، وما جاءهم به من الآيات ، فلا يكرروا الموقف من موسى ، وهو يصدق ما جاءهم به يوسف ، فكانوا فى شك وارتياب ، ويكذب ما جزموا به من أن الله لن يبعث من بعده رسولا ، وها هو ذا موسى يجيء على فترة من يوسف ويكذب هذا المقال ، وهذه هى المرة الوحيدة فى القرآن التى يشار فيها إلى رسالة يوسف ﷺ للقوم فى مصر ، والرجل المؤمن يشتد هنا وهو يشير إلى هذا الارتياب والإسراف فى التكذيب ،فينذرهم بإضلال الله الذى ينتظر كل مسرف مرتاب فى عقيدته ، وقد جاءته معها البينات .

ثم يشتد فى مواجهتهم بمقت الله ومقت المؤمنين لمن يجادل فى آيات الله بغير حجة ولا برهان، وهم يفعلون هذا فى أبشع صورة ، وينذر بالتكبر والتجبر ، وينذر بطمس الله لقلوب المتكبرين

المتجبرين ، فالذين يدفعون الحق بالباطل ، ويجادلون الحجج بغير دليل وحجة معهم من الله تعالى ، فإن الله عز وجل يمقت على ذلك أشد المقت ، ويبغضهم أشد البغض ، والمؤمنون أيضا يبغضون من تكون هذه صفته ، فإن من كانت هذه صفته يطبع الله على قلبه، فلا يعرف بعد ذلك معروفا ، ولا ينكر منكراً ، ومثل هذا الطبع يطبع به الله على كل قلب متكبر على الحق جبار على خلق الله ، وإنما وصف القلب بالتكبر والتجبر لأنه منبعهما .

ويبدو أنه على أثر هذا الدفاع الحار عن موسى ﷺ ، وعلى أثر هذا الوعظ الشديد ، أقلع فرعون عن قتل موسى ، فخاطب وزيره من أجل أن يبنى له صرحا يطلع إلى إله موسى ﷺ ، وبذلك أشعر يصرف النظر ، وأراد أن يغطى ذلك بهذا الطلب دون أن يعترف أنه كان مخطئا فى تفكيره فى قتل موسى ﷺ ، ودون أن يعلن انصرافه عن هذا القتل ، وقال فرعون جهلا أو تمويهًا أو تغطية أو انصرافا عما كان فيه ، أو إنهاء لكلام مؤمن آل فرعون : ياهامان ابن لى قصراً عاليا منيعا شاهقا لعلى أصل إلى طرق السموات وأبوابها ، وما يؤدى إليها ؛ إذ كل ما أدّاك إلى شىء فهو سبب ، فأطلع إلى إله موسى وأنظر إليه وإنى لأظن موسى كاذبا فى قوله له إله غيرى ، أو فى وجود إله غيرى ، ومثل ذلك التزيين الذى أراد أن يوهم به الرعية أنه يعمل شيئا يتوصل به إلى تكذيب موسى ﷺ ، وصد عن السبيل المستقيم ، وما كيد فرعون إلا فى خسار وهلاك .

قال صاحب الأساس : « وهذه بشارة لأهل الإيمان أن يطمئنوا إلى العاقبة ، وأن يعرفوا أن أعداء الله ليسوا على شىء مهما علا سلطانهم وامتد بغيهم هذا فى الدنيا ، وما عند الله أشد ، وفى الحديث : « ما من إمام يموت ـ يوم يموت ـ وهو غاش لرعيته إلا لم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام » .

وأمام هذه المراوغة ، وهذا الاستهتار ، وهذا الإصرار ألقى الرجل المؤمن كلمته الأخيرة مدوية صريحة ، بعدما دعا القوم إلى اتباعه فى الطريق إلى الله ، وهو طريق الرشاد ، وكشف لهم عن قيمة هذه الحياة الزائلة ، وشوقهم إلى نعيم الحياة الباقية ، وحذرهم عذاب الآخرة ؛ وبين لهم ما فى عقيدة الشرك من زيف ومن بطلان ، فقال المؤمن معيداً نصيحته لقومه :﴿ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ ،لا كما كذب فرعون تعريض عندما قال : ﴿ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ شبيه بالتصريح ، أن ما عليه فرعون وقومه سبيل الغى .

وبعد أن أجمل فى دعوته فسر ؛ فافتتح بذم الدنيا فزهدهم فيها، وهى التى قد آثروها على الأخرى ، وصدتهم عن التصديق برسول الله موسى ﷺ ، وفى ذلك إشارة إلى أن بداية الرشاد وطريقه هو الزهد فى الدنيا ، ﴿ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَـٰعٌ ﴾ متاع زائل لا ثبات له ولا دوام ، فهى قليلة فانية ، عن قريب تذهب وتضمحل ، والمتاع هو ما فيه تمتيع يسير ، فالإخلاد إلى الدنيا أصل الشر ، ومنبع الفتن .

وبعد أن حقر الدنيا ثنى بتعظيم الآخرة ، وبين أنها هى الوطن والمستقر ، فقال : إنها الدار التى لا زوال لها ، ولا انتقال منها ، ولا ظعن عنها إلى غيرها ، بل إما نعيم وإما جحيم ، ومن ثم

عقب بذكر الأعمال سيئها وحسنها ، وعاقبة كل منها ليثبط عما يتلف ، وينشط لما يزلف ، فقال : إن الحساب سريع ، وأن من عمل صالحا من الأعمال الصالحة التى شرعها الله لعباده وتعبدهم بها ، والحال أنه مؤمن مصدق بالله وبوعده ووعيده يوم لقائه ، فأولئك المؤمنون العاملون للصالحات يدخلون الجنة دار السلام يرزقون فيه رزقا واسعا لا يلحق صاحبه تبعة ولا تعب ولا نصب .

وفى قصة مؤمن آل فرعون وحواره مع قومه ما يمكن أن يهتدى به كل من يريد أن يقدم النصيحة للآخرين ، وكل من يدعو غيره إلى خير ، ومن ذلك :

أ - إقناعهم بوجهة نظره بالحجة الواضحة والبرهان القاطع .

ب - أن يكون لينا حكيما متبعا لأحسن الطرق فى النصح والإرشاد .

جـ - ألا يظهر التعالى والتعاظم على من ينصحه .

د - أن يبين لمن ينصحهم أنه واحد منهم ينفعه ما ينفعهم ، ويضره ما يضرهم .

هـ - أن يضرب لمن ينصحه الأمثلة التى توضح لهم ما يريده منهم ، وأن تكون قريبة من أفهامهم .

و - أن يذكرهم باليوم الآخر وما يكون فيه من ثواب للطائعين ، وعقاب للعاصين ، كما يذكرهم بفضل الله تعالى ورحمته وعدله .

ز - وأن يتدرج معهم فى النصيحة آخذاً بأيديهم ، مستميلا قلوبهم .

ح - ثم يركز النصيحة مع التخويف والإنذار ، ويفوض أمره بعد ذلك إلى الله متوكلا عليه ، تاركا له تبارك وتعالى هداية من يشاء من عباده .

هذا الصبر الطويل والنفس الجهيد ، والفكر السديد والعمل الرشيد ، والأمل الندى الذى يشف عنه التعبير القرآنى الصادر عن المؤمن مع قوم سادرين فى كفرهم وعنادهم ، متشبثين بمألوفهم وما عليه درجوا ، وهو فى موضع غير المحسود ، وقد كشف أمره ، وانزاح ستاره ، وعذابه قد اقترب وما نظر إلا إلى حق ربه ونصرة عبده ، فهو يؤدى النصيحة لقوم كافرين ويصبر عليهم ، ونحن أولى بنا أن نصبر على من هم إخواننا من بنى جلدتنا ، ونلتزم التزمه المؤمن من علو أدب وسمو عرض وطلب .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ - المسلم لا ينزع قوس النصيحة من يده أبدا ، فهو مسؤول عن إرشاد الناس .

٢ - على أهل الإيمان أن يتيقنوا أن العاقبة لهم والجنة مصيرهم وفضل الله عظيم .

٣ - الإخلاد إلى الدنيا أصل الشر ومنبع الفتن ، فعليك النظر إلى النعيم الدائم .

وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾

٤٧٢

معانى الكلمات :

لا جرم : حق وثبت أو لا محالة أو حقًا .

المسرفين : كل من تجاوز الحد فى الضلال والطغيان .

وحاق : نزل وأحاط .

غدواً وعشيا : صباحا ومساء .

يتحاجون : يلوم بعضهم بعضا .

الضعفاء : الأتباع المرؤوسون .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على الفرق الكبير بين من يدعو إلى النجاة ومن يدعو إلى النار .

٢ ـ أن نؤمن بعذاب القبر ونعيمه .

٣ ـ أن نعلم حقيقة الكبر والاستكبار ومدى إعاقته عن الاستقامة .

المحتوى التربوى :

ما زال مؤمن آل فرعون يكرر دعاءهم إلى الله وصرح بإيمانه ، ولم يسلك المسالك المتقدمة من إيهامه لهم أنه منهم ، وأنه إنما تصدى للتذكير كراهة أن يصيبهم بعض ما توعدهم به موسى ،كما يقوله الرجل المحب لقومه من التحذير عن الوقوع فيما يخاف عليهم الوقوع فيه ، فقال : أخبرونى عنكم كيف هذه الحال ؛ أدعوكم إلى النجاة من النار ودخول الجنة بالإيمان بالله وإجابة رسله ، وتدعوننى إلى النار بما تريدونه منى من الشرك ؟

وهم لم يدعوه إلى النار ، إنما دعوه إلى الشرك ، وما الفرق بين الدعوة إلى الشرك والدعوة إلى النار ؟ إنها قريب من قريب ، فهو يبدل الدعوة بالدعوة فى تعبيره ، وشتان بين دعوة ودعوة ، إن

دعوته لهم واضحة مستقيمة ، إنه يدعوهم إلى إله واحد تشهد آثاره فى الوجود بوحدانيته وتنطق بدائع صنعته بقدرته وتقديره ، يدعوهم ليغفر لهم ، وهو القادر على أن يغفر ، الذى تفضل بالغفران ، فإلى أى شىء يدعونه ؟ يدعونه للكفر بالله عن طريق الإشراك ما لا علم له به من مدعيات وأوهام وألغاز .

ويقرر من غير شك ولا ريبة أن هؤلاء الشركاء ليس لهم من الأمر شىء ، وليس لهم شأن لا فى دنيا ولا فى آخرة ، وأن المرد لله وحده ، وأن المسرفين المتجاوزين للحد فى الادعاء سيكونون أهل النار ، وماذا يبقى بعد هذا البيان الواضح الشامل للحقائق الرئيسية فى العقيدة ؟ وقد جهر بها الرجل فى مواجهة فرعون وملئه بلا تردد ولا تلعثم ، بعد أن كان يكتم إيمانه ، فأعلن عنه هذا الإعلان ؟ لا يبقى إلا أن يفوض أمره إلى الله ، وقد قال كلمة وأراح ضميره ، مهدداً إياهم بأنهم سيذكرون كلمته هذه فى موقف لا تنفع فيه الذكرى، والأمر كله إلى الله ، وينتهى الجدل والحوار، وقد سجل مؤمن آل فرعون كلمته الحق خالدة فى ضمير الزمان .

ويحمل السياق حلقة القصة بعد هذا ، وما كان بين موسى وفرعون وبنى إسرائيل إلى موقف الغرق والنجاة ، ويقف ليسجل « لقطات» بعد هذا الموقف الأخير وبعد الحياة ، لقد طويت الدنيا ، وعرضت أول صفحة بعدها ، فإذا الرجل المؤمن الذى قال كلمة الحق ومضى ، قد وقى الله القوى الرحيم ذلك الرجل المؤمن الموفق ، عقوبات ما مكر فرعون وآله له ، من إرادة إهلاكه وإتلافه ؛ لأنه ناداهم بما يكرهون ، وأظهر لهم الموافقة التامة لموسى عليه السلام ، ودعاهم إلى ما دعاهم إليه موسى ، وهذا أمر لا يحتملونه ، وهم أصحاب الذين القدرة إذ ذاك ، وقد أغضبهم واشتد حنقهم عليه ، فأرادوا به كيدا فحفظه الله من كيدهم ومكرهم ، فلم يصبه من آثارها شىء فى الدنيا ، ولا فيما بعدها أيضاً ، بينما نزل بآل فرعون سوء العذاب ، وهو الغرق فى اليم ، ثم النقلة منه إلى الجحيم ، فإن أرواحهم تعرض على النار صباحا ومساء إلى قيام الساعة ، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم فى النار ، ولهذا قال : ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾ ففى هذين الوقتين يعذبون فى النار ، وفيما بين ذلك ، إما أن يعذبوا بجنس آخر ، أو ينفس عنهم ، ويجوز أن يكون المراد بذلك الدوام .

قال ابن كثير : « وهذه الآية أصل كبير فى استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ فى القبور ، روى الإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله عز وجل إلى يوم القيامة » أخرجاه فى الصحيحين من حديث مالك به . وعندما تقوم الساعة يقال: أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ألما وأعظمه نكالا .

ولما كان آل فرعون أتباعا ومتبوعين فإن الله عز وجل يقص علينا خصومة أهل النار مع بعضهم وذلك فى يوم القيامة ، والسياق يلتقط لهم موقفا وهم يتحاجون فيها ، فيقول الضعفاء وهم الأتباع لرؤسائهم وهم المستكبرون : إنا كنا لكم أتباعا أطعناكم فيما دعوتمونا إليه فى الدنيا من الكفر والضلال ، فهل أنتم دافعون عنا جزءًا من هذه النار ، فقال الذين استكبروا إنا كلنا فيها لا يغنى أحد عن أحد ، ولا نتحمل عنكم شيئا كفى بنا ما عندنا ، وما حملنا من العذاب والنكال ، فإن الله قد قسم بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منا .

يقول صاحب الظلال : « إن الضعفاء إذن فى النار مع الذين استكبروا ، لم يشفع لهم أنهم كانوا ذيولا وإمعات ، ولم يخفف عنهم أنهم كانوا غنماً تساق ، لا رأى لهم ولا إرادة ولا اختيار ، لقد منحهم الله الكرامة ، كرامة الإنسانية ، وكرامة التبعة الفردية ، وكرامة الاختيار والحرية ، ولكنهم هم تنازلوا عن هذا جميعا ، تنازلوا وانساقوا وراء الكبراء والطغاة والملأ والحاشية .

لم يقولوا لهم : لا ، بل لم يفكروا فى أن يقولوها ، بل لم يفكروا أن يتدبروا ما يقولونه لهم وما يقودونهم إليه من ضلال : ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ وما كان تنازلهم عما وهبهم الله واتباعهم الكبراء ليكون شفيعاً لهم عند الله ،فهم فى النار، ساقهم إليها قادتهم ، كما كانوا يسوقونهم فى الحياة سوق الشياة ، ثم هاهم أولاء يسألون كبراءهم : ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ ، كما كانوا يوهمونهم فى الأرض أنهم يقودونهم فى طريق الرشاد ، وأنهم يحمونهم من الفساد ، وأنهم يمنعونهم من الشر والضر وكيد الأعداء .

فأما الذين استكبروا فيضيقون صدراً بالذين استضعفوا ، ويجيبونهم فى ضيق وبرم وملالة ، وفى إقرار بعد الاستكبار إنا كل ضعاف لا نجد ناصرًا ولا معينا ، إنا كل فى هذا الكرب والضيق سواء ، فما سؤالكم لكم لنا وأنتم ترون الكبراء والضعاف سواء ؟ والله قد حكم بين العباد فلا مجال لمراجعة فى الحكم ولا مجال لتغيير فيه أو تعديل » . وحين أدرك هؤلاء وهؤلاء ألا ملجأ من الله إلا إليه ، اتجهوا لخزنة جهنم ، يستشفعونهم ليدعوا ربهم فى رجاء يكشف عن شدة البلاء ولو ليوم واحد يلقطون فيه أنفاسهم ويستريحون .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الله تعالى ينجى عباده المؤمنين من كيد أعدائهم إذا أخلصوا دينهم لله ، وأدوا واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

٢ ـ إثبات نعيم القبر وعذابه ، ولن يغنى أحد عن أحد شيئا يوم القيامة .

٣ ـ لا يقبل الله تعالى ـ عذراً من الظالمين يوم القيامة وإنما يستحقون اللعنة وأسوأ العذاب .

قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾

معانى الكلمات :

ضلال : بطلان لا نفع فيه .

معذرتهم : اعتذارهم .

اللعنة : الطرد من رحمة الله .

سوء الدار : جهنم .

الكتاب : التوراة .

بالعشى والإبكار : فى المساء والصباح .

سلطان : حجة وبرهان .

ما هم ببالغيه : لن يصلوا إلى ما يقتضيه كيدهم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على وعد الله تعالى لرسله وللمؤمنين .

٢ ـ أن نعلم منة الله سبحانه على موسى عليه السلام وعلى بنى إسرائيل .

٣ ـ أن نعرف الدافع إلى جدل المجادلين فى آيات الله الواضحة .

المحتوى التربوى :

يذكر السياق أن خزنة جهنم لا يستجيبون لهذه الضراعة البائسة الذليلة الملهوفة ، فهم يعرفون الأصول ويعرفون سنة الله ويعرفون أن الأوان قد فات ، وهم لهذا يزيدون المعذبين عذابا بتأنيبهم وتذكيرهم بسبب هذا العذاب ، فقالت الخزنة : أولم تك تأتيكم رسلكم بالمعجزات والدلائل الواضحات ؟ فقال الكافرون : بلى : قالت الخزنة : فادعوا أنتم لأنفسكم ، فنحن لا ندعو لكم ، ولا نسمع منكم ، ولا نود خلاصكم ، ونحن منكم براء ، ثم أخبروهم أنه سواء دَعَوا أولم يَدْعوا لا يستجاب لهم ولا يخفف عنهم ، ولهذا قالوا : وما دعاء الكافرين إلا فى ضياع وذهاب لا يقبل ولا يستجاب .

قال صاحب الأساس : « ذكر الله عز وجل ثلاثة أنواع من العذاب يسلطه على الكافرين به وبرسله : عذاب الدنيا، وعذاب البرزخ فى القبر ، وعذاب النار ، وبعد أن ذكر الله سبحانه أنواع

العذاب هذه بيّن أن ذلك كله إنما يفعله نصرة لرسله وللمؤمنين ، فقال : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ كما نصر موسى ومؤمن آل فرعون بإغراق فرعون ، وبنصرهم فى الآخرة يوم يقوم الأشهاد وهم الملائكة يشهدون للرسل بالبلاغ وعلى الكافرين بالتكذيب ، وفى هذا اليوم لا ينفع الظالمين معذرتهم إذا أذن لهم فى الاعتذار لا تقبل معذرتهم ، ولهم اللعنة والبعد من رحمة الله ، ولهم سوء دار الآخرة وهو أشد عذابها .

يقول صاحب الظلال : « إن وعد الله قاطع جازم : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ بينما يشاهد الناس أن الرسل منهم من يقتل ، ومنهم من يهاجر من أرضه وقومه مكذبا مطروداً ، وأن المؤمنين فيهم من يسام العذاب ، وفيهم من يلقى فى الأخدود ، وفيهم من يستشهد، وفيهم من يعيش فى كرب وشدة واضطهاد ، فأين وعد الله لهم بالنصر فى الحياة الدنيا ؟ ويدخل الشيطان إلى النفوس من هذا المدخل ويفعل بها الأفاعيل ! .... والناس يقصرون معنى النصر على صورة معينة معهودة لهم، قريبة الرؤية لأعينهم ، ولكن صور النصر شتى، وقد يلتبس بعضها بصور الهزيمة عند النظرة القصيرة ، إبراهيم عليه السلام وهو يلقى فى النار فلا يرجع عن عقيدته ، ولا عن الدعوة إليها .. أكان فى موقف نصر أم فى موقف هزيمة ؟ ما من شك ـ وفى منطق العقيدة ـ أنه كان فى قمة النصر وهو يلقى فى النار ، كما انتصر مرة أخرى وهو ينجو من النار ، هذه صورة وتلك صورة ، وهما فى الظاهر بعيد من بعيد ...

وكم من شهيد ما كان يملك أن ينصر عقيدته ودعوته ولو عاش ألف عام كما نصرها باستشهاده ، وما كان يملك أن يودع القلوب من المعانى الكبيرة ، ويحفز الألوف إلى الأعمال الكبيرة ، بخطبة مثل خطبته الأخيرة التى يكتبها بدمها ، فتبقى حافزا محركا للأبناء والأحفاد ، وربما كانت حافزاً محركا لخطى التاريخ كله مدى أجيال . ما النصر ؟ وما الهزيمة ؟ إننا فى حاجة إلى تراجع ما استقر فى تقديرنا من الصور ومن القيم ، قبل أن نسأله أين وعد الله لرسله وللمؤمنين بالنصر فى الحياة الدنيا .

إن وعد الله قائم لرسله وللذين آمنوا ، ولابد أن توجد حقيقة الإيمان فى القلوب التى ينطبق هذا الوعد عليها ....إن هنالك أشكالًا من الشرك خفية ؛ لا يخلص منها القلب إلا حين يتجه لله وحده ، ويتوكل عليه وحده ، ويطمئن إلى قضاء الله فيه وقدره عليه ، ويحس أن الله وحده هو الذى يصرفه فلا خيرة له إلا ما اختار الله ، ويتلقى هذا بالطمأنينة والثقة والرضا والقبول ، وحين يصل إلى هذه الدرجة فلن يقدم بين يدى الله ، ولن يقترح عليه صورة معينة من صور النصر أو صور الخير ، فسيكل هذا كله لله ، ويلتزم ويتلقى كل ما يصيبه على أنه الخير ، وذلك معنى من معانى النصر .. النصر على الذات والشهوات، وهو النصر الداخلى الذى لا يتم نصر خارجى بدونه بحال من الأحوال » .

ويأتى التعبير عن نموذج من نماذج نصر الله فى قصة موسى ؛ إيتاء الكتاب والهدى ، ووراثة الكتاب والهدى ليكون هناك تذكر للخير بالترغيب فيه ، وعن الشر بالترهيب عنه ، ليس ذلك لكل أحد ، وإنما هو لأولى الألباب .

ويأتى التوجيه لرسول الله ﷺ ومن كانوا معه من المؤمنين فى مكة فى موقف الشدة والمعاناة ، ولكل من يأتى بعدهم من أمته بالصبر، الصبر على التكذيب ، والصبر على الأذى ، والصبر على نفخة الباطل وانتشائه بالغلبة والسلطان فى فترة من الزمان ، والصبر على طباع الناس وأخلاقهم وتصرفاتهم من هنا ومن هناك ، والصبر على النفس وميولها وقلقها وتطلعها ورغبتها فى النصر القريب ، وما يتعلق به من رغائب وآمال ، والصبر على أشياء كثيرة فى الطريق قد تجىء من جانب الأصدقاء قبل أن تجىء من جانب الأعداء ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ مهما يطل الأمد ، ومهما تتعقد الأمور ، ومهما تتقلب الأسباب ، إنه وعد من يملك التحقيق ، وفى الطريق خذ زاد الطريق الاستغفار المصحوب بالتسبيح وهو فى ذاته تربية للنفس وتطهير للقلب وهذه هى صورة النصر فى القلب وفى هذا تهييج للأمة على الاستغفار والتسبيح بحمد الله فى الليل والنهار والإدامة على عبادة الله .

ثم يقرر السياق أن الجدال فى آيات الله أثر عن الكبر الذى يستهدف أصحابه الجاه والعظمة والرياسة وإذ تحددت الأسباب النفسية والقلبية للجدال فى آيات الله ، وتبينت مظاهر ذلك وأهداف أصحابه ، فإن الموقف المكافئ لذلك هو الصبر والاستغفار والتسبيح بحمد الله والاستعاذة بالله ، وإذا كان الصبر مستحيل الوجود إلا إذا كان هناك إيمان باليوم الآخر ، وإذا كان الاستغفار والتسبيح والاستعاذة أثراً عن معرفة الله عز وجل ، فإن السياق يتجه للحديث عن اليوم الآخر ، ويتجه ليعرفنا على الله عز وجل .

قال ابن كثير : « يقول الله تعالى منبها على أنه يعيد الخلائق يوم القيامة ، وأن ذلك سهل عليه يسير لديه بأنه خلق السموات والأرض ، وخلقها أكبر من خلق الناس بدأة وإعادة ، فمن قدر على ذلك فهو قادر على ما دونه بطريق الأولى والأحرى » ، ورؤية هذه المعانى تدل على بصيرة القلب ، وعدم رؤيتها يدل على العمى ، والإيمان بها ينبع عنه العمل الصالح ، وعدم الإيمان ينبع عنه العمل السيئ ، كما لا يستوى الأعمى الذى لا يبصر شيئا ، والبصير الذى يرى ما انتهى إليه بصره ، كذلك لا يستوى المؤمنون الأبرار والكفرة الفجار ، وما أقل ما يتذكر كثير من الناس .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ مما يعين المؤمن على تحمل مشقات الحياة أن يكثر من الاستغفار والتسبيح بحمد الله ، فيكون له النصر فى الدنيا والآخرة .

٢ ـ وجوب الصبر والتحمل فى ذات الله .

٣ ـ الكبر يورد المهالك ويبعد عن طريق الصواب .

إن الساعة لآتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴿٥٩﴾ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴿٦٠﴾ الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴿٦١﴾ ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون ﴿٦٢﴾ كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون ﴿٦٣﴾ الله الذي جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين ﴿٦٤﴾ هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين ﴿٦٥﴾ قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البينات من ربي وأمرت أن أسلم لرب العالمين ﴿٦٦﴾

معانى الكلمات :

لا ريب : لا شك .

والنهار مبصرا : النهار سبب فى الإبصار بضوئه .

تؤفكون : تصرفُون .

يجحدون : ينكرون .

قرارا : مستقرا .

بناء : سقفا مرفوعا .

وصوركم : وخلقكم .

تبارك : تعالى وتمجد وكثر خيره .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم قرب الساعة وحتمها وفضل الدعاء .

٢ ـ أن نتعرف على بعض الآيات الكونية التى يغفل عنها الناس .

٣ ـ أن نعلم مظاهر قدرة الله فى الخلق والإيجاد ، والإرزاق والإحياء والإماتة .

المحتوى التربوى :

قرر السياق أن الساعة التى كذب بها المكذبون ليستمروا على الباطل والشر فعلا واعتقاداً ، لآتيه حتما ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون بها لوجود صارف قوى وهو عدم تذكرهم ، وانكبابهم على قضاء شهواتهم .

قال الفخر الرازى : « اعلم أنه تعالى لما بين أن القول بالقيامة حق وصدق ، وكان من المعلوم بالضرورة أن الإنسان لا ينتفع فى يوم القيامة إلا بطاعة الله تعالى ، لا جرم كان الاشتغال بالطاعة من أهم المهمات ، ولما كان أشرف أنواع الطاعات الدعاء والتضرع ، لا جرم أمر الله تعالى به » .

وهذا من فضله ـ تبارك وتعالى ـ وكرمه أنه ندب عباده إلى دعائه ، وتكفل لهم بالإجابة ، كما كان يقول سفيان الثورى : يا من أحبُّ عباده إليه من سأله فأكثر سؤاله ، ويا من أبغض عباده إليه من لم يسأله ، وليس أحد كذلك غيرك يارب .

يقول صاحب الظلال : « وللدعاء أدب لا بد أن يراعى إنه إخلاص القلب لله ، والثقة بالاستجابة مع عدم اقتراح صورة معينة لها ، أو تخصيص وقت أو ظرف ، فهذا الاقتراح ليس من أدب السؤال ، والاعتقاد بأن التوجه للدعاء توفيق من الله والاستجابة فضل آخر ، وقد كان عمر ﷺ يقول : أنا لا أحمل هم الإجابة إنما أحمل هم الدعاء،فإذا ألهمت الدعاء كان الإجابة معه ، وهى كلمة القلب العارف ، الذى يدرك أن الله حين يقدر الاستجابة يقدر معها الدعاء ، فهما حين يوفق الله متوافقان متطابقان .

فأما الذين يستكبرون عن التوجه لله فجزاؤهم الحق أن يوجهوا أذلاء صاغرين لجهنم ، وهذه نهاية الكبر الذى تتفتح به قلوب وصدور فى هذه الأرض الصغيرة ، وفى هذه الحياة الرخيصة ، وتنسى ضخامة خلق الله فضلا على نسيانها عظمة الله ، ونسيانها للآخرة وهى آتية لا ريب فيها ، ونسيانها للموقف الذليل فى الآخرة بعد النفخة والاستكبار .

ولما ذكر الذين يستكبرون عن عبادة الله ، شرع يعرض بعض نعم الله على الناس ، تلك النعم التى توحى بعظمته تعالى، والتى لا يشكرون الله عليها ، بل يستكبرون عن عبادته والتوجه إليه ، والليل والنهار ظاهرتان كونيتان والأرض والسماء خلقان كونيان كذلك ، وهى تذكر مع تصوير الله للبشر وإحسان صورهم ، ومع رزق الله لهم من الطيبات ، وتعرض كلها فى معرض نعم الله وفضله على الناس ، وفى معرض الوحدانية وإخلاص الدين لله ، فيدل هذا على ارتباط هذه الظواهر والخلائق والمعانى ، وعلى وجود الصلة بينها ، ووجوب تدبرها فى محيطها الواسع ، وملاحظة الارتباط بينها والاتفاق .

ويذكر السياق أنه من أجلكم جعل الله الليل مظلما ؛ لتسكنوا فيه من حركاتكم ، والتى لو استمرت لضرت فتأوون إلى فرشكم ، ويلقى الله عليكم النوم الذى يستريح به القلب والبدن ، وهو من ضروريات الآدمى لا يعيش بدونه، ويسكن أيضا كل حبيب إلى حبيبه ، ويجتمع الفكر ، وتقل الشواغل ، وجعل تعالى النهار منيراً بالشمس المستمرة فى الفلك ، فتقومون من فرشكم إلى أشغالكم الدينية والدنيوية ، هذا لذكره وقراءته ، وهذا لصلاته وهذا لطلب العلم ودراسته وهذا لبيعه وشرائه ، وهذا لبنائه أو حدادته أو نحوها من الصناعات وهذا لسفره براً وبحراً ، وهذا لفلاحته ، وهذا لتصليح حيواناته ، والله ذو فضل عظيم على الناس حيث أنعم عليهم بهذه النعم وغيرها ، وصرف عنهم النقم ، وهذا يوجب عليهم تمام شكره وذكره ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون بسبب جهلهم وظلمهم .

ويشير السياق إلى أن الذى خلق الليل والنهار هو الله ربكم المنفرد بالإلهية،والمتفرد بالربوبية؛ لأن انفراده بهذه النعم من ربوبيته ، وإيجابها للشكر من ألوهيته ، ويقرر السياق أنه سبحانه لا رب غير ولا إله سواه ، فهو الجامع لأوصاف الربوبية والإلهية والوحدانية ، فكيف تعبدون غيره

من الأصنام التى لا تخلق شيئا بل هى مخلوقة منحوتة ، وكل من جحد بآيات الله ولم يتأملها ، ولم يطلب الحق .

أفك كما أفكوا ، وكما ضل هؤلاء بعبادة غير الله كذلك أفك الذين من قبلهم فعبدوا غيره بلا دليل ولا برهان ، بل بمجرد الجهل والهوى وجحدوا حجج الله وآياته .

وينتقل السياق من ظاهرتى الليل والنهار إلى تصميم الأرض لتكون قراراً ، والسماء لتكون بناءً ، والأرض قرار صالح لحياة الإنسان ، والسماء بناء ثابت النسب والأبعاد والحركات والدورات ، ومن ثم تضمن الاستقرار والثبات لحياة هذا الإنسان المحسوب حسابها فى تصميم هذا الوجود المقدرة فى بنائه تقديراً ، ويربط بتكوين السماء والأرض تكوين الإنسان ورزقه من الطيبات ، وأنه خلقه فأحسن خلقته .

ولو رحنا نبحث دقة التكوين الإنسانى وتناسق أجزائه ووظائفه ـ بوصفها داخلة فى قوله تعالى : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ ـ لوقفنا أمام كل عضو صغير ، بل أمام كل خلية مفردة فى هذا الكيان الدقيق العجيب، وهناك ارتباط وثيق بين تصميم هذا الوسط ليعيش فيه ويتأثر به، ويؤثر فيه ، وهناك ارتباط وثيق بين تصميم هذا الوسط وتكوين هذا الإنسان ، وتصوير الإنسان على هذه الصورة ذو علاقة بوسطة أى بالأرض والسماء ، ومن ثم يذكر القرآن صورته فى نفس الآية التى يذكر فيها الأرض والسماء .

ويذكر أنه سبحانه خلق الدار والسكان والأرزاق فهو الخالق الرازق ، والذى دبر الأمور وأنعم عليكم بهذه النعم لله ربكم ، تعاظم وكثر خيره وإحسانه ، المربى جميع العالمين بنعمه ، وهو الحى الذى له الحياة الكاملة التامة ، المستلزمة لما تستلزمه من صفاته الذاتية التى لا تتم حياته إلا بها كالسمع والبصر والقدرة ، والعلم والكلام وغير ذلك من صفات كماله ونعوت جلاله ، فلا معبود بحق إلا وجهه الكريم فاعبدوه مخلصين له الطاعة من الشرك والرياء مع التوحيد الخالص ، جامعين بين العبادة والشكر والتحميد .

وأمام هذه الآيات والهبات ، وما تلاها من تعقبات ، وفى أشد اللحظات امتلاء بحقيقة الوحدانية ، وحقيقة الألوهية وحقيقة الربوبية ، يجىء التلقين لرسول الله ﷺ ليعلن للقوم أنه منهى عن عبادة ما يدعون من دون الله من الأوثان والأنداد،وأنه على يقين بما آتاه ربه من القرآن، وأنه مأمور بالإسلام لله رب العالمين .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الدعاء هو العبادة فلنكثر من الدعاء لله رب العالمين .

٢ ـ من شروط الدعاء المستجاب أن يكون القلب متعلقا بالله معرضا عما سواه ، وألا يسأل ما فيه إثم .

٣ ـ وجوب العبادة لله وحده ولا ننظر إلى أى شىء سواه ، فحقه أن نتوجه إليه بالكلية .

هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ
يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا
شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓا أَجَلًا مُّسَمًّى
وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧) هُوَ الَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا
قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٦٨) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ
يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ (٦٩) الَّذِينَ كَذَّبُوا
بِالْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ
(٧٠) إِذِ الْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَالسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١)
فِى الْحَمِيمِ ثُمَّ فِى النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ
مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ
نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَٰفِرِينَ (٧٤)
ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ
تَمْرَحُونَ (٧٥) ادْخُلُوٓا أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ
مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا
نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧)

٤٧٥

معانى الكلمات :

خلقكم من تراب : أوجد أصلكم من تراب .

نطفة : المنى .

علقة : الدم الغليظ .

الأغلال: القيود تجمع الأيدى إلى الرقاب .

الحميم : الماء الذى بلغ نهاية الحرارة .

يسجرون : تحيط بهم النار وتملأ أجوافهم .

ضلوا عنا : غابوا عنا .

تمرحون : تتوسعون فى الفرح والزهو .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نتعرف على أطوار خلق الإنسان ومراحل حياته .

٢ - أن نعلم حال المجادلين فى آيات الله يوم القيامة .

٣ - أن نعرف جزاء المتكبرين الذين يمنعهم الكبر من الاعتراف بالحق .

المحتوى التربوى :

يستعرض السياق آية من آيات الله فى أنفسهم بعدما استعرض آياته فى الآفاق ، هى آية الحياة الإنسانية وأطوارها العجيبة،وليتخذ من هذه الحياة مقدمة لتقرير حقيقة الحياة كلها بين يدى الله، وهذه النشأة الإنسانية فيها مالم يدركه علم الإنسان ؛ لأنه كان قبل وجود الإنسان ، وفيها ما يشاهده ويراقبه ، ولكن هذا إنما تم حديثا بعد نزول هذا القرآن بقرون ، فالتراب أصل الحياة كلها على وجه هذه الأرض ومنها الحياة الإنسانية ، ولا يعلم إلا الله كيف تمت هذه الخارقة ، وأما تكاثر الإنسان بعد ذلك عن طريق التزاوج فيتم عن طريق التقاء خلية التذكير وهى النطفة بالبويضة واتحادهما واستقرارهما فى الرحم فى صورة علقة . وفى نهاية المرحلة الجنينية يخرج الطفل بعد عدة تطورات كبرى فى طبيعة الخلية الأولى ، تعد إذا نحن نظرنا إليها بتدبر أطول وأكبر من

الأطوار التى يمر بها الطفل من ولادته إلى أن ينتهى أجله ، والتى يقف السياق عند بعض مراحلها البارزة : مرحلة الطفولة ثم بلوغ الأشدِ حوالى الأربعين ، ثم الشيخوخة ، وهى المراحل التى تمثل أقصى القوة بين طرفين من الضعف ، ومنكم من يتوفى من قبل أن يبلغ هذه المراحل جميعا أو بعضها ، ولتبلغوا أجلا مسمى مقدراً معلوما لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون ، ولعلكم تعقلون ما فى رحلة الجنين ورحلة الوليد وحسن الخلق والتقدير من العبرة .

وهو يعقب عليها بعرض حقيقة الإحياء والإماتة وحقيقة الخلق والإنشاء جميعا ، وتكثر الإشارة فى القرآن إلى آياتى الحياة والموت ؛ لأنها تلمسان قلب الإنسان بشدة وعمق ، ثم لأنهما الظاهرتان البارزتان المكررتان فى كل ما يقع عليه حس الإنسان ، ومن الحياة والموت إلى حقيقة الإنساء وأداة الإبداع ، وأن هى إلا الإرادة يتمثل اتجاهها إلى الخلق ، خلق أى شىء فى كلمة ﴿ كُن ﴾ فإذا الوجود ينبثق على إثرها ﴿ فَيَكُونُ ﴾ فتبارك الله أحسن الخالقين .

وأمام نشأة الحياة البشرية ، وفى ظل مشهد الحياة والموت ، وحقيقة الإنشاء والإبداع .. يبدو الجدال فى آيات الله مستغربا مستنكرا، ويبدو التكذيب بالرسل عجيبا ، ومن ثم يواجهه بالتهديد المخيف فى صورة مشهد من مشاهد القيامة العنيفة ، فيقول سبحانه : ألا تعجب يا محمد من هؤلاء المكذبين بآيات الله ، ويجادلون بالباطل كيف تصرف عقولهم عن الهدى إلى الضلال ، فبئس ما استبدلوا واختاروا لأنفسهم بتكذيبهم بالكتاب الذى جاءهم من الله ، وبما أرسل الله به رسله ، الذين هم خير الخلق وأصدقهم ، وأعظمهم عقولا ، فهؤلاء لا جزاء لهم سوى النار الحامية ، ولهذا توعدهم الله بعذابها بوعيد أكيد وعذاب شديد من الرب جل جلاله .

ثم بين أن هذا العلم سيكون إذ الأغلال والسلاسل فى أعناقهم تسحبهم بها الزبانية على وجوههم تارة إلى الحميم ، وهو : الماء الحار ، وتارة إلى الجحيم ، وهو : النار فتكون محيطة بهم مملوءة بها أجوافهم ، ثم قيل لهم على وجه التقريع والتوبيخ والتحقير والتصغير ، والتهكم والاستهزاء بهم ، والقائل هم خزنة جهنم : أين الأصنام التى كنتم تعبدونها من دون الله ، قالوا : ذهبوا عنا فلم ينفعونا ، أو غابوا عن عيوننا فلا نراهم ولا ننتفع بهم ، وتبين لنا أنهم لم يكونوا شيئا ، وما كنا نعبد بعبادتهم شيئا ، وقد يكون المراد جحودهم لعبادة غير الله كذبا منهم ، كعادتهم الكذب فى الدنيا ، وكذلك يضل الكافرين مثل ضلال آلهتهم عنهم فى الآخرة ، يضلهم الله عن الحق فى الدنيا ، بجدالهم فى آيات الله ، أو كما أضل هؤلاء المجادلين يضل سائر الكافرين الذين علم منهم اختيار الضلال على الدين الحق ، ذلكم العذاب الذى نزل بكم ، بسبب ما كان لكم من الفرح والمرح بغير الحق وهو الشرك ، وعبادة الأوثان .

قال ابن كثير : « تقول لهم الملائكة : هذا الذى أنتم فيه جزاء على فرحكم فى الدنيا بغير الحق ، ومرحكم وأشركم وبطركم .. فبئس المنزل والمقيل الذى فيه الهوان والعذاب الشديد لمن استكبر عن آيات الله ، واتباع دلائله وحججه » .

فعن الكبر نشأت هذه المهانة وجزاء على الكبر كان هذا التحقير وأمام هذا المشهد ـ مشهد الذل والمهانة ، والعذاب الرعيب ، وعاقبة الجدال فى آيات الله ، والكبر النافخ فى الصدور ـ يتجه السياق إلى رسول الله ﷺ يوصيه بالصبر على ما يجده من كبر ومن جدال ، والثقة بوعد الله الحق على كل حال ، سواء أراه الله بعض الذى يعدهم فى حياته ، أو قبضته إليه وتولى الأمر عنه ، فالقضية كلها راجعة إلى الله ، وليس على الرسول إلا البلاغ ، وهم إليه راجعون .

يقول صاحب الظلال : « وهنا نقف أمام لفتة تستحق التدبر العميق ، إن هذا الرسول الذى يلاقى ما يلاقى من الأذى والتكذيب والكبر والكنود يقال له ما مفهومه:أدِّ واجبك وقف عنده، فأما النتائج فليست من أمرك حتى شفا صدره بأن يشهد تحقق بعض وعيد الله للمتكبرين المكذبين ليس له أن يعلق به قلبه ، إنه يعمل وكفى ، يؤدى واجبه ويمضى ، فالأمر ليس أمره ، والقضية ليست قضيته .

إن الأمر كله لله ، والله يفعل به ما يريد .

يالله ، يا للمرتقى العالى ، ويا للأدب الكامل الذى يأخذ به أصحاب هذه الدعوة فى شخص رسوله الكريم ، وإنه لأمر شاق على النفس البشرية ، أمر يحتاج إلى الصبر على أشواق القلب البشرى العنيفة ، لعله من أجل هذا كان التوجيه إلى الصبر فى هذا الموضع من السورة ، فلم يكن هذا تكرارًا للأمر الذى سيق فيها ، إنما كان توجيها إلى صبر من لون جديد ، ربما كان أشق من الصبر على الإيذاء والكبر والتكذيب ؟ !

إن احتجاز النفس البشرية عن الرغبة فى أن ترى كيف يأخذ الله أعداءه وأعداء دعوته ، بينما يقع عليها العداء والخصومة من أولئك الأعداء أمر شديد على النفس صعيب ، ولكنه الأدب الإلهى العالى ، والإعداد الإلهى لأصفيائه المختارين ، وتخليص النفس المختارة من كل شىء لها فيه أرب ، حتى ولو كان هذا الأرب هو الانتصار من أعداء هذا الدين .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ التأمل فى الأنفس يوجب الإيمان بالواحد الأحد سبحانه .

٢ ـ ذم الفرح بغير فضل الله ورحمته والمرح وهو أشد من الفرح ، وذم التكبر وأهله .

٣- وجوب الصبر على دعوة الحق ، وعلى الإنسان أن يجد ويجتهد فى عمله وفى عبادة ربه ، تاركا النتيجة والثمرة لله مع الثقة فى فضله ـ تعالى ـ وعدله ورحمته .

الجزء الرابع والعشرون — سورة غافر

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

٤٧٦

معانى الكلمات :

آية : معجزة .

خسر هنالك المبطلون : هلك المعاندون الكافرون .

وآثاراً فى الأرض : عمرانا لا تزال آثارها باقية .

بالبينات : بالمعجزات الظاهرات .

وحاق : ونزل وأحاط .

بأسنا : شدة العذاب فى الدنيا .

سنة الله : حكم الله .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم منة الله ـ تعالى على الناس فى الأنعام .

٢ ـ أن نعرف مشروعية السير فى البلاد للعظة والاعتبار تقوية للإيمان .

٣ ـ أن نتعرف على أن سنن الله لا تتخلف وأن آيات القدرة شاهدة على ذلك .

المحتوى التربوى :

يستكمل السياق توجيه الرسول ﷺ والمؤمنين إلى الصبر حتى يأذن الله ، ويتحقق وعده ووعيده ، سواء تحقق هذا فى حياته ﷺ أم استأخر بعد وفاته ، فالأمر ليس أمره إنما هو أمر هذه العقيدة والمؤمنين بها والمجادلين فيها المستكبرين عنها ، والحكم فى هذا الأمر هو الله وهو الذى يقود حركتها ويوجه خطواتها كما يشاء ، ويستطرد السياق فى عرض جوانب أخر من إن قصة أمر الرسالة قصة طويلة وقديمة ، ولم تبدأ برسالة الإسلام ورسوله ﷺ فقبله كانت رسل، قص الله بعضهم عليه وبعضهم لم يقصصهم عليه، وكلهم ووجهوا بالتكذيب والاستكبار وكلهم طولب بالآيات والخوارق ، ولكن ما من آية إلا بإذن الله فى الوقت الذى يريده الله فهى دعوته ، وهو يصرفها كيف يشاء .

يقول صاحب الظلال : « فالنفس البشرية ـ لو كانت نفس رسول ـ تتمنى وترغب أن تستعلي الدعوة وأن يذعن لها المكابرون سريعا ، فتتطلع إلى ظهور الآية الخارقة التي تقهر كل مكابرة ، ولكن الله يريد أن يلوذ عباده المختارون بالصبر المطلق ، ويروضوا أنفسهم عليه ، فيبين لهم أن ليس لهم من الأمر شيء ، وأن وظيفتهم تنتهي عند البلاغ ، وأن مجيء الآية هو الذي يتولاه حينما يريد لتطمئن قلوبهم وتهدأ وتستقر ، ويرضوا بكل ما يتم على أيديهم ويدعوا الأمر كله بعد ذلك لله .

ويريد كذلك أن يدرك الناس طبيعة الألوهية وطبيعة النبوة ، ويعرفوا أن الرسل بشر منهم ، اختارهم الله ،وحدد لهم وظيفتهم، وما هم بقادرين ولا محاولين أن يجاوزوا حدود هذه الوظيفة، كذلك ليعلم الناس أن تأخير الآيات رحمة بهم ، فقد قضى في تقديره بأن يدمر على المكذبين بعد ظهور الآيات ، وإذن فهي مهلة وهي من الله رحمة .. ولم يعد هناك مجال لعمل ولا لتوبة ولا لرجعة بعد قضاء الله الأخير » .

ثم يوجه السياق طلاب الخوارق إلى الآيات الحاضرة التي ينسون وجودها بطول الألفة ، وهي لو تدبروا بعض هذه الخوارق التي يطلبون ، وهي شاهدة كذلك بالألوهية ؛ لبطلان أي دعاء بأن أحداً غير الله خلقها ، وأي ادعاء كذلك بأنها خلقت بلا خالق مدبر مريد ، فالله عز وجل خلق لكم الأنعام من البقر والإبل والغنم والماعز ؛ لتركبوا بعضها وتأكلوا بعضها ، ولكم منافع في ألبانها وأوبارها وجمالها وغير ذلك ، ولتبلغوا عليها ما تحتاجون إليه من الأمور ، وعلى الأنعام وعلى الفلك تحملون تفضلا من الله ونعمة .

قال ابن كثير : « فالإبل تركب وتؤكل وتحلب ، ويحمل عليها الأثقال في الأسفار والرحال إلى البلاد النائية والأقطار الشاسعة ، والبقر تؤكل ويشرب لبنها ويحرث عليها الأرض ، والغنم تؤكل ويشرب لبنها ، والجميع تجز أصوافها وأشعارها وأوبارها فيتخذ منها الأثاث والثياب والأمتعة » .

والله ـ تعالى ـ يريكم حججه وبراهينه في الآفاق وفي أنفسكم ، وأنتم لا تقدرون على إنكار شيء من آياته ، فكيف تقترحون الآيات وهي مبثوثة أمامكم ، وكيف لا تؤمنون والآيات مرئية مشاهدة ، ولماذا تجادلون وتعاندون وتكابرون والأمر أوضح من كل واضح ، أفلم يسير هؤلاء الكافرون المعاندون المجادلون في الأرض ، فينظروا كيف كان نهاية الذين من قبلهم من الأمم ، كانوا أكثر منهم عدوا وأشد قوة في أبدانهم ، وآثاراً خلفوها في الأرض، والظاهر أن الخطاب لقريش المخاطبين الأوائل .

يقول صاحب الظلال : « ومصارع الغابرين كثيرة في تاريخ البشرية ، وبعضها ما تزال له آثار تحكى ، وبعضها حفظته الروايات على الألسنة ، أو حفظته الأوراق والكتب ، والقرآن كثيرًا ما

يوجه القلوب إليها ، لما فيها من دلالة على حقائق ثابتة فى خط سير البشرية ، ولما لها كذلك من أثر فى النفس الإنسانية عميق عنيف ، والقرآن يخاطب الفطرة بما يعلمه منزل هذا القرآن من حقيقة الفطرة ، ومساربها ومداخلها ، وأبوابها التى تطرق فتفتح ، بعضها بعد نقرة خفيفة ، وبعضها بعد طرقات كثيرة إن كان قد ران عليها ركام » .

وهنا يسألهم وينشطهم للسير فى الأرض بعين مفتوحة ، وحس متوفز ، وقلب بصير لينظروا ويتدبروا ما كان فى الأرض قبلهم ، وما يتعرضون هم لجريانه عليهم .

قال الفخر الرازى رحمه الله : « اعلم أنه تعالى راعى ترتيبا لطيفا فى آخر هذه السورة ، وذلك أنه ذكر فصلا فى دلائل الإلهية وكمال القدرة والرحمة والحكمة ، ثم أردفه بفصل فى التهديد والوعيد ، وهذا الفصل الذى وقع ختم هذه السورة هو الفصل المشتمل على الوعيد ، والمقصود أن هؤلاء الكفار الذين يجادلون فى آيات الله ، وحصل الكبر العظيم فى صدورهم بهذا ، والسبب فى ذلك كله طلب الرياسة والتقدم على الغير فى المال والجاه ، فمن ترك الانقياد للحق لأجل طلب هذه الأشياء فقد باع الآخرة بالدنيا ، فبين تعالى أن هذه الطريقة فاسدة ؛ لأن الدنيا فانية ذاهبة ـ فلو ساروا فى أطراف الأرض لعرفوا أن عاقبة المتكبرين المتمردين ليست إلا الهلاك والبوار ، مع أنهم كانوا أكثر عدداً ومالا وجاها من هؤلاء المتأخرين » .

توافرت لهم الكثرة والقوة والعمران ولم تعصمهم قوة ولا كثرة ولا عمارة مما كانوا يعتزون به ويغترون ، بل كان هذا هو أصل شقائهم وسبب هلاكهم ، والعلم ـ بغير إيمان ـ فتنة ، فتنة تعمى وتطغى ، ذلك أن هذا اللون من العلم الظاهرى يوحى بالغرور ، فيتجاوز صاحبه بنفسه قدرها ومكانها ، وهؤلاء فرحوا بما عندهم من العلم ، واستهزؤوا بمن يذكرهم بما وراءه ، فلما عاينوا بأس الله ، سقط عنهم القناع وأدركوا مدى الغرور واعترفوا بما كانوا ينكرون وأقروا بوحدانية الله كفروا بشركائهم من دونه ، ولكن الأوان كان قد فات ، وسنة الله قد جرت على ألا تقبل توبة بعد ظهور بأس الله ، فهى توبة الفزع لا توبة الإيمان ، وسنة الله ثابتة لا تضطرب ولا تتخلف ولا تحيد عن الطريق ، وعلى هذا المشهد العنيف ، مشهد بأس الله يأخذ المكذبين ، ومشهدهم يستغيثون ويفزعون ، ويعلنون كلمة الإذعان والتسليم تختم السورة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ لا يقبل الله تعالى ـ التوبة من الذين ينتظرون حتى ساعة الموت .

٢ ـ ما ذكر فى القرآن من قصص الرسل قليل من كثير للعظة والاعتبار والإنذار .

٣ ـ سنن الله تعالى ـ لا تتخلف ومظاهر قدرته تعالى كثيرة واضحة ، فليطمئن المؤمن إلى جنب الله .



سورة فصلت

معانى الكلمات :

فصلت آياته : وضحت ونوعت .

فأعرض : فانصرف .

أكنة : أغطية تمنع الفهم .

وقر : صمم وثقل يمنع السمع .

حجاب : حاجز .

ويل : هلاك وشدة .

استوى : عمد وقصد .

دخان : مكونة مما يشبه الدخان .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على حقيقة القرآن العظيم ووظيفته وموقف الناس منه .

٢ ـ أن نعلم شدة عداوة المشركين للمسلمين ، وجزاءهم يوم القيامة .

٣ ـ أن نعرف قصة خلق الأرض وخلق الجبال من فوقها وخلق السموات .

المحتوى التربوى :

قضية العقيدة بحقائقها الأساسية هى التى تعالجها السورة .. الألوهية الواحدة .. والحياة الآخرة ، والوحى بالرسالة ، يضاف إليها طريقة الدعوة إلى الله وخلق الداعية ، وكل ما فى السورة هو شرح لهذه الحقائق ، واستدلال عليها ، وعرض لآيات الله فى الأنفس والآفاق ، وتحذير من التكذيب بها ، وتذكير بمصارع المكذبين فى الأجيال السابقة ، وعرض لمشاهدة المكذبين يوم القيامة .

والحديث قد سبق عن الافتتاح بالأحرف المقطعة فى سور شتى،تكرار هذا الافتتاح«حا ميم» يتمشى مع طريقة القرآن فى تكرار الإشارة إلى الحقائق التى يلمس بها القلب البشرى ؛ لأن فطرة هذا القلب تحتاج إلى تكرار التنبيه ، فهو ينسى إذا طال عليه الأمد ، وهو يحتاج ابتداء إلى التكرار

بطرق شتى لتثبيت أية حقيقة شعورية فيه ، ويبدأ السياق وكأن (حا ميم) اسم السورة أو لجنس القرآن ؛ إذ إنها من جنس الأحرف التى صيغ منها للفظ هذا القرآن ، وذكر الرحمن الرحيم عند ذكر تنزيل الكتاب ، يشير إلى الصفة الغالبة فى هذا التنزيل ، صفة الرحمة ، وما من شك أن تنزيل هذا الكتاب جاء رحمة للعالمين ، رحمة لمن آمنوا به واتبعوه ورحمة كذلك لغيرهم لا من الناس وحدهم، ولكن للأحياء جميعا .

والتفصيل المحكم وفق الأغراض والأهداف ، ووفق أنواع الطبائع والعقول ، ووفق البيئات والعصور ، ووفق الحالات النفسية وحاجاتها المنوعة ، التفصيل المحكم وفق هذه الاعتبارات سمة واضحة فى هذا الكتاب ، وقد فصلت هذه الآيات ووفق تلك الاعتبارات فصلت قرآنا عربيا لقوم يعلمون ، لديهم الاستعداد للعلم والمعرفة والتمييز .

وقام هذا القرآن يؤدى وظيفته يبشر المؤمنين العاملين ، وينذر المكذبين المسيئين ، ويبين أسباب البشرى وأسباب الإنذار بأسلوبه العربى المبين لقوم لغتهم العربية ، ولكن أكثرهم مع هذا لم يقبل ويستحب ، وقد كانوا يعرضون فلا يسمعون فعلا ، ويتحامون أن يعرضوا قلوبهم لتأثير هذا القرآن القاهر ، وكانوا يحضون الجماهير على عدم السماع ، وأحيانا كانوا يسمعون ، وكأنهم لا يسمعون لأنهم يقاومون أثر هذا القرآن فى نفوسهم، فكأنهم صم لا يسمعون، وقالوا : قلوبنا فى أغطية فلا تصل إليها كلماتك ، وفى آذاننا صم فلا تسمع دعوتك ، ومن بيننا وبينك حجاب فلا اتصال بيننا وبينك ، فدعنا واعمل لنفسك فإننا عاملون لأنفسنا ، أو أنهم قالوا غير مبالين : نحن لا نبالى قولك وفعلك ، وإنذارك ووعيدك فإذا شئت فامض فى طريقك ، فإنا ماضون فى طريقنا لا نسمع لك وافعل ما أنت فاعل وهات وعيدك الذى تهددنا به فإننا غير مبالين .

قالوا هذا إمعانا فى العناد ، وتيئيسا للرسول ﷺ ثم يمضى فى طريقه يدعو ويدعو ، ليكف عن الدعوة ، لما كانوا يجدونه فى قلوبهم من وقع كلماته ، على حين يريدون عامدين ألا يكونوا مؤمنين ، والرسول ﷺ كان يمضى مأموراً أن يعلن لهم أن تحقق وعيد الله ليس بيده ، فما هو إلا بشير يتلقى الوحى فيبلغ به ، ويدعو الناس إلى الله الواحد ، وإلى الاستقامة على الطريق ، وينذر المشركين كما أمر أن يفعل ، والأمر بعد ذلك لله لا يملك منه شيئا ، فهو ليس إلا بشراً مأموراً ، فأخلصوا لله العبادة على منوال ما أمركم به على ألسنة الرسل ، واستووا إليه بالتوحيد وإخلاص العبادة غير ذاهبين يمينا ولا شمالا ، واستغفروه لسالف الذنوب ، واستغفروه من الشرك الذى واقعتموه .

ثم توعد مَنْ ترك الاستقامة بالدمار والهلاك ، الذين عبدوا من دونه مَنْ لا يملك نفعا ولا ضرا ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ودنسوا أنفسهم ، فلم يزكوها بتوحيد ربهم والإخلاص له ، ولم يصلوا ولا زكوا ، فلا إخلاص للخالق بالتوحيد والصلاة ، ولا نفع للخلق بالزكاة وغيرها ،

وهم لا يؤمنون بالبعث ولا بالجنة والنار ، فلذلك لما زال الخوف من قلوبهم ، أقدموا على ما أقدموا عليه مما يضرهم فى الآخرة ، ولما ذكر الكافرين ذكر المؤمنين ، ووصفهم وجزاءهم فقال : إن المؤمنين بهذا الكتاب ، وما اشتمل عليه مما دعا إليه من الإيمان ، وصدقوا إيمانهم بالأعمال الصالحة للإخلاص والمتابعة لهم أجر عظيم غير مقطوع ولا نافد، بل هو مستمر مدى الأوقات .

وينكر تعالى ويعجب من كفر الكافرين به ، الذين جعلوا معه أنداداً يشركونهم معه ، ويبذلون لهم ما يشاؤون من عباداتهم ، ويسوونهم بالرب العظيم الملك الكريم ، الذى خلق الأرض الكثيفة العظيمة فى يومين ، ثم دحاها فى يومين ، بأن جعل فيها رواسى من فوقها ، ترسيها عن الزوال والتزلزل وعدم الاستقرار ، فكمل خلقها ودحاها وأخرج أقواتها ، وتوابع ذلك ، فى أربعة أيام ولا ينبئك مثل خبير ، فهذا الخبر الصادق الذى لا زيادة فيه ولا نقص، وهذا الحصر لأجل من سأل فى كم خلقت الأرض وما فيها .

ثم بعد أن خلق الأرض قصد إلى السماء فى حالة كونها دخانا وأشار إلى أن خلق السموات ثم فى زمن طويل ، فى يومين من أيام الله ، ثم نقف أمام الحقيقة الهائلة ، وهى : انقياد هذا الكون لله ، وإلى اتصال حقيقة هذا الكون بخالقة اتصال الطاعة والاستسلام لكلمته ومشيئته ، فقد جاء الأمر بأن تنقاد السموات والأرض فى طائعتين أو مكرهتين ، فهو أمر لابد من نفوذه ، قالتا : بل طائعين ، فليس لنا إرادة تخالف إرادتك .

يقول صاحب الظلال : « إنها إماءة عجيبة إلى انقياد هذا الكون للناموس ، وإلى اتصال حقيقة هذا الكون بخالقه اتصال الطاعة والاستسلام لكلمته ومشيئته ؛ فليس هنالك إذن إلا هذا الإنسان الذى يخضع للناموس كرها فى أغلب الأحيان ، إنه خاضع حتما لهذا الناموس لا يملك أن يخرج عنه ، وهو ترس صغير جداً فى عجلة الكون الهائلة ،و القوانين الكونية تسرى عليه رضى أم كره ، ولكنه هو وحده الذى لا ينقاد طائعا طاعة الأرض والسماء ، إنما يحاول أن يتفلت ، وينحرف عن المجرى الهين اللين ، فيصطدم بالنواميس التى لابد أن تغلبه وقد تحطمه وتسحقه ـ فيستسلم خاضعاً غير طائع ، إلا عباد الله الذين تصطلح قلوبهم وكيانهم وحركاتهم وتصوراتهم وإراداتهم ورغباتهم واتجاهاتهم ، تصطلح كلها مع النواميس الكلية ، فتأتى طائعة وتسير هينة لينة مع عجلة الكون الهائلة ، متجهة إلى ربها مع الموكب،متصلة بكل ما فيه من قوى، وحينئذ تصنع الأعاجيب وتأتى بالخوارق » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ رحمة القرآن الكريم للعالمين ، وأثرة فى حياة البشرية .

٢ ـ الكون كله خاضع لإرادة الله ـ تعالى ـ وليس هناك من يتمرد على طاعة الله إلا من كفر .

٣ ـ وجوب الاستقامة على شرع الله ، والاستغفار من كل ذنب صغيراً أو كبيراً .

فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها
وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز
العليم ﴿١٢﴾ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة
عاد وثمود ﴿١٣﴾ إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن
خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة
فإنا بما أرسلتم به كافرون ﴿١٤﴾ فأما عاد فاستكبروا في
الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا أن الله
الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون
﴿١٥﴾ فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات لنذيقهم
عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم
لا ينصرون ﴿١٦﴾ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على
الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون
﴿١٧﴾ ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴿١٨﴾ ويوم يحشر
أعداء الله إلى النار فهم يوزعون ﴿١٩﴾ حتى إذا ما جاءوها شهد
عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ﴿٢٠﴾

٤٧٨

معانى الكلمات :

فقضاهن : فأحكم وأبدع خلقهن .

أوحى : دبر .

مصابيح : كواكب منيرة مشرقة .

صرصرا: باردة شديدة والصوت والهبوب.

نحسات : مشؤومات أو ذوات غبار .

الخزى : الذل والهوان .

يوزعون : يحبس أولهم إلى آخرهم فيجتمعون جميعا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على مصارع الغابرين من قوم عاد وثمود .

٢ ـ أن نعلم علة الكفر والطغيان فى المجتمعات البشرية .

٣ ـ أن نعرف سلطان الله فى فطرة الكون وسلطان الله فى تاريخ البشر ، وجزاء الكافرين .

المحتوى التربوى :

يذكر السياق أن خلق السموات والأرض قد تم فى ستة أيام أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة مع أن قدرة الله ومشيئته صالحة لخلق الجميع فى لحظة واحدة ، ولكن مع أنه قدير ، فهو حكيم رفيق ؛ فمن حكمته ورفقه أن جعل خلقها فى هذه المدة المقدرة ، ثم دبر الله عز وجل التدبير اللائق بكل سماء التى اقتضته حكمة أحكم الحاكمين ، فرتب فوراً فى كل سماء ما تحتاج إليه من الملائكة ، وما فيها من الأشياء التى لا يعلمها إلا هو ، ثم زين الله جل فى علاه السماء القريبة من الأرض بمصابيح وهى الكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرض ، وحفظها من المسترقة حفظا ، وذلك تقدير العزيز الذى قد عز كل شىء فغلبه وقهره العليم بمواقع الأمور .

فكيف ـ بعد هذه الجولة الكونية الهائلة ـ يكون موقف الذين يكفرون بالله ويجعلون أنداداً ؟ كيف .. والسماء والأرض تقولان بها ﴿ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ ، وهذا النمل الصغير العاجز من البشر

الذى يدب على الأرض يكفر بالله فى تبجح واستهتار ، وما يكون جزاء هذا التبجح وهذا الاستهتار ، فإن أعرضوا عن الإيمان بعد هذا البيان أو إن أعرضوا عن العبادة والتقوى والتوحيد بعد هذه الدعوة أو إن أعرضوا عن الاستقامة إلى الله والاستغفار إليه ، مصرين على رفضهم وموقفهم ، فقل : خوفتكم وحذرتكم عذابا شديداً يستأصلكم ويجتاحكم ، مثلما اجتاح قبيلتى عاد وثمود ، وحل عليهم وبيل العقاب ، وذلك بظلمهم وكفرهم ، وهذا الإنذار المهروب المخيف يناسب شناعة الجرم وقبح الذنب ، وتبجح المشركين .

ويقص السياق مصرع عاد وثمود لما كان ، وكيف كان ، فقد جاءتهم الرسل من كل جانب ، وأعملوا معهم كل حيلة ، فلم يروا منهم إلا الإعراض ، وأنذروهم من وقائع الله فيمن كان قبلهم من الأمم ، وأنذروهم عذاب الآخرة ، وأمروهم بعبادة الله وحده لا شريك له ، وقالوا : لو أرسل الله رسلا لكانوا ملائكة من عنده ، وما دمتم بشراً ولستم بملائكة ، فإنا لا نؤمن بكم وبما جئتم به .

وإلى هنا أجمل مصير عاد وثمود وهو واحد ؛ إذ انتهى هؤلاء وهؤلاء إلى الأخذ بالصاعقة ، ثم فصل قصة كل منهما بعض التفصيل : فعاد قد استكبروا فى الأرض ، والأرض ، والحق أن يخضع العباد لله وألا يستكبروا فى الأرض وهم من هم بالقياس إلى عظمة خلق الله ، فكل استكبار فى الأرض فهو بغير الحق ، استكبروا واغتروا وقالوا : من أشد منا قوة ، وهو الشعور الكاذب الذى يحسه الطغاة الشعور بأنه لم تعد هناك قوة تقف إلى قوتهم وينسون أن الذى خلقهم من الأصل أشد منهم قوة ؛ لأنه هو الذى مكن لهم فى هذا القدر المحدود من القوة ، ولكن الطغاة لا يذكرون .

وبينما هم يعرضون عضلاتهم ، ويتباهون بقوتهم يفجأهم المصرع المناسب لهذا العجب المرذول ، العاصفة الهوجاء المجتاحة الباردة فى أيام نحس عليهم ، وإنه الخزى فى الحياة الدنيا ، الخزى اللائق بالمستكبرين المتباهين المختالين على العباد ، ذلك فى الدنيا وليسوا بمتروكين فى الآخرة ، فعذاب الآخرة أشد خزيا لهم وهم لا ينصرون فى الأخرى كما لم ينصروا فى الدنيا من قبل شركائهم الذين عبدوهم من دون الله ، على رجاء النصر لهم .

وأما ثمود قد بين الله لهم ودعاهم ووضح لهم الحق على لسان نبيهم صالح ﷺ ، فخالفوه وكذبوه ، وعقروا ناقة الله التى جعلها آية وعلامة على صدق نبيهم ، فبعث الله عليهم صيحة ورجفة وذلا وهوانا وعذابا ونكالا بما كانوا يكسبون من التكذيب والجحود ، ونجى الله عز وجل الذين آمنوا من بين أظهرهم لم يمسهم سوء ، ولا نالهم من ذلك ضرر ، بل نجاهم الله مع نبيهم صالح ﷺ بإيمانهم ، وتقواهم لله عز وجل ، وتنتهى الجولة على مصرع عاد وثمود ، والإنذار بهذا المصرع المخيف المرهوب ، ويتكشف لهم سلطان الله الذى لا ترده قوة ولا يعصم منه حصن ، ولا يبقى على مستكبر مريد .

والآن وقد كشف لهم عن سلطان الله فى فطرة الكون ، وسلطان الله فى تاريخ البشر ، يطلعهم على سلطان الله فى ذوات أنفسهم التى لا يملكون منها شيئا ، ولا يعصمون منها شيئا من سلطان الله ، حتى سمعهم وأبصارهم وجلودهم تطيع الله وتعصيهم فى الموقف المشهود ، وتكون عليهم بعض الشهود ، إنها المفاجأة الهائلة فى الموقف العصيب ، وسلطان الله الذى تطيعه جوارحهم وتستجيب ، وهم يوضحون بأنهم أعداء الله ، فما مصير أعداء الله ؟ إنهم يحشرون ويجمع أولهم على آخرهم وآخرهم على أولهم كالقطيع .. إلى أين ؟ إلى النار ، حتى إذا كانوا حيالها وقام الحساب ، إذا شهود عليهم لم يكونوا لهم فى حساب ، وإن ألسنتهم معقودة لا تنطق ، وقد كانت تكذب وتفترى وتستهزئ ، وإن أسماعهم وأبصارهم وجلودهم تخرج عليهم ، لتستجيب لربها طائعة مستسلمة ، تروى عنهم ما حسبوه سراً ، فقد يستترون من الله ، ويظنون أنه لا يراهم وهم يتخفون بنواياهم ، ويتخفون بجرائمهم ، ولم يكونوا ليستخفوا من أبصارهم وأسماعهم وجلودهم ، وكيف وهى معهم ؟ بل كيف وهى أبعاضهم ؟! وها هى ذى تفضح ما حسبوه مستوراً عن الخلق أجمعين ، وعن الله رب العالمين ، يا للمفاجأة بسلطان الله الخفى ، يغلبهم على أبعاضهم فتلبى وتستجيب .

يقول صاحب الأساس : « رأينا أن سياق السورة سار كما يلى : عرض علينا موقف الكافرين من القرآن ، ومن دعوة رسول الله ﷺ ، ثم رد على هذا الموقف :

١ ـ يعرض مضمون الدعوة .

٢ ـ بما يترتب على هذا الموقف من آثار بديهية البطلان .

٣ ـ ثم بإنذارهم بعذاب الدنيا .

٤ ـ ثم بإنذارهم عذاب الآخرة .

وبعد هذا البيان الذى رأيناه .. ، والذى لو وجد عقل أو إنصاف أو سماع تدبر لترتب على ذلك انزجار ، إلا أنه حيث لا عقل ، ولا إنصاف ، ولا سماع تدبر ، فإن هذا كله لم يفد فيهم » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الله عز وجل قدير وتتجلى مظاهر قدرته فى الأرض والسماء وما فيهما ، فالضعيف قوى بحماه .

٢ ـ ضرورة الاتعاظ بما حدث للأمم السابقة حتى لا يصيبنا ما أصابهم .

٣ ـ الكبر من الصفات المذمومة التى يجب ألا يتصف بها المسلم .

٤ ـ فى يوم القيامة لا يكون للإنسان سيطرة على جوارحه وأعضائه ، ولا يستطيع إنكار ما كان يفعله فى الدنيا .

الجزء الرابع والعشرون — سورة فصلت

وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي
أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾
وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ
وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ
﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم
مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن
يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ
قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ
الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ
كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ
وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا
شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاءُ
أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ
﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ
وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾

ثلاثة أرباع الحزب ٤٨

٤٧٩

معانى الكلمات :

تستترون : تستخفون .

أرداكم : أهلككم .

مثوى لهم : محل إقامة دائمة .

وقيضنا لهم قرناء : هيأنا للمشركين أصحاب سوء .

فزينوا : فحسنوا .

حق عليهم القول : ثبتت كلمة العذاب عليهم .

والغوا فيه : ائتوا بالباطل عند قراءته .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على ضلال الكافرين وكيف ضلوا هذا الضلال المبين .

٢ ـ أن نعلم كيد المشركين حيال القرآن العظيم .

٣ ـ أن نعرف موقف الكافرين يوم القيامة وتغيظهم على من خدعوهم .

المحتوى التربوى :

يعرض السياق علينا بشكل غير مباشر عدم استفادتهم من الإنذار وسببها ، وإصرارهم على حرب القرآن واستئهالهم العقوبات بذلك ، وندم بعضهم حيث لا ينفع الندم ، وقد لاموا أعضاءهم وجلودهم حين شهدوا عليهم ، فعند ذلك أجابتهم الأعضاء : إن نطقنا ليس بعجب من قدرة الله الذى قدر على إنطاق كل حيوان ، ﴿ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ فهو لا يخالف ولا يمانع ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ومن كان هذا شأنه فكيف لا ينطقنا ، وكيف لا ننطق إذا أمرنا ، وإنكم كنتم تستترون بالحيطان والحجب عند ارتكاب الفواحش ، وما كان استتاركم ذلك خيفة أن يشهد عليكم جوارحكم ؛ لأنكم كنتم غير عالمين بشهادتها عليكم ، بل كنتم جاحدين بالبعث والجزاء

أصلا ، ولكنكم إنما استترتم لظنكم أن الله لا يعلم الخفايا من أعمالكم ، وذلك الظن الذى ظننتم بربكم أهلككم ، فأصبحتم من الخاسرين فى الدنيا والآخرة .

ويجىء التعقيب الأخير مليئا بالسخرية،فالصبر الآن صبر على النار،وليس الصبر الذى يعقبه الفرج وحسن الجزاء ، إنه الصبر الذى جزاؤه النار قراراً ومثوى يسوء فيه المقام ، فإن يصبروا لم ينفعهم الصبر ، ولم ينفكوا به من الثواء فى النار ، وإن يطلبوا الرضا فما هم من المرضيين أوإن يسألوا العتبى وهو الرجوع إلى ما يحبون جزعا مما هم فيه ، لم يعتبوا أى : لم يعطوا العتبى ، أى الرجوع إلى الدنيا ولم يجابوا إليها ، وقال **ابن كثير** فى الآية : « أى سواء عليهم صبروا أم لم يصبروا فى النار لا محيد لهم عنها ، ولا خروج لهم منها ، وإن طلبوا أن يستعتبوا ويبدوا أعذاراً فما لهم أعذار ولا تقال لهم عثرات ... .. ، فاليوم يغلق الباب فى وجه العتاب ، لا الصفح والرضا الذى يعقب العتاب .

ثم يكشف لهم كذلك عن سلطان الله فى قلوبهم ، وهم بعد فى الأرض ، يستكبرون عن الإيمان بالله ، فالله قد قيض لهم ـ بما اطلع على فساد قلوبهم ـ قرناء سوء من الجن ومن الإنس ، يزينون لهم السوء ، وينتهون بهم إلى مواكب الذين كتب عليهم الخسران ، وحقت عليهم كلمة العذاب ، فلينظروا كيف هم فى قبضة الله الذين يستكبرون عن عبادته ، وكيف أن قلوبهم التى بين جنوبهم تقودهم إلى العذاب والخسارة ، وقد قيض الله وأحضر قرناء يوسوسون لهم ، ويزينون لهم كل ما حولهم من السوء ، ويحسنون لهم أعمالهم فلا يشعرون بما فيها من قبح ، وأشد ما يصيب الإنسان أن يفقد إحساسه بقبح فعله وانحرافه ، وأن يرى كل شىء من شخصه حسنا ومن فعله، فهذه هى المهلكة وهذا هو المنحدر الذى ينتهى دائما بالبوار، وإذا هم فى قطيع السوء ، فى الأمم التى حق عليها وعد الله من قبلهم من الجن والإنس ، قطيع الخاسرين .

قال **الفخر الرازى** رحمه الله : « اعلم أن القوم علموا أن القرآن كلام كامل فى المعنى وفى اللفظ ، وأن كل من سمعه وقف على جزالة ألفاظه وأحاط عقله بمعانيه وقضى عقله بأنه كلام حق واجب القبول، فدبروا تدبيراً فى منع الناس عن استماعه ، فقال بعضهم لبعض ﴿ لَا تَسْمَعُواْ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ ﴾ إذا قرئ وتشغلوا عن قراءته برفع الأصوات بالخرافات والأشعار الفاسدة والكلمات الباطلة حتى تخلطوا على القارئ وتشوشوا عليه وتغلبوا على قراءته ، وكانت قريش يوصى بذلك بعضهم بعضا ، والمراد افعلوا عند تلاوة القرآن ما يكون لغوا باطلا ، لتخرجوا قراءة القرآن عن أن تصير مفهومة للناس ، فبهذا الطريق تغلبون محمداً ﷺ ، وهذا جهل منهم لأنهم فى الحال أقروا بأنهم مشتغلون باللغو والباطل من العمل،والله تعالى ينصر محمدًا بفضله» .

ورداً على قولتهم المنكرة يجىء التهديد المناسب ، وسرعان ما نجدهم فى النار ، وسرعان ما نشهد حنق المخدوعين ، الذين زين لهم قرناؤهم ما بين أيديهم وما خلفهم ، وأغروهم بهذه

المهلكة التى انتهى إليها مطافهم ، ففى مقابلة ما اعتقدوه فى القرآن وعند سماعه ليذيقهم الله العذاب الشديد ، ولفظ الذوق إنما يذكر فى القدر القليل الذى يؤتى لأجل التجربة ، ثم إنه تعالى ذكر أن ذلك الذوق عذاب شديد ، فإذا كان القليل منه عذابا شديداً ، فكيف يكون حال الكثير منه ، وهم يجاوزون على أسوأ ما عملوا وهو الكفر والمعاصى ، فإنها أسوأ ما كانوا يعملون، لكونهم يعملون المعاصى وغيرها ، فالجزاء بالعقوبة إنما هو على عمل الشر .

قال النسفى : « ولنجزينهم أعظم عقوبة على أسوأ أعمالهم وهو الكفر » ذلك الجزاء الأسوأ جزاء أعداء الله ثم فسر ما هيته فقال : ﴿ ٱلنَّارُ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ ﴾ فلا يخرجون منها جوزوا بذلك جزاء بسبب جحودهم بآيات الله أى القرآن .

قال **الفخر الرازى** رحمه الله : « واعلم أنه تعالى لما بين أن الذين حملهم على الكفر الموجب للعقاب الشديد مجالسة قرناء السوء بين الكفار عند الوقوع فى العذاب الشديد ، يقولون : ﴿ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ ﴾ والسبب فى ذكر هذين القسمين أن الشيطان على ضربين جنى وإنسى » ، وقد تعاونا على الإضلال ، ﴿ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴾ فى النار جزاء إضلالهم إيانا ، وينفعهم هذا الكلام هناك ، ومن ثم لا نجد السياق يجيبهم على النداء .

قال القاشانى : أى حنق المحجوبون واغتاظوا على مَنْ أضلّهم من الفريقين عند وقوع العذاب ، وتمنوا أن يكونوا فى أشد من عذابهم وأسفل من دركاتهم ، لما لقوا من الهوان وألم النيران وعذاب الحرمان والخسران بسببهم ، وأرادوا أن يشفوا صدورهم برؤيتهم فى أسوأ أحوالهم وأنزل مراتبهم ، كما ترى مَنْ وقع فى البلية ، بسبب رفيق أشار إليه بما أوقعه فيها ، يتحرد عليه ويتغيظ ، ويكاد أن يقع فيه مع غيبته ويتحرق » .

ونلاحظ فى هذه الآيات أنها بدأت الكلام عن قرناء الكافرين الذين زينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم ، وختمت بالكلام عن هؤلاء القرناء ؛ إذ يدعو عليهم من ضلوا بسببهم إذا دخلوا النار .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ وجوب حسن الظن بالله تعالى ، وهو أن يرجو أن يغفر الله له إذا تاب من زلة زلها ، وأن يرجو رحمته وعفوه إذا كان فى حال العجز عن الطاعات .

٢ ـ الحذر من أصدقاء السوء ، وجلساء الشر الذين يزينون للإنسان الفساد ، ويغرونه بالمعاصى ، ويجرونه إلى الرذائل .

٣ ـ كيد المشركين لا ينتهى ، واليقظة أمر مطلوب فالعدو لا ينام .

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ
الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ
الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ
وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾
وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ
إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ
ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ
وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا
إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ
فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ
اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ
وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ
إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ
رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾

معانى الكلمات :

استقاموا : ثبتوا على الحق حتى المات .

أولياؤكم : أنصاركم وأعوانكم .

تدعون : تطلبون وتتمنون .

نزلا : ضيافة وكرامة .

ولى حميم : صديق مخلص .

حظ عظيم : نصيب وافر من السعادة .

نزغ : وسوسة أو صارف .

لا يسأمون : لا يملون .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ـ أن نتعرف على صفات الداعية إلى الله ومكانته ونصحه ، وصف روحه ، ولفظه ، وحديثه ، وأدبه .

٢ ـ أن نعلم بشرى أهل الإيمان وما يحصل لهم عند الموت .

٣ ـ أن نعرف أن فى الجنة ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين .

المحتوى التربوى :

ينتقل السياق من ذكر صلة الوسوسة والإغراء ، إلى صلة النصح والولاء ، صلة المؤمنين الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا على الطريق إليه بالإيمان والعمل الصالح ، إن الله لا يقيض لهؤلاء قرناء سوء من الجن والإنس ؛ إنما يكلف بهم ملائكة يفيضون على قلوبهم الأمن والطمأنينة ، ويبشرونهم بالجنة ، ويتولونهم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .

يقول صاحب الظلال : « والاستقامة على قولة : ﴿ رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ ، الاستقامة عليها بحقها وحقيقتها ، الاستقامة عليها شعوراً فى الضمير ، وسلوكا فى الحياة ، الاستقامة عليها والصبر على تكاليفها ، أمر ولا شك كبير وعسير ، ومن ثم يستحق عند الله هذا الإنعام الكبير ، صحبة الملائكة ولهم ، ومودتهم ، هذه التى تبدو فيما حكاه الله عنهم ، وهو يقولون لأوليائهم المؤمنين :

لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ثم يصورون لهم الجنة التى يوعدون تصوير الصديق لصديقه ما يعلم أن يسره علمه ، ورؤيته من حظه المرتقب : لكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ويزيدونها لهم جمالاً وكرامة نزلاً من غفور رحيم ، فهى من عند الله أنزلكم إياها بمغفرته ورحمته ، فأى نعيم بعد هذا النعيم ؟ » .

قال القاشانى : وإنما تنزلت الملائكة عليهم للمناسبة الحقيقية بينهم فى التوحيد الحقيقى ، والإيمان اليقينى والعمل الثابت على منهاج الحق والاستقامة فى الطريق إليه ، غير ناكثين فى عزيمة ، ولا منحرفين عن وجهة ، ولا زائغين فى عمل ، كما ناسبت نفوس المحجوبين من أهل الرذائل الشياطين بالجواهر المظلمة والأعمال الخبيثة ، فتنزلت عليهم » .

ويرسم السياق صورة الداعية إلى الله ، ووصف روحه ولفظه ، وحديثه وأدبه ، ويوجه إليها رسوله ﷺ وكل داعية من أمته ، وكان قد بدأ السورة بوصف جفوة المدعوين وسوء أدبهم ، وتبجحهم النكير ، ليقول للداعية : هذا هو منهجك مهما كانت الأمور .

قال القاشانى : وإنما قدم الدعوة إلى الحق والتكميل ؛ لكونه أشرف المراتب ، ولاستلزامه الكمال العلمى والعملى ، وإلا لما صحت الدعوة » .

ويقول صاحب الظلال : « إن النهوض بواجب إلى الله فى مواجهة التواءات النفس البشرية ، وجهلها واعتزازها بما ألفت ، واستكبارها أن يقال : إنها كانت على ضلالة ، وحرصها على شهواتها على مصالحها ، وعلى مركزها الذى قد تهدده الدعوة إلى إله واحد ، كل البشر أمامه سواء .

إن النهوض بواجب الدعوة فى مواجهة هذه الظروف أمر شاق ، ولكنه شأن عظيم ...إن كلمة الدعوة حينئذ هى أحسن كلمة تقال فى الأرض،وتصعد فى مقدمة الكلم الطيب إلى السماء، ولكن مع العمل الصالح الذى يصدق الكلمة ، ومع الاستسلام لله الذى تتوارى معه الذات ، فتصبح الدعوة خالصة لله ليس للداعية فيها شأن إلا التبليغ .

ولا على الداعية بعد ذلك أن تتلقى كلمته بالإعراض أو بسوء أدب ، أو بالتبجح فى الإنكار ، فهو إنما يتقدم بالحسنة ، فهو فى المقام الرفيع ، وغيره يتقدم بالسيئة فهو فى المكان الدون : ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ﴾ وليس له أن يرد بالسيئة ، فإن الحسنة لا يستوى أثرها ـ كما لا تستوى قيمتها ـ مع السيئة والصبر والتسامح ، والاستعلاء على رغبة النفس فى مقابلة الشر بالشر ، يرد النفوس الجامعة إلى الهدوء والثقة ، فتنقلب من الخصومة إلى الولاء ، ومن الجماح إلى اللين » .

إن الحسنة والسيئة متفاوتتان فى أنفسهما ، فخذ بالحسنة التى هى أحسن من أختها إذا اعترضتك حسنتان ، وإذا اعترضتك سيئة فادفعها بالحسنة كذلك ، كما لو أساء إليك رجل إساءة ، فالحسنة أن تعفو عنه ، والتى هى أحسن أن تحسن إليه مكان إساءته إليك ، مثل أن يذمك فتمدحه ، أو يقتل ولدك فتفتدى ولده من يد عدوه ، فإنك إذا فعلت ذلك انقلب عدوك المشاق مثل الولى الحميم مصافاة لك ، وما يلقى هذه الخصلة التى هى مقابلة الإساءة بالإحسان إلا أهل الصبر، وما يقبل هذه الوصية ويعمل بها إلا من صبر على ذلك ، فإنه يشق على النفوس؛ فما يقبلها إلا ذو نصيب وافر من السعادة فى الدنيا والآخرة .

وبعد أن بين الله تعالى طريقة معالجة عدو الإنس ، يبين طريقة معالجة عدو الجن ؛ فإذا وسوس الشيطان وسوسة تنخس القلب نحسا ، فاستعذ بالله من شره ولا تطعه ، إنه هو السميع لاستعاذتك ، العليم بنزغ الشيطان ، فشيطان الإنس ربما ينخدع بالإحسان إليه ، أما شيطان الجن فإنه لا حيلة فيه إذا وسوس إلا الاستعاذة بخالقه الذى سلطه عليك ، فإذا استعذت بالله والتجأت إليه كفه عنك وردّه كيده ، فالغضب قد ينزغ ، وقد يلقى فى الروع قلة الصبر على الإساءة ، أو ضيق الصدر عن السماحة ، فالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم حينئذ وقاية ، تدفع محاولاته ، لاستغلال الغضب ، والنفاذ من ثغرته .

قال الفخر الرازى رحمه الله : « اعلم أنه تعالى لما بين .. أن أحسن الأعمال والأقوال هو الدعوة إلى الله تعالى أردفه بذكر الدلائل الدالة على وجود الله وقدرته وحكمته ، تنبيها على أن الدعوة إلى الله تعالى عبارة عن تقرير الدلائل الدالة على ذات الله وصفاته ، فهذه تنبيهات شريفة مستفادة من تناسق هذه الآيات .. ، وقد عرفت أن الدلائل الدالة على هذه المطالب العالية هى العالم بجميع ما فيه من الأجزاء والأبعاض » .

ويبدأ السياق بجولة مع آيات الله الكونية : الليل والنهار والشمس والقمر ، وفى المشركين من كان يسجد للشمس وللقمر مع الله ، وهما من خلق الله ، وكان الأمر بالسجود لله الذى خلق الشمس والقمر والأرض التى هى محل الليل والنهار ، إن كانوا يدعون عبادته فهذا طريقها ، وإن استكبروا عن عبادة الله فهناك من هم أقرب منهم إلى الله يعبدونه وينزهونه عن الأنداد ولا يملون من عبادته سبحانه ، وكيف تمل وهى روح الحياة ؟ !

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الدعوة الخالصة لله تعالى وليس للداعية فيها شأن إلا التبليغ هى أفضل الأعمال .

٢ ـ على الداعية خاصة والمسلم عامة أن يتجمل بالصبر والعفو عند المقدرة .

٣ ـ على العاقل أن يختار أصدقاءه من أهل الخير والصلاح ويتجنب رفقة السوء .

الجزء الرابع والعشرون — سورة فصلت

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ
ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
قَدِيرٌ (٣٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن
يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ
إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ
وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ (٤١) لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ
خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ
لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣)
وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ
وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ
يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ (٤٤) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ
فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ
بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (٤٥) مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا
فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦)

٤٨١

معانى الكلمات :

خاشعة : يابسة ، جدبة .

اهتزت : تحركت بالنبات .

ربت : انتفخت وعلت بالنبات .

يلحدون : يميلون عن الحق .

عزيز : غالب بقوة حججه .

حميد : محمود من خلقه .

وقر : صمم .

مريب : موقع فى الريبة والقلق .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على قصة الأرض وحياتها .

٢ ـ أن نعلم موقف الملحدين من القرآن العزيز وما يقولونه عنه .

٣ـ أن نعلم سنة الله فى الأمم السابقة فى اختلافها على أنبيائها وما جاءتها به من الهدى والنور.

المحتوى التربوى :

قال الفخر الرازى رحمه الله : « اعلم أن الله تعالى لما ذكر الآيات الأربع الفلكية وهى الليل والنهار والشمس والقمر،أتبعها بذكر آية أرضية ،فقال: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً ﴾ والخشوع التذلل والتصاغر، واستعير هذا اللفظ لحال الأرض حال خلوها عن المطر والنبات ﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ أى تحركت بالنبات ، وربت : انتفخت لأن النبت إذا قرب أن يظهر ارتفعت له الأرض وانتفخت ، ثم تصدعت عن النبات ، ثم قال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ﴾ ويعنى أن القادر على إحياء الأرض بعد موتها هو القادر على إحياء الأجساد بعد موتها . . . ، ثم قال : ﴿ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وهذا هو الدليل الأصلى وتقريره : إن عودة التأليف والتركيب إلى تلك الأجزاء المتفرقة ممكن لذاته ، وعودة الحياة والعقل والقدرة إلى تلك الأجزاء ، وهذا يدل دلالة واضحة على أن حشر الأجساد ممكن لا امتناع فيه البتة ، والله أعلم » .

وقال : « اعلم أنه تعالى لما بين أن الدعوة إلى دين الله تعالى أعظم المناصب وأشرف المراتب، ثم بين أن الدعوة إلى دين الله إنما تحصل بذكر دلائل التوحيد والعدل وصحة البعث والقيامة ، عاد إلى تهديد من ينازع فى تلك الآيات » .

فالذين يكفرون ويعاندون فى آيات الله بألا يرتبوا عليها لازمها العقلى ، أو يرفضوا أن يعتبروها آية تدل على الله وأسمائه وصفاته ، لا يخفون على الله ، فالله تعالى عالم بمن يلحد فى آياته وأسمائه وصفاته ، وسيجزيه على ذلك بالعقوبة والنكال ، ففيه تهديد شديد ، ووعيد أكيد ، وهل يستوى من يلقى فى النار مع من كان آمنا مطمئنا يوم القيامة ، هل يستوى الكافر مع المؤمن ؟ لا يستويان ، ثم قال تعالى تهديداً للكفرة : ﴿ ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ ﴾ من خير وشر ، إنه سبحانه عالم بكم وبصير بأعمالكم فيحاسبكم عليه .

ويستطرد السياق إلى الذين يكفرون بآيات الله القرآنية ، والقرآن كتاب عزيز قوى منيع الجانب ، لا يدخل عليه الباطل من قريب ولا من بعيد ، والنص يتحدث عن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم ، ولا يذكر ماذا هم ، ولا ماذا سيقع لهم ، كأنما ليقال : إن فعلتهم لا يوجد وصف ينطبق عليها ويكافئها لشدة بشاعتها ، لذلك يترك النص خبر ﴿ إنَّ ﴾ لا يأتى به ويمضى فى وصف الذكر الذى كفروا لتفظيع الفعلة وتبشيعها ، ولما بالغ فى تهديد الذين يلحدون فى آيات القرآن أتبعه ببيان تعظيم القرآن ، فقال : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴾ ، والعزيز له معينان : **أحدهما** : الغالب القاهر. **والثانى** : الذى لا يوجد نظيره ، أما كون القرآن عزيزاً بمعنى كونه غالبا ، فالأمر كذلك لأن الأولين والآخرين عجزوا عن معارضته .

ثم قال : ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ قال الفخر : « وفيه وجوه : **الأول** : لا تكذبه الكتب المتقدمة كالتوراة والإنجيل والزبور ، ولا يجىء كتاب من بعده يكذبه . **الثانى** : ما حكم القرآن بكونه حقا لا يصير باطلا ، وما حكم بكونه باطلا لا يصير حقا . **الثالث** : معناه أنه محفوظ من أن ينقص منه فيأتيه الباطل من بين يديه، أو يزاد فيه فيأتيه الباطل من خلفه .. **الرابع** : يحتمل أن يكون المراد أنه لا يوجد كتاب فى المستقبل كتاب يمكن جعله معارضا له ، ولم يوجد فيما تقدم كتاب يصلح جعله معارضا له . **الخامس** ... المقصود أن الباطل لا يتطرق إليه ، ولا يجد إليه سبيلا من جهة من الجهات حتى يتصل إليه » .

وهذا الكتاب منزل من عند الحكيم الحميد سبحانه ، والحكمة ظاهرة فى بنائه ، وفى توجيهه ، وفى طريقة نزوله ، وفى علاجه للقلب البشرى من أقصر طريق ، والله الذى نزله خليق بالحمد ، وفى القرآن ما يستجيش القلب محمده لحمده الكثير .

هذا ولما هدد الله تعالى الملحدين فى آيات الله ، ثم بين شرف آيات الله ، وعلو درجة كتاب الله رجع إلى أمر رسول الله ﷺ بأن يصبر على أذى قومه ، وألا يضيق قلبه بسبب ما حكاه عنهم فى أول السورة، ويربط السياق بين القرآن وسائر الوحى قبله ، وبين رسول الله ﷺ وسائر الرسل

قبله ، فهو واحد ، ورسالة واحدة ، وعقيدة واحدة ، وإنه كذلك استقبال واحد من البشرية ، وتكذيب واحد ، واعتراضات واحدة .

يقول صاحب الظلال : « أى شعور بالأنس ، والقوة ، والصبر ، والتصميم ، توجيه هذه الحقيقة لأصحاب الدعوة السالكين فى طريق سار فيها من قبل نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وإخوانهم جميعا صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ؟ وأى شعور بالكرامة والاعتزاز والاستعلاء على مصاعب الطريق وعثراتها وأشواكها وعقباتها ، وصاحب الدعوة يمضى وهو يشعر أن أسلافه فى هذا الطريق ، هم تلك العصبة المختارة من بنى البشر أجمعين ؟ ... ومما قيل للرسل وقيل لمحمد ﷺ خاتم الرسل ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ذلك كى تستقيم نفس المؤمن وتتوازن ، فيطمع فى رحمة الله ومغفرته فلا ييأس منها أبداً ، ويحذر عقاب الله ويخشاه فلا يغفل عنه أبداً » .

ثم لما ذكر تعالى القرآن وفصاحته وبلاغته وإحكامه فى لفظه ومعناه ، وأنه مع هذا لم يؤمن به المشركون مما يدل على أن كفرهم به كفر عناد وتعنّت ، بين فيها يأتى أنه لو أنزل هذا القرآن بلغة العجم ؛ لقالوا على وجه التعنت ما سيقصه علينا ، فهم فى كل حال متعنتون معاندون ، ولو جعلنا القرآن بلغة العجم ، وهو مع ذلك ظاهر الإعجاز ، فاجتمع له أن يكون كتابا أعجميا معجزاً نزل على إنسان عربى ، لقالوا مع هذا تعنتا وعناداً : لولا فصلت آياته ، أقرآن أعجمى ومخاطب عربى ؟ فآيات الله على أى طريقة جاءتهم وجدوا فيها مطعنا لأنهم غير طالعين للحق ، فقل : إن القرآن للذين آمنوا إرشاد إلى الحق ، وشفاء لما فى الصدور من الشك ، إذ الشك مرض ، والذين لا يؤمنون فى آذانهم ثقل وصمم،والقرآن عليهم عمى لا يهتدون إلى ما فيه من البينات ، فإنه لعزته يأبى أن يصل إلى قلب كافر ، ومن عزته أنه لا يبقى فى قلب إذا لم يعطه حقه من العناية والرعاية ، ولعدم قبول الكافرين وانتفاعهم كأنهم ينادون إلى الإيمان بالقرآن من حيث لا يسمعون لبعد المسافة ، ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه فقال بعضهم هو حق وقال بعضهم هو باطل كما اختلف قومك فى كتابك ، ولولا كلمة سبقت من ربك بتأخير العذاب لأهلكهم فلولا القيامة لقضى بينهم فى الدنيا ، والكفار لفى شك من القرآن شديد ، ومن عمل صالحا فلنفسه نفع ، ومن أساء فإنه يضر نفسه ، وما ربك بمعذب غير المسىء ولا هو بظلام لأحد من العبيد .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ التهديد الشديد لمن يحرف آيات الله ويؤولها على غير المراد منها .

٢ ـ القرآن محفوظ بعناية الله ، وهو دواء وشفاء لأهل الإيمان .

٣ ـ المستقيم ينفع نفسه ، والملحد يضرها ، والله عز وجل حكم عدل .

إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٤﴾

معانى الكلمات :

أكمامها : أوعيتها وأغلفتها .

آذناك : أعلمناك بالحقيقة .

ضل : غاب .

محيص : مفر .

يسأم : يمل .

يؤوس قنوط : عظيم اليأس ، فاقد الأمل .

نأى بجانبه : تباعد عن الشكر بكلِّيَّته .

عريض : كثير مستمر .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أمور الغيب من علم الساعة وما تخفيه الأكمام من ثمرات وما تخفيه الأرحام ترد إلى الله وحده .

٢ ـ أن نتعرف على مشهد من مشاهد الخزى للكافرين يوم القيامة .

٣ ـ أن نعرف بعض أسرار النفس البشرية ، وأنه سبحانه له فى كل جيل آيات تظهر له .

المحتوى التربوى :

يقرر السياق أن أمر الساعة وعلمها إلى الله وحده ، ويصور علم الله فى بعض مجالاته صورة موحية تمس أعمال القلوب ، وذلك فى الطريق إلى عرض مشهد من مشاهد القيامة يسأل فيه المشركون ويجيبون ، والساعة غيب غائر فى ضمير المجهو ، والثمرات فى أكمامها سر غير منظور، والحمل فى الأرحام غيب كذلك مستور ، وكلها فى علم الله، وعلم الله بها محيط ، ويذهب القلب يتتبع الثمرات فى أكمامها ، والأجنة فى أرحامها ، يذهب فى جنبات الأرض كلها يرقب الأكمام التى لا تحصى ، ويتصور الأجنة التى لا يحصرها خيال ، وترتسم فى الضمير صورة لعلم الله بقدر ما يطيق الضمير البشرى أن يتصور من الحقيقة التى ليس لها حدود .

ويتصور القطيع الضال من البشر ، واقفا أمام هذا العلم الذى لا يند عنه خاف ولا مستور ، هنا فى هذا اليوم الذى لا يجدى فيه جدال ولا تحريف للكلم ولا محال ، فماذا هم قائلون ؟ قالوا : أعلمناك أن ليس منا اليوم من يشهد أنك لك شريك ، إنك علمت يارب من قلوبنا الآن أنا لا نشهد بنفس الشهادة الباطلة ، وما منا أحد اليوم يشهد بأن لك شريكا ، وما منا إلا من هو موحد لك ، وضل عنهم ما كانوا يعبدون من قبل ، ذهبوا عنهم فلم ينفعوهم ، وأيقنوا ما لهم من مهرب ، ولا محيد لهم من عذاب الله ، ما عادوا يعرفون شيئا عن دعواهم السابقة ، ووقع فى نفوسهم أن ليس لهم مخرج مما هم فيه وتلك أمارة الكرب المذهل ، الذى ينسى الإنسان ماضيه كله ، فلا يذكر إلا ما هو فيه .

ذلك هو اليوم الذى لا يحتاطون له ولا يحترسون منه مع شدة حرص الإنسان على الخير ، وجزعه من الضر ، وهنا يصور لهم نفوسهم عارية من كل رداء ، مكشوفة من كل ستار عاطلة من كل تمويه ، والتعبير يرسم صورة دقيقة صادقة للنفس البشرية ، التى لا تهتدى بهدى الله ، فتستقيم على طريق .. يصور تقلبها وضعفها ، ومراءها ، وحبها للخير ، وجحودها للنعمة ، واغترارها بالسراء وجزعها من الضراء ، فهذا الإنسان لا يسأم من دعاء الخير فهو ملح فيه مكرر له ، يطلب الخير لنفسه ولا يمل طلبه ، وإن مسه الشر مجرد مس ، فقد الأمل والرجاء ، وظن أن لا مخرج له ولا فرج ، وتقطعت به الأسباب ، وضاق صدره وكبر همه ؛ ويئس من رحمة الله وقنط من رعايته ، ذلك أن ثقته بربه قليلة ، ورباطه به ضعيف .

وهذا الإنسان إذا أذاقه الله منه رحمة بعد ذلك الضر ، استخفته النعمة فنسى الشكر ، واستطاره الرخاء فغفل عن مصدره ، وقال هذا لى نلته باستحقاقى وهو دائم علىّ ، ونسى الآخرة واستبعد أن تكون، يكفر بقيام الساعة لأجل أنه خول نعمة يبطر ويفخر ويكفر، ويقول: كان ثمة ميعاد فليحسن إلىَّ ربى فى هذه الدار بتمنى على الله مع إساءته العمل وعدم اليقين وانتفخ فى عين نفسه فراح يتألى على الله ، ويحسب لنفسه مقاما عنده ليس له ، وهو ينكر الآخرة فيكفر بالله ، ومع هذا يظن أنه لو رجع إليه كانت له وجاهته عنده .

وهذا الإنسان إذا أنعم الله عليه : استعظم وطغى ، وأعرض ونأى بجانبه ، فأما إذا مسه الشر فيتخاذل ويتهاوى ، ويصغر ويتضاءل ، ويتضرع ولا يمل الضراعة فهو يؤوس قنوط القلب ذو دعاء عريض باللسان .

وأمام هذه النفس العارية من كل رداء المكشوفة من كل ستار ، يسألهم : فماذا أنتم صانعون إن كان هذا الذى تكذبون به من عند الله ، وكان هذا الوعيد حقا ، وكنتم تعرضون أنفسكم لعاقبة التكذيب والشقاق ، إنه احتمال يستحق الاحتياط ، فماذا أخذوا لأنفسهم من وسائل الاحتياط ؟ ! ويدعهم بعدئذ يفكرون ويحسبون .

ثم يتجه السياق إلى الكون العريض ، يكشف عن بعض ما قدر فيه ـ وفى ذوات أنفسهم ـ من مقادير .

يقول صاحب الظلال : « إنه وعد الله لعباده ـ بنى الإنسان ـ أن يطلعهم على شىء من خفايا هذا الكون ، ومن خفايا أنفسهم على السواء ، وعدهم أن يريهم آياته فى الآفاق وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق ، هذا الدين وهذا الكتاب ، وهذا المنهج ، وهذا القول الذى يقوله لهم ، ومن أصدق من الله حديثا ؟

ولقد صدقهم الله وعده ، فكشف لهم عن آياته فى الآفاق فى خلال القرون الأربعة عشر التى تلت هذا الوعد؛ وكشف لهم عن آياته فى أنفسهم، وما يزال يكشف لهم فى كل يوم عن جديد ...

وينظر الإنسان فيرى البشر قد كشفوا كثيراً جدا منذ ذلك الحين ، فقد تفتحت لهم الآفاق ، وتفتحت لهم مغاليق النفوس بالقدر الذى شاءه الله ، لقد عرفوا أشياء كثيرة لو أدركوا كيف عرفوها وشكروا لكان لهم فيها خير كثير ... ولم تكن فتوح العلم والمعرفة فى أغوار النفس بأقل منها فى جسم الكون فقد عرفوا عن الجسم البشرى وتركيبه ووظائفه وأمراضه ، وغذائه وتمثيله، وعرفوا عن أسرار عمله وحركته ، يكشف عن خوارق لا يصنعها إلا الله .

وعرفوا عن النفس البشرية شيئا .. إنه لا يبلغ ما عرفوه عن الجسم ؛ لأن العناية كانت متجهة بشدة إلى مادة هذا الإنسان وآلية جسمه أكثر مما كانت متجهة إلى عقله وروحه ، ولكن أشياء قد عرفت تشير إلى فتوح ستجىء ، وما يزال الإنسان فى الطريق ، ووعد الله ما يزال قائما : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ .

وهذا الموعود من إظهار آيات الله فى الآفاق وفى أنفسهم سيرونه ويشاهدونه ، فيتبينون عند ذلك أن القرآن تنزيل عالم الغيب الذى هو على كل شىء شهيد ، وهو الذى أعطى وعده عن علم وشهود ، ويفصح السياق عن علة الكفر الكبرى فإن كل سوء فى المواقف والأقوال أثر عن الكفر باليوم الآخر ، أو الشك فيه ، أو الغفلة عنه ، ومن ثم يذكر التهديد ، فالمخلوقات كلها تحت قهره سبحانه وفى قبضته ، وتحت طى علمه ، وهو المتصرف فيها كلها بحكمه ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وهو عالم بجمل الأشياء وتفاصيلها ، وظواهرها وبواطنها ، بكل شىء محيط .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ أن نؤمن بالغيب الذى علمه عند الله تعالى .

٢ ـ ذم اليأس والقنوط والكفر للنعم ونسيان المنعم .

٣ ـ الحرص على تأمل ما فى الآفاق والأنفس ففيهما من دلائل القدرة الإلهية ما يزيد اليقين .


سورة الشورى

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾

٤٨٣

سورة الشورى

معانى الكلمات :

يتفطرن : يتشققن من عظمته تعالى .

أولياء : معبودات يزعمون أنها تنصرهم .

حفيظ : رقيب محاسب .

بوكيل : بموكول إليك أمرهم .

أم القرى : مكة أى أهلها .

يوم الجمع : يوم القيامة لاجتماع الخلائق فيه .

وإليه أنيب : إليه أرجع فى كل الأمور .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على وحدة الوحى بين الأنبياء جميعا وحقيقة الرسالة .

٢ ـ أن نعلم صفة الكون وحاله تجاه قضية الإيمان بالمالك الواحد .

٣ ـ أن نعرف صورة المناكيد الذين يتخذون من دون الله أولياء ، ونؤمن أنه لا ضير فى انحراف المنحرفين .

المحتوى التربوى :

هذه السورة تعالج قضية العقيدة كسائر السور المكية ؛ ولكنها تركز بصفة خاصة على حقيقة الوحى والرسالة ، حتى ليصح أن يقال : إنها هى المحور الرئيس الذى ترتبط به السورة كلها ، وتأتى سائر الموضوعات فيها تبعا لتلك الحقيقة الرئيسية فيها .

وقد سبق الحديث عن الأحرف المقطعة فى أوائل السور بما فيه الكفاية ، وهى تذكر هنا فى مطلع السورة ، ثم يذكر السياق أن ما تضمنته هذه السورة من المعانى قد أوحى الله إليك مثله فى غيرها من السور ، وأوحاه إلى من قبلك يا محمد ﷺ من الرسل عليهم السلام ، وبهذه الطريقة يكون الوحى إليك وإلى الذين من قبلك ، فهى كلمات وألفاظ وعبارات مصوغة من الأحرف

التى يعرفها الناس ، ويفهمونها ويدركون معانيها ، ولكنهم لا يملكون أن يصوغوا مثلها مما بين أيديهم من أحرف يعرفونها .

ومن الناحية الأخرى تتقرر وحدة الوحى ، وحدة مصدره فالموحى هو الله العزيز الحكيم ، والموحى إليهم هم الرسل على مدار الزمان ، والوحى واحد فى جوهره على اختلاف الرسل والزمان ، إنها قصة بعيدة البداية وسلسلة كثيرة الحلقات ، ومنهج ثابت الأصول على تعدد الفروع .

يقول صاحب الظلال : « وهذه الحقيقة ـ على هذا النحو ـ حين تستقر فى ضمائر المؤمنين تشعرهم بأصالة ما هم عليه وثباته ، ووحدة مصدره وطريقه ، وتشدهم إلى مصدر هذا الوحى ﴿ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ كما تشعرهم بالقرابة بينهم وبين المؤمنين أتباع الوحى فى كل زمان ومكان ، فهذه أسرتهم تضرب فى بطون التاريخ وتمتد فى جذورها فى شعاب الزمن ، وتتصل كلها بالله فى النهاية فيلتقون فيه جميعا ، وهو العزيز القوى القادر الحكيم الذى يوحى لمن يشاء بما يشاء وفق حكمة وتدبير ، فأنى يصرفون عن هذا المنهج الإلهى الواحد الثابت إلى السبل المتفرقة التى لا تؤدى إلى الله ، ولا يعرف لها مصدر ، ولا تستقيم على اتجاه قاصد قويم ؟ » .

وبعد أن بين الله عز وجل أن الذى أوحى إلى محمد ﷺ وإلى الرسل قبله هو الله العزيز الحكيم،بين أنه المالك الوحيد لما فى السموات وما فى الأرض ، وأنه وحده العلى العظيم ، فالجميع عبيد له وملك له ، تحت قهره وتصريفه .

ثم يعرض السياق مظهراً لخلوص الملكية لله فى الكون ، وللعلو والعظمة كذلك ، يتمثل فى حركة السموات تكاد تنفطر من روعة العظمة التى تستشعرها لربها ، ومن زيغ بعض من الأرض عنها ، كما يتمثل فى حركة الملائكة يسبحون بحمد ربهم ، ويستغفرون لأهل الأرض من انحرافهم وتطاولهم ، خوفا عليهم من السخط ، أو يوحدون الله وينزهونه عما لا يجوز عليه من الصفات ، حامدين له على ما أولاهم من ألطافه ، مستعجبين مما رأوا من تعرض المشركين لسخط الله تعالى ، ويستغفرون لمؤمنى أهل الأرض الذين تبرؤوا من تلك الكلمة ، أو يطلبون إلى ربهم أن يحلم عن أهل الأرض ولا يعاجلهم بالعقاب ، ويكون الإعلام من الله عز وجل أنه يستجيب لدعاء الملائكة فيغفر للمؤمنين ويرحمهم .

أما المشركون الذين جعلوا لله شركاء وأنداداً ، فالله شهيد على أعمالهم يحصيها ويعدها عدًّا وسيجزيهم بها أوفر الجزاء والنبى ﷺ والمؤمنون معه معفون من التفكير فى شأنهم فقد كفاهم الله هذا الاهتمام .

ثم ذكر سبحانه منته على رسوله وعلى الناس، حيث أنزل قرآنا عربيا بين الألفاظ والمعانى ؛ لتنذر مكة ومن حولها من سائر البلاد شرقا وغربا ، وتنذر الناس يوم الجمع الذى يجمع الله به

الأولين والآخرين ، وتخبرهم أنه لا ريب فيه ، وأن الخلق ينقسمون فيه فريقين ؛ فريقا فى الجنة وهم الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين ، وفريقًا فى السعير وهم أصناف الكفرة والمكذبين .

ولو شاء الله لخلق البشر خلقة أخرى توحد سلوكهم ، فتوحد مصيرهم ، إما إلى جنة وإما إلى نار ، ولكنه سبحانه خلق هذا الإنسان لوظيفة ، خلقه للخلافة فى هذه الأرض وجعل من مقتضيات هذه الخلافة على النحو الذى أرادها ، أن تكون للإنسان استعدادات يجنح بها ومعها فريق إلى الهدى والنور والعمل الصالح ، ويجنح بها ومعها فريق إلى الضلال والظلام والعمل السيئ ، وينتهى كل فريق إلى النهاية المقررة فيكرم من يشاء بالإسلام ، والكافرون ما لهم من شافع ولا دافع .

وإذا نفى الله عز وجل أن يكون للظالمين ولى أو نصير يوم القيامة ، يبين أن الكافرين قد اتخذوا من دونه أولياء ، بل اتخذوا من دونه شركاء ، وهو استفهام إنكارى ، فإن أرادوا أولياء بحق فالله هو الولى بالحق الذى لا تنبغى العبادة إلا له وحده ، وهو الحقيق بأن يتخذ وليا دون من لا يقدر على شىء . ويعود السياق إلى الحقيقة الأولى لبيان الجهة التى يرجع إليها عند كل اختلاف ، وهى هذا الوحى الذى جاء من عند الله يتضمن حكم الله كى لا يكون للهوى المتقلب أثر فى الحياة بعد ذلك المنهج الإلهى القويم ، فمهما اختلفتم فيه من الأمور ، فالحكم لله هو الحاكم فيه بكتابه وسنة نبيه ﷺ وذلكم الحاكم فى كل شىء الله ربى إليه فوضت كل أمورى ، وإليه أرجع فى كل الأمور .

قال صاحب الظلال : « واستقرار هذه الحقيقة فى ضمير المؤمن ينير له الطريق ويحدد معالمه ، فلا يتلفت هنا أو هناك ، ويسكب فيه الطمأنينة إلى طريقه ، والثقة بمواقع خطواته ... ويشعره أن الله راعيه وحاميه ومسدد خطاه فى هذا الاتجاه النبى المهدى سالك هذا الطريق إلى الله واستقرار هذه الحقيقة فى ضمير المؤمن يرفع من شعوره بمنهجه وطريقه ، فلا يجد أن هناك منهجاً آخر أو طريقا يصح أن يتلفت إليه ، ولا يجد أن هنالك حكما غير قول ، وحكمه يرجع عند الاختلاف إليه ، والنبى المهدى ينيب إلى ربه الذى شرع هذا المنهج وحكم هذا الحكم » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ - وحدة الوحى بين سائر الأنبياء إذ هى تدور على التوحيد والآخرة والحساب .

٢ - يوم القيامة يكون فريق فى الجنة وفريق فى السعير ، وإعداد زاد الجنة مطلوب .

٣ - تفرق الناس فى أمر الدين مخالف لوصية الله تعالى ، والتفرق لا يكون إلا بغيا وظلما وحسداً .

فَاطِرُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا
وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ
وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ
يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢)
۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا
إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ
وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ اللَّهُ
يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ (١٣) وَمَا
تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ
أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١٤)
فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ ۖ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ۖ
وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ
بَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ۖ
لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥)

الحزب ٤٩

معانى الكلمات :

فاطر : خالق ومبدع ومخترع .

يذرؤكم : يجعلكم كثيرين منتشرين .

أزواجا : أصنافاً .

مقاليد : مفاتيح أو خزائن .

يبسط : يوسع .

يقدر : يضيق .

يجتبى : يختار .

بغيا : عداوة أو طلبا للدنيا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على بعض الأدلة على أن الله تعالى هو الإله الحق .

٢ ـ أن نؤمن بأن دين الله واحد والرسل جميعا قد أتت بالإسلام .

٣ ـ أن نعلم حرمة الاختلاف فى دين الله ومرد هذا الاختلاف .

المحتوى التربوى :

وصف الله عز وجل ذاته بما يدلل به على أنه وحده الحكم ، وأنه وحده الذى يجب التوكل عليه والإنابة إليه ، فالله منزل ذلك القرآن ليكون حكمه الفصل فيما يختلفون فيه من شىء وهو مدبر السموات والأرض ، والناموس الذى يحكم السماء والأرض ؛ هو حكمه الفصل فى كل ما يختص بهما من أمر وشؤون الحياة والعباد ، إن هى إلا طرف من أمر السموات والأرض فحكمه فيها هو الحكم الذى ينسق بين حياة العباد وحياة هذا الكون العريض ، ليعيشوا فى سلام مع الكون الذى يحيط بهم .

والله تعالى الذى يجب أن ترجعوا إلى حكمه هو الذى نظم لكم حياتكم وجعل لكم من أنفسكم أزواجا ، وهو أعلم بما يصلح لها وما تصلح به وتستقيم ، وهو الذى أجرى حياتكم وفق قاعدة الخلق التى اختارها للأحياء جميعا، وقد خلق للأنعام من أنفسها أزواجا ، والله سبحانه يكثركم بهذا التدبير حتى كان بين ذكورهم وإناثهم التوالد والتناسل ، والله سبحانه ليس يشبهه ولا يماثله شىء من مخلوقاته ، لا فى ذاته ولا فى صفاته ، ولا فى أفعاله ؛ لأن أسماءه كلها حسنى ، وصفاته صفات كمال وعظمة ، وأفعاله تعالى أوجد بها المخلوقات العظيمة من غير مشارك، فليس كمثله شىء لانفراده وتوحده بالكمال من كل وجه ، وهو السميع لكل الأصوات باختلاف اللغات ، على تفنن الحاجات ، البصير الذى يرى دبيب النملة السوداء فى الليلة الظلماء على الصخرة الصماء ، ويرى سريان القوت على أعضاء الحيوانات الصغيرة جداً ، وسريان الماء فى الأعضاء الدقيقة ، وهذه الآية ونحوها ، دليل لمذهب أهل السنة والجماعة من إثبات الصفات ، ونفى مماثلة المخلوقات .

والله عز وجل ـ له ملك السموات والأرض ، وبيده مفاتيح الرحمة والأرزاق ، والنعم الظاهرة والباطنة ، فكل الخلق مفتقرون إلى الله ، فى جلب مصالحهم ، ودفع المضار عنهم فى كل الأحوال ، ليس بيد أحد من الأمر شىء ،والله تعالى هو المعطى المانع ، الضار النافع ، الذى ما بالعباد من نعمة إلا منه ولا يدفع الشر إلا هو ، وهو يوسع على من يشاء من عباده ، ويضيق على من يشاء ، وله الحكمة والعدل التام ، فهو يعطى بعلم ويمنع بعلم .

ويقرر السياق حقيقة الأصل الواحد ، والنشأة الضاربة فى أصول الزمان ، ويضيف إليها لمحة لطيفة الوقع فى حس المؤمن ، وهو ينظر إلى سلفه فى الطريق الممتدة من بعيد ، فإذا هم على التتابع هؤلاء الكرام : نوح ... إبراهيم موسى وعيسى ، محمد ، صلوات الله وسلامه عليهم ، ويستشعر أنه امتداد لهؤلاء الكرام وأنه على دربهم يسير ، إنه يستروح السير فى الطريق ، مهما يجد فيه من شوك ونصب ، وحرمان من أعراض كثيرة ، وهو يرفقه هذا الموكب الكريم على الله ، الكريم على الكون كله منذ فجر التاريخ .

يقول صاحب الظلال : « إنه السلام العميق بين المؤمنين بدين الله الواحد ، السائرين على شرعه الثابت ، وانتفاء الخلاف والشقاق ، والشعور بالقربى الوثيقة ، التى تدعو إلى التعاون والتفاهم ، ووصل الحاضر بالماضى ، والماضى بالحاضر ، والسير جملة فى الطريق ، وإذا كان الذى شرعه الله من الدين للمسلمين المؤمنين بمحمد ، هو ما وصى به نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى ففيم يتقاتل أتباع موسى وأتباع عيسى؟وفيم يتقاتل أصحاب المذاهب المختلفة من أتباع عيسى ، وفيم يتقاتل أتباع موسى وعيسى مع أتباع محمد ؟ ... ولم لا يتضام الجميع ليقفوا تحت الراية الواحدة التى يحملها رسولهم الأخير ؟ والوصية الواحدة الصادرة للجميع أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه فيقيموا الدين ويقوموا بتكاليفه ،ولا ينحرفوا عنه ولا يلتووا به ، ويقفوا تحت رايته

صفا وهى راية واحدة ، رفعها على التوالى نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ـ صلوات الله عليهم ـ حتى انتهت إلى محمد ﷺ فى العهد الأخير » .

ويقرر السياق أن ما تدعو إليه من إقامة الإسلام والوحدة فيه وبه عظم على المشركين وشق عليهم ،و الله تعالى يجتلب ويجمع إليه بالتوفيق والتسديد من يشاء ، وهو الذى يقدر الهداية لمن يستحقها ، ويكتب الضلالة على من آثرها على طريقة الرشد ، وقد لخص الله عز وجل ـ فى هذه الآية مضمون شريعته فى كل العصور ، وهى إقامة دينه، والاجتماع على ذلك ، فدين الله شريعة وجماعة . ولما أمر تعالى باجتماع المسلمين على دينهم ، ونهاهم عن التفرق ، أخبرهم أنكم لا تغتروا بما أنزل الله عليكم من الكتاب ، فإن أهل الكتاب لم يتفرقوا حتى أنزل الله عليهم الكتاب الموجب للاجتماع ، ففعلوا ضد ما يأمر به كتابهم وذلك كله بغيا وعدوانا منهم ، فإنهم تباغضوا وتحاسدوا ، وحصلت بينهم المشاحنة والعداوة ، موضع الاختلاف ، فاحذروا أيها المسلمون أن تكونوا مثلهم ، ولولا الكلمة السابقة من الله تعالى بإنظار بإقامة حسابهم إلى يوم المعاد ، لعجل عليهم العقوبة فى الدنيا سريعا ، وإن الذين ورثوا الكتاب من بعد جيل الخلافة ليسوا على يقين من أمرهم وإيمانهم ، وإنما هم مقلدون لآبائهم وأسلافهم بلا دليل ولا برهان وهم فى حيرة من أمرهم وشك مريب وشقاق بعيد .

ولأجل ذلك التفرق ، ولما حدث بسببه من تشعب الكفر شعباً ، فللذى أوحينا إليك من الدين الذى وصينا به جميع المرسلين قبلك ، فادع إلى دين الله والاجتماع عليه ، واستقم على أمر الله دون انحراف ولا تتبع أهواءهم المختلفة الباطلة من الرغبة عن دين الله عز وجل والتفرق عنه ، والاجتماع على غيره ، وقل : صدقت بجميع الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء ، لا نفرق بين أحد منهم ، وأمرت لأعدل بينكم فى الحكم كما أمرنى الله ، فهو المعبود لا إله غيره ، فنحن نقر بذلك اختياراً ، وأنتم إن لم تفعلوا اختياراً فله يسجد من فى العالمين طوعا وإجباراً ، ونحن برآء منكم ، وإنا لا نؤاخذ بأعمالكم ، وأنتم لا تؤاخذون بأعمالنا ، ولا مجادلة بيننا وبينكم لأن الحق قد ظهر وصرتم محجوجين به ، ولم يبق للجدال والمنازعة محل ، والله يجمع بيننا يوم القيامة ، وإليه المرجع لفصل القضاء ، فيفصل بيننا وينتقم لنا منكم .

قال ابن كثير : « اشتملت هذه الآية على عشر كلمات مستقلات ، كل منها منفصلة عن التى قبلها ، حكم برأسها، قالوا : ولا نظير لها سوى آية الكرسى، فإنها أيضا عشرة فصول كهذه).

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ شعار المسلم : النظر للحق لا الخلق ، والدعوة إلى الحق وعدم الانحراف عنه .

٢ ـ من حق الإنسان أن يناقش وأن يحاول إقناع الآخرين برأية .

٣ ـ حرمة الفرقة فى الدين ، وشعار المسلم لمن حوله: أنت أخى فى الله .

الجزء الخامس والعشرون — سورة الشورى

وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ
دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ
(١٦) اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ
لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ
أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (١٨)
اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ
(١٩) مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ
كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ
نَصِيبٍ (٢٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ
مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ
وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢١) تَرَى الظَّالِمِينَ
مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ
لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٢٢)

٤٨٥

معانى الكلمات :

يحاجون : يجادلون .

داحضة : باطلة زائلة .

الميزان : الشرع الذى توزن على أساسه الأعمال .

مشفقون : خائفون .

يمارون : يجادلون .

لطيف : رفيق .

روضات الجنات:أطيب أماكنها وأنزهها .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على بعض الحكمة فى إنزال الكتاب والميزان .

٢ ـ أن نتبين لطف الله تعالى بعباده .

٣ ـ أن نعلم حال الكافرين وهم ينتظرون عقابهم يوم القيامة .

المحتوى التربوى :

يقرر السياق أنه بعد استجابة العصبة المؤمنة لله هذه الاستجابة يبدو جدل المجادلين فى الله مستنكرا لا يستحق الالتفات ، وتبدو حجتهم باطلة فاشلة ليس لها وزن ولا حساب ، ويتم الفصل فى أمرهم ، وتركهم لوعيد الله الشديد ، ومن تكون حجته باطلة مغلوبة عند ربه فلا حجة له ولا سلطان، ووراء الهزيمة والبطلان فى الأرض، الغضب والعذاب الشديد فى الآخرة ، وهو الجزاء المناسب على اللجاج بالباطل بعد استجابة القلوب والجدل المغرض بعد وضوح الحق الصريح .

ويبدأ السياق فيذكر أن الله أنزل الكتاب بالحق وأنزل العدل ، وجعله حكما فيما يختلف فيه أصحاب العقائد السالفة ، وفيما تختلف فيه آراء الناس وأهواؤهم ، وأقام شرائعه على العدل فى الحكم ، العدل الدقيق كأنه الميزان توزن به القيم ، وتوزن به الحقوق ، وتوزن به الأعمال والتصرفات ، وينتقل من هذه الحقيقة ، حقيقة الكتاب المنزل بالحق والعدل ، إلى ذكر الساعة ، والمناسبة بين هذا وهذه حاضرة ، فالساعة هى موعد الحكم العدل والقول الفصل، و الساعة غيب ، فمن ذا يدرى إن كانت على وشك ، والناس عنها غافلون ، وهى منهم قريب ، وعندما يكون الحساب القائم على الحق والعدل ، الذى لا يهمل فيه شىء ولا يضيع .

ويصور موقف المؤمنين من الساعة وموقف غير المؤمنين ، والذين لا يؤمنون بها لا تحس قلوبهم هولها، ولا تقدر ما ينتظرهم فيها، فلا عجب يستعجلون بها مستهترتين ؛ لأنهم محجوبون لا يدركون ، وأما الذين آمنوا فهم مستيقنون منها ، ومن ثم هم يشفقون ويخافون ، وينتظرونها بوجل وخشية ، وهم يعرفون ما هى حين تكون ، وإنها الحق ، وإنهم ليعلمون أنها الحق ، وبينهم وبين الحق صلة فهم يعرفون ، وقد أوغلوا فى الضلال وأبعدوا فعسير أن يعودوا بعد الضلال البعيد .

وينتقل من الحديث عن الآخرة والإشفاق منها أو الاستهتار بها ، إلى الحديث عن الرزق الذى يتفضل الله به على عباده ، والصلة وثيقة .

يقول صاحب الظلال : « فالله لطيف بعباده يرزق من يشاء ، يرزق الصالح والطالح ، والمؤمن والكافر وهؤلاء البشر أعجز من أن يرزقوا أنفسهم شيئا ، وقد وهبهم الله الحياة ، وكفل لهم أسبابها الأولية ، ومنع رزقه عن الكافر والفاسق والطالح ما استطاعوا أن يرزقوا أنفسهم ولماتوا جوعا وعريا وعطشا ، وعجزاً عن أسباب الحياة الأولى ، ولما تحققت حكمة الله من إحيائهم وإعطائهم الفرصة ليعلموا فى الحياة الدنيا ما يحسب لهم فى الآخرة أو عليهم ، ومن ثم أخرج الرزق من دائرة الصلاح والطلاح والإيمان والكفر ، وعلقه بأسبابه الموصولة بأوضاع الحياة العامة واستعدادات الأفراد الخاصة ، وجعله فتنة وابتلاء يجزى عليها الناس يوم الجزاء . ثم جعل الآخرة حرثا والدنيا حرثا يختار المرء منهما مايشاء ، فمن كان يريد حرث الآخرة عمل فيه ، وزاد له الله فى حرثه ، وأعانه عليه بنيته ، وبارك له فيه بعمله ، وكان له مع حرث الآخرة رزقه المكتوب له فى هذه الأرض لا يحرم منه شيئا ، بل إن هذا الرزق الذى يعطاه فى الأرض ، قد يكون هو بذاته حرث الآخرة بالقياس إليه ، حين يرجو وجه الله فى تثميره وتصريفه والاستمتاع به والإنفاق منه ، ومن كان يريد حرث الدنيا أعطاه الله من عرض الدنيا رزقه المكتوب له لا يحرم منه شيئا ، ولكن لم يكن له فى الآخرة نصيب ، فهو لم يعمل فى حرث الآخرة شيئا ينتظر عليه ذلك النصيب .

وإذ بين الله عز وجل . ميزة كتابه الذى شرعه ، وبين ضرورة العمل به ، وخطأ الانحراف عنه ، فإنه فيما يأتى يناقش زعمين وقضيتين ، قضية السير فى شرع غير شرعه ، وقضية اتهام رسول الله ﷺ بالكذب عليه ، وكل من القضيتين يبدأ مناقشتها بكلمة (أم) ؛ فالقضية الأولى يبين السياق أنهم لا يتبعون ما شرع الله لك من الدين القويم ، بل يتبعون ما شرع لهم شياطينهم من الجن والإنس ؛ من تحريم ما حرموا عليهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، وتحليل أكل الميتة والدم والقمار إلى نحو ذلك من الضلالات والجهالات الباطلة التى كانوا قد اخترعوها فى جاهليتهم من التحليل والتحريم، والعبادات الباطلة، والأموال الفاسدة، والسؤال : أيقبلون ما شرع الله من الدين أم لهم آلهة شرعوا لهم من الدين ما لم يأمر به الله .

ولولا القضاء السابق بتأجيل الجزاء إلى يوم القيامة لعوجلوا بالعقوبة ، وإن المشركين المتبعين غير شرع الله ظالمون ، لهم عذاب أليم فى الآخرة ، وإن أخر عنهم فى دار الدنيا ، ويصور الله لنا حال هؤلاء يوم القيامة، فترى المشركين فى الآخرة خائفين من جزاء كفرهم فى عرصات القيامة، وهو نازل بهم لا محالة أشفقوا أو لم يشفقوا ، والتعبير العجيب يجعل إشفاقهم ما كسبوا فكأنما هو غول مفزع ، وهو هو الذى كسبوه وعملوه بأيديهم وكانوا به فرحين ، ولكنهم اليوم يشفقون منه ويفزعون وهو واقع بهم ، وكأنما هو بذاته انقلب عذابا لا مخلص منه وهو واقع بهم

وفى الصفحة الأخرى نجد المؤمنين الذين كانوا يشفقون من هذا اليوم ويخافون ، نجدهم فى أمن وعافيه ورخاء ، والتعبير كله رخاء يرسم ظلال الرخاء : « فى روضات الجنات ..... ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ ﴾ بلا حدود ولا قيود ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴾ ... ﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ﴾ فهو بشرى حاضرة ، مصداقا للبشرى السالفة ، وظل البشرى هنا هو أنسب الظلال .

قال ابن كثير : « فأين هذا من هذا ؟ أين من هو فى العرصات فى الذل والهوان والخوف المحقق عليه بظلمه ، ممن هو فى روضات الجنات ، فيما يشاء من مآكل ومشارب وملابس ومساكن، ومناظر ومناكح وملاذ، فيما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر؟ ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴾ أى : الفوز العظيم ، والنعمة التامة السابغة الشاملة العامة » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ من جعل همه الآخرة ، وعمل فى الدنيا لنيل ثوابها زاده الله ثوابا ، ومن جعل همه الدنيا حرم من نعيم الآخرة.

٢ ـ بيان لطف الله بعباده فله الحمد وله المنة والشكر .

٣ ـ بيان وجوب إصلاح النيات ، فإن مدار العمل قبولا ورفضا بحسبها .

ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ (٢٣) أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٢٤) وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ (٢٥) وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ (٢٦) ۞ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ (٢٧) وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ (٢٨) وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ (٢٩) وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ (٣٠) وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ (٣١)

معانى الكلمات :

يقترف حسنة : يعمل عملا صالحا .

شكور : عظيم التقدير لثواب الطاعات .

افترى : ادعى وكذب .

بغوا : طغوا .

بقدر : بتقدير وحساب .

قنطوا : يئسوا من نزوله .

وينشر : ويبسط .

بمعجزين : بقادرين على أن تفلتوا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم وجوب التوبة وشروطها وقبول الله تعالى لها .

٢ ـ أن نتعرف على الحكمة فى تقدير الأرزاق وإعطائها بمقادير محددة .

٣ ـ أن نعرف أن المخالفة للقوانين يترتب عليه ضرر يصيب المخالف .

المحتوى التربوى :

يقول تعالى لما ذكر روضات الجنات لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، قرر أن هذا الجزاء حاصل لهم ، كائن لا محالة ، ببشارة الله لهم به ، وعلى مشهد هذا النعيم الرخاء الجميل يلقن الرسول ﷺ أن يقول لهم : إنه لا يطلب منهم أجراً على الهدى الذى ينتهى بهم إلى هذا النعيم ، وينأى بهم عن ذلك العذاب الأليم ، إنما هى مودته لهم ؛ لقرابتهم منه وحسبه ذلك أجراً والمعنى الذى أشرت إليه وهو أنه لا يطلب منهم أجراً ، إنما تدفعه المودة للقربى ـ وقد كانت لرسول الله ﷺ قرابة بكل بطن من بطون قريش ـ ليحاول هدايتهم بما معه من الهدى ، ويحقق الخير لهم إرضاء لتلك المودة التى يحملها لهم ، وهذا أجره وكفى .

يقول صاحب الظلال : « وعلى أية حال فهو يذكرهم - أمام مشهد الروضات والبشريات أنه لا يسألهم على شيء من هذا أجراً ، دون هذا بمراحل يطلب عليه الأدلاء أجراً ضخماً ، ولكنه فضل الله الذى لا يحاسب العباد حساب التجارة ، ولا حساب العدل ، ولكن حساب السماحة وحساب الفضل ، ﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ﴾ وليس مجرد عدم تناول الأجر ، بل إنها الزيادة والفضل (ثم هى بعد هذا كله المغفرة والشكر ، الله يغفر .. ثم الله يشكر ... ويشكر من ؟ يشكر لعباده .. وهو وهبهم التوفيق على الإحسان ... ثم هو يزيد لهم فى الحسنات ، ويغفر لهم السيئات ، ويشكر لهم بعد هذا وذاك ، فيا للفيض الذى يعجز الإنسان عن متابعته ، فضلا على شكره وتوفيقه » .

يقول صاحب الأساس : « بين الله عز وجل - فى هذه الآيات عاقبة المشركين السائرين على غير شرعه ، وبين عاقبة السائرين على شرعه ... (فهى) دعوة للسير على شريعة الله ، ودعوة لترك شريعة غير الله ، وبيان لعاقبة هؤلاء » .

والآن يأتى عرض القضية الثانية ، يأتى على الشبهة الأخيرة ، التى قد يعللون بها موقفهم من ذلك الوحى ، الذى تحدث عن مصدره وعن طبيعته وعن غايته فى الجولات الماضية : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ فهم من ثم لا يصدقونه لأنهم يزعمون أنه لم يوح إليه ، ولم يأته شىء من الله ؟ ولكن هذا قول مردود ، فما كان الله ليدع أحداً يدعى أن الله أوحى إليه ، وهو لم يوح إليه شيئا ، وهو قادر على أن يختم على قلبه ، فلا ينطق بقرآن كهذا ، وأن يكشف الباطل الذى جاء به ويمحوه ، وأن يظهر للحق من ورائه ويثبته ، وما كان ليخفى عليه ما يدور فى خلد محمد ﷺ حتى قبل أن يقوله ، فهى شبهة لا قوام لها ، وزعم لا يقوم على أساس ، ودعوى تخالف المعهود عن علم الله بالسرائر،وعن قدرته على ما يريد، وعن سنته فى إقرار الحق وإزهاق الباطل ، وإذن فهذا الوحى حق ، وقول محمد صدق ، وليس التقول عليه إلا الباطل والظلم والضلال ، وبذلك ينتهى القول - مؤقتاً - فى الوحى .

ويمضى الحديث عن دلائل الإيمان فى الأنفس والآفاق وعن آثار القدرة فيما يحيط بالناس ، وفيما يتعلق مباشرة بحياتهم ومعاشهم ، وفى صفة المؤمنين التى تميز جماعتهم ، فيقول الله تعالى ممتنا على عباده بقبول توبتهم إليه إذا تابوا ورجعوا إليه ، إنه من كرمه وحلمه أنه يعفو ويصفح ويستر ويغفر ، ويعفو عما هو دون الشرك ، فيقبل التوبة فى المستقبل ، ويعفو عن السيئات فى الماضى ، والله تعالى عالم بجميع ما فعلتم وصنعتم وقلتم ، ومع هذا يتوب على من تاب إليه ، ومجيء هذه الآية فى هذا السياق يفيد مطالبة بالسير فى شريعة الله ، ومطالبة بالتوبة عن السير فى غيرها أو فى المعصية.

ويستجيب الله تعالى ـ دعاء المؤمنين العاملين فيعطيهم مطلوبهم ويزيدهم عليه ، أو أن الذين اجتمع لهم الإيمان والعمل الصالح هم الذين يستجيبون الاستجابة الكاملة لخطاب الشارع ، والله ـ عز وجل ـ يكرمهم بالزيادة من فضله فلا يزالون فى ترق ، وما بعد أو أرجح فسياق السورة يفصل فى موضوع الاتباع الكامل والإقامة الكاملة لدين الله ، فمن اجتمع له الإيمان والعمل الصالح فهو المرشح لكمال العمل بالشريعة ، ولإقامة دين الله عز وجل .

والآية تشير إلى أن المؤمنين العاملين هم التوابون إلى الله ـ عز وجل ـ المستجيبون لأمره ، والكافرون لهم فى الآخرة عذاب موجع مؤلم ، وأى عذاب أشد من عذاب النار ، نعوذ بالله منها.

ولما ذكر السياق بسط الله الرزق لمن يشاء ، فإن الآية تأتى معللة لحجب الله التوسعة فى الرزق على كل الخلق ، فهو يعلم أحوالهم فيقدر لهم ما تقتضيه حكمته فيفقر ويغنى ، ويمنع ويعطى ، ويقبض ويبسط ، ولو أغناهم جميعا لبغوا ، ولو أفقرهم لهلكوا ، وما ترى من البسط على من يبغى ، ومن البغى بدون البسط فهو قليل ، ولا شك أن البغى مع الفقر اقل ومع البسط أكثر وأغلب ، فسبحانه يرزقهم من الرزق ما يختاره مما فيه صلاحهم وهو أعلم بذلك . وهو سبحان من بعد يأس الناس من نزول المطر ينزله عليهم فى وقت حاجتهم وفقرهم إليه ويعم برحمته الوجود على أهل ذلك القطر وتلك الناحية ، وهو الذى يتولى عباده بإحسانه ويتصرف بما ينفعهم فى دنياهم وأخراهم وهو المحمود فى جميع ما يقدره ويفعله .

ويبدأ السياق فى ذكر نموذج من آيات الله عز وجل الدال عليه ؛ فمن آياته الدالة على عظمته وقدرته العظيمة وسلطانه القاهر خلق السموات والأرض مع عظمها ، وما ذرأ وفرق فى السموات والأرض من دابة ، وقد يكون فى ذلك إشارة إلى وجود حياة فى كواكب أخرى غير الأرض ، وقد يكون المراد غير ذلك ، والله عز وجل قادر على جمع دواب الأرض والسماء يوم القيامة ، ويتجلى عدل الله ، ويتجلى رحمته بهذا الإنسان الضعيف ، فكل مصيبة تصيبه لها سبب مما كسبت يداه ، ولكن الله لا يؤاخذه بكل ما يقترف ، وهو يعلم ضعفه وما ركب فى فطرته من دوافع تغلبه فى أكثر الأحيان يعفو عن كثير رحمة منه وسماحة ، هذا مع ما يتجلى من ضعف هذا الإنسان فما هو بمعجز فى الأرض ، وما له من دونه من ولى ولا نصير ، فأين يذهب إلا أن يلتجئ إلا إلى الولى والنصير .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ بيان حق القرابة ووجوب المودة فيها ، واحترام قرابة رسول الله ﷺوتقديرها .

٢ ـ بيان وعد الله باستجابة دعاء المؤمنين العاملين للصالحات ، وهم أولياء الله تعالى .

٣ ـ ما من مصيبة تصيب المرء فى نفسه أو ولده أو ماله إلا بذنب ارتكبه .

سُورَةُ الشُّورَى — الجُزْءُ الخَامِسُ وَالعِشْرُونَ

وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ
فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ
﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ
يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ
ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ
يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا
غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ
ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا
وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ
بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ
يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ
﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ
لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾

٤٨٧

معانى الكلمات :

الجوار : السفن الجارية .

كالأعلام : كالجبال الشاهقة .

رواكد : ثابتة ساكنة .

يوبقهن : يهلكهن .

محيص : مهرب .

البغى : الظلم والعدوان .

عزم الأمور : قوة العزيمة .

سبيل : وسيلة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على عظمة الله وبديع صنعه مما ورد فى الآيات .

٢ ـ أن نعلم صفات المؤمنين ونتخلق بأخلاقهم .

٣ ـ أن نعرف فضيلة العفو على الأخوة بين المسلمين وإصلاح ذات بينهم .

المحتوى التربوى :

يقول تعالى : ومن آياته الدالة على قدرته وسلطانه ، تسخيره البحر لتجرى فيه الفلك بأمره ، وهى الجوارى فى البحر كالجبال ، هذه فى البحر كالجبال فى البر .

يقول صاحب الظلال : « والسفن الجوارى فى البحر كالجبال آية أخرى من آيات الله ، آية حاضرة مشهودة ، آية تقوم على آيات كلها من صنع الله دون جدال ـ هذا البحر من أنشأه ؟ مَنْ من البشر أو غيرهم يدعى هذا الادعاء ؟ ومن أودعه خصائصه من كثافة وعمق وسعة حتى يحمل السفن الضخام ؟ وهذه السفن من أنشأ مادتها وأودعها خصائصها فجعلها تطفو على وجه الماء ، وهذه الريح التى تدفع ذلك النوع من السفن التى كانت معلومة وقتها للمخاطبين ـ

وغير الريح من القوى التى سخرت للإنسان فى هذا الزمان من بخار أو ذرة أو ما يشاء الله بعد الآن ـ من جعلها قوة فى هذا الكون تحرك الجوارى فى البحر كالأعلام ؟ » .

وإنها لتركد أحيانا فتمهد هذه الجوارى وتركد كما لو كانت قد فارقتها الحياة ، وفى إجرائهن وفى ركودهن على السواء آيات لكل صبار شكور ، والصبر والشكر كثيراً ما يقترنان فى القرآن ، الصبر على الابتلاء والشكر على النعماء، وهما قوام النفس المؤمنة فى الضراء والسراء ، أو يعصفها فيغرقن بعصفها ، بما كسبوا من الذنوب ، ويعفو عن كثير من الذنوب فلا يجازى عليها ، ويعلم لينتقم الله منهم ، وليعلم الذين يجادلون فى الآيات إبطالها ودفعها ، ما لهم مهرب من عذابه ، ولا محيد لهم عن بأسنا ونقمتنا ، فإنهم مقهورون بقدرتنا .

قال الفخر الرازى : « واعلم أنه تعالى لما ذكر دلائل التوحيد أردفها بالتفسير عن الدنيا وتحقير شأنها ؛ لأن الذى يمنع من قبول الدليل إنما هو الرغبة فى الدنيا بسبب الرياسة وطلب الجاه ، فإذا صغرت الدنيا فى عين الرجل لم يلتفت إليها ، فحينئذ ينتفع بذكر الدلائل ، فقال : ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ وسماه متاعا تنبيها على قلته وحقارته ؛ ولأن الحس شاهد بأن كل ما يتعلق بالدنيا فإنه يكون سريع الانقراض والانقضاء ، ثم قال تعالى : ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ والمعنى أن مطالب الدنيا خسيسة منقرضة ، ونبه على خساستها بتسميتها بالمتاع ، ونبه على انقراضها بأن جعلها من الدنيا ، وأما الآخرة فإنها خير وأبقى ، وصريح العقل يقتضى ترجيح الخير الباقى على الخسيس الفانى ، ثم بين أن هذه الخيرية إنما تحصل لمن كان موصوفا بصفات: **الصفة الأولى** : أن يكون من المؤمنين بدليل قوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ .**الصفة الثانية** : أن يكون من المتوكلين على فضل الله ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ فأما من زعم أن الطاعة توجب الثواب ، فهو متكل على عمل نفسه لا على الله ، فلا يدخل تحت الآية . **الصفة الثالثة** : أن يكونوا مجتنبين لكبائر الإثم والفواحش (كالشرك وقذف المحصنات والفرار من الزحف وغير ذلك من الموبقات ، والفواحش : ما عظم قبحه وفحشه كالزنا واللواط) ...

وقيل : المراد بكبائر الإثم : ما يتعلق بالبدع واستخراج الشبهات ، وبالفواحش ما يتعلق بالقوة الشهوانية ، وبقوله : ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ ما يتعلق بالقوة الغضبية ، وإنما خص الغضب بلفظ الغفران ؛ لأن الغضب على طبع النار واستيلاؤه شديد ومقاومته صعبة ، فلهذا السبب خصه بهذا اللفظ والله أعلم : **الصفة الرابعة** : قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ ﴾ والمراد منه : تمام الانقياد، فإن قالوا : أليس أنه لما جعل الإيمان شرطا فيه فقد دخل فى الإيمان إجابة الله ؟ قلنا : الأقرب عندى أن يحمل هذا على الرضاء بقضاء الله من صميم القلب وألا يكون فى قلبه منازعة فى أمر من الأمور .

ولما ذكر هذا الشرط قال : ﴿ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ والمراد منه إقامة الصلوات الواجبة ؛ لأن هذا هو الشرط فى حصول الثواب ، وأما قوله : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ أى : لا يتفردون برأى ما لم يجتمعوا عليه لا يقدمون عليه . **الصفة الخامسة** : قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ والمعنى أن يقصروا فى الانتصار على ما يجعله الله لهم ولا يتعدونه ... » .

ثم بين الله تعالى حدَّ الانتصار ؛ فيجب إذا قوبلت الإساءة أن تقابل بمثلها من غير زيادة ، ومن عفا عمن أساء إليه وأصلح ما بينه وبينه فعادت المودة وعاد الإخاء فأجره على الله وهو خير له وأبقى من شفاء صدره بعقوبة أخيه الذى أساء إليه ، فالله لا يحب الظالمين فيضاعف الأجر ويجزل المثوبة للمظلوم إذا عفا وأصلح ، وللذى ظلم فانتصر لنفسه وردّ الظلم عنها فهؤلاء لا سبيل لكم إلى أذيتهم وعقوبتهم ، هذا حكم الله وشرعه ، ويبين أن السبيل إلى العقوبة والمؤاخذة هو على الذين يظلمون الناس بالاعتداء عليهم فى أبدانهم أو أعراضهم أو أموالهم ، ويتكبرون فى الأرض ويعلون ويفسدون بالباطل ، أولئك لهم عذاب شديد موجع يوم القيامة ، فمن خصائص المسلمين ألا يلوموا وألا يعاقبوا من انتصر بحق أو بعدما ظلم ، ثم يعود إلى التوازن والاعتدال وضبط النفس والصبر والسماحة فى الحالات الفردية وعند المقدرة على الدفع كما هو مفهوم ، وحين يكون الصبر والسماحة استعلاء لا استخذاء ، وتجملا لا ذلا ، فالصبر والغفران معه مما ينبغى أن يوجبه العاقل على نفسه ولا يترخص فى تركه . وبعد تقرير صفة المؤمنين الذين يدخر الله لهم عنده ما هو خير وأبقى ، يعرض ما فى الصفحة المقابلة صورة الظالمين الضالين ، وما ينتظرهم من ذل وخسران ، فقضاء الله لا يرد ، ومشيئته لا معقب عليها ، فإذا علم الله من حقيقة العبد أنه مستحق للضلال ، فحقت عليه كلمة الله أن يكون من أهل الضلال ، لم يكن له بعد ذلك من ولى يهديه من ضلاله ، أو ينصره من جزاء الضلال الذى قدره الله ، و الذى يعرض منه مشهداً فى بقية الآية .

فالظالمون كانوا طغاه بغاة ، فناسب أن يكون الذل هو مظهرهم البارز فى يوم الجزاء ، إنهم يرون العذاب فيتهاوى كبرياؤهم ، يتساءلون فى انكسار : ﴿ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴾ وفى هذه الصيغة الموحية باليأس مع اللهفة ، والانهيار مع التطلع إلى أى بارقة للخلاص .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ـ دلائل القدرة مبثوثة فى الأرض والسماء ، فعلينا أن نتدبرها فى هذا لندرك عظمة الخالق سبحانه .

٢ـ ثواب الله كبير لمن عفا وأصلح وفوض أمره لله تعالى .

٣ـ العصمة من الضلال والانحراف لا يكون إلا باللجوء إلى الله سبحانه والعيش فى رحابه .

وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾

ثلاثة أرباع الحزب ٤٩

معنى الكلمات :

خاشعين : خاضعين متضائلين .

ينظرون من طرف خفى : يسارقون من شدة الخوف .

نكير : إنكار لذنوبكم أو منكر لعذابكم .

فرح بها : بطر لأجلها .

كفور : شديد الكفر بالنعمة .

يهب : يعطى بلا مقابل .

أو من وراء حجاب : يسمع كلاما من الله دون أن يراه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن الطريق إلى النجاة لا يكون إلا بالإقبال على الله تعالى .

٢ ـ أن نتعرف على أحوال الناس من حيث الإنجاب وحكمة الله تعالى .

٣ ـ أن نعرف صور الوحى المختلفة التى يتعرض لها رسول الله ﷺ .

المحتوى التربوى :

يذكر السياق حال الكافرين وهم يعرضون على النار خاشعين لا من التقوى، ولا من الحياء، ولكن من الذل والهوان ، وهم يعرضون منكسى الأبصار ، لا يرفعون أعينهم من الذل والعار، ينظرون إلى النار خوفا منها ، والذى يحذرون منه واقع بهم لا محالة ، وما هو أعظم فى نفوسهم أجارنا الله من ذلك .

وفى هذا الوقت يبدو أن الذين آمنوا هم سادة الموقف ، فهم ينطقون ويقررون ، أن الخاسرين ذُهب بهم إلى النار فعدموا لذتهم فى دار الأبد ، وخسروا أنفسهم ، وفرق بينهم وبين أحبابهم وأصحابهم وأهاليهم ، وقرابتهم، فخسروهم ، ويجىء التعليق العام على المشهد بيانا لمآل هؤلاء المعروضين على النار ، فهم فى عذاب دائم سرمدى أبدى ، لا خروج لهم منه ، ولا محيد لهم عنه ،

وما كان لهم من أولياء ينقذونهم مما هم فيه من العذاب والنكال ، ومن يضلل الله فليس له طريق إلى النجاة وليس له خلاص .

وفى ظل هذا المشهد يوجه الخطاب إلى المعاندين المكابرين ، ليستجيبوا لربهم قبل أن يفاجئهم مثل هذا المصير فلا يجدون لهم ملجأ يقيهم ، ولا نصيرا ينكر مصيرهم الأليم ، ويوجه الرسول ﷺ إلى التخلى عنهم إذا هم أعرضوا فلم يستجيبوا لهذا النذير ، فما عليه إلا البلاغ ،و ما هو مكلف بهم ولا كفيل ولا حفيظ عليهم .

ثم يكشف عن طبيعة هذا الإنسان الذى يعارض ويعاند ، ويعرض نفسه للأذى والعذاب ، وهو لا يحتمل فى نفسه الأذى ، وهو رقيق الاحتمال ، يستطار بالنعمة ، ويجزع من الشدة ، ويتجاوز حده فيكفر من الضيق ، يجحد ما تقدم من النعم ، ولا يعرف إلا الساعة الراهنة ، فإن أصابته نعمة أشر وبطر ، وإن أصابته محنة يئس وقنط .

ويعقب على هذا بأن نصيب هذا الإنسان من السراء والضراء من العطاء والحرمان كله بيد الله، فما لهذا الإنسان المحب للخير الجزوع من الشر، يبعد عن الله المالك لأمره فى جميع الأحوال ، والذرية مظهر من مظاهر المنح والمنع والعطاء والحرمان ، وهى قريبة من نفس الإنسان ، والنفس شديدة الحساسية بها ، فلمسها من هذا الجانب أقوى وأعمق ، وقد سبق فى السورة حديث عن الرزق بسطه وقبضه ، فهذه تكملة فى الرزق بالذرية ، وهى رزق من عند الله كالمال .

يقول صاحب الظلال : « والتقديم بأن لله ملك السموات والأرض هو التقديم المناسب لكل جزئية بعد ذلك من توابع هذا الملك العام ، وكذلك ذكر : ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ فهى توكيد للإيحاء النفسى المطلوب فى هذا الموضع ، ورد الإنسان المحب للخير ، إلى الله يخلق ما يشاء مما يسر وما يسوء ومن عطاء أو حرمان .

ثم يفصل حالات العطاء والحرمان : فهو يهب لمن يشاء إناثا (وهم كانوا يكرهون الإناث) ويهب لمن يشاء الذكور ، ويهب لمن يشاء أزواجا من هؤلاء وهؤلاء ، ويحرم من يشاء فيجعله عقيما (والعقم يكرهه كل الناس) ، وكل هذه الأحوال خاضعة لمشيئة الله ، لا يتدخل فيها أحد سواه ، وهو يقدرها وفق علمه ، وينفذها بقدرته ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ .

قال النسفى مبينا صلة الآية بما قبلها : « لما ذكر إذاقة الإنسان الرحمة وإصابته بضدها أتبع ذلك أن له تعالى الملك ، وأنه يقسم النعمة والبلاء كيف أراد ، ويهب لعباده من الأولاد ما يشاء ، فيخص بعضا بالإناث وبعضا بالذكور ، وبعضا بالصنفين جميعا ، ويجعل البعض عقيما ، والعقيم التى لا تلد ، وكذلك رجل عقيم إذا كان لا يولد له ، وقدم الإناث أولا على الذكور ؛ لأن سياق الكلام أنه فاعل لما يشاؤه ، لا ما يشاؤه الإنسان ، فكان ذكر الإناث اللاتى من جملة مالا يشاؤه الإنسان أهم ،والأهم واجب التقديم ،وليلى الجنس الذى كانت العرب تعده بلاء، ذكر البلاء ،

ولم أخر الذكور ـ وهم أحقاء بالتقديم والتأخير ، تدارك تأخيرهم ؛ بتعريفهم لأن التعريف تنويه وتشهير ، ثم أعطى بعد ذلك كلا الجنسين حقه من التقديم والتأخير وعرف أن تقديمهن لم يكن لتقدمهن ولكن لمقتضى آخر ، فقال : ﴿ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ﴾ .

وإذ ذكر الله ـ عز وجل ـ أنه أوحى إلى محمد ﷺ ـ والنبيين من قبله ، يعود السياق إلى الحقيقة الأولى التى تدور عليها السورة ، حقيقة الوحى والرسالة ويذكر أنواع الوحى ؛ ليكشف عن طبيعة هذا الاتصال بين الله والمختارين من عباده وفى آية صورة يكون ، ويؤكد أنه قد وقع فعلا إلى الرسول الأخير ﷺ ـ لغاية يريدها الله سبحانه ؛ ليهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

ويقطع هذا النص بأنه ليس من شأن إنسان أن يكلمه الله مواجهة ، إنما يتم كلام الله للبشر بواحدة من ثلاث : ﴿ وَحْيًا ﴾ يلقى فى النفس مباشرة فتعرف أنه من الله ﴿ أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ ﴾ وكما كلم الله موسى عليه السلام ، وحين طلب الرؤية لم يجب إليها ، ولم يطق تجلى الله على الجبل ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ (الأعراف) .. ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا ﴾ وهو الملك « فيوحى بإذنه ما يشاء بالطرق التى وردت عن رسول الله ﷺ :

الأولى : ما كان يلقيه الملك فى روعه وقلبه من غير أن يراه كما قال ﷺ : « إن روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب » .

والثانية : أنه كان ﷺ يتمثل له الملك رجلا ، فيخاطبه حتى يعى عنه ما يقول .

والثالثة : إن كان يأتيه فى مثل صلصلة الجرس وكان أشده عليه ، حتى إن جبينه ليتفصد عرقا فى اليوم الشديد البرد، وحتى إن راحلته لتبرك به إلى الأرض إن كان راكبها ، ولقد جاء الوحى مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فثقلت عليه حتى كادت ترضها .

والرابعة : إنه يرى الملك فى صورته التى خلق عليها فيوحى إليه ما شاء الله أن يوحيه ، وهذا وقع له مرتين كما ذكر الله ذلك فى سورة النجم .

هذه صور الوحى وطرق الاتصال ﴿ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ يوحى من علٍ ، ويوحى بحكمة إلى من يختار » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الملك كله لله وحده يخلق ما يشاء فيه بحكمة ويعطى لمن يشاء من عباده الإناث فقط والذكور فقط أو النوعين معا ، ويجعل من يشاء عقيما .

٢ ـ نعمة النسل من نعم الله وعلينا أن نشكر ربنا على ما رزقنا .

٣ ـ ما يقع من المصائب والكوارث سببه ما نرتكبه من المعاصى والذنوب .

سورة الزخرف — الجزء الخامس والعشرون

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

سورة الزخرف

بسم الله الرحمن الرحيم

حم ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾

٤٨٩

معانى الكلمات :

روحا : قرآنا أو نبوة أو جبريل .

الإيمان : الشرائع التفصيلية التى لا تعلم إلا بالوحى .

صراط مستقيم: دين قويم (دين الإسلام).

أم الكتاب : اللوح المحفوظ أوالعلم الأزلى.

صفحا : إعراضا أو معرضين عنكم .

بطشا : قوة .

مثل الأولين : صفتهم أو قصتهم العجيبة .

سبلا : طرقا تسلكونها أو معايش .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن القرآن نور يستضاء به فى الحياة .

٢ ـ أن نتعرف على ما كانت الدعوة الإسلامية تلاقيه من مصاعب وعقبات .

٣ ـ أن نعرف مظاهر وحدانية الله فى الأرض .

المحتوى التربوى :

يقرر السياق أنه كما أوحينا إلى الرسل من قبلك أو كما وصفنا حالات الوحى ، أوحينا إليك بمثل هذه الطريقة ، وبمثل هذا الاتصال ، فالوحى تم بالطريقة المعهودة ، ولم يكن أمرك بدعا ، أوحينا إليك﴿ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ وفيه حياة ، يبث الحياة ويدفعها ويحركها وينميها فى القلوب وفى الواقع العملى المشهود ، ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ ، هكذا يصور نفس رسول الله ﷺ وهو أعلم بها ، قبل أن تتلقى هذا الوحى .

يقول صاحب الظلال : « وقد سمع رسول الله ﷺ عن الكتاب وسمع عن الإيمان ، وكان معروفا فى الجزيرة العربية أن هناك أهل كتاب فيمن معهم ، وأن لهم عقيدة فليس هذا هو المقصود ، إنما المقصود هو اشتمال القلب على هذه الحقيقة والشعور بها والتأثر بوجودها فى

الضمير ، وهذا ما لم يكن قبل هذا الروح من أمر الله الذى لابس قلب محمدعليه صلوات الله ، ﴿ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ ﴾ وهذه طبيعته الخالصة، طبيعة هذا الوحى، هذا الروح ، هذا الكتاب ، إنه نور ، نور تخالط بشاشته القلوب التى يشاء لها الله أن تهتدى به ، بما يعلمه من حقيقتها ومن مخالطة هذا النور لها .

ويتوجه الخطاب إلى النبى ﷺ فيقول : إنك تبين القرآن لهم وتوضحه ، وتنيره وترغبهم فيه وتنهاهم عن ضده ، وترهبهم منه، ثم فسر الصراط المستقيم بأنه الصراط الذى نسبه الله لعباده ، وأخبرهم أنه موصل إليه وإلى دار كرامته ، وإلى الله ترجع جميع أمور الخير والشر ، فيجازى كلا بحسب عمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

يقول صاحب الأساس : « الخصائص المذكورة فى السورة للجماعة المسلمة يجب أن نعطيها صيغتها العملية فى حياتنا ؛ لأنه لا جماعة للمسلمين بدونها ، ولا إقامة للإسلام بدونها » .

سورة الزخرف

تعرض هذه السورة جانبا بما كانت الدعوة الإسلامية تلاقيه من مصاعب وعقبات ، ومن جدال واعتراضات ، وتعرض معها كيف كان القرآن الكريم يعالجها فى النفوس ، وكيف يقرر فى ثنايا علاجها حقائقه وقيمه فى مكان الخرافات والوثنيات والقيم الجاهلية الزائفة ، التى كانت قائمة فى النفوس إذا ذاك ، ولا يزال جانب منها قائما فى النفوس فى كل زمان ومكان .

تبدأ السورة بالحرفين : « حا . ميم » ثم يعطف عليها قوله : ﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ ويقسم الله سبحانه وتعالى جعله فى صورته هذه اللفظية من جنس الكتاب المبين ، أو الكتاب المبين من جنس حا . ميم ، يقسم الله سبحانه بحا . ميم والكتاب المبين على الغاية من جعل هذا القرآن فى صورته هذه التى جاء بها للعرب ، فالغاية هى أن يعقلوه حين يجدونه بلغتهم وبلسانهم الذى يعرفون ، والقرآن وحى الله ـ سبحانه وتعالى ـ جعله فى صورته هذه اللفظية عربيا ، حين اختار العرب لحمل هذه الرسالة ، لما يعلمه من صلاحية هذه الأمة ، وهذا اللسان لحمل هذه الرسالة ونقلها ، والله أعلم حيث يجعل رسالته .

وهذا القرآن فى الملأ الأعلى فى أعلى الرتب وأفضلها ، فهو ذو مكانة عظيمة وشرف وفضل ، ورفيع الشأن فى الكتب لكونه معجزا من بينها محكم برىء من اللبس والزيغ ، وكما أن الحكمة فى هذا الكون لا يستطيع البشر الإحاطة بها فإن هذا القرآن لا يستطيع البشر أن يحيطوا بكنه حكمته المتعددة الجوانب والظواهر والمظاهر ، وإنما يدركون بعضها.

ثم أخبر تعالى أن حكمته وفضله يقتضى ألا يترك عباده هملا ، لا يرسل إليهم رسولا ، ولا ينزل عليهم كتابا ، ولو كانوا مسرفين ظالمين فقال : أفنعرض عنكم ، ونترك إنزال الذكر إليكم ،

ونضرب عنكم صفحا لأجل إعراضكم وعدم انقيادكم له ؟ بل ننزل عليكم الكتاب ، ونوضح لكم فيه كل شيء ، فإن آمنتم به واهتديتم فهو من توفيقكم ، وإلا قامت عليكم الحجة ، وكنتم على بينة من أمركم ، ولقد كان عجيبا ـ وما يزال أن يعنى الله سبحانه ـ فى عظمته وفى علوه وفى غناه ـ بهذا الفريق من البشر ، فينزل لهم كتابا بلسانهم ، يحدثهم بها فى نفوسهم ، ويبين لهم طريق الهدى ، ويقص عليهم قصص الأولين ، ويذكرهم بسنة الله فى المكذبين بعد إرسال النبيين ، فقد أرسل سبحانه كثيراً من الرسل ، وما يأتيهم من نبى إلا كانوا به يكذبونه ويسخرون به ، فأهلكنا من هو أشد بطشا من هؤلاء المسرفين المكذبين لك ، وسلف فى القرآن فى غير موضع منه ذكر قصتهم وحالهم العجيبة التى حقها أن تسير مسير المثل ، وهذا وعد لرسول الله ووعيد لهم .

ويقرر السياق لئن سألت ـ يا محمد ـ هؤلاء المسرفين المستهزئين المشركين الكافرين بهذا القرآن الشاكين فيه : من خلق السموات والأرض ليعترفن بأن الخالق لذلك هو الله وحده لا شريك له ، وهم مع هذا يعبدون معه غيره من الأصنام والأنداد ، وموقف هؤلاء المشركين أقل سوءا من ملاحدة عصرنا الذين ينكرون وجود الخالق أصلا ، مع أن ذلك يتنافى مع كل الحقائق العقلية والعلمية .

يقول صاحب الظلال : « فهم كانوا يعترفون بأن الذى خلقهن هو « الله » ولكنهم لم يكونوا يعرفون الله بصفاته التى جاء بها الإسلام ، هذه الصفات الإيجابية التى تجعل لذات الله فى نفوسهم أثراً فعالا فى حياتهم وحياة هذا الكون ، كانوا يعرفون الله خالقا لهذا الكون ، وخالقا لهم كذلك ، ولكنهم كانوا يتخذون من دونه شركاء ؛ لأنهم لم يعرفوه بصفاته التى تنفى فكرة الشرك ، وتجعلها تبدو متهافتة سخيفة ، والقرآن يعلمهم أن الله الذى يعترفون بأنه خالق السموات والأرض ، وهو ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ ، فهو القوى القادر ، وهو العليم العارف فيبدأ بهم من اعترافهم ، ويخطوا بهم الخطوات التالية لهذا الاعتراف » .

وبعد أن ذكر الله ـ عز وجل ـ جوابهم اعتمد هذا الجواب ثم ذكرهم بفعله بهم الذى يقتضى منهم شكراً ، وهم لا يفعلون إلا كفراً قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ أى : فراشا صالحا للحياة عليه والاطمئنان فيه ، وجعل لكم فيها طرقا ، لكى تهتدوا فى أسفاركم وفى سيركم من بلد إلى بلد .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ علينا بالقرآن الكريم وتدبره فهو روح تحيا به القلوب الميتة كما تحيا الأجسام بالأرواح .

٢ ـ كون الناس مسرفين فى الشرك والفساد لا يمنع وعظهم ونصحهم وإرشادهم .

٣ ـ من الخطأ ونكران الجميل أن نواجه أصحاب الرسالات والداعين إلى الإصلاح والموجهين إلى الخير بالإنكار والمقاومة والعناد والإيذاء لهم من غير أن نتدبر ما يدعوننا إليه .

الجزء الخامس والعشرون — سورة الزخرف

وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾

٤٩٠

معانى الكلمات :

بقدر : بمقدار .

أنشرنا : أحيينا .

مقرنين : مطيقين .

لمنقلبون : لراجعون .

أصفاكم : خصكم .

ينشؤا فى الحلية : يربى فى الزينة والنعمة (البنات) .

يخرصون : يكذبون .

أمة : ملة ودين وطريقة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على بعض مظاهر قدرة الله تعالى ونعمه على عباده .

٢ ـ أن نعلم حال المشركين العرب فى الجاهلية واعوجاج فطرتهم .

٣ ـ أن نعرف موقف الإسلام من التقليد .

المحتوى التربوى :

يقرر السياق أن الله تعالى نَزَّل من السماء ماء بحسب الكفاية لزروعكم وثمارکم وشربكم لأنفسكم ولأنعامكم ، بمقدار يسلم معه العباد وتحتاج إليه البلاد ، فأحيينا به أرضا ميتة لا نبات فيها ، ثم نبه تعالى بإحياء الأرض على إحياء الأجساد يوم المعاد بعد موتها ، وبهذا قامت الحجة عليهم فى شأن التوحيد وفى شأن اليوم الآخر ، فالذى أنشأ الحياة أول مرة كذلك يعيدها ، والذى أخرج الأحياء أول مرة من الأرض الميتة ، كذلك يخرج الأحياء منها يوم القيامة ، فالإعادة من البدء ، وليس فيها عزيز على الله .

ثم هذه الأنعام التى يجعلون منها جزاء الله وجزءًا لغير الله ، وما لهذا خلقها الله ، إنما خلقها لتكون من نعم الله على الناس ـ يركبونها كما يركبون الفلك ، ويشكرون الله على تسخيرها ،

ويقابلون نعمته بما تستحقها ، والزوجية هى قاعدة الحياة كما تشير إليه الآية ، فكل الأحياء أزواج ، وحتى الخلية الواحدة الأولى تحمل خصائص التذكير والتأنيث معها ، بل ربما كانت الزوجية هى قاعدة الكون كله لا قاعدة الحياة وحدها ، إذا اعتبرنا أن قاعدة الكون هى الذرة المؤلفة من إلكترون سالب وبروتون موجب ، كما تشير البحوث الطبيعية حتى الآن ، وعلى أية حال فالزوجية فى الحياة الظاهرة ، والله هو الذى خلق الأزواج كلها من الإنسان وغير الإنسان ، و جعل لكم السفن والأنعام ، وذللها وسخرها ويسرها لأكلكم لحومها ، وشربكم ألبانها وركوبكم على ظهورها ؛ لتستووا متمكنين مرتفعين على ظهور ما تركبونه وهو الفلك والأنعام ، ثم تذكروا بقلوبكم نعمة ربكم فيما سخر لكم إذا استويتم عليه ، وتقولوا بألسنتكم : سبحان الذى ذلل لنا هذا المركوب ، وما كنا له مطيقين ، وإنا إلى ربنا لصائرون إليه بعد مماتنا ، وإليه سيرنا الأكبر ، وهذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سير الآخرة ، كما نبه بالزاد الدنيوى على الزاد الأخروى ، وباللباس الدنيوى على الأخروى .

يقول صاحب الظلال : « هذا هو الأدب الواجب فى حق المنعم ، يوجهنا الله إليه لنذكره كلما استمتعنا بنعمة من نعمه التى تغمرنا ، والتى نتقلب بين أعطافها ثم ننساه ، والأدب الإسلامى فى هذا وثيق الصلة بتربية القلب وإحياء الضمير ، فليس هو مجرد طقوس تزاول عند الاستواء على ظهور الفلك والأنعام ، ولا مجرد عبارات يتلوها اللسان إنما هو استحياء للمشاعر لتحس بحقيقة الله ، وحقيقة الصلة بينه وبين عباده ، وتشعر بينه فى كل ما يحيط بالناس ، وكل ما يستمتعون به مما سخره الله لهم ،و هو محض الفضل والإنعام ، بلا مقابل منهم ، فما هم بقادرين على شىء يقابلون به فضل الله ، ثم لتبقى قلوبهم على على وجل من لقائه فى النهاية لتقديم الحساب ... وكل هذه المشاعر كفيلة باستبقاء القلب البشرى فى حالة يقظة شاعرة حساسة لا تغفل عن مراقبة الله ، ولا تجمد ولا تتبلد بالركود والغفلة والنسيان » .

بما مر أقام الله عز وجل الحجة على وجوب شكره ، ويمضى السياق فيذكر عما قابلوا هذا من الكفر ، فقالوا : الملائكة بنات الله فجعلوهم جزءاً له وبعضاً منه كما يكون الولد جزءاً لوالده ، وادعاء الإنسان هذا الادعاء يدمغه بالكفر الذى لا شبهة فيه ، فنسبة الولد إليه كفر ، والكفر أصل الكفران كله .

ثم يحاجهم بمنطقهم وعرفهم ، ويسخر من سخف دعواهم أن الملائكة إناث ثم نسبهم إلى الله ، فإذا كان الله سبحانه متخذاً أبناء ، فما له يتخذ البنات ويصفيهم هم بالبنين ، وهل يليق أن يزعموا هذا الزعم بينما هم يستنكفون من ولادة البنات لهم ويستاؤون ، أفما كان من اللياقة والأدب ألا ينسبوا إلى الله من يستاؤون هم إذا بشروا به ، حتى ليسود وجه أحدهم من السوء الذى يبلغ حدًّا يجل عن التصريح به ، فيكظمه ويكتمه وهو يكاد يتميز من السوء ؟! أفما كان من

اللياقة والأدب ألا يخصوا الله بمن يتربى فى الزينة والنعمة ولا يقدر على جدال ولا قتال ، بينما هم فى بيئتهم ـ يحتفلون بالفرسان والمقاويل من الرجال ؟!

فتحصل من السياق أنهم قد جمعوا فى كفرهم أنواعا من الكفر ، وذلك أنهم نسبوا إلى الله الولد ، ونسبوا إليه ما يعتبرونه أقل النوعين الذكر والأنثى ، فأقاموه فى أنفسهم المقام الأدنى ، وارتضوا له ما لا يرتضون لأنفسهم ، وجعلهم من الملائكة المكرمين فاستخفوا بهم إذ جعلوهم إناثا ، والملائكة مخلوقات نورانية لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة ولا خنوثة ، ثم هم عباد الله ، وكيف تجتمع العبودية لله مع الولاء ؟ وهم يقولون ذلك من غير أن يستند قولهم إلى علم، فإن الله لم يضطرهم إلى علم ذلك، ولا تطرقوا إليه باستدلال ، ولا أحاطوا به من خبر يوجب العلم ، ولم يشاهدوا خلقهم حتى يخبروا عن المشاهدة ، وستكتب شهادتهم التى شهدوا بها على أنوثة الملائكة وبنوتهم ، ويسألون عنها يوم القيامة ، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد ، وقالوا : لو أراد الله لحال بيننا وبين عبادة هذه الأصنام التى هى على صور الملائكة التى هى بنات الله ، وما لهم بصحة ما قالوه واحتجوا به علم ، إن هم إلا يكذبون ويتقولون ، يحاولون التهرب حين تحاصرهم الحجج ، وتتهافت بين أيديهم الأسطورة ، فيحيلون على مشيئته الله ، يزعمون أن الله راضٍ عن عبادتهم الملائكة ، ولو لم يكن راضيا ما مكنهم من عبادتهم ، ولمنعهم من ذلك منعًا .

وهذا القول احتيال على الحقيقة ، فإن كل شىء يقع فى هذا الوجود إنما يقع وفق مشيئة الله ، هنا حق ولكن من مشيئة الله أن جعل للإنسان قدرة على اختيار الهدى أو اختيار الضلال ، وكلفه اختيار الهدى ورضيه له ، ولم يرض له الكفر والضلال ، وإن كانت مشيئته أن يخلقه قابلًا للهدى أو الضلال،وهم حين يحيلون على مشيئة الله إنما يخبطون خبطاً،فهم لا يوقنون أن الله أراد لهم أن يعبدوا الملائكة ومن أين يأتيهم اليقين؟ ﴿ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ ويتبعون الأوهام والظنون .

أم آتيناهم كتابا من قبل القرآن أو من قبل شركهم فهم به آخذون عاملون ، وإذا لم يكن الأمر كذلك فليس لهم فى عبادتهم غير الله عز وجل برهان ولا دليل ولا حجة ، بل لا حجة لهم يتمسكون بها لا من حيث العيان ولا من حيث العقل ، ولا من حيث السمع إلا قولهم : إنا وجدنا آباءنا على دين أو طريقة فقلدناهم ،إنها مجرد المحاكاة ومحض التقليد بلا تدبر ولا حجة ، و هى صورة مزرية تشبه صورة القطيع يمشى حيث هو منساق .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ مشروعية التسمية والذكر عند ركوب ما يركب ، وشكر الله على نعمه حق واجب .

٢ ـ وجوب إنكار المنكر ومحاولة تغييره فى حدود ما يسمح به الشرع وتتسع له طاقة الإنسان

٣ ـ حرمة القول على الله بدون علم ، وحرمة التقليد بلا دليل .

وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ
إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾
۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟
إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ
إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ
﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ
مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾
وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟
لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ
يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم
بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ
أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ
لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾

معانى الكلمات :

فطرنى : خلقنى .

عقبه : ذريته إلى يوم القيامة .

سخريا : مسخراً فى العمل .

معارج : مصاعد (سلالم) .

يظهرون : يصعدون ويرتقون .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم فضيلة من يورث أولاده هدىً وصلاحًا .

٢ ـ أن نعلم الحكمة فى الغنى والفقر ، والصحة والمرض والذكاء والغباء .

٣ ـ أن نعرف تفاهة متع الحياة الدنيا وهوانها على الله ، وأن الآخرة خير وأبقى .

المحتوى التربوى :

يعرض السياق مصائر الذين قالوا قولتهم المقلدة ، واتبعوا طريقهم فى المحاكاة والتقليد ، وفى الإعراض والتكذيب ، بعد الإصرار على ما هم فيه على الرغم من الإعذار والبيان ، ويتجلى أن طبيعة المعرضين عن الهدى واحدة ، وحجتهم كذلك مكرورة : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ أو لـ ﴿ مُّقْتَدُونَ ﴾ ثم تغلق قلوبهم على هذه المحاكاة وتطمس عقولهم دون التدبر لأى جديد ، ولو كان أهدى ، ولو كان أجدى ، ولو كان يصدع بالدليل ، وثم لا يكون إلا التدمير والتنكيل لهذه الجبلة التى لا تريد أن تفتح عينيها لترى ، أو تفتح قلبها لتحس ، أو تفتح عقلها لتستبين وهذا هو مصير ذلك الصنف من الناس يعرض عليهم لعلهم يتبينون عاقبة الطريق الذى يسلكون .

وبعد أن ذكر الله عز وجل أن علة هؤلاء هو تقليد الآباء بغير حجة ولا دليل ولا برهان ، يذكر لنا نموذجا لموقف الإنسان الكامل المتحرر من التقليد الباطل للآباء ، وذلك فى شخصية إبراهيم ﷺ ، إن دعوة التوحيد التى يتنكرون لها هى دعوة أبيهم إبراهيم ، الدعوة التى واجه بها أباه وقومه مخالفا بها عقيدتهم الباطلة،غير منساق وراء عبادتهم الموروثة، ولا مستمسك بها لمجرد أنه وجد أباه وقومه عليها ، بل لم يجاملهم فى إعلان تبرئه المطلق منها فى لفظ واضح صريح ، ويبدو من حديث إبراهيم ﷺ ـ وتبرئه مما يعبدون إلا الذى فطره أنهم لم يكونوا يكفرون ويجحدون وجود الله أصلا ، إنما كانوا يشركون به ويعبدون معه سواه ، فتبرأ من كل ما يعبدون ، واستثنى الله ، ووصفه بصفته التى تستحق العبادة ابتداء ، وهو أنه فطره وأنشأه ، فهو الحقيق بالعبادة بحكم أنه الموجد ، وقرر يقينه بهداية ربه له ، بحكم أنه هو الذى فطره وليهديه ، وهو أعلم كيف يهديه .

قال إبراهيم هذه الكلمة التى تقوم بها الحياة ، كلمة التوحيد التى يشهد بها الوجود ، وجعلها باقية فى ذريته فلا يزال من يوحد الله ويدعو إلى توحيده ، لعل من أشرك منهم يرجع بدعاء من وحد منهم ، والترجى لإبراهيم ، ولقد عرفت البشرية كلمة التوحيد قبل إبراهيم ، ولكن هذه الكلمة لم تستقر فى الأرض إلا من بعد إبراهيم،عرفتها على لسان نوح وهود وصالح وإدريس، وغيره من الرسل الذين لم يتصل لهم عقب يقوم على هذه الكلمة ، ويعيش بها ولها ، فلما عرفتها على لسان إبراهيم ﷺ ظلت متصلة فى أعقابه ، وقام عليها من بعده رسل متصلون لا ينقطعون .. وأشبه أبنائه به : محمد ﷺ خاتم الرسل ، وقائل كلمة التوحيد فى صورتها الأخيرة الكاملة الشاملة .

وبعد أن ذكر الله عز وجل النموذج الكامل للموقف الحق من ضلال الآباء يعود السياق ليحدثنا عن موقف المشركين من دعوة رسول الله ﷺ وعن أسباب اغترارهم ، فهؤلاء وآباؤهم من قبلهم قد هيأت لهم المتاع ومددت لهم فى الأجل ، حتى جاءهم الحق فى هذا القرآن ، وجاءهم رسول مبين ، يعرض عليهم هذا الحق فى وضوح وتبيين ، ولا يختلط الحق بالسحر فهو واضح بين ، وإنما هى دعوى ، كانوا هم أول من يعرف بطلانها ، فما كان كبراء قريش ليغيب عنهم أنه الحق ؛ ولكنهم كانوا يخدعون الجماهير من خلفهم ، فيقولون إنه سحر ، ويعلنون كفرهم به على سبيل التوكيد ، ليلقوا فى روع الجماهير أنهم واثقون مما يقولون ، فيتبعوهم عن طريق الإيحاء والانقياد ، شأن الملأ من كل قوم فى التغرير بالجماهير .

ثم يحكى القرآن تخليطهم فى القيم والموازين ، وهم يعترضون على اختيار الله لمحمد ﷺ ليحمل إليهم الحق والنور، فقالوا : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ ﴾ مكة والطائف ﴿ عَظِيمٍ ﴾ أرادوا بالعظيم من كان ذا مال وجاه ، ولم يعرفوا أن العظيم من كان عند الله عظيما ، يعنون الوليد بن المغيرة ، وعروة بن مسعود الثقفى ، ورد عليهم القرآن مستنكراً هذا الاعتراض على رحمة الله ، التى يختار لها من عباده من يشاء ، وعلى خلطهم بين قيم الأرض وقيم السماء ، مبينا لهم عن حقيقة القيم التى يعتزون بها ، ووزنها الصحيح فى ميزان الله .

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾؟ يا عجبًا ! وما لهم هم ورحمة ربك ؟ وهم لا يملكون لأنفسهم شيئا ، ولا يحققون لأنفسهم رزقا حتى رزق هذه الأرض الزهيد نحن أعطيناهم إياه ، وقسمناه بينهم وفق حكمتنا وتقديرنا لعمران هذه الأرض ونمو هذه الحياة ، ولم نجعل قسمة الأدون إليهم وهو الرزق فكيف النبوة ؟ أو كما فضلت البعض على البعض فى الرزق فكذا أخص بالنبوة من أشاء ، وجعلنا البعض أغنياء وأقوياء وأسياداً والبعض غير ذلك ، وجعلنا البعض أذكياء وعقلاء والبعض غير ذلك ، ثم بين الله عز وجل الحكمة فى هذا التفاوت الملحوظ فى جميع العصور ، وجميع البيئات ، وجميع المجتمعات وهى ليسخر بعضهم بعضا فى الأعمال .

يقول صاحب الظلال « ودولاب الحياة حين يدور يسخر بعض الناس لبعض حتما ، وليس التسخير هو الاستعلاء ، استعلاء طبقة على طبقة ، أو استعلاء فرد على فرد . كلا .. ، إن هذا معنى قريب ساذج لا يرتفع إلى مستوى القول الإلهى الخالد ... إن الإسلام يقرر الحقائق الخالدة المركوزة فى فطرة هذا الوجود ... وطبيعة هذه الحياة البشرية قائمة على أساس التفاوت فى مواهب الأفراد والتفاوت فيما يمكن أن يؤديه كل فرد من عمل ، والتفاوت فى مدى إتقان هذا العمل ، وهذا التفاوت ضرورى لتنوع الأدوار المطلوبة للخلافة فى هذه الأرض ، ولو كان جميع الناس نسخا مكرورة ما أمكن أن تقوم الحياة فى هذه الأرض بهذه الصورة ، ولبقيت أعمال كثيرة جداً لا تجد لها مقابلا من الكفايات ، ولا تجد من يقوم بها ـ والذى خلق الحياة وأراد لها البقاء والنمو ، خلق الكفايات والاستعدادات متفاوتة تفاوت الأدوار المطلوب أداؤها ، ذلك شأن الرزق والمعاش فى هذه الحياة الدنيا ، ووراء ذلك رحمة الله ، والله يختار لها من يشاء ، ممن يعلم أن لها أهل .

وفى الآية بعدها **يقول القاسمى** : « ولولا أن يكونوا خلقوا ليكونوا أمة واحدة للترافد والتعاون والتضام ، وما به قوام حياتهم كالجسم الواحد ؛ لجعلنا للناس وما ذكر من الزين والحلى لدخوله تحت القدرة الكاملة إلا أن ذلك مبطل للحكمة ومخرب لنظام الوجود وأنه لولا التسخير لآتاها أحط الخلق وجعلنا لبيوتهم سقفا من فضة ومصاعد من فضة وسلالم عليها يرتقون .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ فى قصة إبراهيم ﷺ ما يهدينا إلى أن نبحث بأنفسنا لنصل إلى الحقيقة وننادى بها ، وندافع عنها ونقف من ورائها ، فهى قصة الجهاد فى سبيل الحق والصبر على الآلام ؛ إعلاء لكلمة الله .

٢ ـ وجوب البراءة من الشرك والمشركين .

٣ ـ فضل الله بعض الناس على بعض فى الرزق وفى الدرجات ، وهذا لينتظم أمر الحياة ويتعاون الناس .

وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن
كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ
لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا
فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ
أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ
بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ
إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ
الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾
فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي
وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ
إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ
وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا
أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ
رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾

معانى الكلمات :

زخرفا : ذهبا أو زينة مزوقة .

يعش : يعرض ويتغافل .

نقيض : نهيئ ونسبب .

قرين : مصاحب وملازم لا يفارقه .

المشرقين : المشرق والمغرب .

نذهبن بك : قدرنا عليك الموت .

وإنه لذكر : إن القرآن لشرف عظيم .

بآياتنا : بمعجزاتنا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم حال من يتغافل ويتعامى عن دين الله عز وجل .

٢ ـ أن نتعرف على نعمة القرآن .

٣ ـ أن نعرف ما جرى بين موسى عليه السلام وفرعون عليه لعائن الله .

المحتوى التربوى :

يقول صاحب الأساس : « ولولا أن يصبح الناس كلهم كفاراً لجعلنا للكفار سقفا ومصاعد وأبوابا وسرراً كلها من فضة ، وجعلنا لهم زخرفا أى زينة من كل شىء ، دل هذا على أن مما يفتن المسلم عن دينه رؤيته الكافرين فى حالة اقتصادية أجود ، وهذا هو الذى نراه فى عصرنا ؛ إذ فتن كثير من المسلمين عن الإسلام بسبب رؤيتهم مجتمعات كافرة فى حالة اقتصادية جيدة ، بل أصبحوا يدعون إلى هذه الأنظمة الكافرة ويتبعونها من أجل الوصول إلى ماهم عليه ، وقد أخطؤوا مرتين : مرة إذا استبدلوا الحق بالباطل ، ومرة لتصورهم أن تطبيق الإسلام لا يوصل إلى الرفاه أو إلى التقدم المدنى ، وكيف والله عز وجل وعد المتقين بأن يفتح عليهم بركات من السماء والأرض » .

ثم قال تعالى بعد أن بين حقارة الدنيا عنده حتى ليعطيها الكافرين لولا أن يفتتن المسلمون ، وما كل ذلك إلا من الدنيا الفانية الزائلة الحقيرة عند الله ، وثواب الآخرة عند الله لمن اتقى الله بفعل ما أمر واجتناب ما نهى ، وهى لهم خاصة لا يشاركهم فيها أحد .

ولما بين زهادة أعراض الحياة الدنيا وهوانها على الله ، وأن ما يعطاه الفجار منها لا يدل على كرامة لهم عند الله ، ولا يشير إلى فلاح ، وأن الآخرة عند ربك للمتقين ، استطرد يبين مصير أولئك الذين قد ينالون تلك الأعراض وهم عمن ذكر الله منصرفون عن الطاعات التى تؤهلهم لرزق الآخرة المعد للمتقين،والعشى كلال البصر عن الرؤية وغالبًا ما يكون عند مواجهة لضوء الساطع الذى لا تملك العين أن تحرق فيه أو عند دخول الظلام وكلال العين الضعيفة عن التبين خلاله ، وقد يكون ذلك لمرض خاص، والمقصود هنا هو العماية والإعراض عن تذكر الرحمن ، واستشعار وجوده ورقابته فى الضمير .

وقد قضت مشيئة الله فى خلقه الإنسان ذلك واقتضت أنه حين يغفل قلبه عن ذكر الله يجد الشيطان طريقه إليه فيلزمه ، ويصبح له قرين سوء يوسوس له ، ويزين له السوء ، ووظيفة قرناء السوء من الشياطين أن يصدوا قرناءهم عن سبيل الله ، بينما هؤلاء يحسبون أنهم مهتدون ، وهذا أسوأ ما يصنعه قرين بقرين ، أن يصده عن السبيل الواحدة القاصدة ، ثم لا يدعه يفيق ، أو يتبين الضلال فيثوب ، والتعبير بالفعل المضارع : ﴿ لَيَصُدُّونَهُمْ ﴾ ﴿ وَيَحْسَبُونَ ﴾ يصور العملية قائمة مستمرة معروضة للأنظار يراها الآخرون ، ولا يراها الضالون السائرون إلى الفخ وهم لا يشعرون .

ثم تفاجئهم النهاية وهم سادرون ، ويصل العمى إلى نهاية المطاف فجأة على غير انتظار ، ويفتحون أعينهم بعد العشى والكلال ، وينظر الواحد منهم إلى قرين السوء الذى زين له الضلال ، وقاده فى طريق الهلاك وهو يلوح له بالسلامة ، ينظر إليه فى حنق ويقول : ياليته لم يكن بيننا لقاء على بعد المشرق والمغرب ، وبئس الشيطان قرينا ، وقد صح ظلمكم وكفركم وتبين ، ولم يبق لكم ولا لأحد شبهة فى أنكم كنتم ظالمين ، ولن ينفعكم اشتراككم فى العذاب أو كونكم مشتركين فى العذاب كما كان عموم البلوى يطيب القلب فى الدنيا ، وهكذا بين الله عز وجل عاقبة الغفلة والإعراض عن كتابه فى الدنيا والآخرة .

ويتجه بالخطاب إلى رسول الله ﷺ يسليه عن هذا المصير البائس الذى انتهى إليه فريق من البشر ، ويضع حدوداً فاصلة بين مجال القدرة الإنسانية المحدودة فى أعلى درجاتها عند مرتقى النبوة ، ومجال القدرة الإلهية الطليقة ، وتثبيت معنى التوحيد فى صورة من أدق صوره ، فوظيفة الرسول أن يسمع من يسمع، وأن يهدى من يبصر، والذين لا يستمعون للحق استماع قبول، ففى آذانهم صمم عن سماع الحق، والذين فقدوا بصر البصيرة ، ففى قلوبهم عمى لا يرون معه الحق ،

ومن كان في ضلال عن الحق فلا يعرف فليس ذلك إليك إنما عليك البلاغ وليس عليك هداهم ، فإن ذهبنا بك قبل أن نريك ما نعدهم من العذاب ، ونشفى صدور المؤمنين منهم فلابد أن ننتقم منهم ونعاقبهم ولو ذهبت أنت ، أو نرينك الذى وعدناهم من العذاب الدنيوى قبل أن نتوفاك وإنا عليهم قادرون ، فتمسك بالقرآن المنزل على قلبك ، فإنه هو الحق ، وما يهدى إليه هو الحق ، المفضى إلى صراط الله المستقيم الموصل إلى جنات النعيم .

وفى الآية بعدها يقول صاحب الظلال « ونص هذه الآية هنا يحتمل أحد مدلولين : إن هذا القرآن تذكير لك ولقومك تسألون عنه يوم القيامة ، فلا حجة بعد التذكير ، أو أن هذا القرآن يرفع ذكرك وذكر قومك ، وهذا ما حدث فعلا ... وإنها لتبعة ضخمة تسأل عنها الأمة التى اختارها الله لدينه ، واختارها لقيادة القافلة البشرية الشاردة ، إذا هى تخلت عن الأمانة » .

ويطلب السياق السؤال للرسل ، وليس المراد بسؤالهم حقيقة السؤال ، ولكنه مجاز عن النظر فى أديانهم والفحص عن مللهم ، هل جاءت عبادة الأوثان قط فى ملة من ملل الأنبياء ، وكفاه نظرًا وفحصا فى كتاب الله المعجز المصدق لما بين يديه ، وإخبار الله فيه بأنهم يعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا ، وهذه الآية كافية لا حاجة إلى غيرها ، وهو سؤال تقريع لعبدة الأوثان أنهم على الباطل .

والله عز وجل يقص علينا من نبأ هؤلاء المرسلين ليرينا أن دعوة الرسل السابقين جميعا هى دعوة هذا القرآن فى التوحيد، وفى ذلك دليل من خلال المضمون على أن هذا القرآن من عند الله ، فيقول سبحانه مخبرًا عن عبده ورسوله موسى عليه السلام ، أنه ابتعثه إلى فرعون وملئه من الأمراء والوزراء والقادة والأتباع والرعايا ، من القبط وبنى إسرائيل ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وينهاهم عن عبادة ما سواه ، وأنه بعث معه آيات عظاما ؛ كيده وعصاه ، وما أرسل معه من الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، ومن نقص الزروع والأنفس والثمرات ، ومع هذا كله استكبروا عن اتباعها والانقياد لها ، وكذبوها وسخروا منها ، وضحكوا ممن جاءهم بها ، وسخروا منها ، وهزئوا بها وسموها سحرا .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ على الدعاة إلى الله أن يثبتوا على الحق ، وأن يستهينوا بالصعاب التى يلاقونها مع استمرارهم فى الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة .

٢ ـ المعركة دائمة بيننا وبين الشيطان وجنوده ، والمؤمن العاقل هو الذى يصرف وساوس الشيطان .

٣ ـ القرآن ذكر وشرف لمن أراد الذكر والشرف فعليه بالاتباع .

سورة الزخرف — الجزء الخامس والعشرون

وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَٰهُم
بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا
رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ
ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ
قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن
تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ
وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ
مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ
فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا
ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ
سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ
مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا
خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾
إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾

ربع الحزب ٥٠

٤٩٣

معانى الكلمات :

ينكثون : ينقضون عهدهم .

من تحتى : من تحت قصورى .

مهين : ضعيف .

يبين : يفصح عن الكلام .

مقرنين : مقرونين به مصاحبين له .

استخف قومه : استثارهم واستفزهم .

سلفا: قدوة للكفار فى استحقاق العذاب .

خصمون : لُدٌّ شداد الخصومة بالباطل .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على قصة موسى ﵇ مع فرعون وجنوده ، وكيف كانت العاقبة .

٢ ـ أن نعلم ماهية دعوة عيسى ﵇ وحال قومه معه .

٣ ـ أن نعرف قدرة الله الطليقة ، وأنه قوى شديد العقاب .

المحتوى التربوى :

يشير السياق إشارة سريعة إلى الآيات التى عرضها موسى وينهى هذه الإشارة بطريقة استقبال القوم لها ، وهكذا لم تكن الآيات التى ظهرت على يدى موسى ﵇ مدعاة إيمان ، وهى تأخذهم متتابعة ، كل آية أكبر من أختها ، مما يصدق قول الله فى مواضع كثيرة ، وفحواه أن الخوارق لا تهدى قلبًا لم يتأهل للهدى ، وأن الرسول لا يسمع الصم ولا يهدى العمى ، وقد أخذهم الله بالعذاب ؛ كالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ونقص الزروع والأنفس والثمرات ، لعلهم يرجعون عن الكفر إلى الإيمان ، ومع ذلك لم يرجعوا .

والعجب هنا فيما يحكيه القرآن عن فرعون وملئه قولهم ﴿ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾ فهم أمام البلاء ، وهم يستغيثون بموسى ليرفع عنهم البلاء ، ومع ذلك

يقولون له : ﴿ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ﴾ ويقولون كذلك : ﴿ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾ وهو يقول لهم : إنه رسول ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ لا ربه هو وحده على جهة الاختصاص ، ولكن لا الخوارق ولا كلام الرسول مس قلوبهم ، ولا خالطتها بشاشة الإيمان على الرغم من قولهم : ﴿ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾ أى مؤمنون به ، فلما كشف الله عنهم العذاب إذا هم ينقضون العهد بالإيمان ولا يوفون به .

وهنا يبرز فرعون فى جاهه وسلطانه ، وفى زخرفه وزينته ، غلب عقول الجماهير الساذجة بمنطق سطحى ولكنه يروج بين الجماهير المستعبدة فى عهود الطغيان، المخدوعة بالأبهة والبريق ، ونادى فرعون بنفسه أو أمر مناديا فنادى ، ويحتمل أنه عمم تعميما ، أو وزع منشوراً ؛ إذ إن بعض أوراق البردى المكتشفة تذكر أن رع مسيس الثانى وزع منشوراً ـ عثر على بعض نسخه ـ يدعو فيه إلى ألوهيته ، ولكن هناك خلاف فى أن رع مسيس الثانى هو فرعون موسى ، المهم غره ملكه فقال : ألست مالك مصر والمتصرف فيها ، وهذه الأنهار المنسحبة من النيل فى وسط القصور والبساتين ، أفلا تبصرون هذا الملك الطويل العريض ، وما يقوله فرعون أمر قريب مشهود للجماهير يبهرها وتستخفها الإشارة إليه ، فأما ملك السموات والأرض ومن بينها ـ ومصر لا تساوى هباءة فيه ـ فهو أمر يحتاج إلى قلوب مؤمنة تحسه ، وتعقد الموازنة بينه وبين ملك مصر الصغير الزهيد .

ومن ثم عرف فرعون كيف يلعب بأوتار هذه القلوب ويستغفلها بالبريق القريب ، وأخذ يلقى فى روعها أنه خير من موسى الضعيف العيى ، فقد ادعى فرعون ـ لعنه الله ـ أنه خير من موسى عليه الصلاة والسلام،وقد كذب فى قوله هذا كذبا بينا واضحا فعليه لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة، وقوله : ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ فهوا استغلال لما كان معروفا عن موسى قبل خروجه من مصر من حبسة اللسان ، وإلا فقد استجاب الله دعاءه ﴿ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ ﴾ (طه) وحلت عقدة لسانه فعلا وعاد يبين ، وعند الجماهير الساذجة الغافلة لابد أن يكون فرعون الذى له ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحته خيراً من موسى عليه السلام، ومعه كلمة الحق ومقام النبوة ودعوة النجاة من العذاب الأليم .

﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ ﴾ هكذا من ذلك العرض التافه الرخيص ، أسورة من ذهب تصدق رسالة رسول ! أسورة من ذهب تساوى أكثر من الآيات المعجزة التى أيد الله بها رسوله الكريم ، ﴿ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ وهو اعتراض آخر له بريق خادع كذلك من جانب آخر تؤخذ به الجماهير ، وترى أنه اعتراض وجيه ، فاستخف قومه وهو أمر لا غرابة فيه ، فهم يعزلون الجماهير أولًا عن كل سبل المعرفة ، ويحجبون عنهم الحقائق حتى ينسوها ، ولا يعودوا يبحثون عنها ، ويلقون فى روعهم ما يشاؤون من المؤثرات حتى تنطبع نفوسهم بهذه المؤثرات المصطنعة ، ومن ثم يسهل استخفافهم بعد ذلك ، ولا يملك الطاغية أن يفعل بالجماهير هذه

الفعلة إلا وهم فاسقون لا يستقيمون على طريق ، ولا يمسكون بحبل الله ، ولا يزنون بميزان الإيمان !

وانتهت مرحلة الابتلاء والإنذار والتبصير ، وعمت الفتنة وأطاعت الجماهير فرعون الطاغية المتباهى فى خيلاء ، فحققت كلمة الله وتحقق النذير لما أغضبوا الملك الجبار وآسفوه ، فأغرقهم جميعا، وجعلهم سلفا يتبعه كل خلف ظالم ومثلا لمن يجيؤون بعدهم ويعرفون قصتهم فيعتبرون .

وينتقل السياق إلى قصة عيسى ﷺ لما ضرب مثلا من قبل الكافرين فى كونه عبد من دون الله،وذلك دليل فى زعم الكافرين أنه فى النار بناء على ما ورد فى سورة الأنبياء أنهم وما يعبدون من دون الله حصب جهنم ، فهذا عيسى يعبد من دون الله ، فاستدلوا بذلك على أن القرآن ليس مستقيم العبارة وأنه ... وأنه ... وأنه ... ، وبنوا عليه : ما دام عيسى على رأى القرآن فى النار ـ وليس ذلك معقولا ـ فآلهتهم ليست فى النار ، ورتبوا على هذا الأمر ضرورة الثبات على كفرهم وصدودهم عن الحق ، وأصبح القوم من هذا المثل يرتفع لهم جلبة وضجيج فرحا وضحكا وهم فى صدود عن الحق ، وقالوا : إن آلهتنا عندك ليست بخير من عيسى ؛ فإذا كان عيسى من حصب النار كان أمر آلهتنا هينا ، وما ضربوا هذا المثل إلا لأجل الجدل والغلبة فى القول لا لطلب الميز بين الحق والباطل ، وهم يعلمون أنه ليس بوارد على الآية ؛ لأنها لما لا يعقل ، ثم هى خطاب لقريش وكانت عبادتهم الأصنام ، بل هم قوم لداد شداد الخصومة دأبهم اللجاج .

وما عيسى ﷺ إلا عبد كسائر العبيد ، أنعمنا عليه بالنبوة ، وصيرناه عبرة عجيبة ، ودلالة وحجة وبرهانا على قدرتنا على ما نشاء ، ولو شاء الله لقدرته على عجائب الأمور لبدل من هؤلاء الرجال ملائكة يخلفونهم كما يخلفهم أولادهم فى الأرض ، والآية تدلل على قدرة الله ، وعلى انفراده بالوحدانية ، وأن الملائكة وعيسى ليسوا إلا عبيداً لله ، وفيها تهديد لأهل الأرض بإهلاكهم ، وفيه تحذير لقريش من تماديها فى مثل هذا الكفر وجرأتهم عليه ، فمرد الأمر إلى مشيئة الله فى الخلق ، وما يشاؤه من الخلق يكون ، وليس أحد من خلقه يمت إليه بنسب ولا يتصل به ـ سبحانه إلا صلة المخلوق بالخالق .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ فى قصة موسى ﷺ وما يهدينا إلى التمسك بالحق ؛ لأن النصر فى النهاية له .

٢ ـ تأييد الله لأنبيائه بالمعجزات الخارقة للعادة ؛ لتأكيد صدقهم فيما يدعون إليه الناس .

٣ ـ حقارة الدنيا وقلة شأنها وهوانها على الله تعالى ، وفى قصة عيسى ﷺ ما يوجهنا إلى الحق والخير والود .

الجزء الخامس والعشرون — سورة الزخرف

وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ
مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ
﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ
وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ
﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ
﴿٦٤﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا
مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن
تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ الْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ
بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ
عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِـَٔايَٰتِنَا
وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ
تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ
وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾

٤٩٤

معانى الكلمات :

تمترن : تشكوا .

يصدنكم : يدفعنكم .

بغتة : فجأة .

الأخلاء : الأصدقاء والأحباب .

تحبرون : تسرون وتنعمون .

صحاف : آنية .

أورثتموها : فزتم بها وصارت لكم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على مزاعم بعض الناس على عيسى عليه السلام .

٢ ـ أن نعلم حقيقة رسالة عيسى عليه السلام إلى قومه .

٣ ـ أن نعرف اختلاف جزاء المتقين والمجرمين يوم القيامة .

المحتوى التربوى :

يقرر السياق شيئاً عن عيسى عليه السلام ، يذكرهم بأمر الساعة التى يكذبون بها أو يشكون فيها ، وقد وردت أحاديث شتى عن نزول عيسى عليه السلام إلى الأرض قبيل الساعة وهو ما تشير إليه الآية ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ بمعنى أنه يعلم بقرب مجيئها ، والقراءة الثانية : ﴿ وإنه لَعَلَم للساعة ﴾ بمعنى أمارة وعلامة ، وكلاهما قريب من قريب ، فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما مقسطا ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد ، حتى تكون السجدة الواحدة خيرًا من الدنيا وما فيها » أخرجه الشيخان ومالك وأبو داود .

وهو غيب من الغيب الذى حدثنا عنه الصادق الأمين ، وأشار إليه القرآن الكريم ، ولا قول فيه لبشر إلا ما جاء من هذين المصدرين الثابتين إلى يوم الدين ، وكانوا يشكون فى الساعة ، فدعاهم القرآن إلى اليقين ،و كانوا يشردون عن الهدى ، ودعاهم القرآن على لسان رسول الله ﷺ إلى اتباعه فإنه يسير بهم فى الطريق المستقيم ، القاصد الواصل الذى لا يضل سالكوه ، ويبين لهم أن انحرافهم وشرورهم أثر من اتباع الشيطان ، والرسول أولى أن يتبعوه .

يقول صاحب الظلال : « والقرآن لا يفتأ يذكر البشر بالمعركة الخالدة بينهم وبين الشيطان منذ أبيهم آدم ، ومنذ المعركة الأولى فى الجنة ، وأغفل الغافلين من يعلم أن له عدواً يقف له بالمرصاد وعن عمد وقصد ، وسابق إنذار وإصرار ، ثم لا يأخذ حذره ، ثم يزيد فيصبح تابعا لهذا العدو الصريح .

وقد أقام الإسلام الإنسان فى هذه المعركة الدائمة بينه وبين الشيطان طول حياته على هذه الأرض ، ورصد له من الغنيمة إذا هو انتصر ما لا يخطر على قلب بشر ، ورصد له من الخسران إذا هو اندحر ما لا يخطر كذلك على قلب بشر ، وبذلك حول طاقة القتال فيه إلى هذه المعركة الدائبة ... التى تجعل أكبر هدف للإنسان على الأرض أن ينتصر على عدوه الشيطان . .. » .

وبعد هذه اللفتة يعود إلى بيان حقيقة عيسى عليه السلام وحقيقة ما جاء به ، وكيف اختلف قومه من قبله ثم اختلفوا كذلك من بعده ، فلما جاء عيسى بالمعجزات البينات الواضحات الدالة على صدق نبوته وصحة ما جاءهم به ، قال لبنى إسرائيل قد جئتكم بالنبوة والعلم ؛ لأبين لكم صواب الذى تختلفون فيه من الأمور الدينية لا الدنيوية ، فاتقوا الله فيما أمركم به وأطيعون فيما جئتكم به، وما أنا وأنتم إلا عبيد له سبحانه ، فقراء إليه، مشتركون فى عبادته وحده لا شريك له، فاعبدوه وحده ، فعبادة الله وحده هى الصراط المستقيم ،و اختلف الأحزاب من بين النصارى ؛ اختلفت الفرق وصاروا شيعا فيه ، منهم من يقر بأنه عبد الله ورسوله وهو الحق ، ومنهم من يدعى أنه ولد الله ، ومنهم من يقول إنه الله ، تعالى عن قولهم علواً كبيراً ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ يوم القيامة .

وحين يصل السياق إلى الحديث عن الظالمين ، يدمج المختلفين من الأحزاب بعد عيسى عليه السلام مع المحاجين لرسول الله ﷺ بفعل هذه الأحزاب ، ويصور حالهم يوم القيامة فى مشهد يحتوى كذلك على صفحة المتقين المكرمين فى جنات النعيم ، يبدأ المشهد بوقوع الساعة فجأة وهم غافلون عنها ، لا يشعرون بمقدمها ، هذه المفاجأة تحدث حدثا غريبا ، يقلب كل ما كانوا يألفونه فى الحياة الدنيا ، فعداء الأخلاء ينبع من معين ودادهم ، لقد كانوا فى الحياة الدنيا يجتمعون على الشر ، ويملى بعضهم لبعض فى الضلال ، فاليوم يتلاومون ، واليوم يلقى بعضهم على بعض تبعة الضلال وعاقبة الشر ، واليوم ينقلبون إلى خصوم ـ يتلاحقون من حيث كانوا أخلاء

يتناجون، إلا المتقين فهؤلاء مودتهم باقية؛ فقد كان اجتماعهم على الهدى، وتناصحهم على الخير ، وعاقبتهم إلى النجاة .

وبينما الأخلاء يتلاحون ويختصمون ، يتجاوب الوجود كله بالنداء العلوى الكريم للمتقين المتحابين فى الله يومئذ بأنه لا خوف يلحقكم فيما تستقبلونه من الأمور ، ولا حزن يصيبكم فيما مضى منها ، وإذا انتفى المكروه من كل وجه ، ثبت المحبوب المطلوب ، هؤلاء هم الذين آمنوا وصدقوا بالقرآن وكانوا منقادين له فى جميع أحوالهم ، فجمعوا بين الاتصاف بعمل الظاهر والباطن . يقال لهم : ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم المؤمنات فى الدنيا ، تسرون سرورًا يشيع فى أعطافكم وقسماتكم فيبدو عليكم الحبور .

ثم تشهد بعين الخيال ـ فإذا صحاف من ذهب وأكواب يطاف بها عليهم ، وإذا لهم فى الجنة ما تشتهيه الأنفس ، وفوق شهوة النفوس التذاذ العيون ، كمالا وجمالا فى التكريم ؛ تدور عليهم خدامهم من الولدان المخلدين بطعامهم، بأحسن الأوانى وأفخرها ، وهى صحاف الذهب وشرابهم بألطف الأوانى ، وهى الأكواب التى لا عرى لها وهى من أصفى الأوانى ، من فضة أعظم من صفاء القوارير ، وفى الجنة ، ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، وهذا لفظ جامع يأتى على كل نعيم وفرح ،وقرة عين ،وسرور قلب، فكل ما اشتهته النفوس من مطاعم ومشارب ، وملابس، ومناكح ، ولذته العيون من مناظر حسنة ، وأشجار محدقة ، ونعم مونقة ، ومبان مزخرفة ، فإنه حاصل فيها ، معد لأهلها على أكمل الوجوه وأفضلها ، وتمام النعيم الخلد الدائم فيها الذى يتضمن دوام نعيمها وزيادته وعدم انقطاعه .

ومع هذا النعيم ، ما هو أكبر منه وأفضل ، التكريم بالخطاب من العلى الكريم بأن أعمالكم الصالحة كانت سببًا لشمول رحمة الله إياكم ، فإنه لا يدخل الجنة أحد بعمله ، ولكن برحمة الله وفضله ، وإنما الدرجات ينال تفاوتها بحسب الأعمال الصالحة التى تعاطاها المؤمنون ، ولكم فى هذه الجنة فاكهة كثيرة من جميع الأنواع ، منها تأكلون مما تتخيرون من تلك الفواكه الشهية ، ولما ذكر الطعام والشراب ذكر بعده الفاكهة لتتم النعمة والغبطة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الجنة جزاء المؤمنين المخلصين فضلا ورحمة من عند الله، ونزول عيسى ﷺ من علامات قرب قيام الساعة.

٢ ـ من واجب كل مسلم أن يدعو إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويقنع به الآخرين .

٣ ـ كل صداقة لغير الله تنقلب يوم القيامة عداوة .

إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون (٧٤) لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون (٧٥) وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين (٧٦) ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون (٧٧) لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون (٧٨) أم أبرموا أمرا فإنا مبرمون (٧٩) أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون (٨٠) قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين (٨١) سبحان رب السماوات والأرض رب العرش عما يصفون (٨٢) فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون (٨٣) وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله وهو الحكيم العليم (٨٤) وتبارك الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه ترجعون (٨٥) ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون (٨٦) ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون (٨٧) وقيله يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون (٨٨) فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون (٨٩)

معانى الكلمات :

يفتر : يخفف .

مبلسون : يائسون .

أبرموا أمرا : أحكموا كيداً .

يحسبون : يظنون .

نجواهم : ما يتحدثون به سرا .

يخوضوا : يدخلوا مداخل الباطل .

يؤفكون : فكيف يصرفون عن عبادته تعالى .

فاصفح : فأعرض .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم عاقبة المجرمين يوم القيامة ، وما هم فيه من عذاب شديد .

٢ ـ أن نتعرف على فساد عقيدة الكافرين فى الله عز وجل .

٣ ـ أن نعرف أنه لا خلاص ولا شفاعة إلا بإذن الله الذى له التمجيد والتقديس .

المحتوى التربوى :

قص الله عز وجل علينا ما أعده للمتقين المؤمنين المسلمين فى الجنة يوم القيامة بعد أن تقوم الساعة ، والآن يحدثنا عن حال أهل النار ، فالذين أجرهم بكفرهم وتكذيبهم فى عذاب دائم فى جهنم منغمرون فيه ، محيط بهم العذاب من كل جانب ، وفى درجة شديدة عصيبة لا يفتر لحظة ، ولا يبرد هنيهة ، ولا تلوح لهم فيه بارقة من أمل فى الخلاص ، ولا كوة من رجاء بعيد ، فهم فيه بائسون قانطون ، كذلك فعلوا بأنفسهم وأوردوها هذا المورد الموبق ، ظالمين غير مظلومين ، فهذا العذاب العظيم بما قدمت أيديهم ، وبما ظلموا به أنفسهم ، والله لم يظلمهم ولم يعاقبهم بلا ذنب ولا جرم .

ثم تتناوح فى الجو صيحة من بعيد ، صيحة تحمل كل معانى اليأس والكرب والضيق ، ﴿ وَنَادَوْا يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ ، إنها صيحة متناوحة من بعد سحيق ، من هناك من وراء الأبواب المرصدة فى الجحيم ، إنها صيحة أولئك المجرمين الظالمين ، إنهم لا يصيحون فى طلب النجاة ولا فى طلب الغوث ، فهم مبلسون يائسون ، إنما يصيحون فى طلب الهلاك ، الهلاك السريع الذى يريح ، وحسب المنايا أن تكن أمانيا ، وإن هذا النداء ليلقى ظلا كثيفا للكرب والضيق ، وإننا لنكاد نرى من وراء صرخة الاستغاثة نفوسا أطار صوابها العذاب ، وأجساما تجاوز الألم بها حد الطاقة ، فانبعثت منها تلك الصيحة المريرة ﴿ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ ولكن الجواب يجىء فى تيئيس وتخذيل ،وبلا رعاية ولا اهتمام بأنه لا خلاص ولا رجاء ولا موت ولا قضاء ، إنكم ماكثون .

وفى ظل هذا المشهد الكامد المكروب يخاطب هؤلاء الكارهين للحق ، المعرضين عن الهدى ، الصائدين على رؤوس الأشهاد فى أنسب جو للتحذير والتعجب .

يقول صاحب الظلال : « وكراهة الحق هى التى كانت تحول بينهم وبين اتباعه لا عدم إدراك أنه الحق ، ولا الشك فى صدق الرسول الكريم ، فما عهدوا عليه كذبا قط على الناس ، فكيف يكذب على الله ويدعى عليه ما يدعيه؟ والذين يحاربون الحق لا يجهلون فى الغالب أنه الحق ، ولكنهم يكرهونه؛ لأنه يصادم أهواءهم ، ويقف فى طريق شهواتهم ، وهم أضعف من أن يغالبوا أهواءهم وشهواتهم ولكنهم أجرأ على الحق وعلى دعاته ، فمن ضعفهم تجاه الأهواء والشهوات يستمدون القوة على الحق والاجتراء على الدعاة ، لهذا يهددهم صاحب القوة والجبروت العليم بما يسرون وما يمكرون فإصرارهم على الباطل فى وجه الحق يقابله أمر الله الجازم ، وإرادته بتمكين هذا الحق وتثبيته ... ، وتدبيرهم ومكرهم فى الظلام يقابله علم الله بالسر والنجوى ، والعاقبة معروفة حين يقف الخلق الضعاف القاصرون ، أمام الخالق العزيز العليم » .

وهم إذ يكيدون لمحمد ﷺ ويأتمون ، فالله عز وجل يسمعها ويطلع عليها ، والحفظة عندهم يكتبون أعمالهم صغيرها وكبيرها .

ويأمر الله عز وجل رسوله أن يعلن: قل يا محمد: لو فرض أن للرحمن ولدًا لعبدته على ذلك ؛ لأنى عبد من عبيد الله ، مطيع لجميع ما يأمرنى به ، ليس عندى استكبار ولا إباء عن عبادته ، فلو فرض هذا لكان هذا ولكن هذا ممتنع فى حقه تعالى ، والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز أيضا ، فهذا على سبيل الفرض ، والمراد نفى الولد وذلك أنه علق العبادة بكينونة الولد وهى محال فى نفسها ، فكان المعلق بها محالا مثلها .

ثم نزه الله عز وجل ذاته عن اتخاذ الولد ، فتعالى وتقدس وتنزه خالق الأشياء عن أن يكون له ولد ، فإنه فرد أحد صمد ، لا نظير له ولا كفء له ولا ولد له ، وهو رب السموات والأرض

والعرش فلا يكون جسما ؛ إذ لو كان جسما لم يقدر على خلقها ، وإذا لم يكن جسما لا يكون له ولد ؛ لأن التولد من صفة الأجسام ، وبعد أن أمره الله أن يعلن هذا الإعلان ، وينزه الله هذا التنزيه بعد أن أقام عليهم الحجة فى السورة ، أمر الله رسوله ﷺ ، والأمر الثانى ، فدعهم يخوضوا فى باطلهم وجهلهم وضلالهم ، ويلعبوا فى دنياهم حتى يلاقوا يوم القيامة ، فسوف يعلمون كيف يكون مصيرهم ومآلهم وحالهم فى ذلك اليوم ، وهذا دليل على أن ما يقولونه من باب الجهل والخوض واللعب .

ويعود السياق للتعريف بالله عز وجل ، ويعالج أصل قضية العقيدة الفاسدة التى تنبع عنها المواقف السيئة ، فيخبر تعالى أنه وحده المألوه المعبود فى السموات والأرض فأهل السموات كلهم ، والمؤمنون من أهل الأرض يعبدونه ويعظمونه ويخضعون لجلاله ، ويفتقرون لكماله ، فهو تعالى المألوه المعبود الذى يألهه الخلائق كلهم ، طائعين مختارين وكارهين ، وهو سبحانه فوق عرشه بائن من خلقه ، متوحد ، ومتمجد بجلاله ، وهو الذى أحكم ما خلقه ، وأتقن ما شرعه ، فما خلق شيئا إلا لحكمة ، ولا شرع شيئا إلا لحكمة ، وحكمه القدرى والشرعى والجزائى مشتمل على الحكمة ، وهو العليم بكل شىء ، يعلم السر وأخفى . ﴿ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ فهو خالقها ومالكها والمتصرف فيها بلا مدافعة ، وهو الذى يعلم متى تجيىء الساعة ، وإليه ترجعون فى الآخرة ، ولا يملك شركاؤهم وآلهتهم الشفاعة كما زعموا أنهم شفعاؤهم عند الله ، فلا يعطى الشفاعة إلا من شهد بكلمة التوحيد وهم يعلمون أن الله ربهم حقا ويعتقدون ذلك،ولئن سألت المشركين من خلقهم ليقولن الله لا الأصنام ولا الملائكة، ومع هذا يعبدون معه غيره فكيف يصرفون عن التوحيد مع هذا الإقرار؟!

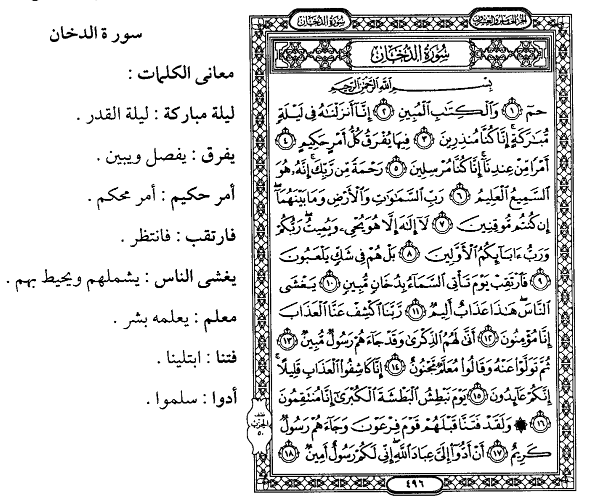
وقال الرسول ﷺ لله شاكيا ، يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون لما شاهد من عنادهم وتصلبهم شكاهم إلى ربه تعالى فأمره أن يعرض عن دعوتهم يائسا من إيمانهم وودعهم وتاركهم ، وقل لهم سلام ولا تجبهم بمثل ما يخاطبونك به من الكلام السيئ ، ولكن تألفهم واصفح عنهم قولا وفعلا فسوف يعلمون عاقبة هذا الإصرار ، وهذا تهديد من الله لهم وأحل بهم بأسه وشرع الجهاد والجلاء ، وفيه تهديد آخر بما سيرونه كذلك فى اليوم الآخر .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ كل من أعرض عن الله تعالى جزاؤه الهزيمة والخذلان .

٢ ـ الإيمان بوجود الله ووحدانيته فطرة فى النفوس البشرية المستقيمة ، لا ينحرف عنه إلا الظالمون .

٣ ـ ضرورة إعمال الفكر والنظر فى ملكوت السموات والأرض .



سورة الدخان

بسم الله الرحمن الرحيم

حم (١) والكتاب المبين (٢) إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين (٣) فيها يفرق كل أمر حكيم (٤) أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين (٥) رحمة من ربك إنه هو السميع العليم (٦) رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين (٧) لا إله إلا هو يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين (٨) بل هم في شك يلعبون (٩) فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين (١٠) يغشى الناس هذا عذاب أليم (١١) ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون (١٢) أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين (١٣) ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون (١٤) إنا كاشفو العذاب قليلا إنكم عائدون (١٥) يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون (١٦) ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم (١٧) أن أدوا إلي عباد الله إني لكم رسول أمين (١٨)

٤٩٦

سورة الدخان

معانى الكلمات :

ليلة مباركة : ليلة القدر .

يفرق : يفصل ويبين .

أمر حكيم : أمر محكم .

فارتقب : فانتظر .

يغشى الناس : يشملهم ويحيط بهم .

معلم : يعلمه بشر .

فتنا : ابتلينا .

أدوا : سلموا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم فضل ليلة القدر فى ميزان الإسلام .

٢ ـ أن نتعرف على حكمة إرسال الرسل إلى الناس .

٣ ـ أن نعلم ما قابلت به قريش دعوة الإسلام من جحود وكفران .

المحتوى التربوى :

تبدأ السورة بالحديث عن القرآن وتنزيله فى ليلة مباركة فيها يفرق كل أمر حكيم ، رحمة من الله بالعباد ، وإنذاراً لهم وتحذيراً ، ثم تعريف للناس بربهم : رب السموات والأرض وما بينهما ، وإثبات لوحدانيته وهو المحيى المميت رب الأولين والآخرين .

تبدأ السورة بالحرفين (حا . ميم) على سبيل القسم بهما والكتاب المبين المؤلف من جنسهما ، وقد تكرر الحديث عن الأحرف المقطعة فى أوائل السور ؛ فأما عن القسم بهذه الأحرف كالقسم بالكتاب ، فإن كل حرف معجزة حقيقية أو آية من آيات الله فى تركيب الإنسان ، وإقداره على النطق ، وترتيب مخارج حروفه ، والرمز بين اسم الحرف وصوته ، ومقدرة الإنسان على تحصيل

المعرفة من ورائه ، وكلها حقائق عظيمة تكبر فى القلب كلما تدبرها مجرداً من وقع الألفة والعادة الذى يذهب بكل جديد .

فأما المقسم عليه فهو تنزيل هذا الكتاب فى ليلة مباركة ، والليلة المباركة التى أنزل فيها القرآن ـ والله أعلم ـ الليلة التى بدأ فيها نزوله ، وهى إحدى ليالى رمضان ، والقرآن لم ينزل كله تلك الليلة ، كما أنه لم ينزل كله فى رمضان ، ولكنه بدأ يتصل بهذه الأرض ، وإنها لمباركة حقا تلك الليلة التى يفتح فيها ذلك الفتح على البشرية ، والتى يبدأ فيها استقرار هذا المنهج الإلهى فى حياة البشر منهجا واضحا كاملا صالحا لإنشاء حياة إنسانية نموذجية فى كل بيئة وفى كل زمان .

أنزل الله هذا القرآن فى هذه الليلة المباركة ، أولا للإنذار والتحذير ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ فالله يعلم غفلة هذا الإنسان ونسيانه وحاجته إلى الإنذار والتنبيه ، وهذه الليلة المباركة بنزول هذا القرآن كانت فيصلا وفارقا بهذا التنزيل ، وقد فرق فيها بهذا القرآن فى كل أمر ، وفصل فيها كل شأن ، وتميز الحق الخالد والباطل الزاهق ، ووضعت الحدود ، وأقيمت المعالم لرحلة البشرية كلها بعد تلك الليلة إلى يوم الدين ، فلم يبق هناك أصل من الأصول التى تقوم عليها الحياة غير واضح ولا مرسوم فى دنيا الناس ، وكان ذلك كله بإرادة الله وأمره ، ومشيئته فى إرسال الرسل للفصل والتبيين ، وكان ذلك كله رحمة من الله بالبشر إلى يوم الدين وما تتجلى رحمة الله بالبشر كما تتجلى فى تنزيل هذا القرآن بهذا اليسر ، الذى يجعله سريع اللصوق بالقلب ، ويجعل الاستجابة له تتم كما تتم دورة الدم فى العروق ، ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ ونزل بها هذا القرآن فى الليلة المباركة ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ ويسمع ويعلم ، وينزل ما ينزل للناس على علم وعلى معرفة بما يقولون ، وما يعملون ، وما يصلح لهم ويصلحون به من السنن والشرائع والتوجيه السليم .

والذى أنزل القرآن هو رب السموات والأرض وخالقهما ومالكهما وما فيهما إن كنتم متحققين باليقين ، فإرسال الرسل وإنزال الكتب رحمة من الرب ، هذا الرب هو السميع العليم ، الذى أنتم مقرون به ، ومعترفون بأنه رب السموات والأرض وما بينهما إن كان إقراركم على علم وإيقان ، فآمنوا أنه أرسل رسلا وأنزل كتبا ، وهو الإله الواحد الذى يملك الموت والحياة ، وهو رب الأولين والآخرين .

وعندما يبلغ الموقف هذا الحد من الاستثارة والاستجاشة يضرب السياق عنه ، ويلتفت بالحديث إلى حكاية حالهم تجاهه ، وهو حال مناقض لما ينبغى أن يكونوا عليه تجاه حقيقة الموقف الجاد الذى لا مجال للعب فيه ، يقول : إنهم يلعبون إزاء ذلك الجد ، ومع هذا كله يشكون ، والملاحظ أنه لم يحدد مضمون الشك مما يشير إلى أنه شك فى كل القضايا الإيمانية : فى الله وصفاته وأفعاله وفى القرآن والرسول ، وأمام هذا الشك بعد هذا البيان لم يبق من فائدة ترجى من هؤلاء

الشاكين ، فقال لهم متوعدا : انتظر فيهم العذاب فإنه قد قرب وآن أوانه ، يوم تأتى السماء بدخان ظاهر حاله لا يشك أحد فى أنه دخان ، يشمل الناس ويلبسهم ، فيقولون : هذا عذاب مؤلم .

ثم يدعون الله عز وجل بأنه سنؤمن إن كشفت عنا العذاب ، وكيف يتذكرون ويتعظون ويفون بما وعدوا به من الإيمان عند كشف العذاب ، وأنى لهم الادكار وقد جاءهم ما هو أعظم وأدخل فى وجوب الادكار ، من كشف الدخان ، وهو ما ظهر على رسول الله ﷺ من الآيات والبينات من الكتاب المعجز وغيره ، فلم يذكروا وتولوا عنه وبهتوه بأنه قد علمه غيره من البشر ونسبوه إلى الجنون ، وإنا مؤخرو العذاب عنكم قليلا بعد انعقاد سببه ووصوله إليكم ، وأنتم مستمرون فيما أنتم فيه من الطغيان والضلال ، ولا يلزم من الكشف عنهم أن يكون باشرهم، وإنكم عائدون إلى الكفر الذى كنتم فيه أو إلى العذاب .

وارتقب يوم نبطش البطشة العظمى ، إنا منتقمون منهم على أفعالهم ، وهل الدخان والبطشة مضتا على عهد رسول الله ﷺ ؟ فالبطشة ما أصاب المشركين يوم بدر ، والدخان ما أصابهم فى سنى القحط والجوع ، حتى إن أحدهم كان ينظر إلى السماء ، فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد ؟ أو أنهما سيأتيان ؟ فيكون الدخان علامة من علامات الساعة ، والبطشة الكبرى يوم القيامة ؟ والظاهر أن ذلك يوم القيامة ،وإن كان يوم بدر يوم بطشة أيضا. وبعد أن وضح الله عز وجل هذا فإنه يذكر من نبأ موسى وفرعون وقومهما مما يشير إلى وحدة موقف الكافرين فى كل عصر ، ويشير بالعاقبة رسوله ﷺ والمؤمنين ، فقال : لقد فتنا قبل هؤلاء الكافرين ، وفعلنا بهم فعل المختبر ليظهر منهم ما كان باطنا قوم فرعون وهم قبط مصر ، وجاءهم رسول كريم على الله وعلى عباده المؤمنين أو كريم فى نفسه ، حسيب ، نسيب ؛ لأن الله تعالى لم يبعث نبيا إلا من سراة قومه وكرامهم ، والمراد به موسى عليه السلام الذى لا يطلب منهم شيئا لنفسه ، إنما يدعوهم إلى الله ويطلب إليهم أن يؤدوا كل شىء لله ، وألا يستبقوا شيئا لا يؤدونه من ذوات أنفسهم يضنون به على الله ، إنها كلمات قصيرة تلك التى جاءهم بها رسولهم الكريم موسى عليه السلام ، فهو رسول من رب العالمين ، أمين على ما أرسلنى به ، لا أكتمكم منه شيئا .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ فتح الله بالقرآن الكريم على البشرية كلها أبواب فضله ورحمته .

٢ ـ الإحياء والإماتة من مظاهر قدرة الله تعالى ووحدانيته .

٣ ـ أمام البشر فرصة فى هذه الدنيا لم تذهب بَعْد ، والعاقل هو الذى يستعد كل يوم بالإيمان والعمل الصالح .

وأن لا تعلوا على الله إني آتيكم بسلطان مبين (١٩) وإني عذت بربي وربكم أن ترجمون (٢٠) وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون (٢١) فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون (٢٢) فأسر بعبادي ليلا إنكم متبعون (٢٣) واترك البحر رهوا إنهم جند مغرقون (٢٤) كم تركوا من جنات وعيون (٢٥) وزروع ومقام كريم (٢٦) ونعمة كانوا فيها فاكهين (٢٧) كذلك وأورثناها قوما آخرين (٢٨) فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين (٢٩) ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين (٣٠) من فرعون إنه كان عاليا من المسرفين (٣١) ولقد اخترناهم على علم على العالمين (٣٢) وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين (٣٣) إن هؤلاء ليقولون (٣٤) إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين (٣٥) فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين (٣٦) أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين (٣٧) وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين (٣٨) ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون (٣٩)

٤٩٧

معانى الكلمات :

تعلوا : تستكبروا .

عذت : استجرت بالله ولجأت إليه .

ترجمون : تقتلونى بالأحجار .

رهوا : ساكنا هادئا .

نعمة : تنعّم أو لذة.

فاكهين : ناعمين طيبى الأنفس

عالياً : جباراً

لاعبين : عابثين

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ـ أن نتعلم كيفية الاعتبار بما أسلف من أحداث فى الكون والاقتداء بالصالحين .

٢ ـ أن نتعرف على سنة الله فى سلب النعم وإنزال النقم بمن كفر نعم الله .

٣ـ أن نعلم هوان أهل الكفر والفسق على الله وعلى الكون كله .

المحتوى التربوى :

« يطلب موسى من قومه الاستجابة الكلية ، يقول صاحب **الظلال** : والأداء الكامل ، والاستسلام المطلق لله ، الذى هم عباده ، وما ينبغى للعباد أن يعلوا على الله ، فهى دعوة الله يحملها إليهم الرسول ، ومعه البرهان على أنه رسول الله إليهم ، البرهان القوى والسلطان المبين ، الذى تذعن له القلوب ، وهو يتحصن بربه ويعوذ به أن يسطوا عليه وأن يرجموه ، فإن استعصوا على الإيمان فهو يفاصلهم ويغتر لهم ويطلب إليهم أن يفاصلهم ويعتزلهم ، وذلك منتهى النصفة والعدل والمسالمة ، ولكن الطغيان قلما يقبل النصفة ، فهو يخشى الحق أن يظل طليقا ، يحاول أن يصل إلى الناس فى سلام وهدوء ، ومن ثم يحارب الحق بالبطش ولا يسالمه أبداً .

فمعنى المسالمة أن يزحف الحق ويستولى فى كل يوم على النفوس والقلوب ، ومن ثم يبطل الباطل ولا يعتزل الحق ولا يدعه يسلم أو يستريح ، ويختصر السياق هناك حلقات كثيرة من

القصة ليصل إلى قرب النهاية ، حين وصلت التجربة إلى نهايتها ، وأحس موسى أن القوم لن يؤمنوا له ، ولن يستجيبوا لدعوته ، ولن يسالموه أو يعتزلوه ، وبدا له إجرامهم أصيلا عميقا لا أمل فى تخليهم عنه ، عند ذلك لجأ إلى ربه وملاذه الأخير » .

وماذا يملك الرسول إلا أن يعود إلى ربه بالحصيلة التى جنتها يداه ؟ وألا ينقض أمره بين يديه ، ويدع له التصرف بها يريد ؟ وتلقى موسى الإجابة إقرارًا من ربه لما دمغ به القوم ، حقا إنهم مجرمون ، فسر بعبادى بنى إسرائيل فى الليل إنكم متبعون ، دبر الله أن تتقدموا ويتبعكم فرعون وجنوده فينجيكم ويغرقهم ، وقد أمر الله موسى عليه السلام أن يمر هو وقومه وأن يدع البحر وراءه ساكنا على هيئة التى مر هو وقومه فيها ، لإغراء فرعون وجنده باتباعهم ؛ ليتم قدر الله بهم كما أراده : ﴿ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ فهكذا ينفذ قدر الله من خلال الأسباب الظاهرة ، والأسباب ذاتها طرف من هذا القدر المحتوم .

يقول صاحب الظلال « ويختصر السياق حكاية مشهد الغرق أو عرضه ، اكتفاء بالكلمة النافذة التى لابد أن تكون ، ويمضى من هذا المشهد المضمر إلى التعقيب عليه ، تعقيبا يشى بهوان فرعون الطاغية المتعالى وملئه المالئ له على الظلم والطغيان ، هوانه وهوانهم على الله ، وعلى هذا الوجود الذى كان يشمخ فيه بأنفه ، فيطأطئ له الملأ المفتونون به ، وهو أضأل وأزهد من أن يحس به الوجود ، وهو يسلب النعمة فلا يمنعها من الزوال ، ولا يرثى له أحد على سوء المآل ، ويبدأ المشهد يصور النعيم الذى كانوا فيه يرفلون جنات . . وعيون .. وزروع .. ومكان مرموق، ينالون فيه من الاحترام والتكريم، ونعمة يلتذونها ويطعمونها ويعيشون فيها مسرورين محبورين، ثم ينزع هذا كله منهم أو ينزعون منه ، ويرثه قوم آخرون » .

ثم ماذا ؟ ثم ذهب هؤلاء الطغاة الذين كانوا ملء الأعين والنفوس فى هذه الأرض : ذهبوا فلم يأس على ذهابهم أحد ، ولم تشعر بهم سماء ولا أرض ، ولم ينظروا أو يؤجلوا عندما حل الميعاد ، ولو أحس هؤلاء الجبارون فى الأرض ما فى هذه الكلمات من إيحاء لأدركوا هوانهم على الله وعلى هذا الوجود كله ، ولأدركوا أنهم يعيشون فى الكون منبوذين منه مقطوعين عنه ، ولا تربطهم به آصرة وقد قطعت آصرة الإيمان .

قال الفخر الرازى : « اعلم أنه تعالى لما بين كيفية إهلاك فرعون وقومه بين كيفية إحسانه إلى موسى وقومه ، واعلم أن دفع الضرر مقدم على إيصال النفع فبدأ تعالى ببيان دفع الضرر عنهم ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ قتل الأبناء واستخدام النساء والإتعاب فى الأعمال الشاقة » .

يقول صاحب الظلال : « ويذكر هنا نجاة بنى إسرائيل من العذاب المهين فى مقابل الهوان الذى انتهى إليه المتجبرون المتعالون المسرفون فى التجبر والتعالى ﴿ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ ثم يذكر اختيار الله لبنى إسرائيل ـ على علم بحقيقتهم كلها ، خيرها وشرها ،

اختيارهم على العالمين فى زمانهم بطبيعة الحال ، لما يعلمه الله أنهم أفضل أهل زمانهم وأحقهم بالاختيار والاستخلاف ، على كل ما قصه عنهم بعد ذلك من تلكؤ ومن انحراف والتواء ، مما يشير إلى أن اختيار الله ونصره قد يكون لأفضل أهل زمانهم ، ولو لم يكونوا قد بلغوا مستوى الإيمان العالى ، إذا كانت فيهم قيادة تتجه بهم إلى الله على هدى وعلى بصيرة واستقامة ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ﴾ فتعرضوا للاختيار بهذه الآيات التى آتاهم الله إياها للابتلاء ، حتى إذا تم امتحانهم وانقضت فترة استخلافهم ، أخذهم الله بانحرافهم والتوائهم ، وبنتيجة اختبارهم وابتلائهم » .

جاءت هذه الآيات كنموذج لفعل الله بالمكذبين ، وفعل الله برسله والمؤمنين ، وكمثل على أن دأب الكافرين فى كل عصر : التكذيب والرفض والشك ، مهما كثرت الآيات وقامت الحجج ، وفى ذلك تسلية لرسول الله ﷺ وللمؤمنين ، وبشارة لهم وتعليم لهم بواقع الحال ، وبعد هذه الجولة عن السابقين يعود الكلام عن المشركين الذين يواجهون هذه الدعوة وتواجههم ، فهؤلاء الأدنون الهابطون بعقولهم إلى أسوأ المستويات ما يستحون ولا يخجلون ، فيقولون : إن هى إلا موتتنا الأولى منكرين للبعث والجزاء ، ليواصلوا كفرهم وفسقهم ، فلذا قالوا : وما نحن بمبعوثين أحياء من قبورنا ، واحتجوا بآبائهم الماضين الذين ذهبوا فلم يرجعوا ، وهى حجة فاسدة فإن المعاد إنما هو يوم القيامة ، ثم قال تعالى مهدداً لهم ومتوعداً لهم بأمنه الذى لا يرد ، كما حل بأشباههم من المشركين المنكرين للبعث كقوم تبع وهم (سبأ) حيث أهلكهم الله وخرب بلادهم وشردهم فى البلاد .

فهم ليسوا بخير منهم بأى حال لا فى المال ولا فى الرجال فكما أهلكناهم نهلك هؤلاء ، وأهلكنا الأولين لأنهم كانوا مجرمين وهؤلاء مجرمون أيضا فهم مستوجبون للهلاك ، وبعد هذا الإنذار والتحذير يقيم الله عليهم الحجة فى هذا الشأن بأنه ما خلق السموات والأرض لعبا ولا لهوا وأنه ما خلقها إلا بالحق، ولكن أكثرهم لا يعلم أنه خلق لذلك ومن ثم لا يؤمن بالبعث ، ولو أنه علم تنزيه الله عن العبث ، وعلم أن الله خالق السموات والأرض بالحق ، لأيقن بالبعث والحساب ولكنه لا يعلم .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ جزاء المتكبرين العذاب فى الدنيا والآخرة مع الذل والهوان .

٢ ـ النعمة لا تدوم إلا بشكر المنعم تعالى عليها .

٣ ـ التدبر فى خلق السموات والأرض وما فيهما من مخلوقات الله تعالى ودلائل قدرته يهدى إلى الإيمان بالبعث بعد الموت .

الجزء الخامس والعشرون سورة الدخان

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

سورة الجاثية

٤٩٨

معانى الكلمات :

يوم الفصل : يوم القيامة .

ميقاتهم : وقت موعدهم .

مولى : قريب أو صديق .

كالمهل : مثل النحاس المذاب الذى تناهى حره .

تمترون : تشكون .

سندس : حرير رقيق .

إستبرق : حرير سميك غليظ .

يدعون : يطلبون .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على يوم القيامة والحساب ، وما فيه من عذاب للمكذبين .

٢ ـ أن نتعرف على صورة المتقين وهم فى جنات ربهم مطمئنون فى مجالسهم .

٣ ـ أن نعلم فضل التقوى وكرامة أهلها .

المحتوى التربوى :

يجىء السياق بعد توجيه النظر إلى الحكمة والقصد فى خلق السموات والأرض ، بالقول عن يوم الفصل ، فالحكمة تقتضى أن يكون هناك يوم فصل فيه بين الخلائق ، ويحكم فيه بين الهدى والضلال ، ويكرم فيه الخير ويهان فيه الشر ، ويتجرد الناس من كل سند لهم فى الأرض ، ومن كل قربى وآصرة ، ويعودون إلى خالقهم فرادى كما خلقهم ، يتلقون جزاء ما عملت أيديهم ، ولا ينصرهم أحد ، ولا يرحمهم أحد ، إلا من ينال رحمة ربه العزيز القادر الرحيم العطوف ، الذى خرجوا من يده ـ سبحانه ـ ليعملوا ، وعادوا إلى يده ـ سبحانه ـ ليتسلموا منه الجزاء ، وما بين خروجهم ورجوعهم إنما هوفرصة للعمل ومجال للابتلاء .

هكذا تقتضى الحكمة الظاهرة فى تصميم هذا الكون،وفى خلق السموات والأرض وما بينهما بالحق ، وفى التقدير الواضح والقصد الناطق فى كل شىء وفى هذا الوجود .

ويعد تقرير هذا المبدأ يعرض عليهم مشهدًا من مشاهد يوم الفصل ، وما ينتهى إليه العصاة والطائعون من عذاب ومن نعيم ، مشهداً عنيفا يبدأ بعرض لشجرة الزقوم ، بعد تقرير أنها طعام الآثم فى قوله وفعله واعتقاده وهو الكافر وليس له طعام غيرها ، عرض مفزع مرعب مخيف ، إن هذا الطعام مثل دردى الزيت المغلى ـ وهو المهل ـ يغلى فى البطون كغلى الحميم ، وهناك هذا الأثيم هذا المتعالى على ربه ، وعلى الرسول الأمين ، وهذا هو الأمر العالى يصدر إلى الزبانية ليأخذوه فى عنف يليق بمقامه ﴿ٱلْكَرِيمُ﴾ .

خذوه أخذا ، واعتلوه عتلا ، وشدوه فى إهانة وجفوة فلا كرامة ولا هوادة ، وهناك صبوا فوق رأسه من ذلك الحميم المغلى الذى يشوى ويكوى ،و مع الشد والجذب والدفع والعتل والكى والشى .. التأنيب والترذيل : ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ وهو جزاء العزيز الكريم فى غير ما عزة ولا كرامة ، فقد كان ذلك على الله وعلى المرسلين ، وقد كنتم تشكون فى هذا اليوم كما كنتم تسخرون وتستهزئون .

وبينما الأخذ والعتل والصب والكى ، والتأنيب والخزى ، فى جانب من جوانب الساحة ... البصر ـ بعين الخيال ـ إلى الجانب الآخر ، فإذا المتقون الذين كانوا يخشون هذا اليوم ويخافون أذاهم ﴿فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ ولا خوف فيه ولا نزع، ولا شد فيه ولا جذب، ولا عتل فيه ولا وصب ، بل هم منعمون رافلون ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ يلبسون من سندس ـ وهو الحرير الرقيق ـ ومن إستبرق ـ وهو الحرير السميك ـ ويجلسون متقابلين فى مجالسهم يسمرون ، كل ذلك ومثله تزويجهم بحور عين ، يتم بهن النعيم ، وهم فى الجنة أصحاب الدار ، يطلبون ما يشاؤون ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ ، لا يتوقعون نهاية لهذا النعيم ، فلا موت هناك وقد ذاقوا الموتة الأولى ، وغيرها لا يذوقون ، ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ تفضلا منه سبحانه ، فالنجاة من العذاب لا تكون إلا بفضله ورحمته:﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ وأى فوز عظيم؟ !

قال الإمام الرازى « قال أصحابنا كل من اتقى الشرك فقد صدق عليه اسم لمتقى فوجب أن يدخل الفاسق فى هذا الوعد ، واعلم أنه تعالى ذكر من أسباب تنعمهم أربعة أشياء :

أولها : مساكنهم فقال : ﴿فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ واعلم أن المسكن إنما يطيب بشرطين : أحدهما : أن يكون آمنا عن جميع ما يخاف ويحذر ... والشرط الثانى لطيب المكان : أن يكون قد حصل فيه أسباب النزهة ، وهى الجنات والعيون ، فلما ذكر تعالى هذين الشرطين فى مساكن أهل الجنة فقد وصفهما بما لا يقبل الزيادة .

والقسم الثانى فى تنعماتهم : الملبوسات ، فقال : ﴿ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ وقيل : السندس . ما رق من الديباج ، والإستبرق : ما غلظ منه .

والقسم الثالث : فهو جلوسهم على صفة التقابل، والغرض منه: استئناس البعض بالبعض ، فإن قالوا : الجلوس على هذا الوجه موحش ، لأنه يكون كل واحد منهم مطلعا على ما يفعله الآخر ، وأيضا فالذى يقل ثوابه إذا اطلع على حال من يكثر ثوابه يتنغص عيشه ، قلنا : أحوال الآخرة بخلاف أحوال الدنيا .

والقسم الرابع : أزواجهم ، ففقال : ﴿ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ .. وعين الحوراء إذا اشتد بياض بياضها واشتد سواد سوادها ، ولا تسمى المرأة حوراء حتى يكون حور عينها بياضا فى لون الجسد »

والنوع الخامس : من تنعمات أهل الجنة: المأكول، فقال: ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴾ قالوا : إذ إنهم يأكلون جميع أنواع الفاكهة لأجل أنهم آمنون من التخم والأمراض » .

ثم إنه تعالى وصف القرآن فى أول هذه السورة بكونه كتابا مبينا كثير البيان والفائدة ، وذكر فى خاتمتها ما يؤكد ذلك فقال : إن ذلك الكتاب المبين الكثير الفائدة إنما يسرناه بلسانك ، وأنزلناه عربيا بلغتك ، لعلهم يتذكرون ، والضمير فى قوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ عائد على أقوام مخصوصين وهم المؤمنون .

يقول صاحب الظلال:« تختم السورة بالتذكير بنعمة الرسالة والتخويف من عاقبة التكذيب: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ وهو ختام يلخص جو السورة وظلها ، ويتناسق مع بدئها وخط سيرها ، فقد بدأت بذكر الكتاب وتنزيله للإنذار والتذكير ، وورد فى سياقها ما ينتظر المكذبين : ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ فجاء هذا الختام يذكرهم بنعمة الله فى تيسير هذا القرآن على لسان الرسول العربى الذى يفهمونه ويدركون معانيه ، ويخوفهم العاقبة والمصير ، فى تعبير ملفوف ، ولكنه مخيف : ﴿ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴾ » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ لا موت فى الآخرة ، وإنما خلود وبقاء دائم فى الجنة أو فى النار .

٢ ـ من نعم الله على عباده أنه نزل القرآن الكريم للإنذار والتذكير ، وللعظة والاعتبار .

٣ ـ عقاب الكافرين والمكذبين عدل من الله تعالى ، وثواب المؤمنين فضل من الله ورحمة ورضوان .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ (١) تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ (٦) وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩) مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠) هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ (١١) ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣)

٤٩٩

سورة الجاثية

معانى الكلمات :

آيات : علامات .

يبث : ينشر ويفرق .

يوقنون : يصدقون عن يقين .

بعد الله : بعد حديث الله .

أفاك أثيم : كذاب كثير الإثم .

يصر : يقيم ويثبت .

لا يغنى عنهم : لا يدفع عنهم .

رجزا : أشد العذاب .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم جانبا من استقبال المشركين للدعوة الإسلامية ، وطريقتهم فى مواجهة حججها وآياتها .

٢ ـ أن نتعلم كيف كان القرآن يعالج قلوبهم الجامحة الشاردة مع الهوى .

٣ ـ أن نتعرف على علة الإنعام الإلهى على العبد .

المحتوى التربوى :

هذه السورة مكية تصور جانبا من استقبال المشركين للدعوة الإسلامية ، وطريقتهم فى مواجهة حججها وآياتها، وتعنتهم فى مواجهة حقائقها وقضاياها ، واتباعهم للهوى اتباعاً كاملا فى غير ما تحرج من حق واضح أو برهان ذى سلطان ، كذلك تصور كيف كان القرآن يعالج قلوبهم الجامحة الشاردة مع الهوى ، المغلقة دون الهدى ، وهو يواجهها بآيات الله القاطعة العميقة التأثير والدلالة ، ويذكرهم عذابه ، ويصور لهم ثوابه ، ويقرر لهم سننه ، ويعرفهم بنواميسه الماضية فى هذا الوجود .

ونلاحظ أن مقدمة السورة هى نفس مقدمة سورة الزمر مع زيادة حم ، وهى تشعرنا بموضوع السورة ، كما تشعرنا بأنها مظهراسمى الله العزيز الحكيم من خلال عرض معانيها ، فالله عز وجل له العزة وله الحكمة ، وهذا القرآن مجلى أسمائه كلها ، ومن ذلك : أسماء العزيز الحكيم ، وهذه السورة مجلى لظهور هذين الاسمين بشكل كامل ، ومن مظاهر عزته أنه كلف ، وأنه يحاسب ، ومن مظاهر حكمته أنه خلق الكون على هذا الكمال ، وأنزل القرآن على مثل هذا الكمال ، فهو جل جلاله متصف بكمال العزة ومتصف بكمال الحكمة .

وقبل أن يعرض للقوم وموقفهم من هذا الكتاب ، يشير إلى آيات الله المبثوثة فى الكون من حولهم ، وقد كانت وحدها كفيلة بتوجيههم إلى الإيمان ، ويوجه قلوبهم إليها لعلها توقظها وتفتح مغاليقها ، وحيثما مد الإنسان ببصره وجد آيات الله تطالعه فى هذا الكون العجيب .

يقول صاحب الظلال : « وأى شىء ليس آية ؟ هذه السموات بأجرامها الضخمة ، وأفلاكها الهائلة ... ودورة هذه الأجرام فى أفلاكها فى دقة واطراد وتناسق ، تناسق جميل لا تشبع العين من النظر إليه ، ولا يشبع القلب من تقلبه ... وكل شىء فى هذه الأرض وكل حى ... آية .. وكل جزء من كل شىء ومن كل حى فى هذه الأرض ... آية ، والصغير الدقيق كالضخم الكبير آية .. هذه الورقة الصغيرة فى هذه الشجرة الضخمة أو النبتة الهزيلة آية ، آية فى شكلها وحجمها ، وآية فى لونها وملمسها ، آية فى وظيفتها وتركيبها ، وهذه الشعرة فى جسم الحيوان أو الإنسان آية ، آية فى خصائصها ولونها وحجمها ، وهذه الريشة فى جناح الطائر آية ، آية فى مادتها وتنسيقها ووظيفتها ، وحيثما مد الإنسان ببصره فى الأرض أو فى السماء تزاحمت الآيات وتراكبت ، وأعلنت عن نفسها لقلبه وسمعه وبصره ، ولكن من الذى يرى هذه الآيات ويستشعرها ؟ لمن تعلن هذه الآيات عن نفسها ؟ لمن ؟ للمؤمنين .

فالإيمان هو الذى يفتح القلوب لتلقى الأصداء والأضواء والأنداء ، والإحساس بما فيها من آيات الله المبثوثة فى الأرض والسماء ، والإيمان هو الذى تخالط القلوب بشاشته فتحيا وترق وتلطف » .

وينبه السياق أن من الآيات خلقكم أيها الناس فى أطوار من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى بشر سوى الخلقة معتدل المزاج والتركيب له سمع وبصر ونطق وفكر ، وما يخلق وما يفرق وينشر فى الأرض من أنواع الدواب والبهائم والحيوانات على اختلافها من برية وبحرية لآيات لقوم يوقنون فى إيمانهم بالله تعالى ، وفى مجىء الليل وذهاب النهار والعكس ، وطول أحدهما وقصر الآخر والعكس ، وما أنزل الله من السحاب من مطر هو سبب الرزق فأحيا به الأرض بعد ما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شىء ، وتصريف الرياح جنوبا وشمالا وقبولا ودبوراً ، فى هذه الأشياء لآيات لذوى العقول السليمة .

يقول الإمام الفخر الرازى رحمه الله : « إنه تعالى ذكر فى هذا الموضع ثلاثة مقاطع : أولها: يؤمنون . وثانيها : يوقنون . وثالثها : يعقلون ، وأظن أن سبب هذا الترتيب أنه قيل : إن كنتم من المؤمنين فافهموا هذه الدلائل ، وإن كنتم لستم من المؤمنين فلا أقل من أن تكونوا من زمرة العاقلين فاجتهدوا فى معرفة هذه الدلائل » .

ويقرر السياق أن تلك الآيات القرآنية والكونية هى آيات الله وحججه الدالة على وجوده وموجبة لربوبيته على خلقه وألوهيته ، فهو الإله الحق الذى لا إله حق سواه ، فإذا كانوا لا يؤمنون بالله ولا بآياته فبأى شىء يؤمنون بعد ذلك .

ويقابل القرآن هذا الإنكار بالتقبيح والتهديد والوعيد ، فالويل لكل كذاب حلاف مهين أثيم فى فعله وقلبه كافر بآيات الله ، آية إفكه وعلامة إثمه ، أنه يصر على الباطل ويستكبر على الحق ، ويتعالى عن الخضوع لآيات الله ، ولا يتأدب بالأدب اللائق مع الله ، وهذه الصورة تتكرر اليوم وغدا ، فكم فى الأرض وبين من يقال إنهم مسلمون مَنْ يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها لأنها لا توافق هواه ، ولا تسير مع مألوفه ، ولا تعاونه على باطله ، ولا تقره على شره ، ولا تتمشى له مع اتجاه ، وهذا له عند الله يوم القيامة عذاب أليم موجع ، وإذا حفظ شيئا من القرآن كفر به واتخذه سخريا وهزواً ، وله عذاب مهين فى مقابلة ما استهان بالقرآن واستهزأ به ، وكل من اتصف بذلك سيصيرون إلى جهنم يوم القيامة ، ولا ينفعهم أموالهم ولا أولادهم ، ولا تغنى عنهم الآلهة التى عبدوها من دون الله شيئا ، ولهم عذاب عظيم فوق أنه مهين ، وحقيقة القرآن أنه هدى ، هدى خالص مصفى ، والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب شديد موجع .

ثم يذكر تعالى نعمه على عبيده فيما سخر لهم من البحر لتجرى السفن فيه بأمره تعالى ، فإنه هو الذى أمر البحر أن يحملها ، ولتبتغوا من فضله فى المتاجر والمكاسب ، وبالغوص عن اللؤلؤ والمرجان واستخراج اللحم الطرى ، ولعلكم تشكرون على حصول المنافع المجلوبة إليكم من الآفاق القاصية ، وسخر لكم ما فى السموات من الكواكب وما فى الأرض من الجبال والبحار والأنهار وجميع ما تنتفعون به ، فالجميع من فضله وإحسان من عنده وحده لا شريك له ، وفى ذلك لدلالات على الله وصفاته وأسمائه ، وهذا النوع من الآيات يعرفه الإنسان بمجرد الفكر .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ فضل العقل السليم إن استخدم فى الخير وما ينفع .

٢ ـ القرآن أعظم نوراً فمن لم يهتد عليه لا يرجى له الهداية أبداً .

٣ ـ على الإنسان أن يشكر ربه على نعمه ، ويصرف تلك النعم فى مرضاته ـ تعالى .

الجزء الخامس والعشرون — سورة الجاثية

قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ
قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِۦ
وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا
بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ الْكِتَٰبَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ الطَّيِّبَٰتِ
وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى الْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ الْأَمْرِ
فَمَا اخْتَلَفُوٓا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ إِنَّ
رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ
﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ
أَهْوَآءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ
شَيْـًٔا وَإِنَّ الظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِىُّ الْمُتَّقِينَ
﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ
﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ
مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ
وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

٥٠٠

معانى الكلمات :

ليجزى : ليعاقب .

الحكم : الفصل بين الناس فى الخصومات .

بينات الأمر : دلائل واضحات فى أمر الدين .

بغيا بينهم : عداوة وحسداً وعناداً .

شريعة : طريقة ومنهاج .

يغنوا عنك : يدفعوا عنك .

بصائر : بينات ونور .

اجترحوا : اكتسبوا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على علة كفر أهل الكتاب بالرسول ﷺ .

٢ ـ أن نعلم وجوب لزوم تطبيق الشريعة الإسلامية وعدم التنازل عن شىء منها .

٣ ـ أن التفرقة الحاسمة بين حال الذين يجترحون السيئات وحال الذين يعملون الصالحات.

المحتوى التربوى :

يدعو السياق المؤمنين إلى الترفع والاستعلاء وسعة الأفق ، ورحابة الصدر فى مواجهة الضعاف العاجزين الذين لا تتصل قلوبهم بذلك المصدر الثرى الغنى ، كما يدعوهم إلى شىء من العطف على هؤلاء المساكين المحجوبين عن الحقائق المنيرة القوية العظيمة ، من الذين لا يتطلعون إلى أيام الله ، التى يظهر فيها عظمته وأسراره ونواميسه ، وهو توجيه كريم للذين آمنوا ليتسامحوا مع الذين لا يرجون أيام الله ، تسامح المغفرة والعفو ، وتسامح القوة والاستعلاء ، وتسامح الكبر والارتفاع ، والواقع أن الذين لا يرجون أيام الله مساكين يستحقون العطف

أحيانا بحرمانهم من ذلك النبع الفياض ، نبع الإيمان بالله ، والطمأنينة إليه ، والاحتماء بركنه ، واللجوء إليه فى ساعات الكربة والضيق .

هذا من جانب ومن الجانب الآخر ؛ ليترك هؤلاء المؤمنون الأمر كله لله يتولى جزاء المحسن على إحسانه ، والمسىء على إساءته ، ويحسب لهم العفو والمغفرة عن المساءة فى سجل الحسنات .

ويعقب السياق على هذا بفردية التبعة ، وعدالة الجزاء ، وتوكيد الرجوع إلى الله وحده فى نهاية المطاف، وبذلك يتسع صدر المؤمن، ويرتفع شعوره ، ويحتمل المساءات الفردية ، والنزوات الحمقاء من المحجوبين المطموسين فى غير ضعف ، وفى غير ضيق ، فهو حامل مشعل الهدى للمحرومين من النور ، والأمر لله فى النهاية ، وإليه المرجع والمآب .

يقول الفخر الرازى رحمه الله : « اعلم أنه تعالى بين أنه أنعم بنعم كثيرة على بنى إسرائيل ، مع أنه حصل بينهم الاختلاف على سبيل البغى والحسد ، والمقصود أن يبين أن طريقة قومه كطريقة من تقدم ، واعلم أن النعم على قسمين : نعم الدين ، ونعم الدنيا ، ونعم الدين أفضل من نعم الدنيا، فلهذا بدأ الله بذكر نعم الدين، فقال : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ﴾ ، والأقرب أن كل واحد من هذه الثلاثة يجب أن يكون مغايراً لصاحبه » .

فالكتاب هو التوراة ، والحكم هو الحكمة والفقة ، والنبوة معلومة فكان الأنبياء فيهم كثيرين ورزقهم الله من الطيبات مما أحل الله لهم وأطاب من الأرزاق ، وفضلهم على عالمى زمانهم ، وآتاهم آيات ومعجزات من أمر الدين، فما وقع الخلاف بينهم فى الدين إلا من بعد ما جاءهم ما هو موجب زوال الخلاف وهو العلم ، وإنما اختلفو العداوة هى أثر عن ظلم وحسد بينهم ، وسيفصل بينهم بحكمه العدل ، وهذا فيه تحذير لهذه الأمة أن تسلك مسلكهم ، وأن تقصد منهجهم ، ولهذا قال جل وعلا ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ ﴾ بعد اختلاف أهل الكتاب على طريقة ومنهاج من أمر الدين، فاتبع شريعتك الثابتة بالحجج والدلائل، ولا تتبع ما لا حجة عليه من أهواء الجهال، ودينهم المبنى على هوى وبدعة ، فأهل الهوى والجهل لن يدفعوا عنك شيئا من العذاب، والظالمون بعضهم أولياء بعض للمشاركة فيما بينهم ، والله ولى المتقين وهم موالوه ، وما أبين الفضل بين الولايتين ، ولاية الظالمين بعضهم لبعض ، وولاية الله للمتقين ، فكن أيها المسلم تقيا لله لتكون لله ولياً .

وتعقيبا على هذا البيان الحاسم الجازم ، يتحدث عن اليقين ، وعما فى هذا القول وأمثاله فى القرآن من تبصرة وهدى ورحمة لأهل القرآن ، ووصف القرآن بأنه بصائر للناس يعمق معنى الهداية فيه والإنارة ، فهو بذاته بصائر كاشفة كما أن البصائر تكشف لأصحابها عن الأمور ، وهو بذاته هدى، وهو بذاته رحمة ، ولكن هذا كله يتوقف على اليقين ، وحين يستيقن القلب ويستوثق

يعرف طريقة فلا يتلجلج ولا يتلعثم ولا يحيد ، وعندئذ يبدو له الطريق واضحا ، والأفق منيراً ، والغاية محددة والنهج مستقيما ، وعندئذ يصبح هذا القرآن له نوراً وهدى ورحمة بهذا اليقين .

قال صاحب الأساس : إن مجموع هذه الآيات : « عمق موضوع كون القرآن هدى ، وذكر صفات من يهتدى به ، وشروط هذه الهداية ، وبين طبيعة الذين لا يهتدون ؛ إنها طبيعة آثمة كاذبة مستكبرة باغية جاهلة متبعة للهوى ، أما الطبيعة المهتدية فمن خصائصها الإيمان والعقل،والفكر، واليقين ، والاتباع ، والصدق ، والطاعة ، والإنصاف ، والعلم » .

ويعقب السياق على الحديث عن ولاية الظالمين بعضهم لبعض وولاية الله للمتقين ، وعن طبيعة هذا القرآن بالقياس إلى المتقين ، وأنه بصائر وهدى ورحمة لأهل اليقين ، يعقب على هذا الحديث بالتفرقة الحاسمة بين حال الذين يجترحون السيئات ، وحال الذين يعملون الصالحات وهم مؤمنون ، ويستنكر أن يسوى بينهم فى الحكم ، وهم مختلفون فى ميزان الله ، والله قد أقام السموات والأرض على أساس الحق والعدل ، والحق أصيل فى تصميم هذا الكون .

يقول صاحب الظلال : « ويجوز أن يكون الحديث هنا عن أهل الكتاب ، الذين انحرفوا عن كتابهم ، واجترحوا السيئات ، وظلوا يحسبون أنفسهم فى صفوف المؤمنين ، ويجعلون أنفسهم أكفاء للمسلمين الذين يعملون الصالحات ، أنداداً لهم فى تقدير الله سواء فى الحياة أو بعد المات ، أى عند الحساب والجزاء ، كما يجوز أن يكون حديثا عاما يقصد بيان قيم العباد فى ميزان الله ، ورجحان المؤمنين أصحاب العمل الصالح ، واستنكار التسوية بين مجترحى السيئات وفاعلى الحسنات ، سواء فى الحياة أو فى المات ، ومخالفة هذا للقاعدة الثانية الأصيلة فى بناء الوجود كله ، قاعدة الحق الذى يتمثل فى بناء الكون كما يتمثل فى شريعة الله ،و الذى يقوم به الكون كما تقوم به حياة الناس ، والذى يتحقق فى التفرقة بين المسيئين والمصلحين فى جميع الأحوال ، وفى مجازاة كل نفس بما كسبت من هدى أو ضلال ،وفى تحقيق العدل للناس» .

قال الألوسى : « يستنبط منها تباين حالى المؤمن العاصى والمؤمن الطائع ، ولهذا كان كثير من العباد يبكون عند تلاوتها ، حتى إنها تسمى مبكاة العابدين لذلك » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ بيان أن كفر أهل الكتاب كان حسداً للنبى ﷺ وقومه من العرب .

٢ ـ تقوى الله تكون بفعل محابه تعالى وترك مساخطة ، والقرآن كتاب هداية وصلاح .

٣ ـ التحذير من اتباع الهوى وارتكاب سنن الضلال .

أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ﴿٢٣﴾ وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون ﴿٢٤﴾ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ﴿٢٥﴾ قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴿٢٦﴾ ولله ملك السماوات والأرض ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون ﴿٢٧﴾ وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون ﴿٢٨﴾ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴿٢٩﴾ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته ذلك هو الفوز المبين ﴿٣٠﴾ وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوما مجرمين ﴿٣١﴾ وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين ﴿٣٢﴾

معانى الكلمات :

اتخذ إله هواه : عبد هواه .

ختم : أغلق .

غشاوة : غطاء .

المبطلون : الكافرون .

جاثية : باركه على الركب .

نستنسخ : نأمر الملائكة أن يكتبوا .

فاستكبرتم : فأعرضتم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على أقوال المشركين وتصورهم عن الآخرة وعن البعث والحساب .

٢ ـ أن نقف على بعض مشاهد الآخرة من خلال الآيات .

٣ ـ أن نؤمن بالبعث الجزاء وكتابة أعمال العباد وتقديمها لهم يوم القيامة .

المحتوى التربوى :

يشير السياق إلى الهوى المتقلب ، الهوى الذى يجعل منه بعضهم إلها يتعبده ، فيضل ضلالا لا اهتداء بعده ، والعياذ بالله .

يقول صاحب الظلال : « والتعبير القرآنى المبدع يرسم نموذجا عجيبا للنفس البشرية حين تترك الأصل الثابت ، وتتبع الهوى المتقلب ، وحين تتعبد هواها ، وتخضع له ، وتجعله مصدر تصوراتها وأحكامها ومشاعرها وتحركاتها ، وتقيمه إلها قاهراً لها ، مستوليا عليها ، تتلقى إشاراته المتقلبة بالطاعة والتسليم والقبول ، يرسم هذه الصورة ويعجب منها فى استنكار شديد : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ أفرأيته إنه كائن عجيب يستحق الفرجة والتعجيب وهو يستحق من الله أن يضله فلا يتداركه رحمة الهدى فما أبقى فى قلبه مكاناً للهدى وهو يستعبد هواه

المريض ﴿ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ من الله باستحقاقه للضلالة أو على علم منه بالحق ، لا يقوم لهواه ولا يصده عن اتخاذ إلها يطاع ، وهذا يقتضى إضلال الله له والإملاء له فى عماه ، ﴿ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً ﴾ فانطمست فيه تلك المنافذ التى يدخل منها النور ، وتلك المدارك التى يتسرب منها الهدى ، وتعطلت فيه أدوات الإدراك بطاعة الهوى طاعة العبادة والتسليم ﴿ فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ﴾ ؟ والهدى هدى الله ... ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ومن تذكر صحا وتنبه ... وعاد إلى النهج الثابت الواضح الذى لا يضل سالكوه » .

وأما منكرو البعث فقالوا إن هى إلا عادات ، وجرْيٌ على رسوم الليل والنهار ، يموت أناس ويحيا أناس، ومن مات فليس براجع إلى الله، ولا مجازيه بعمله ، وقولهم هذا صادر عن غير علم ، فأنكروا المعاد وكذبوا الرسل الصادقين من غير دليل دلهم على ذلك ولا برهان ، إن هى إلا ظنون ، واستبعادات خالية عن الحقيقة ، ولا تقوم على تدبر ولا تستند إلى علم .

وإذا استدل عليهم وبين لهم الحق ، وأن الله تعالى قادر على إعادة الأبدان بعد فنائها وتفرقها ببيان القرآن الذى ما بعده بيان ، وما كان لهم من حجة إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا وأحيوهم إن كان ما تقولونه حقا،وهذه لغة الكافرين فى كل زمان، يرفضون الإيمان باليوم الآخر؛ لأنه لم يجئ ميت فيخبرنا، ونسوا أن كلام الرسول المعصوم والقرآن المعجز أقوى وأثبت من كلام أى إنسان، حتى ولو عاد إلى الحياة من الموت ؛ لأنه من يدرينا ـ حتى ولو عاد إلى الحياة أنه صادق ، ولكن الرسول ﷺ قامت كل الأدلة على صدقه ، والقرآن قامت كل الأدلة على أنه من عند الله الذى لا أصدق منه ، وقد أخبرانا عن الآخرة ، ولكنه العمى .

وهنا يأتيهم رد الجليل سبحانه أنه لماذا يأتى الله بآبائهم قبل الموعد الذى قدره وفق حكمته العليا ؟ أليس الله ينشئ الحياة أمام أعينهم إنشاء فى كل لحظة ، وفق سنه إنشاء الحياة ؟ فهذه هى المعجزة التى يريدون أن يشهدوها فى آبائهم ، ها هى ذى تقع أمام أعينهم ، بعينها وبذاتها ، والذى هو الذى يحيى ، ثم هو الذى يميت ، فلا عجب إذن فى أن يحيى الناس ويجمعهم إلى يوم القيامة ، ولا سبب يدعو إلى الريب فى هذا الأمر ، الذى يشهدون نظائره فيما بين أيديهم ، ولكن أكثر الناس لا يعرفون قدرة الله على البعث لإعراضهم عن التفكير فى الدلائل .

ويعقب السياق على هذه الحقيقة الماثلة بالأصل الكلى الذى ترجع إليه ، فهو المهيمن على كل ما فى الملك، وهو صانع كل شيء فيه،وهو القادر على الإنشاء والإعادة لكل ما فيه وكل من فيه .

ثم يعرض مشهداً من هذا اليوم الذى يشكون فيه ، وتعجل الآية عاقبة المبطلين ، فهم الخاسرون فى هذا اليوم الذى يشكون؛ثم ننظر من خلال الكلمات فإذا ساحة العرض الهائلة، وقد تجمعت فيها الأجيال الحاشدة التى عمرت هذا الكوكب فى عمره الطويل القصير،وقد جثوا

على الركب متميزين أمة أمة فى ارتقاب الحساب المرهوب ، وهو مشهد مرهوب بزحامه الهائل يوم تتجمع الأجيال كلها فى صعيد واحد ، ومرهوب بهيئته والكل جاثون على الركب ، ومرهوب بما وراءه من حساب ، ومرهوب قبل كل شىء بالوقفة أمام الجبار القاهر ، والمنعم المتفضل،الذى لم تشكر أنعمه ، ولم تعرف أفضاله من أكثر هؤلاء الواقفين،ثم يقال للجموع الجاثية المتطلعة إلى كل لحظة بريق جاف ونفس مخنوق، يقال لها : اليوم تجازون بأعمالكم خيرها وشرها ، فيعلمون أن لا شىء سينسى أو يضيع ، وكيف وكل شىء مكتوب، وعلم الله لا يند عنه شىء ولا يغيب ؟!ثم تنقسم الحشود الحاشدة والأمم المختلفة على مدى الأجيال واختلاف الأجناس فريقين اثنين يجمعان كل هذه الحشود:الذين آمنوا والذين كفروا،فهاتان هما الرايتان الوحيدتان عند الله، وهذان هما الحزبان : حزب الله وحزب الشيطان،وما عدا هذا من الملل والنحل والأجناس والأمم فإليهما يعود .

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴾ وقد استراحوا من طول الارتقاب ، ومن القلق والاضطراب ،والنص ينهى أمرهم فى سرعة وفى بساطة ، فيلقى هذا الظل المستطاب على من آمنت قلوبهم ، وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة الخالصة الموافقة للشرع .

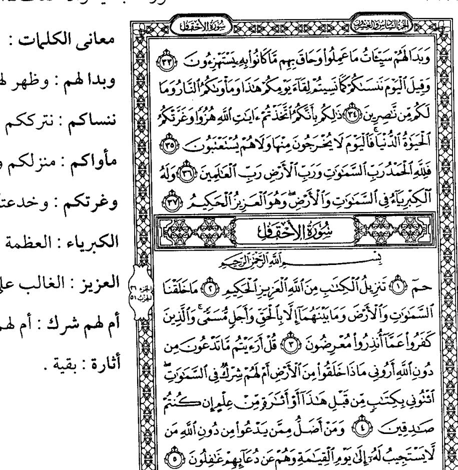
ثم نلقى بأبصارنا ـ من خلال الكلمات ـ إلى الفريق الآخر ، فماذا نحن واجدون ؟ إنه التأنيب الطويل والتشهير المخجل ، والتذكيربشر الأقوال والأعمال ، فيقال لهم : ألم يأتكم رسلى فلم تكن آياتى تتلى عليكم ؟ بل كانت تتلى عليكم فاستكبرتم عن الإيمان بها ، ولم تتعرفوا إلى ما فيها وإلى ما تدعو إليه، وكنتم باستكباركم عنها قوما مجرمين على أنفسكم ؛ إذ أفسدتموها بالشرك والمعاصى، وإذا قيل لكم فى الدنيا : إن وعد الله بالبعث والجزاء حق لابد منه ، والساعة آتية لا ريب فى وقوعها ، قلتم ما نعرف أى شىء هى الساعة ، وما نتوهم وقوعها إلا توهما مرجوحاً وما نحن بمتحققين بوقوعها ، فالآن كيف ترون الحال ، وكيف تذوقون اليقين ؟ !

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ التنديد بالهوى والتحذير من اتباعه ، وإلا فهو طريق الهلاك والدمار .

٢ ـ أكثر الناس لا يعلمون لأنهم كذبوا بالوحى الإلهى فى الكتاب والسنة فكن مع الحق .

٣ ـ الإيمان والعمل الصالح سبب الفوز ، فكن من المؤمنين العاملين .



سورة الجاثية - سورة الأحقاف

وبدا لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون ﴿٣٣﴾ وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين ﴿٣٤﴾ ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا وغرتكم الحياة الدنيا فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون ﴿٣٥﴾ فلله الحمد رب السماوات ورب الأرض رب العالمين ﴿٣٦﴾ وله الكبرياء في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴿٣٧﴾

سورة الأحقاف

بسم الله الرحمن الرحيم

حم ﴿١﴾ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴿٢﴾ ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون ﴿٣﴾ قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين ﴿٤﴾ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ﴿٥﴾

٥٠٢

معانى الكلمات :

وبدا لهم : وظهر لهم فى الآخرة .

ننساكم : نترككم .

مأواكم : منزلكم ومقركم .

وغرتكم : وخدعتكم .

الكبرياء : العظمة والجلال .

العزيز : الغالب على كل شيء .

أم لهم شرك : أم لهم شركة .

أثارة : بقية .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على ما يقع للكافرين يوم القيامة .

٢ ـ أن نعلم كيف يكون الجزاء يوم الحساب .

٣ ـ أن نعرف كيف عالجت السورة قضية العقيدة .

المحتوى التربوى :

يعلن السياق على املأ شيئا مما يقع للمنكوبين يوم القيامة ؛ فقد ظهر لهؤلاء الكفار قبائح أعمالهم أو عقوبات أعمالهم السيئات، وما نزل بهم من العذاب والنكال جزاء استهزائهم ، وقيل: اليوم نعاملكم معاملة الناس لكم فى نار جهنم كما نسيتم لقاء يوم القيامة ، فلم تعملوا له ؛ لأنكم لم تصدقوا به ، ونترككم فى العذاب كما تركتم عدة لقاء يومكم ، وهى الطاعة ، ومنزلكم النار ، ومالكم من ناصرين ينصرونكم من بأس الله ،و ما جازيناكم هذا الجزاء لأنكم اتخذتم حجج الله عليكم سخريا تسخرون وتستهزئون بها ، وخدعتكم فاطمأننتم إليها .

ثم يسدل الستار عليهم بإعلان مصيرهم الأخير ، وهم متركون فى جهنم لا يخرجون ولا يطلب إليهم اعتذار ولا عتاب ، وكأننا نسمع مع إيقاع هذه الكلمات صرير الأبواب وهى توصد إيصادها الأخير وقد انتهى المشهد فلم يعد فيه بعد ذلك تغيير ولا تحوير .

يقول صاحب الظلال : « هنا ينطلق صوت التحميد لله والتمجيد الانطلاقة الأخيرة فى السورة بعد هذا المشهد المؤثر العميق : ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

ينطلق صوت التحميد يعلن وحدة الربوبية فى هذا الوجود ؛ سمائه وأرضه ، وإنسه وجنه ، وطيره ووحشه ، وسائر ما فيه ومن فيه ، فكلهم فى رعاية رب واحد يدبرهم ويرعاهم وله الحمد على الرعاية والتدبير .

وينطلق صوت التمجيد يعلن الكبرياء المطلق لله فى هذا الوجود ، حيث يتصاغر كل كبير ، وينحنى كل جبار ، ويستسلم كل متمرد للكبرياء المطلق فى هذا الوجود ، ومع الكبرياء والربوبية العزة القادرة والحكمة المدبرة ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ والحمد لله رب العالمين .

سورة الأحقاف .

هذه السورة المكية تعالج قضية العقيدة ، قضية الإيمان بوحدانية الله وربوبيته المطلقة لهذا الوجود وما فيه ، والإيمان بالوحى والرسالة وأن محمداً ﷺ رسول سبقته الرسل ، أوحى إليه بالقرآن مصدقا لما بين يديه من الكتاب ، والإيمان بالبعث وما وراءه من حساب وجزاء على ما كان فى الحياة الدنيا من عمل وكسب ومن إحسان وإساءة .

وتبدأ السورة بالحرفين : حا . ميم . كما بدأت السور الست قبلها ، تليهما الإشارة إلى كتاب القرآن والوحى به عند الله ، وعقبها مباشرة الإشارة إلى كتاب الكون ، وقيامه على الحق ،و على التقدير والتدبير ، فيتوافى كتاب القرآن المتلو وكتاب الكون المنظور على الحق والتقدير .

يقول صاحب الظلال : « وهذا هو الإيقاع الأول فى مطلع السورة ، وهو يلمس العلاقة بين الأحرف العربية التى يتداولها كلامهم ، والكتاب المصوغ من جنس هذه الأحرف على غير مثال من كلام البشر ، وشهادة هذه الظاهرة بأنه تنزيل من الله العزيز الحكيم ، كما يلمس العلاقة بين كتاب الله المتلو المنزل من عنده ، وكتاب الله المنظور المصنوع بيده ، كتاب هذا الكون الذى تراه العيون ، وتقرؤه القلوب ، وكلا الكتابين قائم على الحق وعلى التدبير ، فتنزيل الكتاب ﴿ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ هو مظهر للقدرة وموضع للحكمة ، وخلق السموات والأرض وما بينهما وملتبس بالحق ﴿ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ وبالتقدير الدقيق ﴿ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ تتحقق فيه حكمة الله من خلقه، ويتم فيه ما قدره له من غاية ، وكلا الكتابين مفتوح ، معروض على الأسماع والأنظار ، ينطق بقدرة الله ويشهد بحكمته» .

وهذا يقتضى إنزال وحى وإرسال رسل ؛ لتحدد للإنسان المسار الذى ينسجم به مع حكمة خلق الخلق ، ومع مقتضى العبودية لله العزيز ، ولكن الذين كفروا عما أنذروه من هول ذلك اليوم الذى لا بد لكل مخلوق من انتهائه إليه ، لا هون عما يراد بهم ولا يهتمون بالاستعداد له .

ويأتى التلقين من الله سبحانه لرسوله ﷺ ، ليواجه القوم بشهادة كتاب الكون المفتوح ، الكتاب الذى لا يقبل الجدل والمغالطة ـ إلا مراء ومحالا ـ والذى يخاطب الفطرة بمنطقها ، بما بينه وبين الفطرة من صلة ذاتية خفية ، ويطالبهم بأن يرشدوه إلى المكان الذى استقل بخلقه من عبدوهم من دون الله من الأرض ، أى شىء خلقوا فيها إن كانوا آلهة ،أم شاركوا فى خلق السموات فصار لهم شركة مع الله فى الألوهية حتى عبدتموهم ؟ !

يقول صاحب الظلال : « ثم يأخذ الطريق على ما قد يطرأ على بعض النفوس من انحراف بعيد ، فقد يصل بها هذا الانحراف إلى أن تزعم هذا الزعم أو ذاك بلا حجة ولا دليل ، يأخذ عليها الطريق فيطالبها بالحجة والدليل ويعلمها فى الوقت ذاته طريقة الاستدلال الصحيح ، ويأخذها بالمنهج السليم فى النظر والحكم والتقدير ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ هَـٰذَآ أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ فإما كتاب من عند الله صادق وإما بقية من علم مستيقن ثابت ، وكل الكتب المنزلة قبل القرآن تشهد بوحدانية الخالق المبدع المدبر المقدر ... وليس هنالك من علم ثابت يؤيد مثل ذلك الزعم المتهافت » .

ويبين السياق أنه لا أضل من هؤلاء ، ومن ثم يأخذ بهم إلى نظرة موضوعية فى حقيقة هذه الآلهة المدعاة ، منددا بضلالهم فى اتخاذها ، وهى لا تستجيب لهم ، ولا تشعر بدعائهم فى الدنيا ، وقد كان بعضهم يتخذ الأصنام آلهة ، وبعضهم يتخذ الأشجار ، وبعضهم يتخذ الملائكة مباشرة أو الشيطان وكلها لا تستجيب لداعيها أصلا .

أو لا تستجيب له استجابة نافعة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الجزاء من جنس العمل ،و كما يدين الفتى يدان .

٢ ـ مشروعية الحمد عند الفراغ من أى عمل صالح أو مباح .

٣ ـ من لا يخلق لا يعبد والكافرون والمشركون الذين يتخذون آلهة غير الله تعالى لا حجة لهم ولا علم يستندون إليه ، وإنما هو العناد والمكابرة وتقليد الآباء واهمال التفكير السليم .

سورة الأحقاف — الجزء السادس والعشرون

وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَـٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

٥٠٣

معانى الكلمات :

حشر : جمع .

بينات : واضحات .

افتراه : اختلقه من عند نفسه .

تفيضون : تندفعون .

بدعا : منفردا .

إفك قديم : كذب قديم .

إمام : قدوة .

استقاموا : استمروا وثبتوا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نستشعر حقيقة الوحدانية التى ينطق بها كتاب الوجود .

٢ ـ أن نتعرف على موقف الكفار من الرسول ﷺ وما جاءهم به من الحق .

٣ ـ أن نعلم مقولات المشركين عن القرآن وعن الدين .

المحتوى التربوى :

يعلن السياق أنه إذا كان يوم القيامة وحشر الناس إلى ربهم تبرأت الآلهة المدعاة من عبادهم الضالين ، فكانت آلهتهم التى يعبدونها فى الدنيا بعبادتهم جاحدين ؛ لأنهم يقولون يوم القيامة : ما أمرناهم بعبادتنا ، ولا شعرنا بعبادتهم إيانا ، تبرأنا إليك منهم يا ربنا ، فالتكذيب بلسان المقال قصداً إلى بيان أن معبودهم فى الحقيقة الشياطين وأهواؤهم .

وقال القاشانى : « كانوا أعداء ؛ لأن عبادة أهل الدنيا لسادتهم وخدمتهم إياهم ، لا تكون إلا لغرض نفسانى ، وكذا استعباد الموالى لخدمهم ، فإذا ارتفعت الأغراض ، وزالت العلل والأسباب ، كانوا لهم أعداء وأنكروا عبادتهم، يقولون : ما خدمتمونا، ولكن خدمتم أنفسكم ».

وهكذا يقفهم القرآن وجها لوجه أمام حقيقة دعواهم ومآلها فى الدنيا والآخرة ، بعد ما وقفهم أمام الحقيقة الكونية التى تنكر هذه الدعوى وترفضها ، وفى كلتا الحالتين تبرز الحقيقة الثانية ، حقيقة الوحدانية التى ينطق بها كتاب الوجود ، وتوجبها مصلحة المشركين أنفسهم ، ويلزمهم بها النظر إلى مآلهم فى الدنيا والآخرة .

ثم يمضى السياق يتحدث عن موقفهم من رسول الله ﷺ وما جاءهم به من الحق ، بعدما تحدث عن واقعهم وتهافت عقيدة الشرك ، ويقرر قضية الوحى كما قرر قضية التوحيد ، ويبدأ الحديث عن قضية الوحى بترذيل مقولتهم عنه ، واستنكار استقبالهم له ، وهو آيات واضحة ، لا لبس فيها ولا غموض ، ولا شبهة فيها ولا ريبة ، ثم إنه الحق الذى لا مرية فيه ، وهم يقولون لتلك الآيات الواضحات ولهذا الحق المبين سحر ، وشتان بين الحق والسحر وهما لا يختلطان ، ولا يشتبهان .

وهكذا يبدأ الهموم منذ البدء على تقولهم الظالم وادعائهم القبيح الذى لا يستند إلى شبهة ، ولا ظل من دليل ، ثم يرتقى فى إنكار مقولتهم الأخرى ويسوقها فى صيغة الاستفهام كأن هذا القول لا يمكن أن يقال وبعيد أن يقال ، فقد بلغ بهم التطاول أن يقولوا قد اختلقه من عند نفسه ويلقن الرسول ﷺ أن يرد عليهم بأدب النبوة الذى ينم عن حقيقة شعوره بربه ، وشعوره بوظيفته ، وشعوره بحقيقة القوى والقيم فى هذا الوجود كله ، قل لهم : كيف أفتريه ؟ ولحساب من أفتريته ؟ ولأى هدف أفتريته ؟ أأفتريه لتؤمنوا بى وتتبعونى ؟ ولكن إن افتريته فماذا يجدينى أن تكونوا معى وأن تتبعونى والله آخذنى بما افتريت ، وأنتم أعجز من أن تحمونى من الله حين يأخذنى بافترائى ، وأضعف من أن تنصرونى ؟ !

ثم يترك أمركم إلى الله فهو أعلم بما تفيضون فيه من القول والفعل ، وهو يجزيكم بما يعلمه من أمركم ، وفى شهادته الكفاية وفى قضائه ، وقد يرأف بكم فيهديكم رحمة منه ، ويغفر لكم ما كان من ضلالكم قبل الهدى والإيمان .

ويمضى معهم فى مناقشة قضية الوحى من زاوية أخرى واقعية مشهودة ، فماذا ينكرون من أمر الوحى والرسالة ولم يعجلون بتهمة السحر أو تهمة الافتراء ؟ وليس فى الأمر غريب ولا عجيب ؛ فقد سبقته ﷺ الرسل ، وأمره كأمرهم ، يبلغ رسالة ربه حسبما أوحى بها إليه ، فهو لا يمضى فى رسالته لأنه يعلم الغيب ، وإنما هو يمضى وفق الإشارة وحسب التوجيه ، واثقا بربه مستسلما لإرادته مطيعا لتوجيهه ، يضع خطاه حيث قادها الله ، فما هو إلا نذير يبلغ ما أوحى إليه من ربه .

ثم يواجههم بشاهد قريب ، لشهادته قيمتها ؛ لأنه من أهل الكتاب الذين يعرفون طبيعة التنزيل، فما ظنكم أن الله صانع بكم إن كان هذا الكتاب الذى جئتكم به قد أنزله علىّ لأبلغكموه

وقد كفرتم به وكذبتموه ، وقد شهدت بصدقه وصحته الكتب المتقدمة المنزلة على الأنبياء قبلى ، بشرت به وأخبرت بمثل ما أخبر هذا القرآن به ، فآمن هذا الذى شهد بصدقه من بنى إسرائيل لمعرفته بحقيقته ، واستكبرتم أنتم عن اتباعه والله لا يهدى القوم الظالمين .

وبعد ذلك يمضى فى استعراض مقولات المشركين عن هذا القرآن وعن هذا الدين ، فيحكى اعتذارهم عن التكذيب به والإعراض عنه ، اعتذار المستكبر المتعالى على المؤمنين ، فلقد سارع إلى الإسلام نفر من الفقراء والموالى فى أول الأمر ، فراح الكبراء يقولون : لو كان هذا الدين خيراً ما كان هؤلاء أعرف منا به ولا أسبق منا إليه ، فهم لا يسلمون أبداً أنهم مخطئون ، فلابد من عيب فى الحق ما داموا لم يهتدوا به وسيقولون هذا كذب مأثور عن الأقدمين .

ويختم هذه الجولة فى قضية الوحى والرسالة بالإشارة إلى كتاب موسى وتصديق هذا القرآن له وقد قرر القرآن الإشارة إلى الصلة بين القرآن والكتب قبله وبخاصة كتاب موسى باعتبار أن كتاب عيسى تكملة وامتداد له ، وأصل العقيدة والتشريع فى التوراة ، ومن ثم سمى كتاب موسى إماما وبأنه رحمة ، وهذا القرآن مصدق للأصل الأول الذى تقوم عليه الديانات كلها ، والإشارة إلى عروبته للامتنان على العرب ، وتذكيرهم بنعمة الله عليهم ، وعنايته بهم ومظهرها اختيارهم لهذه الرسالة ، واختيار لغتهم لتتضمن هذا القرآن العظيم ثم بيان لطبيعة الرسالة ووظيفتها وهى بشرى للمحسنين وإنذار للظالمين ، ويصور القرآن جزاء المحسنين ، ويفسر لهم هذه البشرى التى يحملها إليهم القرآن الكريم بشرطها ، وهو الاعتراف بربوبية الله وحده والاستقامة على هذا الاعتقاد ومقتضياته ، فقوله :﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ ليست كلمة تقال ، بل إنها ليست مجرد عقيدة فى الضمير ، إنما هى منهج كامل للحياة يشمل كل نشاط فيها وكل اتجاه ويقيم ميزانا للتفكير والشعور ، فلله العبادة وإليه الاتجاه ، ومنه الخشية وعليه الاعتماد .

والاستقامة والثبات على هذا المنهج درجة بعد اتخاذ المنهج ، والذين يقسم الله لهم المعرفة والاستقامة هم الصفوة المختارة ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون فهم أصحاب الجنة جزاء ما قدموا من عمل .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ المسلم يمضى فى دعوته لله لا لأنه يعرف مآلها أو مستقبلها ولكن لأن هذا واجبه وكفى .

٢ ـ طبيعة أهل الكبر اختلاق المعاذير ، والادعاء بالباطل على الحق وأهله .

٣ ـ ﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ منهج كامل لا كلمة تلفظها الشفاه ، ولا عقيدة سلبية بعيدة عن واقعيات الحياة .

وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾

معانى الكلمات :

فصاله : فطامه .

أشده : كمال قوته وعقله .

أوزعنى : ألهمنى .

نتجاوز : نعفو .

أساطير : خرافات .

درجات : منازل .

يعرض : يوقف .

الهون : الهوان .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن آصرة الإيمان وآصرة الوالدين تلتقيان فى الطريق المستقيم إلى الله .

٢ ـ أن نتعرف على قيمة الأسرة فى الإسلام .

٣ ـ أن نقف على سبب عرض الكافرين على النار وسوقهم إليها .

المحتوى التربوى :

فى هذا السياق تلتقى آصرة الإيمان وآصرة الوالدين فى طريقها المستقيم المهتدى الواصل إلى الله ، وتأتى الوصية لجنس الإنسان كله ، قائمة على أساس إنسانيته ، بدون حاجة إلى أية صفة أخرى وراء كونه إنسانا ، وهى وصية بالإحسان مطلقة من كل شرط ومن كل قيد ، فصفة الوالدية تقتضى هذا الإحسان بذاتها بدون حاجة إلى أية صفة أخرى كذلك ، وهى وصية صادرة من خالق الإنسان ، وتتكرر فى القرآن الكريم وفى حديث الرسول ﷺ الوصية بالإحسان إلى الوالدين ، ولا ترد وصية الوالدين بالأولاد إلا نادرة ، ولمناسبة حالات معينة ، ذلك أن الفطرة وحدها تتكفل برعاية الوالدين للأولاد .

والإسلام يجعل الأسرة هى اللبنة الأولى فى بنائه ، والطفل الذى يحرم من محضن الأسرة ينشأ شاذا غير طبيعى فى كثير من جوانب حياته ، وأول ما يفقده فى أى محضن آخر غير محضن الأسرة هو شعور الحب ، فقد ثبت أن الطفل بفطرته يحب أن يستأثر وحده بأمه فترة العامين الأولين من حياته ، ولا يطيق أن يشاركه فيها أحد ، وهذا مالا يتيسر إلا فى محضن الأسرة الطبيعى .

ويصور القرآن هنا تلك التضحية النبيلة الكريمة الواهبة التى تتقدم بها الأمومة ، والتى لا يجزيها أبداً إحسان من الأولاد مهما أحسنوا القيام بوصية الله فى الوالدين ، فصورة الحمل وبخاصة فى أواخر أيامه وصورة الوضع وطلقه وآلامه وهو عملية شاقة ممزقة ، ولكن آلامها الهائلة كلها لا تقف فى وجه الفطرة ولا تنسى الأم حلاوة الثمرة ، ثمرة التلبية للفطرة ، ومنح الحياة نبتة جديدة تعيش وتمتد بينما هى تذوى وتموت ، ثم الرضاع والرعاية ؛ حيث تعطى الأم عصارة لحمها وعظمها فى اللبن ، وعصارة قلبها وأعصابها فى الرعاية ، فأنى يبلغ الإنسان فى جزاء هذه التضحية مهما يفعل ، وهو لا يفعل إلا القليل الزهيد ؟

ويخلص من هذه الوقفة أمام الوصية بالوالدين ، واستجاشة الضمائر بصورة التضحية النبيلة ممثلة فى الأم إلى مرحلة النضج والرشد مع استقامة الفطرة واهتداء القلب ، وبلوغ الأشد يتراوح بين الثلاثين والأربعين ، وفى هذه السن تتجه الفطرة المستقيمة السليمة إلى ما وراء الحياة وما بعد الحياة وتتدبر المصير والمآل، ويصور القرآن هنا خوالج النفس المستقيمة، وهى فى مفرق الطريق، بين شطر من العمر ولى، وشطر يكاد آخره يتبدى وهى تتوجه إلى الله، فالقلب الشاعر بنعمة ربه، المستعظم المستكثر لهذه النعمة التى تغمره وتغمر والديه قبله فهى قديمة العهد به ، المستقل المستصغر لجهده فى شكرها ، يدعو ربه أن يعينه بأن يجمعه كله لينهض بواجب الشكر ، فلا يفرق طاقته ولا اهتمامه فى مشاغل أخرى غير هذا الواجب الضخم الكبير وهو يطلب العون للتوفيق إلى عمل صالح يبلغ من كماله وإحسانه أن يرضاه ربه .

وتأتى رغبة القلب المؤمن فى أن يتصل عمله الصالح فى ذريته ، وأن يؤنس قلبه شعوره بأن فى عقبه من يعبد الله ويطلب رضاه ، والذرية الصالحة أمل العبد الصالح ، وهى آثر عنده من الكنوز والذخائر وأروح لقلبه من كل زينة الحياة ، والدعاء يمتد من الوالدين إلى الذرية ، وشفاعته إلى ربه التى يتقدم بها بين يدى هذا الدعاء الخالص لله ، هى التوبة والإسلام ، ذلك شأن العبد الصالح مع ربه ، فأما شأن الله ربه معه أنه يتقبل عنه أحسن الأعمال ، والسيئات مغفورة متجاوز عنها ، والمآل إلى الجنة ، ذلك وفاء بوعد الصدق الذى وعدوه فى الدنيا ، ولن يخلف الله وعده .

وينتقل السياق إلى نموذج الانحراف والفسوق والضلال؛ فالوالدان مؤمنات ، والولد العاق يجحد برهما أول ما يجحد،فيخاطبهما بالتأفف الجارح الخشن الوقح،ثم يجحد الآخرة بالحجة

الواهية من أن الناس قد خلوا من قبله ولم يعد منهم أحد ، والوالدان يريان الجحود ويسمعان الكفر ويفزعان مما يقوله الولد العاق لربه ولهما، ويرتعش حسهما لهذا التهجم والتطاول، ويهتفان به أن آمن فوعد الله حق، بينما هو يصر على كفره ، فيقول : ما هذا إلا خرافات سطرها الأولون وهنا يعاجله الله بمصيره المحتوم ، والقول الذى حق على هذا وأمثاله هو العقاب الذى ينال الجاحدين المكذبين وهم كثير خلت بهم القرون من الجن والإنس وقد كانوا خاسرين . وبعد بيان العاقبة والجزاء إجمالا للمهتدين والضالين ، يصور دقة الحساب والتقدير لكل فرد من هؤلاء وهؤلاء على حدة ، فلكل فرد درجته ، ولكل فرد عمله .

ثم يقفهم السياق وجها لوجه أمام مشهد شاخص لهم فى يوم الحساب الذى كانوا يجحدون ؛ إنه مشهد العرض على النار ، وفى مواجهتها وقبيل سوقهم إليها ، يقال لهم عن سبب عرضهم عليها وسوقهم إليها ؛ فقد كانوا يملكون الطيبات إذن ، ولكنهم استنفذوها فى الحياة الدنيا ، فلم يدخروا للآخرة منها شيئا ، واستمتعوا بها غير حاسبين فيها للآخرة حسابا ، واستمتعوا بها استمتاع الأنعام للحصول على اللذة بالمتاع ، غير ناظرين فيها للآخرة ، ولا شاكرين لله نعمته ، ولا متورعين فيها عن فاحش أو حرام ، ومن ثم كانت لهم دنيا ولم تكن لهم آخرة ، واشتروا تلك اللمحة الخاطفة على الأرض بذلك الأمد الهائل الذى لا يعلم حدوده إلا الله .

وكل عبد يستكبر فى الأرض فإنما يستكبر بغير حق ، فالكبرياء لله وحده ، وليست لأحد من عباده فى كثير أو قليل ، وعذاب الهون هو الجزاء العدل على الاستكبار فى الأرض ، فجزاء الاستكبار الهوان ، وجزاء الفسوق عن منهج الله ، المستكبرين عن طاعته ، وهى لمسة للقلب البشرى تستجيش الفطر السليمة القويمة لارتياد الطريق الواصل المأمون .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ وجوب البر بالوالدين بطاعتهما فى المعروف والإحسان إليهما بعد كف الأذى عنهما .

٢ ـ الاستعانة بالله والتوبة إليه حتى يرزقنا شكر نعمته والتوفيق للعمل الصالح لنا ولذريتنا من بعدنا .

٣ ـ عناية الإسلام بالأسرة وإقامتها على الحب والتعاون ، وأن يكون الأبوان قدوة صالحة لأبنائهما .

٤ ـ عقوق الوالدين وإنكار فضلهما والإساءة إليهما ولو بكلمة دليل الجحود وطريق موصل إلى إنكار الآخرة والكفر بالله تعالى ، نعوذ بالله من شره .

۞ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨)

معانى الكلمات :

أخا عاد : هود عليه السلام.

أنذر : حذر .

لتأفكنا : لتصرفنا .

عارضا : يعرض فى الأفق .

مكناهم : أقدرناهم وبسطنا لهم .

صرفنا : كررنا .

قربانا : ما يتقرب به .

إفكهم : افتراؤهم وكذبهم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على سنة الله فى الأمم فى إرسال الرسل إليهم .

٢ ـ أن نعلم سفه وجهل الأمم التى تطالب بالعذاب وتستعجل به .

٣ ـ أن نعلم سنة الله تعالى فى إهلاك المجرمين .

المحتوى التربوى :

يوجه الله سبحانه نبيه ﷺ أن يذكر أخا عاد وإنذاره لقومه بالأحقاف ، يذكره ليتأسى بأخ له من الرسل لقى مثلما يلقى من إعراض قومه وهو أخوهم ، ويذكره ليذكر المشركين فى مكة بمصير الغابرين من أمثالهم على مقربة منهم ومن حولهم وقد أنذر أخو عاد قومه ولم يكن أول نذير لقومه فقد سبقته الرسل إلى أقوامهم ، والأمر ليس بدعا ولا غريبا ، فهو معهود ومألوف ، وقد أنذرهم ما أنذر به كل رسول قومه : بأن يعبدوا الله ، وعبادة الله وحده عقيدة فى الضمير ومنهج فى الحياة ، والمخالفة عنها تنتهى إلى العذاب العظيم فى الدنيا أو فى الآخرة ، أو فيهما على السواء .

لقد كان جواب قومه سوء الظن وعدم الفهم ، والتحدى للنذير ، واستعجال العذاب الذى ينذرهم به والاستهزاء والتكذيب وإصراراً على الباطل واعتزازا ، فأما هود النبى فيتلقى هذا كله فى أدب النبى وفى تجرده من كل ادعاء ، وفى الوقوف عند حده لا يتعداه ، ويجيب : إنما أنذركم بالعذاب كما كلفت أن أنذركم بالعذاب، ولست أعلم متى يحين موعده، ولا كيف يكون شكله، فعلم ذلك عند الله ، وإنما أنا مبلغ عن الله ، ولا أدعى علما ولا قدرة مع الله ، ولكنى أراكم قوما لا تعقلون ولا تفهمون .

ويجمل السياق هنا ما كان بين هود وقومه من جدل طويل ، ليمضى إلى النهاية المقصودة أصلا فى هذا المقام رداً على التحدى والاستعجال ، وتقول الروايات : إنه أصاب القوم حر شديد واحتبس عنهم المطر ، ودخن الجو حولهم من الحر والجفاف ثم ساق الله إليهم سحابة ، ففرحوا بها فرحا شديداً وخرجوا يستقبلونها فى الأودية ، وهم يحسبون فيها الماء ، وجاءهم الرد بلسان الواقع بأن هذا العذاب الذى طلبتموه ؛ ريح صرصر عاتية تخرب كل شىء بإذن ربها، فأصبحت المساكن قائمة خاوية موحشة لا ديار فيها ولا نافخ نار ، أما هم وأما أنعامهم وأما أشياؤهم وأما متاعهم فلم يعد شىء منه يرى ، وجزاء الظالمين سنة جارية وقدر مطرد .

وعلى مشهد الدمار والخراب يلتفت إلى أمثالهم الحاضرين ، يلمس قلوبهم بما ترتعش منه القلوب ؛ فهؤلاء الذين دمرتهم الريح المأمورة بالتدمير ، مكناهم فيما لم نمكنكم فيه إجمالا من القوة والمال والعلم والمتاع ، وآتيناهم أسماعا وأبصاراً وأفئدة ولكن هذه الحواس والمدارك لم تنفعهم فى شىء ، إذ إنهم عطلوها وحجبوها ، فقد كانوا يجحدون بآيات الله ، والجحود بآيات الله يطمس الحواس والقلوب ويفقدها الحاسية والإشراق والنور والإدراك، وأحاط بهم العذاب والنكال الذى كانوا يكذبون به ويستبعدون وقوعه .

يقول صاحب الظلال : « والعبرة التى يفيدها كل ذى سمع وبصر وقلب ألا يغتر ذو قوة بقوته ، ولا ذو مال بماله ، ولا ذو علم بعلمه فهذه قوة من قوى الكون تسلط على أصحاب القوة والمال والعلم والمتاع ، فتدمر كل شىء وتتركهم لا يرى إلا بيوتهم حين يأخذهم الله بسنته التى يأخذ بها المجرمين » .

والريح قوة دائبة العمل وفق النظام الكونى الذى قدره الله ، وهو يسلطها حين يسلطها للتدمير وهى ماضية فى طريقها الكونى ، تعمل وفق الناموس المرسوم ، فلا حاجة لخرق النواميس الكونية ـ كما يعترض المعترضون واهمين فصاحب الناموس المرسوم هو صاحب القدر المعلوم ، وكل حادث وكل حركة ، وكل اتجاه وكل شخص وكل شىء محسوب حسابه داخل فى تصميم الناموس ، والريح كغيرها من القوى الكونية مسخرة بأمر ربها ، ماضية تؤدى

ما قدره لها فى نطاق الناموس المرسوم لها وللوجود كله ، ومثلها قوة البشر المسخرة لما يريده الله بها ، المسخر لها من قوى الكون ما أراد الله تسخيره لها ، وحين يتحرك البشر فإنما يؤدون دورهم فى هذا الوجود ، ليتم ما أراده الله بهم وفق ما يريد ، وحرية إرادتهم فى الحركة والاختيار جزء من الناموس الكلى ينتهى إلى التناسق الكونى العام ، وكل شىء مقدر تقديراً لا يناله نقص ولا اضطراب .

وتأتى العبرة الكلية لمصارع من حولهم من القرى من عاد وغير عاد ، وقد أهلك الله القرى التى كذبت رسلها فى الجزيرة ، كعاد بالأحقاف فى جنوب الجزيرة ، وثمود بالحجر فى شمالها ، وسبأ وكانوا باليمن ، ومدين وكانت فى طريقهم إلى الشام ، وكذلك قرى قوم لوط وكانوا يمرون بها فى رحلة الصيف إلى الشمال .

ولقد نوع الله فى آياته لعل المكذبين يرجعون إلى ربهم ويثوبون ، و لكنهم مضوا فى ضلالتهم ، فأخذهم العذاب الأليم ألوانا وأنواعا ، تتحدث بها الأجيال من بعدهم ، ويعرفها الخلف من ورائهم ، وكان مشركو مكة يتسامعون بها ، ويرون آثارها غادين رائحين .

وهنا يلفتهم إلى الحقيقة الواقعة ، فقد دمر الله على المشركين قبلهم وأهلكهم دون أن تنجيهم آلهتهم التى كانوا يتخذونها من دون الله ، زاعمين أنهم يتقربون بها إليه سبحانه ، وهى تستنزل غضبه ونقمته ولا تنصرهم ، بل تتركهم وحدهم لا يعرفون طريقا إليهم أصلا ، فضلا على أن يأخذوا بيدهم وينجدهم من بأس الله، وهذا كذبهم وافتراؤهم ، وذلك مآله وتلك حقيقة الهلاك والتدمير،فماذا ينتظر المشركون الذين يتخذون من دون الله آلهة بدعوى أنها تقربهم من الله زلفى ؟ وهذه هى العاقبة والمصير .

ومصرع عاد عندما كذبوا بالنذير ، وأتتهم الريح العقيم التى توقعوا فيها الرى والحياة ، فإذا بها تحمل إليهم الهلاك والدمار والعذاب الذى استعجلوا به وطلبوه ـ يلمس القلوب وهو يذكر بأن عاداً كانت أشد قوة وأكثر ثروة، والعبرة لتشد بالأسماع والأبصار لتخضع وتذل ، فتتذكر بأن هناك إلها قويا خالقا تنبغى له العبودية والطاعة فى كون حركته وسكونه بيد الله .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الإعراض عن هداية الله تعالى يستوجب العذاب .

٢ ـ ألا يغتر قوى بقوته ، ولا غنى بثروته ، ولا عالم بعلمه ، فكل شىء من عند الله وهو قادر على أن يزيله فى طرفة عين .

٣ ـ على المسلم أن يتأدب بأدب النبوة فى مخاطبة من يدعوه وفى مجادلته بالتى هى أحسن .

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ فَلَمَّا
حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ
﴿٢٩﴾ قَالُوا يَٰقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ
مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ
﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن
ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ
فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦ أَوْلِيَاءُ أُولَٰٓئِكَ
فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ
وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰٓ
إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ
أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا
كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ
وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا إِلَّا
سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

معاني الكلمات :

صرفنا : وجهنا .

نفراً : جماعة من ثلاثة إلى عشرة .

قضى : فرغ .

ولوا : رجعوا .

منذرين : محذرين .

العزم : الثبات والصبر .

يلبثوا : يمكثوا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نقف على أثر مس القرآن لقلوب الجن .

٢ ـ أن نعلم أن كتاب الله المقروء والمفتوح يدعو إلى الحق والهداية .

٣ ـ أن نستشعر هول العذاب يوم الحساب .

المحتوى التربوي :

يقول صاحب الظلال : « سياق قصة النفر من الجن الذين استمعوا لهذا القرآن ، فشادوا بالإنصات واطمأنت قلوبهم إلى الإيمان ، وانصرفوا إلى قومهم منذرين يدعونهم إلى الله ويبشرونهم بالغفران والنجاة ، ويحذرونهم الإعراض والضلال ، سياقة الخبر فى هذا المجال بهذه الصورة ، وتصوير مس القرآن لقلوب الجن هذا المس الذى يتمثل فى قولهم : أنصتوا عندما طرق أسماعهم ، ويتمثل فيما حكوه لقومهم عنه ، وفيما دعوهم إليه ، كل هذا من شأنه أن يحرك قلوب البشر الذين جاء القرآن لهم فى الأصل ... ومقالة النفر من الجن ـ مع خشوعهم عند سماع القرآن ـ تتضمن أسس الاعتقاد الكامل : تصديق الوحى ، ووحدة العقيدة بين التوارة والقرآن ، والاعتراف بالحق الذى يهدى إليه ، والإيمان بالآخرة وما ينتهى إلى المغفرة وما ينتهى إلى العذاب

من الأعمال ، والإقرار بقوة الله وقدرته على الخلق وولايته وحده للعباد ، والربط بين خلق الكون وإحياء الموتى .. وكلها جاءت على لسان النفر من الجن ، من عالم آخر غير عالم الإنسان .

ومن هذا النص والنصوص الأخرى المتناثرة فى القرآن الكريم، ومن الآثار النبوية الصحيحة ـ نستطيع أن ندرك بعض الحقائق عن الجن ، هذه الحقائق تتلخص فى :

أن هنالك خلقا اسمه الجن ، مخلوق من النار ، وأن هذا الخلق له خصائص غير خصائص البشر ، منها : خلقته من نار ، ومنها : أنه يرى الناس ولا يراه الناس ، وأنه له تجمعات معينة تشبه تجمعات البشر فى قبائل وأجناس ، وأنه له قدرة على الحياة فى هذا الكوكب الأرضى ، والجن الذين سخروا لسليمان عليه السلام كانوا يقومون له بأعمال فى الأرض تقتضى أن يكونوا مزودين بالقدرة على الحياة فيها .

وأن له قدرة كذلك على الحياة خارج هذا الكوكب ، وأنه يملك التأثير فى إدراك البشر وهو مأذون فى توجيه الضالين منهم غير عباد الله، وأنه يستطيع أن يسمع صوت الإنسان ويفهم لغته، وأنه قابل للهدى والضلال ، وهذا هو القدر المستيقن فى أمر الجن وهو حسبنا بلا زيادة عليه ليس عليها من دليل .

لقد كان تدبيراً من الله أن يصرف نفراً من الجن إلى استماع القرآن لا مصادفة عابرة ، وكان فى تقدير الله أن تعرف الجن نبأ الرسالة الأخيرة كما عرفت من قبل رسالة موسى ، وأن يؤمن فريق منهم وينجو من النار المعدة لشياطين الإنس ، ويرسم النص مشهد هذا النفر ـ وهم ما بين ثلاثة وعشرة ـ وهم يستمعون إلى هذا القرآن ، ويصور لنا ما وقع فى حسهم منه من الروعة والتأثر والرهبة والخشوع ، وقد استمعوا صامتين منتبهين حتى النهاية ، فلما انتهت التلاوة لم يلبثوا أن سارعوا إلى قومهم وقد حملت نفوسهم ومشاعرهم منه مالا تطيق السكوت عليه أو التلكؤ فى إبلاغه والإنذار به .

وولوا إلى قومهم مسارعين يقولون لهم . إنا سمعنا كتابا جديدا أنزل من بعد موسى ، يصدق كتاب موسى فى أصوله ، ثم عبروا عما خالج مشاعرهم منه ، وما أحست ضمائرهم فيه ، فقالوا عنه : أنه يهدى إلى الحق والهدى ، لا يقف له قلب غير مطموس ، ولا تصمد له روح غير معاندة ولا مستكبرة ولا مشدودة بالهوى الجامح اللئيم ، ثم مضوا فى نذارتهم لقومهم فى حماسة المقتنع المندفع الذى يحس أن عليه واجبا فى النذارة لابد أن يؤديه فقد اعتبروا نزول هذا الكتاب إلى الأرض دعوة من الله لكل من بلغته من إنس وجن ، واعتبروا محمداً ﷺ داعيا لهم إلى الله بمجرد تلاوته لهذا القرآن واستماع الثقلين له ، فدعوا قومهم إلى أن الاستجابة للإيمان بالله وقد عرفوا أن الإيمان والاستجابة لله يكون معهما غفران الذنب والإجارة من العذاب ، وبينوا أن الذى لا

يستجيب لا يعجز الله أن يأتى به ويوقع عليه الجزاء ، ويذيقه العذاب الأليم ، فلا يجد له من دون الله أولياء ينصرونه أو يعينونه ، وأن هؤلاء المعرضين ضالون ضلالاً بينًا عن الصراط المستقيم .

ويأتى فى السياق تعجيبا من أولئك الذين لا يستجيبون لله حاسبين أنهم سيفلتون ، أو أنه ليس هناك حساب ولا جزاء ، وهى لفتة إلى كتاب الكون المنظور الذى يشهد بالقدرة المبدعة ابتداء لهذا الخلق الهائل : السموات والأرض ، ويوحى للحس البشرى بيسر الإحياء بعد الموت ، وهذا يقع فى نطاق قدرة الله الشاملة لكل شىء كان أو يكون .

وعند ذكر الإحياء يرتسم مشهد الحساب كأنه شاخص للعيون ، ويبدأ المشهد حكاية ، أو مقدمة لحكاية اليوم الذى سيعرض فيه الذين كفروا على النار ، وبينما السامع فى انتظار وصف ما سيكون ، إذا المشهد يشخص بذاته ، وإذا الحوار قائم فى المشهد المعروض : أليس هذا بالحق لما كانوا يكذبون به فى الدنيا ، فلا يملكون إلا التسليم فى خزى ومذلة وفى ارتياع ويقسمون بربهم الذى كانوا لا يستجيبون لداعيه على الحق الذى أنكروه ، ويقضى الأمر وينتهى الحوار فالجريمة ظاهرة ،و الجانى معترف فإلى الجحيم .

ثم يوجه السياق الرسول ﷺ أن يصبر عليهم ولا يستعجل لهم ، فقد رأى ما ينتظرهم وهم منهم قريب ، ويحتاج الرسول ﷺ إلى توجيه ربه وهو الذى احتمل ما احتمل ، وعانى من قومه ما عانى .

يقول صاحب الظلال : « ألا إنه لطريق شاق ، طريق هذه الدعوة ، وطريق مرير حتى لتحتاج نفس كنفس محمد ﷺ فى تجردها وانقطاعها للدعوة ، وفى ثباتها وصلابتها ، وفى صفائها وشفافيتها ، تحتاج إلى التوجيه الربانى بالصبر وعدم الاستعجال على خصوم الدعوة المتعنتين ، نعم وإن مشقة هذا الطريق لتحتاج إلى مواساة وإن صعوبته لتحتاج إلى صبر ، وإن مرارته لتحتاج إلى جرعة حلوة من رحيق اللطف الإلهى المختوم » .

ثم يطمئن السياق أنه أمد قصير ساعة من نهار ، وما كانت تلك الساعة إلا بلاغا للعباد وقبل أن يحق الهلاك والعذاب الأليم .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ إذا كان الجن قد تحركت قلوبهم للقرآن فمن الأولى لبنى الإنسان أن تلتفت قلوبهم إليه .

٢ ـ الكون الكبير بكل من فيه وما فيه كتاب مفتوح يدل على قدرة الله تعالى .

٣ ـ لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا ، فصعوبة طريق الدعوة تحتاج إلى صبر وثبات .

سورة محمد

معانى الكلمات :

صدوا : منعوا .

أضل : أعماهم.

كفَّر : أزال .

بالهم : حالهم .

أثخنتموهم : هزمتموهم .

فشدوا : فقيدوا .

تعساً : هلاكا .

أحبط : أبطل .

بسم الله الرحمن الرحيم

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) وَالَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن
رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ
اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣) فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ
إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ
أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم
بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ
وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا
فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (٨) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ
فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩) ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠)
ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ (١١)

نصف الحزب ٥١

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم حقيقة الكافرين والمؤمنين .

٢ ـ أن نتعرف على حكمة القتال وتكريم الشهداء .

٣ ـ أن نقف على مصارع الغابرين ودمار الكافرين .

المحتوى التربوى :

تبدأ السورة ببيان حقيقة الذين كفروا وحقيقة الذين آمنوا فى صيغة هجوم أدبى على الذين كفروا ، وتمجيد كذلك للذين آمنوا مع إيحاء بأن الله عدو للأولين وليّ للآخرين ، وأن هذه حقيقة ثابتة فى تقدير الله سبحانه ، فهو إذن إعلان حرب منه تعالى على أعدائه وأعداء دينه منذ اللفظ الأول فى السورة ، والافتتاح يمثل الهجوم بلا مقدمة ولا تمهيد ، وإضلال الأعمال الذى يواجه به الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ، سواء صدوا هم أم صدوا وصدوا غيرهم ـ يفيد ضياع هذه الأعمال وبطلانها ، وهذه الأعمال التى أضلت ربما كان المقصود منها بصفة خاصة الأعمال التى يأملون من ورائها الخير .

يقول صاحب الظلال : « لا قيمة لعمل صالح من غير إيمان ، فهذا الصلاح شكلى لا يعبر عن حقيقة وراءه ، والعبرة بالباعث الذى يصدر عنه العمل لا بشكل العمل .. فلابد من الإيمان

ليشد النفس إلى أصل تصدر عنه فى كل اتجاهاتها وتتأثر به فى كل انفعالاتها ، وحينئذ يكون للعمل الصالح معناه » .

وفى الجانب الآخر الذين آمنت قلوبهم وسرائرهم ،و انقادت لشرع الله جوارحهم وبواطنهم وظواهرهم وآمنوا بما جاء به محمد ﷺ وإلى جانب هذا الإيمان المستكن فى الضمير العمل الظاهر فى الحياة ، وهؤلاء تغفر لهم سيئاتهم ، وتصلح أحوالهم ، وإصلاح البال نعمة كبرى تلى نعمة الإيمان فى القدر والقيمة والأثر ، ومتى صلح البال استقام الشعور والتفكير ، واطمأن القلب والضمير ، وارتاحت المشاعر والأعصاب ، ورضيت النفس واستمتعت بالأمن والسلام ، وماذا بعد هذا من نعمة أو متاع ؟ !

وهذا كله ليس محاباة ولا مصادفة إنما هو أمر له أصله الثابت المرتبط بالحق ، وجعل الحق هو الأساس والباطل ليست له جذور ضاربة فى كيان هذا الوجود ، ومن ثم فهو ذاهب هالك ، وكل من يتبعه ، وكل ما يصدر عنه ذاهب هالك كذلك ، والحق ثابت تقوم عليه السموات والأرض وتضرب جذوره فى أعماق هذا الكون ، ومن ثم يبقى كل ما يتصل به ويقوم عليه ، وكذلك يضع لهم القواعد التى يقيسون عليها أنفسهم وأعمالهم .

وينتقل السياق مرشداً للمؤمنين إلى ما يعتمدونه فى حروبهم مع المشركين ، فاللقاء المقصود هنا هو اللقاء للحرب والقتال لا مجرد اللقاء ، وضرب الرقاب المأمور به عند اللقاء يجىء بعد عرض الإسلام عليهم وإبائهم له طبعا ، والإثخان شدة التقتيل حتى تتحطم قوة العدو وتتهاوى ، فلا تعود به قدرة على هجوم أو دفاع ، وعندئذ يؤسر من استأسر ويشد وثاقه ، ثم بعد انقضاء الحرب وإنفصال المعركة يتم التخيير فى أمرهم ، إن شئتم مننتم عليهم فأطلقتم أساراهم مجاناً ، وإن شئتم فاديتموهم بمال تأخذونه منهم وتشارطونهم عليه ، أو فى نظير إطلاق سراح المسلمين المأسورين .

الذين كفروا ، فهو ـ سبحانه ـ قادر على أن يقضى عليهم قضاء مباشراً ، وإنما هو ابتلاء الله لعباده بعضهم ببعض ، والله لا يكلف الذين آمنوا هذا الأمر ولا يفرض عليهم هذا الجهاد ؛ لأنه يستعين بهم ـ حاشاه ـ على الابتلاء الذى تقدر به منازلهم ، فالذين كفروا وصدوا عن سبيل الله الذين يظهرون فى ثوب البطش والاستكبار حفنه من الخلق لا تساوى شيئاً فى ميزان الله إنما يتخذ الله المؤمنين ستاراً لقدرته ، ولو شاء لانتصر من الكافرين جهرة ، ولكنه إنما يريد لعباده المؤمنين الخير وهو يبتليهم ويربيهم ويصلحهم ، وييسر لهم أسباب الحسنات الكبار .

ومن ثم يكشف عن مصير الذين يقتلون فى سبيل الله ، فلن يضل أعمالهم ، فهى أعمال مهتدية واصلة مربوطة إلى الحق الثابت الذى صدرت عنه ، وانبعثت حماية له واتجاها إليه ، وهى باقية من ثم لأن الحق باقٍ لا يهدر ولا يضيع ، ويظل يتعهدهم الله بالهداية بعد الاستشهاد ويتعهدهم

بإصلاح البال ، فهى حياة مستمرة ، ويحقق لهم الله ما وعدهم بإدخالهم الجنة فيرى الشهيد مقعده من الجنة .

وفى ظل هذه الكرامة للذين قتلوا فى سبيل الله يحرض الله المؤمنين على التجرد لله ،و الاتجاه إلى نصرة نهجه فى الحياة ، ويعدهم على هذا النصر والتثبيت فى المعركة ، والتعس والضلال لأعدائهم وأعدائه وقضاء بالخيبة والخذلان ، وإضلال الأعمال ضياع بعد ذلك وفناء ، وذلك جزاء الكراهية التى تعتمل فى قلوبهم وتختلج فى نفوسهم لما أنزل لله .

ثم يلوى أعناقهم إلى مصارع الغابرين قبلهم فى شدة وعنف وهى لفتة عنيفة مروعة فيها ضجة وفرقعة وفيها مشهد للذين من قبلهم يدمر عليهم كل ما حولهم وكل ما لهم ، فإذا هو أنقاض متراكمة ،و إذا هم تحت هذه الأنقاض المتراكمة ، وذلك المشهد الذى يرسمه التعبير مقصود بصورته هذه وحركته والتعبير يحمل فى إيقاعه وجرسه صورة هذا المشهد وفرقعته فى أنقاض وتحطمه مشهد التدمير والتحطيم والردم يلوح للحاضرين من الكافرين ، ولكل من يتصف بهذه الصفة بعد بأنها فى انتظارهم هذه الوقعة المدمرة التى تدمر عليهم كل شىء وتدفنهم بين الأنقاض .

وتفسير هذا الأمر الهائل المروع الذى يدمر على الكافرين وينصر المؤمنين هو القاعدة الأصيلة الدائمة ، فالله مولى الذين آمنوا ، ومن كان الله مولاه وناصره فحسبه ، وفيه الكفاية والغناء ، وكل ما قد يصيبه إنما هو ابتلاء وراءه الخير، لا تخليا من الله عن ولا يته له ، ولا تخلفا لوعد الله بنصر من يتولاه من عباده ، ومن لم يكن الله مولاه فلا مولى له ، ولو اتخذ الإنس والجن كلهم أولياء ، فهو فى النهاية مضيع عاجز ، ولو تجمعت له كل أسباب الحماية وكل أسباب القوة التى يعرفها الناس ، فلا يبلغ هؤلاء ومن وراءهم من الأتباع ، بل لا يبلغ أهل هذه الأرض كلها أن يكونوا أنمالا صغيرة ، لا بل لا يبلغون أن يكونوا هباء تتقاذفه النسمات ، لا بل إنهم لا يبلغون شيئا أصلا حين يقفون أمام قوة الله .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ لا قيمة للعمل الصالح بغير إيمان .

٢ ـ صلاح البشرية لن يكون إلا بأيدى مجاهدين أشداء .

٣ ـ لا جهاد ولا شهادة ولا جنة إلا حين يكون الهدف أن تكون كلمة الله هى العليا وأن تهيمن شريعته ومنهاجه فى ضمائر الناس وأخلاقهم وسلوكهم .

الجزء السادس والعشرون — سورة محمد

إن الله يدخل الذين ءامنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من
تحتها الأنهار والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام
والنار مثوى لهم ﴿١٢﴾ وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك
التى أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم ﴿١٣﴾ أفمن كان على بينة
من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم ﴿١٤﴾ مثل الجنة
التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير ءاسن وأنهار من لبن لم
يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى
ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم كمن هو خالد فى النار
وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم ﴿١٥﴾ ومنهم من يستمع إليك
حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال ءانفا
أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم ﴿١٦﴾ والذين
اهتدوا زادهم هدى وءاتاهم تقواهم ﴿١٧﴾ فهل ينظرون إلا
الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها فأنى لهم إذا جاءتهم
ذكراهم ﴿١٨﴾ فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك
وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم ﴿١٩﴾

٥٠٨

معانى الكلمات :

مثوى : دار إقامة .

بينة : بصيرة .

آسن : متغير الرائحة .

حميماً : شديد الحرارة .

آنفا : الآن .

بغتة : فجأة .

أشراطها : علاماتها .

متقلبكم : متصرفكم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على نصيب المؤمنين ونصيب الكافرين من المتاع .

٢ ـ أن نستشعر خطورة المنافقين .

٣ ـ أن نعلم موقف المنافقين إزاء شخص رسول الله ﷺ .

المحتوى التربوى :

يوازن السياق بين نصيب الذين آمنوا ونصيب الذين كفروا من المتاع بعدما بين نصيب هؤلاء وهؤلاء فيما يشتجر بينهم من قتال ونزال مع بيان الفارق الأصيل بين متاع ومتاع ، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات يتمتعون فى الأرض أحيانا من أطيب المتاع ، ولكن الموازنة هنا إنما تقوم بين النصيب الحقيقى الضخم للمؤمنين ـ وهو نصيبهم فى الجنة ـ والنصيب الكلى للكافرين الذى لا نصيب لهم سواه .

ونصيب المؤمنين يتلقونه من يد الله فى جنات تجرى من تحتها الأنهار ، فالله هو الذى يدخلهم ، وهو إذن نصيب كبير علوى رفيع ، وهم ينالونه من بين يدى الله فى علاه جزاء على الإيمان والصلاح متناسقا فى رفعته وكرامته مع الارتفاع المنطلق من الإيمان والصلاح ، ونصيب الذين

كفروا متاع وأكل كما تأكل الأنعام وهو تصوير زرى ، يذهب بكل سمات الإنسان ومعالمه ، ويلقى ظلال الأكل الحيوانى الشره ، والمتاع الحيوانى الغليظ بلا تذوق ، وبلا تعفف عن جميل أو قبيح ، والفارق الرئيسى بين الإنسان والحيوان أن للإنسان إرادة وهدفا وتصوراً خاصا للحياة يقوم على أصولها الصحيحة المتلقاه من الله خالق الحياة فإذا فقد هذا كله فقد أهم خصائص الإنسان المميزة لجنسه ، وأهم المزايا التى من أجلها كرمه الله .

وتعترض سلسلة الموازانات بين الذين آمنوا والذين كفروا لفتة إلى القرية التى أخرجت الرسول ﷺ فى تهديد شديد ووعيد أكيد لأهل مكة فى تكذيبهم لرسول الله ﷺ ، وهو سيد الرسل وخاتم الأنبياء ، فإذا كان الله قد أهلك الأمم الذين كذبوا الرسل قبله بسببهم ، وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء ، فما ظن هؤلاء أن يفعل الله بهم فى الدنيا والآخرة ؟

ثم يمضى السياق فى الموازنة بين حال الفريقين ؛ فالذين آمنوا على بينة من ربهم ، رأوا الحق وعرفوه ، واستيقنوا من مصدره واتصلوا بربهم فتلقوا عنه ، وهم على يقين مما يتلقون ، والذين كفروا زين لهم سوء عملهم فرأوه حسنا وهو سيئ ولم يروا ولم يستيقنوا ، واتبعوا أهواءهم بلا ضابط يرجعون إليه ، ولا أصل يقيسون عليه ، فهؤلاء ليسوا كهؤلاء إنهم يختلفون حالا ومنهجا واتجاها فلا يمكن أن يتفقوا ميزانا ولا جزاء ولا مصيرا .

وهذه صورة من صور التفرقة بين هؤلاء وهؤلاء فى المصير ؛ فالجنة التى وعد بها المتقون ، فيها أنهار من ماء لا يتغير ، وأنهار من لبن فى غاية البياض والحلاوة والدسومة ، وأنهار من خمر ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا ، بل حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل ، وأنهار من عسل مصفى فى غاية الصفاء وحسن اللون والطعم والريح ، ولهم فيها ما يشتهون من الثمرات ، ولن يكون المتقون كمن يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ،و جزاؤهم يكون ماء حميما ساخنا يقطع الأمعاء التى كانت تحش وتلتهم الأكل كالأنعام .

وينتقل السياق إلى موقف المنافقين إزاء شخص رسول الله ﷺ ، وحركة النفاق حركة مدنية لم يكن لها وجود فى مكة ؛ لأنه لم يكن هناك ما يدعو إليها ، فالمسلمون فى مكة كانوا فى موقف المضطهد الذى لا يحتاج أحد أن ينافقه ، والمنافقون فى بلادتهم وقلة فهمهم كانوا يجلسون إلى رسول الله ﷺ يستمعون كلامه فلا يفهمون منه شيئا ، فإذا خرجوا من عنده سألوا أهل العلم عما قاله رسول ﷺ فقلوبهم مطموسة مغلقة ، كما يدل سؤالهم على الغمز الخفى اللئيم إذ يريدون أن يقولوا : إن ما يقوله محمد لا يفهم أولا يعنى شيئا يفهم ، وقد يعنون السخرية من احتفال أهل العلم بكل ما يقوله محمد ﷺ وحرصهم على استيعاب معانيه وحفظ ألفاظه ، وكلها احتمالات تدل على اللؤم والخبث والانطماس والهوى الدفين .

ذلك حال المنافقين أما حال المهتدين فهو على النقيض ، وترتيب الوقائع فى الآية يستوقف النظر فالذين اهتدوا بدؤوا هم بالاهتداء ، فكافأهم الله بزيادة الهدى ، وكافأهم بما هو أعمق وأكمل بأن آتاهم تقواهم ، والتقوى حالة فى القلب تجعله ـ أبداً ـ واجفا من هيبة الله شاعراً برقابته ، وهى مكافأة يؤتيها الله من يشاء من عباده ، حين يهتدون هم ويرغبون فى الوصول إلى رضا الله .

ومن ثم يعود بعد هذه اللفتة إلى الحديث عن أولئك المنافقين المطموسين الغافلين ويذكرهم بما ينتظر الناس من حساب وجزاء ، فهل ينتظرون إلا الساعة فقد وجدت علاماتها والرسالة الأخيرة أضخم هذه العلامات ، وما عاد لعاقل أن يغفل حتى تأخذه الساعة بغتة حيث لا يملك صحواً ولا ذكراً .

ثم يتجه الخطاب إلى الرسول ﷺ ومن معه من المهتدين المتقين المتطلعين ليأخذوا طريقا آخر ، طريق العلم والمعرفة والذكر والاستغفار ، والشعور برقابة الله وعلمه الشامل المحيط ، ويعيشوا بهذه الحساسية يرتقبون الساعة وهم حذرون متأهبون ، وهو التوجيه إلى تذكر الحقيقة الأولى التى يقوم عليها أمر النبى ﷺ ومن معه ، وعلى أساس العلم بهذه الحقيقة واستحضارها فى الضمير تبدأ التوجيهات الأخرى بالاستغفار للذنب، وهو المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ولكن هذا واجب العبد المؤمن الشاعر الحساس الذى يشعر ـ أبداً ـ بتقصيره مها جهد ، ويشعر ـ وقد غفر له ـ أن الاستغفار ذكر وشكر على الغفران .

واللمسة الأخيرة فى هذا التوجيه إلى أن الله يعلم تصرفكم فى نهاركم ومستقركم فى ليلكم ، حيث يشعر القلب المؤمن بالطمأنينة وبالخوف جميعا ، الطمأنينة وهو فى رعاية الله حيثما تقلب أو ثوى ، والخوف من هذا الموقف الذى يحيط به علم الله ويتعقبه فى كل حالاته ، ويطلع على سره ونجواه ، إنها التربية : التربية باليقظة الدائمة والحساسية المرهفة ، والتطلع والحذر والانتظار ، والتحرج من أن يرى الله عبده المؤمن على هيئة أو فى حالة لا يرضاها .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ للإنسان إرادة وهدف وتصور خاص للحياة يقوم على أصولها المتلقاة من الله خالق الحياة، وهذا هو الفارق بين الإنسان والحيوان .

٢ ـ بالإيمان والعمل الصالح يكسب المسلمون الدنيا والآخرة .

٣ ـ من صفات المسلم التربية باليقظة الدائمة والتطلع والحذر والانتظار والشعور بمراقبة الله.

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾

معانى الكلمات :

محكمة : صريحة ظاهرة الدلالة .

المغشى : من أصابته الغشية والسكرة .

أولى : أقرب .

لعنهم : أبعدهم .

يتدبرون : يتفهمون .

ارتدوا : رجعوا .

سوّل : زين .

أملى لهم : منّاهم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على موقف المنافقين من الجهاد .

٢ ـ أن نعلم أن التآمر مع اليهود والأعداء هو حال المنافقين .

٣ ـ أن نعلم أن طبيعة النفاق لا تقوى على التستر الطويل .

المحتوى التربوى :

ينتقل السياق إلى تصوير موقف المنافقين من الجهاد ، وما يعتمل فى نفوسهم من جبن وخور وذعر وهلع عند مواجهة هذا التكليف ، ويكشف دخيلتهم فى هذا الأمر كما يكشف لهم ما ينتظرهم لو ظلوا على هذا النفاق ، ولم يخلصوا ويستجيبوا ويصدقوا الله عندما يعزم الأمر ويتحتم الجهاد ، وتطلع الذين آمنوا إلى تنزيل سورة : إما أن يكون مجرد تعبير عن شوقهم إلى سورة جديدة من هذا القرآن الذى يحبونه ويجدون فى كل سورة منه زاداً جديداً حبيبا ، وإما أن يكون تطلعا إلى سورة تبين أمراً من أمور الجهاد، وتفصل فى قضية من قضايا القتال تشغل بالهم ، فإذا أنزلت سورة فاصلة بينة لا تحتمل تأويلا وذكر فيها الأمر بالقتال ، أو بيان حكم المتخلفين عنه أوأى شأن من شؤونه، إذا بأولئك الذين فى قلوبهم مرض يفقدون تماسكهم ، ويسقط عنهم

ستار الرياء والذى يتسترون به، وينكشف جزعهم وضعف نفوسهم من مواجهة هذا التكليف، ويرسم القرآن صورة خالدة لكل نفس خوارة لا تعتصم بإيمان ولا بفطرة صادقة ، ولا بحياء تتجمل به أمام الخطر .

وبينما هم فى هذا التخاذل والتهافت والانهيار تمتد إليهم يد الإيمان بالزاد الذى يقوى العزائم ويشد القوائم لو تناولوه فى إخلاص ؛ فأولى لهم من هذه الفضيحة ومن هذا الهلع والنفاق طاعةٌ تستسلم لأمر الله عن طمأنينة وتنهض بأمره عن ثقة ، وقول معروف بشىء بنظافة الحس واستقامة القلب وطهارة الضمير ، وأولى لهم إذا عزم الأمر وواجهوا الجهاد أن يصدقوا الله يصدقوه عزيمة ويصدقوه شعوراً فيربط على قلوبهم ، ويشد من عزائمهم ويثبت أقدامهم وييسر المشقة عليهم ، ويكتب لهم إحدى الحسنيين : النجاة والنصر ، أو الاستشهاد والجنة هذا هو الأولى ، وهذا هو الزاد الذى يقدمه الإيمان فيقوى العزائم ويذهب بالفزع ، ويحل محله الثبات والاطمئنان .

وبينما هو يتحدث عنهم يلتفت إليهم مباشرة ليخاطبهم مقرعا مهدداً بسوء العاقبة لو قادهم حالهم هذا إلى النكسة والتولى إلى الكفر ، وخلع ذلك الستار الرقيق من الإسلام ، فيلوح السياق لهم بالنذير والتحذير .. احذروا فإنكم منتهون إلى أن تعودوا إلى الجاهلية التى كنتم فيها تفسدون فى الأرض وتقطعون الأرحام ، كما كان شأنكم قبل الإسلام .

وبعد هذه اللفتة المفزعة المنذرة لهم يعود إلى الحديث عنهم لو انتهوا إلى هذا الذى حذرهم إياه ، أولئك الذين يظلون فى مرضهم ونفاقهم حتى يتولوا عن هذا الأمر الذى دخلوا فيه بظاهرهم ولم يصدقوا الله فيه ولم يستيقنوه ، أولئك الذين لعنوا وطردهم الله وحجبهم عن الهدى فعطلوا السمع وعطلوا البصر وإن كانوا لم يفقدوا أيا منهما ، ولكنهم عطلوا قوة الإدراك وراء السمع والبصر ، فلم يعد لهذه الحواس وظيفة لأنها لم تعد تؤدى هذه الوظيفة .

ويتساءل فى استنكار ألا يتدبرون الكتاب ؟ وتدبر القرآن يزيل الغشاوة ، ويفتح النوافذ ، ويسكب النور ، ويحرك المشاعر ، ويستجيش القلوب ، ويخلص الضمير ، وينشئ حياة للروح تنبض بها وتشرق وتستنير ، أم أن هناك أقفالا على القلوب تحول بينها وبين القرآن وبينها وبين النور ؟ فإن استغلاق قلوبهم كاستغلاق الأقفال التى لا تسمح بالهواء والنور .

ويمضى السياق فى تصوير حال المنافقين ، وسبب توليهم عن الإيمان بعد إذ شارفوه ، فيتبين أنه تآمرهم مع اليهود، ووعدهم لهم بالطاعة فيما يدبرون ، والتعبير يرسم معنى رجوعهم عن الهدى بعد ما يتبين لهم فى صورة حركة حسية ، حركة الارتداد على الأدبار ، ويكشف ما وراءها

من وسوسة الشيطان وتزيينه وإغرائه ، فإذا ظاهر هذه الحركة وباطنها مكشوفان ومفهومان وهم المنافقون الذين يتخفون ويتسترون .

ثم يذكر السبب الذى جعل للشيطان عليهم هذا السلطان وانتهى بهم إلى الارتداد على الأدبار بعد ما عرفوا الهدى وتبينوه ، واليهود فى المدينة هم أول من كرهوا ما نزل الله لما اختار الله آخر رسله من نسل إبراهيم من غير يهود كرهوا رسالته، حتى إذا هاجر إلى المدينة كرهوا هجرته، التى هددت ما بقى لهم من مركز هناك ؛ ومن ثم كانوا إلبا عليه منذ أول يوم ، وشنوا عليه حرب الدس والمكر والكيد حينا عجزوا عن مناصبته العداء جهرة فى ميادين القتال ، وهؤلاء الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم قالوا لليهود بأنهم سيطيعونهم فى بعض الأمر والأرجح أن ذلك كان فى الدس والكيد والتآمر على الإسلام ورسول الإسلام .

ويأتى السياق بتعقيب كله تهديد ، فأين يذهب تآمرهم وإسرارهم وماذا يؤثر ، وهو مكشوف لعلم الله ؟ معرض لقوة الله ؟ ثم التهديد السافر بجند الله ،و المتآمرون فى نهاية الحياة ، وهو مشهد مفزع مهين وهم يحتضرون ولا حول لهم ولا قوة ، وهم فى نهاية حياتهم على هذه الأرض ، وفى مستهل حياتهم الأخرى ، هذه الحياة التى تفتتح بضرب الوجوه والأدبار فى لحظة الوفاة ، لحظة الضيق والكرب والمخافة ، والأدبار التى ارتدوا عليها من بعد ما تبين لهم الهدى ، فيالها من مأساة .

ويعلن السبب بأنهم هم الذين ارتضوا لأنفسهم هذا المصير واختاروه ، هم الذين عمدوا إلى ما أسخط الله من نفاق ومعصية وتآمر مع أعداء الله وأعداء دينه ورسوله فاتبعوه ، وهم الذين كرهوا رضوان الله فلم يعملوا له ، بل عملوا ما يسخط الله ويغضبه ، فأحبط الله أعمالهم التى كانوا يعجبون بها ويتعاجبون ، فإذا بها تهلك وتضيع .

ولقد كان المنافقون يعتمدون على إتقانهم فن النفاق ، وعلى خفاء أمرهم فى الغالب على المسلمين ، فالقرآن يسفه ظنهم أن هذا الأمر سيظل خافيا ، ويهددهم بكشف حالهم وإظهار أضغانهم وأحقادهم على المسلمين .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ المنافقون لا يحبون القتال بل يفزعون منه ، والمؤمن يحبه ويفزع إليه .

٢ ـ أولى بالمسلم طاعة تستلزم لأمر الله عن طمأنينة .

٣ ـ من الردة التعاون مع الكافرين على المؤمنين بأى شكل من أشكال التعاون ضد الإسلام والمسلمين .

الجزء السادس والعشرون — سورة محمد

ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في
لحن القول والله يعلم أعمالكم ﴿٣٠﴾ ولنبلونكم حتى نعلم
المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم ﴿٣١﴾ إن الذين
كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين
لهم الهدى لن يضروا الله شيئا وسيحبط أعمالهم ﴿٣٢﴾
۞ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا
أعمالكم ﴿٣٣﴾ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا
وهم كفار فلن يغفر الله لهم ﴿٣٤﴾ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم
وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم ﴿٣٥﴾ إنما
الحياة الدنيا لعب ولهو وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم
ولا يسألكم أموالكم ﴿٣٦﴾ إن يسألكموها فيحفكم
تبخلوا ويخرج أضغانكم ﴿٣٧﴾ ها أنتم هؤلاء تدعون
لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل
فإنما يبخل عن نفسه والله الغني وأنتم الفقراء وإن
تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴿٣٨﴾

ثلاثة أرباع الحزب ٥١

٥١٠

معانى الكلمات :

سيماهم : علامات تميزهم .

لحن القول : معناه .

لنبلونكم : لنختبرنكم .

صدوا : أعرضوا .

شاقوا : خالفوا .

سيحبط : سيبطل .

يتركم : ينقصكم .

يحفكم : يجهدكم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أنه لابد من الابتلاء لمن دخل فى الإسلام ليكون الإيمان على حقيقته .

٢ ـ أن نعلم حرمة الركون إلى مصالحة الأعداء مع القدرة على قتالهم والتمكن من دفع شرهم.

٣ ـ أن نستشعر عظمة الإنفاق وحرمة البخل .

المحتوى التربوى :

يمضى السياق فى التهديد بكشف أمرهم لرسول الله ﷺ ، فلو شاء الله لكشف لرسوله ﷺ عنهم بذواتهم وأشخاصهم ، حتى لترى أحدهم فتعرفه من ملامحه وكان هذا قبل أن يكشف الله له عن نفر منهم بأسمائهم ـ ومع ذلك فإن لهجتهم ونبرات صوتهم وإمالتهم للقول عن استقامته، وانحراف منطقهم فى خطابك سيدلك على نفاقهم ، والله لا تخفى عليه من الأعمال وبواعثها خافية .

ثم وعد من الله بالابتلاء . ابتلاء الأمة الإسلامية كلها ؛ لينكشف المجاهدون والصابرون ويتميزوا وتصبح أخبارهم معروفة ، ولا يقع الالتباس فى الصفوف ، ولا يبقى مجال لخفاء أمر المنافقين ولا أمر الضعاف والجزعين .

يقول صاحب الظلال : « إن الله ـ جلت حكمته ـ يأخذ البشر بما هو فى طوقهم ، وما هو من طبيعتهم واستعدادهم ، وهم لا يعلمون عن الحقائق المستكنة ما يعلمه ، فلابد لهم من تكشف الحقائق ليدركوها ويعرفوها ويستيقنوها ثم ينتفعوا بها ، والابتلاء بالسراء والضراء ، وبالنعماء والبأساء ، وبالسعة والضيق، وبالفرج والكرب . كلها تكشف عما هو مخبوء من معادن النفوس ، وما هو مجهول من أمرها حتى لأصحابها ».

والمراد بعلم الله لما تتكشف عنه النفوس بعد الابتلاء فهو تعلق علمه بها فى حالتها الظاهره التى يراها الناس عليها، ورؤية الناس لها فى صورتها التى تدركها مداركهم هو الذى يؤثر فيهم ويكيف مشاعرهم ، ويوجه حياتهم بوسائلهم الداخلة فى طوقهم ، وهكذا تتم حكمة الله فى الابتلاء .

ويمضى السياق فيذكر قراراً من الله مؤكداً، ووعداً منه واقعاً:أن الذين كفروا ووقفوا فى وجه الحق أن يبلغ إلى الناس ، وصدوا الناس عنه بالقوة أو المال أو الخداع أو أية وسيلة من الوسائل ، وشاقوا الرسول ﷺ فى حياته بإعلان الحرب عليه والمخالفة عن طريقه ، والوقوف فى غير صفه أو بعد وفاته بمحاربة دينه وشريعته ومنهجه ، وهؤلاء أضأل وأضعف من أن يذكروا فى مجال إلحاق ضرر بدين الله سبحانه وتعالى ولا منهجه ولا القائمين على دعوته ، ولن يحدثوا حدثا فى نواميسه وسننه مهما بلغ من قوتهم ومهما قدروا على إيذاء بعض المسلمين فترة من الوقت فإن هذا بلاء وقتى يقع بإذن الله لحكمة يريدها وليست ضرراً حقيقياً لناموس الله وسننه ونهجه وعباده القائمين على نظامه ونهجه ، والعاقبة مقررة بحبوط الأعمال فتنتهى إلى الخيبة والدمار .

وفى ظل هذا المصير المخيف للذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول يلتفت إلى الذين آمنوا ليحذرهم ظل هذا المصير ، ويوجههم إلى طاعة الله وطاعة الرسول وألا يقع منهم ما يبطل أعمالهم ويذهب بحسناتهم ، فمصير الذين يشاقون رسول الله ﷺ ويخرجون عن طاعته ، ثم يصرون على هذا ويذهبون من هذه الأرض كافرين عدم المغفرة .

ثم يأتى تحذير يشى بوجود أفراد من المسلمين كانوا يستثقلون تكاليف الجهاد الطويل ومشقته الدائمة،وتهن عزائمهم دونه ويرغبون فى السلم والمهادنة ليستريحوا من مشقة الحروب ، وربما كان بعضهم ذوى قرابة فى المشركين ورحم ، أو ذوى مصالح وأموال ، وكان هذا يجنح بهم إلى السلم والمهادنة ، فالنفس البشرية هى هى ، والتربية الإسلامية تعالج هذا الوهن وهذه الخواطر الفطرية بوسائلها ، ولننظر كيف كان القرآن يأخذ النفوس فنحن فى حاجة إلى تحرى خطوات القرآن فى التربية ، والنفوس هى النفوس :

فلماذا الضعف ، وأنتم الأعلون فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم ، أنتم الأعلون اعتقادا وتصوراً للحياة ، وأنتم الأعلون ارتباطا وصلة بالعلى الأعلى ، وأنتم الأعلون منهجا وهدفا وغاية ، وأنتم الأعلون شعوراً وخلقا وسلوكا، ثم أنتم الأعلون قوة ومكانا ونصرة، فمعكم القوة

الكبرى ، فلستم وحدكم، إنكم فى صحبة العلى الجبار القادر القهار ، وهو لكم نصير حاضر معكم ، يدافع عنكم ، فما يكون أعداؤكم هؤلاء والله معكم ؟ وكل ما تبذلون وكل ما تفعلون ، وكل ما يصيبكم من تضحيات محسوب لكم ، لا يضيع منه شىء عليكم، وأعمالكم لن يقطع منها شىء لا يصل إليكم أثرة ونتيجة وجزاؤه .

فعلام يهن ويضعف ويدعوا إلى السلم ، من يقرر الله ـ سبحانه ـ له أنه الأعلى وأنه معه وأنه لن يفقد شيئا من عمله فهو مكرم منصور مأجور ؟

هذه هى اللمسة الأولى ، واللمسة الثانية تهوين من شأن هذه الحياة الدنيا ، فهى لعب ولهو حين لا يكون وراءها غاية أكرم وأبقى حين تعاش لذاتها مقطوعة عن منهج الله فيها ، فالإيمان والتقوى فى الحياة الدنيا هو الذى يخرجها عن أن تكون لعبا ولهوا ويطبعها بطابع الجد ، ومع هذا فإن الله لا يسأل الناس أن يبذلوا أموالهم كلها ، فهو أرحم بهم من أن يكلفهم بذلها كلها ، فتضيق صدورهم وتظهر أضغانهم .

وفى النهاية يواجههم بواقع حالهم تجاه دعوتهم إلى البذل فى سبيله ، ويعالج شح النفوس بالمال بالوسائل القرآنية؛ فما يبذله الناس إن هو إلا رصيد لهم مذخور ، يجدونه يوم يحتاجون إلى رصيد ، يوم يحشرون مجردين من كل ما يملكون ، فإذا بخلوا بالبذل فإنما يبخلون على أنفسهم ويقللون من رصيدهم ، فالله لا يناله شىء مما يبذلون فهو الغنى ، وما هو فى حاجة إلى ما ينفقون فهم الفقراء ، ثم الكلمة الأخيرة وهى فصل الخطاب : إن اختيار الله لكم لحمل دعوته تكريم ومنّ وعطاء ، فإذا لم تحاولوا أن تكونوا أهلاً لهذا الفضل ، وإذا لم تنهضوا بتكاليف هذه المكانة ، وإذا لم تدركوا قيمة ما أعطيتم فيهون عليكم كل ما عداه، فإن الله يسترد ما و هب، ويختار غيركم لهذه المنة ممن يقدر فضل الله .

وإنها لنذارة رهيبة لمن ذاق حلاوة الإيمان ، وأحس بكرامته على الله ، وما يطيق الحياة وما يطعمها إنسان عرف حقيقة الإيمان وعاش بها ثم تسلب منه ، ويطرد من الكنف وتوصد دونه الأبواب ، ويستبدل به غيره يسمع ويطيع .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ وجوب طاعة الله ورسوله ﷺ .

٢ ـ باب التوبة مفتوح للكافر والعاصى إلى قبيل سكرات الموت ، فإذا بلغت الروح الحلقوم فلا توبة ولا مغفرة .

٣ ـ المؤمنون هم الأعلون عقيدة وتصوراً للحياة وارتباطا بالله وبالمنهج الذى يتبعونه ، وهم الأعلون شعوراً وخلقا ، فلا يجوز أن يضعفوا أمام أعدائهم .

سورة الفتح


سورة الفتح

بسم الله الرحمن الرحيم

إنا فتحنا لك فتحا مبينا (١) ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما (٢) وينصرك الله نصرا عزيزا (٣) هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليما حكيما (٤) ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزا عظيما (٥) ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا (٦) ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزا حكيما (٧) إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا (٨) لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا (٩)

٥١١

معانى الكلمات :

يهديك : يثبتك .

السكينة : السكون والطمأنينة .

لعنهم : أبعدهم من رحمته .

أعد : هيأ .

تعزروه : تنصروه .

توقروه : تعظموه .

تسبحوه : تنزهوه عما لا يليق .

بكرة وأصيلاً : أى فى كل وقت .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم فضل الله على المؤمنين .

٢ ـ أن نقف على عاقبة المنافقين والمشركين .

٣ ـ أن نتعرف على وظيفة الرسول .

المحتوى التربوى :

تفتتح السورة بهذا الفيض الإلهى على رسوله ﷺ : فتح مبين ، ومغفرة شاملة ،و نعمة تامة وهداية ثابتة ، ونصر عزيز ، إنها جزاء الطمأنينة التامة لإلهام الله وتوجيهه ، والاستسلام الراضى لإيحائه وإشارته ، والتجرد المطلق من كل إرادة ذاتية ، والثقة العميقة بالرعاية الحانية ، يرى الرؤيا فيتحرك بوحيها ، وتبرك الناقة ، ويتصايح الناس : خلأت القصواء ، وما خلأت القصواء ، وحين يشاع أن عثمان قتل يقول ﷺ : « لا نبرح حتى نناجز القوم » ويدعو الناس إلى البيعة فتكون بيعة الرضوان التى فاض منها الخير على الذين فازوا بها وسعدوا ، وكان هذا هو الفتح إلى جانب الفتح الآخر الذى تمثل فى صلح الحديبية .

وكان فتحا فى الدعوة ؛ فقد دخل فى تينك السنتين بين صلح الحديبية وفتح مكة مثل ما كان فى الإسلام قبل ذلك أو أكثر ، وكان فتحا فى الأرض فقد أمن المسلمون شر قريش .

ثم مضى السياق يصف نعمة الله على المؤمنين بهذا الفتح ، ومس يده لقلوبهم بالسكينة ، وما ادخره لهم فى الآخرة من غفران وفوز ونعيم ،والسكينة حين ينزلها الله فى قلب ، تكون طمأنينة وراحة ويقينا وثقة ووقاراً وثباتاً واستسلاما ورضا ، وحين يسترجع الإنسان صورة المسلمين فى الحديبية يدرك معنى السكينة،ويحس برد السكينة وسلامها فى تلك القلوب بعد هزتها العنيفة، تلك القلوب التى استجابت لله ولرسوله ، وانقادت لحكم الله ورسوله، فلما اطمأنت قلوبهم لذلك واستقرت زادهم إيمانا مع إيمانهم .

ويلوح بأن النصر والغلب لم يكن عسيراً ولا بعيداً ، بل كان هينا يسيراً على الله لو اقتضت حكمته يومئذ أن يكون الأمر كما أراده المؤمنون ، فإن لله جنوداً لا تحصى ولا تغلب ، تدرك النصر وتحقق الغلب وقتما يشاء ، ولكن الله تعالى شرع لعباده المؤمنين الجهاد والقتال لما له فى ذلك من الحكمة البالغة والحجة القاطعة فالله عليم حكيم .

وكانت السكينة وزيادة الإيمان ليحقق لهم ما قدره من فوز ونعيم ليكون جزاء المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار ماكثين فيها أبداً ، ويغفر سيئاتهم ، وإذا كان هذا فى حساب الله فوز عظيم ، فوز عظيم فى حقيقته ، وفوز عظيم فى نفوس من ينالونه من عندالله مقدراً بتقديره ، موزونا بميزانه ، ولقد فرح المؤمنون يومها بما كتب الله لهم ، وعلموا منه ما أفاض الله على رسوله ، تطلعوا إلى نصيبهم هم وسألوا عنه ، فلما سمعوا وعلموا فاضت نفوسهم بالرضا والفرح واليقين .

ثم أنبأهم بجانب آخر من جوانب حكمته فيما قدر فى هذا الحادث ، وهو مجازاة المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، بما يصدر عنهم من عمل وتصرف ، وقد جمع النص بين المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات فى صفة سوء الظن بالله ، وعدم الثقة بنصرته للمؤمنين، وفى أنهم جميعا عليهم دائرة السوء فهم محصورون فيها ، وهى تدور عليهم وتقع بهم ، وفى غضب الله عليهم ولعنته لهم ، وفيما أعده لهم من سوء المصير ، ذلك أن النفاق صفة مرذولة لا تقل عن الشرك سوءاً ، بل إنها أحط ، ولأن أذى المنافقين والمنافقات للجماعة المسلمة لا يقل عن أذى المشركين والمشركات ، وإن اختلف هذا الأذى وذاك فى مظهره ونوعه .

وقد جعل الله صفة المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات هى ظن السوء بالله ، فالقلب المؤمن حسن الظن بربه ، يتوقع منه الخير دائما ، يتوقع منه الخير فى السراء والضراء ، ويؤمن بأن

الله يريد به الخير فى الحالين، وسر ذلك أن قلبه موصول بالله ، وفيض الخير من الله لا ينقطع أبداً ، فمتى اتصل القلب به لمس هذه الحقيقة الأصيلة وأحسها إحساس مباشرة وتذوق ، فأما المنافقون والمشركون فهم مقطوعو الصلة بالله ، ومن ثم لا يحسون تلك الحقيقة ولا يجدونها فيسوء ظنهم بالله ، وتتعلق قلوبهم بظواهر الأمور ، ويبنون عليها أحكامهم .

وقد جمع الله فى الآية أعداء الإسلام والمسلمين من شتى الأنواع ، وبين حالهم عنده ، وما أعده لهم فى النهاية ؛ ثم عقب على هذا بما يفيد قدرته وحكمته ، فلا يعيبه من أمرهم شىء ، ولا يخفى عليه من أمرهم شىء ، وله جنود السموات والأرض وهو العزيز الحكيم .

ثم عاد بالخطاب إلى رسول الله ﷺ منوها بوظيفته مبينا للغاية منها ، موجها المؤمنين إلى واجبهم مع ربهم بعد تبليغهم رسالته ، مع ردهم فى بيعتهم إلى الله مباشرة ، وعقد العقده معه جل جلاله ، وذلك حين يبايعون الرسول ﷺ ويتعاقدون معه ، وفى ذلك تشريف لبيعة الرسول وتكريم واضح لهذا التعاقد ، فالرسول ﷺ شاهد على هذه البشرية التى أرسل إليها ، يشهد أنه بلغها ما أمر به ،و أنها استقبلته بما استقبلته ، وأنه كان منها المؤمنون ، ومنها الكافرون ، ومنها المنافقون ؛ وكان منها المصلحون ، ومنها المفسدون ، فيؤدى الشهادة كما أدى الرسالة ، وهو مبشر بالخير والمغفرة والرضا وحسن الجزاء للمؤمنين الطائعين ، ونذير بسوء المنقلب والغضب واللعنة والعقاب للكافرين والمنافقين والعصاة والمفسدين .

هذه وظيفة الرسول ﷺ ، ثم يلتفت بالخطاب إلى المؤمنين ، يكشف لهم عن الغاية المرجوة لهم من الرسالة ، أنها الإيمان بالله ورسوله ثم النهوض بتكاليف الإيمان ، فينصرون الله بنصرة منهجه وشريعته ، ويوقرونه فى نفوسهم بالشعور بجلاله ، وينزهونه بالتسبيح والتحميد طرفى النهار فى البكور والأصيل،وهى كناية عن اليوم كله ، والغرض هو اتصال القلب بالله فى كل آن، فهذه هى ثمرة الإيمان المرجوة للمؤمنين من إرسال الرسول شاهداً ومبشراً ونذيراً .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أثر القرآن الكريم ، والتربية النبوية الواضح فى التغيير حيث اطمأنت نفوس المؤمنين لتكاليف هذا الدين وتحمل مسؤولياته .

٢ ـ ضرورة الوفاء بالعهد والالتزام بالوعد وخاصة إذا كان عهداً مع الله تعالى .

٣ ـ من فتح الله على رسوله وعلى المؤمنين مغفرة الذنوب وإتمام نعمة الدين .

الجزء السادس والعشرون — سورة الفتح

إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾

٥١٢

معانى الكلمات :

يبايعون : يعاهدون .

نكث : نقض .

يملك : يستطيع .

بورا : هالكين .

سعيرا : نارا شديدة موقدة .

ذرونا : اتركونا .

يفقهون : يفهمون .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم رفعة قدر المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ بيعة الرضوان .

٢ ـ أن نعلم سماحة الإسلام ويسره فى قبول الأعذار .

٣ ـ أن نستشعر خطورة المنافقين .

المحتوى التربوى :

قد جاء ﷺ ليصلهم بالله ، ويعقد بينهم وبينه بيعة ماضية لا تنقطع بغيبة رسول الله ﷺ عنهم ، فهو حين يضع يده فى أيديهم مبايعا ، فإنما يبايع عن الله ، وهو تصوير رهيب جليل للبيعة بينهم وبين رسول الله ﷺ ، والواحد منهم يشعر وهو يضع يده فى يده ، أن يد الله فوق أيديهم ، فالله حاضر البيعة والله صاحبها والله آخذها ، ويده فوق أيدى المتبايعين ، ومن ؟ الله فيا للروعة والجلال .

وإن هذه الصورة لتستأصل من النفس خاطر النكث بهذه البيعة ـ مهما غاب شخص رسول الله ﷺ ـ فالله حاضر لا يغيب ، والله آخذ فى هذه البيعة ومعط وهو عليها رقيب ، وما من بيعة

بين الله وعبد من عباده إلا والعبد فيها هو الرابح من فضل الله ، والله هو الغنى عن العالمين ، والعبد الخاسر حين ينكث وينقض عهده مع الله فيتعرض لغضبه وعقابه على النكث الذى يكرهه ويمقته ، فالله يحب الوفاء ويحب الأوفياء ويعطيهم الأجر الذى يقول عنه إنه عظيم، عظيم بحساب الله وميزانه ، ووصفه الذى لا يرتقى إلى تصوره أبناء الأرض المقلون المحدودون الفانون .

وعندما يصل إلى حقيقة البيعة ، وإلى خاطر النكث وخاطر الوفاء ، ويلتفت بالحديث إلى المخلفين من الأعراب ، الذين أبوا أن يخرجوا مع رسول الله ﷺ لسوء ظنهم بالله ؛ ولتوقعهم الشر والضر للمؤمنين الخارجين الذاهبين إلى قريش فى عقر دارها ، يلتفت إليهم لينبئ الرسول ﷺ عما سيعتذرون به إليه بعد عودته سالما هو ومن معه ، ويكشف له عن الأسباب الحقيقية لعدم خروجهم معه ، ويفضحهم ويقفهم مكشوفين أمام رسول الله ﷺ وأمام المؤمنين ، كما ينبئه بما فيه البشرى له وللخارجين معه ، وهو أنهم سيخرجون إلى مغانم قريبة ميسورة ، وأن المخلفين من الأعراب سيطلبون الخروج معه لينالوا من هذه المغانم السهلة ، ويلفته طريقة معاملتهم حينئذ والرد عليهم ، فلا يقبل منهم الخروج معه فى هذا الوجه القريب الميسور الذى سيقتصر على من خرجوا من قبل وحضروا الحديبية ، والقرآن لا يكتفى بحكاية أقوال المخلفين والرد عليها ، ولكنه يجعل من هذه المناسبة فرصة لعلاج أمراض النفوس وهواجس القلوب ، والتسلل إلى مواطن الضعف والانحراف لكشفها تمهيداً لعلاجها والطب لها ، ثم لإقرار الحقائق الباقية والقيم الثابتة ، وقواعد الشعور والتصور والسلوك ، فالمخلفون من الأعراب سيقولون اعتذاراً عن تخلفهم : شغلتنا أموالنا وأهلونا ، وليس هذا بعذر ، فللناس دائما أهل وأموال ، ولو كان مثل هذا يجوز أن يشغلهم عن تكاليف العقيدة ، وعن الوفاء بحقها ما نهض أحد قط بها ، وسيطلبون استغفار الرسول ﷺ وهم ليسوا صادقين فى طلب الاستغفار ، فهم يقولون بألسنتهم ما ليس فى داخل قلوبهم .

هنا يرد عليهم بتقرير حقيقة القدر الذى لا يدفعه تخلف ، وبحقيقة القدرة التى تحيط بالناس وتتصرف فى أقدارهم كما تشاء ، وبحقيقة العلم الكامل الذى يصرف الله قدره على وفقه ، فالتوقف أو التلكؤ لن يدفع ضررًا ، ولا يؤخر نفعا ، وانتحال المعاذير لا يخفى على علم الله ، ولا يؤثر فى جزائه وفق علمه المحيط ، وهو توجيه تربوى فى وقته وفى جوه .

وقد ظن المخلفون أن الرسول ومن معه من المؤمنين ذاهبون إلى حتفهم ، فلا يرجعون إلى أهليهم بالمدينة ، ولم يحسبوا حساباً لرعاية الله وحمايته للصادقين المتجردين من عباده ، كما أنهم لم يقدروا أن الواجب هو الواجب ، بغض النظر عن تكاليفه كائنة ما كانت ، وأن طاعة رسول الله

ﷺ يجب أن تكون بدون النظر إلى الربح الظاهرى والخسارة الشكلية ، فهى واجب مفروض يؤدى دون نظر إلى عاقبة أخرى وراءه . لقد ظنوا ظنهم ، وزين هذا الظن فى قلوبهم، حتى لم يروا غيره ، ولم يفكروا فى سواه ، وكان هذا هو ظن السوء بالله ، الناشئ من أن قلوبهم بور ميتة جرداء لا حياة فيها ولا خصب ولا إثمار .

إن الميزان هو ميزان الإيمان ، ومن ثم يرد الله أولئك الأعراب إليه ، ويقرر القاعدة العامة للجزاء وفق هذا الميزان، مع التلويح لهم برحمة الله القريبة ، والإيحاء إليهم بالمبادرة إلى اغتنام الفرصة والتمتع بمغفرة الله ورحمته ، لقد كانوا يعتذرون بأموالهم وأهليهم ، فماذا تنفعهم أموالهم وأهلوهم فى هذه السعير المعدة لهم إذا لم يؤمنوا بالله ورسوله؟ إنهما كفتان فليختاروا هذه أو تلك على يقين ، فإن الله الذى يوعدهم هذا الإيعاد ، هو مالك السموات والأرض وحده ، فهو الذى يملك المغفرة لمن يشاء ، وهو الذى يملك العذاب لمن يشاء ، وهو يقرر هذه الحقيقة هنا لتستقر فى القلوب ، ومغفرة الله ورحمته أقرب فليغتنمها من يريد قبل أن تحق كلمة الله بعذاب من لم يؤمن بالله ورسوله بالسعير .

ثم يلوح ببعض ما قدر الله للمؤمنين ، مخالفا لظن المخلفين بأسلوب يوحى بأنه قريب وأغلب المفسرين يرون أنها إشارة إلى فتح خيبر ، وقد يكون هذا ، ولكن النص يظل له إيحاؤه ولو لم يكن نصا فى خيبر ، فهو يوحى بأن المسلمين سيفتح عليهم فتح قريب يسير ، وأن هؤلاء المخلفين سيدركون هذا فيطلبون أن يتبعوهم .

وعلى أية حال فقد أمر الله نبيه أن يرد المخلفين من الأعراب إذا عرضوا الخروج للغنائم الميسرة القريبة ، وقرر أن خروجهم مخالف لأمر الله ، وأخبر نبيه ﷺ أنهم سيقولون إذا منعوا من الخروج بل تحسدوننا فتمنعوننا من الخروج لتحرمونا من الغنيمة ، ثم قرر أن قولهم هذا ناشئ عن قلة فقههم بحكمة الله وتقديره ، فجزاء المتخلفين الطامعين أن يحرموا ، وجزاء الطائعين أن يعطوا من فضل الله .

ما ترشدنا إليه الآيا ت تربويًّا :

١ ـ وجوب الوفاء بالعهد ، وحرمة نقض العهد ونكثه .

٢ ـ إن أذى المنافقين لا يقل عن أذى المشركين للجماعة المسلمة ، وإن اختلف الأذى فى نوعه ومظهره .

٣ ـ التوقف والتلكؤ عن طاعة الله لن يدفع ضرراً ولا يؤخر نفعا .

قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ
تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا
وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦) لَّيْسَ
عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ
وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (١٧) لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ
الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ
فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ
كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩) وَعَدَكُمُ اللَّهُ
مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ
النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا
مُّسْتَقِيمًا (٢٠) وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا
وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢١) وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا
لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٢٢) سُنَّةَ
اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٢٣)

٥١٣

معانى الكلمات :

تتولوا : تعرضوا .

حرج : ذنب .

يبايعونك : يعاهدونك .

السكينة : الطمأنينة .

كف : منع .

آية : علامة .

سنة : طريقة .

خلت : مضت .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم مشروعية الاختيار والامتحان لمعرفة القدرات والمؤهلات .

٢ ـ أن نتعرف على أصحاب الأعذار فى التخلف عن الجهاد .

٣ ـ أن نعلم أن سنة الله أنه ما تقاتل أولياء الله مع أعدائه فى معركة إلا نصر الله أولياءه على أعدائه .

المحتوى التربوى :

أمر الله نبيه أن يخبر المخلفين أنهم سيبتلون بالدعوة إلى جهاد قوم أشداء ، يقاتلونهم على الإسلام ، فإذا نجحوا فى هذا الابتلاء كان لهم الأجر ، وإن هم ظلوا على معصيتهم وتخلفهم فذلك هو الامتحان الأخير ، ونلحظ طريقة التربية القرآنية ، وطريقة علاج النفوس والقلوب بالتوجيهات القرآنية، والابتلاءات الواقعية ، وهذا كله ظاهر فى كشف نفوسهم لهم وللمؤمنين ، وفى توجيههم إلى الحقائق والقيم وقواعد السلوك الإيمانى القويم .

ولما كان المفهوم من ذلك الابتلاء فرض الخروج على الجميع ، فقد بين الله أصحاب الأعذار الحقيقية الذين يحق لهم التخلف عن الجهاد بلا حرج ولا عقاب ؛ فالأعمى والأعرج معهما عذر دائم هو العجز المستمر عن تكاليف الخروج والجهاد ، والمريض معه عذر موقوت بمرضه حتى

يبرأ ، والأمر فى حقيقته هو أمر الطاعة والعصيان ، فمن يطع الله ورسوله فالجنة جزاؤه ، ومن يتول فالعذاب الأليم ينتظره .

ينتقل السياق إلى الحديث عن المؤمنين ، وحديث مع المؤمنين ، مع تلك المجموعة الفريدة السعيدة التى بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة ،و الله حاضر البيعة وشاهدها وموثقها ، ويده فوق أيديهم فيها وهو راض عنهم ، فقد علم مافى قلوبهم من حمية لدينهم لا لأنفسهم ، وعلم ما فى قلوبهم من الصدق فى بيعتهم ، وعلم ما فى قلوبهم من كظم لانفعالاتهم تجاه الاستفزاز ، وضبط لمشاعرهم ليقفوا خلف كلمة رسول الله ﷺ طائعين مسلمين صابرين ، ويرسم التعبير السكينة نازلة فى هدوء ووقار تضفى على تلك القلوب الحارة المتحمسة المتأهبة المنفعلة ، برداً وسلاماً وطمأنينة وارتياحا ، وأجرى على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم وحصل بذلك من الخير العام المستمر المتصل بفتح خيبر وفتح مكة ، ثم فتح سائر البلاد عليهم ، وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة فى الدنيا والآخرة ، فقد كانت هذه مغانم كثيرة أعطاها الله للمؤمنين ، وفى الرضا والفتح والوعد بالغنائم تتجلى القوة والقدرة كما تتجلى الحكمة والتدبير ، وبها يتم تحقيق الوعد الإلهى الكريم .

وبعد ذلك التبليغ العلوى الكريم للرسول الأمين عن المؤمنين المبايعين يتجه بالحديث إلى المؤمنين أنفسهم ،الحديث عن هذا الصلح ،أو عن هذا الفتح الذى تلقوه صابرين مستسلمين ، وهذه بشرى من الله للمؤمنين ، فالله أعد لهم مغانم كثيرة ، وعاشوا بعد ذلك ما عاشوا وهم يرون مصداق هذا الوعد الذى لا يخلف ، وهنا يقول لهم : إنه قد عجل لهم هذه ، وهذه قد تكون صلح الحديبية ، كما أنها قد تكون فتح خيبر .

ويمن الله عليهم بأن كف أيدى الناس عنهم ، وقد كف الله عنهم أيدى المشركين من قريش كما كف أيدى سواهم من أعدائهم الذين يتربصون بهم الدوائر، وهم قلة على كل حال ، والناس كثرة ، ولكنهم وفوا ببيعتهم ، ونهضوا بتكاليفهم ، فكف الله أيدى الناس عنهم وأمنهم ، وهذه الوقعة التى كرهوها فى أول الأمر ، وثقلت على نفوسهم ، فالله ينبئهم أنها ستكون آية لهم ، يرون فيها عواقب تدبير الله لهم ، وجزاء طاعتهم لرسول الله واستسلامهم ، مما يثبت فى نفوسهم أنها شىء عظيم وخير جزيل،ويلقى السكينة فى قلوبهم والاطمئنان والرضا واليقين،وجزاء طاعتكم وامتثالكم وصدق سريرتكم يهديهم صراطا مستقيما،وهكذا يجمع لهم بين المغنم ينالونه ، والهداية يرزقونها ، فيتم لهم الخير من كل جانب فى الأمر الذى كرهوه واستعظموه ،و هكذا يعلمهم أن اختيار الله لهم هو الاختيار ، ويربى قلوبهم على الطاعة المطلقة والامتثال .

كذلك يمن عليهم ويبشرهم بأخرى غير هذه لم يقدروا عليها بقوتهم ، ولكن الله تولاها عنهم بقدرته وتقديره ، وتختلف الروايات فى هذه الأخرى وأقرب ما يناسب السياق أن تكون هى فتح مكة ، بعد صلح الحديبية وبسبب من هذا الصلح الذى لم يدم سوى عامين ثم نقضه المشركون ، ففتح الله مكة للمسلمين بلا قتال تقريبا ، وكان الله على كل شىء قديراً .

ويقرر السياق لهم أنهم منصورون ، وأن الصلح فى هذا العام لم يكن لأنهم ضعاف أو لأن المشركين أقوياء ، ولكنه تم لحكمة يريدها ، ولو قاتلهم الذين كفروا لهزموا ، فتلك سنة الله حيثما التقى المؤمنون والكافرون فى موقعة فاصلة ، وهكذا يربط نصرهم وهزيمة الكفار بسنته الكونية الثابتة التى لا تتبدل ، فأية سكينة أو أية ثقة ، وأى تثبيت يجده أولئك المؤمنون فى أنفسهم ، وهم يسمعون من الله أن نصرهم وهزيمة أعدائهم سنة من سننه الجارية فى هذا الوجود ؟ وهى سنن دائمة لا تتبدل ، ولكنها قد تتأخر إلى أجل ، ولأسباب قد تتعلق باستواء المؤمنين على طريقهم واستقامتهم الاستقامة التى يعرفها الله لهم ، أو تتعلق بتهيئة الجو الذى يولد فيه النصر للمؤمنين والهزيمة للكافرين ؛ لتكون له قيمته وأثره أو لغير هذا ، وذلك مما يعلمه الله ، ولكن السنة لا تتخلف والله أصدق القائلين .

يقول صاحب الأساس : « جاءت الفقرة الثانية فحدثتنا عن النموذج القائم بحق الرسالة من إيمان ونصرة وتعظيم من خلال الكلام عن الذين بايعوا بيعة الرضوان ، فكانوا نموذجاً حقا للمبايعين الصادقين ، وأرانا الله عز وجل ماذا أثابهم فى الدنيا على هذا :

١ ـ إنزال السكينة عليهم .

٢ ـ الفتح القريب .

٣ ـ المغانم الكثيرة التى منها المعجل ، وهو ما سيعطيه إياهم فى خيبر ، ومنها ما بعد ذلك .

٤ ـ كف أيدى الناس عنهم فلم يؤذوا فى أنفسهم ولم يؤذ أهلوهم فى المدينة المنورة .

٥ ـ الهداية إلى الصراط المستقيم ، وفى ذلك بشارة لهم أنهم سيوفقون إلى العمل بالإسلام حتى يموتوا عليه .

٦ ـ الغنائم التى لم تكن تخطر ببالهم أنهم يقدرون عليها مما سيفتحه الله عليهم فيما بعد من فارس والروم وغيرهما .

٧ ـ البشارة لهم فى كل معركة أنهم منصورون ، وفى ذلك تزكية لهم بأنهم يستحقون النصر الربانى، لتوفر شروط ذلك فيهم ، وهذا كله ببركات هذه البيعة الصادقة لرسول الله ﷺ إيمانا به ، وقياما بحق نصرته ، وتوقيرًا له ، أى تحقيقا لما يطالب الله به عباده من قيام بحق رسالته » .

ما ترشدنا إليه الآيا ت تربويًا :

١ ـ كل من يخلص لله تعالى نيته وعمله ولا يبخل على دين الله بشئ من نفسه أو ماله فإن الله تعالى يرضى عنه ويفوز فوزا عظيما فى الدنيا والآخرة .

٢ ـ ربما يرى الإنسان فى بعض الأشياء شرّا ويكون فيها الخير الكثير له وللجميع ، وعلى المسلم أن يرضى بقضاء الله وقدره .

٣ ـ نصرة الحق سنة الله التى لا تتبدل .

الجزء السادس والعشرون — سورة الفتح

وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ
بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ
مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ
لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ
لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ
عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ
وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾
لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ
ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ
لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ
فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ
ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾

٥١٤

معانى الكلمات :

أظفركم عليهم : مكنكم منهم .

معكوفا : محبوسا وممنوعا .

تطؤوهم : تهلكوهم .

فتصيبكم : فينالكم .

معرة : مكروه وعيب .

تزيلوا : تفرقوا . **الحمية :** الكبرياء بالباطل والغضب الشديد .

ليظهره : ليعليه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم خصوم المؤمنين من هم فى ميزان الله ؟ وكيف ينظر إلى أعمالهم ؟

٢ ـ أن نتعرف على جانب من حكمته تعالى المغيبة وراء تقديره وتدبيره .

٣ ـ أن نعلم كرامة الله للمؤمنين إذ حمى ظهورهم من خلفهم مرتين .

المحتوى التربوى :

يذكر السياق امتنان الله على المؤمنين بكف أيدى المشركين عنهم ، وكف أيديهم عن المشركين من بعد ما أظفرهم على مَنْ هاجموهم ، مشيراً إلى ذلك الحادث الذى أراد أربعون من المشركون أو أكثرأو أقل أن ينالوا من معسكر المسلمين ، فأخذوا وعفا عنهم رسول الله ﷺ ، وهو حادث وقع يعرفه السامعون ، والله يذكره لهم ليرد كل حركة وكل حادث وقع لهم إلى تدبيره المباشر ، وليوقع فى قلوبهم هذا الإحساس المعين بيد الله سبحانه وهى تدبر لهم كل شىء ، وتقود خطاهم ، كما تقود خواطرهم ، ليسلموا أنفسهم كلها لله بلا تردد ولا تلفت ، ويدخلوا بهذا فى السلم كافة بكل مشاعرهم وخواطرهم واتجاههم ونشاطهم موقنين أن الأمر كله لله وهو بصير بهم ظاهرهم وخافيهم ، فهو يختار لهم عن علم وعن بصر ولن يضيعهم ، ولن يضيع عليهم شيئا يستحقونه .

ثم يحدثهم عن خصومهم من هم فى ميزان الله ؟ وكيف ينظر إلى أعمالهم وصدهم للمؤمنين عن بيته الحرام ، وكيف ينظر إليهم هم عكس ما ينظر إلى خصومهم المعتدين ؟

فيسجل السياق أنهم فى ميزان الله واعتباره الكافرون حقا الذين يستحقون هذا الوصف الكريه ، يسجله عليهم كأنهم منفردون به ، عريقون فى النسبة إليه فهم أكره شىء إلى الله الذى يكره الكفر والكافرين كذلك يسجل عليهم فعلهم الكريه الآخر ، وهو صدهم للمؤمنين عن المسجد الحرام ، وصد الهدى وتركه محبوسا عن الوصول إلى محل ذبحه المشروع ، وهى كبيرة فى الجاهلية والإسلام .

فلم يكن إذن كف الله للمؤمنين عنهم بقيا عليهم لأن جرمهم صغير ، كلا إنما كان ذلك لحكمة أخرى يتلطف الله سبحانه فيكشف عنها الله للمؤمنين ؛ فلقد كان هنالك بعض المستضعفين من المسلمين فى مكة لم يهاجروا ، ولم يعلنوا إسلامهم تقية فى وسط المشركين ، ولو دارت الحرب وهاجم المسلمون مكة وهم لا يعرفون أشخاصهم ، فربما وطؤوهم وداسوهم وقتلوهم ، فيقال : إن المسلمين يقتلون المسلمين ، ويلزمون بدياتهم حتى يتبين أنهم قتلوا خطأ وهم مسلمون .

وهناك حكمة أخرى وهى أن الله يعلم أن من بين الكافرين الذين صدوهم عن المسجد الحرام ، من قسمت له الهداية ، ومن قدر له الله الدخول فى رحمته ، بما يعلمه من طبيعته وحقيقته ، ولو تميز هؤلاء وهؤلاء لأذن الله للمسلمين فى القتال ، ولعذب الكافرين العذاب الأليم . وهكذا يكشف الله للجماعة المختارة الفريدة السعيدة عن جانب من حكمته المغيبة وراء تقديره وتدبيره .

ويمضى فى وصف الذين كفروا ، وصف نفوسهم من الداخل بعد تسجيل صفتهم وعملهم الظاهر ، ففى قلوبهم حمية الجاهلية ، حمية لا لعقيدة ولا لمنهج ، إنما هى حمية الكبر والفخر والبطر والتعنت ، الحمية التى جعلتهم يقفون فى وجه رسول الله ﷺ ومن معه ، يمنعونهم من المسجد الحرام ، ويحبسون الهدى الذى ساقوه أن يبلغ محله الذى ينحر فيه ، مخالفين بذلك عن كل عرف وعن كل عقيدة ، كى لا تقول العرب إنه دخلها عليهم عنوة ، ففى سبيل هذه النعرة الجاهلية يرتكبون هذه الكبيرة الكريهة فى كل عرف ودين ، وينتهكون حرمة البيت الحرام الذى يعيشون على حساب قداسته ، وينتهكون حرمة الأشهر الحرم التى لم تنتهك فى جاهلية ولا إسلام ، وقد جعل الله الحمية فى نفوسهم على هذا النحو الجاهلى ، لما يعلمه فى نفوسهم من جفوة عن الحق والخضوع له .

فأما المؤمنون فحماهم من هذه الحمية ، وأحل محلها السكينة والتقوى ، والسكينة الوقورة الهادئة ، كالتقوى المتحرجة المتواضعة كلتا هما تليق بالقلب المؤمن الموصول بربه ، الساكن بهذه الصلة المطمئن بما فيه من ثقة ، المراقب لربه فى كل خالجة وكل حركة ، فلا يتبطر ولا يطغى ، ولا يغضب لذاته إنما يغضب لربه ودينه ، فإذا أمر أن يسكن ويهدأ خشع وأطاع فى رضا وطمأنينة ،

ومن ثم كان المؤمنون أحق بكلمة التقوى وكانوا أهلها ، وهذا ثناء آخر من ربهم عليهم إلى جانب الامتنان عليهم بما أنزل على قلوبهم من سكينة ، وما أودع فيها من تقوى ، فهم قد استحقوها فى ميزان الله وبشهادته وهو تكريم بعد تكريم صادر عن علم وتقدير .

وتأتى البشرى ؛ بشرى تصديق رؤيا رسول الله ﷺ ودخولهم المسجد الحرام آمنين ، وتحليقهم وتقصيرهم بعد انتهاء شعائر الحج أو العمرة لا يخافون ، وقد تحققت بعد عام واحد ، ثم تحققت بصورة أكبر بعد عامين اثنين من صلح الحديبية، إذ تم فتح مكة وغلبة دين الله عليها، ولكن الله سبحانه يؤدب المؤمنين بأدب الإيمان ، فالدخول واقع حتم ؛ لأن الله أخبر به ، ولكن المشيئة يجب أن تظل فى نفوس المسلمين فى صورتها الطليقة لا يقيدها شىء ، حتى تستقر هذه الحقيقة فى القلوب .

وتأتى البشرى الأخرى ؛ فلقد ظهر دين الحق ، ولا فى الجزيرة وحدها ، بل ظهر فى المعمور من الأرض كلها قبل مضى نصف قرن من الزمان ، ظهر فى إمبراطورية كسرى كلها ، وفى قسم كبير من إمبراطورية قيصر ، وظهر فى الهند وفى الصين ، ثم فى جنوب آسيا فى الملايو وغيرها ، وفى جزر الهند الشرقية (إندونيسيا) ، وكان هذا هومعظم المعمور من الأرض فى القرن السادس ومنتصف القرن السابع الميلادى .

وما يزال دين الحق ظاهرًا على الدين كله حتى بعد انحساره السياسى عن جزء كبير من الأرض التى فتحها وبخاصة أوربا وجزر البحر الأبيض ، وانحسار قوة أهله فى الأرض كلها بالقياس إلى القوى التى ظهرت فى الشرق والغرب ، أجل ، ما يزال دين الحق ظاهراً على الدين كله من حيث هو دين فهو الدين القوى بذاته ، القوى بطبيعته ، الزاحف بلا سيف ولا مدفع من أهله .

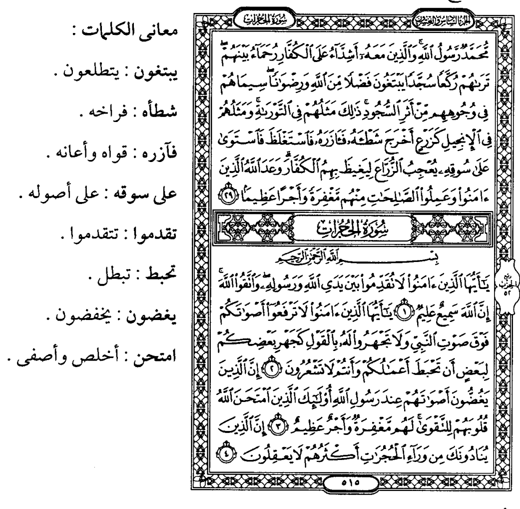
وما يزال هذا الدين ظاهراً على الدين كله فى حقيقته ، بل إنه هو الدين الوحيد الباقى قادراً على العمل والقيادة فى جميع الأحوال ، ولعل أهل هذا الدين هم وحدهم الذين لا يدركون هذه الحقيقة اليوم ، فغير أهله يدركونها ويخشونها ويحسبون لها فى سياستهم كل حساب .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ المؤمن يوقن تماما أن الأمر كله لله ، وأن الخيرة ما اختاره الله ، والله يريد به الخير .

٢ ـ المؤمن يراقب ربه فى كل خالجة وكل حركة ، فلا يتبطر ولا يطغى ، ولا يغضب لذاته ، إنما يغضب لربه ودينه.

٣ ـ دين الله قوى بذاته وطبيعته ، زاحف بلا سيف ولا مدفع من أهله لما فى طبيعته من استقامة مع الفطرة .



مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

سورة الحجرات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

٥١٥

معانى الكلمات :

يبتغون : يتطلعون .

شطأه : فراخه .

فآزره : قواه وأعانه .

على سوقه : على أصوله .

تقدموا : تتقدموا .

تحبط : تبطل .

يغضون : يخفضون .

امتحن : أخلص وأصفى .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم صفة أصحاب رسول الله ﷺ تلك الجماعة المختارة .

٢ ـ أن نتعلم الأدب اللائق مع الله ورسوله ﷺ .

٣ ـ أن نتعلم الأدب الأليق فى الحديث والخطاب عن رسول الله ﷺ .

المحتوى التربوى :

نجىء إلى ختام السورة بتلك الصورة الوضيئة التى يرسمها القرآن لواقع صحابة رسول الله ﷺ ، وبذلك الثناء الكريم على تلك الجماعة الفريدة السعيدة التى رضى الله عنها ، وبلغها رضاه فردًا فردًا ، صورة عجيبة مؤلفة من عدة لقطات لأبرز حالات هذه الجماعة المختارة ؛ فلقطة تصور حالتهم مع الكفار ومع أنفسهم ، فهم أشداء على الكفار وفيهم آباؤهم وإخوتهم وذوو قرابتهم وصحابتهم ولكنهم قطعوا هذه الوشائج كلها، رحماء فيما بينهم وهم فقط إخوة دين، فهى الشدة لله والرحمة لله، وهى الحمية للعقيدة ، والسماحة للعقيدة ، فليس لهم فى أنفسهم شىء، وهم يقيمون عواطفهم ومشاعرهم كما يقيمون سلوكهم وروابطهم على أساس عقيدتهم وحدها.

ثم يختار من هيئاتهم وحالاتهم ، هيئة الركوع والسجود وحالة العبادة ، وكأنما هذه هيئتهم الدائمة التى يراها الرائى حيثما رآهم ، وتأتى اللقطة الثالثة لبواطن نفوسهم وأعماق سرائرهم ، وهى صورة لمشاعرهم الدائمة الثابتة ، فكل ما يشغل بالهم وكل ما تتطلع إليه أشواقهم هو فضل الله ورضوانه ، ولا شىء وراء الفضل والرضوان يتطلعون إليه ويشتغلون به .

واللقطة الرابعة تثبت أثر العبادة الظاهرة والتطلع المضمر فى ملامحهم، ونضحها على سماتهم؛ سيماهم فى وجوههم من الوضاءة والإشراق والصفاء والشفافية ، ومن ذبول الحى الوضىء اللطيف ، وليست هى هذه السيما هى النكتة المعروفة فى الوجه كما يتبادر إلى الذهن ، فالمقصود بأثر السجود هو أثر العبادة ، وهذه الصورة الوضيئة ليست مستحدثة ، إنما هى ثابتة لهم فى لوحة القدر وجاء ذكرها فى التوراة .

وصفتهم فى بشارة الإنجيل بمحمد ﷺ ومن معه ؛ كزرع نام قوى أخرج أول ما ينشق عنه من الفروع ، والنبت الطرى فى جوانبه من قوته وخصوبته ، وهذه الفروع لا تضعف العود بل تشده ، فاستغلظ الزرع وضخمت ساقه وامتلأت ، فاستوى لا معوجا ومحنيا ، ولكن مستقيما قويا سويا ، هذه صورته فى ذاته ، أما وقعه فى نفوس أهل الخبرة فى الزرع فهو وقع البهجة والإعجاب ، وأما وقعه فى نفوس الكفار على العكس : فهو وقع الغيظ والكمد ، وهكذا يثبت الله فى كتابه الخالد صفة هذه الجماعة المختارة حتى تبقى نموذجا للأجيال تحاول أن تحققها ، لتحقق معنى الإيمان فى أعلى الدرجات ، وفوق هذا التكريم كله وعد الله بالمغفرة والأجر العظيم

سورة الحجرات

أول ما يبرز للنظر عند مطالعة السورة ، هو أنها تكاد تستقل بوضع معالم كاملة لعالم رفيع كريم نظيف سليم ، متضمنة القواعد والأصول والمبادئ والمناهج التى يقوم عليها هذا العالم ، والتى تكفل قيامه أولا ، وصيانته أخيراً ، عالم يصدر عن الله ويتجه إلى الله ، ويليق أن ينتسب إلى الله ، عالم نقى القلب نظيف المشاعر ، عف اللسان ، وقبل ذلك عف السريرة .

هو عالم له أدب مع الله ، ومع رسول الله يتمثل هذا الأدب فى إدراك حدود العبد أمام الرب والرسول الذى يبلغ عن الرب ، فلا يسبق العبد المؤمن إلهه فى أمر أو نهى ، ولا يقترح عليه فى قضاء أو حكم ، ولا يتجاوز ما يأمر به وما ينهى عنه ، ولا يجعل لنفسه إرادة أو رأيا مع خالقه ، تقوى منه وخشية ، وحياء منه وأدبا ، فيأيها الذين آمنوا لا تقترحوا على الله ورسوله اقتراحا ، لا فى خاصة أنفسكم ، ولا فى أمور الحياة من حولكم ، ولا تقولوا فى أمر قبل قول الله فيه على لسان رسوله ، ، ولا تقضوا فى أمر لا ترجعون فيه إلى قول الله وقول رسوله .

فهو أدب نفسى مع الله ورسوله ،وهو منهج فى التلقى والتنفيذ ، وهو أصل من أصول التشريع والعمل فى الوقت ذاته ، وهو منبثق من تقوى الله وراجع إليها ، هذه التقوى النابعة من الشعور بأن الله سميع عليم ، وكذلك تأدب المؤمنين مع ربهم ومع رسولهم ، فما عاد مقترح منهم يقترح على الله ورسوله ، وما عاد واحد منهم يدلى برأى لم يطلب منه رسول الله ﷺ أن يدلى به ، وما عاد أحد منهم يقضى برأيه فى أمر أو حكم ، إلا أن يرجع قبل ذلك إلى قول الله وقول الرسول .

والأدب الثانى هو أدبهم مع نبيهم فى الحديث والخطاب ، وتوقيرهم له فى قلوبهم ، توقيراً ينعكس على نبراتهم وأصواتهم ، ويميز شخص رسول الله بينهم ، ويميز مجلسه فيهم والله يدعوهم إليه بذلك النداء الحبيب ، ويحذرهم من مخالفة ذلك التحذير الرهيب .

ونوه الله بتقواهم وغضهم أصواتهم عند رسول الله ﷺ فى تعبير عجيب ، فالتقوى هبة عظيمة ، يختار الله لها القلوب بعد امتحان واختبار ، وبعد تخليص وتمحيص ، فلا يضعها فى قلب إلا وقد تهيأ لها ، وقد ثبت أنه يستحقها ، والذين يغضون أصواتهم عند رسول الله قد اختبر الله قلوبهم وهيأها لتلقى تلك الهبة ، هبة التقوى، وقد كتب لهم معها وبها المغفرة والأجر العظيم، إنه الترغيب العميق بعد التحذير المخيف ، بها يربى الله قلوب عباده المختارين ، ويعدها للأمر العظيم الذى نهض به الصدر الأول على هدى من هذه التربية ونور ، وعرف علماء هذه الأمة وقالوا : إنه يكره رفع الصوت عند قبره ﷺ كما كان يكره فى حياته ﷺ احتراما له فى كل حال .

ثم أشار السياق إلى حادث وقع من وفد بنى تميم حين قدموا على النبى ﷺ فى العام التاسع ، وكانوا أعرابا جفاة ، فنادوا من وراء حجرات أزواج النبى ﷺ يا محمد اخرج لنا ، فكره النبى ﷺ هذه الجفوة وهذا الإزعاج ، فوصفهم الله بأن أكثرهم لا يعقلون ، وبين لهم الأولى والأفضل وهو الصبر والانتظار حتى يخرج إليهم ، وحبب إليهم التوبة والإنابة ، ورغبهم فى المغفرة والرحمة .

وقد وعى المسلمون هذا الأدب الرفيع ، وتجاوزوا به شخص رسول الله ﷺ إلى كل أستاذ وعالم ، لا يزعجونه حتى يخرج إليهم ، ولا يقتحمون عليه حتى يدعوهم .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ المؤمن كريم على الله وعليه أن يرعى الكرامة فى نفسه .

٢ ـ الحياة الإسلامية نظيفة المشاعر سليمة السلوك ترفع أصحابها إلى حياة الكمال .

٣ ـ المؤمن لا يتجاوز ما يأمر به الله وما ينهى عنه .

الجزء السادس والعشرون — سورة الحجرات

وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا
أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾
وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ
وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ
الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾
فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِن طَائِفَتَانِ
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا
عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِن فَاءَتْ
فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ
﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ
لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ
عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا
مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ
الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾

٥١٦

معانى الكلمات :

فاسق : غير موثوق بصدقه وعدالته .

فتبينوا : فتثبتوا . **لعنتم** : وقعتم فى الحرج والاثم . زينه : حسنه . **الفسوق** : الخروج عن طاعة الله . **بغت** : تجاوزت حدها بالظلم . **تلمزوا**: تعيبوا . **تنابزوا بالألقاب**: لا تداعوا بالألقاب المستكرهة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم كيف يتلقى المؤمنون الأنباء وكيف يتصرفون فيها ؟

٢ ـ أن نعلم أن نعمة الإيمان من رحمة الله وفيضه .

٣ ـ أن نعلم أن القيم التى يراها الرجال والنساء فى أنفسهم ليست هى القيم الحقيقية التى يوزن بها الناس .

المحتوى التربوى :

يأتى هذا النداء الثالث يبين للمؤمنين كيف يتلقون الأنباء وكيف يتصرفون بها ، ويقرر ضرورة التثبت من مصدرها ، ويخصص الفاسق لأنه مظنة الكذب ، وحتى لا يشيع الشك بين الجماعة المسلمة فى كل ما ينقله أفرادها من أنباء فيقع ما يشبه الشك فى معلوماتها فالأصل فى الجماعة المؤمنة أن يكون أفرادها موضع ثقتها ، وأن تكون أنباؤهم مصدقة مأخوذاً بها ، فأما الفاسق فهو موضع شك حتى يثبت خبره ، وبذلك يستقيم أمر الجماعة وسطا بين الأخذ والرفض لما يصل إليها من أنباء ، ولا تعجل الجماعة فى تصرف بناء على خبر فاسق ، فتصيب قوما بظلم عن جهالة وتسرع ، فتندم على ارتكابها ما يغضب الله ، وتجانب الحق والعدل فى اندفاع .

ومدلول الآية عام وهو يتضمن مبدأ التمحيص والتثبت من خبر الفاسق ، فأما الصالح فيؤخذ بخبره ؛ لأن هذا هو الأصل فى الجماعة المؤمنة ، وخبر الفاسق استثناء ، والأخذ بخبر الصالح جزء من منهج التثبت لأنه أحد مصادره .

وجاءت الآية التالية تذكرهم بالحقيقة الضخمة والنعمة الكبيرة التى تعيش بينهم ليدركوا قيمتها وينتبهوا دائما لوجودها وهى أن فيهم رسول الله ، وهى حقيقة تتصور بسهولة ؛ لأنها

وقعت ووجدت ، ولكنها عند التدبر تبدو هائلة لا تكاد تتصور ، وهل من اليسير أن يتصور الإنسان أن تتصل السماء بالأرض صلة دائمة حية مشهودة ، فتقول السماء للأرض ، وتخبر أهلها عن حالهم وجهرهم وسرهم ، وتقوِّم خطأهم أولًا بأول ، ويفعل أحدهم الفعلة ويقول أحدهم القولة ، ويسر أحدهم الخالجة فإذا السماء تطلع ، وإذا الله جلا جلاله ينبئ رسوله بما وقع ، ويوجهه لما يفعل وما يقول فى هذا الذى وقع ، وإنه لنبأ عظيم ، وإنها لحقيقة هائلة قد لا يحس بضخامتها من يجدها بين يديه ومن ثم كان التنبيه ؛ اعلموا هذا قدره ، وقدروه حق قدره فهو أمر عظيم ، ولو أطاعهم فيما يعن لهم أنه خير لعنتوا وشق عليهم الأمر ، فالله أعرف منهم بما هو خير لهم ورسوله رحمة لهم فيما يدبر لهم ويختار ، فعليهم أن يتركوا أمرهم لله ورسوله .

ثم يوجههم إلى نعمة الإيمان الذى هداهم إليه ، وحرك قلوبهم لحبه ، وكشف لهم عن جماله وفضله ، وعلق أرواحهم به ، وكره إليهم الكفر والفسوق والمعصية ، وكان هذا كله من رحمته وفيضه ، فاختيار الله لفريق من عباده ليشرح صدورهم للإيمان فضل من الله ونعمه ، دونها كل فضل ونعمة ، والذى يستوقف النظر هنا هو تذكيرهم بأن الله هو الذى أراد بهم هذا الخير ، وهو الذى خلص قلوبهم من الشر : الكفر والفسوق والعصيان ، وهو الذى جعلهم بهذا راشدين فضلا منه ونعمة ، وأن ذلك كله كان عن علم منه وحكمة ، وفى تقرير هذه الحقيقة إيحاء لهم كذلك بالاستسلام لتوجيه الله وتدبيره إلى هذا الخير والاطمئنان إلى ما وراءه من خير عليهم وبركة ، فالله يختار لهم الخير ، ورسول الله ﷺ فيهم يأخذ بيدهم إلى هذا الخير ، وإن الإنسان ليعجل وهو لا يدرى ما وراء خطواته وإن الإنسان ليقترح لنفسه ولغيره ، وهو لا يعرف ما الخير وما الشر فيما يقترح .

وينتقل السياق إلى قاعدة تشريعية عملية لصيانة المجتمع المؤمن من الخصام والتفكك ، تحت النزوات والاندفاعات تأتى تعقيبا على تبين خبر الفاسق ، وعدم العجلة والاندفاع وراء الحمية والحماسة ، قبل التثبت والاستيقان ، والقرآن قد واجه ـ أو هو يفترض ـ إمكان وقوع القتال بين طائفتين من المؤمنين ، ويستبقى لكلتا الطائفتين وصف الإيمان مع اقتتالهما ، ومع احتمال أن إحداهما قد تكون باغية على الأخرى ، بل مع احتمال أن تكون كلتا هما باغية فى جانب من الجوانب ؛ وهو يكلف الذين آمنوا أن يقوموا بالإصلاح بين المتقاتلين ، فإن بغت إحداهما فلم تقبل الرجوع إلى الحق ، ومثله أن تبغيا معا برفض الصلح ، فعلى المؤمنين أن يقاتلوا البغاة إذن حتى يرجعوا إلى أمر الله ، فإذا تم قبول البغاة لحكم الله ، قام المؤمنون بالإصلاح القائم على العدل الدقيق طاعة لله وطلبا لرضاه، فالله يحب المقسطين

ويعقب السياق على هذه الدعوة باستجاشة قلوب الذين آمنوا واستحياء الرابطة الوثيقة بينهم ، والتى جمعتهم بعد تفرق ، ومما يترتب على هذه الأخوة أن يكون الحب والسلام والتعاون والوحدة هى الأصل فى الجماعة المسلمة ، والإصلاح القائم على تقوى الله مطلوب ، فتقوى الله تحقيق للرحمة لمن اتقاه .

والمجتمع الفاضل الذى يقيمه الإسلام بهدى القرآن مجتمع له أدب رفيع ، ولكل فرد فيه كرامته التى لا تمس ، وهى من كرامة المجموع ، ولمز أى فرد هو لمز لذات النفس ؛ لأن الجماعة كلها وحدة ، كرامتها واحدة ، والقرآن فى هذه الآية يهتف للمؤمنين بذلك النداء الحبيب يناديهم بالمؤمنين ، وينهاهم أن يسخر قوم بقوم أى : رجال برجال فلعلهم خير منهم عند الله ، أو أن يسخر نساء من نساء فلعلهن خير منهن فى ميزان الله ، وفى التعبير إيحاء خفى بأن القيم الظاهرة التى يراها الرجال فى أنفسهم ويراها النساء فى أنفسهن ليست هى القيم الحقيقية التى يوزن بها الناس ، فهناك قيم أخرى قد تكون خافية عليهم يعلمها الله ويزن بها العباد ، وقد يسخر الرجل الغنى من الرجل الفقير ، والرجل القوى من الرجل الضعيف ، والرجل السوى من الرجل المؤوف ، وقد يسخر الذكى الماهر من الساذج الخام ، وقد يسخر ذو الأولاد من العقيم ، وذو العصبة من اليتيم ، وقد تسخر الجميلة من القبيحة ، والشابة من العجوز ، والمعتدلة من المشوهة والغنية من الفقيرة ، هذه وأمثالها من قيم الأرض ليست هى المقياس ، فميزان الله يرفع ويخفض بغير هذه الموازين .

ولكن القرآن لا يكتفى بهذا الإيحاء ، بل يستجيش عاطفة الأخوة الإيمانية ، ويذكر الذين آمنوا بأنهم نفس واحدة من يلمزها فقد لمزها ، واللمز : العيب ، ومن السخرية ، واللمز التنابز بالألقاب التى يكرهها أصحابها ، ويحسون فيها سخرية وعيبا ، ومن حق المؤمن على المؤمن ألا يناديه بلقب يكرهه ويزرى به ، ومن أدب المؤمن ألا يؤذى أخاه ، وقد غير رسول الله ﷺ أسماء وألقابا كانت فى الجاهلية لأصحابها بما يزرى بأصحابها أو يصفهم بوصف ذميم .

والآية تستثير معنى الإيمان ، وتحذر المؤمنين من فقدان هذا الوصف الكريم ، والفسوق عنه والانحراف بالسخرية واللمز والتنابز ، فهو شىء يشبه الارتداد عن الإيمان وتهدد باعتبار هذا ظلما ، والظلم أحد التعبيرات عن الشرك ، وبذلك تضع قواعد الأدب النفسى لذلك المجتمع الفاضل الكريم .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ يجب التثبت فى الأخبار ، حتى لا يؤدى عدم التثبت إلى نتائج سيئة وآثار ضارة بالأفراد والمجتمعات .

٢ ـ يجب أن نصدق المؤمنين الموثوق بهم فيما ينقلون إلينا من أخبار وأقوال ما دمنا لم نجرب عليهم كذبا .

٣ ـ على المؤمنين أن يقوموا بواجب الإصلاح بين المتخاصمين .

٤ ـ لا يجوز لمسلم ولا مسلمة أن يسخر أو يستهزئ بإنسان مهما كان أقل منه فى مال أو جسم أو مكانة اجتماعية

الجزء السادس والعشرون — سورة الحجرات

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ
وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ
يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ
رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ
شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ
عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ۞ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِنْ
قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ
وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾
إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا
وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ
الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ
يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ
﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ
يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ
يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

٥١٧

معانى الكلمات :

لا تجسسوا : لا تتبعوا عورات المسلمين .

يغتب : يذكر أخاه بما يكره إن كان فيه .

آمنا : صدقنا بقلوبنا وألسنتنا .

يلتكم : ينقصكم .

يرتابوا : يشكوا .

أتعلِّمون : أتخبرون .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعلم كيف نحافظ على حرمات الأشخاص به وكراماتهم وحرياتهم .

٢ ـ أن نعلم أن الناس من أصل واحد خلقوا ليتعارفوا ويتعاونوا .

٣ ـ أن نتعرف على حقيقة الإيمان وأنه أكبر المنن على الإنسان من الله .

المحتوى التربوى :

يقيم السياق سياجا آخر فى هذا المجتمع الفاضل الكريم ، حول حرمات الأشخاص به وكراماتهم وحرياتهم ، بينما هى تعلم الناس كيف ينظفون مشاعرهم وضمائرهم فى أسلوب مؤثر عجيب ، فيأمرهم باجتناب كثير من الظن فلا يتركوا ، نفوسهم نهبا لكل ما يهجس فيها حول الآخرين من ظنون وشبهات وشكوك ، وما دام النهى منصبا على أكثر الظن ، والقاعدة أن بعض الظن إثم ، فإن إيحاء هذا التعبير للضمير هو اجتناب الظن السيئ أصلا ؛ لأنه لا يدرى أى ظنونه تكون إثما . وبهذا يطهر القرآن الضمير من داخله أن يتلوث بالظن السيئ ، فيقع فى الإثم ، ويدعه نقيا بريئا من الهواجس والشكوك .

ثم يستطرد السياق فى ضمانات المجتمع إلى مبدأ آخر يتصل باجتناب الظنون ، وهو النهى عن التجسس ، والتجسس قد يكون هو الحركة التالية للظن ، وقد يكون حركة ابتدائية لكشف

العورات ، والاطلاع على السوءات والقرآن يقاوم هذا العمل الدينى من الناحية الأخلاقية ، فللناس حرياتهم وحرماتهم وكراماتهم التى لا يجوز أن تنتهك فى صورة من الصور ، ولا أن تمس بحال من الأحوال ، ولا يوجد مبرر ـ مها يكن ـ لانتهاك حرمات الأنفس والبيوت والأسرار والعورات ، حتى ذريعة تتبع الجريمة وتحقيقها لا تصلح فى النظام الإسلامى ذريعة للتجسس على الناس .

بعد ذلك يجىء النهى عن الغيبة فى تعبير عجيب ، فلا يغتب بعضكم بعضا ، ثم يعرض مشهداً تتأذى له أشد النفوس كثافة وأقل الأرواح حساسية ، مشهد الأخ يأكل لحم أخيه ميتا .

قال ابن الأثير : « فإنه كنى عن الغيبة بأكل الإنسان لحم إنسان آخر مثله ، ثم لم يقتصر على ذلك حتى جعله ميتا، ثم جعل ما هو الغاية من الكراهة موصولا بالمحبة » .

ثم يبادر فيعلن عنهم أنهم كرهوا هذا الفعل المثير للاشمئزاز ، وأنهم إذن كرهوا الاغتياب ، ثم يعقب على كل ما نهاهم عنه فى الآية باستجاشة شعور التقوى ، والتلويح لمن اقترف من هذا شيئا أن يبادر بالتوبة تطلعا للرحمة ، وبمثل هذا العلاج الثابت المطرد تطهر المجتمع الإسلامى وارتفع .

ثم يهتف السياق بالإنسانية جميعا على اختلاف أجناسها وألوانها ، ليردها إلى أصل واحد وإلى ميزان واحد ، هو الذى تقوم به تلك الجماعة المختارة الصاعدة إلى ذلك الأفق السامق ، فيا أيها الناس ، يا أيها المختلفون أجناسا وألواناً ، المتفرقون شعوبا وقبائل ، إنكم من أصل واحد فلا تختلفوا ولا تتفرقوا ولا تتخاصموا ولا تذهبوا بددا ، فالغاية من جعلكم شعوبا وقبائل ، إنها ليست للتناحر والخصام إنما هى للتعارف والوئام ، فأما اختلاف الألسنة والألوان ، واختلاف الطباع والأخلاق ، واختلاف المواهب والاستعدادات ، فتنوع لا يقتضى النزاع والشقاق ، بل يقتضى التعاون للنهوض بجميع التكاليف والوفاء بجميع الحاجات ، وليس اللون والجنس واللغة والوطن وسائر هذه المعانى من حساب فى ميزان الله ، إنما هنالك ميزان واحد تتحدد به القيم ، ويعرف به فضل الناس وهو التقوى ، والكريم حقا هو الكريم عند الله ، وهو يزنكم عن علم وعن خبرة بالقيم والموازين .

وفى ختام السورة تأتى المناسبة لبيان حقيقة الإيمان وقيمته ، فى الرد على الأعراب الذين قالوا آمنا ، وهم لا يدركون حقيقة الإيمان ، والذين منوا على رسول الله ﷺ أنهم أسلموا وهم لا يقدرون منة الله على عباده بالإيمان ، ومع هذا فإن كرم الله اقتضى أن يجزيهم على كل عمل صالح يصدر منهم لا ينقصهم منه شيئا ، فهذا الإسلام الظاهر الذى لم يخالط القلب فيستحيل إيمانا واثقا مطمئنا ، هذا الإسلام يكفى لتحسب لهم أعمالهم الصالحة ، فلا تضيع كما تضيع أعمال الكفار ، ولا ينقص من أجرها شىء عند الله ما بقوا على الطاعة والاستسلام ، ذلك أن الله أقرب إلى المغفرة والرحمة فيقبل من العبد أول خطوة ، ويرضى منه الطاعة والتسليم ، إلى أن يستشعر قلبه الإيمان والطمأنينة .

ثم بين لهم حقيقة الإيمان ، فالإيمان تصديق القلب بالله وبرسوله التصديق الذى لا يرد عليه شك ولا ارتياب ، التصديق الذى ينبثق منه الجهاد بالمال والنفس فى سبيل الله ، وأصحاب هذا الإيمان هم الصادقون فى عقيدتهم ، الصادقون حين يقولون إنهم مؤمنون ، فإذا لم تتحقق تلك المشاعر فى القلب ، ولم تتحقق آثارها فى واقع الحياة ، فالإيمان لا يتحقق والصدق فى العقيدة وفى ادعائها لا يكون .

ثم يستطرد مع الأعراب يعلمهم أن الله عالم بقلوبهم وما فيها ، وأنه هو يخبرهم بما فيها ولا يتلقى منهم العلم عنها ، والإنسان يدعى العلم ولا يعلم نفسه ولا يستقر فيها من مشاعر ولا يدرك حقيقة نفسه ولا حقيقة مشاعره ، والله يعلم كل شىء فى السموات والأرض علما حقيقيًا لا بظواهرها وآثارها ، ولكن بحقائقها وماهياتها ، وعلما شاملا محيطا غير محدود ولا موقوت فهو بكل شىء عليم .

ويتوجه الخطاب إلى الرسول ﷺ عن منِّهم عليه بالإسلام فجاءهم الرد ألا يمنوا بالإسلام وأن المنة لله عليهم لو صدقوا فى دعوى الايمان ، فالايمان هو كبرى المنن التى ينعم بها الله على عبد من عباده فى الأرض ، إنه أكبر من منة الوجود الذى يمنحه الله ابتداء لهذا العبد ، وسائر ما يتعلق بالوجود من آلاء الرزق والصحة والمتاع ، إنها المنة التى تجعل للوجود الإنسانى حقيقة مميزة ، وتجعل له فى نظام الكون دوراً أصيلا عظيما ، فالإيمان قوة دافعة وطاقة مجتمعة، فما تكاد حقيقته تستقر فى القلب حتى تتحرك لتعمل ولتحقق ذاتها فى الواقع ، ولتوائم بين صورتها المضمرة وصورتها الظاهرة ، وصدق الله العظيم ، فالايمان المنة الكبرى وماذا وجد مَنْ فقدها ولا تقلب فى أعطاف النعيم وهو يتمتع ويأكل كما تأكل الأنعام .

والذى يعلم غيب السموات والأرض يعلم غيب النفوس ، ومكنون الضمائر ، وحقائق الشعور ، ويبصر ما يعمله الناس ، فلا يستمد علمه بهم من كلمات تقولها ألسنتهم ، ولكن من مشاعر تجيش فى قلوبهم ، وأعمال تصدق ما يجيش فى القلوب .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ من كبائر الذنوب التى يجب على المسلم أن يجتنبها التجسس لكشف عورات المسلمين والغيبة ، وسوء الظن.

٢ ـ يجب أن نشكر الله تعالى على نعمة الإيمان والهداية إلى طريق الخير ، وعلى نعمة التثبيت على الإيمان .

٣ ـ يجب على المسلم ألا يستكثر أعمال الخير التى يوفقه الله إليها ، فالله تعالى غنىٌ عن عباده ، وطاعتهم يعود نفعها عليهم .

الجزء السادس والعشرون — سورة ق

سورة ق

بسم الله الرحمن الرحيم

ق والقرءان المجيد ﴿١﴾ بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم
فقال الكافرون هذا شيء عجيب ﴿٢﴾ أءذا متنا وكنا ترابا ذلك
رجع بعيد ﴿٣﴾ قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب
حفيظ ﴿٤﴾ بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج
﴿٥﴾ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها
وما لها من فروج ﴿٦﴾ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي
وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ﴿٧﴾ تبصرة وذكرى لكل عبد
منيب ﴿٨﴾ ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات
وحب الحصيد ﴿٩﴾ والنخل باسقات لها طلع نضيد ﴿١٠﴾
رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج ﴿١١﴾ كذبت
قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود ﴿١٢﴾ وعاد وفرعون وإخوان
لوط ﴿١٣﴾ وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد
﴿١٤﴾ أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد ﴿١٥﴾

٥١٨

معانى الكلمات :

رجع : رجوع .

تنقص : تأكل .

مريج : مختلط مضطرب .

فروج : شقوق .

باسقات : طوالا أو حوامل بالبلح .

نضيد : متراكم بعضه فوق بعض .

أفعيينا : أفعجزنا ؟!

لبس : خلط وشبهة وشك .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على كيفية الله لتقرير البعث .

٢ ـ أن نعلم بعض مظاهر قدرة الله تعالى .

٣ ـ أن نتعرف على بعض صفحات من كتاب التاريخ البشرى والتى تنطق بمصير المكذبين .

المحتوى التربوى :

كان رسول الله ﷺ يخطب بهذه الصورة فى العيد والجمعة ، فيجعلها هى موضوع خطبته ومادتها فى الجماعات الحافلة وإن لها شأنا، وتبدأ السورة بالقسم، القسم بالحرف وبالقرآن المجيد، المؤلف من مثل هذا الحرف ، بل إنه هو أول حرف فى لفظ قرآن ، والأمر جلل فالله يبدأ الحديث بالقسم ، ويضرب بعده بحرف ﴿ بَلْ ﴾ ليبدأ حديثاً كأنه جديد عن عجبهم واستنكارهم لما جاءهم به رسولهم فى القرآن المجيد من أمر البعث والخروج ، بل هو الأمر الطبيعى الذى تتقبله الفطرة السليمة ببساطة وترحيب .

ولقد عجبوا من الرسالة ذاتها ، وعجبوا ـ بصفة خاصة ـ من أمر البعث الذى حدثهم عنه هذا المنذر أول ما حدثهم ، فقضية البعث قضية قاعدة أساسية فى العقيدة الإسلامية ، قاعدة تقوم عليها العقيدة ويقوم عليها التصور الكلى لمقتضيات هذه العقيدة .

والمسألة فى نظر الكافرين هى مسألة استبعاد الحياة بعد الموت والبلى وهى نظرة ساذجة ؛ لأن معجزة الحياة التى حدثت مرة يمكن أن تحدث مرة أخرى كما أن هذه المعجزة تقع أمامهم فى كل لحظة ، وتحيط بهم فى جنبات الكون كله ، وهذا هو الجانب الذى قادهم إليه القرآن فى هذه السورة ، فالناس يموتون ، وإذن فهم يصيرون ترابا ، وكل من يقرأ حكاية قول المشركين يلتفت مباشرة إلى ذات نفسه ، وإلى غيره من الحياء حوله .

والتعقيب يعمق هذه اللمسة ويقوى وقعها ، وهو يصور الأرض تأكل منهم شيئا فشيئا ، ويصور أجسادهم وهى تتآكل باطراد وتبلى، ليقول: إن الله يعلم ما تأكله الأرض من أجسادهم، وهو مسجل فى كتاب حفيظ ، فهم لا يذهبون ضياعا إذا ماتوا وكانوا ترابا . ثم تكشف عن حقيقة حالهم التى تنبعث منها تلك الاعتراضات الواهية ، ذلك أنهم تركوا الحق الثابت فمادت الأرض من تحتهم، ولم يعودوا يستقرون على شئ أبداً، وهو أبداً فى أمر مريج لا يستقر على حال.

ويعرض السياق بعض مظاهر الحق فى بناء الكون فيوجه أنظارهم إلى السماء والأرض وإلى الرواسى وإلى الماء النازل من السماء ، وإلى النخل الباسقات وإلى الجنات والنبات فى تعبير يتناسق مع صفة الحق الثابت الراسى الجميل .

إن هذه السماء صفحة من كتاب الكون تنطق بالحق الذى فارقوه ، أفلم ينظروا إلى ما فيها من تشامخ وثبات واستقرار ؟ وإلى ما فيها بعد ذلك من زينة وجمال وبراءة من الخلل والاضطراب ، إن الثبات والكمال والجمال هى صفة السماء التى تتناسق مع السياق هنا ، مع الحق وما فيه من ثبات وكمال وجمال ، ومن ثم تجىء صفة البناء وصفة الزينة وصفة الخلو من الثقوب والفروج .

وكذلك الأرض صفحة من كتاب الكون القائم على الحق المستقر الأساس الجميل البهيج ، فالامتداد فى الأرض والرواسى الثابتات والبهجة فى النبات ، تمثل كذلك صفة الاستقرار والثبات والجمال التى وجه النظر إليها فى السماء ، وعلى مشهد السماء المبنية المتطاولة الجميلة ، والأرض الممدودة الراسية البهيجة يلمس قلوبهم ، ويوجهها إلى جانب من حكمة الخلق ، ومن عرض صفحات الحق الكون تبصرة تكشف الحجب وتنير البصيرة وتفتح القلوب ، تبصرة ينتفع بها كل عبد منيب يرجع إلى ربه من قريب ، وبعد هذه اللفتة يمضى فى عرض صفحات فى كتاب الكون ـ فى طريقه إلى قضية الإحياء والبعث ، والماء النازل من السماء آية تحيى موات القلوب قبل أن تحيى موات الأرض ، ويصف الماء هنا بالبركة ، ويجعله فى يد الله سببًا لإنبات جنات الفاكهة وحب الحصيد ـ وهو النبات المحصود ـ ومما ينبته به النخل ويصفها بالسموق

والجمال ، وزيادة هذا الوصف للطلع مقصودة لإبراز جمال الطلع المنضد فى النخل الباسق ، وذلك تمشيا مع جو الحق وظلاله ، الحق السامق الجميل .

ويلمس القلوب وهو يمتن عليها بالماء والجنات والحب والنخل والطلع رزقا يسوق الله سببه ، ويتولى نبته ، ويطلع ثمره للعباد وهو المولى وهم لا يقدرون ولا يشكرون ، وهنا ينتهى بموكب الكون كله إلى الهدف الأخير ، فالله أحيا بالماء الأرض التى كانت هامدة ، فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج من أزاهير وغير ذلك ، مما يحار الطرف فى حسنها ، وذلك بعد ما كانت لا نبات بها ، فأصبحت تهتز خضراء ، فهذا مثال للبعث بعد الموت والهلاك ، كذلك يحيى الله الموتى ، فهى عملية دائمة التكرار فيما حولهم مألوفة لهم ، ولكنهم لا ينتبهون إليها ولا يلحظونها قبل الاعتراض والتعجيب .

ثم يعقب السياق بعرض صفحات من كتاب التاريخ البشرى بعد عرض تلك الصفحات من كتاب الكون ، تنطق بمآل المكذبين الذين ماروا كما يمارى هؤلاء المشركون فى قضية البعث ، وكذبوا كما يكذبون الرسل ، فحق عليهم وعيد الله الذى لا مفر منه ولا محيد .

والرس: البئر المطوية غير المبنية ، والأيكة : الشجر الملتف الكثيف ، وأصحاب الأيكة : هم ـ فى الغالب ـ قوم شعيب، أما أصحاب الرس فلا بيان عنهم غير هذه الإشارة،وكذلك قوم تبع، **وتبع** : لقب لملوك حمير باليمن ، وبقية الأقوام المشار إليهم هنا معروفون لقارئ القرآن .

وواضح أن الغرض من هذه الإشارة السريعة ليس تفصيل أمر هذه الأقوام ، ولكنه إيقاع على القلوب بمصارع الغابرين ، حين كذبوا الرسل ، والذى يلفت النظر هو النص على أن كلا منهم كذب الرسل ، وهى لفتة مقصودة لتقرير وحدة العقيدة ووحدة الرسالة ، فكل من كذب برسول فقد كذب بالرسل أجمعين ؛ لأنه كذب بالرسالة الواحدة التى جاء بها الرسل أجمعون ، والرسل إخوة وأمة واحدة وشجرة ضاربة الجذور فى أعماق الزمان ، وكل فرع من تلك الشجرة تلخيص لخصائصها وصورة منها ، ومن يمس فرعا فقد مس الأصل وسائر الفروع ونالهم ما يعرف السامعون من الوعيد .

وفى ظل هذه المصارع يعود إلى القضية التى بها يكذبون ، قضية البعث من جديد ، ويسأل : أعجزنا ابتداء الخلق حتى هم فى شك من الإعادة ؟ والخلق شاهد فلا حاجة إلى جواب وهم غير ناظرين إلى شهادة الخلق الأول الموجود، فماذا يستحق من يكذب وأمامه ذلك الشاهد المشهود؟!

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ فى الكون دلائل واضحة على قدرة الله عز وجل وعظمته .

٢ ـ كل شىء محفوظ فى علم الله تعالى ومكتوب فى اللوح المحفوظ فلا يغيب عنه شىء .

٣ ـ من يفارق الحق تتقاذفه الأهواء وتمزقه الحيرة ، ويضطرب سعيه هنا وهناك .

الجزء السادس والعشرون — سورة ق

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ
مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ
(١٧) مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ
الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ
يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَّقَدْ
كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ
(٢٢) وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ
عَنِيدٍ (٢٤) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا
آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦) ۞ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ
وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ
إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٢٩)
يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) وَأُزْلِفَتِ
الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ
(٣٢) مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا
بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥)

ثلاثة أرباع الحزب ٥٢

٥١٩

معانى الكلمات :

حبل الوريد : عرق كبير فى العنق .

سكرة : شدة .

تحيد : تميل عنه .

حديد : نافذ قوى .

عتيد : حاضر .

قرينه : شيطانه .

أزلفت : قُرِّبَتْ .

أواب : رجاع إلى الله بالتوبة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم مراقبة الله تعالى لخلقه،وتكليف ملائكته بتسجيل كل ما يقوله الإنسان أن يفعله.

٢ ـ أن نستشعر حالة الاحتضار ، وعدم استطاعة الإنسان الهرب من الموت .

٣ ـ أن نعلم جزاء المتقين وألوان تكريمهم فى الآخرة .

المحتوى التربوى :

يعالج السياق القلوب المكذبة بلمسات جديدة ، ولكنها رهيبة مخيفة ، إنها تلك الرقابة ومشاهدها التى تمثلها وتشخصها ، ثم مشهد الموت وسكراته ، ثم مشهد الحساب وعرض السجلات ، ثم مشهد جهنم فاغرة فاها تتلمظ كل ما ألقى فيها وقودها البشرى تسأل المزيد ، وإلى جواره مشهد الجنة والنعيم والتكريم ، فهى رحلة واحدة تبدأ من الميلاد وتمر بالموت ، وتنتهى بالبعث والحساب ، رحلة واحدة متصلة بلا توقف ، ترسم للقلب طريقه الوحيد الذى لا فكاك عنه ولا محيد ، وهو من أول الطريق إلى آخره فى قبضة الله لا يتملص ولا يتفلت ، وتحت رقابته التى لا تفتر ولا تغفل .

وابتداء الآية بأن الله تعالى خالق الإنسان يشير أن صانع الآلة أدرى بتركيبها ، وأسرارها وهو ليس بخالقها لأنه لم ينشئ مادتها، ولم يزد على تشكيلها وتركيبها، فكيف بالمنشئ الموجد الخالق؟

إن الإنسان خارج من يد الله أصلا ، فهو مكشوف الكنه والوصف والسر لخالقه العليم بمصدره ومنشئه وحاله ومصيره ، وكل ما فى نفسه من وساوس خافتة وخافية معلوم لله ، تمهيداً ليوم الحساب الذى ينكره ويجحده .

وحين يتصور الإنسان حقيقة أن رقابة الله أقرب إليه من الوريد الذى يجرى فيه دمه ، واستحضر القلب مدلول هذه العبارة وحدها ما جرؤ على كلمة لا يرضى الله عنها ، بل ما جرؤ على هاجسةٍ فى الضمير لا تنال القبول لكافية ليعيش بها الإنسان فى حذر دائم وخشية دائمة ويقظة لا تغفل عن المحاسبة ، ولكن القرآن يستطرد فى إحكام الرقابة ، فإذا الإنسان يعيش ويتحرك وينام ويأكل ويشرب ويتحدث ويصمت ويقطع الرحلة كلها بين ملكين موكلين به عن اليمين وعن الشمال ، يتلقيان منه كل كلمة وكل حركة ويسجلانها فور وقوعها .

يقول صاحب الظلال : « وحسبنا أن نستشعر ونحن نهم بأية حركة وبأية كلمة أن عن يميننا وعن شمالنا ، ومن يسجل علينا الكلمة والحركة ، لتكون فى سجل حسابنا بين يدى الله الذى لا يضيع عنده فتيل ولا قطمير ، حسبنا أن نعيش فى ظل هذه الحقيقة الرهيبة ، وهى حقيقة ، ولو لم ندرك نحن كيفيتها ، وهى كائنة فى صورة ما من الصور ، ولا مفر من وجودها ، وقد أنبأنا الله بها لنحسب حسابها ، لا لننفق الجهد عبثا فى معرفة كيفيتها ، والذين انتفعوا بهذا القرآن ، وبتوجيهات رسول الله ﷺ الخاصة بحقائق القرآن ، كان هذا سبيلهم : أن يشعروا ، وأن يعملوا وفق ما شعروا » .

تلك صفحة الحياة ، ووراءها فى كتاب الإنسان صفحة الاحتضار ، والموت أشد ما يحاول المخلوق البشرى أن يروغ منه ، والموت طالب لا يمل الطلب ، ولا يبطئ الخطا ولا يخلف الميعاد ، وذكر سكرة الموت كفيل برجفة تدب فى الأوصال ، وبينما المشهد معروض يسمع الإنسان أن هذا هو الذى كنت تفر منه قد جاءك ، فلا محيد ولا مناص ، ويلفت النظر فى التعبير ذكر كلمة الحق ، وهى توحى بأن النفس البشرية ترى الحق كاملا وهى سكرات الموت ، تراه بلا حجاب ، وتدرك منه ما كانت تجهل وما كانت تجحد ولكن بعد فوات الأوان حين لا تنفع رؤية ، ولا يجدى إدراك ولا تقبل توبة ، ولا يحسب إيمان .

ومن سكرة الموت إلى وهلة الحشر وهول الحساب ، وهو مشهد يكفى استحضاره فى النفس لتقضى رحلتها كلها على الأرض فى توجس وحذر وارتقاب ، جاءت كل نفس ، فالنفس هنا هى التى تحاسب ، وهى التى تتلقى الجزاء ، ومعها سائق يسوقها وشاهد يشهد عليها ، قد يكونان هما الكاتبان الحافظان لها فى الدنيا ، وقد يكونان غيرهما والأول أرجح ، وفى هذا الموقف العصيب يقال له : هذا هو الموعد الذى غفلت عنه ، وهذا هو الموقف الذى لم تحسب حسابه ، وهذه هى النهاية التى كنت لا تتوقعها ، فالآن انظر فبصرك قوى لا يحجبه حجاب .

هنا يتقدم قرينه والأرجح أنه الشهيد الذى يحمل سجل حياته ، وهو حاضر مهيأ معد لا يحتاج إلى تهيئة أو إعداد ، ولا يذكر السياق شيئا عن مراجعة هذا السجل تعجيلا بتوقيع الحكم

وتنفيذه ، إنما يذكر مباشرة النطق العلوى الكريم للملكين الحافظين السائق والشهيد ، ويزيد الموقف حرجا وشدة ، ويوصف الكفار بنعوت تدل على غضب الجبار القهار فى الموقف العصيب الرهيب، وهى نعوت قبيحة مستحقة لتشديد العقوبة: كفار . عنيد مناع للخير . معتد . مريب الذى جعل مع الله إلها آخر . وتنتهى بتوكيد الأمر الذى لا يحتاج إلى توكيد بإلقائه فى العذاب الشديد .

عندئذ يفزع قرينه ويرتجف ، ويبادر إلى إبعاد ظل التهمة عن نفسه ، بما أنه كان مصاحبا له وقرينا ، ربما كان القرين هنا غير القرين الأول الذى قدم نفسه فاستمع لغوايته ، وفى القرآن مشاهد مشابهة يتبرأ فيها القرين الشيطانى من القرين الإنسانى على هذا النحو ، وقد يكون القرين هو الملك صاحب (السجل ، ولكن هول الموقف يجعله يبادر إلى التبرؤ ـ وهو برئ ليبين أنه مع صحبته لهذا الشقى ـ فإنه لم تكن له يد فى أى مما كان منه ، وتبرئ البرىء أدل على الهول المزلزل والكرب المخيف .

وهنا يجىء القول الفصل فينتهى كل قول ، فالمقام ليس مقام اختصام ، وقد سبق الوعيد محدداً جزاء كل عمل ، وكل شىء مسجل لا يبدل ، ولا يجزى أحد إلا بما هو مسجل ولا يظلم أحد ، فالمجازى هو الحكم العدل ، ويكشف السياق عن جانب من مشهد الحساب مخيف ، فتعرض جهنم فيه فى معرض الحوار ، وبهذا السؤال والجواب يتجلى مشهد عجيب رهيب ، هذا كل كفار عنيد مناع للخير معتد مريب هؤلاء هم كثرة نفذت فى جهنم تباعا ، وتتكدس ركاما ، ثم تنادى جهنم هل اكتفيت ولكنها تتلمظ وتتحرق تريد المزيد فيا للهول الرعيب .

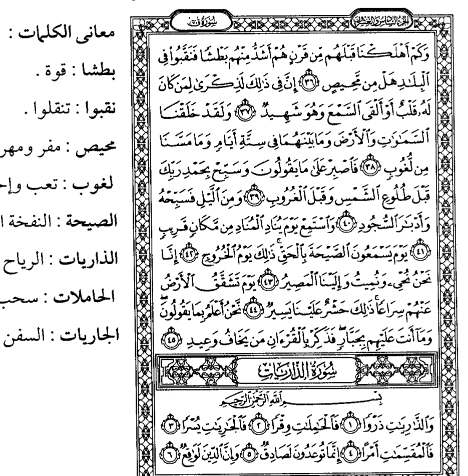
وعلى الضفة الأخرى من هذا الهول مشهد آخر وديع أليف إنه مشهد الجنة ، تقرب من المتقين حتى تتراءى لهم من قريب مع الترحيب والتكريم فى كل كلمة وكل حركة ، فالجنة لا يذهبون إليها بل هى التى تجىء لا تبعد منهم ، ونعيم الرضا يتلقاهم مع الجنة ويوصفون من الملأ الأعلى بأنهم تائبون يحفظون العهد ، يخافون الله فى سرهم وخلوتهم ، وقلوبهم سليمة خاضعة لله ، ثم يؤذن لهم بالدخول بسلام لغير ما خروج ، ثم يؤذن فى الملأ الأعلى ، إعلانا بما لهم عند ربهم من نصيب غير محدود ، فمهما اقترحوا فهم لا يبلغون ما أعد لهم ، فالمزيد من ربهم غير محدود .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ يجب أن يتذكر الإنسان دائما المصير المخيف للكافرين ، والثواب العظيم للمتقين حتى يتجنب ما يغضب الله.

٢ـ المؤمن إنسان إيجابى يسهم فى الحياة والمجتمع الذى يعيش فيه ويقدم دائما الخير والمساعدة لغيره .

٣ ـ على الإنسان ألا ينطق بكلمة خبيثة أو يلفظ سيئ ؛ لأن كل كلمة ينطق بها لسانه يسجلها ملك فى كتاب أعماله ، وسوف يحاسب عليها .



سورة ق

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

سورة الذاريات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾

٥٢٠

معانى الكلمات :

بطشا : قوة .

نقبوا : تنقلوا .

محيص : مفر ومهرب .

لغوب : تعب وإعياء .

الصيحة : النفخة الثانية .

الذاريات : الرياح تفرق الغبار .

الحاملات : سحب تحمل الأمطار .

الجاريات : السفن .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعلم أخذ العبرة والعظات من التاريخ .

٢ ـ أن نعلم قدرة الله وعظمته فى بديع مخلوقاته .

٣ ـ أن نعلم أن ما وعد الله الناس لابد أن يقع من رزق أو بعث أو جزاء .

المحتوى التربوى :

يذكر السياق إهلاك الله لقرون كثيرة قد خلت ، ويضيف إليها حركة القرون وهى تتقلب فى البلاد ، وتنقب عن أسباب الحياة ، وهى مأخوذة فى القبضة التى لا يفلت منها أحد ، ولا مفر منها ولافكاك ، وعقب عليها بما يزيدها جدة وحيوية ، فيقول أنها هلاك القرون ذكرى ، وفى مصارع الغابرين ذكرى لمن كان له قلب ، ويكفى للذكرى والاعتبار أن يكون هناك سمع يلقى إلى القصة بإنصات ووعى ، فتفعل القصة فعلها فى النفوس ، وإنه للحق ، فالنفس البشرية شديدة الحساسية بمصارع الغابرين شديدة التأثر بها .

والله تعالى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، وما كان هناك من تعب ونصب فيا مسه تعالى لغوب، والسياق يوحى بيسر الخلق والإنشاء فى هذا الخلق الهائل .

يقول ابن كثير رحمه الله : « فيه تقرير المعاد ؛ لأن من قدر على خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن قادر على أن يحيى الموتى بطريق الأولى والأحرى ، وقالت اليهود عليهم لعائن الله خَلق الله السموات والأرض فى ستة أيام ، ثم استراح فى اليوم السابع وهو يوم السبت ، وهم يسمونه يوم الراحة ، فأنزل الله تكذيبهم فيما قالوه وتأولوه».

وعقب السياق بخطاب الرسول ﷺ بالصبر على ما يقوله المكذبون وأن يهجرهم هجراً جميلا، وأن يسبح بحمد ربه قبل طلوع الشمس وقبل الغروب،ويسبح فى الليل وبعد الصلاة.

يقول صاحب الظلال : « وطلوع الشمس وغروبها ومشهد الليل الذى يعقب الغروب ، كلها ظواهر مرتبطة بالسموات والأرض ، وهو يربط إليها التسبيح والحمد والسجود ، ويتحدث فى ظلالها عن الصبر على ما يقولون من إنكار للبعث والتسبيح والسجود موصولا كل ذلك بصفحة الكون وظواهر الوجود ، تثور فى الحس كلما نظر إلى السموات والأرض ، وكلما رأى مطلع الشمس أو مقدم الليل ، وكلما سجد لله فى شروق أو غروب .

ثم لمسة جديدة ترتبط كذلك بالصفحة الكونية المعروضة .. اصبر وسبح واسجد ، وأنت فى حالة انتظار وتوقع للأمر الهائل الجلل ، المتوقع فى كل لحظة من لحظات الليل والنهار لا يغفل عنه إلا الغافلون » .

ويذكر السياق من أهوال القيامة يوم ينادى مناديها من كل مكان قريب ، بحيث يصل نداؤه إلى الكل على سواء ، وإنه لمشهد جديد مثير لذلك اليوم العسير ، وعبر هنا عن النفخة بالصيحة ، وصور مشهد الخروج ، ومشهد تشقق الأرض عنهم وذلك أن الله تعالى ينزل مطراً من السماء تنبت به أجساد الخلائق فى قبورها ، كما ينبت الحب فى الثرى بالماء ، فإذا تكاملت الأجساد أمر الله إسرافيل فينفخ فى الصور وقد أودعت الأرواح فى ثقب فى الصور ، فإذا نفخ إسرافيل فيه خرجت الأرواح تتوهج بين السماء والأرض فيقول الله عز وجل : وعزتى وجلالى لترجعن كل روح إلى الجسد الذى كانت تعمره ، فترجع كل روح إلى جسدها، فتدب فيه كما يدب السم فى اللديغ وتنشق الأرض عنهم ، فيقومون إلى موقف الحساب سراعا ، مبادرين إلى أمر الله عز وجل ، هذه الخلائق التى غبرت فى تاريخ الحياة كلها إلى نهاية الرحلة ، تشقق القبور التى لا تحصى ، والتى تعاقب فيها الموتى كما يقول المعرى :

رب قبر قد صار قبراً مزاراً   ضاحك من تزاحم الأضـــداد

ودفين على بقـايـا دفيـن   فـى طـويـل الآجـال والآمـاد

كلها تشقق ، وتتكشف عن أجساد ورفات وعظام وذرات تائهة أو حائلة فى مسارب الأرض ، لا يعرف مقرها إلا الله ، وإنه لمشهد عجيب لا يأتى عليه الخيال .

وفى ظلال هذا المشهد الثائر المثير يقرر الحقيقة التى فيها يجادلون وبها يجحدون ، فالله سبحانه يحيى ويميت وإليه المرجع ، والحشر يسير فى أنسب وقت للتقرير ، وفى ظلال هذا المشهد كذلك

يتوجه بالتثبيت للرسول ﷺ تجاه جدلهم وتكذيبهم فى هذه الحقيقة الواضحة المشهودة بعين الضمير ، فالله محيط عليم بما يقول لك المشركون ، وهذا حسبك فللعلم عواقبه عليهم ، وهو تهديد مخيف ملفوف ، وما أنت عليهم بصاحب سلطان فترغمه على الإيمان والتصديق ، فالأمر فى هذا ليس إليك ، إنما هو لنا فمن ، ونحن عليهم رقباء وبهم موكلون .

وذكر بالقرآن ، والقرآن يهز القلوب ويزلزلها فلا يثبت له قلب يعى ويخاف ما يواجهه به من حقائق ترجف لها القلوب ، على ذلك النمو العجيب ، وحين تعرض مثل هذه السورة ، فإنها لا تحتاج إلى جبار يلوى الأعناق على الإيمان ، ففيها من القوة والسلطان ما لا يملكه الجبارون ، وفيها من الإيقاعات على القلب البشرى ما هو أشد من سياط الجبارين .

سورة الذاريات

هذه السورة ذات جو خاص ، فهى تبدأ بذكر قوى أربعة من أمر الله فى لفظ مبهم الدلالة ، يوقع فى الحس لأول وهلة أنه أمام أمور ذات سر ، يقسم الله سبحانه بالرياح التى تذرو ما تذروه من غبار وحبوب لقاح وسحب وغيرها مما يعلم الإنسان وما يجهل ، وبالسحاب الحاملات وقراً من الماء يسوقها الله به إلى حيث يشاء ، وبالسفن الجاريات فى يسر على سطح الماء بقدرته،وبما أودع الماء وأودع السفن وأودع الكون كله من خصائص تسمح بهذا الجريان اليسير، ثم بالملائكة المقسمات أمراً .

تحمل أوامر الله وتوزعها وفق مشيئته ، فتفصل فى الشؤون المختصة بها ، وتتسم الأمور فى الكون بحسبها

يقسم الله ـ سبحانه ـ بهذه الخلائق الأربع على أن ما وعد الله به الناس لوعد صادق ، وقد وعد الله الناس : أنه مجازيهم بالإحسان إحسانا ، ومجازيهم بالسوء سوءاً ، وأنه إذا أمهلهم الحساب فى الأرض ، فليس بمهمل حسابهم فى الآخرة فالحساب لابد منه هناك فى الصورة التى يريدها ، وفى الوقت الذى يريده ، وما يحتاج الأمر إلى قسم منه سبحانه ، إنما يقسم بخلائقه تلك لتوجيه القلب إليها ، وتدبر ما وراءها من إبداع وقدرة وتدبير يوحى للقلب بأن وعد الله لابد صادق ، وأنه حساب على الخير والشر واقع .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ مهمة المسلم هى مهمة رسوله ﷺ هى التبليغ والإنذار والنصح وليست إجبار الناس على الهداية .

٢ ـ ليس هناك شىء صعب على الله تعالى لا فى إنشائه وخلقه ، ولا فى إحيائه بعد موته .

٣ ـ الله ـ تبارك وتعالى ـ يقسم بما شاء من مخلوقاته تعظيما لها وبيانا لأهميتها ، أما نحن العباد فلا يجوز لنا أن نحلف إلا بالله أو بصفة من صفاته .

معانى الكلمات :

الحبك : الطرق التى تسير فيها الكواكب .

مختلف : متناقص .

يؤفك : يصرف .

الخراصون : الكذابون .

غمرة : جهالة غامرة بأمور الآخرة .

فراغ : ذهب فى خفية .

صرة : صيحة وضجة .

فصكت : لطمت .

الجزء السادس والعشرون — سورة الذاريات

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾

٥٢١

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم حال المكذبين وصفة المتقين .

٢ ـ أن نتعلم طريق الإيمان بقدرة الله ووحدانيته عن طريق النظرة فى الأرض وفى أنفسنا .

٣ ـ أن نتعرف على كرم إبراهيم عليه السلام وسخاؤه لضيفه ، وكيفية الضيافة .

المحتوى التربوى :

يجىء القسم الثانى فيقسم بالسماء المنسقة المحكمة التركيب ذات البهاء والجمال والحسن والاستواء وقد تكون هيئات السحب مجعدة تجعد الماء والرمل إذا ضربته الريح ، يقسم الله بالسماء المنسقة المحبوكة على أنهم فى قول مختلف ، مضطرب لا قوام له ولا قرار ، ولا ثبات له ولا استقرار ، يصرف عنه من صرف ويبقى عليه من بقى ، فلا استقرار عليه ولا توافق ولا ثبات بل الحيرة دائمة والقلق لا يزال ، ويتضح اضطرابهم واختلافهم وما هم فيه من الأمر المريج ، حين يعرض فى ظل السماء ذات الحبك المنسقة التركيب .

فهم فى قول مختلف فى هذا الحق المبين،ثم يصور لهم ذلك اليوم فى مشهد حى تتملاه العيون ، فدعوة الله عليهم بالقتل قضاء بالقتل ، ويزيد أمرهم وضوحا فهم مغمورون بالأضاليل والأوهام لا يفيقون ، ولا يستيقظون والتعبير يلقى ظلاً خاصاً يصور القوم مغمورين ساهين لا

يشعرون بشىء مما حولهم ولا يتبينون كأنهم سكارى مذهولون ، ذلك أنهم لا يتبينون الأمر الواضح الذى يراه ويوقن به كل كل داع غير مذهول ، فهم يسألون عن يوم الدين سؤال استنكار وتكذيب واستبعاد لمجيئه ، ومن ثم يعاجلهم بمشهدهم فى هذا اليوم الذى يستبعدونه ويستنكرونه وهم يحرقون بالنار كحرق المعدن لتمييز جقيقته ، يوم يكونون على النار يعذبون ويحرقون ، ومعه التبكيت المؤلم فى الموقف العصيب فهذا الذى كنتم به فى تكذيب .

وينتقل السياق إلى فريق آخر مستيقن لا يخرص ، نقى لا يتبجح ، مستيقظ يعبد ويستغفر ، ولا يقضى العمر فى غمرة وذهول ، فهذا الفريق ، فريق المتقين الأيقاظ ، هؤلاء فى يوم ميعادهم يكونون فى جنات وعيون ، يتنعمون بما آتاهم ربهم من فضله وإنعامه ، جزاء ما أسلفوا فى الحياة الدنيا من عبادة لله كأنهم يرونه ، ويقين منهم بأنه يراهم ، فقد كانوا محسنين ويصور إحسانهم صورة خاشعة ؛ فهم الأيقاظ فى جنح الليل والناس نيام ، المتوجهون إلى ربهم بالاستغفار والاسترحام لا يطعمون الكرى إلا قليلا ، ولا يهجعون فى ليلهم إلا يسيراً ، يأنسون بربهم فى جوف الليل فتتجافى جنوبهم عن المضاجع ، ويخف بهم التطلع فلا يثقلهم المنام . وهذه حالهم مع ربهم ، فأما حالهم مع الناس وحالهم مع المال فهو مما يليق بالمحسنين ، فهم يجعلون نصيب السائل الذى يسأل فيعطى ، ونصيب المحروم الذى يسكت ويستحيى فيحرم ، يجعلون نصيب هذا وهذا حقا مفروضا فى أموالهم ، وهم متطوعون بفرض هذا الحق غير المحدود .

ويلفت السياق إلى آيات الله فى الأرض وفى الأنفس ، وتوجيه إلى السماء فى شأن الرزق المكتوب والحظ المقدور ، ولو مضى الإنسان بل لو مضى الأناسى جميعا ـ يتأملون هكذا ويشيرون هكذا ويشيرون مجرد إشارة إلى ما فى الأرض من عجائب ، وإلى ما تشير إليه هذه العجائب من آيات ، ما انتهى لهم قول ولا إشارة ، والنص القرآنى ما يزيد على أن يوقظ القلب البشرى للتأمل والتدبر ، غير أنه لا يدرك هذه العجائب إلا القلب العامر باليقين ؛ فلمسة اليقين هى التى تحيى القلب فيرى ويدرك .

ثم العجيبة الأخرى التى تدب على هذه الأرض ، وهذا هو المخلوق الإنسانى هو العجيبة الكبرى فى هذه الأرض ، ولكنه يغفل عن قيمته ، وعن أسراره الكامنة فى كيانه حين يغفل قلبه عن الإيمان وحين يحرم نعمة اليقين ، إنه عجيبة فى تكوينه الجسمانى فى أسرار هذا الجسد ، عجيبة فى تكوينه الروحى .

فى أسرار هذه النفس ، وهو عجيبة فى ظاهره وعجيبة فى باطنه ، وهو يمثل عناصر هذا الكون وأسراره وخفاياه ، وكل جزئية فى حياة هذا المخلوق تقفنا أمام خارقة من الخوارق لا ينقضى منها العجب .

ويجىء التوجيه إلى السماء حيث الرزق المقسوم والحظ المرسوم ، فمع أن أسباب الرزق الظاهرة قائمة فى الأرض ، حيث يكد فيها الإنسان ويجهد ، وينتظر من ورائها الرزق والنصيب ، فإن القرآن يرد بصر الإنسان ونفسه إلى السماء إلى الغيب إلى الله ؛ ليتطلع هناك إلى الرزق المقسوم

والحظ المرسوم ، أما الأرض وما فيها من أسباب الرزق الظاهرة فهى آيات للموقنين ، آيات ترد القلب إلى الله ليتطلع إلى الرزق من فضله .

يقول صاحب الظلال : « والقلب المؤمن يدرك هذه اللفتة على حقيقتها ، ويفهمها على وضعها ويعرف أن المقصود بها ليس هو إهمال الأرض وأسبابها ، فهو مكلف بالخلافة فيها وتعميرها ، إنما المقصود هو ألا يعلق نفسه بها ، وألا يغفل عن الله فى عمارتها ؛ ليعمل فى الأرض وهو يتطلع إلى السما ، وليأخذ بالأسباب ويعيش موصولا قلبه بالسماء ، وقدماه ثابتتان ؛ على الأرض ، فهكذا يريد الله لهذا الإنسان » .

وبعد هذه اللمسات الثلاث فى الأرض والنفس والسماء ، يقسم الله سبحانه بذاته العلية على صدق هذا الحديث كله وبأن ما وعدهم به من من أمر القيامة والبعث والجزاء كائن لا محالة ، وهو حق لا مرية فيه، فلا تشكوا فيه كما لا تشكون فى نطقكم حين تنطقون، والله أصدق القائلين.

وينتقل السياق عن إبراهيم بالسؤال عن العلم بقصة ضيف إبراهيم ، تنويها بهذا الحديث ، وتهيئة للأذهان ، مع وصف ضيف إبراهيم بالمكرمين ؛ إما لأنهم كذلك عند الله ، وإما إشارة إلى إكرام إبراهيم لهم كما ورد فى القصة ، ويبدو كرم إبراهيم وسخاؤه وإرخاصه للمال واضحا ، فما يكاد ضيفه يدخلون ويقولون : سلاما ، ويرد عليهم السلام وهو ينكرهم ولا يعرفهم ، ما يكاد يتلقى السلام ويرده حتى يذهب إلى زوجه مسارعا ليهيئ لهم الطعام ، ويجىء به طعاما وفيراً يكفى عشرات ـ وهم كانوا ثلاثة فيما يقال تكفيهم كتف من هذا العجل السمين ـ وقربه إليهم ، وجاء سؤال الإنكار بعد أن رأى أيديهم لا تصل إليه ألا تأكلون ؟ !

وخافهم إبراهيم ؛ إما لأن الطارئ الذى لا يأكل طعام مضيفه ينبئ عن نية شر وخيانة لأنه لمح أن فيهم شيئًا غريبًا عندئذ كشفوا له عن حقيقتهم أو طمأنوه وبشروه بعدم الخوف ، وكانت منهم ، وإما البشرى له بإسحاق من زوجة العقيم ، وأقبلت أمرأته فى صرخة ورنة ، وعلى عادة النساء ضربت خديها بكفيها من ولادتها وهى عجوز وقد كانت من الأصل عقيم ، عندئذ ردها المرسلون إلى الحقيقة الأولى حقيقة القدرة التى لا يقيدها شئ،والتى تدبر كل أمر بحكمة وعلم .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً .

١ ـ ضمن الله لعباده أرزاقهم ، وقدرها بحكمته .

٢ ـ من صفات المؤمنين المحسنين ، أنهم يسهرون الليل فى عبادة ربهم ولا ينامون إلا قليلا ، و أنهم يطلبون المغفرة من ربهم ، وأنهم يعطون ، من أموالهم للسائل للمحروم المتعفف عن السؤال المحتاج إلى المال .

٣ ـ الحث على إكرام الضيف ولو لم نعرفه .

قال فما خطبكم أيها المرسلون (٣١) قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين (٣٢) لنرسل عليهم حجارة من طين (٣٣) مسومة عند ربك للمسرفين (٣٤) فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين (٣٥) فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين (٣٦) وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم (٣٧) وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين (٣٨) فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون (٣٩) فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم (٤٠) وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم (٤١) ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم (٤٢) وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين (٤٣) فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون (٤٤) فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين (٤٥) وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين (٤٦) والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون (٤٧) والأرض فرشناها فنعم الماهدون (٤٨) ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون (٤٩) ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين (٥٠) ولا تجعلوا مع الله إلها آخر إني لكم منه نذير مبين (٥١)

٥٢٢

معانى الكلمات :

خطبكم : شأنكم الخطير .

مسومة : معلمة بعلامة تميزها .

للمسرفين : للذين تجاوزوا الحد فى الفجور .

سلطان : دليل .

بركنه : بقوته وسلطانه .

مليم : آت بما يلام عليه من الكفر .

كالرميم : كالشىء البالى المفتت .

الماهدون : المصلحون .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم علة مصارع الغابرين وهلاكهم .

٢ ـ أن نستشعر قدرة الله تعالى من خلال آياته فى كونه .

٣ ـ أن نعلم ضرورة الخضوع لله والفرار إليه وتوحيده .

المحتوى التربوى :

يمضى السياق فى قصة إبراهيم مع ضيفه وقد عرف حقيقتهم عن شأنهم الذى أرسلوا فيه ، فعرفوه أنهم أرسلوا إلى قوم لوط فقد كانوا قوما مجرمين ليعذبوهم بحجارة معدة ومهيئة عند الله للمسرفين وقوم لوط كانوا مسرفين فى تجاوزهم للفطرة والحق والدين ، وقد أخرجوا من تلك القرية من كان فيها من المسلمين لإنجائهم وحمايتهم ، فما وجدوا غير بيت النبى لوط ، فكانوا هم الناجين إلا امرأته كانت من الهالكين ، وتركوا فى تلك القرية آية ودليلا على عذاب أهلها ، والذين يخافون وحدهم هم الذين يرون الآية ويدركونها وينتفعون بها ، أما الآخرون فمطموسون لا يرون آيات الله لا فى الأرض ولا فى أنفسهم ولا فى أحداث التاريخ .

وآية أخرى فى قصة موسى فقد أرسله الله إلى فرعون بسلطان مبين ، وهو الحجة القوية ، والبرهان القاطع ، وهو الهيبة الجليلة التى خلقها عليه وهو معهما يسمع ويرى ، ولكن فرعون تولى بركنه ، وازور بجانبه عن الحق الواضح والبرهان القاطع ، وقال عن موسى النبى الذى كشف له آيات الله الخوارق ساحر أو مجنون ، مما يقطع بأن الآيات والخوارق لا تهدى قلبا لم يتأهب للهدى ، ولا تقطع لسانا يصير على الباطل ويفترى ، ولا يطيل السياق هنا فى عرض تفصيلات للقصة ، فيمضى إلى نهايتها التى تتجلى فيها الآية الباقية المذكورة فى التاريخ ، فقد أغرقه الله وجنوده فى البحر وهو آت بما يلازم عليه من الكفر والعناد .

وآية أخرى فى عاد قوم هود إذا أرسل الله عليهم الريح العقيم فلم تكن تحمل ماء ولا حياة كما توقعوا ، إنما تحمل الموت والدمار ، وتترك كل شىء تأتى عليهم الريح العقيم فلم تكن تحمل ماء ولا حياة كما توقعوا ، إنما تحمل الموت والدمار ، وتترك كل شىء تأتى عليه كالميت الذى رم وتحول إلى فتات ، والريح قوة من قوى هذا الكون ، وجند من جند الله وما يعلم جنود ربك إلا هو .

وآية ثالثة فى ثمود قوم صالح ؛ إذ قيل لهم بأن يتمتعوا حتى حين ، وقد تعنى إمهالهم ثلاثة ، أيام بعد قتل الناقة ، وقد تعنى ما قدر لهم من المتاع منذ الرسالة إلى أن قتلوا الناقة ، وعتوا عن أمر ربهم ، فحق عليهم الهلاك ، وما يقال فى الحجارة التى أرسلت على قوم لوط ، وفى الريح التى أرسلت على عاد ، يقال فى الصاعقة التى أرسلت على ثمود ، فكلها قوى كونية مدبرة بأمر الله ، مسخرة بمشيئته وبنواميسه ، يسلطها على من يشاء فتؤدى دورها الذى يكلفها الله كأى جند من جند الله .

وآية رابعة فى قوم نوح ، وهى إشارة سريعة تلمس القصة لمسة واحدة بدون إيضاح كأنما ليقال : واذكر قوم نوح فقد أهلكناهم من قبل هؤلاء وكان مثل هؤلاء مخالفين أمر الله خارجين عن طاعته .

وينبه السياق على خلق العالم العلوى والسفلى ، فقد جعل الله السماء سقفا محفوظا ، ووسع أرجاءها ورفعها بغير عمد حتى استقلت كما هى ، والأيد : القوة ، والقوة أوضح ما ينبئ تعنى بناء السماء الهائل المتماسك المتناسق ، بأى مدلول من مدلولات كلمة السماء سواء كانت تعنى مدارات النجوم والكواكب ، أم تعنى مجموعة من المجموعات النجمية التى يطلق عليها اسم المجرة وتحوى مئات الملايين من النجوم أم تعنى طبقة من طبقات الفضاء الذى تتناثر فيه النجوم والكواكب ، أم غير هذا من مدلولات كلمة السماء .

والسعة كذلك ظاهرة ؛ فهذه النجوم ذات الأحجام الهائلة والتى تعد بالملايين ، لا تعدو أن تكون ذرات متناثرة فى هذا الفضاء الرحيب ، ولعل فى الإشارة إلى السعة إيحاء آخر إلى مخازن

الأرزاق التى قال من قبل : إنها فى السماء ، ولو أن السماء هنا مجرد رمز إلى ما عند الله ، ولكن التعبير القرآنى يلقى ظلالًا معينة ، يبدو أنها مقصودة فى التعبير كما أن هذا النص تجعلنا نرجِّح أن البحوث العلمية الحديثة سائرة فى طريق الوصول إلى الحقيقة ، وهى تكاد لخطاب البشرية خطابا موحيا .

ومثلها الإشارة الأخرى إلى الأرض المحمودة المفروشة ، فقد أعد الله هذه الأرض لتكون مهداً للحياة ، والفرش يوحى باليسر والراحة والعناية ، وقد هئيت الأرض لتكون محضنًا ميسرًا ممهدًا، كل شىء فيه مقدر بدقة لتيسير الحياة وكفالتها .

ويكشف السياق عن قاعدة الزوجية فى الخلق ، وهى ظاهرة فى الأحياء ، ولكن كلمة شىء تشمل غير الأحياء أيضا ، والتعبير يقرر أن الأشياء كالأحياء مخلوقة على أساس الزوجية .

يقول صاحب الظلال : « وحين نتذكر أن هذا النص عرفه البشر منذ أربعة عشر قرنا ، وأن فكرة عموم الزوجية - حتى فى الأحياء - لم تكن معروفة حينذاك فضلا عن عموم الزوجية فى كل شىء ، حين نتذكر هذا نجدنا أمام أمر عجيب عظيم ، وهو يطلعنا على الحقائق الكونية فى هذه الصورة العجيبة المبكرة كل التبكير .

تقرر أن بناء الكون كله يرجع إلى الذرة ، وأن الذرة مؤلفة من زوج من الكهرباء : موجب وسالب فقد تكون تلك البحوث إذن على طريق الحقيقة فى ضوء هذا النص العجيب » .

وفى ظل هذه اللمسات القصيرة العبارة الهائلة المدى : فى أجوار السماء ، وفى آماد الأرض وفى أعماق الخلائق تهتف بالبشر ليقروا إلى خالق السماء والأرض والخلائق ، متجردين من كل ما يثقل أرواحهم ويقيدها ، موحدين الله الذى خلق هذا الكون وحده بلا شريك .

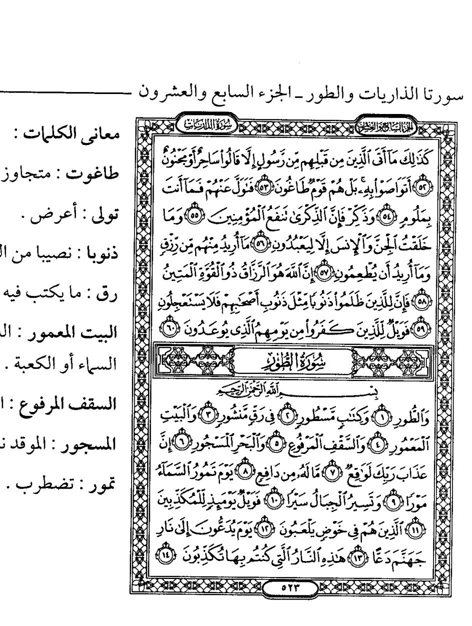
يقول صاحب الظلال : « والتعبير بلفظ الفوار عجيب حقا ، وهو يوحى بالأثقال والقيود والأغلال والأرهاق التى تشد النفس البشرية إلى هذه الأرض ، وتثقلها عن الانطلاق ، وتحاصرها وتأسرها وتدعها فى عقال ، وبخاصة أوهاق الرزق والحرص والانشغال بالأسباب الظاهرة للنصيب الموعود ، ومن ثم يجىء الهتاف قويا للانطلاق والتملص والفرار إلى الله من هذه الأمثال والقيود ، الفرار إلى الله وحده منزهًا عن كل شريك ، وتذكير الناس بانقطاع الحجة وسقوط العذر ، فقد جاءهم النذير المبين .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ - وعد الله تعالى - صادق لا يتخلف ، وعلى المؤمن أن يعتبر بما حدث للسابقين .

٢ - جريمة اللواط هى من أبشع الجرائم وأفحشها .

٣ - ضرورة الفرار إلى الله - تعالى - من كل ما يشغلنا عن طاعته وعبادته .



سورة الذاريات

كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون ﴿٥٢﴾ أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴿٥٣﴾ فتول عنهم فما أنت بملوم ﴿٥٤﴾ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴿٥٥﴾ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴿٥٦﴾ ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ﴿٥٧﴾ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴿٥٨﴾ فإن للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون ﴿٥٩﴾ فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون ﴿٦٠﴾

سورة الطور

بسم الله الرحمن الرحيم

والطور ﴿١﴾ وكتاب مسطور ﴿٢﴾ في رق منشور ﴿٣﴾ والبيت المعمور ﴿٤﴾ والسقف المرفوع ﴿٥﴾ والبحر المسجور ﴿٦﴾ إن عذاب ربك لواقع ﴿٧﴾ ما له من دافع ﴿٨﴾ يوم تمور السماء مورا ﴿٩﴾ وتسير الجبال سيرا ﴿١٠﴾ فويل يومئذ للمكذبين ﴿١١﴾ الذين هم في خوض يلعبون ﴿١٢﴾ يوم يدعون إلى نار جهنم دعا ﴿١٣﴾ هذه النار التي كنتم بها تكذبون ﴿١٤﴾

٥٢٣

معانى الكلمات :

طاغوت : متجاوزون للحد فى الكفر .

تولى : أعرض .

ذنوبا : نصيبا من العذاب .

رق : ما يكتب فيه من الجلد وغيره .

البيت المعمور : الذى تطوف به الملائكة فى السماء أو الكعبة .

السقف المرفوع : السماء .

المسجور : الموقد ناراً .

تمور : تضطرب .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم الغاية من خلق الله للجن والإنس .

٢ ـ أن نعلم أن قيمة الأعمال فى النفس مستمدة من بواعثها لا من نتائجها .

٣ ـ أن نستشعر الرهبة من مشاهد القيامة .

المحتوى التربوى :

يعقب السياق على قصص الرسل التى سلفت ؛ أن طبيعة المكذبين واحدة ، وهو استقبال واحد للحق وللرسل يستقبلهم به المنحرفون فقد قالوا من قبل ساحر أو مجنون كما يقول هؤلاء المشركون ، كأنما تواصوا بهذا الاستقبال على مدار القرون ، وما تواصوا بشىء إنما هى طبيعة الطغيان تجمع بين الغابرين واللاحقين ، وعلى الرسول ألا يحفل بتكذيب المشركين ،فهو غير ملوم على ضلالهم ، ولا مقصر فى هدايتهم إنما هو مذكر فعليه أن يذكر وأن يمضى فى التذكير مهما أعرض المعرضون وكذب المكذبون ، والذكرى تنفع المؤمنين وحدهم ، ولا تنفع غيرهم من الجاحدين ، والتذكير هو وظيفة الرسل .

وهنا يتضح معنى الفرار إلى الله لأداء الوظيفة التى خلق الله العباد لها ، ومنحهم وجودهم ليؤدوها ، وهذه الوظيفة المعينة التى تربط الجن والإنس بنا موسى الوجود هى العبادة لله أو هى العبودية لله ، أن يكون هنا عبد ورب ، عبد يَعبد ، ورب يُعبد ، وأن تستقيم حياة العبد كلها على أساس هذا الاعتبار .

يقول صاحب الظلال : « وإن حقيقة العبادة تتمثل فى أمرين رئيسيين :

الأول: هو استقرار معنى العبودية لله فى النفس، أى استقرار الشعور على أن هناك عبدًا وربا، عبداً يعبد، وربا يعبد، وأن ليس وراء ذلك شىء، وأن ليس هناك إلا هذا الوضع وهذا الاعتبار، ليس فى هذا الوجود إلا عابد ومعبود ، وإلا رب واحد والكل له عبيد .

الثانى : هو التوجه إلى الله بكل حركة فى الضمير ، وكل حركة فى الجوارح ، وكل حركة فى الحياة ، التوجه بها إلى الله خالصة ، والتجرد من كل شعور آخر ، ومن كل معنى غير معنى التعبد لله .

بهذا وذلك يتحقق معنى العبادة ويصبح العمل كالشعائر ، والشعائر كعمارة الأرض وعمارة الأرض كالجهاد فى سبيل الله ، والجهاد فى سبيل الله كالصبر على الشدائد والرضا بقدر الله ، كلها عبادة .

ومن مقتضيات استقرار معنى العبادة أن تصبح قيمة الأعمال فى النفس مستمدة من بواعثها لا من نتائجها ، فلتكن النتائج ما تكون ، فالإنسان غير معلق بهذه النتائج ، إنما هو معلق بأداء العبادة فى القيام بهذه العمال ، ولأن جزاءه ليس فى نتائجها إنما جزاؤه فى العبادة التى أداها ، والقرآن يغذى هذا الإحساس ويقويه بإطلاق مشاعر الإنسان من الانشغال بهم الرزق ومن شح النفس ، فالرزق فى ذاته مكفول ، تكفل بالله تعالى لعباده ، وهو لا يطلب بطبيعة الحال أن يطعموه سبحانه أو يرزقوه حين يكلفهم إنفاق هذا المال لمحتاجيه ، والقيام بحق المحرومين فيه، فالله هو خالقهم ورازقهم .

وفى ضوء هذه الحقيقة الكبيرة ينذر الذين ظلموا فلم يؤمنوا ، واستعجلوا وعد الله وكذبوا ، بأن لهم نصيبا من العذاب فلا يستعجلون ذلك ، فإنه واقع لا محالة .

سورة الطور

تبدأ السورة بقسم من الله سبحانه بمقدسات فى الأرض والسماء بعضها مكشوف معلوم ، وبعضها مغيب مجهول، وهذه الآيات القصيرة ، والفواصل المنغمة ، والإيقاعات الفاصلة ، تصاحب السورة من مطلعها ، وهى تبدأ كلمة واحدة ثم تصبح كلمتين ثم تطول شيئا فشيئا مع المحافظة الكاملة على قوة الإيقاع .

والطور : الجبل فيه شجر ،والأرجح أن المقصود به الطور المعروف فى القرآن ، المذكور فى قصة موسى عليه السلام والذى نزلت فوقه الألواح ، فالجو جو مقدسات يقسم بها الله سبحانه على الأمر العظيم الذى سيجىء .

والكتاب المسطور فى رق منشور الأقرب أن يكون هو كتاب موسى الذى كتب له فى الألواح؛ للمناسبة بينه وبين الطور وقيل : هو اللوح المحفوظ تمشيا مع ما يعده : البيت المعمور والسقف المرفوع ، ولا يمتنع أن يكون هذا هو المقصود .

والبيت المعمور قد يكون الكعبة ، والأرجح أن يكون بيت عبادة الملائكة فى السماء ؛ لما ورد فى الصحيحين فى حديث الإسراء : « ثم رفع بى إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفا لا يعودون إليه آخر ما عليهم» ، يعنى يتعبدون فيه ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم .

والسقف المرفوع : السماء ، والبحر المسجور : المملوء . وقد يكون معنى المسجور : المتقدم.

يقسم الله سبحانه بهذه الخلائق العظيمة على أمر عظيم بعد أن يتهيأ الحس بهذه الإيقاعات لاستقبال ذلك الأمر العظيم ، وهو أن عذاب ربك واقع حتما لا يملك دفعه أحد أبداً ليس منه واقٍ ولا عاصم ويعقب هذا الإيقاع الرهيب مشهد مصاحب له رهيب ، فمشهد السماء الثابتة المبنية بقوة وهى تضطرب كما يضطرب الموج فى البحر من هنا إلى هناك بلا قوام ، ومشهد الجبال الصلبة الراسبة تسير خفيفة رقيعة لا ثبات لها ولا استقرار أمر مذهل مزلزل ، يدل ضمنا على الهول الذى تمور فيه السماء وتسير منه الجبال ، فكيف بالمخلوق الإنسانى الصغير الضعيف فى ذلك الهول المذهل المخيف ؟ !

ويعاجل السياق المكذبين بالدعاء عليهم بالويل من العزيز الجبار ، والدعاء بالويل من الله حكم بالويل وقضاؤه واقع ما له من دافع لهؤلاء المكذبين الذين يخوضون فى الباطل ، ويتخذون دينهم هزواً ولعباً ، يوم يدفعون إلى نار جهنم ، فالدّع : الدفع فى الظهور وهى حركة غليظة تليق بالخائضين اللاعبين الذين لا يجدون ، ولا ينتبهون إلى ما يجرى حولهم من الأمور ، فيساقون سوقا ، ويدفعون فى ظهورهم دفعا ، حتى إذا وصل بهم الدفع والدع إلى حافة النار قيل لهم : ما ترونه النار التى كذبتم بها فى الحياة الدنيا تقريعا وتوبيخا .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ لا يفوز الإنسان وينجو إلا بالإيمان والعمل الصالح .

٢ ـ كل ما يحقق خلافة الإنسان لله فى الأرض يدخل فى معنى العبادة .

٣ ـ سينزل العذاب حتما يوم القيامة بالمكذبين والمتشككين .

أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦) إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ (٢٠) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ (٢٥) قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ (٢٨) فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ (٣١)

٥٢٤

معانى الكلمات :

اصلوها : ادخلوها .

فاكهين : متلذذين .

متكئين : جالسين .

ألتناهم : نقصناهم .

مشفقين : خائفين .

وقانا : نجانا .

نتربص : ننتظر .

ريب المنون : صروف الدهر المهلكة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نستشعر سياط العذاب ،و هتاف النعيم الرغيد .

٢ ـ أن نعلم أسباب أمن المؤمنين فى أخراهم ورخائهم ونعيمهم .

٣ ـ أن نعلم صفة المؤمن الذى يحمل الدعوة على كاهله .

المحتوى التربوى :

بينما الكافرون فى الكرب بين الدع والنار التى تواجههم على غير إرادة منهم ، يجيئهم الترذيل والتأنيب ، والتلميح إلى ما سيق منهم من التكذيب ، فقد كانوا يقولون عن القرآن : إنه سحر فهل هذه النار التى يرونهاكذلك سحر ؟ ! أم إنه الحق الهائل الرعيب ؟ أم إنهم لا يبصرون النار كما كانوا لا يبصرون الحق فى القرآن الكريم ؟

وحين ينتهى هذا التأنيب السافر المرير يعاجلهم بالتيئيس البئيس ، وليس أقسى على منكوب بمثل هذه النكبة ؛ من أن يعلم أن الصبر وعدم الصبر سواء، فالعذاب واقع ما له من دافع، وألمه واحد مع الصبر ومع الجزع ، والبقاء فيه مقرر سواء يصبر عليه أم هلع ، والعلة أنه جزاء على ما كان من عمل ، فهو جزاء له سببه الواقع فلا تغيير فيه ولا تبديل .

وينتقل السياق إلى هتاف المتاع الذى لا يقادم وبخاصة بعد مشهد العذاب البئيس ، وهو أقرب إلى مشاهد النعيم الحسى الذى يخاطب المشاعر فى أول العهد ، والذى يجتذب النفوس بلذائذ الحس فى صورتها المصفاة ، ومجرد الوقاية من عذاب الجحيم الذى عرضت مشاهده فى هذه السورة فضل ونعمة ، فكيف ومعه جنات ونعيم وهم يلتذون ما آتاهم ربهم ويتفكهون ؟

ومع النعيم ولذته التهنئة والتكريم ، وهذا بذاته متاع أكرم وهم ينادون هذا النداء العلوى ، ويعلن استحقاقهم لما هم فيه ؛ فهم متكئون على سرر منسقة يجدون فيها لذة التجمع بإخوانهم فى هذا النعيم ، ولهم قرينات صالحات ، وزوجات حسان من الحور العين ، ويمضى التكريم خطوة فإذا ذريتهم المؤمنة تجتمع إليهم فى هذا النعيم ، زيادة فى الرعاية والعناية ، ولو كانت أعمال الذرية أقل من مستوى مقام المتقين ما دامت هذه الذرية مؤمنة ، وذلك دون أن ينقص من أعمال الآباء ودرجاتهم ، ودون إخلال بفردية التبعة وحساب كل بعمله الذى كسبه ، إنما هو فضل الله على الجميع .

ويستطرد السياق يعرض ألوان المناعم واللذائذ فى ذلك النعيم ؛ فإذا فاكهة ولحم مما يشتهون وإذا هم يتعاطون فيها كاسا ليست كخمر الدنيا تطلق اللغو والهذر من الشفاه والألسنة وتشيع الإثم والمعصية فى الحس والجوارح ، إنما هى مصفاه مبرأة ، وهم يتجاذبونها بينهم ويتعاقبون مجتمعين زيادة فى الإيناس واللذة والنعيم فى حين يقوم على خدمتهم ويطوف عليهم بالكأس عليهم غلمان صباح أبرياء ، فيهم نظافة وفيهم صيانة وفيهم نداوة كاللؤلؤ المصون ، مما يضاعف إيناس المجلس اللطيف فى الجوارح والقلوب ، واستكمالاً لجو المشهد المأنوس يعرض سمرهم فيما بينهم ، وتذاكرهم ماضيهم ، وأسباب ما هم فيه من أمن ورضا ورخاء ورغد وأنس ونعيم ، فيكشف للقلوب عن سر هذا المتاع ، ويشير إلى الطريق المؤدى إلى هذا النعيم ؛ فالسراء إذن أنهم عاشوا على حذر من هذا اليوم ، عاشوا فى خشية من لقاء ربهم ، عاشوا مشفقين من حسابه ، عاشوا كذلك وهم فى أهلهم ، حيث الأمان الخادع ولكنهم لم ينخذعوا ، وحيث المشغلة الملهية ولكنهم لن يسعوا ، عندئذ منّ الله عليهم ووقاهم عذاب السموم الذى يتخلل الأجسام كالسم الحار اللاذع ، وقاهم هذا العذاب منة منه وفضلا لما علم من تقواهم وخشيتهم وإشفاقهم ، وهم يعرفون هذا ، ويعرفون أن العمل لا يدخل صاحبه الجنة ، ألا بمنة من الله وفضل ، فما يبلغ العمل أكثر من أن يشهد لصاحبه أنه بذل جهده ورغب فيما عند الله وهذا هو المؤهل لفضل الله ، وقد كانوا مع الإشفاق والحذر والتقوى يدعون الله وهم يعرفون من صفاته البر بعباده والرحمة بعبيده .

ويتوجه السياق بالخطاب للرسول ﷺ ليظل فى تذكيره لا يثنيه سوء أدبهم معه ، وسوء اتهامهم له ، وقد كانوا يقولون عنه مرة : إنه كاهن ، ويقولون عنه مرة : إنه مجنون ، ويجمع بين

الوصفين عندهم ما كان شائعا بينهم أن الكهان يتلقون عن الشياطين ، وأن الشيطان كذلك يتخبط بعض الناس فيصابون بالجنون ، فالشيطان هو العامل المشترك بين الوصفين : كاهن أو مجنون .

وكان يحملهم على وصف النبى ﷺ بهذا الوصف أو ذاك ، أو فيقولهم إنه شاعر أو ساحر ، كان يحملهم على هذا كله موقفهم مبهوتين أمام القرآن الكريم المعجز الذى يبدهم بما لم يعهدوا من القول وهم أهل القول ، ولما كانوا لا يريدون لعلة فى نفوسهم أن يعترفوا أنه من عند الله ، فقد احتاجوا أن يعللوا مصدره المتفوق على البشر ، فقالوا : إنه من إيحاء الجن أو بمساعدتهم ، فصاحبه إما كاهن يتلقى من الجن ، أو ساحر يستعين بهم ، أو شاعر له رئيٌّ من الجن ، أو مجنون به مس من الشيطان ينطقه بهذا القول العجيب .

وإنها لقولة فظيعة شنيعة ، فالله ـ سبحانه ـ يسلى رسوله عنها ، ويصغر من شأنها فى نفسه ، وهو يشهد له أنه محوط بنعمة ربه ، التى لا تكون معها كهانة ولا جنون .

ثم يستنكر قولهم : إنه شاعر ، وقد قالوها ، وقال بعضهم لبعض : اصبروا عليه واثبتوا على ما أنتم فيه حتى يأتيه الموت فيريحنا منه ، وتواصوا أن يتربصوا به الموت المريح ، ومن ثم يلقن الرسولﷺ أن يرد عليهم فى تهديد ملفوف أن يتربصوا ما شاؤوا، ويثبتون على كيدهم ما أرادوا؛ فستعلمون من تكون له العاقبة ، ومن ينتهى به التربص إلى إدراك النصر والظهور .

فالرسول ﷺ والمسلمون من بعده عليهم مهمة التذكير والتبليغ ، لا يأبهون لما يقابلهم من عوائق وعراقيل يصنعها أهل الباطل لوقف مد الحق حتى لا يستطيل على باطلهم ، فالله يتولاهم كما تولى رسوله من قبل ، والعاقبة سنة تجرى فى كون الله لا تتخلف ولا تتبدل نصرة للحق ولو بعد حين ، إذن فليربط القلب جأشه وليمضى فى طريق دعوته ثابتا حتى تقام الحجة ، ويتم أداء الواجب فالله قاهر فوق عباده إليه يرجع الأمر، وليكن الكافر ما يكون، فالمؤمن قاهره بقهر الله .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ فى الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

٢ ـ الطريق إلى رضا الله والفوز بجنته والنجاة من عذابه هو الحذر من يوم القيامة .

٣ ـ تقوى الآباء وصلاحهم ينفع أبناءهم المؤمنين فيرفعهم الله إلى درجات آبائهم العالية فى الجنة .

الجزء السابع والعشرون — سورة الطور

أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ۚ
بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ
﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ
رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ
مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾
أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ
يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾
أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا
مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا
يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا
وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ
بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾

سورة النجم

٥٢٥

معانى الكلمات :

تقوله : اختلق القرآن من عند نفسه .

يوقنون : يصدقون .

المصيطرون : الغالبون .

مثقلون : متعبون .

كسفا : قطعًا عظيمة .

مركوم : مجموع بعضه على بعض .

يصعقون : يعذبون عذابا شديداً .

كيدهم : مكرهم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أسباب الحياد عن الحق واتباع الباطل .

٢ ـ أن نستشعر أسرار القرآن فى دعوته .

٣ ـ أن نعلم المقامات الرفيعة لرسول الله ﷺ .

المحتوى التربوى :

لقد كان شيوخ قريش يلقبون بذوى الحلوم أو ذوى الأحلام ، إشارة إلى رجاحة عقولهم وحكمتهم فى تصريف الأمور،فهو يتهكم بهم وبأحلامهم تجاه الإسلام،وموقفهم منه ينافى الحكمة والعقل ، فيسأل فى تهكم : أهذه الأوصاف التى يصفون بها محمداً ﷺ ، وتلك المواقف التى يقفونها من رسالته كانت من وحى أحلامهم ؟أم أنهم طغاة ظالمون لا يقفون عندما تمليه الأحلام والعقول .

ولقد تطاولت ألسنتهم على رسول الله ﷺ فاتهموه بافتراء ما يقول ، فهو هنا يسأل فى استنكار أيقولون تقوّله ؟ ! ويبادر ببيان علة هذا القول الغريب : أنهم لا يؤمنون ، فعد استشعار قلوبهم للإيمان هو الذى ينطقهم بمثل هذا القول، بعد أن يحجبهم عن إدراك حقيقة هذا القرآن، وما دامت قلوبهم لا تشعر حقيقة هذا التنزيل ، فهو يتحداهم إذن ببرهان الواقع الذى لا يقبل

المراء ، وقد تكرر هذا التحدى فى القرآن الكريم ، وتلقاه المنكرون عاجزين ووقفوا تجاهه صاغرين ، وكذلك يقف أمامه كل أحد إلى يوم الدين .

يقول صاحب الظلال : « إن فى هذا القرآن سراً خاصا ، يشعر به كل من يواجه نصوصه ابتداء ، قبل أن يبحث عن مواضع الإعجاز من التعبير ، وأن هنالك عنصراً ما ينسكب فى الحس بمجرد الاستماع لهذا القرآن ، يدركه بعض الناس واضحا ويدركه بعض الناس غامضا ، ولكنه على كل حال موجود ، هذا العنصر الذى ينسكب فى الحس ، يصعب تحديد مصدره : أهو العبارة ذاتها ؟ أهو المعنى الكامن فيها ؟ أهو الصور والظلال التى تشعها ؟ أهو الإيقاع القرآنى الخاص المتميز من إيقاع سائر القول المصوغ من اللغة ؟ أهى هذه العناصر كلها مجتمعة ؟ أم أنها هى شىء آخر وراءها غير محدود ؟ !

ذلك سر مودع فى كل نص قرآنى ، يشعر به كل من يواجه نصوص هذا القرآن ابتداء ، ثم تأتى وراءه الأسرار المدركة بالتدبر والنظر والتفكير فى بناء القرآن كله فى التصور الكامل الصحيح الذى ينشئه فى الحس والقلب والعقل ، التصور لحقيقة الوجود الإنسانى ، وحقيقة الوجود كله ، وللحقيقة الأولى التى تنبع منها كل حقيقة ، حقيقة الله سبحانه ... وفى الشمول والتوازن والتناسق بين توجيهاته كلها » .

والإعجاز سمة الكتاب فى جميع العصور ، وهى مسألة لا يمارى فيها إنسان يحترم الحقيقة التى تطالعه بقوة وعمق ووضوح ، حيثما واجه هذا القرآن بقلب سليم ، والاستفهام عن حقيقة وجودهم لا سبيل لهم إلى تفسيره بغير ما يقوله القرآن من أن لهم خالقا أوجدهم هو الله سبحانه وهو موجود بذاته وهم مخلوقون ، ووجودهم هكذا من غير شىء أمر ينكره منطق الفطرة ابتداء ، ولا يحتاج إلى جدل كثير أو قليل .

كذلك يواجههم بوجود السموات والأرض حيالهم ، فهل هم خلقوها ؟ فإنها لم تخلق نفسها بطبيعة الحال كما أنهم لم يخلقوا أنفسهم ، وهم يقولون بخلق السموات والأرض ، ولا أنها خلقت أنفسها ، بل علموا أنها من خلق الله ولكن هذه الحقيقة لم تتضح فى إدراكهم إلى درجة اليقين .

ثم يهبط بهم درجة عن درجة الخلق والإبداع فيسألهم : هل هم يملكون خزائن الله ، ويسيطرون على القبض والبسط والضر والنفع ، ثم يهبط بهم درجة أخرى فيسألهم إن كانت لهم وسيلة للاستماع إلى مصدر التنزيل ، فهل لهم سلّم يستمعون فيه ، فيعلموا أن محمداً ﷺ لا يوحى إليه وأن الحق غير ما يقول ؟ فليأتوا ببرهان قوى يحمل فى ذاته سلطانا على النفوس يلجئها إلى التصديق .

ثم يناقش إحدى مقولاتهم المتهافتة عن الله سبحانه، تلك التى ينسبون إليه فيها بنوة الملائكة، الذين يتصورونهم إناثا ، موجها الخطاب مباشرة إليهم ، زيادة فى التخجيل والترذيل ، وهل كانوا

يعتبرون البنات فى درجة أقل من درجة البنين ، وكانوا مع هذا لا يستحيون من نسبة البنات إلى الله ، فهو هنا يأخذهم بعرفهم وتقاليدهم ليخجلهم من هذا الادعاء ، وهو فى ذاته متهافت لا يستقيم .

وهم كانوا يستثقلون دعوة النبى ﷺ إلى الهدى ، وهو يقدمه لهم خالصا بريئا ولا يطلب عليه أجرا ، ولا يفرض عليهم إتاوة ، وهو هنا يستنكر مسلكهم الذى لا داعى له ، فإذا كان الواقع ألا أجر ولا غرامة ، فكم يبدو عملهم مسترذلا قبيحا ، يخجلون منه حين يواجهون به ، ويستنكر مسلكهم فى كيدهم ، وهم يعلمون أن ليس عندهم الغيب ، وأن ليس لهم به علم ، وأن ليس لهم عليه قدرة ، وأنهم لا يكتبون فى سجل الغيب شيئا ، إنما يكتب الله فيه ما يريد مما يقدره للعبيد ، ويحسبون أنهم قادرون على شىء من أمر المستقبل فيقولون : شاعر نصبر عليه حتى يأتيه الموت فنستريح منه ، وهم الذين يحيق بهم ما يقدره صاحب الغيب لهم ، وهم الذين يقع عليهم كيده ومكره والله خير الماكرين ، ويمضى الاستنكار فى سياق الاستفهام ألهم إله يقيهم ويتولاهم ويرد عنهم كيد الله ، تنزه الله عن تصورهم الباطل السقيم ، وبعد أن انكشفت كل شبهة ، ودحضت كل حجة ووقف القوم أمام الحقيقة مجردين من كل عذر ودليل ، عندئذ يقدمهم على حقيقتهم معاندين مكابرين يمارون فى الحق الواضح ؛ فإذا أرسل عليهم العذاب فى صورة قطعة من السماء تسقط عليهم وفيها الهلاك ، قالوا وهم يرونها : بل هى سحاب فيه الماء والحياة .

وعند هذا الحد يتجه السياق بالخطاب للرسول ﷺ لينفض يده من أمرهم ، ويدعهم لليوم الذى ينفخ فيه فى الصور فيصعقون ، يوم لا ينفعهم تدبير ، ولا ينصرهم نصير، فإذا كانوا اليوم يكيدون ويدبرون فهم فى ذلك اليوم لا يغنى عنهم كيد ولا تدبير ، على أن لهم قبل ذلك اليوم عذابا ولكن أكثرهم لا يعلمون » .

ويلتفت إلى النبى ﷺ الذى تطاول عليه المتطاولون يوجهه إلى الصبر على هذا العناد ، الصبر على طريق الدعوة الشاق الطويل ، تاركا الأمر لحكم الله يفعل به ما يشاء ، ومع التوجيه إلى الصبر إيذان بالإعزاز الربانى والعناية الإلهية ، ومع هذا الإيناس هداية إلى طريق الصلة الدائمة به ، فعلى مدار اليوم عند اليقظة من النوم وفى ثنايا الليل ، وعند إدبار النجوم فى الفجر ، هنالك مجال الاستمتاع بهذا الإيناس الحبيب .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ يعذب الله الجاحدين والمجرمين فى الدنيا وفى قيودهم ، ثم يكون العذاب الشديد فى نار الجحيم .

٢ ـ إكرام الله ـ تعالى ـ لنبيه ﷺ ووضعه فى أعلى مكانة حيث قال له : ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ .

٣ ـ مما يساعد على القرب من الله تسبيحه فى جميع الأحوال ودوام ذكره وتلاوة القرآن والصلاة .

الجزء السابع والعشرون — سورة النجم

بسم الله الرحمن الرحيم

والنجم إذا هوى (١) ما ضل صاحبكم وما غوى (٢) وما ينطق عن الهوى (٣) إن هو إلا وحي يوحى (٤) علمه شديد القوى (٥) ذو مرة فاستوى (٦) وهو بالأفق الأعلى (٧) ثم دنا فتدلى (٨) فكان قاب قوسين أو أدنى (٩) فأوحى إلى عبده ما أوحى (١٠) ما كذب الفؤاد ما رأى (١١) أفتمرونه على ما يرى (١٢) ولقد رآه نزلة أخرى (١٣) عند سدرة المنتهى (١٤) عندها جنة المأوى (١٥) إذ يغشى السدرة ما يغشى (١٦) ما زاغ البصر وما طغى (١٧) لقد رأى من آيات ربه الكبرى (١٨) أفرأيتم اللات والعزى (١٩) ومناة الثالثة الأخرى (٢٠) ألكم الذكر وله الأنثى (٢١) تلك إذا قسمة ضيزى (٢٢) إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى (٢٣) أم للإنسان ما تمنى (٢٤) فلله الآخرة والأولى (٢٥) وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى (٢٦)

نصف الحزب ٥٣

٥٢٦

سورة النجم

معانى الكلمات :

هوى : غرب وسقط .

ضل : انحرف .

مرة : قوة أو خلق حسن .

تدلى : زاد فى القرب .

أفتمارونه : أفتجادلونه .

يغشى : يغطى .

زاغ : مال .

ضيزى : ظالمة عوج وغير عادلة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أمر النبى ﷺ مع الوحى .

٢ ـ أن نعلم أن العقيدة لا مجال فيها للظن والهوى .

٣ ـ أن نستشعر يقينًا أن الأمر كله لله ، فله الآخرة والأولى .

المحتوى التربوى :

تبدأ السورة فى وصف موحى بقسم من الله سبحانه بالنجم وقت هويه ، وحركة تلؤلؤ النجم ثم هويه ودنوه أشبه بمشهد جبريل المقسم عليه فهو فى الأفق الأعلى ثم دنا فتدلى ، وقد رويت تفسيرات مختلفة للنجم المقصود فى هذا القسم ، ما يرد على الذهن أنها إشاره إلى الشعرى التى كان بعضهم يعبدها وقد كان للشعرى من اهتمام الأقدمين حظ كبير .

ذلك هو القسم ، فأما المقسم عليه ، فهو أمر النبى ﷺ مع الوحى الذى يحدثهم عنه ؛ فصاحبكم راشد غير ضال، مهتد غير غاو ، مخلص غير مغرض ، مبلغ بالحق عن الحق غير واهم ولامفتر ولا مبتدع ، ولا ناطق عن الهوى فيما يبلغكم من الرسالة ، إن هو إلا وحى يوحى ، وهو يبلغكم ما يوحى إليه صادقا أمينا .

هذا الوحى معروف حامله ، مستيقن طريقه ، مشهودة رحلته ، رآه الرسول ﷺ رأى العين والقلب ، فلم يكن واهما ولا مخدوعا ، والشديد القوى هو جبريل عليه السلام ، وهو الذى علم صاحبكم ما بلغه إليكم وهذا هو الطريق ، وهذه هى الرحلة مشهودة بدقائقها : استوى وهو بالأفق الأعلى ، حيث رآه محمد ﷺ وكان ذلك فى مبدأ الوحى حين رآه على صورته التى خلقه الله عليها ، يسد الأفق بخلقه الهائل ، ثم دنا منه فتدلى نازلا مقتربًا إليه ، فكان أقرب ما يكون منه على بعد ما بين القوسين أو أدنى وهو تعبير عن منتهى القرب فأوحى إلى عبد الله ما أوحى، بهذا الإجمال والتفخيم والتهويل .

فهى رؤية من قرب بعد التراثى عن بعد ، وهو وحى تعليم ومشاهدة وتيقن ، وهى حال لا يتأتى معها كذب فى الرؤية ، ولا تحتمل مماراة أو مجادلة ، ورؤية الفؤاد أصدق وأثبت ؛ لأنها تنفى خداع النظر فتثبت ، فاستيقن فؤاده أنه الملك ، حامل الوحى ، رسول ربه إليه ليعلمه ويكلفه تبليغ ما يعلم ، وانتهى المراد والجدال فما عاد لهما مكان بعد تثبيت القلب ويقين الفؤاد ، وليست هى المرة الوحيدة التى رآه فيها على صورته ، فقد تكررت مرة أخرى وكان ذلك فى ليلة الإسراء والمعراج على الراجح من الروايات ـ فقد دنا منه وهو على هيئته التى خلقه الله بها مرة أخرى عند السدرة التى إليها منتهى المطاف فجنة المأوى عندها .

ويذكر ما لابس هذه الرؤية عند سدرة المنتهى ، زيادة فى التوكيد واليقين ، مما لا يفصله ولا يحدده فقد كان أهول وأضخم من الوصف والتحديد ، وكان ذلك كله حقًا يقينا ، فلم يكن زغللة عين ولا تجاوز رؤية .

إنما هى المشاهدة الواضحة المحققة التى لا تحتمل شكا ولا ظنا ، وقد عاين فيها من آيات ربه الكبرى ، واتصل قلبه بالحقيقة عارية مباشرة مكشوفة ، فالأمر إذن ـ أمر الوحى ـ أمر عيان مشهود ، ورؤية محققة واتصال مباشر .

فأما هم فعلام يستندون فى عبادتهم وآلهتهم وأساطيرهم ؟ علام يستندون فى عبادتهم اللات والعزى ومناة ؟ وفى ادعائهم الغامض أنها ملائكة ، وأن الملائكة بنات الله ؟ وأن لها شفاعة ترتجى عند الله ؟ إلى أى بينة وإلى أى حجة وإلى أى سلطان يرتكنون فى هذه الأوهام ؟

ولما ذكر الله هذه المعبودات الثلاث : اللات والعزى ومناة ، معجباً منها ومن عبادتها كما تفيد صيغة السؤال ، والتعجيب والتشهير واضح فى افتتاح السؤال أفرأيتم ؟ وفى الحديث عن مناة الثالثة الأخرى ، لما ذكر الله هذه المعبودات عقب عليها باستنكار دعواهم أن لله الإناث وأن لهم الذكور ، وقد كانوا يكرهون ولادة البنات لهم ، ومع هذا لم يستحيوا أن يجعلوا الملائكة إناثا ـ وهم لا يعلمون عنهم شيئا يلزمهم بهذا التصور ، وأن ينسبوا هؤلاء الإناث إلى الله ، والله سبحانه ـ يأخذهم هنا بتصوراتهم وأساطيرهم ويسخر منها ومنهم ، إنها قسمة غير عادلة قسمتكم بين أنفسكم وبين الله .

والمسألة كلها وهم لا أساس له من العلم ولا من الواقع ، ولا حجة فيها ولا دليل فهذه الأسماء اللات والعزة ومناة وغيرها ، وتسميتها آلهة ، وتسميتها ملائكة ، وتسمية الملائكة إناثا وتسمية الإناث بنات الله كلها أسماء لا مدلول لها ، ولا حقيقة وراءها ، ولم يجعل الله لكم حجة فيها ، وكل ما لم يقرره الله فلا قوة فيه ولا سلطان له ؛ لأنه لا حقيقة له .

ويلتفت عنهم كأنهم لا وجود لهم ، ويتحدث عنهم بصيغة الغائب ، فهم لا حجة لهم إنما هو الظن يقيمون عليه العقيدة ، والهوى يستمدون منه الدليل ، والعقيدة لا مجال فيها للظن والهوى ، ولابد فيها من اليقين القاطع والتجرد من الهوى والغرض ، وهم لم يتبعوا الظن ولهم عذر أو علة فانقطع العذر وبطل التعلل .

ثم يبحث بعد ذلك عن مبرر لما يريد ، وهى شر حالة تصاب بها النفس فلا ينفعها الهدى ، ولا ينفعها الدليل ، ومن ثم يسأل فى استنكار . أكل ما يتمنى الإنسان يتحول إلى حقيقة وكل ما يهوى يتقلب إلى واقع ؟ والأمر ليس كذلك فإن الحق حق والواقع واقع ، وهو النفس ومناها لا يغيران ولا يبدلان فى الحقائق ، إنما يضل الإنسان بهواه ويهلك بمناه ، وهو أضعف من أن يغير أو يبدل فى طبائع الأشياء ، وإنما الأمر كله لله يتصرف فيه كما يشاء فى الدنيا وفى الآخرة سواء ، وإذا خلص الأمر كله فى الآخرة والأولى ، فإن أوهام المشركين عن شفاعة الآلهة المدعاة ـ من الملائكة لهم عند الله لا أصل لها ، فالملائكة الحقة فى السماء لا تملك الشفاعة إلا حين يأذن الله فى شىء منها .

ومن ثم تسقط دعواهم من أساسها ، فوق ما فيها من بطلان تولى تفنيده فى الآيات السابقة ، وتتجرد العقيدة من كل غبش أو شبهة ، فالأمر لله فى الآخرة والأولى ، ومُنى الإنسان لا تغير من الحق الواقع شيئا ، والشفاعة لا تقبل الا بإذن من الله ورضا ، فالأمر إليه فى النهاية ، والاتجاه إليه وحده فى الآخرة والأولى ، فهو مالك الدنيا والآخرة ، والمتصرف فى الدنيا والآخرة فهو الذى ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

يقول القاسمى رحمه الله : « هذا توبيخ من الله تعالى لعبدة الأوثان بإقناعهم مما علقوا به أطماعهم من شفاعة أوثانهم ، بأن ملائكته الكرام لا يتفوهون بالشفاعة إلا من بعد إذنه ورضاه ، فأنى لهذه الطواغيت أن تفتات على هذا المقام ، ولها من الذلة والصغار وما يبعدها عنه بألف منزل » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا:

١ ـ يقسم الله تعالى بما يشاء من خلقه ، أما الخلق فلا يجوز لهم أن يحلفوا إلا بالله تعالى ، تعظيما له وتقديسًا دون غيره .

٢ ـ إكرام الله تعالى لنبيه ﷺ بإجابة دعائه ورفعه إلى السموات، وإعطائه كثيراً من المعجزات.

٣ ـ الله تعالى يملك الدنيا والآخرة ، فعلى المسلم أن يتجه إليه فى الآخرة والأولى .

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ (٢٧) وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨) فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ (٣٠) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ (٣٢) أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ (٣٣) وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ (٣٤) أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ (٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ (٤١) وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ (٤٢) وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤)

٥٢٧

معانى الكلمات :

الظن : الوهم .

ضل : انحرف .

اللمم : صغائر الذنوب .

تزكوا : تمدحوا .

وأكدى : قطعوا عطيته بخلاً .

المنتهى : المصير .

وفَّى : أتم واكمل ما أمر به .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ – أن نعلم أن الإيمان بالله والإيمان بالآخرة مسألة أساسية فى حياة البشرية .

٢ – أن نتعرف على صفة المحسنين الذين يجزون الحسنى .

٣ – أن نعلم أن الآخرة هى غاية الناس ، وأنها دار نعيم أو جحيم .

المحتوى التربوى :

يناقش السياق للمرة الأخيرة أوهام المشركين ـ الذين لا يؤمنون بالآخرة ـ عن الملائكة ، ويكشف عن أساسها الواهى الذى لا ينبغى أن تقوم عليه عقيدة أصلا ، وهذا التعقيب الأخير يوحى بعلاقة اللات والعزى ومناة بأسطورة أنوثة الملائكة ونسبتهم إلى الله سبحانه ، وهى أسطورة واهية ، لا يتبعون فيها إلا الظن ، فليس لهم وسيلة لأن يعلموا شيئا مستيقنا عن طبيعة الملائكة ، فأما نسبتهم إلى الله فهى الباطل الذى لا دليل عليه إلا الوهم الباطل ، وكل هذا الا يغنى من الحق ، ولا يقوم مقامه فى شىء .

ويتجه السياق بالخطاب إلى الرسول ﷺ ليهمل شأنهم ويعرض عنهم ، ويدع أمرهم لله الذى يعلم المسىء والمحسن ، ويجزى المهدى والضال ، ويملك أمر السموات والأرض ، وأمر الدنيا والآخرة ، ويحاسب بالعدل لا يظلم أحداً ، ويتجاوز عن الذنوب التى لا يصر عليها فاعلوها ، وهو الخبير بالنوايا والطوايا ؛ لأنه خالق البشر المطلع على حقيقتهم فى أطوار حياتهم .

يقول صاحب الظلال : « هذا الأمر بالإعراض عمن تولى عن ذكر الله ، ولم يؤمن بالآخرة ، ولم يرد إلا الحياة الدنيا موجه ابتداء إلى الرسول ﷺ ـ وهو موجه بعد ذلك إلى كل مسلم يواجهه من يتولى عن ذكر الله ويعرض عن الإيمان ، ويجعل وجهته الحياة الدنيا وحدها ، لا ينظر إلى شىء وراءها ، ولا يؤمن بالآخرة ولا يحسب حسابها ، والمؤمن بالله بالآخرة لا يستطيع أن يشغل باله ـ فضلا على أن يعامل أو يعايش ـ من يعرض عن ذكر الله وينفى الآخرة من حسابه ؛ لأن لكل منهما منهجا فى الحياة لا يلتقيان فى خطوة واحدة من خطواته ، إن المؤمن يعبث حين يحفل بشأن هؤلاء الذين يعرضون عن ذكر الله ولا يريدون إلا الحياة الدنيا ، وينفق طاقته التى وهبه الله إياها فى غير موضعها .

على أن للإعراض اتجاها آخر ، هو التهوين من شأن هذه الفئة ، فئة الذين لا يؤمنون بالله ولا يبتغون شيئا وراء الحياة الدنيا ، فمهما كان شأنهم فهم محجوبون عن الحقيقة ، قاصرون عن إدراكها واقفون وراء الأسوار ، أسوار الحياة الدنيا ، وهو مبلغ من العلم تافه مهما بدا عظيما » .

وقد علم الله أن هؤلاء ضالون ، فلم يرد لنبيه ولا للمهتدين من أمتة أن يشغلوا أنفسهم بشأن الضالين ، ولا أن يصاحبوهم ، ولا أن يخدعوا فى ظاهر علمهم المضلل القاصر ، الذى يقف عن حدود الحياة الدنيا ، والله هو الخالق لجميع المخلوقات ، والعالم بمصالح عباده ، وهو الذى يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، وذلك كله عن قدرته وعلمه وحكمته ، وهو العادل الذى لا يجور أبداً لا فى شرعه ولا فى قدره ، وإنها لمسألة كبيرة هذا الإيمان بالله والإيمان بالآخرة ، مسألة أساسية فى حياة البشر إنها حاجات أكبر من حاجات الطعام والشراب والكساء ، وإنها إما أن تكون فيكون الإنسان ، وإما ألا تكون فهو حيوان من ذلك الحيوان .

ويأتى التقرير لملكية الله وحده ـ لما فى السموات وما فى الأرض ، يمنح قضية الآخرة قوة وتأثيرا ، فالذى جعل الآخرة وقدرها هو الذى يملك ما فى السموات وما فى الأرض وحده ، فهو القادر على الجزاء ، المختص به ، المالك للأسبابه ، ومن شأن هذه الملكية أن تحقق الجزاء الكامل العادل ، فيجازى كلا بعلمه إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر .

ثم يحدد الذين أحسنوا هؤلاء ويجزيهم بالحسنى فهم لا يتعاطون المحرمات والكبائر ، وإن وقع منهم بعض الصغائر فإن الله يغفر لهم ويستر عليهم ، وذكر سعة المغفرة يناسب أن يكون

اللمم هو الإتيان بالكبائر والفواحش ، ثم يتوبون ولا يعودون ، وختمت الآية بأن هذا الجزاء بالسوء .

وبالحسنى مستندًا إلى علم الله بحقيقة دخائل الناس فى أطوارهم كلها ، وهو بصير بكم عليم بأحوالكم وأفعالكم وأقوالكم التى تصدر عنكم وتقع منكم حين أنشأ آباكم آدم من الأرض ، واستخراج ذريته من صلبه أمثال الذَّر ، ثم قسمهم فريقين : فريقا للجنة ، وفريقا للسعير ، وما هو بحاجة إلى أن تدلوه على أنفسكم ، ولا أن تزنوا له أعمالكم ، فعنده العلم الكامل ، والميزان الدقيق ، وجزاؤه العدل وقوله الفصل وإليه يرجع الأمر كله .

ثم يقرر الحقائق الأساسية للعقيدة كما هى ثابتة منذ إبراهيم صاحب الحنيفية الأولى ، ويعرف البشر بخالقهم، وذلك الذى أنفق قليلا فى سبيل الله ثم انقطع عن البذل خوفا من الفقر، أعند هذا الذى أمسك خشية الإنفاق وقطع معروفه علم الغيب أنه سينفد ما فى يده ، حتى أمسك عن معروفه ، وليس الأمر كذلك بل أمسك بخلاء وشحا وهلعا .

وهذا الدين قديم موصولة أوائله وأواخره، يصدق بعضه على توالى الرسالات والرسل، فهو فى صحف موسى ، وهو فى ملة إبراهيم قبل موسى ، إبراهيم الذى وفى بكل شىء ، ففى صحف إبراهيم وموسى أن كل نفس ظلمت نفسها بكفر أو شىء من الذنوب فإنما عليها وزرها،لا يحمله عنها أحد ، كما لا يحمل عليها غيره ، وسعيه فى الدنيا سوف يراه فى الآخرة ويجازى عليه إن خيراً فخير وإن شرا نشر .

ويبين السياق أن المعاد إلى الله وإلى الجنة أو النار ، وأن الله قد أودع الإنسان خاصية الضحك والبكاء ، وجعل فى اللحظة الواحدة ضاحكين وباكين ، وقد يضحك فريق مما يبكى منه فريق ، وأضحك وأبكى من الأمر الواحد صاحبه نفسه ، يضحك اليوم من الأمر ثم تواجه عاقبته غداً فإذا هو باك ، وكم من ضاحك فى الدنيا باك فى الآخرة.

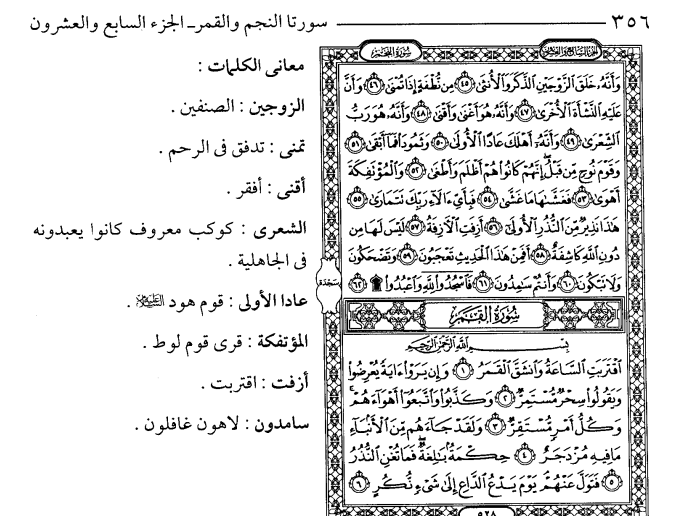
وهو الذى أنشأ الموت والحياة ، ففى هذه اللحظة كم ملايين الملايين من الأحياء ماتت ، وكم ملايين الملايين بدأت رحلة الحياة ، ودب فيها هذا السر من حيث لا تعلم ومن حيث لا يعلم أحد إلا الله ! وكم من ميتات وقعت فإذا هى ذاتها بواعث حياة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ العقيدة الصحيحة يجب أن تقوم على أساس متين وعل يقين لا يحمل الشك .

٢ ـ كل إنسان مرتبط بعمله ، وسوف ينال جزاء عادلا من الله تعالى على أعماله .

٣ ـ لا يجوز للإنسان أن يمدح نفسه ، ولا أن يعجب بأعماله مهما كانت عظيمة ، وإنما يجب أن يتواضع لله .


وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ﴿٤٥﴾ من نطفة إذا تمنى ﴿٤٦﴾ وأن عليه النشأة الأخرى ﴿٤٧﴾ وأنه هو أغنى وأقنى ﴿٤٨﴾ وأنه هو رب الشعرى ﴿٤٩﴾ وأنه أهلك عادا الأولى ﴿٥٠﴾ وثمودا فما أبقى ﴿٥١﴾ وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى ﴿٥٢﴾ والمؤتفكة أهوى ﴿٥٣﴾ فغشاها ما غشى ﴿٥٤﴾ فبأي آلاء ربك تتمارى ﴿٥٥﴾ هذا نذير من النذر الأولى ﴿٥٦﴾ أزفت الآزفة ﴿٥٧﴾ ليس لها من دون الله كاشفة ﴿٥٨﴾ أفمن هذا الحديث تعجبون ﴿٥٩﴾ وتضحكون ولا تبكون ﴿٦٠﴾ وأنتم سامدون ﴿٦١﴾ فاسجدوا لله واعبدوا ﴿٦٢﴾

سورة القمر

بسم الله الرحمن الرحيم

اقتربت الساعة وانشق القمر ﴿١﴾ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴿٢﴾ وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ﴿٣﴾ ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر ﴿٤﴾ حكمة بالغة فما تغن النذر ﴿٥﴾ فتول عنهم يوم يدع الداع إلى شيء نكر ﴿٦﴾

٥٢٨

معانى الكلمات :

الزوجين : الصنفين .

تمنى : تدفق فى الرحم .

أقنى : أفقر .

الشعرى : كوكب معروف كانوا يعبدونه فى الجاهلية .

عادا الأولى : قوم هود عليه السلام .

المؤتفكة : قرى قوم لوط .

أزفت : اقتربت .

سامدون : لاهون غافلون .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم بعض مظاهر قدرة الله تعالى .

٢ ـ أن نتعلم الاعتبار بمصارع الغابرين .

٣ ـ أن نتعرف على معجزة انشقاق القمر ، وهو نذير ليوم القيامة .

المحتوى التربوى :

يمضى السياق فى عرض بعض مظاهر القدرة الإلهية ، وأن الله خلق الزوجين ، وهى الحقيقة الهائلة الواقعة المتكررة فى كل لحظة ، فينساها الإنسان لتكرارها أمام عينيه وهى أعجب من كل عجيبة ؛ نطفة تمنى ، تراق .. إفرازات من إفرازات هذا الجسد الإنسانى الكثيرة كالعرق والدمع والمخاط ، فإذا هى بعد فترة مقدورة فى تدبير الله، إذا هى ماذا ؟ إذ هى إنسان ، وإذا هذا الإنسان ذكر أو أنثى ، وأى قلب بشرى يقف أمام هذه الحقيقة الهائلة العجيبة .

ومن النشأة الأولى يتجه مباشرة إلى النشأة الأخرى ، والنشأة الأخرى غيب ولكن عليه من النشأة الأولى دليل على إمكان الوقوع ؛ فالذى خلق الزوجين قادر على إعادة الخلق ، ودليل على

حكمة الوقوع ؛ فهذا التدبير الخفى الذى يقود الخلية الحية الصغيرة فى طريقها الطويل الشاق حتى تكون ذكراً أو أنثى ، هذا التدبير لابد أن يكون مداه أبعد من رحلة الأرض التى لا يتم فيها شىء كامل ؛ لأن فى حساب هذا التدبير نشأة أخرى يبلغ فيها كل شىء تمامه ، فدلالة النشأة الأولى مع النشأة الأخرى مزدوجة ، ومن هنا جاء ذكرها هكذا قبل النشأة الأخرى .

وفى النشأة الأولى ، وفى النشأة الأخرى يغنى الله من يشاء من عباده ويقنيه ، أغنى من عباده من شاء فى الدنيا بأنواع الغنى وهى شتى : غنى المال . وغنى الصحة . وغنى الذرية . وغنى النفس وغنى الفكر وغنى الصلة بالله والزاد الذى ليس مثله زاد ، وأغنى من عباده من شاء فى الآخرة من غنى الآخرة ، وأفقر من شاء من عباده ، والله عز وجل رب الشعرى نجم أثقل من الشمس ، وقد كان هناك من يعبد هذا النجم .

وينتقل السياق إلى جولة سريعة فى مصارع الغابرين بعد ما جاءتهم النذر فكذبوا بها كما يكذب المشركون ، وعاد وثمود وقوم نوح يعرفهم قارئ القرآن فى مواضع شتى ، والمؤتفكة هى أمة لوط من الإفك والبهتان والضلال ، وقد أهواها فى الهاوية وخسف بها خسفا يشمل كل شىء ويغشاه فلا يبين ، ولقد كانت إذن تلك المصارع آلاء لله وأفضالا ألم يهلك البشر ؟ ألم يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ؟ ألم يترك فيها آيات الله لمن يتدبر ويعى؟ أليست هذه كلها آلاء ، ففى أى نعم الله عليك أيها الإنسان تمترى ؟

وتلقى صيحة الخطر قبيل الطامة الكبرى، فهذا الرسول الذى تتمارون فى رسالته وفى نذارته ، هذا نذير من النذر الأولى التى أعقبها ما أعقبها ، وقد أزفت الآزفة واقتربت كاسحة جارفة ، وهى الطامة والقارعة التى جاء هذا النذير يحذركم إياها أو هول العذاب الذى لا يعلم إلا الله نوعه وموعده ، ولا يملك إلا الله كشفه ودفعه ، وبينما الخطر الداهم قريب ، والنذير الناصح يدعوكم إلى النجاة ، إذا أنتم سادرون لا هون لا تقدرون الموقف ولا تفيقون ، فمم تعجبون ، ومم تضحكون ؟ مع هذا الجد الصارم ، وهنا يهتف بهم إلى ما ينبغى أن يتداركوا به أنفسهم وهم على حافة الهاوية ، فاخضعوا له وأخلصوا له ووحدوا ، ومن ثم سجدوا ، وهم مشركون ، وهم يمارون فى الوحى والقرآن وهم يجادلون فى الله والرسول ! لا يملكون أن يقاوموا وقع هذا القرآن ، ولا أن يتماسكوا لهذا السلطان .

سورة القمر

يبدأ السياق بذكر اقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضائها ، وانشقاق القمر ، ولقد رأوا الحدث الأول فلم يبق إلا أن ينتظروا الحدث الأكبر ، والروايات عن انشقاق القمر ورؤية

العرب له فى حالة انشقاقه أخبار متواترة ، تتفق كلها فى إثبات وقوع الحادث ، وتختلف فى رواية هيئته تفصيلا وإجمالا .

وانشقاق القمر كان آية كونية يوجه القرآن القلوب والأنظار إليها ، كما يوجهها دائما إلى الآيات الكونية الأخرى، ويعجِّب من أمرهم وموقفهم إزاءها ، كما يعجب من مواقفهم تجاه آيات الله الكونية الأخرى ، قد جاء القرآن ليقف بالقلب البشرى فى مواجهة الكون كله وما فيه من آيات الله الثابتة القائمة ،و يصله بهذا الكون وآيات الله فيه فى كل لحظة لا مرة عارضة فى زمانهم محدود ، يشهدها جيل من الناس فى مكان محدود .

إن الكون كله هو مجال النظر والتأمل فى آيات الله التى لا تنفد ، ولا تذهب ولا تغيب ، وهو بجملته آية ، وفى مطلع السورة تجىء الإشارة إلى اقتراب الساعة وانشقاق القمر إيقاعا يهز القلب البشرى هزًّا ، وهو يتوقع الساعة التى اقتربت ويتأمل الآية التى وقعت .

ومع اقتراب الموعد المرهوب ووقوع الحادث الكونى المثير ، وقيام الآيات التى يرونها فى صور شتى ، فإن تلك القلوب كانت تلج فى العناد وتصر على الضلال ، ولا تتأثر بالوعيد ، ولقد أعرضوا وقالوا : سحرنا ، وهم يرون آية الله فى انشقاق القمر ، وكان هذا رأيهم مع آية القرآن ، فكلما رأوا آية قالوا:سحر مستمر لا ينقطع ، معرضين عن تدبر طبيعة الآيات وحقيقتها ، معرضين كذلك عن دلالتها وشهادتها وكذبوا بتلك الآيات وبشهادتها ، كذبوا اتباعا لأهوائهم لا استنادًا إلى حجة ، وكل شىء فى موضعه فى هذا الوجود الكبير ، وكل أمر فى مكانه الثابت الذى لا يتزعزع .

ولقد جاءهم أنباء الآيات الكونية التى صرفها الله لهم فى هذا القرآن ، وأنباء المكذبين قبلهم ومصارعهم ، وأنباء الآخرة التى صورها القرآن لهم ، وكان فى هذا كله زاجر رادع لمن يزدجر ويرتدع ، وكان فيه من حكمة الله ما يبلغ القلوب ويوجهها إلى تدبيره الحكيم ، ولكن القلوب المطموسة لا تتفتح لرؤية الآيات والانتفاع بالأنباء ، واليقظة على صوت النذير بعد النذير ، وما تغنى النذر ، ؛ إنما هو الإيمان هبة الله للقلب المتهيئ للإيمان المستحق لهذا الإنعام ، ويتوجه الخطاب للرسول بتركهم يلاقون اليوم الذى فيه الهول الفظيع .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ هزيمة الشر وانتصار الخير سنة من السنن الإلهية .

٢ ـ يجب أن نخشع عند سماع القرآن الكريم أو تلاوته وأن نتدبر معانيه وأن نعمل بما فيه .

٣ ـ اقتراب وقوع القيامة ونهاية هذا العالم ، وعلى المسلم الحرص على الخير والحذر من المعاصى .

الجزء السابع والعشرون — سورة القمر

خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾
مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ۞ كَذَّبَتْ
قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا
رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ
﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾
وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ
كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ
عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ
﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ
نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ
لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا
مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ
مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ
ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾

٥٢٩

معانى الكلمات :

خشعا : ذليلة خاضعة .

الأجداث : القبور .

خسر : صعب شديد .

منهمر : منصب بشدة وغزارة .

قدر : مقدر أزلا .

دسر : مسامير تشد بها الألواح .

منقعر : منقلع .

كذاب أشر : بطر متكبر .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على مشاهد التنكيل والتعذيب الذى أصاب بالفعل أجيال المكذبين .

٢ ـ أن نعلم أن القرآن الكريم قريب المأخذ سهل التناول حتى يتخذه الناس منهج حياة .

٣ ـ أن نعلم أن قوة الإنسان مهما كانت أمام قوة الله تعالى هى لا شىء ولا ترد عذاب الله بحال .

المحتوى التربوى :

يصور السياق مشهداً من مشاهد يوم القيامة وهو متقارب سريع مكتمل السمات والحركات: هذه جموع خارجة من الأجداث فى لحظة واحدة كأنهم جراد منتشر ، وهذه الجموع خاشعة أبصارها من الذل والهول وهى تسرع فى سيرها نحو الداعى الذى يدعوها لأمر غريب نكير شديد ، لا تعرفه ولا تطمئن إليه ، وفى أثناء هذا الخشوع والإسراع يقول الكافرون إن هذا اليوم شديد عسير ، وهى قولة المكروب المجهود الذى يخرج ليواجه الأمر الصعيب الرهيب .

ثم يأخذ فى عرض مشاهد التنكيل والتعذيب الذى أصاب بالفعل أجيال المكذبين من قبلهم، وعرض مصارع الأمم التى سلكت من قبل مسلكهم بادئا بقوم نوح ؛ فقد كذبوا

بالرسالة وبالآيات وبنوح ﷺ وقالوا كما قالت قريش ظالمة عن محمد ﷺ : مجنون ، وهددوه بالرجم وآذوه بالسخرية ، وطالبوه أن يكف عنهم ونهروه بعنف ، وزجروه بدلا من أن ينزجروا هم ويرعووا ، وعندها عاد نوح إلى ربه الذى أرسله وكلفه مهمة التبليغ ، عاد لينهى إليه ما انتهى إليه أمره مع قومه وما انتهى إليه جهده وعمله ، ويدع له الأمر بعد أن لم تعد لديه طاقة لم يبذلها وبعد أن لم تبق له حيلة ولا حول ، فدعا ربه أن انتهت طاقتى . انتهى جهدى انتهت قوتى ، وغلبت على أمرى ، انتصر أنت يا ربى . انتصر لدعوتك . انتصر لحقك ، انتصر أنت فالأمر أمرك والدعوة دعوتك .

وما تكاد هذه الكلمة تقال ؛ وما يكاد الرسول يسلم الأمر لصاحبه الجليل القهار ، حتى تشير إليه القدرة القاهرة إلى عجلة الكون الهائلة الساحقة ، ويسند الفعل إلى الله مباشرة فيحس القارئ يد الجبار تفتح أبواب السماء لا بابًا منها وينهمر الماء غزيراً متواليا، وبالقوة ذاتها وبالحركة نفسها تنبثق العيون من الأرض كلها ، وكأنما الأرض كلها قد استحالت عيونا ، والتقى الماء المنهمر من السماء بالماء المتفجر من الأرض على أمر مقدر ، منهما على اتفاق لتنفيذ هذا الأمر المقدر ، طائعان للأمر محققان للقدر ، حتى إذا صار طوفان يطعم ويعم ، ويغمر وجه الأرض امتدت اليد القوية الرحيمة إلى الرسول الذى دعا دعوته فتحرك لها الكون كله ، امتدت له هذه اليد بالنجاة وبالتكريم ؛ فكان الحمل على السفينة وهى تجرى فى رعاية الله بملاحظة أعينه جزاء لهم على كفرهم بالله وانتصاراً لنوح ، وهو جزاء يمسح بالرعاية على الجفاء ، وبالتكريم على الاستهزاء ، ويصور مدى القوة التى يملك رصيدها من يُغلب فى سبيل الله ومن يبذل طاقته ، ثم يعود إليه يسلم له أمره وأمر الدعوة ويدع له أن ينتصر .

إن قوى الكون الهائلة كلها فى خدمته وفى نصرته ، والله من ورائها بجبروته وقدرته . على مشهد الانتصار الهائل الكامل ، يتوجه إلى القلوب التى شهدت المشهد كأنها تراه ، يتوجه إليها بلمسة التعقيب لعلها تتأثر وتستجيب ، فهذه الواقعة بملابساتها المعروفة ، تركناها آية للأجيال ، فهل هناك من يتذكر ويعتبر؟ ثم سؤال لإيقاظ القلوب إلى هول العذاب وصدق النذير ، وقد كان عذابا مدمراً جباراً ، وكان نذيراً صادقا بهذا العذاب ، وهذا هو القرآن حاضر ، سهل التناول ، ميسر الإدراك ، فيه جاذبية ليقرأ ويتدبر ، فيه جاذبية الصدق والبساطة ، وموافقة الفطرة ، واستجاشة الطبع ، لا تنفذ عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد ، وكلما تدبره القلب عاد منه بزاد جديد ، وكلما صحبته النفس زادت له ألفة وبه أنسا ، وهذا هو التعقيب الذى يتكرر ، بعد كل مشهد يصور ، ويقف السياق عنده بالقلب البشرى يدعوه دعوة هادئة إلى التذكر والتدبر بعد أن يعرض عليه حلقة من العذاب الأليم الذى حل بالمكذبين .

ثم تجيء الحلقة الثانية من مشاهد التعذيب العنيف ، ويبدأ بالإخبار عن تكذيب عاد ، وقبل أن يكمل الآية يسأل سؤال التعجيب والتهويل : كيف كان العذاب بعد تكذيب عاد ؟ ثم يجيب فى وصف خاطف رعيب ، بأنه أرسلت عليهم ريح باردة شديدة البرد ، فى يوم شؤم عليهم ، وأى نحس يصيب قوما أشد مما أصاب عاد ، والريح تنزعهم وتجذبهم وتحطهم ، فتدعهم كأنهم أعجاز نخل مهشمة مقلوعة من تعورها ؟ ! ويكرر سؤال التعجيب والتهويل والوصف المذكور هو الجواب ويختم الحلقة بالتعقيب المكرر فى السورة .

ثم تجيء الحلقة الثالثة ، وثمود كانت القبيلة التى خلفت عاداً فى القوة والتمكين فى جزيرة العرب ، كانت عاد فى الجنوب وكانت ثمود فى الشمال ، وكذبت ثمود بالنذر كما كذبت عاد ، غير معتبرة بمصرعها المشهور فى أنحاء الجزيرة والشبهة التى تحيك فى صدر المكذبين جيلا بعد جيل ، هى كيف يلقى الوحى على بشرين دونهم ، وكيف يصيرون أتباعا ، وماذا فى أن يختار الله واحداً من عباده والله أعلم حيث يجعل رسالته، إنها شبهة واهية لا تقوم إلا فى النفوس المنحرفة، النفوس التى لا تريد أن تنتظر فى الدعوى لترى مقدار ما فيها من الحق والصدق ، ولكن إلى الداعية فتستكبر من اتباع فرد من البشر ، مخافة أن يكون فى اتباعها له إيثار وله تعظيم وهى تستكبر عن الإذعان والتسليم،وأعجب شيء أن يصفوا أنفسهم بالضلال لو اتبعوا الهدى، وأن يحسبوا أنفسهم فى سعر لا فى سعير واحد إذا هم فاؤوا إلى ظلال الإيمان .

ومن ثم يتهمون رسولهم الذى اختاره الله ليقودهم فى طريق الحق والقصد ، يتهمونه بالكذب والطمع ، فهو كذاب لم يلق عليه الذكر شديد الطمع فى اختصاص نفسه بالمكانة ، وهو الاتهام الذى يواجه به كل داعية ، اتهامه بأنه يتخذ الدعوة ستاراً لتحقيق مآرب ومصالح ، وهى دعوى المطموسين الذين لا يدركون دوافع النفوس وحركات القلوب .

ويلتفت السياق فجأة وكأنما الأمر حاضر والأحداث جارية ، فيتحدث عما سيكون ، ويهدد بهذا الذى سيكون، سيكشف لهم الغد عن الحقيقة ، ولن يكونوا بمنجاة من وقع هذه الحقيقة ، فستكشف عن البلاء المدمر للكذاب الأشر ، ويقف القارئ يترقب ما سيقع ، عندما يرسل الله الناقة فتنة لهم وامتحانا ، ويقف رسولهم مرتقبا ما سيقع ، مؤتمرا بأمر ربه فى الاصطبار عليهم حتى تقع الفتنة ويتم الامتحان .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ ضرورة الاتعاظ بما نزل بالأمم السابقة من تعذيب وإهلاك ؛ نظراً لتكذيبهم الرسل .

٢ ـ الله تعالى ينصر رسله ومن يتبع رسله ويؤيدهم بجنود من عنده .

٣ ـ قدرة الله لا حدود لها فى قضائه على من يخالف أمره .

الجزء السابع والعشرون — سورة القمر

وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ
فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ
لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا
كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا
بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا
عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾
فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ
﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ
أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ
فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ
وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ
﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ
عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾

٥٣٠

معانى الكلمات :

قسمة : مقسوم .

محتضر : يحضره صاحبه فى نوبته .

المحتظر : صانع الحظيرة لمواشيه .

بطشتنا : أخذتنا الشديدة بالعذاب .

فطمسنا أعينهم : أعميناهم .

الزبر : الكتب السماوية .

أمر : أشد مرارة .

بقدر : بتقدير سابق أو مقدر محكم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على مشاهد التنكيل والتعذيب الذى أصاب بالفعل أجيال المكذبين .

٢ ـ أن نعلم أن فوقية الإيمان وأهله سنة من سنن الله تتعالى فى كونه .

٣ ـ أن نتعلم حقيقة قدر الله وحكمته وتدبيره .

المحتوى التربوى :

صدرت التعليمات الإلهية بأن الماءَ فى القبيلة قسمة بينهم وبين الناقة ـ ولابد أنها كانت ناقة خاصة ذات خصائص معينة تجعلها آية وعلامة فيوم لها ويوم لهم تحضر يومها ويحضرون يومهم، وتنال شربها وينالون شربهم .

ثم يعود السياق إلى أسلوب الحكاية ، فيقص ما كان ذلك منهم فقداتفقوا على عقر الناقة واختاروا من بينهم من يقدم على الفعلة الشنيعة ، وتعاطى صاحبهم الخمر فسكر ليصير جريئا على الفعلة التى هو مقدم عليها ، وهى عقر الناقة التى أرسلها الله آية لهم ، وحذرهم رسولهم أن يمسوها بسوء فيأخذهم عذاب أليم ، وتمت الفتنة بعقرها صاحبهم الناقة ، ووقع البلاء ، ومجىء

سؤال التعجيب والتهويل قبل ذكر ما حل من العذاب بعد النذير ، وقد أرسلت على القوم صيحة واحدة ، ففعلت بهم ما فعلت ، مما جعلهم كالأعواد الجافة حين تيبس وتتحطم وتصبح هشيما ، وهو مشهد مفجع مفزع يعرض رداً على التعالى والتكبر ، وأمام هذا المشهد يرد قلوبهم إلى القرآن ليتذكر ويتدبر أو هو ميسر للتذكر والتدبر ثم يرفع الستار عن قصة قوم لوط ، وتبدأ بذكر ما وقع منهم من تكذيب بالنذر ، وعلى إثر هذه الإشارة يصف ما نزل بهم من النكال ، والحاصب : الريح تحمل الحجارة ، ولفظة الحاصب ذات جرس كأنه وقع الحجارة ، وفيه شدة وعنف تناسب جو المشهد ، ولم ينج إلا آل لوط ـ إلا امرأته ـ نعمة من عند الله جزاء إيمانهم وشكرهم ، فننجيه وننعم عليه فى وسط المهالك والمخاوف ، وطالما أنذروا لوط قومه عاقبة المنكر الشاذ الذى كانوا يأتونه ، فتماروا بالنذر ، وشكوا فيها وارتابوا ، وتبادلوا الشك والارتياب فيها بينهم وتداولوه ، وجادلوا نبيهم فيه .

وبلغ منهم الفجور والاستهتار أن يراودوه هو نفسه عن ضيفه ـ من الملائكة ـ وساوروا لوطا يريدون الاعتداء المنكر على ضيوفه ، غير محتشمين ولا مستحيين ، ولا متحرجين من انتهاك حرمة نبيهم الذى حذرهم وأنذرهم عاقبة هذا الشذوذ القذر المريض .

وعندئذ تدخلت يد القدرة ، وتحرك الملائكة لأداء ما كلفوه وجاؤوه من أجله ، فطمسوا على أعين قوم فلم يعودوا يرون شيئا ولا أحداً ، وصاروا ممتنعين من أن يصلوا إليه ، وبينما السياق يجرى مجرى الحكاية ، إذا به حاضر مشهود ، وإذا الخطاب يوجه إلى المعذبين ، فهذا هو العذاب الذى حذرتم منه ، وهذه هى النذر التى تماريتم فيها ، وكان طمس العيون فى المساء ، فى انتظار الصباح الذى قدره الله لأخذهم جميعا ، وهو ذلك العذاب الذى عجل بذكره السياق ، ومرة أخرى تتغير طريقة العرض ، ويستحضر المشهد كأنه اللحظة واقع ، وينادى المعذبون وهم يعانون العذاب أن ذوقوا ما وعدتم به ، ويجىء التعقيب المألوف عقب المشهد العنيف من أن القرآن للذكر فهل من يتذكر .

وتختصر قصة فرعون وملئه فى طرفيها : مجئ النذر لآل فرعون وتكذيبهم بالآيات التى جاءهم بها رسولهم ، وأخذهم بعد ذلك أخذ عزيز مقتدر ، والإشارة إلى العزة والاقتدار تلقى ظلال الشدة فى الأخذ ، وفيها تعريض بعزة فرعون واقتداره على البغى والظلم ، فقد ضاعت العزة الباطلة، وسقط الاقتدار الموهوم ، وأخذه الله إليه ـ هو وآله . أخذ عزيز حقا مقتدر صدقا، أخذهم أخذاً شديداً يناسب ما كانوا عليه من ظلم وغشم وبطش وجبروت .

ويتوجه السياق بالخطاب إلى المكذبين يحذرهم مصرعا كهذه المصارع ، وينذرهم ما هو أدهى وأفظع ؛ إنه الإنذار بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، وإسقاط كل شبهة وكل شك فى صدق هذا

الإنذار ، فتلك مصارع المكذبين فما يمنعكم أنتم من مثل ذلك المصير ؟ وما ميزة كفاركم على أولئكم ؟ أم لكم براءة تشهد بها الصحائف المنزلة ، فتعفوا إذن من جرائر الكفر والتكذيب ؟ لا هذه ولا تلك ، فلستم خيرًا من أولئكم ، وليست لكم براءة فى الصحائف المنزلة ، وليس هنالك إلا لقاء المصير الذى لقيه الكفار من قبلكم فى الصورة التى يقدرها الله لكم .

ثم يلتفت عن خطابهم عام ، يعجب فيه من أمرهم ، وذلك حين يرون جمعهم فتعجبهم قوتهم ، ويفترون بتجمعهم ، فيقولون : إنا منتصرون لا هازم لنا ولا غالب ، وهنا يعلنها عليهم مدوية قاضية حاسمة ، فلا يعصمهم تجمعهم ، ولا تنصرهم قوتهم ، والذى يعلنها عليهم هو القهار الجبار ، ولقد كان ذلك كما لابد أن يكون ، فلما كان يوم بدر هزمت قريش وولت أدبارها

وكانت هذه هزيمة الدنيا ولكنها ليست هى الأخيرة ، وليست هى الأشد والأدهى ، فهو يضرب عن ذكرها ليذكر الأخرى وهى الساعة فهى أدهى وأمر من كل عذاب رأوه أو يرونه فى هذه الأرض ، وأدهى وأمر من كل مشهد رأوه مرسوما فيما مر : من الطوفان ، إلى الصرصر ، إلى الصاعقة ، إلى الحاصب ، إلى أخذ فرعون وآله أخذ عزيز مقتدر .

ثم يفصل كيف هى أدهى وأمر ، يفصل هذا فى مشهد عنيف من مشاهد القيامة ؛ فالمجرمون فى ضلال يعذب العقول والنفوس ، وفى سعر تكوى الجلود والأبدان ، وهم يسحبون فى النار على وجوههم فى عنف وتحقير ، وهم يرادون عذابا بالإيلام النفسى عندما يقال لهم ذوقوا مس سقر .

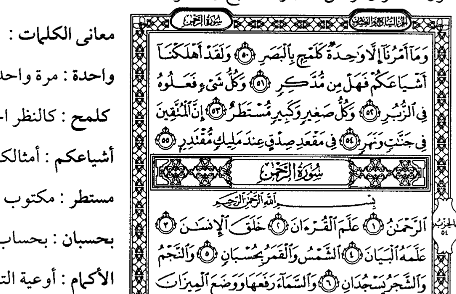
ويتجه السياق إلى الناس كافة وإلى القوم خاصة ، وليقر فى قلوبهم حقيقة قدر الله وحكمته وتدبيره ، فذلك الأخذ فى الدنيا، وهذا العذاب فى الآخرة ، وما كان قبلها من الرسالات ونذير، ومن قرآن وزبر ، وما حول ذلك كله من خلق ووجود وتصريف لهذا الوجود ، هذا وكل صغيرة وكبيرة مخلوقة بقدر ، مصرفة بقصد ، مدبرة بحكمة، لا شىء جزاف ، لا شىء عبث ، لا شىء مصادفة ، لا شىء ارتجال كل شىء كل صغير وكل كبير كل ناطق وكل صامت . كل متحرك وكل ساكن ، كل ماض وكل حاضر كل معلوم وكل مجهول كل شىء خلقناه بقدرة وبقدر يحدد حقيقته وصفته ومقداره ومكانه وتأثيره .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ اللواط من أفحش الجرائم وأقبحها ، ويستحق مرتكبة أغلظ العقوبات .

٢ ـ اللجوء إلى الله والتضرع إليه بالدعاء مع بذل الجهد وتفويض الأمر إلى الله تعالى .

٣ ـ كل صغير أو كبير وكل تصريف لهذا الوجود مخلوق بقدر الله تعالى .



معانى الكلمات :

واحدة : مرة واحدة .

كلمح : كالنظر الخفيف السريع .

أشياعكم : أمثالكم .

مستطر : مكتوب فى اللوح المحفوظ .

بحسبان : بحساب مقدر .

الأكمام : أوعية التمر وهى الطلع .

العصف : القشر .

مارج : لهب صاف لا دخان فيه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم صورة المتقين وهم يرفلون فى نعيم الآخرة .

٢ ـ أن نتعرف على آلاء الله فى الكيان الإنسانى .

٣ ـ أن نتعرف على آلاء الله فى المعرض الكونى العام .

المحتوى التربوى :

مع التقدير والتدبير القدرة التى تفعل أعظم الأحداث بأيسر الإشارات ، فهى إشارة واحدة أو كلمة واحدة يتم بها كل أمر : الجليل والصغير على السواء ، وليس هناك جليل ولا صغير وإنما ذلك تقدير البشر للأشياء ، وليس هنالك زمن ولا ما يعادل لمح البصر إنما هو تشبيه لتقريب الأمر إلى حس البشر ، فالزمن إن هو إلا تصور بشرى ولا وجود له فى حساب الله المطلق .

وهذه مصارع المكذبين أمثالهم معروضة فى هذه السورة فهل من معتبر ؟ ولم ينته حسابهم بمصارعهم الأليمة ، فوراءهم حساب لا يفلت منه شىء ، وكل ما فعلوه مسطر فى الصحائف ليوم الحساب ، لا ينسى منه شىء وهو مسطور فى كتاب .

ويعرض السياق صورة أخرى فى ظل وادع أمين ، صورة المتقين ، بينما المجرمون فى ضلال وسعر ، يسحبون فى النار على وجوههم مهانة وذلا ، ويلذعون بالتأنيب كما يلذعون بالسعير ، وهى صورة للنعيم بطرفيه ، نعيم الحس والجوارح فى تعبير جامع شامل وفى جنات ونهر ونعيم القلب والروح ، نعيم القرب والتكريم ، فهو فى مقعد ثابت مطمئن ، قريب كريم ، مأنوس بالقرب ، مطمئن بالتمكين ، ذلك أنهم المتقون الخائفون المترقبون ، والله لا يجمع على نفس خوفين : خوفها منه فى الدنيا ، وخوفها يوم القيامة ، فمن اتقاه فى العاجلة أمنه فى الآجلة .

سورة الرحمن

تبدأ السورة بإيقاع صاعد ذاهب إلى بعيد ، يجلجل فى طباق الوجود ، ويخاطب كل موجود ، ويبلغ إلى كل سمع وكل قلب ، فالله الرحمن يخبر عن فضله ورحمته بأنه علم القرآن ، هذه النعمة الكبرى التى تتجلى فيها رحمة الرحمن بالإنسان القرآن ، والقرآن الذى يفتح حواسهم ومشاعرهم على هذا الكون الجميل ، القرآن الذى يقر فى أخلادهم أنهم خلفاء فى الأرض ، أنهم كرام على الله وأنهم حملة الأمانة التى أشفقت منها السموات والأرض والجبال ، فيشعرهم بقيمتهم التى يستمدونها من تحقيق إنسانيتهم العليا ، بوسيلتها الوحيدة الإيمان الذى يحيى فى أرواحهم نفخة الله ، ويحقق نعمته الكبرى على الإنسان ، ومن ثم قدم تعليم القرآن على خلق الإنسان ، فيه يتحقق فى هذا الكائن معنى الإنسان .

وندع مؤقتا خلق الإنسان ابتداء فسيأتى ذكر فى مكانه فى السورة بعد قليل ، إذا المقصود من ذكره هنا هو ما تلاه من تعليمه البيان ، فإننا نرى الإنسان ينطق ويعبر ويبين ، ويتفاهم ويتجاوب مع الآخرين فتنسى بطول الألفة عظمة هذه الهبة ، وضخامة هذه الخارقة فيردنا القرآن إليها ، ويوقظنا لتدبرها فى مواضع شتى ، ثم يستطرد فى بيان آلاء الرحمن فى المعرض الكونى العام ، حيث تتجلى دقة التقدير فى تنسيق التكوين والحركة بما يملأ القلب روعة ودهشة، وشعوراً بضخامة هذه الإشارة ، وما فى طياتها من حقائق بعيدة الآماد عميقة الأغوار ، فالشمس والقمر يجريان متعاقبين بحساب مقنن لا يختلف ولا يضطرب .

وقد كانت الإشارة السابقة إلى الحساب والتقدير فى بناء الكون الكبير ، فأما هذه فهى إشارة إلى اتجاه هذا الكون وارتباطه ، وهى إشارة موحية إلى حقيقة هاوية ، فهذا الوجود مرتبط ارتباط العبودية والعبادة بمصدره الأول وخالقه المبدع ، والنجم والشجر نموذجان منه يدلان على اتجاهه كله ، والقرآن يقول : أنه يتجه إلى مبدعه بحركة روحه ـ وهى الحركة الأصلية فحركة ظاهرة لا تكون إلا تعبيرًا عن حركة روحه ، وهى الحركة التى تمثلها فى القرآن آيات كثيرة ، وتأمل هذه الحقيقة ومتابعة الكون فى عبادته وتسبيح مما يمنح القلب البشرى متاعا عجيبا ، وهو

يشعر بكل ما حوله حيا يعاطفه ويتجه معه إلى خالقه وهو فى وقفته بين أرواح الأشياء كلها ، وهى تدب فيها جميعا ، وتحيلها إخوانا له ورفقاء .

وتأتى الإشارة إلى السماء تقصد إلى تنبيه القلب الغافل ، وإنقاذه من بلادة الألفة ، وإيقاظه لعظمة هذا الكون وتناسقه وجماله ، وإلى قدرة اليد التى أبدعته ، والإشارة إلى السماء توجه النظر إلى أعلى ، وإلى جوار هذه العظمة فى رفع هذه السماء الهائلة الوسيعة وضع ميزان الحق ، وضعه ثابتاً راسخا مستقراً ، وضعه لتقدير القيم ؛ قيم الأشخاص والأحداث والأشياء كى لا تختل ولا تضطرب ، وضع الميزان حتى لا تغالى ولا تفرط ومن ثم يستقر الوزن بالقسط بلا طغيان ولا خسران .

وكما رفع السماء وضع الأرض ومهدها فأرساها بالجبال الراسيات الشامخات ؛ لتستقر لما على وجهها من الأنام ، وهم الخلائق المختلفة أنواعهم وأشكالهم وألوانهم وألسنتهم من سائر أقطارها وأرجائها ؛ فيها فاكهة مختلفة الألوان والطعوم والروائح ، ويخص منها النخل ذات الأكمام ، والكم : كيس الطلع الذى ينشأ الثمر ، ليشير إلى جمال هيئتها بجانب فائدة ثمرتها ، ويذكر منها الحب ذا الورق والسيقان التى تعصف وتصبر طعاما للماشية ،ويذكر منها الريحان، النبات ذا الرائحة ، ويهتف القرآن بالجن والإنسان فى مواجهة الكون وأهل الكون ، بسؤال هو للتسجيل والإشهاد ، فما يملك إنس ولا جان أن يكذب بآلاء الرحمن فى مثل هذا المقام .

ثم ينتقل من الامتنان عليهما بآلاء الله فى الكون ، إلى الامتنان عليهما بآلائه عليهما فى ذوات أنفسهما وفى خاصة وجودهما وإنشائهما ، ونعمة الإيجاد والإنشاء أصل النعمة ، ويقرر الحق سبحانه مادة خلق الإنس والجن ، وهى كذلك من خلق الله ، والصلصال : الطين إذ يبس وصار له صوت وصلصلة عند الضرب عليه ، وقد تكون هذه حلقة فى سلسلة النشأة من الطين أو من التراب ، وخلق الجان من لهب النار من أحسنها ، وللجان قدرة على الحياة فى هذه الأرض مع الإنس ، ولكنا لا ندرى كيف يعيش الجان وقبيله ، والخطاب هنا للجن والإنس لتذكيرهم بنعمة الوجود ، كل من الأصل الذى أنشأه الله منه ، وهى النعمة التى تقوم عليها سائر النعم ، ومن ثم يعقب عليها بتعقيب التسجيل والإشهاد العام ، فما يملك أحد أن يكذب بآلاء الرحمن فى مثل هذا المقام .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ المتقون يجمع الله لهم فى الآخرة بين نعيم الحس والجوارح .

٢ ـ القرآن من أهم النعم وأفضلها ، وعلى الإنسان شكرها بتلاوته والعمل بما فيه .

٣ ـ الوجود كله مرتبط بالعبودية لله تعالى خاضع لأمره، وقد أوجب الله العدل وحرم الظلم.

الجزء السابع والعشرون — سورة الرحمن

رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾

٥٣٢

معانى الكلمات :

مرج البحرين : أرسل العذب والملح مجاريهما .

برزخ: حاجز أرضى أو حاجز من قدرته .

يبغيان : يطغى أحدهما على الآخر بالامتزاج .

الجوار : السفن الجارية .

شواظ : لهب خالص لا دخان فيه .

نحاس : صُفر مذاب أو دخان بلا لهب .

كالدهان : كدهن الزيت فى الذوبان .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على مظاهر قدرة الله تعالى .

٢ ـ أن نعلم أن الوجود المطلق لله تعالى .

٣ ـ أن نعلم عجز الخلائق أمام خالقها عز وجل .

المحتوى التربوى :

تجىء الإشارة التى تملأ القلب بفيض غامر من الشعور بوجود الله ، حيثما توجه ، وحيثما تلفت ، وحيثما امتد به النظر حوله فى الآفاق ، فحيث الشروق والغروب وحيث الغروب هناك الله ، ربوبيته ومشيئته وسلطانه ، ونوره وتوجيهه وهدايته ، وربوبية الله للمشرقين والمغربين بعض آلائه فى هذا الكون ، ومن ثم يجىء التعجيب المعهود فى السورة بعد هذه اللفتة القصيرة ، والمشرقان والمغربان فوق أنهما من آيات الله هما من آلاء الله على الجن والإنس ، بما يتحقق فيهما من الخير لسكان هذه الأرض جميعا ، بل من أسباب الحياة التى تنشأ مع الشروق ، وتحتاج كذلك الغروب ، ولو اختل أحدهما أو كلاهما لتعطلت أسباب الحياة .

ويعود السياق إلى الأرض ، وما فيها من ماء ، جعله الله بقدر أو قدر فى نوعه وقدر فى تصريفه وقدر فى الانتفاع به ، والبحران المشار إليهما هم البحر المالح والبحر العذب ، ويشمل

الأول البحار والمحيطات ، ويشمل الثانى الأنهار ، ومرج البحرين أرسلهما وتركهما يلتقيان ، ولكنهما لا يبغيان ، ولا يتجاوز كل منهما حده المقدر ، ووظيفته المقسومة ، وبينهما برزخ من طبيعتهما من صنع الله ؛ ولا عجب يذكر البحرين وما بينهما من برزخ فى مجالا الآلاء ، ثم يذكر من آلاء الله فى البحرين بعض ما هو قريب منهم فى حياتهم ، واللؤلؤ فى أصله حيوان والمرجان قيل : صغار اللؤلؤ وقيل : كباره وجيده، ومن اللؤلؤ والمرجان تتخذ حلى غالية الثمن عالية القيمة ، ويمتن الله على عباده بها ، فيعقب على ذكرهما فى السورة ذلك التعقيب المشهود ، فما أحد ينكر آلاء ، ثم ينتقل إلى الفلك التى تجرى فى البحار كأنها لضخامتها الجبال ، ويجعل هذه الجوارى المنشآت له سبحانه وتعالى فهى تجرى بقدرته ، ولا يحفظها فى خضم البحر إلا حفظه ، وهذا أمر يصعب التكذيب به والإنكار .

وينتقل السياق إلى طى صفحة الكون الفانى ، وظل الفناء يشمل كل حى ، ويطوى كل حركة، ويغمر آفاق السموات والأرض، وجلال الوجه الكريم الباقى يظلل النفوس والجوارح، والزمان والمكان ، ويغمر الوجود كله بالجلال والوقار ، ويعقب على هذه اللمسة العميقة الأثر بنفس التعقيب ، فبعد استقرار هذه الحقيقة نعمة يواجه بها الجن والإنس فى معرض الآلاء .

ومن حقيقة البقاء الدائم وراء الخلق الفانى تنبثق حقيقة أخرى ؛ فكل أبناء الفناء إنما يتجهون فى كل ما يقوم بوجودهم إلى الواحد الأحد الفرد الصمد الحى القيوم ، يسأله من فى السموات والأرض ، فهو مناط السؤال ، وغيره لا يسأل ؛ لأنه فان لا يتعلق به سؤال ، يسألونه وهو وحده الذى يستجيب وقاصده وحده هو الذى لا يخيب ، وما يتجه أحد إلى سواه إلا حين يضل عن مناط السؤال ومعقد الرجاء ومظنة الجواب ، وماذا يملك الفانى للفانى، وماذا يملك المحتاج للمحتاج ؟

وهو سبحانه كل يوم فى شأن ، هذا الوجود الذى لا تعرف له حدود كله منوط بقدره ، متعلق بمشيئته ، وهو قائم بتدبيره ، هذا التدبير الذى يتناول الوجود كله ، وصاحب التدبير لا يشغله شأن عن شأن ، ولا يند عن علمه ظاهر ولا خاف ، ومن هذا الشأن شأن العباد فى الأرض من إنس وجن ، ومن ثم فهو يواجههما بهذه النعمة مواجهة التسجيل والإشهاد التى يصعب معها الإنكار .

وينتقل السياق فيه تهديد وفيه وعيد ، تهديد مرعب مفزع ووعيد مزلزل مضعضع تمهيداً لهول القيامة الذى يطالع الثقلين فى سياق السورة بعد ذاك ، فيا للهول المرعب الذى لا يثبت له إنس ولا جان ولا تقف له الجبال الرواسى ولا النجوم والأفلاك ، فالله جل جلاله ، الله القوى القادر ، القهار الجبار ، الكبير المتعال ، والله سبحانه يفرغ لحساب هذين الخلقين الضعيفين الصغيرين الجن والإنس فى وعيد وانتقام ، إنه أمر ، إنه هول ، إنه فوق كل تصور واحتمال ، والله سبحانه ليس مشغولاً فيفرغ ، وإنما هو تقريب للتصور البشرى ، وفى ظل هذا الهول الرعيب يسأل الثقلين المسكينين هل لهما أن ينكرا نعمة الله .

ثم يمضى فى الإيقاع المرعب المزلزل ، يتحداهما أن ينفذا من أقطار السموات والأرض ، وكيف وأين ؟ ولا يملك السلطان إلا صاحب السلطان ، ومرة أخرى يواجههما بالسؤال : أيقع فى قدرتهما التكذيب بنعم الله ، وهل بقى فى كيانهما شىء يكذب أو يهم بمجرد النطق والبيان ؟ ! ولكن الحملة الساحقة تستمر إلى نهايتها، والتهديد الرعيب يلاحقهما، والمصير المردى يتمثل لهما، والشواظ : لهب النار ، والنحاس ؛ دخان النار ، ولو ذهبتم هاربين يوم القيامة لردتكم الملائكة والزبانية بإرسال اللهب من النار والنحاس المذاب عليكم لترجعوا ويأتى التعقيب الذى ينزع الاعتراف بآلاء الله .

وتبدأ مشاهد اليوم الآخر بمشهد كونى يتناسب مع مطالع السورة ومجالها الكونى ، وتبدأ بانشقاق السماء يوم القيامة ، فتذوب كما يذوب الدردى والفضة فى السبك ، وتتلون كما تتلون الأصباغ التى يدهن بها ، فتارة حمراء وصفراء وزرقاء وخضراء ، وذلك من شدة الأمر وهول يوم القيامة العظيم ، ومجموع الآيات التى وردت فى صفة الكون يوم القيامة تشير كلها إلى وقوع دمار كامل فى هذه الأفلاك والكواكب ، بعد انفلاتها من النسق الذى يحكمها الآن ، وينسق بين مداراتها وحركاتها ، وهذا الحادث الهائل الذى سيقع فى الكون كله لا يعلم حقيقته إلا الله ، ولا تكذيب عندئذ ولا نكران .

وفى يوم القيامة لا يفتح باب المعذرة ، ولا يسأل أحد عما قدم ، وذلك فى موقف من مواقف ذلك اليوم المشهود ، الذى ستكون فيه مواقف شتى ، منها ما يسأل فيه العباد ، ومنها ما لا يسألون فيه عن شىء ، ومنها ما تجادل كل نفس عن نفسها ، وما تلقى به التبعة على شركائها ، ومنها ما لا يسمع فيه بكلمة ولا جدال ولا خصام ، فهو يوم طويل مديد ، وكل موقف من مواقفه هائل مشهود ، وهنا موقف : لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ؛ ذلك حين تعرف صفة كل فرد وعمله ، وتبدو فى الوجوه معالم الشقوة سوادًا ، ومعالم النجوة بياضا ، ويظهر هذا وذاك فى سيما الوجوه ، ففى هذا الموقف هل من تكذيب ونكران .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ من نعم الله تعالى : الماء المالح فهو أصل الحياة ، به استمرارها ، ومنه الحلى والزينة ، وفيه تسير السفن التى تحمل الناس والمتاع .

٢ ـ هذا الكون كله سوف يفنى ولا يبقى إلا خالقه العظيم ، ثم يكون البعث للحساب والجزاء على ما قدم فى الدنيا .

٣ ـ الله تبارك وتعالى هو صاحب التدبير وبيده الأمر كله ، ولا يشغله شأن عن شأن .

يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام ﴿٤١﴾ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴿٤٢﴾ هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون ﴿٤٣﴾ يطوفون بينها وبين حميم آن ﴿٤٤﴾ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴿٤٥﴾ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴿٤٦﴾ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴿٤٧﴾ ذواتا أفنان ﴿٤٨﴾ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴿٤٩﴾ فيهما عينان تجريان ﴿٥٠﴾ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴿٥١﴾ فيهما من كل فاكهة زوجان ﴿٥٢﴾ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴿٥٣﴾ متكئين على فرش بطائنها من إستبرق وجنى الجنتين دان ﴿٥٤﴾ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴿٥٥﴾ فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ﴿٥٦﴾ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴿٥٧﴾ كأنهن الياقوت والمرجان ﴿٥٨﴾ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴿٥٩﴾ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴿٦٠﴾ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴿٦١﴾ ومن دونهما جنتان ﴿٦٢﴾ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴿٦٣﴾ مدهامتان ﴿٦٤﴾ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴿٦٥﴾ فيهما عينان نضاختان ﴿٦٦﴾ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴿٦٧﴾

معاني الكلمات :

بسيماهم : بسواد الوجوه وزرقة العيون .

بالنواصي : بشعور مقدم الرؤوس .

أفنان : أغصان ، أو أنواع الثمار .

إستبرق : غليظ الديباج .

يطمثهن : يفتضهن .

مدهامتان : خضراوان شديدتا الخضرة .

نضاختان : فوارتان بالماء لا تنقطعان .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم سوء مصير المجرمين يوم القيامة وأنهم فى ذلة ومهانة وعذاب بئيس .

٢ ـ أن نعلم ما يكون فى الآخرة من ثواب للمتقين حسب درجات كل منهم فى الجنة .

٣ ـ أن نتعلم كيف نعيش بين الخوف والرجاء .

المحتوى التربوى :

يمضى السياق يعرض مشاهد يوم القيامة ذلك اليوم المشهود ، وهو مشهد عنيف ، ومع العنف الهوان ؛ حيث تجمع الأقدام إلى الجباه ، ثم يقذف المجرمون على هذه الهيئة إلى النار ، فهل حينئذلك من تكذيب أو نكران ؟

وبينما المشهد معروض ، والأخذ بالنواصى والأقدام والقذف فى النار مستمر ، يلتفت السياق إلى شهود هذا الاستعراض ، وكأنهم حاضرون عند تلاوة السورة فيقول لهم :إن جهنم هذه هى حاضرة معروضة، يطوفون بينها وبين الحميم وهو متناه فى الحرارة كأنه الطعام الناضج على النار،

وهم يتراوحون بين جهنم وبين هذا السائل الآنى، انظروا إنهم يطوفون الآن، وينتزع الاعتراف الذى لا ينكر نعمة من نعم الله تعالى .

هذه ضفة العذاب الأليم ، والآن إلى ضفة النعيم والتكريم ، وللمرة الأولى تذكر الجنتان ، والأظهر أنهما ضمن الجنة الكبيرة ، ولكن اختصاصهما هنا بالذكر قد يكون لمرتبتهما ، وسيأتى فى سورة الواقعة أن أصحاب الجنة فريقان كبيران هما السابقون المقربون ، وأصحاب اليمين ، ولكل منهما نعيم ، فهنا كذلك نلمح أن هاتين الجنتين هم لفريق ذى مرتبة عالية ، وقد يكون فريق السابقين المقربين المذكورين فى سورة الواقعة ، ثم نرى جنتين أخريين من دون هاتين ، ونلمح أنهما لفريق يلى ذلك الفريق وقد يكون هو فريق أصحاب اليمين .

على أية حال فلنشهد الجنتين الأوليين، ولنعش فيهما لحظات: إنهما ذواتا أغصان صغيرة ندية، فهما ريانتان نضرتان ، فيهما عينان ماؤهما غزير ، وسهل يسير ، وفاكهتهما متنوعة كثيرة وفيرة .

وأهل الجنتين ما حالهم ؟ إننا ننظرهم : متكئين على فرش بطائنها من الديباج المزين بالذهب ، فنبة على شرف الطهارة بشرف البطانة ، وهذا من التنبيه بالأدنى على الأعلى ، وقد ذكر الله البطائن ولم يذكر الظواهر ، وعلى الظواهر المحابس ، ولا يعلم ما تحت المحابس إلا الله ، وثمر الجنتين قريب إليهم متى شاؤوا تناولوه على أى صفة كانوا ، فلا يتعبون فى قطاف .

ولكن هذا لا يستقصى ما فيهما من رفاهة ومتاع ، فهناك بقية لهذا المتاع ، فلما ذكر الفرش وعظمتها ذكر أن فى الفرش قاصرات يغضضن الطرف عن غير أزواجهن ، فلا يرين شيئا أحسن فى الجنة من أزواجهن ، وقد ورد أن الواحدة منهن تقول لبعلها : والله ما أرى فى الجنة شيئا أحسن منك ، ولا فى الجنة شيء أحب إلىّ منك ، فالحمد لله الذى جعلك لى وجعلنى لك ، فهنّ لا تمتد أبصارهن إلى غير أصحابهن ، مصونات لم يمسسهن إنس ولا جان ، بل هن أبكار عرب أتراب ، لم يطأهن أحد قبل أزواجهن من الإنس والجن .

وهنَّ بعد ذلك ناضرات لامعات كأنهن فى صفاء الياقوت وبياض المرجان ، ذلك كله جزاء من خاف مقام ربه وعبده كأنه يراه ، شاعراً أن ربه يراه ، فبلغ بذلك مرتبة الإحسان كما وصفها رسول الله ﷺ ، فنالوا جزاء الإحسان عن عطاء الرحمن ، وفى معرض الإنعام والإحسان كان التعقيب يجيء فى موضعه بعد كل فقرة . وينتقل السياق إلى الفريق الآخر صاحب الجنتين الأخريين ، وأوصافهما أدنى من الجنتين السابقتين فهما مخضرتان خضرة تميل إلى السواد لما فيهما من أعشاب ، وفيهما عينان فياضتان والجرى أقوى من النضخ ، وهما ممتلئتان لا تنقطعان .

والسياق الذى وردت فيه الآيات يجمع على العبد الخوف والرجاء ؛ الخوف من وعيد الله وعذاب المجرمين ، والرجاء فى نعيم الله العميم ، وهذا ما يلزم صاحب الإيمان فى إيمانه .

يقول ابن القيم فى طريق الهجرتين : « إن الخوف أحد أركان الإيمان والإحسان الثلاثة التى عليها مدار مقامات السالكين جميعها وهى : الخوف والرجاء والمحبة .. وكلما كان العبد بالله أعلم كان له أخوف ، ونقصان الخوف من الله إنما هو لنقصان معرفة العبد به ، فأعرف الناس أخشاهم لله ، ومن عرف الله اشتد حياؤه منه ، وخوفه له ، وحبه له ، وكلما ازداد معرفة ازداد حياء وخوفا وحبا ، فالخوف من أجلِّ منازل الطريق ، وخوف الخاصة أعظم من خوف العامة ، وهم إليه أحوج وهو بهم أليق ، ولهم ألزم ، فإن العبد إما أن يكون مستقيما أو مائلا عن الاستقامة فإن كان مائلا عن الاستقامة فخوفه من العقوبة على ميله ، ولا يصح الإيمان بهذا الخوف .

وهو ينشأ من ثلاثة أمور :

أحدها : معرفته بالجناية وقبحها .

والثانى : تصديق الوعيد وأن الله رتب على المعصية عقوبتها .

والثالث : أنه لا يعلم لعله يمنع من التوبة ويحال بينه وبينها إذا ارتكب الذنب .

وبالجملة فمن استقر فى قلبه ذكر الدار الآخرة وجزاؤها ، وذكر المعصية والتوعد عليها ، وعدم الوثوق بإتيانه بالتوبة النصوح هاج فى قلبه من الخوف ما لا يمكله ولا يفارقه حتى ينجو ، وأما إن كان مستقيما مع الله فخوفه يكون مع جريان الأنفاس ، لعلمه بأن الله مقلب القلوب ، وما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن عز وجل ، فإن شاء أن يقيمه أقامه ، وإن شاء أن يزيغه أزاغه كما ثبت عن النبى ﷺ . فأى قرار لمن هذا حاله ؟ ومن أحق بالخوف منه ؟ » .

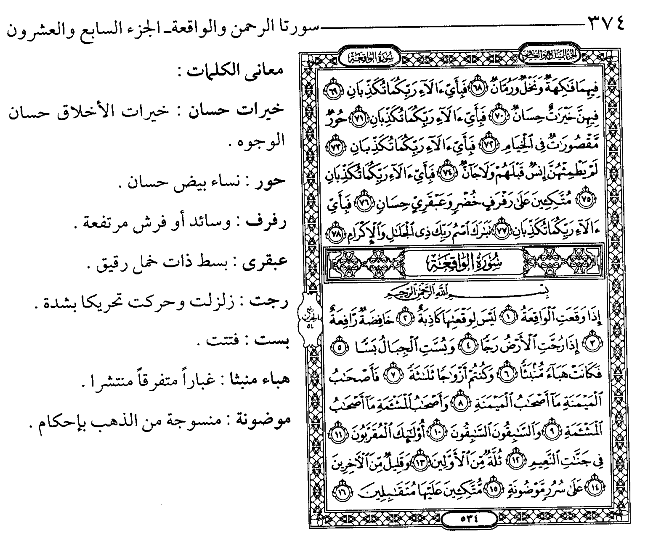
والخوف باب العمل ، والعمل باب الرجاء ، ولكل مرتقى سلم ، ومن أراد النجاة من العذاب والفوز بالجنات فعليه بسلم الخوف والرجاء فهو طريق الوصول .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الجنة درجات متفاوتة فى نعيمها ، وفيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين .

٢ ـ الذلة والمهانة موسوم بهما الكافرون يوم القيامة .

٣ ـ من أراد الجنة والبعد عن النار فعليه بالعمل الذى يبعده عن جهنم ويقربه من الجنة .



معانى الكلمات :

خيرات حسان : خيرات الأخلاق حسان الوجوه .

حور : نساء بيض حسان .

رفرف : وسائد أو فرش مرتفعة .

عبقرى : بسط ذات خمل رقيق .

رجت : زلزلت وحركت تحريكا بشدة .

بست : فتتت .

هباء منبثا : غباراً متفرقاً منتشرا .

موضونة : منسوجة من الذهب بإحكام .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن استعراض آيات الكون وآيات القرآن يؤدى إلى تسبيح وطاعة الجليل سبحانه.

٢ ـ أن نتعرف على صفة القيامة .

٣ ـ أن نعلم مصائر الأزواج الثلاثة السابقين وأصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة .

المحتوى التربوى :

يمضى السياق فى وصف الجنتين الأخريين وما فيهما ، ففيهما فاكهة ونخل ورمان ، وهناك خيرات كثيرة حسنة فى الجنة ، وقيل : هى المرأة الصالحة الحسنة الخلق الحسنة الوجه ، والحور مقصورة الطرف فى الخيام مخدرة ، وتلقى الخيام ظل البداوة ، فهو نعيم بدوى أو يمثل مطالب أهل البداوة ، ولم يفتضهن قبلهم إنس ولا جان .

أما أهل الجنتين فنحن ننظرهما متكئين على الأبسطة وكأنها من صنع عبقر لتقريب وصفها إلى العرب ، وقد كانوا ينسبون كل عجيب إلى وادى الجن : عبقر ، والتعقيب بعد كل صفة للجنتين ونعيمهما هنا وهناك ، بانتزاع الاعتراف بأنه لا يقدر أحد على إنكار نعم الله ، وفى ختام السورة

التى استعرضت آلاء الله فى الكون ، وآلاءه فى الخلق، وآلاءه فى الآخرة ، يجىء الإيقاع الأخير تسبيحا باسم الجليل الكريم ، الذى يفنى كل حى ويبقى وجهه الكريم أنسب ختام لسورة الرحمن .

سورة الواقعة

الواقعة اسم للسورة وبيان لموضوعها معا ، فالقضية الأولى التى تعالجها هى قضية النشأة الآخرة ردا على قول الشاكين فيها ، المشركين بالله ، المكذبين بالقرآن ، ومن ثم تبدأ السورة بوصف القيامة ، وصفها بصفتها التى تنهى كل قول ، وتقطع كل شك ، وتشعر بالجزم فى هذا الأمر .. الواقعة .

وهذا المطلع واضح فيه التهويل فى عرض هذا الحدث الهائل ، وهو يتبع أسلوبا خاصا يلحظ فيه هذا المعنى ، ويتناسق مع مدلولات العبارة ، فمرتين يبدأ بإذ الشرطية يذكر شرطها ولا يذكر جوابها ، ولا يقول : ماذا يكون إذا وقعت الواقعة وقعة صادقة ليس لها كاذبة ، وهى خافضة رافعة ، ولكن يبدأ حديثا جديدا ؛ فإذا حركت تحريكا فاهتزت واضطربت بطولها وعرضها وزلزلت زلزالا ، ومرة أخرى لا يقول ماذا يكون إذا كان هذا الهول العظيم ، فكأنما هذا الهول كله مقدمة لا يذكر نتائجها ؛ لأن نتائجها أهول من أن يحيط بها اللفظ أو تعبر عنها العبارة .

ثم إن سقوط هذا الثقل ووقوعه كأنما يتوقع له الحس أرجحة ورجرجة يحدثها حين يقع ، ويلبى السياق هذا التوقع فيذكر أنها تخفض أقداراً كانت رفيعة فى الأرض ، وترفع أقداراً كانت خفيضة فى دار الفناء ، حيث تختل الاعتبارات والقيم ، ثم تستقيم فى ميزان الله ، ويتبدى الهول فى كيان الأرض فإذا هى ترج رجا ، ثم إذا الجبال الصلبة الراسية تتحول تحت وقع الواقعة إلى فتات يتطاير كالهباء ، وهكذا تبدأ السورة بما يزلزل الكيان البشرى تجاه القضية التى ينكرها المنكرون ويكذب بها المشركون .

وينتهى هذا المشهد الأول للواقعة لنشهد آثارها فى الخفض والرفع وفى أقدار البشر ومصائرهم الأخيرة ، ونجد الناس هنا أصنافا ثلاثة ، ويبدأ الحديث عن أصحاب الميمنة أو أصحاب اليمين، ولكنه لا يفصل عنهم الحديث إنما يصفهم باستفهام عنهم للتهويل والتضخيم، وكذلك يذكر أصحاب المشأمة بنفس الأسلوب ، ثم يذكر الفريق الثالث ، فريق السابقين ، يذكرهم فيصفهم بوصفهم كأنما ليقول إنهم هم هم وكفى ، فهو مقام لا يزيده الوصف شيئا .

ومن ثم يأخذ فى بيان قدرهم عند ربهم ، وتفصيل ما أعده من النعيم لهم ، وتعديد أنواعه التى يمكن أن يدركها حس المخاطبين، وتتناوله معارفهم وتجاربهم؛ إنه يبدأ فى بيان هذا النعيم، بالنعيم الأكبر النعيم الأسنى ، نعيم القرب من ربهم ، وجنان النعيم كلها لا تساوى ذلك التقريب ، ولا تعدل ذلك النصيب ، ومن ثم يقف عند هذه الدرجة ليقول من هم أصحابها ،

إنهم عدد محدود وفريق منتقى ، كثرتهم فى الأولين وقلتهم فى الآخرين ، والأولون والآخرون من أمة محمد ﷺ فالأولون من صدرها ، والآخرون من متأخريها ، وبعد بيان من هم يأخذ فى تفصيل مناعم الجنة التى أعدت لهم وهى بطبيعة الحال المناعم التى فى طوقهم أن يتصوروها ويدركوها ووراءها مناعم أخرى يعرفونها هنالك يوم يتهيؤون لإدراكها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وأصحاب الجنة على سرر مشبكة بالمعادن الثمينة ، متكئين عليها فى راحة وخلو بال من الهموم والمشاغل ، وفى طمأنينة على ما هم فيه من نعيم ، لا خوف من فوته ولا نفاده ، وفى إقبال بعضهم على بعض يتسامرون .

وهذا النعيم الذى تقرأه العيون يزرع فى القلوب الشوق لتفزع فتكون فى رحابه وتكون من أصحابه ، فنعم النعيم هو ، والغافل يضيع منه كل الخير .

يقول ابن القيم رحمه الله فى طريق الهجرتين عن مراتب الشوق ومنازله : « قال صاحب منازل السائرين : هو على ثلاث درجات : الدرجة الأولى : شوق العابد إلى الجنة ليأمن الخائف ويفرح الحزين ويظفر الآمل . والدرجة الثانية : شوق إلى الله عز وجل زرعه الحب الذى ينبت على حافات المنن تعلق قلبه بصفاته المقدسة ، واشتاق إلى معاينة لطائف كرمه وآيات بره وعلامة فضله ، وهذا شوق تغشاه المبار (جمع مبرة وهى البر) وتخالجه المسار (السرور) ويقارنه الاصطبار . والدرجة الثالثة : نار أضرمها صفو المحبة فنغصت العيش وسلبت السلو ، ولم ينهها مقروب اللقاء .

قلت : الدرجة الأولى هى شوق إلى فضل الله وثوابه ، والثانية : شوق إلى لقائه ورؤيته . والثالثة : شوق إليه لا لعلة ولا لسبب ولا ملاحظة فيه غير ذاته ، فالأول : حظه المشتاق من إفضاله وإنعامه ، والثانى : حظ من لقائه ورؤيته ، والثالث : قد فنيت فيه الحظوظ واضمحلت فيه الأقسام » .

فيا أيها المشتاق كن على أى درجة تريد ، واسلك إلى ربك الطريق الرشيد ، واسعد بجنة ربك ورضاه فمن غير السعيد .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ القيامة حق لا شك فيه ، وعندما تقوم تحدث أهوال شديدة ، وتتبدل أوضاع الناس حسب أعمالهم فى الدنيا، ويأخذ كل إنسان حقه غير منقوص .

٢ ـ المؤمنون يوم القيامة درجات متفاوتة ، يوضع كل إنسان فى درجته التى يستحقها .

٣ ـ نعيم الآخرة نعيم عظيم ، وأعظم ما فيه نعيم القرب من الله عز وجل .

يطوف عليهم ولدان مخلدون ﴿١٧﴾ بأكواب وأباريق وكأس من معين
﴿١٨﴾ لا يصدعون عنها ولا ينزفون ﴿١٩﴾ وفاكهة مما يتخيرون
﴿٢٠﴾ ولحم طير مما يشتهون ﴿٢١﴾ وحور عين ﴿٢٢﴾ كأمثال اللؤلؤ
المكنون ﴿٢٣﴾ جزاء بما كانوا يعملون ﴿٢٤﴾ لا يسمعون فيها لغوا ولا
تأثيما ﴿٢٥﴾ إلا قيلا سلاما سلاما ﴿٢٦﴾ وأصحاب اليمين ما أصحاب
اليمين ﴿٢٧﴾ في سدر مخضود ﴿٢٨﴾ وطلح منضود ﴿٢٩﴾ وظل ممدود
﴿٣٠﴾ وماء مسكوب ﴿٣١﴾ وفاكهة كثيرة ﴿٣٢﴾ لا مقطوعة ولا
ممنوعة ﴿٣٣﴾ وفرش مرفوعة ﴿٣٤﴾ إنا أنشأناهن إنشاء ﴿٣٥﴾ فجعلناهن
أبكارا ﴿٣٦﴾ عربا أترابا ﴿٣٧﴾ لأصحاب اليمين ﴿٣٨﴾ ثلة من
الأولين ﴿٣٩﴾ وثلة من الآخرين ﴿٤٠﴾ وأصحاب الشمال ما أصحاب
الشمال ﴿٤١﴾ في سموم وحميم ﴿٤٢﴾ وظل من يحموم ﴿٤٣﴾ لا بارد
ولا كريم ﴿٤٤﴾ إنهم كانوا قبل ذلك مترفين ﴿٤٥﴾ وكانوا يصرون
على الحنث العظيم ﴿٤٦﴾ وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا
وعظاما أئنا لمبعوثون ﴿٤٧﴾ أو آباؤنا الأولون ﴿٤٨﴾ قل إن
الأولين والآخرين ﴿٤٩﴾ لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ﴿٥٠﴾

معانى الكلمات :

أباريق : آنية يوضع فيها الماء ويصب منها .

يصدعون : يصيبهم صداع .

ينزفون : تذهب عقولهم بسببها .

مخضود : شوكه مقطوع .

طلح : شجر الموز أو مثله .

منضود : ثمره متراكم .

سموم : ريح شديدة الحرارة تدخل مسام الجسم .

يحموم : دخان شديد السواد أو نار .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم ما أعده الله من ألوان النعيم والتكريم للسابقين إلى الخيرات .

٢ ـ أن نتعرف على أصحاب المشأمة ، وهم المكذبون الجاحدون .

٣ ـ أن نعلم أن الشرك ظلم عظيم ، والترف داء وبيل وأصحابه فى عذاب أليم .

المحتوى التربوى :

يمضى السياق فى وصف نعيم الفائزين ، فالولدان خدم الجنة لا يفعل فيهم الزمن ، ولا تؤثر فى شبابهم وصباحتهم السن كأشباههم فى الأرض ـ يطوفون عليهم بأكواب وأباريق وكأس من خمر صافية سائغة ، فلا هم يفرقون عنها ولا هى تنفد من بين أيديهم ، فكل شىء هنا للدوام والأمان ، وهنا لا شىء ممنوع ، ولا شىء على غير ما يشتهى السعداء الخالدون ، واللؤلؤ المكنون هو اللؤلؤ المصون ، الذى لم يتعرض للمس والنظر ، فلم تثقبه يد ولم تخدشه عين ، وفى هذا كناية عن معان حسية ونفسية لطيفة فى هؤلاء الحور الواسعات العيون .

وذلك كله مكافأة على عمل كان فى دار العمل ، مكافأة يتحقق فيها الكمال الذى كان ينقص كل المناعم فى دار الفناء ، ثم هم بعد ذلك كله يحيون فى هدوء وسكون ، وفى ترفع وتنزيه عن كل لغو فى الحديث ، وكل جدل وكل مؤاخذة ، وحياتهم كلها سلام ، يرف عليها السلام ، ويشيع فيها السلام ، تسلم عليهم الملائكة فى ذلك الجو الناعم ، ويسلم بعضهم على بعض ، ويبلغهم السلام من الرحمن ، فالجو كله سلام سلام .

فإذا انتهى الحديث عن ذلك الفريق السابق المختار ، بدأ الحديث عن الفريق الذى يليه : فريق أصحاب اليمين ، وأصحاب اليمين هم أصحاب الميمنة الذين أشار إليهم تلك الإشارة المجملة فى أول السورة ، ثم أخر تفصيل نعيمهم إلى موعده هنا بعد السابقين المقربين ، وهو يعيد السؤال عنهم بتلك الصيغة التى تفيد التفخيم والتهويل .

ولأصحابنا هؤلاء نعيم مادى محسوس ، يبدو فى أوصافه شىء من خشونة البداوة ، ويلبى هواتف أهل البداوة حسبما تبلغ مداركهم وتجاربهم من تصور ألوان النعيم ، إنهم فى سدر والسدر شجر النبق الشائك ولكنه هنا مخضود وشوكه منزوع ، وهم فى طلح والطلح : شجر من شجر الحجاز من نوع العضاة فيه شوك ولكنه هنا معد للتناول بلا كد ولا مشقة ، وفيها ظل ممدود لا ينقطع ، ليس فيها شمس ولا حر ، مثل قبل طلوع الفجر ، وفيها ماء مسكوب يجرى فى غير أخدود ، وتلك جميعا من مراتع البدوى كما يطمح إليها خياله ، وتهتف بها أشواقه .

وعندهم فاكهة كثيرة متنوعة فى الألوان ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وهذه الفاكهة لا تنقطع صيفا ولا شتاء ، بل أكلها دائم مستمر أبداً مهما طلبوا وجدوا ، لا يمتنع عليهم بقدرة الله شىء ، وقد تركت الفاكهة مجملة شاملة بغير تفصيل بعد ما ذكر من الأنواع المعروفة لسكان البادية بالتعيين ، وعندهم فرش عالية وطيئة ناعمة ، فهى هنا لا موضونة ولا ناعمة ، وبحسبها أنها مرفوعة ، وللرفع فى الحس معنيان : مادى ومعنوى يستدعى أحدهما الآخر ، ويلتقيان عند الارتفاع فى المكان والطهارة من الدنس ، فالمرفوع على الأرض أبعد عن نجسها ، والمرفوع فى المعنى أبعد عن دنسها .

ولهذا ينتقل السياق من الفرش المرفوعة إلى ذكر من فيها من الأزواج اللاتى يضاجعن فيها ، فذكر نشأتهن إما ابتداء وهن الحور ، وإما استئنافاً وهن الزوجات المبعوثات شواب بعدما كن عجائز ، وأنهن أبكار لم يمسسن ، وهن متحببات إلى أزواجهن ، متوافيات السن والشباب ، وهن مخصصات لأصحاب اليمين .

وأما أصحاب اليمين هؤلاء فهم أكثر عدداً من السابقين المقربين فهم جماعة من الأولين المتقدمين فى الإيمان وممن جاء بعدهم من التابعين لهم بإحسان من هذه الأمة ، والكثرة ظاهرة لوفرة أصحاب اليمين فى أواخرهم دون السابقين .

وينتقل السياق إلى أصحاب الشمال ـ وهم أصحاب المشأمة الذين سبقت الإشارة إليهم فى مطلع السورة ، فلئن كان أصحاب اليمين فى ظل ممدود وماء مسكوب ، فأصحاب الشمال فى هواء حار وماء حار وفى ظل دخان أسود ليس طيب الهبوب ولا حس المنظر ، وكفى به عذابا أليما وإن كان هناك المزيد ؛ فالهواء شواظ ساخن ينفذ إلى المسام ويشوى الأجسام ، والماء متناه فى الحرارة لا يبرد ولا يُروى ، وهناك ظل ولكنه ظل الدخان اللافح الخانق ، إنه ظل للسخرية والتهكم ، ظل ساخن لا روح فيه ، ولا برد ، وهو كذلك كز لا يمنح وارده راحة ولا إنعاشا .

هذا الشظف كله جزاء وفاق ، وما ألم الشظف للمترفين ، فقد كانوا فى الدار الدنيا منعمين مقبلين على لذات أنفسهم ، لا يلوون على ما جاءتهم به الرسل ، وكانوا يصممون ولا ينوون توبة ، والحنث الذنب ، وهو هنا الشرك بالله ، وفيه إلماع إلى الحنث بالعهد الذى أخذه الله على فطرة العباد أن يؤمنوا به ويوحدوه ، وكانوا يكذبون بأنهم إذا ماتوا وكانوا ترابا ورفاتا ـ أنهم مبعوثون مستبعدين لوقوعه وانبعاث آياتهم ، ويعبر القرآن بلفظ كانوا » هكذا وكأنما الدنيا التى فيها المخاطبون قد طويت وانتهت فإذا هى ماض ، والحاضر هذا المشهد وهذا العذاب ، ذلك أن الدنيا كلها ومضة ، وهذا الحاضر هو العقبى والمآب .

وهنا يلتفت السياق إلى الدنيا فى أنسب الأوقات لهذه اللفتة ليرد على سؤالهم ذاك ، فالأولون والآخرون من بنى آدم سيجمعون إلى عرصات القيامة ، لا نغادر منهم أحداً وهذا فى اليوم الحاضر المعروض المشهود .

وهذا وما بعده مما يخلع عن القلوب الأمن والاطمئنان ، ويجعلهم على حذر من سطوة العقاب ، وكيف يطمئن قلبٌ تتراءى أمامه نيران تجل عن الوصف تحاول أن تبتلعه لا لتقضى عليه بل يشوى ويتلوى ثم لا ينتهى هو ولا تنتهى هى ، بل هما زوجان استمكن أحدهما من صاحبه فى ملازمة لا تنفك ، والتصاق يذيب القلب .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ المكذبون بما جاء به الرسول ، والذين ينكرون البعث بعد الموت سوف يعذبون عذابا شديداً بالإضافة إلى عذاب التأنيب والتوبيخ والإذلال والإهانة .

٢ ـ النساء المؤمنات اللائى كن عجائز فى الدنيا يبعثهن الله يوم القيامة فتيات أبكارا فى سن واحدة فى غاية من الحسن والجمال ؛ ليكن زوجات لأهل الجنة مع الحور العين .

٣ ـ يجب أن نستعد فى فرصة وجودنا فى هذه الحياة لنفوز بالجنة ونعيمها ، ولننجوا من العذاب يوم الدين .

ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾
فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ
شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا
تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ
الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾
عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ
عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ
﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ
حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ
﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ
أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ
﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ
نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ
﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ فَلَا أُقْسِمُ
بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾

معانى الكلمات :

زقوم : شجر كريه جدًا فى النار .

الهيم : الإبل العطاش التى لا تروى .

تمنون : المنى الذى تقذفونه فى الأرحام .

تفكهون : تتعجبون من سوء حاله ومصيره .

لمغرمون : مهلكون بهلاك رزقنا .

المزن : السحاب أو الأبيض منه .

تورون : تقدحون الزناد لاستخراجها .

للمقوين : منفعة للمسافرين فى القفر أو المحتاجين إليها .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن تتعرف على إمكانية النشأة الأخرى .

٢ ـ أن نعلم أن استعراض الأشياء المألوفة يلفتنا إليها لنتدبرها ونتعظ بها .

٣ ـ أن نعلم أن على الداعية التقاط الواقع وجعله أساس مادته حتى يتفاعل معه الناس ويؤثر فيهم .

المحتوى التربوى :

يعود السياق إلى ما ينتظر المكذبين ، فيتم صورة العذاب الذى يلقاه المترفون ، فهؤلاء الضالون المكذبون يأكلون من شجرة الزقوم حتى يملؤوا منها بطونهم ، ولا يدرى أحد ما شجرة الزقوم إلا ما وصفها الله به فى سورة أخرى من أن طلعها كرؤوس الشياطين ، ورؤوس الشياطين لم يرها أحد ولكنه يلقى فى الحس ما تلقيه ، ومع أن الزقوم كرؤوس الشياطين فإنهم لآكلون منها ، ويملؤون البطون فالجوع طاغ والمحنة غالبة ، وإن الشوك الخشن ليدفع إلى الماء ولتسليك الحلوق ورى البطون ، وإنهم لشاربون عليه من الماء الساخن الذى لا يبرد غلة ولا يروى ظمأ ، وهم يشربون شرب الإبل المصابة بداء الاستسقاء لا تكاد ترتوى من الماء .

وهذا نزلهم ، والنزل للراحة والاستقرار ، ولكن أصحاب الشمال هذا نزلهم الذى لا راحة فيه ولا قرار ، هذا نزلهم فى اليوم الذى كانوا يشكون فيه ويتساءلون عنه ، ولا يصدقون خبر القرآن به ، كما كانوا يشركون بالله ولا يخافون وعيده بذلك اليوم المشهود .

بهذا ينتهى استعراض المصائر والأقدار ، يوم تقع الواقعة الخافضة الرافعة ، ثم يستهدف بناء العقيدة بكليتها ، وإن كان التوكيد البارز فيه على قضية البعث والنشأة الأخرى ، وفيه تتجلى طريقة القرآن فى مخاطبة الفطرة البشرية ، وفى تناول الدلائل الإيمانية ، وفى التلطف إلى النفوس فى بساطة ويسر ، وهو يتناول أكبر الحقائق فى صورها القريبة الميسورة .

يقول صاحب الظلال : « إن هذا القرآن يجعل من مألوفات البشر وحوادثهم المكرورة ، قضايا كونية كبرى ، يكشف فيها عن النواميس الإلهية فى الوجود ، وينشئ بها عقيدة ضخمة شاملة وتصوراً كاملا لهذا الوجود ، كما يجعل منهجا للنظر والتفكر وحياة للأرواح والقلوب ، ويقظة فى المشاعر والحواس ، يقظة لظواهر هذا الوجود التى تطالع الناس صباح مساء وهم غافلون عنها ، ويقظة لأنفسهم وما يجرى من العجائب والخوارق فيها ، إنه لا يكل الناس إلى الحوادث الفذة الخارقة والمعجزات الخاصة المعدودة ، كذلك لا يكلفهم أن يبحثوا عن الخوارق والمعجزات والآيات والدلائل بعيداً عن أنفسهم ولا عن مألوف حياتهم ، ولا عن الظواهر الكونية القريبة منهم المعروفة لهم ، إنه لا يبعد لهم فى فلسفات معقدة أو مشكلات عقلية عويصة أو تجارب علمية لا يملكها كل أحد ، لكى ينشئ فى نفوسهم عقيدة وتصورًا للكون والحياة قائمًا على هذه العقيدة » .

وأمر النشأة الأولى ونهايتها ، أمر الخلق أمر الموت ، إنه أمر منظور مألوف وواقع فى الحياة فكيف لا يصدقون أن الله خلقهم ، ودور البشر فى أمر هذا الخلق لا يزيد على أن يودع الرجل ما يمنى رحم امرأة، ثم ينقطع عمله وعملها، وتأخذ يد القدرة فى العمل وحدها فى هذا الماء المهين، تعمل وحدها فى خلقه وتنميته وبناء هيكله ، ونفخ الروح فيه .

هذه هى البداية أما النهاية فلا تقل عنها إعجازاً ولا غرابة ، وإن كانت مثلها من مشاهدات البشر المألوفة ، فهذا الموت الذى ينتهى إليه كل حى .. ما هو ؟ وكيف يقع ؟ وأى سلطان له لا يقاوم ؟ إنه قدر الله ، ومن ثم لا يفلت منه أحد ولا يسبقه فيفوته أحد ، وهو حلقة فى سلسلة النشأة التى لابد أن تتكامل لعمارة الأرض والخلافة فيها بعدكم ، والله الذى قدر الموت هو الذى قدر الحياة ، قدر الموت على أن ينشئ أمثال من يموتون ، حتى يأتى الأجل المضروب لهذه الحياة الدنيا ، فإذا انتهت عند الأجل الذى سماه كانت النشأة الأخرى فى ذلك العالم المغيب المجهول الذى لا يدرى عنه البشر إلا ما يخبرهم به الله ، فهلا تتذكرون وتعرفون أن الذى قدر على هذه النشأة قادر على النشأة الأخرى وهى الإعادة بطريق الأولى والأحرى .

وهذا الزرع الذى ينبت بين أيديهم وينمو ويؤتى ثماره ، ما دورهم فيه ؟ إنهم يحرثون ويلقون الحب والبذور التى صنعها الله ، ثم ينتهى دورهم وتأخذ يد القدرة فى عملها المعجز الخارق العجيب ، تأخذ الحبة أو البذرة طريقها لإعادة نوعها ، تبدؤه وتسير فيه سيرة العاقل العارف الخبير بمراحل الطريق الذى لا يخطئ مرة كما يخطئ الإنسان فى عمله ، ثم يقول الناس : زرعنا وهم لم يتجاوزوا الحرث وإلقاء البذور ، ولو وقع هذا لظل الناس يلونون الحديث وينوعونه ويقولون ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴾ غارمون ولكن فضل الله يمنحهم الثمر ، وهى صورة من صور الحياة التى تنشئها القدرة وترعاها ، فماذا فى النشأة الأخرى من غرابة وهذه هى النشأة الأولى ؟

وهذا الماء أصل الحياة ، وعنصرها الذى لا تنشأ إلا به كما قدر الله ما دور الإنسان فيه ؟ دوره أنه يشربه أما الذى أنشأه من عناصره ، وأما الذى أنزله من سحائبه فهو الله سبحانه ، وهو الذى قدر أن يكون عذبا فكان ، ولو شاء الله لجعله أجاجا مالحا لا يستساغ ، ولا ينشئ حياة فهلا يشكرون فضل الله الذى أجرى مشيئته بما كان ؟

ولقد كان كشف الإنسان للنار حادثا عظيما فى حياته ، والإنسان يورى النار ويوقدها ، ولكن من الذى أنشأ وقودها ؟ من الذى أنشأ الشجر الذى توقد به النار ؟ ولقد مر حديث الزرع ، والشجر من هذا الزرع ، على أن هناك لفتة أخرى فى ذكر شجرتها ، فمن احتكاك فرع من شجرة بفرع آخر من شجرة أخرى كان العرب يوقدون نارهم على الطريقة البدائية التى لا تزال مستعملة فى البيئات البدائية حتى الآن ،وبمناسبة ذكر النار يلمح السياق إلى النار الآخرة، فهى تذكر بالنار الأخرى كما جعلناها للمسافرين متاعا للحاضر أيضا فكل طعام لا يصلحه إلا النار.

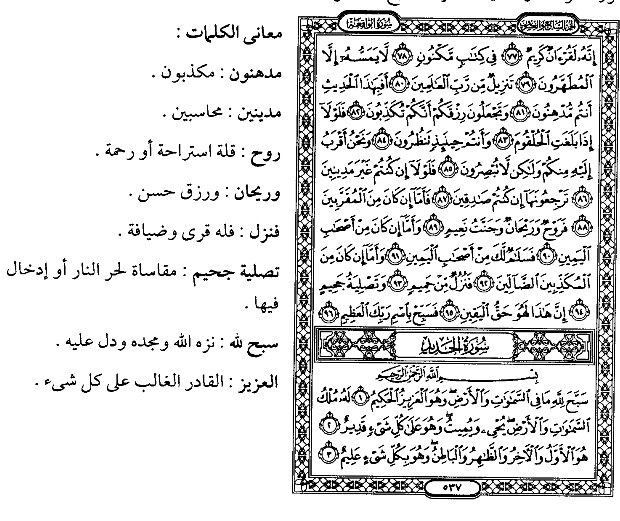
ثم يلتفت التفاتة أخرى إلى المكذبين بهذا القرآن ، فيربط بينه وبين هذا الكون فى قسم عظيم من رب العالمين ، ولم يكن المخاطبون يومذاك يعرفون عن مواقع النجوم إلا القليل الذى يدركونه بعيونهم المجردة ، ومن ثم قال لهم : إن عظمة هذا القسم لو يعلمون كبيرة ، ونحن اليوم مع علمنا لا نعلم إلا القليل عن عظمة مواقع النجوم .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ تتجلى قدرة الله فى خلق الناس ، وفى زرعهم وفى الماء الذى يشربون ، وفى النار التى يوقدون .

٢ ـ العقيدة الإسلامية سهلة واضحة ميسرة لكل من فتح قلبه وعقله لتلقى هداية الله عز وجل .

٣ ـ المسلم لا ينفك عن واقعه بل يلتقط كل كبيرة وصغيرة ليؤثر بها فى الناس وليلفت نظر الناس إلى ما هم عنه غافلون .



معانى الكلمات :

مدهنون : مكذبون .

مدينين : محاسبين .

روح : قلة استراحة أو رحمة .

وريحان : ورزق حسن .

فنزل : فله قرى وضيافة .

تصلية جحيم : مقاساة لحر النار أو إدخال فيها .

سبح لله : نزه الله ومجده ودل عليه .

العزيز : القادر الغالب على كل شىء .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على مشهد الموت ساعة خروج الروح من الجسد .

٢ ـ أن تعرف على مصير السابقين إلى الخيرات وأصحاب اليمين ، وعقاب الذين كذبوا وضلوا .

٣ ـ أن نعلم تسبيح الكون كله لله ، وأنه خاضع له ومطيع .

المحتوى التربوى :

يعلن السياق أن هذا الكتاب قرآن كريم ، وليس كما تدعون قول كاهن ، ولا قول مجنون ، ولا مفترى على الله من أساطير الأولين ، ولا تنزلت به الشياطين . إلى آخر هذه الأقاويل ، إنما هو قرآن كريم ، كريم بمصدره ، وكريم بذاته ، وكريم باتجاهاته ، وهو فى كتاب مصون ، وقد زعم المشركون أن الشياطين تنزلت به فهذا نفى لهذا الزعم ، فالشيطان لا يمس هذا الكتاب المكنون فى علم الله وحفظه إنما تنزلت به الملائكة المطهرون ، وهو تنزيل من رب العالمين لا تنزيل من الشياطين .

ثم يأتى الختام بلحظة الموت ، اللمسة التى ترجف لها الأوصال ، واللحظة التى تنهى كل جدال ، واللحظة التى يقف فيها الحى بين نهاية طريق وبداية طريق ، حيث لا يملك الرجوع ولا يملك النكوص ، ولا يكون هناك إلا قول الحقيقة : أفأنتم شاكون فى هذا الحديث الذى يقال لكم عن النشأة الآخرة ، مكذبون بالقرآن وما يقصه عليكم من شأن الآخرة ، وما يقرره لكم من أمور العقيدة ؟ وإذا التكذيب هو رزقكم الذى تحصلون عليه فى حياتكم وتدخرونه لآخرتكم ؟ وما أسوأه من رزق ! فماذا أنتم فاعلون إذ تبلغ الحلقوم وتقفون فى مفرق الطريق المجهول ؟

وهنا فى هذه اللحظة وقد فرغت الروح من أمر الدنيا ، وخلفت وراءها الأرض وما فيها ، وهى تستقبل عالما لا عهد لها به ، ولا تملك من أمره شيئا إلا ما ادخرت من عمل ، وما كسبت من خير أو شر ، هنا تقف قدرة البشر ، ويقف علم البشر ، وينتهى مجال البشر ، وتنفرد القدرة الألهية ن والعلم الإلهى ويخلص الأمر كله لله بلا شائبة ولا شبهة ولا جدال ولا محال ، ويجلل الموقف جلال الله ، ورهبة حضوره سبحانه وتعالى وهو حاضر فى كل وقت .

ويجيء التحدى الذى يقطع كل قول وينهى كل جدال ؛ فلو كان الأمر كما يقولون : إنه لا حساب ولا جزاء ، فأنتم إذن طلقاء غير مدينين ولا محاسبين ، قدوتكم إذن فلترجعوها ـ وقد بلغت الحلقوم ـ لتردوها عما هى ذاهبة إليه من حساب وجزاء وأنتم حولها تنظرون ، وهى ماضية إلى الدينونة الكبرى وأنتم ساكنون عاجزون ، وهنا تنقطع كل حجة وينتهى كل جدال .

ثم يمضى السياق فى بيان مصير هذه الروح وهى تستدبر الحياة الفانية،وتستقبل الحياة الباقية، فأما إن كان المحتضر من المقربين وهم الذين فعلوا الواجبات والمستحبات ، وتركوا المحرمات والمكروهات وبعض المباحات فلهم راحة وريحان ورزق تبشرهم الملائكة بذلك عند الموت وأما إن كان من أصحاب اليمين فيلتفت بالخطاب إليه يبلغه سلام إخوانه من أصحاب اليمين وما أندى السلام عندئذ وما أحبه حين يتلقاه وقد بلغت الحلقوم ، فيطمئن باله ويشعر بالأنس فى الصحبة مع أصحاب اليمين ، وأما إن كان المحتضر من المكذبين بالحق ، الضالين عن الهدى فضيافته من ماء مذاب يصهر به ما فى بطونهم والجلود، وما أسوأه من نزل، ومثوى، ذلك الحميم الساخن ، وما أشده عذابا ذلك الحميم ، يتراءى له ويعلم أنه ملاقيه عن يقين ، وهو لا مرية فيه ولا محيد لأحد عنه ، وهذا اليقين الثابت الجازم من اتجاه إلى الله بالتسبيح والتعظيم .

سورة الحديد

يقول صاحب الظلال : « هذه السورة بجملتها دعوة للجماعة الإسلامية كى تحقق فى ذاتها حقيقة إيمانها ، هذه الحقيقة التى تخلص بها النفوس لدعوة الله ، فلا تضن عليها بشىء ، ولا تحتجز دونها شيئا ، لا الأرواح ولا الأموال ولا خلجات القلوب ، ولا ذرات الصدور ، وهى الحقيقة التى تستحيل بها النفوس ربانية بينما تعيش على الأرض موازينها هى موازين الله والقيم

التى تعتد بها وتسابق إليها هى القيم التى تثقل فى هذه الموازين كما أنها هى الحقيقة التى تشعر القلوب بحقيقة الله فتخشع لذكره ، وترجف وتفر من كل عائق وكل جاذب يعوقها عن الفرار إليه » .

وينطلق النص القرآنى الكريم فى مفتتح السورة ، فتتجاوب أرجاء الوجود كله بالتسبيح لله ، فيسمعه كل شىء فى السموات والأرض ، فيسمعه كل قلب مفتوح غير محجوب بأحجبة الفناء ولا حاجة لتأويل النص عن ظاهر مدلوله ، ولنا أن نأخذ من هذا أن كل ما فى السموات والأرض له روح ، بها إلى خالقه بالتسبيح وإن هذا لهو أقرب تصوير يصدقه ما وردت به الآثار الصحيحة ، كما تصدقه تجارب بعض القلوب فى لحظات صفائها وإشراقها ، واتصالها بالحقيقة الكامنة فى الأشياء وراء أشكالها ومظاهرها،وتسبيح ما فى الموات والأرض له فرع عن العزة الغالبة والحكمة البالغة فهو المهيمن على كل شىء بقوته وهو جاعل كل شىء وفق حكمته، وهو المالك المتصرف فى خلقه فيحيى ويميت ن ويعطى من يشاء ، ولا يكون إلا قدره الذى قضاه ، والمشيئة المطلقة تمضى بغير حد ولا قيد ، وتتعلق بما تشاء أن تتعلق به كما تشاء ، وتمثل للقلب البشرى من خلال هذه الآية سلطان الله المطلق فى ملكه الذى لا شريك له فيه والذى يتوجه إليه سبحانه بالتسبيح وحق له أن يتوجه ، وحق عليه أن يسبح .

وما يكاد يفيق من تصور هذه الحقيقة حتى تطالعه حقيقة أخرى ؛ حقيقة ألا كينونة لشىء فى هذا الوجود على الحقيقة ، فالكينونة الواحدة الحقيقية هى لله وحده سبحانه ، ومن ثم فهى محيطة بكل شئ عليمة بكل شىء ، فهو الأول فليس قبله شىء ، والآخر فليس بعده شىء ، والظاهر فليس فوقه شىء ، والباطن فليس دونه شىء الأول والآخر مستفرقًا كل حقيقته الزمان والظاهر والباطن مستغرقًا كل حقيقة المكان ، وهما مطلقتان ، ويتلفت القلب البشرى فلا يجد كينونة لشىء إلا لله والله له علم الحقيقة الكاملة بكل شىء ، هذا العلم الذى لا يشاركه أحد فى نوعه وصفته وطريقته مهما علم المخلوقون عن ظواهر الأشياء ، وإذا استقرت هذه الحقيقة الكبرى فى قلب ، فما احتفاله بشىء فى هذا الكون غير الله سبحانه ؟ وحق لكل مخلوق أن يتوجه إليه .

ماترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ القرآن الكريم ليس بقول كاهن ولا شاعر وإنما هو من عند الله لنتخذه نهجا متكاملا فى حياتنا .

٢ ـ فى لحظة الاحتضار يرى الإنسان مقعده من الجنة أو النار .

٣ ـ الكون كله بما فيه ومن فيه يسبح لله رب العالمين فأين أنت أيها الإنسان من هذا التسبيح؟!

الجزء السابع والعشرون — سورة الحديد

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾

٥٣٨

معانى الكلمات :

يلج : يدخل .

يعرج : يصعد .

أنفقوا : تصدقوا .

ميثاقكم : العهد المؤكد .

يستوى : يتساوى .

الفتح : فتح مكة .

يقرض: ينفق ماله فى سبيل الله طلبا لثوابه .

قرضا حسنا : محتسبا به ، طيبة به نفسه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن كل أمر فى هذا الكون مرده إلى الله تعالى .

٢ ـ أن نعلم أن الإيمان عقيدة فى القلوب وترجمة فى السلوك .

٣ ـ أن نعلم أن الفضل للسابق ، وللناس منازلهم .

المحتوى التربوى :

بعد إطلاق تلك الحقيقة الكبرى ، حقيقة ألا كينونة لشىء فى هذا الوجود على الحقيقة ، فالكينونة الواحدة الحقيقية هى لله وحده ـ سبحانه ـ جعل يذكر كيف انبثقت منها حقائق الوجود الأخرى ؛ حقيقة خلق السموات والأرض ، وحقيقة الاستواء على العرش والهيمنة على الخلق ، وحقيقة العلم بأشياء بعينها من هذا الخلق ، وحقيقة الوجود مع كل أحد أينما وجد ، وحقيقة رجعة الأمور إليه وحده ، وحقيقة تصرفه اللطيف فى كيان الوجود ، وعلمه الخفى بذات الصدور .

والسموات والأرض تروعه بضخامتها وجلالها كما تواجهه وتروعه بدقة نظامها وانضباط حركاتها ، ثم إنها خلائق من خلق الله كالقلب البشرى ، وهى تقول له : إن الذى خلقها هو الذى خلقه ، وهى تسبح لخالقها فليسبح لخالقه، كما تقول له : إنها تستمد حقيقة وجودها من

وجود خالقها وأنه هو كذلك ، فليس هنالك إذن إلا هذه الحقيقة تستحق الاحتفال بها ، والأيام الستة لا يعلم حقيقتها إلا الله فأيامنا هذه ناشئة عن حركة الأرض حول نفسها أمام الشمس وجدت بعد خلق الأرض والشمس ، فليست هى الأيام التى خلق الله فيها السموات والأرض وكذلك العرش ، فنحن نؤمن به كما ذكره ولا نعلم حقيقته فقد أنشأ السموات السبع والأرض فدبرهن وما فيهن ثم استوى على عرشه استواءً منزها عن الكيفية جلّ ربى وتقدس .

وفى كل لحظة يلج فى الأرض ما لا عداد له ، ولا حصر من شتى أنواع الأحياء والأشياء ، ويخرج منها ما لا عداد ولا حصر من خلائق لا يعلمها إلا الله ، وفى كل لحظة ينزل من السماء من الأمطار والأشعة والنيازك والشهب ، والملائكة والأقدار والأسرار ، ويعرج فيها كذلك من المنظور والمستور ما لا يحصيه إلا الله ، وبينما القلب فى تلفته ذاك فى الأرض ، إذا القرآن يرده إلى ذاته ، ويلمسه فى صميمه ، وإذا هو يجد الله معه ، ناظراً إليه ، مطلعا عليه ، بصيراً بعمله ، قريبا جد قريب ؛ فالله سبحانه مع كل أحد ومع كل شىء ، فى كل وقت وفى كل مكان ، مطلع على ما يعمل بصير بالعباد .

ومرة أخرى يعود إلى ملكية السموات والأرض فى مجال آخر غير الذى وردت فيه أول مرة ، ففى المرة الأولى جاء ذكرها فى معرض الإحياء والإماتة والقدرة المطلقة ، وهنا يجىء ذكرها فى معرض رجعة الأمور كلها إلى الله ، وهى متصلة بملكية الله للسموات والأرض ومكملة لحقيقتها ، والشعور بهذه الحقيقة يحرس القلب من كل لفتة لغير الله فى أى أمر ، فى أول الأمر وفى آخره ، ويحميه من التطلع لغير الله فى أى طلب ، ومراقبة غير الله فى أى عمل ، ويقيمه على الطريق إلى الله فى سره وعلنه ، وحركته وسكونه ، وخوالجه ونجواه ، وهو يعلم أن لا مهرب من الله إلا إليه ، ولا ملجأ منه إلا إلى حماه .

ودخول الليل فى النهار ، ودخول النهار فى الليل ، حركة دائبة ، وهى فى الوقت ذاته حركة لطيفة سواء كان المعنى طول الليل وأخذه من النهار ، وطول النهار وأخذه من الليل ، أو كان المعنى مجرد تداخل الليل فى النهار عند الغروب ، وتداخل النهار فى الليل عند الشروق ، ومثل هذه الحركة فى خفائها ولطفها ، حركة العلم بذات الصدور وذات الصدور هى الأسرار المصاحبة لها التى لا تفارقها ولا تبرحها .

ويجىء الهتاف للقلوب بالإيمان والبذل وقد تفتحت مداخلها وتوفرت مشاعرها، واستعدت للاستماع ، يجىء هذا الهتاف ومعه مؤثراته وإيقاعاته ولمساته ، فالله سبحانه يخاطب القلوب التى خلقها ، فهو يعلم أحوالها ويعرف مداخلها ، ويطلع على خوافيها ، وهو يعلم أن نقاء العقيدة وخلوص القلب ، واستقرار حقيقة الإيمان استقراراً تنبثق منه آثاره ونتائجه فى واقع الحياة من بذل وتضحية وتقدمة خالصة لله ، إن هذا أمر يكلف الطاقة البشرية كثيراً، ويحتاج منها إلى جهد ومجاهدة طويلة .

والمخاطبون هنا هم مسلمون،ولكنهم يدعون إلى الإيمان بالله ورسوله، فهى إذن حقيقة الإيمان يدعون لتحقيقها فى قلوبهم بمعناها ، وهى لفتة دقيقة وهم يدعون إلى الإنفاق ، ومع

الدعوة لمسة موحية فهم لا ينفقون من عند أنفسهم،إنما ينفقون مما استخلفهم الله فيه من ملكه، وهو مالك السموات والأرض فهو الذى استخلف بنى آدم جملة فى شىء من ملكه ، وهو الذى يحيى ويميت فهو الذى استخلف جيلا منهم بعد جيل،ويخاطبهم بمؤثر جديد يخجلهم من كرم الله ويطمعهم فى فضله ، فكيف يتخلف عن الإيمان والبذل فى مواجهة هذا الكرم والفضل ؟

ويلح على قلوبهم بموحيات الإيمان وموجباته من واقع حياتهم وملابساتها ، فما الذى يعوقهم عن الإيمان ـ حق الإيمان ـ وفيهم الرسول يدعوهم إلى الإيمان ، وقد بايعوه عليه وأعطوه ميثاقهم ؟ وما الذى يعوقهم عن الإيمان بالله وهو ينزل على عبده آيات بينات تخرجهم من ظلمات الضلال والشك والحيرة إلى نور الهدى واليقين والطمأنينة ؟ وفى هذا وذاك من دلائل الرأفة والرحمة بهم ما فيه .

ثم ينتقل بهم من موحيات الإيمان وموجباته إلى موحيات الإنفاق وموجباته فى توكيد وتكرير ، وفى هذه الإشارة عودة إلى حقيقة أن الله له ميراث السموات والأرض وملكه راجع إليه، وما استخلفوا فيه إذن سيؤول إليه فى الميراث ، فما لهم لا ينفقون فى سبيله حين يدعوهم إلى الإنفاق وهو استخلفهم فيه كما قال لهم هناك ، وكله عائد إليه كما يقول لهم هنا ؟ وما الذى يبقى من دواعى الشح وهواتف البخل أمام هذه الحقائق فى هذا الخطاب ؟

ولقد بذلت الحفنة المصطفاة من المهاجرين والأنصار ما وسعها من النفس والمال فى ساعة العسرة والشدة والذى ينفق ويقاتل والعقيدة مطاردة ، غير الذى ينفق ويقاتل والعقيدة آمنة .

قال القاسمى: « قال السيوطى فى الإكليل : فى الآية دليل على أن للصحابة مراتب ، وأن الفضل للسابق ، وعلى تنزيل الناس منازلهم وعلى أن أفضلية العمل على قدر رجوع منفعته إلى الإسلام والمسلمين ؛ لأن الأجر على قدر النصب » .

ويقرر السياق أن للجميع الحسنى ، فقد أحسنوا جميعا على تفاوت ما بينهم فى الدرجات والله بأعمالهم عليم ، وخبير بحقيقة ما يعملون ، وندب الله إلى الإنفاق فى سبيله فمن ذا الذى ينفق ماله فى سبيله تعالى رجاء أن يعوضه فإنه كمن يقرضه ، والله يعطى الثواب أضعافا مضاعفة وللمنفق جزاء شريف جميل .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الله سبحانه مطلع على ما يعمل كل إنسان وهو بصير بعباده ، وعلى المسلم أن يكون فى حذر وخشية دائمة مع الحياء والخجل من كل عمل قبيح وقول ردىء ، وفى نفس الوقت يكون فى أنس من الله ومن كان الله معه لا يحزن.

٢ ـ المسلمون مدعون إلى أن يفضلوا قيم الآخرة على قيم الدنيا ؛ لأن قيم الآخرة هى الباقية .

٣ ـ الإنفاق فى سبيل الله مطلوب من المسلمين وثمرة من ثمرات الإيمان والخشوع لله .

يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم (١٢) يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب (١٣) ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور (١٤) فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير (١٥) ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون (١٦) اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون (١٧) إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضا حسنا يضاعف لهم ولهم أجر كريم (١٨)

معانى الكلمات :

انظرونا : انتظرونا .

نقتبس : نُصِبْ ونأخذ ونستضىء .

بسور : بحاجز بين الجنة والنار .

فتنتم أنفسكم : أهلكتموها بالنفاق .

تربصتم : انتظرتم نزول المصائب .

وغرتكم الأمانى : خدعتكم الأباطيل .

الغرور : الشيطان وكل خادع .

الأمد : الأجل أو الزمان .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على أحوال المؤمنين يوم القيامة .

٢ ـ أن نعلم صفات المنافقين وسوء مصيرهم .

٣ ـ أن نعلم فوائد التذكير للمؤمنين والوعظ والإرشاد .

المحتوى التربوى :

يعرض السياق للمؤمنين صفحة وضيئة من الأجر الكريم فى مشهد من مشاهد اليوم الذى يكون فيه ذلك الأجر الكريم ؛ فهؤلاء هم المؤمنون والمؤمنات نراهم ، ولكننا نرى بين أيديهم وبأيمانهم إشعاعا لطيفا هادئا ، ذلك نورهم يشع منهم ويفيض بين أيديهم ، فهذه الشخوص الإنسانية قد أشرقت وأضاءت وأشعت نوراً يمتد منها فيرى أمامها ويرى عن يمينها ، إنه النور الذى أخرجها الله إليه وبه من الظلمات ، والذى أشرق فى أرواحها فغلب على طينتها .

ثم ها نحن أولاء نسمع ما يوجه إلى المؤمنين من تكريم وتبشير ، فالبشارة لهم يومها بجنات تجرى من تحتها الأنهار ماكثين فيها أبداً وهو الفوز العظيم الذى ليس بعده فوز ، والمشهد لا

ينتهى فهناك المنافقون والمنافقات فى حيرة وضلال ، وفى مهانة وإهمال ، وهم يتعلقون بأذيال المؤمنين والمؤمنات ويقولون لهم : انتظرونا وهم يتبعونهم حتى يصيبوا من هذا النور ، ولكن أنى للمنافقين أن يقتبسوا من هذا النور وقد عاشوا حياتهم كلها فى الظلام ؟ إن صوتا مجهلا يناديهم : ارجعوا وراءكم إلى الدنيا إلى ما كنتم تعملون ، ارجعوا فالنور يلتمس من هناك من العمل فى الدنيا ، ارجعوا فليس اليوم يلتمس النور .

وعلى الفور يفصل بين المؤمنين والمؤمنات والمنافقين والمنافقات ، فهذا يوم الفصل إن كانوا فى الدنيا مختلطين فى الجماعة يضرب بينهم بسور ، ويبدو أنه سور يمنع الرؤية ولكنه لا يمنع الصوت ، فها هم أولاء المنافقون ينادون المؤمنين : ألم نكن معكم ؟ فما بالنا نفترق عنكم؟ألم نكن معكم فى الدنيا نعيش فى صعيد واحد وقد بعثنا معكم هنا فى صعيد واحد ؟ ! والأمر كذلك ولكنكم صرفتكم أنفسكم عن الهدى وانتظرتم وأخرتم التوبة من وقت إلى وقت ولم تعزموا ولم تختاروا الخيرة الحاسمة ، ولم يكن لكم من اليقين ما تعزمون به العزمة الأخيرة ، وخدعتكم الأباطيل فى أن تنجوا وتربحوا بالذبذبة ، وإمساك العصا من طرفيها حتى جاء أمر الله وانتهى الأمر ، وقد خدعكم الشيطان الذى كان يطمعكم ويمنيكم ثم يستطرد المؤمنون فى التذكير والتقرير ، كأنهم هم أصحاب الموقف المحكمون فيه، فيوبخون هؤلاء المنافقين فيقولون لهم:لو جاء أحدكم بملء الأرض ذهبا ومثله معه ليفتدى به من عذاب الله ما قبل منه،ولعل هذه الكلمة كلمة الملأ الأعلى، أو نطق الله الكريم .

ثم يتوجه العتاب من الله سبحانه للمؤمنين ، الذين لم يصلوا إلى تلك المرتبة التى يريدها الله لهم ، وتلويح لهم بما كان من أهل الكتاب قبلهم من قسوة فى القلوب وفسق فى الأعمال ، وتحذير من هذا المآل الذى انتهى إليه أهل الكتاب بطول الأمد عليهم مع إطماعهم فى عون الله الذى يحيى القلوب كما يحيى الأرض بعد موتها ، وهو عتاب مؤثر من المولى الكريم الرحيم واستبطاء للاستجابة الكاملة من تلك القلوب التى أفاض عليها من فضله ، فبعث فيها الرسول يدعوها إلى الإيمان بربها ، ونزّل عليه الآيات البينات ليخرجها من الظلمات إلى النور ، وأراها من آياته فى الكون والخلق ما يبصّر ويحذّر .

عتَاب فيه الود ، وفيه الحض ، وفيه الاستجاشة إلى الشعور بجلال الله والخشوع لذكره ، وتلقى ما نزل من الحق بما يليق بجلال الحق من الروعة والخشية والطاعة والاستسلام مع رائحة التنديد والاستبطاء فى السؤال ، وإلى جانب التحضيض والاستبطاء تحذير من عاقبة التباطؤ والتقاعس عن الاستجابة ، وبيان لما يغشى القلوب من الصدأ حين يمتد بها الزمن بدون جلاء ، وما تنتهى إليه القسوة بعد اللين حين تغفل عن ذكر الله ، وحين لا تخشع للحق ، ولابد من تذكير

هذا القلب حتى يذكر ويخشع ولا بد من الطرق عليه حتى يرق ويشف ولا بد من اليقظة الدائمة كى لا يصيبه التبلد والقساوة، وليس وراء قسوة القلوب إلا الفسق والخروج.

والله يلين القلوب بعد قسوتها فلا بأس من قلب خمد وجمد، وقسا وتبلد، فإنه يمكن أن تدب فيه الحياة وأن يشرق فيه النور وأن يخشع لذكر الله، فالله يحيى الأرض بعد موتها فتنبض بالحياة، وكذلك القلوب حين يشاء الله، وفى هذا القرآن ما يحيى القلوب كما تحيا الأرض وما يمدها بالغذاء والرى والدفء، ولعلكم تثوبون إلى عقولكم ومراشدكم.

ويتبع السياق هذه اللمسة المحيية، وذلك العتاب المخجل، وذاك التذكير والتحذير، بحافز جديد للبذل والفداء؛ فالمتصدقون والمتصدقات لا يتفضلون على آخذى الصدقات، ولا يتعاملون فى هذا مع الناس، إنما هم يقرضون الله ويتعاملون مباشرة معه، فأى حافز للصدقة أوقع وأعمق من شعور المعطى بأنه يقرض الغنى الحميد، وأنه يتعامل مع مالك الوجود؟ وأن ما ينفقه مخلف عليه مضاعفا، وأن له بعد ذلك كله أجراً كريما؟

وتكررت الدعوة إلى إقراض الله قرضا حسنا، مع بيان ما أعده الله لمن يقرضونه فى الدنيا من العوض المضاعف والأجر الكريم، وكان التكرار لأن هذا الأمر يكلف الطاقة البشرية كثيراً، ويحتاج منها إلى جهد ومجاهدة طويلة، ولقد ضربت الحفنة المصطفاة من السابقين المثل الرائع، وكأن البذل منهم كان خالصا لا تشوبه شائبة من طمع فى عوض من الأرض، ولا من رياء أمام كثرة غالبة من أهل الإسلام، كان بذلاً منبثقا عن خيرة اختاروها عند الله، وعن حمية لهذه العقيدة التى اعتنقوها وآثروها على كل شىء، وعلى أرواحهم وأموالهم جميعا.

وهذا التكرار والتأكيد على الإنفاق لكفيل بأن يطير به إلى البذل طيرانا، وإن الناس ليتسابقون عادة إلى إقراض الثرى الملىء منهم ـ وهم كلهم فقراء ـ لأن السداد مضمون، ولهم الاعتزاز بأن أقرضوا ذلك الثرى الملىء، فكيف إذا كانوا يقرضون الغنى الحميد؟!

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا:

١ ـ المال فى الحقيقة هو مال الله تعالى ـ ونحن مفوضون للتصرف فيه ومحاسبون عليه.

٢ ـ لا فرق فى الجزاء على الأعمال بين ذكر وأنثى؛ لأن الجميع من نفس واحدة.

٣ ـ المنافقون أشد خطراً على المسلمين من الكافرين؛ لأن عداوتهم غير ظاهرة وهم غير معروفين للمسلمين.

سورة الحديد — الجزء السابع والعشرون

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ۖ وَالشُّهَدَاءُ
عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٩) اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ
الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ
وَالْأَوْلَادِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ
مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ۖ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ
مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۚ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠)
سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ
اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢١) مَا أَصَابَ
مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ
مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِّكَيْلَا
تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ
لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ
النَّاسَ بِالْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٤)

٥٤٠

معانى الكلمات :

تكاثر : مباهاة وتطاول بالعدد والعُدد .

الكفار : الزراع .

يهيج : ييبس فى أقصى غايته .

حطاما : فتاتا متكسراً بعد يبسه .

نبرأها : نخلق هذه الكائنات .

تأسوا : تحزنوا حزن قنوط .

تفرحوا : فرح بطر واختيال .

مختال : متكبر متطاول على الناس .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن الإسلام لا مجال فيه للطبقات المحفوظة المقام .

٢ ـ أن نعلم أن متاع الدنيا يستمد قوامه من الغرور الخادع .

٣ ـ أن نستشعر الإيمان بقضاء الله وقدره .

المحتوى التربوى :

مقام الصديقين مقام رفيع كما تصوره الأحاديث النبوية الشريفة ، ومع علو هذا المقام فهو بفضل الله ميسور لمن أراده ، وليس وقفا على أفراد ولا على طائفة ، فكل من يحقق إيمانه بالله ورسله يطمع فى هذا المقام الرفيع ، ولا حجرعلى فضل الله ، وتلك خاصية هذا الدين وميزته ، إنه طريق مفتوح لجميع البشر ، وأفق يتطلع إليه الجميع ، ليس فيه احتكار للمقامات ، وليس فيه خصوصيات محجوزة لأناس بأعيانهم ، وليس إلا العمل يصعد بصاحبه إلى أرقى الدرجات ، إنه دين لا مجال فيه للطبقات المحفوظة المقام .

وهذه لمسة الإيمان ، فأما لمسة الفداء ، فالحديث عن مقام الشهداء ، فهذا الدين لا يقوم بغير حراسة ، ولا يتحقق فى الأرض بغير جهاد ، جهاد لتأمين العقيدة وتأمين الدعوة وحماية أهله من

الفتنة وشريعته من الفساد ، ومن ثم كان للشهداء فى سبيل الله مقامهم ، وكان لهم قربهم من ربهم، وإذا كان هذا حال السعداء من الصديقين والشهداء، فمن ذا الذى يترك الكرامة والنعيم ، ويختار أن يكون من أصحاب الجحيم ، إلا الكافرين المكذبين .

ويعقب السياق بتصوير الدنيا بصورة هزيلة زهيدة تهون من شأنها وترفع النفوس عنها ، وتعلقها بالآخرة وقيمها ، والحياة الدنيا حين تقاس بمقاييسها هى وتوزن بموازينها تبدو فى العين وفى الحس أمراً عظيما هائلا ، ولكنها حين تقاس الوجود وتوزن بميزان الآخرة تبدو شيئا زهيداً تافها ، وهى هنا فى هذا التصوير تبدو ولعبة أطفال بالقياس إلى ما فى الآخرة من جد تنتهى إليه مصائر أهلها بعد لعبة الحياة ، لعب ولهو وزينة .وتفاخر . وتكاثر ، هذه هى الحقيقة وراء كل ما يبدو فيها من جد حافل واهتمام شاغل .

ثم يمضى السياق فيضرب لها مثلاً مصوراً ؛ تمثل الحياة الدنيا فى أنها زهرة فانية ونعمة زائلة كمثل المطر الذى يأتى بعد قنوط الناس ، فيعجب الزراع نبات ذلك الزرع الذى ينبت بالغيث ، وكما يعجب الزراع ذلك ، كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفار ، فإنهم أحرص شىء عليها وأميل الناس إليها ، وهذا الزرع يهيج فتراه مصفراً بعد ما كان خضراً نضراً ثم يكون بعد ذلك حطاما وهكذا الحياة الدنيا تكون أولا شابة ثم تكتهل ، ثم تكون عجوزاً شوهاء ، والإنسان كذلك يكون فى أول عمره وعنفوان شبابه غضا طريا لين الأعطاف بهى المنظر ، ثم إنه يشرع فى الكهولة فتتغير طباعه ويفقد بعض قواه ، ثم يكبر فيصير شيخا كبيراً ، ضعيف القوى قليل الحركة ، يعجزه الشىء اليسير ، وهكذا ينتهى شريط الحياة بهذه الصورة المتحركة التى تنتهى بمشهد الحطام .

فأما الآخرة فلها شأن غير هذا الشأن ، شأن يستحق أن يحسب حسابه ، وينظر إليه ويستعد له ، فهى لا تنتهى فى لمحة كما تنتهى الحياة الدنيا ، إنها حساب وجزاء ودوام .

يقول صاحب **الظلال** عن متاع الحياة : « فما لهذا المتاع حقيقة ذاتية ، إنما يستمد قوامه من الغرور الخادع ، كما أنه يلهى وينسى فينتهى بأهله إلى غرور خادع ، وهى حقيقة حين يتعمق القلب فى طلب الحقيقة ، حقيقة لا يقصد بها القرآن العزلة عن حياة الأرض ، ولا إهمال عمارتها وخلافتها التى ناطها بهذا الكائن البشرى ، إنما يقصد بها تصحيح المقاييس الشعورية والقيم النفسية ، والاستعلاء على غرور المتاع الزائل وجاذبيته المقيدة بالأرض ، هذا الاستعلاء الذى يحتاج إليه كل مؤمن بعقيدة ليحقق عقيدته ، ولو اقتضى تحقيقها أن يضحى بهذه الحياة الدنيا جميعا » .

ومن ثم يدعوهم إلى السباق فى ميدان السباق الحقيقى للغاية التى تستحق السباق ، الغاية التى تنتهى إليها مصائرهم ، والتى تلازمهم بعد ذلك فى عالم البقاء ،و كان الحث على المبادرة إلى الخيرات ، من فعل الطاعات وترك المحرمات التى تكفر عنه الذنوب والزلات ، وتحصل له

الثواب والدرجات ، وليس السباق إلى إحراز لهو وإنما إلى إحراز ملك عريض فى الجنة ، ذلك الملك العريض يبلغه كل من أراد ، وسابق إليه كل من يشاء ، وعربونه : الإيمان بالله ورسله ، وهذا الذى أهلهم الله له هو من فضله ومنّه عليهم وإحسانه إليهم ، وفضل الله غير محجوز ولا محجور فهو مباح متاح للراغبين والسابقين ، وفى هذا فليتسابق المتسابقون .

وتجيء اللمسة الرابعة فى إيقاع عميق عن قدر الله الذى لا يكون سواه ، فهذا الوجود من الدقة والتقدير بحيث لا يقع فيه حادث إلا وهو مقدر من قبل فى تصميمه ، محسوب حسابه فى كيانه لا مكان فيه للمصادفة ولا شيء فيه جزاف ، وقبل خلق الأرض وقبل خلق الأنفس كان فى علم الله الكامل الشامل الدقيق كل حدث سيظهر للخلائق فى وقته المقدور وفى علم الله لا شيء ماض ولا شيء حاضر ولا شيء : قادم ، وهذا شيء يسير على الله عز وجل ؛ لأنه يعلم ما كان ، وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون .

وقيمة هذه الحقيقة فى النفس البشرية أن تسكب فيها السكون والطمأنينة عند استقبال الأحداث خيرها وشرها فلا تجزع الجزع الذى تطير به شعاعا ، وتذهب معه حسرات عند الضراء ، ولا تفرح الفرح الذى تستطار به وتفقد الاتزان عند السراء ، والمؤمنون مطلوب منهم ألا يخرجهم الألم للضراء ، ولا الفرح بالسراء عن دائرة التوجه إلى الله ، فالاعتدال فى الفرح والحزن مطلوب .

ووجه الصلة بين الحقيقة السابقة وبين الاختيال والفخر ، ثم بين هذا وذلك وبين البخل والأمر بالبخل، وهو أن من يشعر بأن كل ما يصيبه هو من أمر الله، لا يختال ولا يفخر بما يعطاه ، ولا يبخل ولا يأمر بالبخل فى عطاء ، فأما الذى لا يشعر بتلك الحقيقة فيحسب أن ما يؤتاه من مال وقوة وجاه هو من كسبه فيفخر ويختال به ، ثم يبخل كذلك ببذل شيء منه ، ويحث غيره على البخل ليحقق مبدأه ومنهجه ومن ينفق فإنما ينفق لنفسه، ومن يستجب فإنما يستجيب لمصلحته ، والله هو الغنى فما به من حاجة إلى العباد المحاويج ، والله هو الحميد بذاته فما يناله شيء من حمد الحامدين .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويا :

١ ـ هذا الدين لا يقوم بغير الإنفاق والجهاد ؛ لتأمين العقيدة وحماية أهله من الفتن ، والتمكين له فى الأرض .

٢ ـ عندما نقيس أمور الدنيا بالنسبة إلى الآخرة ، يجب أن تهون الدنيا فى نظرنا ، من أجل الآخرة وما فيها من خلود ونعيم دائم .

٣ ـ الله تعالى لا يحب المعجبين بأنفسهم والمختالين والمتفاخرين ، ولكنه يحب المتواضعين الكرماء الأتقياء .

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

٥٤١

معانى الكلمات :

وأنزلنا : وخلقنا .

بأس : قوة

قفينا : أتبعنا

رهبانية : مغالاة فى التعبد والتقشف .

كتبناها : فرضناها .

فما رعوها حق رعايتها : فلم يقوموا بها حق القيام .

يؤتكم : يعطكم .

كفلين : نصيبين (أجرين) .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن رسالة الأنبياء واحدة فى جوهرها .

٢ ـ أن نتعرف على سنة الله تعالى فى خلقه .

٣ ـ أن نتعلم كيف نخاطب الناس وكيف نوقظ الفطرة .

المحتوى التربوى :

يعرض السياق باختصار خط الرسالة ، وتاريخ هذه العقيدة من لدن نوح وإبراهيم ؛ مقرراً حقيقتها وغايتها فى دنيا الناس ، ملما بحال أهل الكتاب وأتباع عيسى عليه السلام بصفة خاصة ، والرسالة واحدة فى جوهرها ، جاء بها الرسل ومعهم البينات عليها ، ومعظمهم جاء بالمعجزات الخوارق ، وبعضهم أُنزل عليه كتاب ، والنص يقول بأنه أنزل معهم الكتاب بوصفهم وحدة ، وبوصف الكتاب وحدة كذلك ، إشارة إلى وحدة الرسالة فى جوهرها .

والميزان مع الكتاب ، فكل الرسالات جاءت لتقر فى الأرض وفى حياة الناس ميزانا ثابتا ترجع إليه البشرية ؛ لتقويم الأعمال والأحداث والأشياء والرجال ، وتقيم عليه حياتها فى مأمن من اضطراب الأهواء واختلاف الأمزجة ، وتصادم المصالح والمنافع ، ميزانا لا يحابى أحداً لأنه يزن بالحق الإلهى للجميع ، ولا يحيف على أحد لأن الله رب الجميع ، وهذا الميزان الذى أنزله الله

فى الرسالة هو الضمان الوحيد للبشرية من العواصف والزلازل والاضطرابات والخلخلة التى تحيق بها فى معترك الأهواء ومضطرب العواطف ، ومصطخب المنافسة وحب الذات ، فلا بد من ميزان ثابت يثوب إليه البشر فيجدون عنده الحق والعدل والنصفة بلا محاباة .والتعبير بإنزال الحديد يشير إلى إرادة الله وتقديره فى خلق الأشياء والأحداث ، فهى منزلة بقدرته وتقديره ، وجعل الله الحديد رادعا لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجة عليه ، وهو قوة فى الحرب والسلم ، وفيه منافع للناس ، وتكاد حضارة البشر القائمة الآن تقوم على الحديد ، ومن كان فى نيته حمل السلاح نصرة لله ورسله ، فالله قوى عزيز ينصر من نصره من غير احتياج منه إلى الناس وإنما شرع الجهاد ليبلو بعضكم ببعض .

ولما انتهى من تقرير وحدة الرسالة فى جوهرها وكتابها وميزانها عاد يقرر وحدتها فى رجالها ، فهم من ذرية نوح وإبراهيم، وهى شجرة واحدة باسقة، متشابكة الفروع ، فيها النبوة والكتاب ، ممتدة من فجر البشرية منذ نوح حتى إذا انتهت إلى إبراهيم ، تفرعت وامتدت وانبثقت النبوات من ذلك الفرع الكبير الذى صار أصلاً باسقا ممتداً إلى آخر الرسالات ، وأما الذرية التى جاءتها النبوات والكتب فلم تكن على شاكلة واحدة ، فمنهم مهتد والكثير فاسق وهو تلخيص قصير لذلك الخط الطويل .

وقرب نهاية الخط يجىء عيسى ابن مريم على آثار السابقين من ذرية نوح وإبراهيم ، فكانت الرسالة ممتدة واحدة على إثر واحدة حتى جاء عيسى ابن مريم ، ويذكر هنا صفة بارزة من صفات الذين اتبعوا عيسى ابن مريم ، والرأفة والرحمة ظاهرة واضحة فى المؤمنين حقيقة برسالة عيسى عليه السلام ممن أحسنوا اتباعه ، وهى ثمرة طبيعية لدعوة المسيح عليه السلام وروحها السمحة وتطهرها الروحى ، وشفافيتها الوضيئة .

كذلك يذكر النص هنا ظاهرة أخرى عرفت فى تاريخ أتباع عيسى ابن مريم ، وهذه الرهبانية التى عرفها تاريخ المسيحية كانت اختياراً من بعض أتباع عيسى عليه السلام ، ابتدعوها من عند أنفسهم ابتغاء رضوان الله ، ، وابتعاداً عن أوضار الحياة ، ولم يكتبها الله عليهم ابتداء ، ولكنهم حين اختاروها وأوجبوها على أنفسهم صاروا مرتبطين أمام الله بأن يرعوا حقوقها ، ويحافظوا على مقتضياتها من تطهر وترفع ، وقناعة وعفة وذكر وعبادة مما يحقق فى أنفسهم حقيقة التجرد لله التى قصدوا إليها بهذه الرهبانية التى ابتدعوها ، ولكنها انتهت إلى أن تصبح فى الغالب طقوسا وشعائر خالية من الروح وأن يتخذها الكثيرون مظهراً عاريا من الحقيقة ، فلا يصبر على تكاليفها إلا عدد منهم قليل.

والله لا يأخذ الناس بالمظاهر والأشكال ، ولا بالطقوس والمسوح ، إنما يأخذهم بالعمل والنية،ويحاسبهم على حقيقة الشعور والسلوك،وهو الذى يعلم خبايا القلوب وذوات الصدور.

وبعد هذا العرض السريع يجيء الهتاف الأخير للذين آمنوا ، وهم الحلقة الأخيرة فى سلسلة المؤمنين برسالة الله فى تاريخها الطويل ، وورثة هذه الرسالة الذين يقومون عليها إلى يوم الدين ، ونداؤهم بالمؤمنين فيه لمسة خاصة لقلوبهم، واستحياء لمعنى الإيمان، وتذكير برعايته حق رعايته، واستجاشة للصلة التى تربطهم بربهم الذى يناديهم هذا النداء الكريم الحبيب ، وباسم هذه الصلة يدعوهم إلى تقوى الله والإيمان برسوله ، فيبدو للإيمان المطلوب معنى خاص ، معنى حقيقة الإيمان وما ينبثق عنها من آثار .

ولما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين أعطى الله لهذه الأمة نصيبين من رحمته ، ومجرد مسها لإنسان يمنحه حقيقتها ، وفى هذا التعبير زيادة امتداد للرحمة وزيادة فيض ، ويهب لهم نوراً يمشون به ، وهى هبة لدينه يودعها الله القلوب التى تستشعر تقواه ، وتؤمن حق الإيمان برسوله ، هبة تنير تلك القلوب فتشرق ، وترى الحقيقة من وراء الحجب والحواجز ، ومن وراء الأشكال والمظاهر فلا تتخبط ولا تلتوى بها الطريق .

والإنسان إنسان مهما وهب من النور ، إنسان يقصر حتى لو عرف الطريق ، إنسان يحتاج إلى المغفرة فتدركه رحمة الله .

وقد كان أهل الكتاب يزعمون أنهم شعب الله المختار ، وأنهم أبناء الله وأحباؤه ، فالله يدعو الذين آمنوا إلى استحقاق رحمته وجنته وهبته ومغفرته حتى يعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على احتجاز شئ من فضله ، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، غير مقصور على قوم ، ولا محجوز لطائفة ، ولا محدود ولا قليل ، فالله صاحب الفضل العظيم .

وهى دعوة فيها تخصيص واستجاشة واستثارة للسباق إلى الجنة والرحمة ، وكى تحقق القلوب إيمانها وتخشع لربها وتستجيب لتكاليف الإيمان فى الأموال والأرواح فى تجرد وإخلاص ، والسورة كلها نموذج واضح فى خطاب القلوب البشرية ، واستجاشتها بأسلوب عميق التأثير ، وهى درس بديع لأصحاب هذه الدعوة ، يعلمهم كيف يخاطبون الناس ، وكيف يوقظون الفطرة ، وكيف يستحيون القلوب .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الرسالات السماوية كلها تدعو إلى عبادة الله وحده ، كما تحث على العدل فى تقدير الأعمال والأحداث والأشياء .

٢ ـ منهج الله لا يحابى أحداً لأنه ميزان يزن بالحق الإلهى للجميع ولا يحيف على أحد .

٣ ـ الإنسان إنسان مهما وهب من النور ، إنسان يقصر حتى لو عرف الطريق ، إنسان يحتاج إلى المغفرة فتدركه رحمة الله .

الجزء الثامن والعشرون — سورة المجادلة

سورة المجادلة

بسم الله الرحمن الرحيم

قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير (١) الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا وإن الله لعفو غفور (٢) والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير (٣) فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم (٤) إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين (٥) يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد (٦)

٥٤٢

سورة المجادلة

معانى الكلمات :

تجادلك : تحاورك .

يظاهرون:يحرمون نساءهم تحريم أمهاتهم .

منكراً من القول : فظيعا من الكلام .

وزوراً : كذباً باطلا منحرفا عن الحق .

يتماسا : يستمتعا بالوقاع أو دواعيه .

يحادون : يعادون ويشاقون .

كبتوا : أذلوا أو أهلكوا .

أحصاه الله : أحاط به علما .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على حكم الإسلام فى الظهار .

٢ ـ أن نعلم مصير الذين يحادون الله ورسوله فى الدنيا ومصيرهم فى الآخرة .

٣ ـ أن نستشعر علم الله واطلاعه وشهوده وحضوره لكل ظاهرة وخافية فى الأرض والسماء.

المحتوى التربوى :

يقول صاحب الظلال : « فى هذه السورة بصفة خاصة نشهد صورة موحية من رعاية الله للجماعة الناشئة ، وهو يصنعها على عينه ، ويربيها بمنهجه ، ويشعرها برعايته ، ويبنى فى ضميرها الشعور الحى بوجوده ـ سبحانه ـ معها فى أخص خصائصها ، وأصغر شؤونها ، وأخفى طواياها ، وحراسته لها من كيد أعدائها خفيه وظاهره ، وأخذها فى حماه وكنفه وضمها إلى لوائه وظله ، وتربية أخلاقها وعاداتها وتقاليدها تربية تليق بالجماعة التى تنضوى إلى كنف الله ، وتنتسب إليه ، وتؤلف حزبه فى الأرض وترفع لواءه لتعُرف به فى الأرض جميعاً » .

كان الرجل فى الجاهلية يغضب لأمر من امرأته فيقول : أنت علىّ كظهر أمى ، فتحرم عليه ، ولا تطلق منه وتبقى هكذا ، لا هى حل له فتقوم بينهما الصلات الزوجية ، ولا هى مطلقة منه

فتجد لها طريقا آخر ، وكان هذا طرفا من العنت الذى تلاقيه المرأة فى الجاهلية ، فلما كان الإسلام وقعت هذه الحادثة التى تشير إليها هذه الآيات ، ولم يكن قد شرع حكم للظهار ، وقد سمع الله قول المجادلة التى تشتكى ما لديها من الهم بظهار زوجها منها ، وهذا هو الشأن الذى أنزل الله فيه حكمه من فوق سبع سموات ؛ ليعطى هذه المرأة حقها ويريح بالها وبال زوجها .

وأنه لأمر أن يقع مثل هذا الحادث العجيب ، وأن تشعر جماعة من الناس أن الله هكذا معها ، حاضر شؤونها ، جليلها وصغيرها ، معنى بمشكلاتها اليومية ، مستجيب لأزماتها العادية وهو الله الكبير المتعال ، وتبدأ السورة بمطلع عجيب إنكما لم تكونا وحدكما ، لقد كان الله معكما ، وكان يسمع لكما ، لقد سمع قول المرأة ، سمعها تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله ، وعلم القصة كلها وهو يعلم تحاوركما وما كان فيها والله يسمع ويرى ، وكلها إيقاعات ولمسات تهز القلوب .

ثم يقرر أصل القضية ، وحقيقة الوضع فيها ، وهو علاج للقضية من أساسها ، إن هذا الظهار قائم على غير أصل ، فالزوجة ليست أما حتى تكون محرمة كالأم فالأم هى التى ولدت ، ولا يمكن أن تستحيل الزوجة أما بكلمة تقال ، إنها كلمة منكرة ينكرها الواقع ، وكلمة مزورة ينكرها الحق ، والأمور فى الحياة يجب أن تقوم على الحق والواقع فى وضوح وتحديد ، والله عفو غفور فيما سلف من هذه الأمور .

ويجىء الحكم القضائى فى الموضوع وقد جعل الله العتق فى كفارات متنوعة وسيلة من وسائل التحرير للرقاب التى أوقعها نظام الحروب فى الرق إلى أجل ينتهى بوسائل شتى هذه واحدة منها ، وهناك أقوال كثيرة فى معنى : ﴿ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ ﴾ نختار منها أنهم يعودون إلى الوطء الذى حرموه على أنفسهم بالظهار ، فتحرير رقبة من قبل العودة إلى حله ، ثم التعقيب بأن الكفارة مذكر وواعظ بعدم العودة إلى الظهار الذى لا يقوم على حق ولا معروف ، والله خبير بحقيقته وخبير بوقوعه ، وخبير بنيتكم فيه .

وهذا التعقيب يجىء قبل إتمام الحكم لإيقاظ القلوب ، وتربية النفوس ، وتنبيهها إلى قيام الله على الأمر بخبرته وعلمه بظاهره وخافيه ، ثم يتابع بيان الحكم فيه على الترتيب يكون صيام ستين يوما تتابعا قبل التماس ، ومن لم يستطع فعليه إطعام ستين مسكينا ، ثم التعقيب للبيان والتوجيه بأن هذه الكفارات وما فيها من ربط أحوالهم بأمر الله وقضائه ، ذلك مما يحقق الإيمان ويربط به الحياة ، ويجعل له سلطانا بارزاً فى واقع الحياة ، وتلك حدود الله أقامها ليقف الناس عندها لا يتعدونها ، وهو يغضب على من لا يرعاها ولا يتحرج دونها ، والعذاب الأليم للكافرين بتعديهم وتحديهم وعدم إيمانهم وعدم وقوفهم عند حدود الله كالمؤمنين .

وفى المقابل تجىء صورة من صور الحرب والنكاية للفريق الآخر ، فريق الذين يحادون الله ورسوله ، أى الذين يأخذون لهم موقفا عند الله ورسوله ، بل عند الحد الآخر المواجه ، وهو

تمثيل للمتخاصمين المتنازعين ؛ لتفظيع عملهم وتقبيح موقفهم ، وساء موقف مخلوق يتحدى فيه خالقه ورازقه ، ويقف فى تبجح عند الحدِّ المواجه لحده .

هؤلاء المحادون المشاقون المتبجحون كبتوا ، والكبت : القهر والذل ، والأرجح أن هذا دعاء عليهم ، والدعاء من الله ـ سبحانه ـ حكم ، فهو المريد وهو الفعال لما يريد ، والذين من قبلهم إما أن يكونوا هم الغابرين من الأقوام الذين أخذهم الله بنكاله ، وإما أن يكونوا الذين قهرهم المسلمون فى بعض المواقع التى تقدمت نزول هذه الآية ، كما حدث فى غزوة بدر مثلا ، وهذه الآيات البينات تكفلت ببيان هذا المصير ، وكذلك لتقرير أنهم يلاقون هذه المصائر لا عن جهل ولا عن غموض فى الحقيقة ، فقد وضحت لهم وعلموها بهذه الآيات البينات .

ثم يعرض مصيرهم فى الآخر مع التعقيب الموحى الموقظ المربى للنفوس ، والمهانة جزاء التبجح ، وهى مهانة يوم يبعثهم الله جميعا ، مهانة على رؤوس الجموع ، وهو عذاب يقوم على حق وبيان لما عملوا ، إن كانوا هم قد نسوه فإن الله أحصاه بعلمه الذى لا يند عنه شىء ، ولا يغيب عنه خافٍ ، فالله مطلع على كل شىء .

وتلتقى صورة الرعاية والعناية ، بصورة الحرب والنكاية فى علم الله واطلاعه وشهوده وحضوره ، فهو شاهد حاضر للعون والرعاية ، وهو شاهد حاضر للحرب والنكاية ، فليطمئن بحضوره وشهوده المؤمنون ، وليحذر من حضوره وشهوده الكافرون .

يقول **صاحب الأساس** رحمه الله : « علل الله عز وجل لتشريعه أحكام الظهار بقوله : ﴿ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ ، ومن هنا نفهم أن التشريعات الإسلامية كلها تنبثق عن الإيمان بالله والرسول ، وقبولها علامة الإيمان بالله والرسول والالتزام بها يعمق الإيمان بالله والرسول وهذا يعرفنا على حكمة من حكم مجىء هذا الموضوع فى مقدمة السورة التى تتحدث عن محاربة الله والرسول ، وبعد السورة التى أمرت بالإيمان بالله والرسول ﷺ .

ومن قوله تعالى ختام الآيات السابقة : ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ نعلم جهل الذين يتصورون أن الإسلام عقائد وعبادات فقط ، فالإسلام عقائد وشعائر وشرائع يجب الإيمان بها جميعا وإلا فهو الكفر .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الله ـ سبحانه ـ قريب من عباده لا يخفى عليه شىء من أمورهم .

٢ ـ غير الإسلام كثيرا من العادات السيئة التى كان عليها أهل الجاهلية ومن هذه الأمور الظهار .

٣ ـ فتح الإسلام باب تحرير العبيد والإماء ومن ذلك أنه جعله أول شىء فى كفارة الظهار .

الجزء الثامن والعشرون سورة المجادلة

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ
مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ
وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم
بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ
نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ
وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ
بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ
جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا
تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا
بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ
مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا
إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ
اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا
مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾

٥٤٣

معانى الكلمات :

نجوى : تناجيهم ومسارتهم .

حسبهم : كافيهم .

يصلونها : يدخلونها أو يقاسون حرها .

المصير : المرجع والمستقر .

تحشرون : تجمعون للحساب والجزاء .

ليحزن : ليوقع فى الهم الشديد .

تفسحوا : توسعوا فيها .

انشزوا:انهضوا للتوسعة أو لعبادة أو خير .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نستشعر علم الله الشامل لما فى السموات وما فى الأرض على إطلاقه .

٢ ـ أن نستشعر خطورة المنافقين بين صفوف المسلمين .

٣ ـ أن نعلم بعض الآداب التى وردت فى السورة التى تحفظ على الجماعة وحدتها وتماسكها .

المحتوى التربوى :

يبدأ السياق بتقرير علم الله الشامل لما فى السموات وما فى الأرض على إطلاقه ، فتدع القلب يرد آفاق السموات وأرجاء الأرض مع علم الله المحيط بكل شىء فى هذا المدى الوسيع المتطاول من صغير وكبير ، وخاف وظاهر ومعلوم ومجهول .

ثم تتدرج من هذه الآفاق وتلك الأرجاء ، وتزحف وتقرب حتى تلمس ذوات المخاطبين وتمس قلوبهم بصورة من ذلك العلم الإلهى تهز القلوب ، وهى حقيقة فى ذاتها ولكنها تخرج فى صورة لفظية عميقة التأثير ، صورة تترك القلوب وجلة ترتعش مرة وتأنس مرة ، وهى مأخوذة بمحضر الله الجليل المأنوس ، وحيثما اختلى ثلاثة تلفتوا ليشعروا بالله رابعهم ، وحيثما اجتمع

خمسة تلفتوا ليشعروا بالله سادسهم ، وحيثما كان اثنان يتناجيان فالله هناك ، وحيثما كانوا أكثر فالله هناك ، إنها حالة لا يثبت لها قلب ، ولا يقوى على مواجهتها إلا وهو يرتعش ويهتز .

ومجرد حضور الله وسماعه أمر هائل ، فكيف إذا كان لهذا الحضور والسماع ما بعده من حساب وعقاب ؟ وكيف إذا كان ما يسره المتناجون وينعزلون به ليخفوه ،سيعرض على الأشهاد يوم القيامة وينبئهم الله به فى الملأ الأعلى فى ذلك اليوم المشهود ؟ ! فالله عليم بكل شىء وهذه حقيقة مستقرة فى القلوب .

ويجىءالتهديد للمنافقين؛ الذين كانوا يتناجون فيما بينهم بالمؤامرات ضد الرسول ﷺ ، وضد الجماعة المسلمة بالمدينة مع التعجيب من موقفهم المريب،ويوحى السياق بأن خطة رسول الله ﷺ مع المنافقين فى أول الأمر كانت هى النصح لهم بالاستقامة والإخلاص ، ونهيهم عن الدسائس والمؤامرات التى يدبرونها بالاتفاق مع اليهود فى المدينة وبوحيهم ، وأنهم بعد هذا كانوا يلجون فى خطتهم اللئيمة ، وفى دسائسهم الخفية ، وفى التدبير السيئ للجماعة المسلمة ، وفى اختيار الطرق والوسائل التى يعصون بها أوامر الرسول ﷺ ويفسدون عليه أمره وأمر المسلمين المخلصين .

كما أنها توحى بأن بعضهم كان يلتوى فى صيغة التحية فيحورها إلى معنى سيئ خفى ، كأن يقولوا ـ كما كان اليهود يقولون ـ السام عليكم ، وهم يوهمون أنهم يقولون : السلام عليكم بمعنى الموت لكم أو بمعنى تسامون فى دينكم ، أو أية صيغة أخرى ظاهرها برىء وباطنها لئيم ، وهم يقولون فى أنفسهم : لو كان نبيا حقا لعاقبنا الله على قولنا هذا : أى فى تحيتهم ، أو فى مجالسهم التى يتناجون فيها ويدبرون الدسائس والمؤامرات ، وكشف هذه المؤامرات الخفية ، وإفشاء نجواهم التى عادوا إليها بعد ما نهوا عنها ، وكذلك فضح ما كانوا يقولونه فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول ، وهذا يوقع فى نفوس المنافقين أن أمرهم مفضوح ، كما يوحى للمؤمنين بالاطمئنان والوثوق .

ويلتفت السياق إلى المؤمنين ، لينهاهم عن التناجى بما يتناجى به المنافقون من الإثم والعدوان ومعصية الرسول ، ويذكرهم تقوى الله ، ويبين لهم أن النجوى على هذا النحو هى من إيحاء الشيطان ليحزن الذين آمنوا ، فليست تليق بالمؤمنين ، ويبدو أن بعض المسلمين ممن لم تنطبع نفوسهم بعد بحاسة التنظيم الإسلامى ، كانوا يتجمعون عندما تتحزب الأمور ليتناجوا فيما بينهم ويتشاوروا بعيداً عن قيادتهم ، الأمر الذى لا تقره طبيعة الجماعة الإسلامية ، وهنا يناديهم الله بصفتهم التى تربطهم به وتجعل النداء وقعه وتأثيره فيناديهم بالمؤمنين ، لينهاهم عن التناجى ـ إذا تناجوا ـ بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ، ويبين لهم ما يليق بهم من الموضوعات التى يتناجى بها المؤمنون وهى البر والتقوى؛ لتدبير وسائلهما وتحقيق مدلولهما ، والبر : الخير عامة . والتقوى : اليقظة والرقابة لله سبحانه وهى لا توحى إلا بالخير ، ويذكرهم بمخافة الله الذى يحشرون إليه ، فيحاسبهم بما كسبوا وهو شاهده ومحصيه مهما ستروه وأخفوه .

ثم ينفرهم من التناجى والمسارة والتدسس بالقول فى خفية عن الجماعة المسلمة التى هم منها، ومصلحتهم مصلحتها ، وينبغى ألا يشعروا بالانفصال عنها فى شأن من الشؤون ، فيقول لهم: إن رؤية المسلمين للوسوسة والهمس والانعزال بالحديث تبث فى قلوبهم الحزن والتوجس، وتخلق جواً من عدم الثقة ، وأن الشيطان يغرى المتناجين ليحزنوا نفوس إخوانهم ويدخلوا إليهم الوساوس والهموم ، ويطمئن المؤمنين أن الشيطان لن يبلغ فيهم ما يريد ، فالمؤمنون لا يتوكلون إلا على الله فليس وراء ذلك توكل ، وقد وردت الأحاديث النبوية الكريمة بالنهى عن التناجى فى الحالات التى توقع الريبة وتزعزع الثقة وتبعث التوجس .

ثم يأخذ الذين آمنوا بأدب آخر من آداب الجماعة : فيحث على الإفساح للقادم ليجلس ، كما يحض على إطاعة الأمر إذا قيل لجالس أن يرفع فيرفع ، وهذا الأمر يجيء من القائد المسؤول عن تنظيم الجماعة ، لا من القادم ، والغرض هو إيجاد الفسحة فى النفس قبل إيجاء الفسحة فى المكان ، ومتى رحب القلب اتسع وتسامح ، واستقبل الجالس إخوانه بالحب والسماحة ، فأفسح لهم فى المكان ، عن رضا وارتياح ، فأما إذا رأى القائد أن هناك اعتباراً من الاعتبارات يقتضى إخلاء المكان ، فالطاعة يجب أن ترعى عن طوعية نفس ورضا خاطر ، وطمأنينة بال ، مع بقاء القواعد الكلية مرعية كذلك من عدم تخطى الرقاب أو إقامة الرجل للرجل ليأخذ مكانه ، وإنما هى السماحة والنظام يقررهما الإسلام والأدب الواجب فى كل حال .

وعلى طريقة القرآن فى استجاشة الشعور عند كل تكليف ، فإنه يعد المفسحين فى المجالس بفسحة من الله لهم وسعة ، ويعد الناشزين الذين يرفعون من المكان ويخلونه عن طاعة لأمر الرسول ـ يعدهم برفعة فى المقام ، وذلك جزاء تواضعهم وقيامهم عند تلقى الأمر بالقيام .

وقد كانت المناسبة مناسبة قرب من الرسول ﷺ لتلقى العلم فى مجلسه ، فالآية تعلمهم أن الإيمان الذى يدفع إلى فسحة الصدر وطاعة الأمر والعلم الذى يهذب القلب فيتسع ويطيع ، يؤديان إلى الرفعة عند الله درجات ، وفى هذا مقابل لرفعة المكان الذى تطوعوا بتركه ، وترفعوا عنه لاعتبار رآه الرسول ﷺ ، والله مطلع على ما نعمل فهو يجزى به عن علم ومعرفة بحقيقة ما تعملون وبما وراءه من شعور مكنون .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ من آداب المجالس أن يفسح الإنسان للآخرين ، وبخاصة لمن يكون أكبر منه سنا أو أكثر منه علما ، أو يكون قادما على المجلس ، وألا يزاحم الناس فى المجالس .

٢ ـ الإسلام دين اليسر ، فقد فرض الله على المسلمين أن يقدموا صدقة للفقراء إذا أرادوا محادثة الرسول ﷺ فلما عجز أكثرهم عن ذلك خفف الله ذلك الحكم .

٣ ـ الإسلام يعظم شأن العلم وذلك بتكريم العلماء ورفع درجاتهم إذا كان علمهم مقرونا بالعمل والسلوك .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾

ربع الحزب ٥٥

معانى الكلمات :

أأشفقتم : أخفتم الفقر والعَيْلة .

وتاب عليكم : عفا الله عنكم .

تولوا قوما : اتخذوا اليهود أولياء .

جُنَّة : وقاية لأنفسهم وأموالهم .

تغنى : تدفع .

استحوذ : استولى على قلوبهم .

يحادّون : يعادون ويشاقون .

الأذلين : الزائدين فى الذلة والهوان .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نستشعر منزلة الرسول ﷺ ونقدره حق قدره .

٢ ـ أن نتعرف على بعض أحوال المنافقين .

٣ ـ أن نعلم أن سنة الله تعالى فى أرضه قهر الشرك وأهله .

المحتوى التربوى :

بعد أن أدب الله المسلمين هذا الأدب الرفيع الذى فيه هضم النفس فى ذات الله ، وبعد أن علمهم كيف يكون محور حديثهم فى مجالسهم ،تأتى الآن آيتان فيهما أدب مناجاة رسول الله ﷺ، وذلك فى مقابل سوء أدب الكافرين والمنافقين مع رسول الله ﷺ، وكذلك يعلمهم القرآن أدبا آخر فى علاقتهم برسول الله ﷺ ، فيبدو أن هناك تزاحمًا على الخلوة برسول الله ﷺ ليحدثه كل فرد فى شأن يخصه ، ويأخذ منه توجيهه ورأيه ، أو ليستمتع بالانفراد به مع عدم التقدير لمهام رسول الله ﷺ الجماعية ، وعدم الشعور بقيمة وقته ، وبجدية الخلوة به ، وأنها لا تكون إلا لأمر ذى بال ، فشاء الله أن يشعرهم بهذه المعانى بتقرير ضريبة للجماعة من مال الذى يريد أن يخلو

برسول الله ﷺ ويقتطع من وقته الذى هو من حق الجماعة ، فى صورة صدقة يقدمها قبل أن يطلب المناجاة والخلوة .

ولكن الأمر شق على المسلمين ، وعلم الله ذلك منهم ، وكان الأمر قد أدى غايته ، وأشعرهم بقيمة الخلوة التى يطلبونها ، فخفف الله عنهم برفع هذا التكليف ، وتوجيههم إلى العبادات والطاعات المصلحة للقلوب من القيام بالصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله ، والله مطلع على أعمالنا .

ثم يعود السياق إلى المنافقين الذين يتولون اليهود ، فيصور بعض أحوالهم ومواقفهم ، ويتوعدهم بافتضاح أمرهم ، وسوء مصيرهم ، وانتصار الدعوة الإسلامية وأصحابها على الرغم من كل تدبيراتهم ، وهذه الحملة القوية على المنافقين الذين يتولون قوما غضب الله عليهم ـ وهم اليهود ـ تدل على أنهم كانوا يمضون فى الكيد للمسلمين ، ويتآمرون مع ألد أعدائهم عليهم ، كما تدل على أن سلطة الإسلام كانت قد عظمت بحيث يخافها المنافقون،فيضطرون ـ عند ما يواجههم رسول الله ﷺ والمؤمنون بما يكشفه الله من تدبيراتهم ومؤامراتهم ـ إلى الحلف بالكذب لإنكار ما ينسب إليهم من مؤامرات وأقوال،وهم يعلمون أنهم كاذبون فى هذه الأيمان .

إنهم يتقون بأيمانهم ما يتوقعون من مؤاخذتهم بما ينكشف من دسائسهم ، وبذلك يستمرون فى دسائسهم للصد عن سبيل الله ، والله يتوعدهم من خلال هذه الآيات ؛ فقد أرصد الله لهم على هذا الصنيع العذاب الأليم على أعمالهم السيئة ، وهى موالاة الكافرين ونصحهم ، ومعاداة المؤمنين وغشهم ، وقد أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر ، واتقوا بالأيمان الكاذبة ، فظن كثير ممن لا يعرف حقيقة أمرهم صدقهم فاغتر بهم ، فحصل بهذا صد عن سبيل الله لبعض الناس ، ولهم العذاب المهين فى مقابلة ما امتهنوا من الحلف باسم الله العظيم فى الأيمان الكاذبة الحانثة ، ولن تدفع عنهم الأموال والأولاد بأسا إذا جاءهم ومن كانت صفتهم هذه فهم أصحاب النار ماكثين فيها .

ويصور مشهدهم يوم القيامة فى وضع مزرٍ مهين ،وهم يحلفون لله كما كانوا يحلفون للناس ، مما يشير إلى أن النفاق قد تأصل فى كيانهم ، حتى ليصاحبهم إلى يوم القيامة ، وفى حضرة الله ذى الجلال ، الذى يعلم خفايا القلوب وذوات الصدور ، وهم على هواء لا يستندون إلى شىء أى شىء ، ويعتقدون أن ذلك ينفعهم عند الله كما كان ينفعهم عند الناس، فيجرون عليهم الأحكام الظاهرة ، ويظنون بحلفهم أنهم على شىء عند ربهم ، فيدمغهم الله بالكذب الأصيل الثابت .

ثم يكشف عن علة حالهم هذه ، فقد استولى عليهم الشيطان كلية حتى أنساهم ذكر الله ، والقلب الذى ينسى ذكر الله يفسد ويتمحض للشر ، وهم الحزب الخالص للشيطان الذى يقف تحت لوائه ، ويعمل باسمه، وينفذ غاياته، وهو الشر الخالص الذى ينتهى إلى الخسران الخالص ، وهى حملة شديدة عنيفة تناسب الشر والأذى والفتنة التى يدبرونها للمسلمين مع أعدائهم

الماكرين ، وتطمئن قلوب المسلمين ، والله ـ سبحانه وتعالى ـ يتولى عنهم الحملة على أعدائهم المستورين .

ولما كان أولئك المنافقون يأوون إلى اليهود شعوراً بأنهم قوة تخشى وترجى ، ويطلبون عندهم العون والمشورة ، فإن الله ييئسهم منهم ، ويقرر أنه كتب على أعدائه الذلة والهزيمة ، وكتب لنفسه ولرسوله الغلبة والتمكين ، هذا وعد الله الصادق الذى كان والذى لابد أن يكون على الرغم مما قد يبدو أحيانا من الظاهر الذى يخالف هذا الوعد الصادق .

فالذى وقع بالفعل أن الإيمان والتوحيد قد غلب على الكفر والشرك ، واستقرت العقيدة فى هذه الأرض ، ودانت لها البشرية بعد كل ما وقف فى طريقها من عقبات الشرك والوثنية ، وبعد الصراع الطويل مع الكفر والشرك والإلحاد ، وإذا كانت هناك فترات عاد فيها الإلحاد . أو الشرك إلى الظهور فى بعض بقاع الأرض ـ كما يقع الآن فى الدول الملحدة والوثنية ـ فإن العقيدة فى الله ظلت هى المسيطرة بصفة عامة ، فضلا على أن فترات الإلحاد والوثنية إلى زوال مؤكد ؛ لأنها غير صالحة للبقاء ، والبشرية تهتدى فى كل يوم إلى أدلة جديدة تهدى إلى الاعتقاد فى الله والتمكين لعقيدة الإيمان والتوحيد .

يقول صاحب الظلال : « والمؤمن يتعامل مع وعد الله على أنه الحقيقة الواقعة ، فإذا كان الواقع الصغير فى جيل محدود أو فى رقعة محدودة يخالف تلك الحقيقة ، فهذا الواقع هو الباطل الزائل ، الذى يوجد فترة فى الأرض لحكمة خاصة ، لعلها استجاشة الإيمان وإهاجته لتحقيق وعد الله فى وقته المرسوم ، وحين ينظر الإنسان اليوم إلى الحرب الهائلة التى شنها أعداء الإيمان على أهل الإيمان فى صورها المتنوعة ؛ من بطش ومن ضغط ومن كيد بكل صنوف الكيد فى عهود متطاولة ..حين ينظر الإنسان إلى هذا الواقع فى المدى المتطاول يجد مصداق قول الله تعالى ، يجده فى هذا الواقع ذاته بدون حاجة إلى الانتظار الطويل .

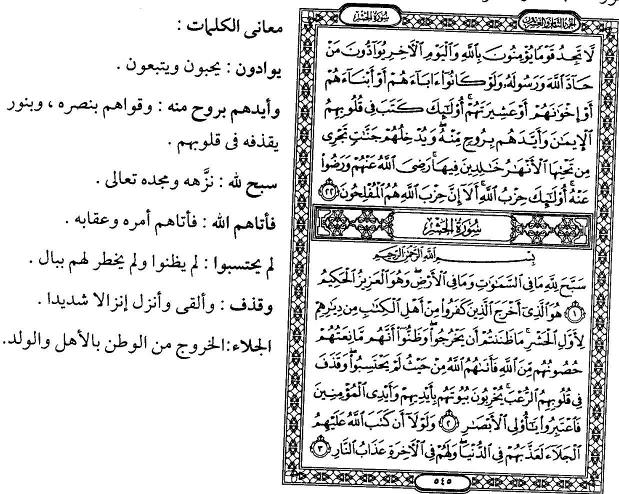
وعلى أية حال فلا يخالج المؤمن شك فى أن وعد الله هو الحقيقة الكائنة التى لابد أن تظهر فى الوجود ، وأن الذين يحادون الله ورسوله هم الأذلون ، وأن الله ورسله هم الغالبون وأن هذا هو الكائن والذى لابد أن يكون .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ حرمة موالاة اليهود .

٢ ـ حرمة الحلف على الكذب وهى اليمين الغموس .

٣ ـ من علامات استحواذ الشيطان على الإنسان ، تركه لذكر الله بقلبه ولسانه ولوعده ووعيده بأعماله وأقواله .



سورة المجادلة

لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

سُورَةُ الحَشْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾

٥٤٥

معانى الكلمات :

يوادون : يحبون ويتبعون .

وأيدهم بروح منه : وقواهم بنصره ، وبنور يقذفه فى قلوبهم .

سبح لله : نزَّهه ومجده تعالى .

فأتاهم الله : فأتاهم أمره وعقابه .

لم يحتسبوا : لم يظنوا ولم يخطر لهم ببال .

وقذف : وألقى وأنزل إنزالا شديدا .

الجلاء: الخروج من الوطن بالأهل والولد.

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم حرمة موالاة الكافر بالنصرة والمحبة ولو كان أقرب قريب .

٢ ـ أن نستشعر جلال الله وعظمته وعزته وحكمته فى تسبيحه من كل المخلوقات .

٣ ـ أن نتعرف على علة هزيمة بنى النضير وخروجهم من ديارهم .

المحتوى التربوى :

تجيء القاعدة الثانية التى يقف عليها المؤمنون ، أو الميزان الدقيق للإيمان فى النفوس ؛ إنها المفاصلة الكاملة بين حزب الله وحزب الشيطان ، والانحياز النهائى للصف المتميز ، والتجرد من كل عائق وكل جاذب ، والارتباط فى العروة الواحدة بالحبل الواحد ، فما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه، وما يجمع إنسان فى قلب واحد وُدَّين: ودًّا لله ورسوله وودّ ا لأعداء الله ورسوله؛ فأما إيمان أو لا إيمان ، أما هما معا فلا يجتمعان .

ومن الممتنع أن تجد قوما مؤمنين يوالون المشركين ، مهما كانت قرابتهم ، حتى ولو كانت القرابة قرابة أبوة وبنوة وأخوة وعشيرة ، فلا ينبغى أن يكون ذلك ، وحقه أن يمتنع ولا يوجد بحال ، ومن اتصف بأنه لا يوادّ من حادّ الله ورسوله ولو كان أباه أو ابنه أو أخاه فهذا ممن كتب

الله فى قلبه الإيمان ، والسعادة فى قلبه ، وزين الإيمان فى بصيرته ، ولما سخطوا على القرائب والعشائر فى الله ، عوضهم الله بالرضا عنهم وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم والفوز العظيم ، وهم جند الله وأنصار الحق الذى أنزل ودعاة الخلق إليه ، فهم عباد الله وأهل كرامته ، والباقون فى النعيم المقيم ، الفائزون بكل محبوب ، الآمنون من كل مرهوب ، الفائزون فى الدنيا والآخرة .

قال صاحب الظلال : « وهكذا تنقسم البشرية إلى حزبين اثنين : حزب الله وحزب الشيطان ، وإلى رايتين اثنتين : راية الحق وراية الباطل ، فإما أن يكون الفرد من حزب الله فهو واقف تحت راية الحق ، وإما أن يكون من حزب الشيطان فهو واقف تحت راية الباطل ... وهما صفان متميزان لا يختلطان ولا يتميعان .

لا نسب ولا صهر ، ولا أهل ولا قرابة ، ولا وطن ولا جنس ، ولا عصبية ولا قومية .. إنما هى العقيدة والعقيدة وحدها ، فمن انحاز إلى حزب الله ووقف تحت راية الحق ، فهو وجميع الواقفين تحت هذه الراية إخوة فى الله ، تختلف ألوانهم وتختلف أوطانهم ، وتختلف عشائرهم وتختلف أسرهم ولكنهم يلتقون فى الرابطة التى تؤلف حزب الله ، فتذوب الفوارق كلها تحت الراية الواحدة ، ومن استحوذ عليه الشيطان فوقف تحت راية الباطل ، فلن تربطه بأحد من حزب الله رابطة ؛ لا من أرض ، ولا من جنس ولا من وطن ، ولا من لون ، ولا من عشيرة ، ولا من نسب ، ولا من صهر .. لقد أنبتت الوشيجة الأولى التى تقوم عليها هذه الوشائج ، فأنبتت هذه الوشائج جميعا .

ومع إيحاء هذه الآية بأنه كان هناك فى الجماعة المسلمة من تشده أواصر الدم والقرابة وجواذب المصلحة والصداقة ، مما تعالجه هذه الآية فى النفوس ، وهى تضع ميزان الإيمان بهذا الحسم الجازم والمفاصلة القاطعة .

سورة الحشر

يقول صاحب الأساس : « من مقدمة السورة ندرك مضمونها ، وأن له صلة بتنزيه الله وخضوع الأشياء كلها له، واتصافه بالعزة والحكمة ،ولذلك سنرى فى السورة مظاهر من عزته، وحكمته .. وذكر اسم من أسماء الله عز وجل فى ابتداء سورة يشعرنا أن السورة مجلى لظهور هذا الاسم ، وها هنا فى سورة الحشر نرى فعل الله بالكافرين والمنافقين وذلك من مظاهر عزته وتدبير الله للمؤمنين وذلك من مظاهر حكمته » .

وتبدأ السورة وتختم بتسبيح الله الذى له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ، بهذه الحقيقة التى وقعت وكانت فى الوجود ، حقيقة تسبيح كل شىء فى السموات ، وكل شىء فى

الأرض لله ، واتجاهها إليه بالتنزيه والتمجيد، تفتتح السورة التى تقص قصة إخراج الله للذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم وإعطائها للمؤمنين به المسبحين بحمده ، الممجدين لأسمائه الحسنى ،وهو القوى القادر على نصر أوليائه وسحق أعدائه الحكيم فى تدبيره وتقديره .

ثم يقص نبأ الحادث الذى نزلت فيه السورة ، ومن السياق نعلم أن الله هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ، والله هو فاعل كل شىء ، وصيغة التعبير توقع فى الحس أن الله تولى هذا الإخراج من غير ستار لقدرته من فعل البشر وساق المخرجين للأرض التى منها يحشرون ، فلم تعد لهم عودة إلى الأرض التى أخرجوا منها ، ويؤكد فعل الله المباشر فى إخراجهم وسوقهم ، بأنكم لم تتوقعوا خروجهم ، ولا هم كانوا يسلمون فى تصور وقوعه ، فقد كانوا من القوة والمنعة فى حصونهم بحيث لا تتوقعون أنتم أن تخرجوهم منها كما أخرجوا ، وبحيث غرتهم هذه المنعة حتى نسوا قوة الله التى لا تردها الحصون ، فأتاهم من داخل أنفسهم لا من داخل حصونهم ، أتاهم من قلوبهم فقذف فيها الرعب ، فخربوا حصونهم بأيديهم ، وأراهم أنهم لا يملكون ذواتهم ، ولا يحكمون قلوبهم ، ولا يمتنعون على الله بإرادتهم وتصميمهم ، فضلا على أن يمتنعوا عليه ببنيانهم وحصونهم ، وقد كانوا يحسبون حساب كل شىء إلا أن يأتيهم الهجوم من داخل كيانهم ، فهم لم يحتسبوا هذه الجهة التى أتاهم الله منها .

وهكذا حين يشاء الله أمراً يأت له من حيث يعلم وحيث يقدر وهو يعلم كل شىء وهو على كل شىء قدير ، فلا حاجة إذن إلى سبب ولا إلى وسيلة ، مما يعرفه الناس ويقدرونه ، فالسبب حاضر دائما ، والوسيلة مهيأة ، والسبب والنتيجة من صنعه ، ولن يمتنع عليه سبب ولا نتيجة ، وتتم حكاية ما وقع للذين كفروا من أهل الكتاب والله يأتيهم من وراء الحصون فتسقط بفعلهم هم ، ثم يزيدون فيخربونها بأيديهم وأيدى المؤمنين .

ويجىء التعقيب بأخذ العبرة والاتعاظ ، وهو أمر مقرر أن ينالهم النكال من الله ، ولولا أن اختار الله جلاءهم لعذبهم عذابا آخر غير عذاب النار الذى ينتظرهم هناك ، فقد استحقوا عذاب الله فى صورة من صوره على كل حال .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ المودة لمن حارب الله ورسوله لا تجتمع مع الإيمان .

٢ ـ كل شىء فى الوجود يسبح بحمد الله تعالى ، وإن كنا لا نفهم تسبيحه ، وعلى المسلم أن يتناغم مع بقية المخلوقات .

٣ ـ سنة الله تعالى فى كل من يحاده ويحاد رسوله أن ينزل به أشد أنواع العقوبات .

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۖ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
الْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً
عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ
عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ
وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ
وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ
دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ۚ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا
نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾
لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ
يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ
هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ
يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً
مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ
وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾

معانى الكلمات :

شاقوا : عادوا وعصوا وحادّوا .

لينة : نخلة ، أو نخلة كريمة .

على أصولها : على سوقها .

أفاء : رد وأعاد .

فما أوجفتم عليه : فما أجريتم على تحصيله .

دولاً : ملكا متداولاً ت

تبؤوا : توطنوا

خصاصة : فقر واحتياج .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعلم بعض أحكام الفىء .

٢ ـ أن نتعرف على بعض سنن الله فى خلقه .

٣ ـ أن نعلم الخصائص العليا لأهل الإيمان والتقوى ، مهاجرين ومهاجر إليهم .

المحتوى التربوى :

المشاقة أن يأخذوا لهم شقا غير شق الله وجانبا غير جانبه ، وقد جعل الله جانبه هو جانب رسوله حين وصف علة استحقاقهم للعذاب فى صدر الآية ، فاكتفى فى عَجُزها بمشاقة الله وحدها ، فهى تشمل مشاقة الرسول وتتضمنها ، ثم ليقف المشاقون فى ناحية أمام الله ـ سبحانه ـ وهو موقف فيه تبجح قبيح ، حين يقف المخاليق فى وجه الخالق يشاقونه ، وموقف كذلك رعيب وهذه المخاليق الضئيلة الهزيلة تتعرض لغضب الله وعقابه ، وهو شديد العقاب ، وهكذا تستقر فى القلوب حقيقة مصائر المشاقين لله فى كل أرض ، وفى كل وقت ؛ من خلال مصير الذين كفروا من أهل الكتاب ، وما استحقوا به هذا العقاب .

ثم يطمئن المؤمنين على صواب ما أوقعوه بهؤلاء الذين كفروا وشاقوا الله ورسوله من تقطيع نخيلهم وتحريقه ، أو تركه كذلك قائما ، وبيان حكم الله فيه ، وقد دخل نفوس بعض المسلمين

شىء من هذا، فجاءهم هذا البيان يربط الفعل والترك بإذن الله، فهو الذى تولى بيده هذه الموقعة، وأراد فيها ما أراد، وأنفذ فيها ما قدره، وكان كل ما وقع من هذا بإذنه أراد به أن يخزى الفاسقين، وقطع النخيل يخزيهم بالحسرة على قطعه ، وتركه يخزيهم بالحسرة على فوته، وإرادة الله وراء هذا وذاك على السواء .

ويجىء السياق فيقرر حكم الفىء الذى أفاءه الله على رسوله فى هذه الوقعة وفيما يماثلها ، مما لم يتكلف فيه المسلمون غزواً ولا قتالا ؛ أى الوقائع التى تولتها يد الله جهرة ومباشرة وبدون ستار من الخلق كهذه الوقعة ، ويبين السياق حكم الله فى هذا الفىء وأمثاله مع وصف أحوال الجماعة المسلمة فى حينها ، كما تقرر طبيعة الأمة على مدار الزمان ، لا ينفصل فيها جيل عن جيل ، ولا قوم عن قوم ، ولا نفس عن نفس .

ويذكر السياق المسلمين أن هذا الفىء الذى خلفه وراءهم بنو النضير لم يركضوا هم عليه خيلا ، ولم يسرعوا إليه ركبًا فحكمه ليس حكم الغنيمة التى أعطاهم أربعة أخماسها واستبقى خمساً فقط لله ورسوله ولذى القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل ، والرسول ﷺ هو الذى يتصرف فيه كله فى هذه الوجوه ، وذوو القربى المذكورون هم قرابة رسول الله ﷺ إن كانت الصدقات لا تحل لهم ، فليس لهم فى الزكاة نصيب ، وإن كان النبى لا يورث فليس لذوى قرابته من ماله شىء وفيهم الفقراء الذين لا مورد لهم ، فجعل لهم من خمس الغنائم نصيبا ، كما جعل لهم من هذا الفىء وأمثاله نصيبا ، فأما بقية الطوائف والمصارف فأمرها معروف ، والرسول ﷺ هو المتصرف فيها .

هذا هو حكم الفىء وتبينه الآيات ، ولكنها لا تقتصر على الحكم وعلته القريبة ، إنما تفتح القلوب على حقيقة أخرى كبيرة ، والله يسلط رسله على من يشاء ، فهو قدر الله ، وهم طرف من هذا القدر يسلطه على من يشاء،وبهذا يتصل شأن الرسل بقدر الله المباشر،فهم يتحركون بهواهم، وما يأخذون ، أو يدعون لحسابهم ، وما يغزون ، أو يقعدون ، وما يخاصمون أو يصالحون إلا لتحقيق جانب من قدر الله فى الأرض منوط بهم وبتصرفاتهم وتحركاتهم فى هذه الأرض ، والله هو الفاعل من وراء ذلك كله ، وهو على كل شىء قدير .

وتضع القسمة قاعدة كبرى من قواعد التنظيم الاقتصادى والاجتماعى فى المجتمع الإسلامى، كما تضع قاعدة كبرى فى التشريع الدستورى للمجتمع الإسلامى.

والقاعدة الأولى: قاعدة التنظيم الاقتصادى، قاعدة ألا يكون المال دولة بين الأغنياء ، ممنوعا من التداول بين الفقراء ، فكل وضع ينتهى إلى أن يكون المال دولة بين الأغنياء وحدهم هو وضع يخالف النظرية الاقتصادية الاسلامية، كما يخالف هدفا من أهداف التنظيم الاجتماعى كله، وجميع الارتباطات والمعاملات فى المجتمع الإسلامى يجب أن تنظم بحيث لا تخلق مثل هذا الوضع أو تبقى عليه إن وجد .

وأما القاعدة الثانية : قاعدة تلقى الشريعة من مصدر واحد ، وهى كذلك تمثل النظرية الدستورية الإسلامية ، فسلطان القانون فى الإسلام مستمد من أن هذا التشريع جاء به الرسول ﷺ قرآنا ، أو سنة ، والأمة كلها والإمام معها لا تملك أن تخالف عما جاء به الرسول ، فإذا شرعت ما يخالفه لم يكن لتشريعها هذا سلطان ، وحين لا توجد نصوص فيما جاء به الرسول بخصوص أمر يعرض للأمة فسبيلها أن تشرع له بما لا يخالف أصلا من أصول ما جاء به الرسول ، وهذا لا ينقض تلك النظرية إنما هو فرع عنها ، وتربط الآية هاتين القاعدتين فى قلوب المؤمنين بمصدرهما الأول وهو الله ، فتدعوهم إلى التقوى وتخوفهم عقاب الله ، فهو شديد العقاب.

ويبين السياق من أصناف من تقدم من أصحاب الفىء من أحق بالعناية والرعاية ، وتأتى صورة صادقة تبرز فيها أهم الملامح المميزة للمهاجرين ..أخرجوا إخراجا من ديارهم وأموالهم، أكرههم على الخروج الأذى ، والاضطهاد ، والتنكر من قرابتهم وعشيرتهم فى مكة ، لا لذنب إلا أن يقولوا ربنا الله ، وقد خرجوا تاركين ديارهم وأموالهم واعتمادهم على الله فى فضله ورضوانه ، لا ملجأ لهم سواه ، ولا جناب لهم إلا حماه ، وهم مع أنهم مطاردون قليلون ، ينصرون الله ورسوله بقلوبهم وسيوفهم فى أحرج الساعات وأضيق الأوقات ، وأولئك هم الصادقون الذين قالوا كلمة الإيمان بألسنتهم وصدقوها بعملهم، وكانوا صادقين مع الله فى أنهم اختاروه، وصادقين مع رسوله فى أنهم اتبعوه، وصادقين مع الحق فى أنهم كانوا صورة تدب على الأرض ويراها الناس .

وتأتى صورة صادقة تبرز أهم الملامح المميزة للأنصار...تبؤوا دار الهجرة قبل المهاجرين، كما تبؤوا فيها الإيمان ، وكأنه منزل لهم ودار ، وقد كان دارهم ونزلهم ووطنهم الذى تعيش فيه قلوبهم ، وتسكن إليه أرواحهم ، ويثوبون إليه ويطمئنون له ، كما يثوب المرء ويطمئن إلى الدار ، ولم يعرف التاريخ كله حادثا جماعيًّا كحادث استقبال الأنصار للمهاجرين بهذا الحب الكريم وبهذا البذل السخى ، ولا يجدون فى أنفسهم شيئا فيما فضلهم الله به من المنزلة والشرف .

وهم يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم ، ويبدؤون بالناس قبلهم فى حال احتياجهم إلى ذلك ، ومن سلم من الشح فقد أفلح وأنجح ، فهذا الشح شح النفس هو المعوق عن كل خير ؛ لأن الخير بذل فى صورة من الصور ؛ بذل فى المال ، وبذل فى العاطفة ، وبذل فى الجهد ، وبذل فى الحياة عند الاقتضاء ، وما يمكن أن يصنع الخير شحيح .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ كل وضع ينتهى إلى أن يكون دولة بين الأغنياء وحدهم هو وضع يخالف النظرية الاقتصادية الإسلامية .

٢ ـ صدق المسلم فى أن يكون صورة من الحق تدب على الأرض .

٣ ـ شح النفس معوق عن كل خير .

الجزء الثامن والعشرون — سورة الحشر

وَالَّذِينَ جَاءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾

٥٤٧

معانى الكلمات :

غلا : حقدا وبغضا وغشا .

محصنة : محاطة بالأسوار والخنادق .

وراء جدر : وراء الحيطان .

بأسهم بينهم : قتالهم فيما بينهم .

تحسبهم : تظنهم .

شتى : متفرقة .

وبال أمرهم : سوء عاقبة أمرهم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على أهم ملامح التابعين وأخص خصائص الأمة .

٢ ـ أن نعلم قوة العلاقة بين المنافقين والذين كفروا من أهل الكتاب .

٣ ـ أن نعلم طبيعة المنافقين .

المحتوى التربوى :

تجيء الصورة الثالثة وهى تبرز أهم ملامح التابعين كما تبرز أخص خصائص الأمة المسلمة على الإطلاق فى جميع الأوطان والأزمان ، هؤلاء الذين يجيئون بعد المهاجرين والأنصار سمة نفوسهم أنها تتوجه إلى ربها فى طلب المغفرة،لا لذاتها ولكن كذلك لسلفها الذين سبقوا بالإيمان، وفى طلب براءة القلب من الغل للذين آمنوا على وجه الإطلاق ممن يربطهم رباط الإيمان مع الشعور برأفة الله ورحمته ، ودعائه بهذه الرحمة ، وتلك الرأفة .

يقول صاحب الظلال : « وتتجلى من وراء تلك النصوص طبيعة هذه الأمة المسلمة وصورتها الوضيئة فى هذا الوجود ، تتجلى الآصرة القوية الوثيقة التى تربط أول هذه الأمة بآخرها ، وآخرها بأولها فى تضامن وتكافل وتواد وتعاطف ، وشعور بوشيجة القربى العميقة

التى تتخطى الزمان والمكان والجنس والنسب ، وتنفرد وحدها فى القلوب ، تحرك المشاعر خلال القرون الطويلة ، فيذكر المؤمن بعد القرون المتطاولة ، كما يذكر أخاه الحى ، أو أشد فى إعزاز وكرامة وحب ، ويحسب السلف حساب الخلف ، ويمضى الخلف على آثار السلف ؛ صفا واحداً وكتيبة واحدة على مدار الزمان واختلاف الأوطان ، تحت راية الله تغذ السير صعداً إلى الأفق الكريم متطلعة إلى ربها الواحد الرؤوف الرحيم » .

ويرسم السياق صورة المنافقين ، فيحكى ما قاله المنافقون ليهود بنى النضير ثم لم يفوا به ، وخذلوهم فيه حتى أتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب ، وأول لفتة فى الآيات هى تقرير القرابة بين المنافقين والذين كفروا من أهل الكتاب ، فأهل الكتاب هؤلاء كفروا ، والمنافقون إخوانهم ولو أنهم يلبسون رداء الإسلام ، ثم هذا التوكيد الشديد فى وعد المنافقين لإخوانهم ، والله الخبير بحقيقتهم يقرر غير ما يقررون ، ويؤكد غير ما يؤكدون ، فهم كاذبون فيما وعدوهم به ؛ إما لأنهم قالوا لهم قولا ومن نيتهم ألا يفوا لهم به ؛ وإما لأنهم لا يقع منهم الذى قالوه ، وكان ما شهد به الله ، وكذب ما أعلنوه لإخوانهم وقرروه ، وعلى فرض أنهم فعلوا ما وعدوا ونصر المنافقون اليهود ولا ينصرون بعد ذلك ، أو اليهود ثم لا ينفعهم نصرة المنافقين .

ثم يقرر السياق حقيقة قائمة فى نفوس المنافقين وإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب ، فهم يرهبون المؤمنين أشد مما يرهبون الله ، ولو خافوا الله ما خافوا أحداً من عباده ، فإنما هو خوف واحد ورهبة واحدة ، ولا يجتمع فى قلب خوف من الله وخوف من شىء سواء ، فالعزة لله جميعا وكل قوى الكون خاضعة لأمره ، فمم يخاف إذن ذلك الذى يخاف الله ؟ ولكن الذين لا يفقهون هذه الحقيقة يخافون عباد الله أشد مما يخافون الله .

وهكذا يكشف عن حقيقة القوم الواقعة ، ويقرر فى الوقت ذاته تلك الحقيقة المجردة ، ويمضى يقرر حالة قائمة فى نفوس المنافقين والذين كفروا من أهل الكتاب ، تنشأ عن حقيقتهم السابقة ، ورهبتهم للمؤمنين أشد من رهبتهم لله ، وما تزال الأيام تكشف حقيقة الإعجاز فى « تشخيص » حالة المنافقين وأهل الكتاب حيثما التقى المؤمنون بهم فى أى زمان وفى أى مكان ، وتبقى الملامح النفسية الأخرى ؛ فعداوتهم بينهم شديدة ، وتراهم مجتمعين فتحسبهم مؤتلفين ، وهم مختلفون غاية الاختلاف .

يقول صاحب الظلال : « والمظاهر قد تخدع فنرى تضامن الذين كفروا من أهل الكتاب فيما بينهم ، ونرى عصبيتهم بعضهم لبعض ، كما نرى تجمع المنافقين أحيانا فى معسكر واحد ، ولكن الخبر الصادق من السماء يأتينا بأنهم ليسوا كذلك فى حقيقتهم ؛ إنما هو مظهر خارجى خادع ،

وبين الحين والحين يتكشف هذا الستار الخادع .. عن نزاع فى داخل المعسكر الواحد ، قائم على اختلاف المصالح وتفرق الأهواء ، وتصادم الاتجاهات ... وما صبر المؤمنون وثبتوا إلا وشهدوا مظهر التماسك بين أهل الباطل يتفسخ وينهار ، وينكشف عن الخلاف الحاد والشقاق والكيد والدس فى القلوب الشتيتة المتفرقة ...

والقرآن يقر هذه الحقيقة فى قلوب المؤمنين ؛ ليهون فيها من شأن أعدائهم ، ويرفع منها هيبة هؤلاء الأعداء ورهبتهم ، فهو إيحاء قائم على حقيقة ، وتعبئة روحية ترتكن إلى حق ثابت، ومتى أخذ المسلمون قرآنهم مأخذ الجد هان عليهم أمر عدوهم وعدو الله ، وتجمعت قلوبهم فى الصف الواحد ، فلم تقف لهم قوة فى الحياة ، والمؤمنون بالله ينبغى لهم أن يدركوا حقيقة حالهم وحال أعدائهم ، فهذا نصف المعركة » .

ولم يكن حادث بنى النضير هو الأول من نوعه ، فقد سبقه حادث بنى قينقاع وقد كتب عليهم الجلاء قبلهم ووقعة بنى قينقاع كانت بعد غزوة بدر وقبل غزوة أحد ، وكان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد ، فلما انتصر المسلمون على المشركين فى بدر كره اليهود ذلك ، وحقدوا على المسلمين أن ينالوا هذا الانتصار العظيم ، وخافوا أن يؤثر هذا على موقفهم فى المدينة فيضعف من مركزهم بقدر ما يقوى من مركز المسلمين .

وبلغ رسول الله ﷺ ما يتهامسون به وما يفكرون به من الشر ، فذكرهم العهد وحذرهم مغبة هذا الاتجاه ، فردوا رداً غليظاً مغيظا فيه تهديد ، قالوا : يا محمد ، إنك لترى أنا قومك ، لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس ، ثم أخذوا يتحرشون بالمسلمين ، حتى وقع الشر بينهم وبين المسلمين .

وحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على حكمه ، ورضى الرسول ﷺ فى النهاية أن يجلوا عن المدينة ، وأن يأخذوا معهم أموالهم ومتاعهم إلا السلاح ورحلوا إلى الشام ، ويضرب للمنافقين الذين أغروا إخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب بالمقاومة ، فانتهوا بهم إلى تلك النهاية البائسة ، يضرب لهم مثلا بحال دائمة ، حال الشيطان مع الإنسان الذى يستجيب لإغرائه فينتهى وإياه إلى شر مصير .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ سمة نفوس الصالحين التوجه إلى ربها لطلب المغفرة لها ولسلفها الذين سبقوا بالإيمان .

٢ ـ خلق الوعد آية النفاق وعلامته البارزة .

٣ ـ الجبن والخوف صفة من صفات اليهود اللازمة لهم ولا تنفك عنهم .

الجزء الثامن والعشرون — سورة الحشر

فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ
نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ
﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ
ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا
ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ
ٱللَّهِۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ
﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ
هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ
﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰۚ
يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

سُورَةُ المُمتَحَنَة

٥٤٨

معانى الكلمات :

نسوا الله : لم يراعوا أوامره ونواهيه .

فأنساهم أنفسهم : فلم يقدموا لها ما ينفعها عنده .

خاشعا : ذليلا خاضعا .

متصدعا : متشققا .

القدوس : البليغ فى النزاهة عن النقائص .

المؤمن : المصدق لرسله بالمعجزات .

المتكبر : البليغ الكبرياء والعظمة .

البارئ : المبدع المخترع .

الأهداف الإجرائية السلوكية :

١ ـ أن نستشعر مراقبة الله ـ تعالى ـ والنظر يوميا فيما قدم الإنسان للآخرة وما أخر .

٢ ـ أن نعلم عدم التساوى بين أهل النار وأهل الجنة .

٣ ـ أن نعلم أن المنهج الكامل فى التفكير، والشعور،والسلوك قائم على أساس وحدانية الإله .

المحتوى التربوى :

صورة الشيطان هنا ودوره مع من يستجيب له من بنى الإنسان تتفقان مع طبيعته ومهمته ، فأعجب العجب أن يستمع إليه الإنسان ، وحاله هو هذا الحال ؛ فإنه إذا غرّ إنسانا ووعده على اتباعه وكفره بالله ، والنصرة عند الحاجة إليه ، فلما كفر بالله واتبعه وأطاعه ، قال مخافة أن يشركه فى عذابه مسلما له وخاذلا ؛ إنى برىء منك فلا أعينك فى نصرتك ، إنى أخاف الله ، فلم ينفعه التبرؤ ، كما لم ينفع الأول وعده بالإعانة ، فكانت عاقبتهما الكفر ومصيرهما إلى نار جهنم خالدين فيها وذلك جزاء كل ظالم .

ثم يتجه الخطاب إلى المؤمنين ، يهتف بهم باسم الإيمان ، ويناديهم بالصفة التى تربطهم بصاحب الخطاب ، وتيسر عليهم الاستجابة لتوجيهه وتكليفه ، يتجه إليهم ليدعوهم إلى التقوى

والنظر فيما أعدوه للآخرة ، واليقظة الدائمة والحذر من نسيان الله كالذين نسوه من قبل ، ممن رأوا مصير فريق منهم ، وممن كتب عليهم أنهم من أصحاب النار ، والتقوى حالة فى القلب يشير إليها اللفظ بظلاله ، ولكن العبارة لا تبلغ تصوير حقيقتها ، حالة تجعل القلب يقظا حساسا شاعراً بالله فى كل حالة ، خائفا متحرجا مستحييًا أن يطلع عليه الله فى حالة يكرهها ، وعين الله على كل قلب فى كل لحظة ، فمتى يأمن ألا يراه ؟ !

ولتنظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم ، وحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وبمجرد خطور يوم الحساب على القلب يفتح أمامه صفحة أعماله بل صفحة حياته ، ويمد ببصره فى سطوره كلها يتأملها ، وينظر رصيد حسابه بمفرداته وتفصيلاته ؛ لينظر ماذا قدم لغده فى هذه الصفحة ، وهذا التأمل كفيل بأن يوقظه إلى مواضع ضعف ومواضع نقص ومواضع تقصير ، مهما يكن قد أسلف من خير وبذل من جهد ، فكيف إذا كان رصيده من الخير قليلا ، ونصيبه من البر ضئيلا ؟ إنها لمسة لا ينام بعدها القلب أبداً ، ولا يكف عن النظر والتقليب ، ولا تنتهى الآية التى تثير كل هذه المشاعر حتى تلح على القلوب المؤدية بمزيد من اليقظة ، ومزيد من التقوى ، والله عليم بكل الأعمال والأحوال .

ويأتى التحذير من نسيانهم ذكر الله ، فينسيهم الله العمل الصالح الذى ينفع فى المعاد ، والذى ينسى الله يهيم فى هذه الحياة بلا رابطة تشده إلى أفق أعلى ، وبلا هدف لهذه الحياة يرفعه عن السائمة التى ترعى ، وفى هذا نسيان لإنسانيته ، وهذه الحقيقة تضاف إليها أو تنشأ عنها حقيقة أخرى ، وهى نسيان هذا المخلوق لنفسه فلا يدخر لها زادًا للحياة الطويلة الباقية ، ولا ينظر فيما قدم لها فى الغداة من رصيد ، وهؤلاء هم المنحرفون الخارجون .

وفى الآية التالية يقرر أن هؤلاء هم أصحاب النار ، ويشير للمؤمنين ليسلكوا طريقا غير طريقهم وهم أصحاب الجنة ، وطريق أصحاب الجنة غير طريق أصحاب النار لا يستويان طبيعة وحالا ، ولا طريقا ولا سلوكا ، ولا وجهة ولا مصيرًا ، فهما على مفرق طريقين لا يلتقيان أبداً فى طريق ، ولا يلتقيان أبداً فى سمة ، ولا يلتقيان أبدا فى خطة ، ولا يلتقيان أبداً فى سياسة ، ولا يلتقيان أبداً فى صف واحد فى دنيا ولا آخرة ، ويثبت مصير أصحاب الجنة ، ويدع مصير أصحاب النار مسكوتا عنه معروفا ، وكأنه ضائع لا يعنى به التعبير .

ويعرض أثر القرآن فى الصخر الجامد لو تنزل عليه ، فإذا كان الجبل فى غلظته وقساوته ، لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه ، لخشع وتصدع من خوف الله ـ عز وجل ـ فكيف يليق بكم أيها البشر ألا تلين قلوبكم وتخشع، وتتصدع من خشية الله ، وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه؟ وكذلك يضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون ، وهى خليقة بأن توقظ القلوب للتأمل والتفكير .

وتجيء التسبيحة المديدة بأسماء الله الحسنى ،و كأنها هى أثر من آثار القرآن فى كيان الوجود كله، ينطلق بها لسانه وتتجاوب بها أرجاؤه، وهذه الأسماء واضحة الآثار فى صميم هذا الوجود،

وفى حركته وظواهره ، فهو إذ يسبح بها يشهد كذلك بآثارها ، ولكل اسم من هذه الأسماء الحسنى أثر فى هذا الكون ملحوظ ، وأثر فى حياة البشر ملموس ، فهى توحى إلى القلب بفاعلية هذه الأسماء والصفات ، فاعلية ذات أثر وعلاقة بالناس والأحياء ، وليست هى صفات سلبية أو منعزلة عن كيان هذا الوجود ، وأحواله ، وظواهره المصاحبة لوجوده .

وتتقرر فى الضمير وحدانية الاعتقاد ، ووحدانية العبادة ، ووحدانية الاتجاه ، ووحدانية الفاعلية من مبدأ الخلق إلى منتهاه ، ويقوم على هذه الوحدانية منهج كامل فى التفكير والشعور والسلوك ، وارتباطات الناس بالكون وسائر الأحياء ، وارتباطات الناس بعضهم ببعض على أساس وحدانية الإله ، ويستقر فى الضمير الشعور بعلم الله للظاهر والمستور ، ومن ثم تستيقظ مراقبة هذا الضمير لله فى السر والعلانية ، ويعمل الإنسان كل ما يعمل بشعور المراقب من الله المراقب لله ، الذى لا يعيش وحده ولو كان فى خلوة أو مناجاة ، ويكيف سلوكه بهذا الشعور الذى لا يغفل بعده قلب ولا ينام .

ويستقر فى الضمير شعور الطمأنينة لرحمة الله والاسترواح،ويتعادل الخوف والرجاء،والفزع والطمأنينة ، ويستقر فى الضمير ألا ملك إلا الله الذى لا إله إلا هو ، وإذا توحدت الملكية لم يبق للمملوكين إلا سيد واحد يتجهون إليه ، ولا يخدمون غيره ، ويأتى اسم القدوس يشع القداسة المطلقة ، والطهارة المطلقة ، ويلقى فى ضمير المؤمن هذا الإشعاع الطهور ، فينظف قلبه هو ويطهره ؛ ليصبح صالحا لتلقى فيوض الملك القدوس ، ويأتى اسم السلام فيشيع السلام والأمن والطمأنينة فى جنبات الوجود ، وفى قلب المؤمن تجاه ربه ، فهو آمن فى جواره ، سالم فى كنفه ، ويؤوب القلب من هذا الاسم بالسلام والراحة والاطمئنان ، والله وحده واهب الأمن وواهب الإيمان ، ولفظ هذا الاسم يشعر القلب بقيمة الإيمان .

وتجيء صفات تتعلق بذات الله فاعلة فى الكون والناس توحى بالسلطان والرقابة ، فهو الشاهد على خلقه بأعمالهم ، وصفات العزيز الجبار المتكبر صفات توحى أيضا بالغلبة والقهر والجبروت والاستعلاء ، وليس غيره بإله فهو الإله الواحد الذى إذا أراد شيئا قال له : كن فيكون على الصفة التى يريد ، والصورة التى يختار ، فهو الخالق البارئ المصور ، وهو بلا حاجة إلى استحسان من الخلق ، ولا توقف على استحسانهم فله الأسماء الحسنى وتنتهى السورة بمشهد التسبيح لله يشيع فى جنبات الوجود ، وينبعث من كل موجود فهو العزيز ذو الحكمة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ مهما يكن المسلم أسلف من خير وبذل ومن جهد ، فعليه أن يتيقظ إلى أن فيه مواضع ضعف ، ومواضع نقص ، ومواضع تقصير .

٢ ـ للقرآن ثقل وسلطان وخليق بالقلوب أن تتيقظ للتأمل والتفكير فيه .

٣ ـ الأسماء الحسنى ترشد العقول إلى قدرة الله البالغة وتقرر فى الضمير وحدانية الاعتقاد ، ووحدانية العبادة ، ووحدانية الاتجاه ، ووحدانية الفاعلية من مبدأ الخلق إلى منتهاه .

الجزء الثامن والعشرون — سورة الممتحنة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥)

٥٤٩

معانى الكلمات :

أولياء : أعوانا وأحباء .

ابتغاء : طلبا .

يثقفوكم : يظفروا بكم .

يبسطوا إليكم : يمدوا إليكم .

أسوة : قدوة .

برآء : أبرياء .

أنبنا : رجعنا .

فتنة : مفتونين .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نستشعر حرمة موالاة الكافرين بالنصرة والمودة دون المسلمين .

٢ ـ أن نعلم شدة العداوة من الكافرين للمؤمنين .

٣ ـ أن نتعرف على طريق الأنبياء والمؤمنين .

المحتوى التربوى :

تبدأ السورة بذلك النداء الودود الموحى ، نداء من ربهم الذى آمنوا به ، يدعوهم باسم الإيمان الذى ينسبهم إليه، يدعوهم ليبصرهم بحقائق موقفهم ، ويحذرهم حبائل أعدائهم ، ويذكرهم بالمهمة الملقاة على عاتقهم ، وفى مودة يجعل عدوهم عدوه وعدوه عدوهم ، فيشعر المؤمنين بأنهم منه وإليه ، يعاديهم من يعاديه ، فهم رجاله المنتسبون إليه الذين يحملون شارته فى هذه الأرض ، وهم أولياؤه وأحباؤه ، فلا يجوز أن يلقوا بالمودة إلى أعدائهم وأعدائه .

ويذكرهم بجريرة هؤلاء الأعداء عليهم وعلى دينهم وعلى رسولهم ، وعدوانهم على هذا كله فى تجن وظلم ، فماذا أبقوا بعد هذه الجرائر الظالمة للموالاة والمودة ؟ كفروا بالحق وأخرجوا الرسول والمؤمنين ، لا لشىء إلا لأنهم آمنوا بالله ربهم ؟

ويبرز القضية التى عليها الخلاف والخصومة والحرب ، فهى قضية العقيدة دون سواها ، قضية الحق الذى كفروا به والرسول الذى أخرجوه ، والإيمان الذى من أجله أخرجوهم ، وإذا تمحضت القضية هكذا وبرزت ، ذكرهم بأنه لا محل إذن للمودة بينهم وبين المشركين إن كانوا قد خرجوا من ديارهم ابتغاء رضوان الله وجهاداً فى سبيله ، فما يجتمع فى قلب أن يهاجر جهاداً فى سبيل الله ابتغاء مرضات الله مع مودة لمن أخرجه من أجل إيمانه بالله ، وهو عدو الله وعدو رسوله .

ثم يحذرهم تحذيراً خفيا مما تكن قلوبهم ، وما يسرون به إلى أعدائهم وأعداء الله من المودة ، وهو مطلع على خفية القلوب وعلانيتها ، ثم يهددهم تهديداً مخيفا ، يثير فى القلب المؤمن الوجل والمخافة ، وهل يخيفه شىء أكبر من أن يضل سواء السبيل بعد الهداية والوصول ؟ ! وهذا التهديد وذلك التحذير يتوسطان تبصير المؤمنين بحقيقة أعدائهم وما يضمرون لهم من الشر والكيد ، ثم تجىء البقية ؛ فلا تعرض لهم فرصة يتمكنون فيها من المسلمين حتى يتصرفوا معهم تصرف العدو الأصيل ، ويوقعوا بهم ما يملكون من أذى ومن تنكيل بالأيدى وبالألسنة وبكل وسيلة وكل سبيل ، والأشد من هذا يودون أن يخسر المؤمن كنز الإيمان ويرتد إلى الكفر .

ويمضى السياق فيعالج مشاعر القرابة ووشائجها المتأصلة ، والتى تشتجر فى القلوب فتجرها جرّا إلى المودة وتنسيها تكاليف التميز بالعقيدة ، فالمؤمن يعمل ويرجو الآخرة ، يزرع هنا وينتظر الحصاد هناك ، فلمسة قلبه بما يكون فى الآخرة من تقاطيع وشائج القربى ، كلها إذا انقطعت وشيجة العقيدة ، من شأنها أن تهون عنده شأن هذه الوشائج فى فترة الحياة الدنيا القصيرة ، وتوجهه إلى طلب الوشيجة الدائمة التى لا تنقطع فى دنيا ولا فى آخرة ، ومن ثم يقول لهم : قراباتكم لا تنفعكم عند الله إذا أراد بكم سوءًا ، ونفعهم لا يصل إليكم إذا أرضيتموهم بما يسخط الله، ومن وافق أهله على الكفر ليرضيهم فقد خاب وخسر وضل عمله ، ولا ينفعه عند الله قرابته من أحد ، ذلك أن يوم القيامة يتم إثابة المؤمنين ومعاقبة العاصين ، والله مطلع على العمل الظاهر والنية وراءه فى الضمير .

ويمضى السياق فيصل المسلمين بأول هذه الأمة الواحدة : أمة التوحيد ، وهذه القافلة الواحدة ، قافلة الإيمان ، فإذا هى ممتدة فى الزمان متميزة الإيمان ، متبرئة من كل ما ينافى العقيدة ، إنها الأمة الممتدة منذ إبراهيم ، وفيه أسوة لا فى العقيدة وحدها بل كذلك فى السيرة ، وفى التجارب التى عاناها مع عاطفة القرابة ، ثم خلص منها هو ومن آمن معه ، وتجرد لعقيدته وحدها ، وينظر المسلم فإذا له نسب عريق ، وماض طويل ، وأسوة ممتدة على آماد الزمان ، فيشعر أن له رصيداً من التجارب أكبر من رصيده الشخصى وأكبر من رصيد جيله الذى يعيش فيه ، فهؤلاء المؤمنون الواقفون تحت راية الله ، قد مروا بمثل ما يمر به ، فليس الأمر جديداً ولا مبتدعا ولا تكليفا يشق على المؤمنين ، وله أمة طويلة عريضة يلتقى معها فى العقيدة ويرجع إليها إذا نبتت الروابط بينه وبين أعداء عقيدته .

مر إبراهيم والذين معه بالتجربة التى يعانيها المسلمون المهاجرون ، وفيهم أسوة حسنة ؛ من مباينة الكفار ومعاداتهم ، وترك موالاتهم إلا فى قول إبراهيم لأبيه : لأستغفرن لك ، فإنه لا أسوة لكم فيه فى ذلك ، لأن ذلك كان من إبراهيم لأبيه عن موعدة وعدها إياه قبل أن يتبين له أنه عدو لله ، فلما تبين له أنه عدوٌّ لله تبرأ منه ، فكذلك أنتم أيها المؤمنون بالله تبرؤوا من أعداء الله المشركين به ، ولا تتخذوا منهم أولياء ، وأظهروا لهم العداوة والبغضاء ، حتى يؤمنوابالله وحده ويتبرؤوا من عبادة ما سواه .

ولقد كان بعض المسلمين يجد فى استغفار إبراهيم لأبيه المشرك ثغرة تنفذ منها عواطفهم الحبيسة ومشاعرهم الموصولة بذوى قرباهم من المشركين ، فجاء القرآن ليشرح لهم حقيقة موقفه عليه السلام : فلقد قال هذا قبل أن يستيقن من إصرار أبيه على الشرك ، وهو يرجو إيمانه ويتوقعه ، وإبراهيم عليه السلام فوض الأمر كله لله ، وتوجه إليه بالتوكل والإنابة والرجوع إليه على كل حال ، وهذا التسليم المطلق لله ، هو السمة الإيمانية الواضحة فى إبراهيم يبرزها هنا ليوجه إليها قلوب أبنائه المسلمين .

ويستطرد لهذا فى إثبات بقية دعاء إبراهيم ونجواه لمولاه ؛ إذ يقولون : لو كان الإيمان يحمى أهله ما سلطنا عليهم وقهرناهم ، وهى الشبهة التى كثيراً ما تحيك فى الصدور ، حين يتمكن الباطل من الحق ، ويتسلط الطغاة على أهل الإيمان ـ لحكمة يعلمها الله فى فترة من الفترات ، والمؤمن يصبر للابتلاء ، ولكن هذا لا يمنعه أن يدعو الله ألا يصيبه البلاء الذى يجعله فتنة وشبهة تحيك فى الصدور .

ويأتى طلب المغفرة إدراكا منه لمستوى العبادة التى يستحقها منه ربه ، وعجزه ببشريته عن بلوغ المستوى الذى يكافئ به نعم الله وآلاءه ، ويمجد جلاله وكبرياءه فيطلب المغفرة من ربه ؛ ليكون فى شعوره وفى طلبه أسوة لمن معه ولمن يأتى بعده ، ويختم دعاءه وإنابته واستغفاره ، فيصف ربه بصفته المناسبة لهذا الدعاء ، فهو القادر على الفعل ، الحكيم فيما يمضى من تدبير .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ على المؤمنين ألا تبقى فى قلوبهم مودة للمشركين الذين يعتدون عليهم ويحاربونهم وينقضون عهدهم .

٢ ـ لا ينفع الإنسان يوم القيامة إلا عمله الصالح ، أما الأقارب والأصدقاء والأموال فلن ينفعوه بشىء .

٣ ـ أمة التوحيد أمة واحدة ممتدة فى الزمان ، على المؤمنين أن يقتدوا بها فى طريق حياتهم .

الجزء الثامن والعشرون — سورة الممتحنة

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ
وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ (٦) عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ
بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
(٧) لَّا يَنْهَاكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم
مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ
(٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم
مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلظَّالِمُونَ (٩) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ
مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ
فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم
مَّآ أَنفَقُوا۟ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ
وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟
ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) وَإِن فَاتَكُمْ
شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ
أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ (١١)

٥٥٠

معانى الكلمات :

مودة : محبة وألفة .

تبروهم : تحسنوا إليهم وتكرموهم .

تقسطوا إليهم : تعدلوا معهم .

أن تولوهم : تتخذوهم أولياء .

أجورهن : مهورهن .

بعصم الكوافر : بعقود نكاح المشركات .

فاتكم شيء : انفلت أحد بردة .

فعاقبتم : فغزوتم فغنمتم منهم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف حكم الموالاة الممنوعة والمباحة فى الإسلام .

٢ ـ أن نتعلم قواعد معاملة المؤمنات اللاتى يهاجرن من دار الكفر إلى دار الإيمان .

٣ ـ أن نعلم أن العقيدة هى الراية الوحيدة التى يقف تحتها المسلمون .

المحتوى التربوى :

فى نهاية العرض لموقف إبراهيم والذين معه ، وفى استسلام إبراهيم وإنابته يعود فيقرر الأسوة ويكررها ، مع لمسة جديدة لقلوب المؤمنين ، فالأسوة فى إبراهيم والذين معه متحققة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، هؤلاء هم الذين يدركون قيمة التجربة التى عاناها هذا الرهط الكريم ، ويجدون فيها أسوة تتبع ، وسابقه تهدى ، فمن كان يرجو الله واليوم الآخر فليتخذ منها أسوة ،و أما من يريد أن يتولى عن هذا المنهج ، من يريد أن يحيد عن طريق القافلة ، فما بالله من حاجة إليه سبحانه ، فهو الغنى الحميد .

ويقرر السياق أن الإسلام دين سلام ، وعقيدة حب ، ونظام يستهدف أن يظلل العالم كله بظله ، وأن يقيم فيه منهجه ، وأن يجمع الناس تحت لواء الله إخوة متعارفين متحابين ، وليس

هنالك من عائق يحول دون اتجاهه هذا إلا عدوان أعدائه عليه وعلى أهله ، فأما إذا سالموهم فليس الإسلام براغب فى الخصومة ولا متطوع بها كذلك ، وهو حتى فى حالة الخصومة يستبقى أسباب الود فى النفوس بنظافة السلوك وعدالة المعاملة ، انتظاراً لليوم الذى يقتنع فيه خصومه بأن الخير فى أن ينضووا تحت لوائه الرفيع ، ولا ييأس الإسلام من هذا اليوم الذى تستقيم فيه النفوس ، فتتجه هذا الاتجاه المستقيم .

وفى الآية الأولى إشارة إلى هذا الرجاء الذى لا يغلب عليه اليأس ، فى معرض التخفيف على نفوس بعض المهاجرين ، وتغذية قلوبهم المتعبة بمشقة المقاطعة والحرب للأهل والعشيرة ، وهذا الرجاء معناه القطع بتحققه ، ولقد وقع بعد هذا بوقت قصير أن فتحت مكة ، وأن أسلمت قريش ، وأن وقف الجميع تحت لواء واحد ، كأن طويت الثارات وعاد الجميع إخوة مؤتلفى القلوب ؛ والله يفعل ما يريد بلا معقب ، ويغفر ما سلف من الشرك والذنوب .

وإلى أن يتحقق وعد الله الذى دل عليه لفظ الرجاء رخص الله لهم فى موادة من لم يقاتلوهم فى الدين ولم يخرجوهم من ديارهم ، ورفع عنهم الحرج فى أن يبروهم ، وأن يتحروا العدل فى معاملاتهم معهم فلا يبخسوا من حقوقهم شيئا ، ولكنه نهى أشد النهى عن الولاء لمن قاتلوهم فى الدين وأخرجوهم من ديارهم وساعدوا على إخراجهم ، وحكم على الذين يتولونهم بأنهم هم الظالمون ، وتلك القاعدة فى معاملة غير المسلمين هى أعدل القواعد التى تتفق مع طبيعة هذا الدين ووجهته ونظرته إلى الحياة الإنسانية بل نظرته الكلية لهذا الوجود ، الصادر عن إله واحد المتجه إلى إله واحد ، وهى أساس شريعته الدولية ، التى تجعل حالة السلم بينه وبين الناس جميعا هى الحالة الثابتة ، لا يغيرها إلا وقوع الاعتداء الحربى وضرورة رده ، أو خوف الخيانة بعد المعاهدة ، أو الوقوف بالقوة فى وجه حرية الدعوة وحرية الاعتقاد .

يقول صاحب الأساس : « **قال ابن كثير** : إنما ينهاكم عن موالاة هؤلاء الذين ناصبوكم بالعداوة فقاتلوكم وأخرجوكم وماتوا على إخراجكم ، ينهاكم الله عز وجل عن موالاتهم ويأمركم بمعاداتهم ، فمواطنون من غير المسلمين إذا لم يدخلوا فى صراع معنا أو قتال وإذا لم يبذلوا جهداً من أجل إخراجنا من بلادنا فهؤلاء يجوز البر لهم والعدل فيهم ، أما الولاء لهم فلا ، وأعظم مظاهر الولاء فى عصرنا الدخول معهم فى حزب واحد ، يعطيهم المسلم من خلاله الولاء ويحجبه عن المسلمين ، وأما الذين يريدون استئصال ديننا وفتنتنا عنه فهؤلاء لا ولاء لهم بل عداء ، لأن الفتنة أكبر من القتل ،ومن ثَمَّ فالعمل الإسلامى المعاصر يجب أن يحدد علاقته ومواقفه من هؤلاء وأولئك » .

وهذه هى القاعدة التى تتفق مع التصور الإسلامى الذى يجعل القضية بين المؤمنين ومخالفيهم هى قضية هذه العقيدة دون غيرها ، ويجعل القيمة التى يضن بها المؤمن ويقاتل دونها هى قضية العقيدة وحدها ، فليس بينهم وبين الناس ما يتخاصمون عليه ، ويتقاتلون إلا حرية الدعوة وحرية الاعتقاد ، وتحقيق منهج الله فى الأرض وإعلاء كلمة الله ، فالعقيدة هى الراية

الوحيدة التى يقف تحتها المسلمون ، فمن وقف معهم تحتها فهو منهم ، ومن قاتلهم فيها فهو عدوهم ، ومن سالمهم فتركهم لعقيدتهم ودعوتهم ولم يصد الناس عنها ، ولم يحل بينهم وبين سماعها، ولم يفتن المؤمنين بها ، فهو مسالم لا يمنع الإسلام من البر به والقسط معه .

ولما كان الرسول ﷺ والمسلمون معه بأسفل الحديبية ، جاءته نساء مؤمنات يطلبن الهجرة والانضمام إلى دار الإسلام فى المدينة ، أو جاءت قريش تطلب ردهن تنفيذًا للمعاهدة ، ونزلت أحكام هذه الحالة الدولية ، تنظم التعامل فيها على أعدل قاعدة تتحرى العدل فى ذاته دون تأثر بسلوك الفريق الآخر ، وأول إجراء هو امتحان هؤلاء المهاجرات لتحرى سبب الهجرة ، فلا يكون تخلصا من زواج مكروه ، ولا طلبا لمنفعة ، ولا جريا وراء حب فردى فى دار الإسلام ، وهذا الامتحان كان يعتمد على ظاهر حالهن ، وإقرارهن مع الحلف بالله ، فأما خفايا الصدور فأمرها إلى الله ، لا سبيل للبشر إليها ، فإذا ما أقررن هكذا فلا تردوهنَّ إلى الكفار ؛لانقطاع النكاح بينهن .

قال ابن كثير : « وهذه الآية هى التى حرمت المسلمات على المشركين ، وقد كان جائزاً فى ابتداء الإسلام أن يتزوج المشرك المؤمنة .

ويقرر السياق إعطاء المشركين الذين جاءت نساؤهم مؤمنات ، ولم يرجعهن إليهم ـ ما أنفقوا فى نكاحهم إياهن من الصداق ، وإذا أعطيتموهن أصدقتهن فأنكحوهن بشرطه من انقضاء العدة والولى وغير ذلك ، ثم أشار إلى أنه كما بطل نكاح المؤمنة على الكافر ، بطل نكاح الكافرة على المسلم ، ولا تمسكوا أيها المؤمنون بحبال النساء الكوافر وأسبابهن ، واطلبوا أيها المؤمنون الذين ذهبت أزواجهم فلحقن بالمشركين ما أنفقتم على أزواجكم اللواتى لحقن بهم من الصداق ، مَنْ تزوجن منهم ، وليسألكم المشركون منهم ، الذين لحق بكم أزواجهم مؤمنات ، إذا تزوجن فيكم ، مَنْ تزوجها منهم ، ما أنفقوا عليهن من الصداق ، وهذا الحكم الذى حكم به من أمر المؤمنين بمسألة المشركين ما أنفقوا وأمر المشركين بمثل ذلك ، حكم الله الذى لا يعدل عنه .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ حالة السلم بين المسلم والناس جميعا هى الحالة الثابتة ، لا يغيرها إلا وقوع الاعتداء الحربى وضرورة رده أو خوف الخيانة بعد المعاهدة أو الوقوف بالقوة فى وجه حرية الدعوة وحرية الاعتقاد .

٢ ـ لا يحل للمؤمنة أن تتزوج بكافر أو مشرك ، ولا للمؤمن أن يتزوج بكافرة أو مشركة .

٣ ـ للنساء مثلما للرجال من حقوق ، وعليهن مثلما على الرجال من واجبات ، فالشريعة الإسلامية لم تفرق بينهما فى شىء إلا بما تقتضيه طبيعة كل منهما ورسالته فى الحياة .



معانى الكلمات :

ببهتان : بإلصاق اللقطاء بالأزواج .

يفترينه : يختلقنه .

لا تتولوا : لا تتخذوا أولياء .

كبر مقتا : عظم بغضا بالغ الغاية .

صفا : صافين أنفسهم أو مصفوفين .

بنيان مرصوص : متلاصق محكم لا فرجة فيه .

زاغوا : مالوا باختيارهم عن الحق .

أزاغ الله قلوبهم : حرمهم التوفيق لاتباع الحق .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على حكم مبايعة النساء للرسول ﷺ، وشروط هذه البيعة .

٢ ـ أن نستشعر تمجيد الكون كله لله ـ تعالى ـ وكبر التناقض بين القول والفعل .

٣ ـ أن نعلم بعض المراحل التى مر بها منهج الله للبشرية حتى وصل إلى صورته الأخيرة ، وهى رسالة الإسلام التى جاء بها محمد ﷺ .

المحتوى التربوى :

بيّن الرسول الله ﷺ كيف يبايعهن على الإيمان ، هن وغيرهن ممن يردن الدخول فى الإسلام ، وعلى أى الأسس يبايعهن ، وهذه الأسس هى المقومات الكبرى للعقيدة ، كما أنها مقومات الحياة الاجتماعية الجديدة ، إنها عدم الشرك بالله إطلاقا ، وعدم إتيان الحدود ، السرقة والزنا ، وعدم قتل الأولاد ، إشارة إلى ما كان يجرى فى الجاهلية من وأد البنات ، كما أنه يشمل قتل الأجنة لسبب من الأسباب وهن أمينات على ما فى بطونهن ، ولا يلحقن بأزواجهن غير أولادهن ، والشرط الأخير يشمل الوعد بطاعة الرسول ﷺ فى كل ما يأمرهن به،وهو لا يأمر إلا بمعروف،

ولكن هذا الشرط ، هو أحد قواعد الدستور فى الإسلام ، وهو يقرر أن لا طاعة مطلقة لولى الأمر فى كل أمر ، وهى القاعدة التى تجعل قوة التشريع والأمر مستمدة من شريعة الله ، فإذا بايعن على هذه الأسس الشاملة قبلت بيعتهن ، واستغفر لهن الرسول ﷺ عما سلف ، والله يغفر ويرحم ويقيل العثرات .

وفى الختام يجىء الهتاف للذين آمنوا باسم الإيمان ، وبالصفة التى تميزهم عن سائر الأقوام ؛ إذ تصلهم بالله وتفصلهم عن أعداء الله اليهود والمشركين وكل أعداء الله ، وكلهم غضب عليه الله ، وكلهم يائس من الآخرة ، لا يعلق بها رجاء ، ولا يحسب لها حسابا كيأس الكفار من الموتى أصحاب القبور لاعتقادهم أن أمرهم انتهى ، وما عاد لهم من بعث ولا حساب .

سورة الصف

يجىء التسبيح من الوجود كله لله العزيز الحكيم فى مطلع السورة التى تعلن للمسلمين أن دينهم هو الحلقة الأخيرة فى دين الله ، وأنهم هم الأمناء على هذا الدين الذى يوحد الله ، وينكر على الكافرين المشركين كفرهم وشركهم والذى يدعوهم للجهاد لنصرته ، وقد قدر الله أن يظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، فيوحى هذا المطلع أن الأمانة التى يقوم عليها المسلمون هى أمانة الوجود كله .

ثم يعاتب الله الذين آمنوا عتابا شديداً على أمر حدث من طائفة منهم ، أمر يكرهه الله أشد الكره ، ويمقته أكبر المقت ، ويستفظعه من الذين آمنوا على وجه الخصوص ؛ لأن الكذب ينافى المروءة التى هى من مبادئ الإيمان فضلا عن كماله ، إذ الإيمان الأصلى هو الرجوع إلى الفطرة الأولى ، والدين القيم ، وهى تستلزم أجناس الفضائل بجميع أنواعها ، التى أقل درجاتها العفة المقتضية للمروءة ، والكاذب لا مروءة له ، فلا إيمان له حقيقة ، فالآية تبدأ بعتاب على حادث وقع أو حوادث ، وتثنى باستنكار لهذا الفعل ، وهذا الخلق فى صيغة تضخم استنكار المقت الذى يكبر عند الله ، هو أكبر المقت وأشد البغض وأنكر المنكر ، وهذا غاية فى تفظيع الأمر ، وبخاصة فى ضمير المؤمن ، الذى ينادَى بإيمانه ، والذى يناديه ربه الذى آمن به ، والآية الثالثة تشير إلى الموضوع المباشر الذى قالوا فيه ما لم يفعلوا ، وهو الجهاد ، وتقرر ما يحبه الله فيه ويرضاه ، فليس هو مجرد القتال ولكنه هو القتال فى سبيله، والقتال فى تضامن مع الجماعة المسلمة داخل الصف ، والقتال فى ثبات وصمود .

يقول صاحب الظلال : « إن القرآن فى هذا الجزء كان يبنى أمة ، كان يبنيها لتقوم على أمانة دينه فى الأرض ومنهجه فى الحياة ، ونظامه فى الناس ، ولم يكن بد أن يبنى نفوسها أفراداً ويبنيها جماعة ، ويبنيها عملا واقعا ، كلها فى آن واحد ، فالمسلم لا يبنى فرداً إلا فى جماعة ، ولا يتصور

الإسلام قائما إلا فى محيط جماعة منظمة ذات ارتباط ، وذات نظام ، وذات هدف جماعى منوط فى الوقت ذاته بكل فرد فيها هو إقامة هذا المنهج الإلهى فى الضمير وفى العمل مع إقامته فى الأرض، وهو لا يقوم فى الأرض إلا فى مجتمع يعيش ويتحرك ويعمل وينتج فى حدود ذلك المنهج الإلهى ... إن الذين يواجهون الإسلام يواجهونه بقوى جماعية ، ويؤلبون عليه تجمعات ضخمة ، فلابد لجنود الإسلام أن يواجهوا أعداءه صفا ، صفا سويا منتظما ، ذلك أن طبيعة هذا الدين حين يغلب ويهيمن أن يهيمن على جماعة وأن ينشىء مجتمعًا متماسكًا متناسقا ، فصورة الفرد المنعزل الذى يعبد وحده ، ويجاهد وحده ، ويعيش وحده ، صورة بعيدة عن طبيعة هذا الدين ، وعن مقتضياته فى حالة الجهاد ، وفى حالة الهيمنة بعد ذلك على الحياة .

بعدئذ يذكر قصة هذا المنهج الإلهى ومراحلها فى الرسالات قبل الإسلام ، وإيذاء بنى إسرائيل لموسى وهو منقذهم من فرعون وملئه ، ورسولهم وقائدهم ومعلمهم ـ إيذاء متطاول متعدد الألوان ، وجهاده فى تقويم اعوجاجهم جهاد مضن عسير شاق ، فيذكّرهم موسى لم توصلوا إلىّ الأذى بالمخالفة والعصيان لما آمركم به ، وأنتم تعلمون علم اليقين صدقى فيما جئتكم به من الرسالة ، لما شاهدتم من الآيات البينات ؟ ومقتضى علمكم ذلك تعظيمى وإطاعتى ؛ لأن من عرف الله وعظمته ، عظم رسوله لأن تعظيمه فى تعظيم رسوله .

قال ابن كثير : « وفى هذا تسلية لرسول الله ﷺ فيما أصابه من الكفار من قومه وغيرهم ، وأمر له بالصبر ... وفيه نهى للمؤمنين أن يوصلوا له صلوات الله عليه أذى » .

وتذكر الآية هنا قول موسى لهم فى عتاب ومودة ، وهم كانوا يعلمون أنه رسول الله عن يقين وإنما هى لهجة العتاب والتذكير .

وكانت النهاية أنهم زاغوا بعدما بذلت لهم كل أسباب الاستقامة ، فزادهم الله زيغا ، وأزاغ قلوبهم فلم تعد صالحة للهدى ، وضلوا فكتب الله عليهم الضلال أبداً ، فالله لا يهدى القوم الفاسقين ، وبهذا انتهت قوامتهم على دين الله ، فلم يعودوا يصلحون لهذا الأمر ، وهم على هذا الزيغ والضلال ، وخرجوا عن الطاعة ومنهاج الحق ، وأصروا على الغواية ، كما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ لا طاعة لولى الأمر إلا فى المعروف الذى يتفق مع دين الله وشريعته .

٢ ـ المسلم لا يبنى فرداً إلا فى جماعة ، والبشرية لا تعيش أفراداً إنما تعيش جماعات وأمما .

٣ ـ ضرورة الموالاة للنفس البشرية بالتقوية والتثبيت والتوجيه ، وهى تواجه التكاليف الشاقة .

وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا
لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا
جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ
عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ
﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ
ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ
عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ
عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ
فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾
يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ
طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ
مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟
أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ
قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾

معانى الكلمات :

مصدقا : معترفا .

افترى : ادعى .

ليظهره : ليعليه .

تنجيكم : تنقذكم .

مساكن طيبة : قصورًا عظيمة .

الحواريون : أول من آمن بعيسى عليه السلام .

أيدنا : قوينا .

ظاهرين : غالبين .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على موقف بنى إسرائيل من بشارة عيسى عليه السلام .

٢ ـ أن نستشعر دين الله فى ظهور دائم واستعلاء كامل .

٣ ـ أن نعلم طريق الهدى الموصل إلى النجاة من عذاب الله .

المحتوى التربوى :

يذكر السياق قول عيسى ابن مريم عليه السلام لبنى إسرائيل ، فلم يقل لهم إنه الله ، ولا إنه ابن الله ، ولا إنه أقنوم من أقانيم الله ، وإنما هو رسول الله ، والتوراة قد بشرت به ، وهو مصدق ما أخبرت عنه ، وهو مبشر بمن بعده ، وهذه الصيغة التى تصور حلقات الرسالة المترابطة ، يسلم بعضها إلى بعض ، وهى متماسكة فى حقيقتها ، واحدة فى اتجاهها ، ممتدة من السماء إلى الأرض ، حلقة بعد حلقة فى السلسلة الطويلة المتصلة ، وهى الصورة اللائقة بعمل الله ومنهجه ، فهو منهج واحد فى أصله ، متعدد فى صوره وفق استعداد البشرية وحاجاتها وطاقاتها ووفق تجاربها ورصيدها من المعرفة حتى تبلغ مرحلة الرشد العقلى والشعورى .

فتجيء الحلقة الأخيرة فى الصورة الأخيرة كاملة شاملة ، تخاطب العقل الراشد فى ضوء تلك التجارب وتطلق هذا العقل يعمل فى حدوده داخل نطاق المنهج المرسوم للإنسان فى جملته ، المتفق مع طاقاته واستعداداته ، وبشارة المسيح بأحمد ثابتة بهذا النص ، وقد قرئ القرآن على اليهود والنصارى فى الجزيرة العربية ، وفيه أنه النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ، وأقر بعض المخلصين من علمائهم الذين أسلموا كعبد الله بن سلام بهذه الحقيقة التى كانوا يتواصون بتكتمها .

ولقد وقف بنو إسرائيل فى وجه الدين الجديد ، وقفة العداء والكيد والتضليل ، وحاربوه بشتى الوسائل والطرق حربا شعواء لم تضع أوزارها حتى اليوم ، حاربوه بالاتهام لما ظهر أمره وجاء بالبينات قالوا: هذا سحر مبين، كما قال الذين لا يعرفون الكتب ولا يعرفون البشارة بالدين الجديد ، وحاربوه بالدس والوقيعة داخل المعسكر الإسلامى للإيقاع بين المهاجرين والأنصار فى المدينة ، وبين الأوس والخزرج من الأنصار ، وحاربوه بالتآمر مع المنافقين تارة ومع المشركين تارة ، وحاربوه بالانضمام إلى معسكرات المهاجمين كما وقع فى غزوة الأحزاب ، وحاربوه بالإشاعات الباطلة كما جرى فى حديث الإفك، وحاربوه بالأكاذيب والإسرائيليات التى دسوها فى الحديث وفى السيرة وفى التفسير حين عجزوا عن الوضع والكذب فى القرآن الكريم ، ولم تضع الحرب أوزارها لحظة واحدة حتى اللحظة الحاضرة .

وقد صنعوا ـ ويصنعون ـ البطولات المزيفة كلما أرادوا أن يضربوا الإسلام والحركات الإسلامية فى بلد من بلاد المسلمين ؛ ليقيموا مكانه عصبية غير عصبية الدين ، وراية غير راية الدين ، وهذا النص القرآنى يعبر عن حقيقة ، ويرسم فى الوقت ذاته صورة تدعو إلى الرثاء والاستهزاء ، فهى حقيقة أنهم كانوا يقولون بأفواههم إنه سحر مبين ، ويدسون ويكيدون محاولين القضاء على الدين الجديد ، وهى صورة بائسة لهم وهم يحاولون إطفاء نور الله بنفخة من أفواههم وهم الضعاف المهازيل ، ونور الله لا يمكن أن تطفئه الأفواه ، ولا أن تطمسه كذلك النار والحديد فى أيدى العبيد ، وإن خيل للطغاة الجبارين ، وللأبطال المصنوعين على أعين الصليبيين واليهود أنهم بالغوا هذا الهدف البعيد ، لقد جرى قدر الله أن يظهر هذا الدين ، فكان من الحتم أن يكون .

وشهادة الله لهذا الدين بأنه الهدى ودين الحق هى الشهادة ، وهى كلمة الفصل التى ليس بعدها زيادة ، ولقد تمت إرادة الله فظهر هذا الدين على الدين كله ، ظهر فى ذاته كدين ، فما يثبت له دين آخر فى حقيقته وفى طبيعته ، وقد صدق وعد الله مرة ، فظهر هذا الدين قوة وحقيقة ونظام حكم على الدين كله ، فدانت له معظم الرقعة المعمورة فى الأرض ثم زحف زحفا سلميًا حتى دخل فيه بالدعوة المجردة خمسة أضعاف من دخلوا فى إبان الحركات الجهادية الأولى ، وما تزال لهذا الدين أدوار فى تاريخ البشرية يؤديها . ظاهراً بإذن الله على الدين كله تحقيقا لوعد الله ، الذى لا تقف له جهود العبيد المهازيل .

وفى ظلال قصة العقيدة ، وفى مواجهة وعد الله بالتمكين لهذا الدين الأخير ، يهتف القرآن الكريم بالذين آمنوا ، من كان يواجه ذلك الخطاب ومن يأتى بعدهم من المؤمنين إلى يوم الدين ، يهتف بهم إلى أربح تجارة فى الدنيا والآخرة تجارة الإيمان بالله والجهاد فى سبيل الله ، ومن ذا الذى لا يشتاق لأن يدله الله على هذه التجارة ؟ وسر هذه التجارة العظيمة التى لا تبور ، التى هى محصلة للمقصود ومزيلة للمحذور ، وهى : إيمان يقينى لا يشوبه أدنى شك ،و جهاد فى سبيل الله بالمال والنفس ، وهذا خير من تجارة الدنيا لو كان هناك علم ، وإن فعل المؤمنون ما أمروا به ، غفرت لهم الزلات ، وأدخلوا الجنات ، والمساكن الطيبات ، والدرجات العاليات فى نعيم مقيم ، وإنه لربح ضخم هائل أن يعطى المؤمن الدنيا ويأخذ الآخرة .

والله سبحانه يعلم أن النفس تضعف وأن الاندفاع يهبط ، وأن الجهد يكل وأن حب السلامة قد يهبط بتلك المشاعر كلها ويقودها إلى الرضا بالواقع الهابط ، ومن ثم يجاهد القرآن النفس هذا الجهاد ، ويعالجها ذلك العلاج ، ويهتف لها بالموحيات والمؤثرات ، ذلك الهتاف المتكرر المتنوع فى شتى المناسبات ، ولا يكلها إلى مجرد الإيمان ، ولا إلى نداء واحد باسم هذا الإيمان ، فها هو ذا يختم السورة بنداء جديد ، يحمل طابعا جديداً ، وموجبا جديداً ، فيأمر عباده المؤمنين أن يكونوا أنصار الله فى جميع أحوالهم بأقوالهم وأفعالهم وأنفسهم وأموالهم ، وأن يستجيبوا لله ولرسوله ، كما استجاب الحواريون لعيسى عليه السلام والحواريون هم تلاميذ المسيح عليه السلام ، وهم الذين قاموا بعد رفعه بنشر تعاليمه وحفظ وصاياه .

وفى هذا الموضع الكريم الذى يرفعكم إليه الله ، وهل أرفع من مكان يكون فيه العبد نصيراً للرب ؟ ! إن هذه الصفة تحمل من التكريم ما هو أكبر من الجنة والنعيم ، فانتدبوا لهذا الأمر ونالوا هذا التكريم ، وعيسى جاء ليبشر بالنبى الجديد والدين الأخير ، فما أجدر أتباع محمد أن ينتدبوا لهذا الأمر الدائم ، كما انتدب الحواريون للأمر الموقوت ، وماذا كانت العاقبة ؟

ولما بلغ عيسى عليه السلام رسالة ربه إلى قومه ، ووازره من وازره من الحواريين ، اهتدت طائفة من بنى إسرائيل بما جاءهم به ، وضلت طائفة فخرجت عما جاءهم به ، وجحدوا بنوته ، ونصر الذين آمنوا على من عاداهم من فرق النصارى ومعنى«أصبحوا ظاهرين» أى بالحجة والبرهان، أو أن التوحيد الذى هم عليه هو الذى أظهره الله بهذا الدين الأخير .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً:

١ ـ الكافرون والمشركون فى كل زمان ومكان يحاربون دين الله الحق ، ويسعون لإطفاء نوره ، ولكن الله لن يمكنهم من ذلك .

٢ ـ التجارة الرابحة هى التى تكون مع الله ـ تعالى ـ لأن مكسبها عظيم ومضمون بضمان الله الذى يملك كل شىء.

٣ ـ استنهاض همة المؤمنين لنصرة الله ونصرة دينه .



معانى الكلمات :

يسبح لله : يقدس الله ويمجده .

الأميين : العرب المعاصرين له ﷺ .

ويزكيهم : ويطهرهم من أدناس الجاهلية .

حملوا التوراة : كلفوا العمل بما فيها .

أسفاراً : كتبًا عظاما ولا ينتفع بها .

هادوا : تدينوا باليهودية .

زعمتم : ادعيتم .

ملاقيكم : سيأتيكم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على عظمة الله تعالى وخضوع الكون بما فيه لإرادته تعالى .

٢ ـ أن نعلم نعمة الله ومنته على العرب ببعثة رسوله ﷺ فيهم .

٣ ـ أن نعلم طبيعة اليهود وانحرافهم عن شريعة الله وعدم عملهم بأحكام التوراة .

المحتوى التربوى :

يقرر مطلع السورة حقيقة التسبيح المستمرة من كل ما فى الوجود لله ، ويصفه ـ سبحانه ـ بصفات ذات علاقة لطيفة بموضوع السورة ، ومن ثم تذكر : الملك الذى يملك كل شىء بمناسبة التجارة التى يسارعون إليها ابتغاء الكسب ، وتذكر القدوس الذى يتقدس ويتنزه ويتوجه إليه بالتقديس والتنزيه كل ما فى السموات والأرض ، بمناسبة اللهو الذى ينصرفون إليه عن ذكره ، وتذكر العزيز بمناسبة المباهلة التى يدعى إليها اليهود والموت الذى لابد أن يلاقى الناس جميعا والرجعة إليه والحساب ، وتذكر الحكيم بمناسبة اختياره الأميين ليبعث فيهم رسولا يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة . ثم يبدأ موضوع السورة ؛ فقد اقتضت حكمة الله أن يبعث رسولا وأن يكون من العرب من الأميين الذين لا يقرؤون ولا يكتبون ـ غير اليهود ، فقد علم الله أن يهودًا قد فرغ عنصرها من مؤهلات القيادة الجديدة

الكاملة للبشرية ، وكانت هناك دعوة إبراهيم خليل الرحمن عليه الصلاة والسلام ، وتحققت هذه الدعوة بنصها ، والمنة ظاهرة فى اختيار الله للأميين ليجعلهم أهل الكتاب المبين ، وليرسل فيهم رسولًا منهم ، يرتفعون باختياره منهم إلى مقام كريم ، ويخرجهم من أميتهم أو من أمميتهم بتلاوة آيات الله عليهم ، وتغيير ما بهم ، وتمييزهم على العالمين .

وإنها لتزكية وإنه لتطهير ذلك الذى كانوا يأخذهم به الرسول ﷺ تطهيرًا للضمير والشعور ، وتطهيرًا للعمل والسلوك ، وتطهيرًا للحياة الزوجية ، وتطهيرًا للحياة الاجتماعية ، تطهيرًا ترتفع به النفوس من عقائد الشرك إلى عقيدة التوحيد ، ومن التصورات الباطلة إلى الاعتقاد الصحيح ، وترتفع به من رجس الفوضى الأخلاقية إلى نظافة الخلق الإيمانى ، إنها تزكية شاملة للفرد والجماعة ولحياة السريرة وحياة الواقع ، ويعلمهم الكتاب فيصبحون أهل كتاب ، ويعلمهم الحكمة فيدركون حقائق الأمور ، ويحسنون التقدير ، وتلهم أرواحهم صواب الحكم وصواب العمل وهو خير كثير ، وقد كانوا مستبدلين بالتوحيد شركا ، وباليقين شكا ، وكانوا فى ضلال مبين . وقد اختار الله ـ سبحانه ـ تلك الأمة البدوية فى شبه الجزيرة الصحراوية لتحمل هذا الدين ، بما علم فى نفوسها وفى ظروفها من قابلية للاستصلاح وذخيرة مرصودة للبذل والعطاء ، فأرسل فيهم الرسول يتلو عليهم آيات الله ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وكما بعثه فى الأميين الذين على عهده ، وفى آخرين من الأميين لم يلحقوا بهم بعد ، وسيلحقون بهم وهم الذين بعد الصحابة رضى الله عنهم ، من كل من دخل فى الإسلام إلى يوم القيامة ، أو أن هؤلاء الآخرين هم الأعاجم وكل من صدق النبى ﷺ من غير العرب ، والله هو القوى القادر على الاختيار ، الحكيم العليم بمواضع الاختيار ، واختياره للمتقدمين والمتأخرين فضل وتكريم ، وإن اختيار الله لأمة أو جماعة أو فرد ليحمل هذه الأمانة الكبرى ، وليكون مستودع نور الله وموضع تلقى فيضه ـ فضل لا يعدله فضل ، فضل عظيم يربو على كل ما يبذله المؤمن من نفسه وماله وحياته ، ويربو على متاعب الطريق وآلام الكفاح وشدائد الجهاد .

بعد ذلك يذكر ما يفيد أن اليهود قد انتهى دورهم فى حمل أمانة الله ، فلم تعد لهم قلوب تحمل هذه الأمانة التى لا تحملها إلا القلوب الحية الفاقهة المدركة الواعية المتجردة العاملة بما تحمل ، فبنو إسرائيل حملوا وكلفوا أمانة العقيدة والشريعة للعمل بها ، ثم لم يعملوا بها ، وسيرة بنى إسرائيل كما عرضها القرآن الكريم ـ وكما هى فى حقيقتها ـ لا تدل على أنهم قدروا هذه الأمانة ، ولا أنهم فقهوا ـ حقيقتها ، ولا أنهم عملوا بها ، ومن ثم كانوا كالحمار يحمل الكتب الضخام ، وليس له منها إلا ثقلها فهو ليس صاحبها ، وليس شريكا فى الغاية منها ، وهى صورة زرية بائسة، ومثل سيئ شائن للذين كذبوا بآيات الله ، والله لا يهدى القوم الظالمين .

والذين يعيشون فى هذا الزمان ، وهم يحملون أسماء المسلمين ، ولا يعملون عمل المسلمين وبخاصة أولئك الذين يقرؤون القرآن والكتب ، وهم لا ينهضون بما فيها ، أولئك كلهم كالحمار يحمل أسفارا وهم كثيرون كثيرون ، فليست المسألة مسألة كتب تحمل وتدرس ، إنما هى مسألة فقه وعمل بما فى الكتب .

وكان اليهود يزعمون أنهم شعب الله المختار ، وأنهم أولياؤه من دون الناس ، وهاهنا دعوة لهم إلى المباهلة ، وقد خاف كل من دعاهم رسول الله ﷺ إلى هذه المباهلة ونكلوا عنها ، ولم يقبلوا التحدى فيها ، مما يدل على أنهم فى قرارة نفوسهم كانوا يعرفون صدق رسول الله ﷺ ، وحقية هذا الدين ، وقد لا تكون هذه مباهلة ولكن مجرد تحد لهم ، بما أنهم يزعمون أنهم أولياء لله من دون الناس ، فما يخيفهم إذن من الموت ، ويجعلهم أجبن خلق الله ؟ وهم حين يموتون ينالون ما عند الله مما يلقاه الأولياء والمقربون ؟ !

ثم عقب على هذا التحدى بما يفيد أنهم غير صادقين فيما يدعون ، وأنهم يعرفون أنهم لم يقدموا بين أيديهم ما يطمئنون إليه ، وما يرجون الثواب والقربى عليه ، وإنما قدموا الكفر والظلم والفجور ، وقدموا المعصية التى تخيفهم من الموت وما وراءه والله عليم بالظالمين .

وفى الجولة يقرر السياق حقيقة الموت وما بعده ، ويكشف لهم عن قلة الجدوى فى فرارهم من الموت ، فهو حتم لا مهرب منه ،و ما بعده من رجعة إلى الله ، وحساب على العمل حتم كذلك لا ريب فيه ، وهى لفتة من اللفتات القرآنية الموحية للمخاطبين بها وغير المخاطبين ، تقر فى الأخلاء حقيقة ينساها الناس ، وهى تلاحقهم أينما كانوا ، فهذه الحياة إلى انتهاء ، والبعد عن الله فيها ينتهى للرجعة إليه ، فلا ملجأ منه إلا إليه ، والحساب والجزاء بعد الرجعة كائنان لا محالة ، فلا مهرب ولا فكاك .

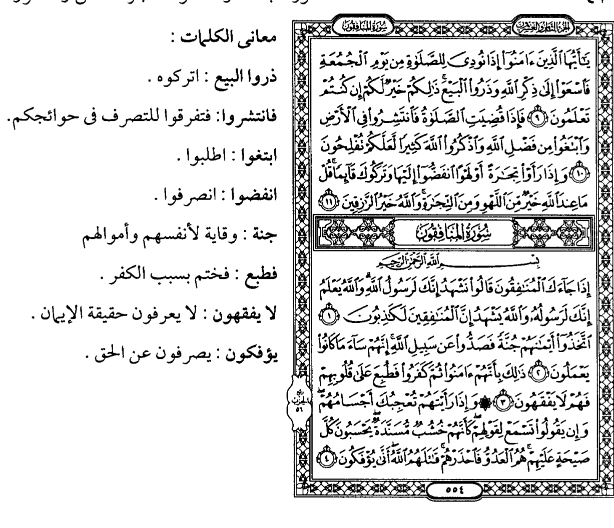
فحقيقة الموت الذى يفر منه المكذبون ؛ أنه ملاقيهم مهما فروا ، وأنهم مردودون إلى عالم الغيب والشهادة فمنبئهم بما كانوا يعملون ، وهو تقرير لا يخص اليهود وحدهم ، إنما يلقيه القرآن ويدعه يفعل فعله فى نفوس المؤمنين كذلك ، فهذه الحقيقة لابد أن تستقر فى نفوس حملة أمانة الله فى الأرض لينهضوا بتكاليفها وهم يعرفون الطريق .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ اختار الله ـ تعالى ـ المسلمين لحمل أمانة العقيدة إلى العالم كله وعليهم أن يقوموا بتبليغ هذه الرسالة إلى العالمين بكل الوسائل الممكنة .

٢ ـ حقيقة الموت لابد أن تستقر فى نفوس حملة أمانة الله فى الأرض لينهضوا بتكاليفها .

٣ـ ليست المسألة مسألة كتب تحمل وتدرس ، إنما هى مسألة فقه وعمل بما فى الكتب .



معانى الكلمات :

ذروا البيع : اتركوه .

فانتشروا: فتفرقوا للتصرف فى حوائجكم.

ابتغوا : اطلبوا .

انفضوا : انصرفوا .

جنة : وقاية لأنفسهم وأموالهم

فطبع : فختم بسبب الكفر .

لا يفقهون : لا يعرفون حقيقة الإيمان .

يؤفكون : يصرفون عن الحق .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نستشعر أهمية صلاة الجمعة والاستماع إلى خطبتها .

٢ ـ أن نتعرف على التوازن الذى يتسم به المنهج الإسلامى .

٣ ـ أن نعلم طريقة المنافقين فى مداراة ما فى قلوبهم من الكفر .

المحتوى التربوى :

يقول صاحب الأساس : « إن ذكر تشريع الجمعة وبعض ما يتعلق بها فى سياق سورة الجمعة يعطينا دلالات معينة منها:أن صلاة الجمعة وخطبتها ينبغى أن تحقق ما بعث من أجله محمد ﷺ، وأن تجنب هذه الأمة ما وقعت فيه بنو إسرائيل ، وفى ذلك درس لخطيب الجمعة وللمستمع ، هذا وقد ذكر فى الفقرة الأخيرة كل ما ينهض على أداء الجمعة ، ويبعد عن إهمالها كما ذكر مقدمة لذلك كل ما يبعث عليها ، وفى ذلك درس من دروس هذا القرآن ؛ إذ يجعل التكليف فى إطار يحمل على غاية الالتزام » .

وصلاة الجمعة هى الصلاة الجامعة التى لا تصح إلا جماعة ، وهى صلاة أسبوعية يتحتم أن يتجمع فيها المسلمون ويلتفوا ويستمعوا إلى خطبة تذكرهم بالله ، وهى عبادة تنظيمية على طريقة

الإسلام فى الإعداد للدنيا والآخرة فى التنظيم الواحد وفى العبادة الواحدة وكلاهما عبادة ، وهى ذات دلالة خاصة على طبيعة العقيدة الإسلامية الجماعية ، وقد وردت الأحاديث الكثيرة فى فضل هذه الصلاة والحث عليها والاستعداد لها بالغسل والثياب والطيب .

وتأتى الآية الأولى فتأمر المسلمين أن يتركوا البيع وسائر نشاط المعاش ـ بمجرد سماعهم للأذان ، وترغبهم فى هذا الانخلاع من شؤون المعاش والدخول فى الذكر فى هذا الوقت ، وترك البيع والإقبال إلى ذكر الله وإلى الصلاة خير لكم فى الدنيا والآخرة إن كنتم تعلمون ، ثم يعود إلى مشاغل العيش مع ذكر الله ، وهذا هو التوازن الذى يتسم به المنهج الإسلامى ، التوازن بين مقتضيات الحياة فى الأرض ، من عمل وكد ونشاط وكسب ، وبين عزلة الروح فترة عن الجو وانقطاع القلب وتجرده للذكر ، وهى ضرورة لحياة القلب لا يصلح بدونها للاتصال والتلقى والنهوض بتكاليف الأمانة الكبرى ، وذكر الله لابد منه فى أثناء ابتغاء المعاش ، والشعور بالله فيه هو الذى يحول نشاط المعاش إلى عبادة ، ولكنه ـ مع هذا ـ لابد من فترة للذكر الخالص ، والانقطاع الكامل ، والتجرد المحض .

ويعاقب تبارك وتعالى على ما كان وقع من الانصراف عن الخطبة يوم الجمعة إلى التجارة التى قدمت المدينة يومئذ ، وكانت التجارة لدحية بن خليفة قبل أن يسلم ، وكان معها طبل ، فانصرفوا إليها وتركوا رسول الله ﷺ قائما على المنبر إلا القليل منهم ، وفى الآية تلويح لهم بما عند الله وأنه خير من اللهو ومن التجارة ، وتذكير لهم بأن الرزق ما عند الله لمن توكل عليه ، وطلب الرزق فى وقته .

سورة المنافقون

تتضمن هذه السورة حملة عنيفة على أخلاق المنافقين وأكاذيبهم ودسائسهم ومناوراتهم ، وما فى نفوسهم من البغض والكيد للمسلمين ، ومن اللؤم والجبن وانطماس البصائر والقلوب ، وتبدأ السورة بوصف طريقتهم فى مداراة فى قلوبهم من الكفر ، وإعلانهم الإسلام والشهادة بأن النبى ﷺ هو رسول الله ، وحلفهم كذبا ليصدقهم المسلمون ، واتخاذهم هذه الأيمان وقاية وجنة يخفون وراءها حقيقة أمرهم ، ويخدعون المسلمين فيهم .

فهم كانوا يجيئون إلى رسول الله ﷺ فيشهدون بين يديه برسالته شهادة باللسان ، لا يقصدون بها وجه الحق إنما يقولونها للتقية ، وليخفوا أمرهم وحقيقتهم على المسلمين ، فهم كاذبون فى أنهم جاؤوا ليشهدوا هذه الشهادة ، فقد جاؤوا ليخدعوا المسلمين بها ، ويداروا أنفسهم بقولها ، ومن ثم يكذبهم الله فى شهادتهم بعد التحفظ الذى يثبت حقيقة الرسالة ، والتعبير يبادر بتثبيت الرسالة قبل تكذيب مقالة المنافقين فى إقرارهم فهم لا يقرون الرسالة حقا ولا يشهدون بها

خالصي الضمير ، وقد كانوا يحلفون الأيمان كلما انكشف أمرهم ، أو عرف عنهم كيد أو تدبير ، أو تفلت عنهم مقالة سوء فى المسلمين .

كانوا يحلفون ليتقوا ما يترتب على افتضاح أمر من أمورهم ، فيجعلون أيمانهم وقاية وجنة يحتمون وراءها ، ليواصلوا كيدهم ودسهم وإغواءهم للمخدوعين فيهم ، فصدوا أنفسهم وصدوا غيرهم مستعينين بتلك الأيمان الكاذبة ، وساء فعلهم فى اتخاذهم أيمانهم جنة وصدهم وغير ذلك من أعمالهم ، وهل أسوأ من الكذب للخداع والتضليل .

ويعلل حالهم هذه بأنهم كفروا بعد الإيمان ، واختاروا الكفر بعد أن عرفوا الإسلام ، وما يعرف الإيمان ثم يعود إلى الكفر قلب فيه فقه أو تذوق أو حياة ، وإلا فمن ذا الذى يذوق ويعرف ، ويطلع على التصور الإيمانى للوجود ، وعلى التذوق الإيمانى للحياة ، ويتنفس فى جو الإيمان الذكى ويحيا فى نور الإيمان الوضىء ، ويتفيأ ظلال الإيمان الندية ثم يعود إلى الكفر الكالح الميت الخاوى المجدب الكنود ؟ من ذا الذى يصنع هذا إلا المطموس الكنود الحقود، الذى لا يفقه ولا يحس ولا يشعر بهذا الفارق البعيد .

ثم يرسم السياق لهم صورة تثير السخرية والهزء والزراية ، فتنصبهم تمثالا وهدفا للسخرية فى معرض الوجود ، فهم أجسام تعجب لا أناسى تتجاوب ، وما داموا صامتين فهم أجسام معجبة للعيون ، فأما حين ينطقون فهم خواء من كل معنى ومن كل حس ومن كل خالجة ، إن يتكلموا فكأنهم خشب وليسوا خشبا فحسب ، إنما هى خشب مسندة لا حركة لها ، ملطوعة بجانب الجدار ، وذلك فى الخلو عن الفائدة ، وهم فى توجس دائم وفزع دائم فهم يعرفون أنهم منافقون مستورون بستار رقيق من التظاهر والحلف والملق والالتواء ، وهم يخشون فى كل لحظة أن يكون أمرهم قد افتضح وسترهم قد انكشف ، وبينما هم خشب مسندة ملطوعة إذا كان الأمر أمر فقه وروح وشعور بإيقاعات الإيمان ، إذا هم كالقصبة المرتجفة فى مهب الريح إذا كان الأمر أمر خوف على الأنفس والأموال .

وهم بهذا وذاك يمثلون العدو الأول للرسول ﷺ وللمسلمين ، هم العدو الكامن داخل المعسكر ، وهو أخطر من العدو الخارجى الصريح منه الحذر أكثر من غيره ، والله مقاتلهم حيثما صرفوا وأنى توجهوا .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ صلاة الجمعة تدل دلالة خاصة على طبيعة العقيدة الإسلامية الجماعية .

٢ ـ الشعور بالله فى ابتغاء المعاش يحول نشاط المعاش إلى عبادة .

٣ ـ المنافقون أشد خطراً على الإسلام والمسلمين من الكافرين والمشركين واليهود .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

سُورَةُ التَّغَابُن

معانى الكلمات :

لووا رؤوسهم: عطفوها إعراضا واستهزاء.

ينفضوا : يتفرقوا .

الأعز : الأشد والأقوى .

الأذل : الأضعف والأهون .

العزة : الغلبة والقهر .

تلهكم : تشغلكم وتصرفكم .

ذكر الله : عبادته وطاعته ومراقبته .

أخرتنى : أمهلتنى .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على المنهج التربوى الإلهى وحكمته فى عدم إخراج المنافقين من الصف المسلم

٢ ـ أن نستشعر روعة الإيمان حينما يستقر فى قلب الإنسان وذلك فى موقف عبد الله بن عبد الله .

٣ ـ أن نعلم أن لواء الأعزاء لواء المؤمنين .

المحتوى التربوى :

يستطرد السياق فى وصف تصرفاتهم الدالة على دخل قلوبهم ، وتبييتهم للرسول ﷺ ، وكذبهم عند المواجهة ، وهى مجموعة من الصفات اشتهر بها المنافقون ، فهم يفعلون الفعلة ، ويطلقون القولة ، فإذا عرفوا أنها بلغت رسول الله ﷺ جبنوا وتخاذلوا وراحوا يقسمون بالأيمان يتخذونها جنة ، فإذا قال لهم قائل : تعالوا يستغفر لكم رسول الله ، وهم فى أمن من مواجهته لووا رؤوسهم ترفعا واستكبارًا ، وهذه وتلك سمتان متلازمتان فى النفس المنافقة ، وإن كان هذا التصرف يجيء عادة ممن لهم مركز فى قومهم ومقامهم ، ولكنهم هم فى ذوات أنفسهم أضعف من المواجهة، فهم يستكبرون ويصدون ويلوون رؤوسهم ما داموا فى أمان من المواجهة ، حتى إذا تمت مواجهتهم كان الجبن والتخاذل والأيمان .

ومن ثم يتوجه الخطاب إلى رسول الله ﷺ بما قضاه الله فى شأنهم على كل حال ، وبعدم جدوى الاستغفار لهم بعد قضاء الله، ويحكى طرفا من فسقهم ، الذى استوجب قضاء الله فيهم، وهى يتجلى فيها خبث الطبع ، وهى خطة التجويع التى يبدو أن خصوم الحق والإيمان يتواصون بها على اختلاف الزمان والمكان فى حرب العقيدة ومناهضة الأديان ، ذلك أنهم لخسة مشاعرهم يحسبون لقمة العيش هى كل شىء فى الحياة كما هى فى حسهم فيحاربون بها المؤمنين ، ناسين الحقيقة البسيطة التى يذكرهم القرآن بها ؛ فمن خزائن الله فى السموات والأرض يرتزق هؤلاء الذين يحاولون أن يتحكموا فى أرزاق المؤمنين ، فليسوا هم الذين يخلقون رزق أنفسهم ، فما أغباهم وأقل فقههم وهم يحاولون قطع الرزق عن الآخرين ، ويطمئن الله المؤمنين إلى أن خزائنه فى السموات والأرض هى خزائن الأرزاق للجميع ، والذى يعطى أعداءه لا ينسى أولياءه .

وننظر إلى الأحداث التى نزلت فيها الآيات فتجدنا مع السيرة ومع المنهج التربوى الإلهى ، ومع قدر الله العجيب فى تصريف الأمور، فهذا هو الصف المسلم يندس فيه المنافقون، ويعيشون فى حياة الرسول ﷺ قرابة عشر سنوات ، والرسول ﷺ لا يخرجهم من الصف ، ولا يعرفهم الله له بأسمائهم وأعيانهم إلا قبيل وفاته ، وإن كان يعرفهم فى لحن القول بالالتواء والمداراة ؛ ذلك كى لا يكل الله قلوب الناس للناس، فالقلوب له وحده، وهو الذى يعلم ما فيها ويحاسب عليه ، فأما الناس فلهم ظاهر الأمر، كى لا يأخذوا الناس بالظنة، وكى لا يقضوا فى أمورهم بالفراسة ، وحتى حينما عرف الله نبيه ﷺ بالنفر الذين ظلوا على نفاقهم إلى أواخر حياته ، فإنه لم يطردهم من الجماعة وهم يظهرون الإسلام ويؤدون فرائضه .

وهذا الحادث الذى نزلت فيه تلك الآيات هو وحده موضع عبر وعظات جمة ، فهذا عبد الله ابن أبى ابن سلول لا يهدى الله قلبه للإيمان ، تقف دونه إحنة فى صدره أن لم يكن ملكًا على الأوس والخزرج ، وهذا ابنه عبد الله ؓ نموذج رفيع للمسلم المتجرد الطائع ، يشقى بأبيه ويضيق بأفاعيله ويخجل من مواقفه ، ولكنه يكن له ما يكن الولد البار العطوف ، ويسمع أن رسول الله ﷺ يريد أن يقتل أباه هذا ، فيطلب من نبيه إن كان لابد فاعلًا أن يأمره هو بقتل أبيه ، وهو لابد مطيع وهو يأتيه برأسه ؛ كى لا يتولى ذلك غيره ، فلا يطيق أن يرى قاتل أبيه يمشى على الأرض فيقتل مؤمنا بكافر فيدخل النار .

يقول صاحب الظلال : « وإنها لروعة تواجه القلب أينما اتجه وأينما قلب النظر فى هذا الموقف الكريم ، روعة الإيمان فى قلب إنسان ، وهو يعرض على رسول الله ﷺ أن يكل إليه أشق عمل على النفس البشرية ـ أن يقتل أباه ـ وهو صادق النية فيما يعرض ، يتقى به ما هو أكبر فى نظره وأشق ، وهو أن تضطره نوازعه البشرية إلى قتل مؤمن بكافر فيدخل النار ، وروعة الصدق والصراحة وهو يواجه ضعفه البشرى تجاه أبيه ، وهو يقول : فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده منى ، وهو يطلب من نبيه وقائده أن يعينه على هذا الضعف ويخرجه من هذا الحرج ، لا بأن يرد أمره أو يغيره ، ولكن بأن يكل إليه هو أن يأتيه برأسه والرسول ﷺ يرى هذه

النفس المؤمنة المحرجة ، فيمسح عنها الحرج فى سماحة وكرامة فيقول : « بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا » .

ونقف أمام مشهد الرجل المؤمن عبد الله بن عبد الله بن أبى وهو يأخذ بسيفه مدخل المدينة على أبيه فلا يدعه يدخل ، تصديقا لمقاله هو : ليخرجن الأعز منها الأذل ؛ ليعلم أن رسول الله هو الأعز ، وأنه هوالأذل ، ويظل يقفه حتى يأتى رسول الله ﷺ فيأذن له ، فيدخلها بإذنه ، ويتقرر بالتجربة الواقعة من هو الأعز ومن هو الأذل ، ويضم الله سبحانه رسوله والمؤمنين إلى جانبه ، ويضفى عليهم من عزته ، وهو تكريم كبير لا يكرمه إلا الله ، وأى تكريم بعد أن يوقف الله ـ سبحانه ـ رسوله والمؤمنين معه إلى جواره ، ويقول : ها نحن أولاء ، هذا لواء الأعزاء ، وهذا هو الصف العزيز .

وصدق الله ، فجعل العزة صنو الإيمان فى القلب المؤمن ، العزة المستمدة من عزته تعالى ، العزة التى لا تهون ولا تهن ، ولا تنحنى ولا تلين ، ولا تزايل القلب المؤمن فى أحرج اللحظات إلا أن يتضعضع فيه الإيمان ، فإذا استقر الإيمان ورسخ فالعزة معه مستقرة راسخة ، والمنافقون لا يعلمون .

ويوجه النداء للمؤمنين حتى يبرؤوا من كل صفة تشبه صفات المنافقين ، ويختاروا ذلك المقام الأسنى على الأموال والأولاد ، فلا يدعوها تلهيهم عن بلوغ ذلك المقام الوضىء ، والأموال والأولاد ملهاة ومشغلة إذا لم يستيقظ القلب ، ويدرك غاية وجوده ، ومن يغفل عن ذكر الله فقد خسر نفسه ومن خسر نفسه فقد خسر كل شىء مهما يملك من مال ومن أولاد .

ويلمسهم فى موضوع الإنفاق لمسات متنوعة؛ فيذكرهم بمصدر هذا الرزق الذى فى أيديهم، فهو من عند الله الذى آمنوا به والذى يأمرهم بالإنفاق قبل أن يأتى الأجل ، فيترك كل شىء وراءه لغيره ، وينظر فلا يجد أنه قدم شيئا لنفسه ، وهذا أحمق الحمق وأخسر الخسران ، ثم يرجو حينئذ ويتمنى أن لو كان قد أمهل ليتصدق وليكون من الصالحين ، وأنى له هذا ؟ ولن يؤخر الله الأجل إذا جاء ، والله مطلع على الأعمال ، فما أجدرهم إذن أن ينهضوا بتكاليف الإيمان .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ المؤمن لا تشغله الأموال ولا الأولاد عن طاعة الله وعبادته ، وهو ينفق مما أعطاه الله فى وجوه الخير .

٢ ـ على المؤمن أن يبادر بأعمال الطاعات قبل أن يجىء الأجل فيندم على تفريطه حيث لا ينفع الندم .

٣ ـ العزة : هى معرفة الإنسان بحقيقة نفسه ، وهى من الصفات التى يتحلى بها المسلم فلا يذل نفسه إلا لله تعالى .

بسم الله الرحمن الرحيم

يسبح لله ما في السموات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير (١) هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير (٢) خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير (٣) يعلم ما في السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور (٤) ألم يأتكم نبؤا الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم (٥) ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينت فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غني حميد (٦) زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير (٧) فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير (٨) يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته ويدخله جنت تجري من تحتها الأنهر خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم (٩)

معانى الكلمات :

له الملك : التصرف المطلق فى كل شىء .

بالحق : بالحكمة البالغة .

المصير : المرجع .

وبال أمرهم : سوء عاقبة كفرهم فى الدنيا .

وتولوا : أعرضوا .

والنور : القرآن .

ليوم الجمع : ليوم القيامة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم حقيقة الصلة بين الخالق سبحانه ـ وهذا الكون الذى خلقه .

٢ ـ أن نتعرف على حقيقة بعض صفات الله وأسمائه الحسنى وأثرها فى الكون وفى الحياة الإنسانية .

٣ ـ أن نعلم مصير الغابرين من المكذبين بالرسل والبينات المعترضين على بشرية الرسل .

المحتوى التربوى :

يبدأ السياق فيشير إلى أن كل ما فى السموات والأرض متوجه إلى ربه ، مسبح بحمده ، وقلب هذا الوجود مؤمن ، وروح كل شىء فى هذا الوجود مؤمنة ، والله مالك كل شىء ، وكل شىء شاعر بهذه الحقيقة ، والله محمود بذاته ممجد فى مخلوقاته ، فإذا وقف الإنسان وحده فى خضم هذا الوجود الكبير كافر القلب جامد الروح متمرداً عاصيا ، لا يسبح لله ولا يتجه إلى مولاه ، فإنه يكون شاذاً بارز الشذوذ ، كما يكون فى موقف المنبوذ من كل ما فى الوجود ، والله سبحانه صاحب القدرة الطليقة التى لا تتقيد بقيد ، وتحقق ما تريد بلا حدود ولا قيود .

وهو الذى خلق الإنسان ، وأودع فيه إمكان الاتجاه إلى الكفر ، وإمكان الاتجاه إلى الإيمان ، وتميز بهذا الاستعداد المزدوج من خلق الله ، والله رقيب على هذا الإنسان فيما يعمل ، بصير

بحقيقة نيته واتجاهه ، فليعمل إذن وليحذر هذا الرقيب البصير ، وتأتى الإشارة إلى الحق الأصيل الكامن فى طبيعة الوجود ، الذى تقوم به السموات والأرض ، وصنعة الله المبدعة فى كيان المخلوق الإنسانى ، وتقرر رجعة الجميع إليه فى نهاية المطاف ، وتأتى الإشارة إلى تصوير العلم الإلهى المحيط بكل شىء ، المطلع على سر الإنسان وعلانيته ، وعلى ما هو أخفى من السر من ذوات الصدور الملازمة للصدور ، واستقرار هذه الحقيقة فى القلب المؤمن يفيده المعرفة بربه ، فيعرفه بحقيقته .

يقول صاحب الأساس : « قررت الآيات أموراً وأقامت حججاً :

١ ـ تسبيح ما فى السموات والأرض لله .

٢ ـ ملكية الله عز وجل للأشياء كلها .

٣ ـ أن كل نعمة ظاهرة وباطنة هى من الله عز وجل .

٤ ـ اتصاف الله عز وجل بالقدرة المطلقة .

٥ ـ انقسام البشر إلى قسمين كبيرين مؤمنين وكافرين،وذلك من مظاهر اتصافه بكمال القدرة.

٦ ـ اتصاف الله عز وجل بصفة البصر التى تحيط بالظواهر والبواطن .

٧ ـ أن الله عز وجل هو وحده خالق السموات والأرض وأن خلقه لهما كان لحكمة وليس عبثا .

٨ ـ وأن تصويره البشر على ما هم عليه أثر حكمته .

٩ ـ وأن إلى الله المرجع .

١٠ ـ وأن علمه محيط بما فى السموات وما فى الأرض وأنه يعلم ما يسره البشر وما يعلنونه ، وأنه عليم بما فى الصدور .

١١ ـ وأنه عذَّب الكافرين السابقين ؛ بسبب كفرهم برسل الله عز وجل ومعجزاتهم ، وبسبب استكبارهم أن يهديهم البشر ، وزعمهم أن الله لن يبعثهم وهذا يقتضى نفى الحكمة الإلهية » .

ثم يذكر السياق بمصير الغابرين من المكذبين بالرسل والبينات ، المعترضين على بشرية الرسل ، كما كان المشركون يكذبون ويعترضون على بشرية الرسول ﷺ ، ويكفرون بما جاءهم به من البينات ، والخطاب هنا للمشركين ، وهو تذكير لهم بعاقبة المكذبين وتحذير لهم من مثل هذه العاقبة ، والاستفهام قد يكون لإنكار حالهم بعد ما جاءهم من نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا عاقبة أمرهم ، وقد يكون للفت أنظارهم إلى هذا النبأ الذى يقصه عليهم ، وهم كانوا يعرفون ويتناقلون أنباء بعض الهلكى من الغابرين ، كعاد وثمود وقرى لوط ، ويضيف القرآن إلى المعروف من مآلهم فى الدنيا ما ينتظرهم هنالك فى الآخرة من العذاب الأليم .

ثم يكشف عن السبب الذى استحقوا به ما نالهم وما ينتظرهم ؛ فقد كانت رسلهم تأتيهم بالحجج والدلائل والبراهين ، فاستبعدوا أن تكون الرسالة فى البشر ، وأن يكون هداهم على

يدى بشر مثلهم ، فكذبوا بالحق ونكلوا عن العمل ، واستغنى الله عنهم وعن إيمانهم وعن طاعتهم ، وما هو ـ سبحانه ـ بمحتاج إلى شىء منهم ولا من غيرهم ، فهو الغنى الحميد .

ثم يحكى السياق تكذيب الذين كفروا بالبعث ، ومنذ البدء يسمى مقالة الذين كفروا عن عدم البعث زعما ، فيقضى بكذبه من أول لفظ فى حكايته ، ثم يوجه الرسول ﷺ إلى توكيد أمر البعث بأوثق توكيد ، وهو أن يحلف بربه، والله أعلم منهم بعملهم حتى لينبئهم به يوم القيامة ، وذلك يسير على الله فهو يعلم ما فى السموات والأرض ، ويعلم السر والعلن ، وهو عليم بذات الصدور، وهو على كل شىء قدير، وفى ظل هذا التوكيد الوثيق يدعوهم إلى الإيمان بالله ورسوله، والنور الذى أنزله مع رسوله ، وهو هذا القرآن ، وهو هذا الدين يبشر به القرآن ، وهو نور فى حقيقته بما أنه من عند الله والله نور السموات والأرض وهو نور فى آثاره إذ ينير القلب فيشرق بذاته ويبصر الحقيقة الكامنة فيه هو ذاته ، ويعقب على دعوتهم إلى الإيمان ، بما يشعرهم أنهم مكشوفون لعين الله لا يخفى عليه منهم شىء.

وبعد هذه الدعوة يعود إلى استكمال مشهد البعث الذى أكده لهم أوثق توكيد ، فأما أنه يوم الجمع فلأن جميع الخلائق فى جميع الأجيال تبعث فيه ، كما يحضره الملائكة وعددهم لا يعلمه إلا الله ، وفى مشهد من هذا الجمع يكون التغابن ، وهو تصوير لما يقع من فوز المؤمنين بالنعيم ، وحرمان الكافرين من كل شىء منه ثم صيرورتهم إلى الجحيم ، فهما نصيبان متباعدان .

قال القاسمى : « قال القاشانى : أى ليس التغابن فى الأمور الدنيوية ، فإنها أمور فانية سريعة الزوال ، ضرورة الفناء ، لا يبقى شىء منها لأحد ، فإن فات شىء من ذلك أو أفاته أحد ولو كان حياته فإنما فات أو أُفِيتَ ما لزم فواته ضرورة ، فلا غبن ولا حيف حقيقة ، وإنما الغبن والتغابن فى إفاتة شىء لو لم يفته لبقى دائما ، وانتفع به صاحبه سرمداً ، وهو النور الكمالى والاستعدادى ، فتظهر الحسرة والتغابن هناك فى إضاعة الربح ورأس المال فى تجارة الفوز والنجاة كما قال : ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ (البقرة) ، فمن أضاع استعداده ونور فطرته كان مغبونا مطلقا ، كمن أخذ نوره وبقى فى الظلمة ، ومن بقى نور فطرته ولم يكتسب الكمال اللائق به الذى يقتضيه استعداده أو اكتسب منه شيئا ولم يبلغ غايته كان مغبونا بالنسبة إلى الكامل التام،فكأنما ظفر بذلك الكامل بمقامه ومرامه،وبقى هذا متحيزاً فى نقصانه» .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ على القلب أن يعيش فى خشية وارتقاب ، وطمع ورجاء ، وأن يمضى فى الحياة معلقا فى كل حركة وكل خالجة باله بالله ، شاعراً بقدرته وهيمنته .

٢ ـ كرم الله الإنسان وأودعه القدرة على التمييز والقدرة على الاختيار وعليه أن يبصر اتجاهه

٣ ـ ليس التغابن فى الأمور الدنيوية ، وإنما التغابن فى إفاته شىء لو لم يفته لبقى دائما ، وانتفع صاحبه به سرمداً وهو ثواب الآخرة .

الجزء الثامن والعشرون — سورة التغابن

وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

سورة الطلاق

٥٥٧

معانى الكلمات :

المصير : المرجع .

توليتم : أعرضتم .

يهد قلبه : يوفقه لليقين والصبر .

فتنة : بلاء ومحنة واختبار .

يوق : يسلم . **شح نفسه :** بخلها الشديد مع حرصها . **قرضا حسنا :** احتسابا بطيبة نفس وإخلاص . .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أثر الإيمان بالله فى هداية القلب .

٢ ـ أن نعلم دوافع التقصير فى تبعات الإيمان .

٣ ـ أن نعلم كيف نتسامى على نقصنا وضعفنا .

المحتوى التربوى :

يقرر السياق قاعدة من قواعد التصور الإيمانى فى القدر، وفى أثر الإيمان بالله فى هداية القلب، فهو الإيمان الذى يرد كل شىء إلى الله ، ويعتقد أن كل ما يصيب من خير ومن شر فهو بإذن الله ، وهى حقيقة لا يكون إيمان بغيرها ، فهى أساس جميع المشاعر الإيمانية عند مواجهة الحياة بأحداثها خيرها وشرها ، وهذا جانب ضخم من التصور الإيمانى الذى ينشئه الإسلام فى ضمير المؤمن ، فيحس يد الله فى كل حدث ، ويرى يد الله فى كل حركة ، ويطمئن قلبه لما يصيبه من الضراء ومن السراء ، يصبر للأولى ويشكر للثانية ، وقد يتسامى إلى آفاق فوق هذا ، فيشكر فى السراء وفى الضراء ؛ إذ يرى فى الضراء كما فى السراء فضل الله ورحمته بالتنبيه أو بالتكفير أو بترجيح ميزان الحسنات، أو بالخير على كل حال .

ومن استقر فى ضميره هذا التصور الإيمانى يهده الله هداية مطلقة ، ويفتحه على الحقيقة اللدنية المكنونة ، ويصله بأصل الأشياء والأحداث،فيرى هناك منشأها وغايتها ، ومن ثم يطمئن ويقر ويستريح ، وهى هداية إلى شىء من علم الله ، يمنحه لمن يهديه ، حين يصح إيمانه فيستحق إزاحة الحجب ، وكشف الأسرار بمقدار .

ويتابع دعوتهم إلى الإيمان فيدعوهم إلى طاعة الله وطاعة الرسول ، وقد عرض عليهم من قبل مصير الذين تولوا ، وهنا يقرر لهم أن الرسول مبلغ ، فإذا بلغ فقد أدى الأمانة ، ونهض بالواجب وأقام الحجة ، وبقى ما ينتظرهم هم من المعصية والتولى ، مما ذكروا منذ قليل ، ثم يختم هذه الآية بتقرير حقيقة الوحدانية التى ينكرونها ويكذبونها ويقرر شأن المؤمنين بالله فى تعاملهم مع الله ، وحقيقة التوحيد هى أساس التصور الإيمانى كله ، ومقتضاها أن يكون التوكل عليه وحده ، فهذا هو أثر التصور الإيمانى فى القلوب .

وفى النهاية يوجه الخطاب إلى المؤمنين يحذرهم فتنة الأزواج والأولاد والأموال ، ويدعوهم إلى تقوى الله والسمع والطاعة والإنفاق ، كما يحذرهم شح الأنفس ، ويعدهم على ذلك مضاعفة الرزق والمغفرة والفلاح ، ويذكرهم فى الختام بعلم الله للحاضر والغائب ، وقدرته وغلبته مع خبرته وحكمته ، وهذا التحذير من الأزواج والأولاد كالتحذير الذى فى الآية التالية من الأموال والأولاد معا ، والتنبيه إلى أن من الأزواج والأولاد من يكون عدواً .

إن هذا يشير إلى حقيقة عميقة فى الحياة البشرية ، ويمس وشائج متشابكة دقيقة فى التركيب العاطفى وفى ملابسات الحياة سواء، فالأزواج والأولاد قد يكونون مشغلة وملهاة عن ذكر الله ، كما أنهم قد يكونون دافعا للتقصير فى تبعات الإيمان اتقاء للمتاعب التى تحيط بهم لو قام المؤمن بواجبه ، فلقى ما يلقاه المجاهد فى سبيل الله ، والمجاهد فى سبيل الله يتعرض لخسارة الكثير ، وتضحية الكثير كما يتعرض هو وأهله للعنت ، وقد يحتمل العنت فى نفسه ولا يحتمله فى زوجه وولده ، فيبخل ويجبن ليوفر لهم الأمن والقرار أو المتاع والمال ، فيكونون عدواً له ؛ لأنهم صدوه عن الخير ، وعوقوه عن تحقيق غاية وجوده الإنسانى العليا .

كما أنهم قد يقفون له فى الطريق يمنعونه من النهوض بواجبه؛ اتقاء لما يصيبهم من جرائه ، أو لأنهم قد يكونون فى طريق غير طريقه ، ويعجز هو عن المفاصلة بينه وبينهم والتجرد لله ، وهى كذلك صور من العداوة متفاوتة الدرجات وهذه وتلك مما يقع فى حياة المؤمن فى كل آن ، ومن ثم اقتضت هذه اكمال العقدة المتشابكة ، التحذير من الله ، لإثارة اليقظة فى قلوب الذين آمنوا ، والحذر من تسلل هذه المشاعر ، وضغط هذه المؤثرات .

ثم كرر هذا التحذير فى صورة أخرى من فتنة الأموال والأولاد ، وكلمة فتنة تحتمل معنيين :
الأول : أن الله يفتنكم بالأموال والأولاد بمعنى يختبركم ، فانتبهوا لهذا وحاذروا وكونوا أبداً يقظين لتنجحوا فى الابتلاء ، وتخلصوا وتتجردوا لله ، كما يفتن الصائغ الذهب بالنار ليخلصه من الشوائب .

والثانى : أن هذه الأموال والأولاد فتنة لكم توقعكم بفتنتها فى المخالفة والمعصية ، فاحذروا هذه الفتنة لا تجرفكم وتبعدكم عن الله ، وكلا المعنيين قريب من قريب .

وإن التحذير والتنبيه فيه لضرورة يقدرها من خلق قلوب الناس ، وأودعها هذه المشاعر ، ولتكفكف نفسها عن التمادى والإفراط ، وهى تعلم أن هذه الوشائج الحبيبة قد تفعل بها ما يفعل العدو ، وتؤدى بها إلى ما تؤدى إليه مكايد الأعداء ، ومن ثم يلوح لها بما عند الله بعد التحذير من فتنة الأموال والأولاد ، والعداوة المستعرة فى بعض الأبناء والأزواج ، فهذه فتنة ، وعند الله يوم القيامة الأجر العظيم .

ويهتف للذين آمنوا بتقوى الله فى حدود الطاقة والاستطاعة ، وبالسمع والطاعة ، ويتجلى لطف الله بعباده ، وعلمه بمدى طاقتهم فى تقواه وطاعته ـ بهذا القيد ﴿ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ فالطاعة فى الأمر ليس لها حدود ، ومن ثم يقبل فيها ما يستطاع ، أما النهى فلا تجزئة فيه فيطلب بكامله دون نقصان .

ثم يهيب السياق بهم إلى الإنفاق ، فهم ينفقون لأنفسهم ، وهو يأمرهم أن ينفقوا الخير لأنفسهم ، فيجعل ما ينفقونه كأنه نفقة مباشرة لذواتهم ، وبعدها الخير لهم حين يفعلون ، ويريهم شح النفس بلاءً ملازما ، السعيد السعيد من يخلص منه ويوقاه ، والوقاية منه فضل من الله ، ثم يمضى فى إغرائهم بالبذل وتحبيبهم فى الإنفاق ، فيسمى إنفاقهم قرضا لله ، ومن ذا الذى لا يربح هذه الفرصة التى يقرض فيها مولاه ؟ وهو يأخذ القرض فيضاعفه ويغفر به، ويشكر المقرض ، ويحلم عليه حين يقصر فى شكره وهو الله !

إن الله يعلمنا ـ بصفاته ـ كيف نتسامى على نقصنا وضعفنا ، ونتطلع إلى أعلى دائما لنراه ـ سبحانه ـ ونحاول أن نقلده فى حدود طاقتنا الصغيرة المحدودة ، وقد نفخ الله فى الإنسان من روحه فجعله مشتاقا أبداً إلى تحقيق المثل الأعلى فى حدود طاقته وطبيعته ، وتبقى صفة الله التى بها الاطلاع والرقابة على القلوب، فكل شىء مكشوف لعلمه، خاضع لسلطانه ، مدبر بحكمته ، كى يعيش الناس وهم يشعرون بأن عين الله تراهم ، وسلطانه عليهم ويكفى أن يستقر هذا التصور فى القلوب لتتقى الله وتخلص له وتستجيب .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ كل شىء يقع فى هذا الكون بإرادة الله تعالى ، والمؤمن هو الذى يسلم الأمر لله وحده ، فيعيش قويا آمنا راضى النفس بكل ما يصيبه بعد أن يتخذ الأسباب ، ويؤدى ما عليه من واجبات .

٢ ـ الإسلام دين يسر وسماحة ، وقد أمر الإنسان أن يفعل ما فى استطاعته من الطاعات وأعمال الخير ، ولكن عليه أن يجتنب كل ما نهى الله عنه .

٣ ـ طاعة الرسول واجبة مثل طاعة الله تعالى .

سورة الطلاق

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (١) فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤) ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا (٥)

معانى الكلمات :

أحصوا : اضبطوا .

بفاحشة مبينة : بمعصية كبيرة ظاهرة .

بلغن : قاربن .

فأمسكوهن : فأبقوهن .

يوعظ به : ينتفع به .

لا يحتسب : لا يخطر بباله .

حسبه : كافيه .

قدرا : أجلاً ينتهى إليه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نستشعر خطورة شأن الأسرة فى الإسلام .

٢ ـ أن نعلم أن الأصل فى الرابطة الزوجية هو الاستقرار والاستمرار .

٣ ـ أن نتعرف على حكم مراجعة الزوجة المطلقة وعدة المطلقات .

المحتوى التربوى :

يقف الإنسان مدهوشا أمام هذه السورة ، وهى تتناول أحكام هذه الحالة ومتخلفاتها ، وهى تحشد للأمر هذا الحشد العجيب من الترغيب والترهيب ، والتعقيب على كل حكم ، ووصل هذا الأمر بقدر الله فى السموات والأرضين ، وسنن الله فى هلاك العاتين عن أمره ، وفى الفرج والسعة لمن يتقونه ، وتكرار الأمر بالمعروف والسماحة والتراضى ، وإيثار الجميل ، والإطماع فى الخير ، والتذكير بقدر الله فى الخلق وفى الرزق ، وفى اليسر والعسر .

يقف الإنسان مدهوشا أمام هذا الحشد من الحقائق الكونية الكبرى فى معرض الحديث عن الطلاق أمام هذا الاحتفال والاهتمام ، حتى ليوجه الخطاب إلى النبى ﷺ بشخصه ، وهو أمر عام للمؤمنين وحكم عام للمسلمين ، زيادة فى الاهتمام وإشعاراً بخطورة الأمر المتحدث فيه ، وأمام هذا التفصيل الدقيق للأحكام حالة حالة ، والأمر المشدد فى كل حكم بالدقة فى مراعاته ،

وتقوى الله فى تنفيذه ، ومراقبة الله فى تناوله ، وإن هذا له عدة دلالات تجتمع كلها عند سمو هذا الدين وجديته ، فهو يدل ابتداء على خطورة شأن الأسرة فى النظام الإسلامى ، فالإسلام نظام أسرة ، البيت فى اعتباره مثابة ومسكنًا فى ظله تلتقى النفوس على المودة والرحمة والتعاطف والستر والتجمل والحصانة والطهر ، وفى كنفه تنبت الطفولة ، وتدرج الحداثة ، ومنه تمتد وشائج الرحمة وأواصر التكافل ، وللاحتفال بشأن العلاقات الزوجية والعائلية هذا الاحتفال فى القرآن كله ، هى اتجاه النظام الإسلامى لرفع هذه العلاقات الإنسانية إلى مستوى القداسة المتصلة بالله ، واتخاذها وسيلة للتطهر الروحى والنظافة الشعورية .

ونستعرض أحكام السورة وهى شىء آخر غير التلخيص ؛ شىء حى فيه روح وفيه حركة وفيه حياة وفيه إيحاء وله إيقاع ، وهذا هو أول حكم يوجه الخطاب به إلى النبى ﷺ ثم يظهر أن الحكم خاص بالمسلمين لا بشخصه ﷺ ، وأن إيقاع الطلاق يستلزم وقتا معينا ، وأنه ليس للزوج أن يطلق حينما شاء إلا أن تكون امرأته فى حالة طهر من حيض ، ولم يقع بينهما فى هذا الطهر وطء ، أو أن تكون الزوجة حاملا بينة الحمل ، والحكمة فى ذلك التوقيت هى :

أولا : إرجاء إيقاع الطلاق فترة بعد اللحظة التى تتجه فيها النفس للطلاق ، وقد تسكن الفورة إن كانت طارئة وتعود النفوس إلى الوئام ، كما أن فيه تأكدا من الحمل أو عدمه قبل الطلاق ، فقد يمسك عن الطلاق لو علم أن زوجه حامل ، فإذا مضى فيه وقد تبين حملها دل على أنه مريد له ولو كانت حاملًا ، فاشتراط الطهر بلا وطء هو للتحقيق من عدم الحمل ، واشتراط تبين الحمل هو ليكون على بصيرة من الأمر .

وهذه أول محاولة لرأب الصدع فى بناء الأسرة ، ومحاولة رفع المعول عن ذلك البناء .

وليس معنى هذا أن الطلاق لا يقع إلا فى هذه الفترة فهو يقع حيثما طلق ، ولكنه يكون مكروها من الله ، مغضوبا عليه من رسول الله ، وهذا الحكم يكفى فى ضمير المؤمن ليمسك به حتى يأتى الأجل ، فيقضى الله بما يريد فى هذه المسألة ، واحفظوا العدة واعرفوا ابتداءها وانتهاءها ، لئلا تطول على المرأة فتمتنع من الأزواج ، ويأتى التنبيه بتقديم تقوى الله ، وفى مدة العدة لها حق السكنى على الزوج ما دامت معتدة منه ، فليس للرجل أن يخرجها ، ولا يجوز لها أيضا الخروج ، لأنها معتقلة لحق الزوج أيضا ، فلا تخرج المرأة ألا أن ترتكب المرأة فاحشة مبينة ، فتخرج من المنزل ، والفاحشة المبينة : تشمل الزنا ، وتشمل ما إذا نشزت المرأة أو بذأت على أهل الرجل وآذتهم فى الكلام والفعال ، وتلك شرائع الله ومحارمه ومن يخرج عنها ويتجاوزها إلى غيرها ولا يأتمر بها فقد ظلم نفسه بفعل ذلك ، وقد تتغير الأحوال وتتبدل إلى هناءة ورضا ، فمن ذا الذى يعلم غيب الله وقدره المخبوء وراء أمره بالعدة ، وأمره ببقاء المطلقات فى بيوتهن .

وإذا بلغت المعتدات العدة وقاربن ذلك ولكن لم تفرغ العدة بالكلية ، فحينئذ إما أن يعزم الزوج على إمساكها ، وهو رجعتها إلى عصمة نكاحه والاستمرار بها على ما كانت عليه عنده ، محسنا إليها فى صحبتها، وإما أن يعزم على مفارقتها من غير مقابحة ولا مشاتمة ولا تعنيف ، بل

يطلقها على وجه جميل وسبيل حسن ، وعند الرجعة والفرقة أشهدوا من يُرضى دينهما وأمانتهما ، وهذا الأمر من الإشهاد وإقامة الشهادة إنما يأتمر به من يؤمن بالله وأنه شرع هذا ويخاف عقاب الله فى الدار الآخرة .

ومن يتق الله فيما أمره به يجعل له مخرجا من الضيق فى الدنيا والآخرة ، ورزقا من حيث لا يقدر ولا ينتظر ، ولكن إلصاقها هنا بأحكام الطلاق يوحى بدقة انطباقها وتحققها عندما يتقى المتقون الله فى هذا الشأن بصفة خاصة ، وهو الشأن الذى لا ضابط فيه أحسن ولا أدق من ضابط الشعور والضمير ، فالتلاعب فيه مجاله واسع ، لا يقف دونه إلا تقوى الله وحساسية الضمير ، ومجال الكيد فى هذه العلاقة واسع ، ومسالكه كثيرة ، وقد تؤدى محاولة اتقاء الكيد إلى الكيد ، فهنا إيحاء بترك هذه المحاولة ، والتوكل على الله ، وهو كاف لمن يتوكل عليه ، فالله بالغ أمره ، فما قدر وقع ، وما شاء كان ، فالتوكل عليه توكل على قدرة القادر ، وقوة القاهر الفعال لما يريد ، البالغ ما يشاء ، وكل شىء مقدر بمقداره وبزمانه وبمكانه ، وبنتائجه ، وأسبابه ، وليس شىء مصادفة فى هذا الكون كله ، وفى نفس الإنسان وحياته ، وهى حقيقة ضخمة يقوم عليها جانب كبير من التصور الإيمانى .

ويذكر السياق تحديد مدة العدة لغير ذوات الحيض والحمل، يشمل اللواتى انقطع حيضهن، واللائى لم يحضن بعد لصغر أو لعلة ، ذلك أن المدة التى بينت فى سورة البقرة من قبل كانت تنطبق على ذوات الحيض وهى ثلاث حيضات أو ثلاثة أطهار من الحيضات ، حسب الخلاف الفقهى فى المسألة ـ فأما التى انقطع حيضها والتى لم تحض أصلا فكان حكمهما موضع لبس : كيف تحسب عدتهما؟ فجاءت هذه الآية تبين وتنفى اللبس والشك،و تحدد ثلاثة أشهر لهؤلاء وهؤلاء ؛ لاشتراكهن فى عدم الحيض الذى تحسب به عدة أولئك .

أما الحوامل فجعل عدتهن هى الوضع ، طال الزمن بعد الطلاق أم قصر ، ولو كان أربعين ليلة فترة الطهر من النفاس ؛ لأن براءة الرحم بعد الوضع مؤكدة فلا حاجة إلى الانتظار ، والمطلقة تبين من مطلقها بمجرد الوضع ، فلا حكمة فى انتظارها بعد ذلك ، وهى غير قابلة للرجعة إليه إلا بعقد جديد على كل حال ، وقد جعل الله لكل شىء قدراً ، فليس هناك حكم إلا وراءه حكمة ، والله يسهل للمتقين أمورهم ، وهذا حكم الله أنزله إليكم بواسطة رسوله ﷺ ، والذى يتقى الله يذهب عنه المحذور ، ويجزل له الثواب على العمل اليسير .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ اهتمام الإسلام بأمر الأسرة وحفاظه على تماسكها وصيانته لها من كل عوامل الهدم والتصدع .

٢ ـ تقوى الله ومراقبته والالتزام بأحكام الشريعة الإسلامية يؤدى إلى السعادة فى الدنيا والآخرة .

٣ ـ التوكل على الله هو تفويض الأمر إليه مع اتخاذ الأسباب والسعى لطلب الرزق .

الجزء الثامن والعشرون — سورة الطلاق

أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا
عليهن وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن
فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف وإن
تعاسرتم فسترضع له أخرى (٦) لينفق ذو سعة من سعته
ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسا
إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا (٧) وكأين من قرية
عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها
عذابا نكرا (٨) فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا (٩)
أعد الله لهم عذابا شديدا فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا
قد أنزل الله إليكم ذكرا (١٠) رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات
ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور
ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها
الأنهار خالدين فيها أبدا قد أحسن الله له رزقا (١١) الله الذي خلق
سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن
الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما (١٢)

٥٥٩

معانى الكلمات :

وجدكم : وسعكم وطاقتكم .

وأتمروا : وتشاوروا فى الأجرة والرضاع .

تعاسرتم : تضايقتم .

سعة : غنى وطاقة .

قدر عليه : ضيق عليه .

عتت : تجبرت وتكبرت .

وبال أمرها : سوء عاقبة عتوها .

ذكرا : قرآناً .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم تفضيل مسألة الإقامة فى البيوت ، والإنفاق فى فترة العدة ، وقدر هذه النفقة.

٢ ـ أن نستشعر العبرة فى مصير الذين عتوا عن أمر ربهم وكانوا من الكافرين .

٣ ـ أن نعلم أن هذا الدين جاء لينشئ جماعة مسلمة ذات نظام خاص .

المحتوى التربوى :

يأتى البيان الأخير لتفضيل مسألة الإقامة فى البيوت ، والإنفاق فى فترة العدة ، على اختلاف مدتها ، فالمأمور به هو أن يسكنوهن مما يجدون هم من سكنى ، لا أقل مما هم عليه فى سكناهم ، وما يستطيعون حسب مقدرتهم وغناهم، غير عامدين إلى مضارتهم سواء بالتضييق عليهن فى فسحة المسكن أو مستواه ، أو فى المعاملة فيه ، وخص ذوات الأحمال بذكر النفقة ـ مع وجوب النفقة لكل معتدة ـ لتوهم أن طول مدة الحمل يحدد زمن الإنفاق ببعضه دون بقيته ، أو بزيادة عنه إذا قصرت مدته ، فأوجب النفقة حتى الوضع ، وهو موعد انتهاء العدة لزيادة الإيضاح التشريعى .

ثم فصل مسألة الرضاعة فلم يجعلها واجبا على الأم بلا مقابل ، فما دامت ترضع الطفل المشترك بينهما ، فمن حقها أن تنال أجراً على رضاعته تستعين به على حياتها وعلى إدرار اللبن للصغير،وهذا منتهى المراعاة للأم فى هذه الشريعة،وفى الوقت ذاته أمر الأب والأم أن يأتمرا بينهما بالمعروف فى شأن هذا الوليد ، ويتشاورا فى أمره ورائدهما مصلحته وهو أمانة بينهما ، فلا يكون فشلهما فى حياتهما نكبة على الصغير البرىء وهذه هى المباشرة التى يدعوهما الله إليها ، فأما إذا تعاسرا ولم يتفقا بشأن الرضاعة وأجرها ، فالطفل مكفول الحقوق وسترضع له أخرى ، دون اعتراض من الأم ودون تعطيل لحق الطفل فى الرضاعة بسبب تعاسرهما بعد فشلهما .

ثم يفصل الأمر فى قدر النفقة فهو اليسر والتعاون والعدل لا يجور هو ، وتتعنت هى ، فمن وسع الله عليه رزقه فلينفق عن سعة ؛ سواء فى السكن أو فى نفقة المعيشة أو فى أجر الرضاعة ، ومن ضيق عليه فى الرزق فليس عليه من حرج ، فالله لا يطالب أحداً أن ينفق إلا فى حدود ما آتاه ، فهو المعطى ولا يملك أحد أن يحصل على خير مما أعطاه الله ، فليس هناك مصدر آخر للعطاء غير هذا المصدر ، وليست هناك خزانة غير هذه الخزانة ، والأمر منوط بالله فى الفرج بعد الضيق ، واليسر بعد العسر ، فأولى لهما إذن أن يعقدا به الأمر كله ، وأن يراقباه ويتقياه والأمر كله إليه ، وهو المانح المانع ، وبيده الضيق والفرج والشدة والرخاء .

وإلى هنا يكون قد تناول سائر أحكام الطلاق ومتخلفاته ، وتتبع كل أثر من آثاره حتى انتهى إلى حل واضح ، ولم يدع من البيت المتهدم أنقاضا ولا غباراً يملأ النفوس ويغشى القلوب ، وكذلك يكون قد عالج جميع الوساوس والهواجس التى تثور فى القلوب ، فتمنعها من السماحة والتيسير والتجمل للأمر ، فأبعد أشباح الفقر والضيق وضياع الأموال من نفس الزوج إذا هو أسكن وأنفق ووسع على مطلقته أو مرضعة ولده ، ومن نفس الزوجة التى تضيق بنفقة الإعسار أو تطمع فى زيادة ما تصيب من مال زوجها السابق ، فأكد اليسر بعد العسر لمن اتقى ، والرزق من حيث لا يحتسب ، وفوق رزق الدنيا رزق الآخرة والأجر الكبير ، وإن الزوجين ليفارقان فى ظل تلك الأحكام والتوجيهات وفى قلوبهما بذور للود لم تمت .

وإذا انتهى السياق من هذا كله ساق العبرة الأخيرة فى مصير الذين عتوا عن أمر ربهم ورسله،فلم يسمعوا ولم يستجيبوا ، وعلق هذه العبرة على الرؤوس ، تذكرهم بالمصير البائس الذى ينتظر من لا يتقى ولا يطيع ، كما تذكرهم بنعمة الله على المؤمنين المخاطبين بالسورة والتشريع .

وأخذ الله لمن يعتو عن أمره ولا يسلم لرسله هو سنة متكررة،وتفصيل أخذها وذكر الحساب العسير والعذاب النكير ، ثم تصوير العاقبة وسوء المصير ، ثم تأخير صورة هذه العاقبة الخاسرة فى الآية التالية ، كل هذا لإطالة المشهد وتفصيل خطواته ومراحله ، ونرى فى هذا التحذير أن الله أخذ القرى واحدة بعد واحدة كلما عتت عن أمر ربها ورسله .

يقول صاحب الظلال : « ونجد هذا التحذير يساق هنا بمناسبة الطلاق وأحكامه ، فيرتبط الطلاق وأحكامه بهذه السنة الكلية، ويوحى هذا الارتباط أن أمر الطلاق ليس أمر أسر أزواج، إنما هو أمر الأمة المسلمة كلها، فهى المسؤولة عن هذا الأمر، وهى المسؤولة فيه عن شريعة الله » .

وتلك القرى ذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا ، ذاقته فى هذه الأرض قبل يوم الحساب الأخير ، وذلك فوق العذاب الشديد الذى ينتظر العتاة عن أمر الله ونهجه فى الحياة ، وهذا الدين منهج نظام جماعى ، جاء لينشئ جماعة مسلمة ذات نظام خاص ، وجاء ليصرف حياة هذه الجماعة كلها ، ومن ثم فالجماعة كلها مسؤولة عنه ، مسؤولة عن أحكامه ، ولن تخالف عن هذه الأحكام حتى يحق عليها هذا النذير الذى حق على القرى التى عتت عن أمر ربها ورسله ، وفى مواجهة هذا الإنذار ومشاهده الطويلة يهتف بأولى الألباب الذين آمنوا ، الذين هدتهم ألبابهم إلى الإيمان ، يهتف بهم ليتقوا الله الذى أنزل لهم الذكر ، ويجسم هذا الذكر ويمزجه بشخص الرسول ﷺ ، فيجعل شخصه الكريم هو الذكر ، وكأن الذكر نفذ إليهم مباشرة بذاته ، لم تحجب شخصية الرسول شيئا من حقيقة ، أو أن شخصية الرسول ﷺ قد استحالت ذكراً ، فهى صورة مجسمة لهذا الذكر صنعت به فصارت هو ، وهو ترجمة حية لحقيقة القرآن ، وفوق نعمة الذكر والنور والهداية والصلاح وعد بنعيم الجنات خالدين فيها أبداً ، وتذكير بأن هذا الرزق ولكن رزقا خير من رزق ، واختياره للأحسن هو الاختيار الحق الكريم .

وتأتى الإشارة إلى الكون الهائل ، فقد خلق الله سبع سموات ومن الأرض مثلهن ، ويقف القلب وجها لوجه أمام مشهد من مشاهد قدرة الخالق وسعة ملكه ، تصغر أمامه هذه الأرض كلها ، فضلا على بعض ما فيها ، فضلا على حادث من أحداثها ، وبين هذه السموات السبع والأرضين السبع يتنزل أمر الله ؛ لينشئ فى قلب المؤمن عقيدة أن الله على كل شىء قدير ، فلا يعجزه شىء مما يريد ، وأنه أحاط بكل شىء علما ولهذه اللمسة قيمتها هنا من وجهين:

الأول : أن الله الذى أحاط بكل شىء علما ، هو الذى يأمر بهذه الأحكام ، فقد أنزلها وهو يحيط بكل ظروفهم وملابساتهم ومصالحهم واستعداداتهم ، فهى أولى بالاتباع .

والثانى : أن هذه الأحكام بالذات موكولة إلى الضمائر ، فالشعور بعلم الله واطلاعه على كل شىء هو الضمان لحساسية هذه الضمائر .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ تحذير الأزواج من الإضرار بزوجاتهم والتضييق عليهن بأية وسيلة من الوسائل .

٢ ـ سنة الله التى لا تتخلف فى عقاب المفسدين الطاغين ، والخارجين عن طاعة الله ورسوله .

٣ ـ الإيمان شرط لقبول الأعمال الصالحة .



الجزء الثامن والعشرون — سورة التحريم

سورة التحريم

بسم الله الرحمن الرحيم

يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك والله غفور رحيم (١) قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم (٢) وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثا فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير (٣) إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير (٤) عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا (٥) يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون (٦) يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون (٧)

٥٦٠

سورة التحريم

معنى الكلمات :

تبتغى : تطلب .

تحلة أيمانكم : تحليلها بالكفارة .

مولاكم : ناصركم ومتولى أموركم .

نبأت به : أخبرت به غيرها .

أظهره الله : أطلعه الله عليه .

صغت قلوبكما: مالت عن حقه ﷺ عليكما .

تظاهرا عليه : تتعاونا عليه بما يسوءه .

غلاظ شداد : قساة أقوياء وهم الزبانية .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن التحليل والتحريم لا يكون بالهوى ولكن بالشرع .

٢ ـ أن نعلم كرامة الرسول ﷺ على ربه .

٣ ـ أن نستشعر خطورة المسؤولية الموكولة إلينا .

المحتوى التربوى :

تبدأ السورة بعتاب من الله سبحانه لرسوله ﷺ ؛ إذ حرم جاريته مارية ترضية ، وذلك أنه ﷺ خلا بها فى بيت إحدى نسائه فاطلعت عليه ، فقالت : يا رسول ، فى بيتى وعلى فراشى ، فجعل مارية عليه حراما ترضية لصاحبة الحجرة والفراش ، وهذا العتاب مؤثر موح ، فما يجوز أن يحرم المؤمن على نفسه ما أحله الله له من متاع ، والرسول ﷺ لم يكن حرم العسل أو مارية بمعنى التحريم الشرعى ، إنما كان قد قرر حرمان نفسه ، فجعل هذا العتاب يوحى بأن ما جعله الله حلالا فلا يجوز حرمان النفس منه عمداً وقصداً إرضاء لأحد ، والتعقيب يوحى بأن هذا الحرمان من شأنه أن يستوجب المؤاخذة ، وأن تتداركه مغفرة الله ورحمته .

فأما اليمين التى يوحى النص بأن الرسول ﷺ قد حلفها ، فقد فرض الله تحلتها أى كفارتها التى يحل منها ، ما دامت فى غير معروف والعدول عنها أولى ، والله يعينكم على ضعفكم وعلى ما يشق عليكم ، ومن ثم فرض تحلة الأيمان للخروج من العنت والمشقة ، وهو يشرع لكم عن علم وعن حكمة ، ويأمركم بما يناسب طاقتكم وما يصلح لكم ، فلا تحرموا إلا ما حرم ولا تحلوا غير ما أحل .

ثم يشير إلى الحديث ولا يذكر موضوعه ولا تفصيله ؛ لأن موضوعه ليس هو المهم ، وليس هو العنصر الباقى فيه ، إنما العنصر الباقى هو دلالته وآثاره ، ومن النص نطلع على نموذج من تلك الفترة العجيبة فى تاريخ البشرية ، الفترة التى يعيش فيها الناس مع السماء ، والسماء تتدخل فى أمرهم علانية وتفصيلا ، ونعلم أن الله قد أطلع نبيه على ما دار بين زوجيه بشأن ذلك الحديث الذى أسره إلى بعض أزواجه ، وأنه ﷺ حين راجعها فيه اكتفى بالإشارة إلى جانب منه ، وأنه أنبأها بمصدر علمه وهو المصدر الأصيل ، وهو الله صاحب العلم والخبرة .

ويتغير السياق من الحكاية عن حادث وقع إلى مواجهة وخطاب للمرأتين كأن الأمر حاضر ، وحين تتجاوز صدر الخطاب ، ودعوتهما إلى التوبة ؛ لتعود قلوبهما فتميل إلى الله ، فقد بعدت عنه بما كان منها حين تتجاوز هذه الدعوة إلى التوبة نجد حملة ضخمة هائلة وتهديدًا رعيبا مخيفا ، ومن هذه الحملة الضخمة الهائلة ندرك عمق الحادث وأثره فى قلب رسول الله ﷺ حتى احتاج الأمر إلى إعلان موالاة الله وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير وأعوان له ، ليطيب خاطر الرسول ﷺ ويحس بالطمأنينة والراحة من ذلك الأمر الخطير .

وكذلك دلالة الآية التالية وتفصيل صفات النساء اللواتى يمكن أن يبدل الله النبى بهن من أزواجه ولو طلقهن ، مع توجيه الخطاب للجميع فى معرض التهديد ، وهى الصفات التى يدعوهن إليها عن طريق الإيحاء والتلميح ، وهى الإسلام الذى تدل عليه الطاعة والقيام بأوامر الدين ، والإيمان الذى يغمر القلب ، وعنه ينبثق الإسلام حين يصح ويتكامل ، والقنوت وهو الطاعة القلبية ، والتوبة : هى الندم على ما وقع من معصية والاتجاه إلى الطاعة ، والعبادة وهى أداء الاتصال بالله والتعبير عن العبودية له ، والسياحة وهى التأمل والتدبر والتفكير فى إبداع الله والسياحة بالقلب فى ملكوته ، وهن ـ مع هذه الصفات ـ من الثيبات ومن الأبكار ، كما أن نساءه الحاضرات كان فيهن الثيب وفيهن البكر .

يقول صاحب الظلال : « فهذه صورة من الحياة البيتية لهذا الرجل الذى كان ينهض بإنشاء أمة وإقامة دولة على غير مثال معروف ، وعلى غير نسق مسبوق ، أمة تنهض بحمل أمانة العقيدة الإلهية فى صورتها الأخيرة ، وتنشئ فى الأرض مجتمعا ربانيا فى صورة واقعية يتأسى بها الناس ، وهى صورة من حياة إنسان كريم رفيع جليل عظيم ، يزاول إنسانيته فى الوقت الذى يزاول فيه

نبوته ، فلا تفترق هذه من تلك ؛ لأن القدر جرى بأن يكون بشراً رسولا ، حينما جرى بأن يحمله الرسالة الأخيرة للبشر أو منهج الحياة الأخير ، إنما الرسالة الكاملة يحملها الرسول الكامل » .

وفى ظلال هذا الحادث الذى كان وقعه عميقا فى نفوس المسلمين ، يهيب القرآن بالذين آمنوا ليؤدوا واجبهم فى بيوتهم من التربية والتوجيه والتذكير ، فيقوا أنفسهم وأهليهم من النار ، ويرسم لهم مشهداً من مشاهدها وحال الكفار عندها ، فتبعة المؤمن فى نفسه وفى أهله تبعة ثقيلة رهيبة ، فالنار هناك وهو متعرض لها وهو وأهله ، وعليه أن يحول دون نفسه وأهله ودون هذه النار التى تنتظر هناك ، إنها نار فظيعة مستعرة ، الناس فيها كالحجارة سواء ، فى مهانة الحجارة ، وفى رخص الحجارة وفى قذف الحجارة دون اعتبار ولا عناية .

وما أفظعها ناراً هذه التى توقد بالحجارة،و ما أشده عذابا هذا الذى يجمع إلى شدة اللذع المهانة والحجارة ، وكل ما بها وما يلابسها فظيع رهيب ، فعليها ملائكة طباعهم غليظة ، قد نزعت الرحمة من قلوبهم بالكافرين بالله ، تتناسب طبيعتهم مع طبيعة العذاب الذى هم به موكلون ، فتركيبهم فى غاية الشدة والكثافة والمنظر المزعج ، ومهما أمرهم الله بشىء يبادروا إليه فمن خصائصهم طاعة الله فيما يأمرهم،ومن خصائصهم كذلك القدرة على النهوض بما يأمرهم، وهم بغلظتهم هذه وشدتهم موكلون بهذه النار الشديدة الغليظة .

وعلى المؤمن أن يقى نفسه وأن يقى أهله من هذه النار ، وعليه أن يحول بينها وبينهم قبل أن تضيع الفرصة ولا ينفع الاعتذار ، فها هم أولاء الذين كفروا يعتذرون وهم عليها وقوف ، فلا يؤبه لاعتذارهم ، بل يجبهون بالتيئيس من قبول اعتذارهم فيقال لهم : لا تعتذروا فليس اليوم يوم الاعتذار ، إنما هو يوم الجزاء على ما كان من عمل فى الدنيا ، وقد عملتم ما تجزون عليه بهذه النار .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ حياة الرسول ﷺ الخاصة فى بيته ومع أسرته وحياته العامة مع الناس جميعا كتاب مفتوح لأمته وللعالم كله إلى يوم القيامة، يعرف الناس منها صورة العقيدة وتطبيقاتها الواقعية فى الحياة.

٢ ـ على المسلم أن يملك نفسه عند الغضب ، فلا يكثر من الحلف ولا يحرم على نفسه شيئا أحله الله له .

٣ ـ يجب على الزوجة المؤمنة أن تحافظ على سر زوجها ، وكذلك كل من يقوم بعمل ما عليه أن يحرص على أسرار عمله وأسرار من يعملون معه .

الجزء الثامن والعشرون — سورة التحريم

يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير (٨) يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير (٩) ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأت نوح وامرأت لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين (١٠) وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأت فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين (١١) ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين (١٢)

٥٦١

معانى الكلمات :

نصوحا : صادقة خالصة لا عودة بعدها للذنب .

أغلظ : شدد .

مأواهم : مستقرهم .

يغنيا : يدفعا .

نجنى : أنقذنى .

أحصنت : صانت .

روحنا : روحا من خلقنا .

القانتين : القوم المطيعين لربهم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم طريق الوقاية للنفس والأهل من النار .

٢ ـ أن نتعرف على مثل من نساء كافرات فى بيوت أنبياء .

٣ ـ أن نتعرف على مثل من نسا مؤمنات فى وسط الكافرين .

المحتوى التربوى :

فى ظلال الدعوة إلى التوبة التى وردت فى سياق الحادث يدعو الذين آمنوا إلى التوبة ، ويصور لهم الجنة التى تنتظر التائبين ، ثم يدعو النبى ﷺ إلى جهاد الكفار والمنافقين .

ويبين السياق كيف يقى المؤمنون أنفسهم وأهليهم هذه النار ، يبين لهم الطريق ، ويطمعهم بالرجاء ؛ فالطريق توبة نصوح ، توبة تنصح القلب وتخلصه ، ثم لا تغشه ولا تخدعه ، توبة عن الذنب والمعصية ، تبدأ بالندم على ما كان ، وتنتهى بالعمل الصالح والطاعة ، فهى عندئذ تنصح القلب فتخلصه من رواسب المعاصى وعكارها ، وتحضه على العمل الصالح بعدها ، فهذه هى التوبة النصوح ، التوبة التى تظل تذكر القلب بعدها وتنصحه فلا يعود إلى الذنوب . فإذا كانت

هذه التوبة فهى مرجوة إذن فى أن يكفر الله بها السيئات وأن يدخلهم الجنات ، فى اليوم الذى يخزى فيه الكفار ، ولا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه ، وإنه لإغراء مطمع ، وتكريم عظيم أن يضم الله المؤمنين إلى النبى ﷺ ، فيجعلهم معه صفاً يتلقى الكرامة فى يوم الخزى ، ثم يجعل لهم نوراً يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، نوراً يعرفون به فى ذلك اليوم الهائل المائج العصيب الرهيب ، ونوراً يهتدون به فى الزحام المريج ، ونوراً يسعى بين أيديهم وبأيمانهم إلى الجنة فى نهاية المطاف .

وهم فى رهبة الموقف وشدته يلهمون الدعاء الصالح بين يدى الله ؛ بأن يتم لهم نورهم ، ويغفر لهم ذنوبهم ، وإلهامهم هذا الدعاء فى هذا الموقف الذى يلجم الألسنة ويسقط القلوب ، هو علامة الاستجابة ، فما يلهم الله المؤمنين هذا الدعاء إلا وقد جرى قدره بأنه سيستجيب ، فالدعاء هنا نعمة يمنّ بها الله عليهم تضاف إلى منة الله بالتكريم وبالنور ، فأين هذا من النار التى وقودها الناس والحجارة ؟

يقول صاحب الظلال : « إن المؤمن مكلف بهداية أهله وإصلاح بيته ، كما هو مكلف بهداية نفسه وإصلاح قلبه ، إن الإسلام دين أسرة ... ومن ثم يقرر تبعة المؤمن فى أسرته ، وواجبه فى بيته ، والبيت المسلم هو نواة الجماعة المسلمة ، وهو الخلية التى يتألف منها ومن الخلايا الأخرى ذلك الجسم الحى ... المجتمع الإسلامى ، إن البيت الواحد قلعة من قلاع هذه العقيدة ، ولابد أن تكون القلعة متماسكة من داخلها حصينة فى ذاتها ، كل فرد فيها يقف على ثغرة لا ينفذ إليها ..

وواجب المؤمن أن يتجه بالدعوة أول ما يتجه إلى بيته وأهله ، واجبه أن يؤمن هذه القلعة من داخلها، واجبه أن يسد الثغرات فيها قبل أن يذهب عنها بدعوته بعيداً ، ولابد من الأم المسلمة ، فالأب المسلم وحده لا يكفى لتأمين القلعة، لابد من أب وأم ليقوما كذلك على الأبناء والبنات، فعبثا يحاول الرجل أن ينشئ المجتمع الإسلامى بمجموعة من الرجال ، لابد من النساء فى هذا المجتمع فهن الحارسات على النشء ، وهو بذور المستقبل وثماره » .

وإنها ضرورة وليست نافلة أن تقوم جماعة مسلمة ، تتواصى بالإسلام ، وتحتضن فكرته وأخلاقه وآدابه وتصوراته كلها، فتعيش بها فيما بينها ، وتعيش لها تحرسها وتحميها وتدعوا إليها، فى صورة واقعية يراها من يدعون إليها من المجتمع الجاهلى الضال ليخرجوا من الظلمات إلى النور بإذن الله ، إلى أن يأذن الله بهيمنة الإسلام ، حتى تنشأ الأجيال فى ظله ، وفى سبيل حماية الجماعة المسلمة الأولى كان الأمر لرسول الله ﷺ بمجاهدة أعدائها ، وهى لفتة لها معناها وقيمتها بعدما تقدم من أمر المؤمنين بوقاية أنفسهم وأهليهم من النار ، لها قيمتها فى ضرورة حماية المحضن الذى تتم فيه الوقاية من النار ، وتجمع الآية بين الكفار والمنافقين فى الأمر بجهادهم

والغلظة عليهم ؛ لأن كلا من الفريقين يؤدى دوراً مماثلا فى تهديد المعسكر الإسلامى ، وتحطيمه أو تفتيته ، فجهادهم هو الجهاد الواقى من النار ، وجزاؤهم هو الغلظ عليهم من رسول الله والمؤمنين فى الدنيا ، وجهنم فى الآخرة وبئس المصير .

ثم يتحدث السياق عن نساء كافرات فى بيوت أنبياء ، ونساء مؤمنات فى وسط كفار ، والمأثور فى تفسير خيانة امرأة نوح وامرأة لوط ، أنها كانت خيانة الدعوة ، وليست خيانة الفاحشة ، امرأة نوح كانت تسخر منه مع الساخرين من قومه ، وامرأة لوط كانت تدل القوم على ضيوفه وهى تعلم شأنهم مع ضيوفه،والمأثور كذلك امرأة فرعون أنها كانت مؤمنة فى قصره.

والإشارة القرآنية تعنى حقيقة دائمة مستقلة عن الأشخاص ، والأشخاص مجرد أمثلة لهذه الحقيقة : إن مبدأ التبعة الفردية يراد إبرازه هنا ، بعد الأمر بوقاية النفس والأهل من النار ، كما يراد أن يقال الأزواج النبى ﷺ وأزواج المؤمنين كذلك إن عليهن أنفسهن بعد كل شىء ، فهن مسؤولات عن ذواتهن ، ولن يعفيهن من التبعة أنهن زوجات نبى أو صالح من المسلمين .

وهاهى امرأة نوح وكذلك امرأة لوط كانتا فى صحبة نبيين رسولين ليلا ونهاراً ، يؤاكلانهما ويعاشرانهما أشد العشرة والاختلاط ، ولم يوافقاهما على الإيمان ، وخانتاهما فى الإيمان ، فلم يُجْد ذلك كله شيئا ولا دفع عنهما محذوراً لكفرهما ، وقيل للمرأتين : ادخلا النار مع الداخلين ، فلا كرامة ولا شفاعة فى أمر الكفر والإيمان .

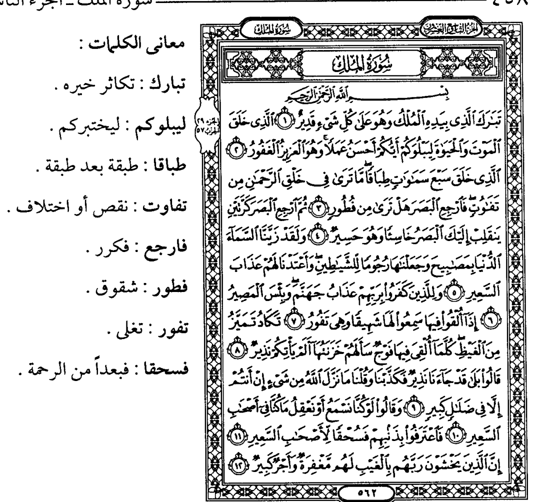
وهاهى ذى امرأة فرعون ، لم يصدها طوفان الكفر الذى تعيش فيه ، فى قصر فرعون ، عن طلب النجاة وحدها ، وقد تبرأت من قصر فرعون طالبة إلى ربها بيتا فى الجنة ، وتبرأت من صلتها بفرعون فسألت ربها النجاة منه ، وتبرأت من عمله مخافة أن يلحقها منه شىء ، وتبرأت من قوم فرعون وهى تعيش بينهم ، ومريم ابنة عمران كانت كذلك مثلا للتجرد لله منذ نشأتها ، ويذكر هنا تطهرها وإيمانها الكامل وطاعتها ، فإن الله بعث إليها جبريل فتمثل لها فى صورة بشر سوى ، وأمره الله أن ينفخ : فيه فى جيب درعها، فنزلت النفخة فولجت فى فرجها بقدره وشرعه .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الله تبارك وتعالى يقبل توبة عباده ويعفو عن السيئات بشرط ترك الذنب ، والندم على ما حدث ، والعزم على عدم العودة إليه مرة أخرى ، وإن كان الذنب فى حق الناس فلابد مع ذلك من رد المظالم إلى أصحابها حتى يسامحوا .

٢ ـ الإيمان أعظم من كنوز الدنيا كلها ومتاعها الزائل .

٣ ـ المؤمن مكلف هداية أهله ، وإصلاح بيته ، وأول الجهد ينبغى أن يوجه إلى البيت .



معانى الكلمات :

تبارك : تكاثر خيره .

ليبلوكم : ليختبركم .

طباقا : طبقة بعد طبقة .

تفاوت : نقص أو اختلاف .

فارجع : فكرر .

فطور : شقوق .

تفور : تغلى .

فسحقا : فبعداً من الرحمة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نستشعر عظمة الله تبارك وتعالى فى خلقه .

٢ ـ أن نعلم الغاية من وجودنا وأن نرتفع إلى مستوى حقيقتنا .

٣ ـ أن نتعرف على جهنم فى استقبالها الذين كفروا .

محتوى التربوى :

تعالج السورة إنشاء تصور جديد للوجود ، وعلاقاته بخالق الوجود ، تصور واسع شامل ، يتجاوز عالم الأرض الضيق وحيز الدنيا المحدود، إلى عوالم فى السموات، وإلى حياة فى الآخرة ، وإلى خلائق أخرى غير الإنسان فى عالم الأرض كالجن والطير ، وفى العالم الآخر كجهنم وخزنتها ، وإلى عوالم فى الغيب كما أنها تثير فى حسهم التأمل فيما بين أيديهم ، وفى واقع حياتهم وذواتهم مما يمرون به غافلين .

وتبدأ بهذه التسبيحة التى توحى بزيادة بركة الله ومضاعفتها ، وتمجيد هذه البركة الرابية الفائضة ، وذكر الملك بجوارها يوحى بفيض هذه البركة على هذا الملك ، وتمجيدها فى الكون بعد تمجيدها فى جناب الذات الإلهية ، ترنيمة تتجاوب بها أرجاء الوجود ، ويعمرها بها قلب كل موجود ، وهى تنطلق من النطق الإلهى فى كتابه الكريم ، من الكتاب المكنون إلى الكون المعلوم ،

فالله هو المالك له ، المهيمن عليه ، القابض على ناصيته المتصرف فيه ، وهى حقيقة حين تستقر فى الضمير تجدد له الوجهة والمصير ، وتخليه من التوجه أو الاعتماد أو الطلب من غير المالك المهيمن المتصرف فى هذا الملك بلا شريك ، كما تخليه من العبودية والعبادة لغير المالك الواحد الذى لا يعجزه شىء ، ولا يفوته شىء ، ولا يحول دون إرادته شىء .

ومن آثار تمكنه المطلق من الملك وتصريفه له ، وآثار قدرته على كل شىء وطلاقة إرادته أنه خلق الموت من خلق الله ، وليست المسألة مصادفة بلا تدبير ، وليست كذلك جزافا بلا غاية ، إنما هو الابتلاء لإظهار المكنون فى علم الله من سلوك الأناسى على الأرض ، واستحقاقهم للجزاء على العمل ، واستقرار هذه الحقيقة فى الضمير يدعه أبداً يقظاً حذراً متلفتا واعيا للصغيرة والكبيرة فى النية المستسرة والعمل الظاهر ، ولا يدعه يغفل أو يلهو ، كذلك لا يدعه يطمئن أو يستريح ، وتسكب الطمأنينة فى القلب فالله عزيز غالب ولكنه غفور مسامح .

والقرآن يوجه النظر إلى خلق الله فى السموات بصفة خاصة ، وفى كل ما خلق بصفة عامة ، يوجه النظر إلى خلق الله وهو يتحدى بكماله كمالا يرد البصر عاجزاً كليلا مبهوراً مدهوشا ، فليس هناك خلل ولا نقص ولا اضطراب ، وانظر مرة أخرى للتأكد والتثبت ، فهل وقع نظرك على شق أو صدع أو خلل ؟ وربما فاتك شىء فى النظرة السابقة لم تتبينها ، فأعد النظر ثم أعده ، فلن يرجع إلا ذليلا صاغرا وهو كليل قد انقطع من الإعياء من كثرة التكرر ولا يرى نقصا .

يقول صاحب الظلال : « وهذه النظرة الحادة الفاحصة المتأملة المتدبرة هى التى يريد القرآن أن يثيرها وأن يبعثها ، فبلادة الألفة تذهب بروعة النظرة إلى هذا الكون الرائع العجيب الجميل الدقيق، الذى لا تشبع العين من تملى جماله وروعته ، ولا يشبع القلب من تلقى إيحاءاته وإيياءاته ، ولا يشبع العقل من تدبر نظامه ودقته ، والذى يعيش منه من يتأمله بهذه العين فى مهرجان إلهى باهر رائع ، لا تخلق بدائعه ؛ لأنها أبداً متجددة للعين والقلب والعقل ... ومن نعمة الله على البشر أن أودعهم القدرة على التجاوب مع هذا الكون بمجرد النظر والتأمل ، فالقلب يتلقى إيقاعات هذا الكون الهائل الجميل تلقيا مباشراً حين يتفتح ويستشرف ، ثم يتجاوب مع هذه الإيقاعات تجاوب الحى مع الحى ، قبل أن يعلم بفكره وبأرصاده شيئا عن هذا الخلق الهائل العجيب ، ومن ثم يكل القرآن الناس إلى النظر فى هذا الكون ، وإلى تملى مشاهده وعجائبه » .

ومن ثم يوجه القرآن النظر إلى جمال السموات بعد أن وجه النظر إلى كمالها ، وما السماء الدنيا ؟ لعلها هى الأقرب إلى الأرض وسكانها المخاطبين بهذا القرآن ، ولعل المصابيح المشار إليها هى النجوم والكواكب الظاهرة للعين التى نراها حين ننظر إلى السماء ، فذلك يتسق مع توجيه المخاطبين إلى النظر فى السماء ، وما كانوا يملكون إلا عيونهم ،و ما تراه من أجرام مضيئة تزين السماء ، ويذكر النص القرآنى أن هذه المصابيح التى زين الله السماء الدنيا هى كذلك ذات

وظيفة أخرى ، فقد جعلها الله رجوما للشياطين فى صورة شهب ، وكيف ؟ من أى حجم ؟ فى أية صورة ؟ كل ذلك لم يقل الله لنا عنه شيئا ، فلنعلم هذا وحده ولنؤمن بوقوعه . ثم يستطرد فيما أعده الله للشياطين غير الرجوم، فالرجوم فى الدنيا وعذاب السعير فى الآخرة لأولئك الشياطين، ولما ذكر ما أعد للشياطين من عذاب السعير ذكر بعده ما أعده للذين كفروا من أتباع هؤلاء الشياطين ، ثم يرسم مشهداً لجهنم هذه ، وهى تستقبل الذين كفروا فى غيظ وحنق شديد ، وجهنم هنا مخلوقة حية ، تكظم غيظها ، فترتفع أنفاسها فى شهيق وتفور ؛ ويملأ جوانحها الغيظ فتكاد تتمزق من الغيظ الكظيم وهى تنطوى على بغض وكره يبلغ إلى حد الغيظ والحنق على الكافرين .

والتعبير يقرر حقيقة إيمان الوجود كله بخالقه ، وتسبيح كل شىء بحمده ، ودهشة الخلائق وارتياعها لشذوذ الإنسان حين يكفر ، ويشذ عن هذا الموكب وتحفز هذه الخلائق للانقضاض على الإنسان فى غيظ وحنق ، كالذى يطعن فى عزيز عليه كريم على نفسه ، فيغتاظ ويحنق ، ويكاد من الغيظ يتمزق ، كما هو حال جهنم وهى تغلى ، ويكاد ينفصل بعضها عن بعض ، كذلك نلمح هذه الظاهرة فى خزنة جهنم ، فيأتى سؤالهم للتأنيب والترذيل ، وهى مشاركة لجهنم فى الغيظ والحنق ، ويأتى الجواب فى ذلة وانكسار ، وندموا حيث لا تنفع الندامة وقالوا : فلو كانت لنا عقول ننتفع بها أو نسمع بها ما أنزل الله من الخلق لما كنا على ما كنا عليه من الكفر بالله والاغترار به ، واعترفوا بذنبهم فى الموقف الذى لم يؤمنوا به ولم يصدقوا بوقوعه ، والدعاء من الله قضاء ، فهم مبعدون من رحمته ، لا رجاء لهم فى مغفرة ، ولا إقالة لهم من عذاب ، وهم أصحاب السعير الملازمون له ، ويا لها من صحبة ، ويا له من مصير .

والمألوف فى سياق القرآن أن يعرض صفحتين متقابلتين فى مشاهد القيامة ، فيعرض صفحة المؤمنين فى مقابل صفحة الكافرين ، فمن خاف مقام ربه فيما بينه وبينه إذا كان غائبا عن الناس ، فينكفّ عن المعاصى ويقوم بالطاعات حيث لا يراه أحد إلا الله ـ فله مغفرة وأجر كبير ، فيكفر عنه ذنوبه ، ويجازى بالثواب الجزيل .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ ضرورة التفكر فى قدرة الله ـ تعالى ـ التى تظهر آثارها فى خلق السموات والأرض ؛ لتزداد إيمانا بعظمته .

٢ ـ الحكمة من وراء الموت والحياة اختبار الإنسان فى هذه الدنيا ليتميز أهل الخير من أهل الشر .

٣ ـ يندم الكافرون وأهل المعاصى فى الآخرة عندما يرون العذاب حيث لا ينفع الندم .

الجزء التاسع والعشرون — سورة الملك

وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥) ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١٨) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (١٩) أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (٢٠) أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١) أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٢) قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (٢٣) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٦)

٥٦٣

معانى الكلمات :

أسروا : أخفوا .

اجهروا به : أظهروه .

ذلولا : سهلة تستقرون عليها .

مناكبها : نواحيها المختلفة .

تمور : تهتز اهتزازا شديدا .

لجوا : أصروا على العصيان .

عتو : استكبار .

مكبا على وجهه : منكسا رأسه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم نعمة الله على خلقه فى تسخير الأرض وتذليلها لهم .

٢ ـ أن نستشعر خطورة الأمان الذى يوحى بالغفلة عن الله وقدرته وقدره .

٣ ـ أن نعلم بعض الأدلة الناطقة بعظمة الله وقدرته .

تفسير الآيات :

فى تقرير علم الله بالسر والجهر ، يتحدى البشر وهو الذى خلق نفوسهم ، ويعلم مداخلها ومكامنها التى أودعها إياها ، فأسروا أو اجهروا فى قولكم فهو مكشوف لعلم الله سواء ، وهو يعلم ما هو أخفى من الجهر والسر ، بما يخطر فى القلوب ، ألا يعلم الخالق وهو الذى خلق ويصل علمه إلى الدقيق الصغير والخفى المستور .

ثم ينتقل السياق إلى الأرض التى خلقها لهم وذللها وأودعها أسباب الحياة ، والناس لطول ألفتهم لحياتهم على هذه الأرض ، وسهولة استقرارهم عليها ، وسيرهم فيها ، واستغلالهم لتربتها ومائها وهوائها وكنوزها وقوامها وأرزاقها جميعا ، ينسون نعمة الله فى تذليلها لهم

وتسخيرها ، والقرآن يذكرهم هذه النعمة الهائلة ، ويبصرهم بها ، فى هذا التعبير الذى يدرك منه كل أحد وكل جيل بقدر ما ينكشف له من علم هذه الأرض الذلول وقد جعل الله الأرض قارة ساكنة لا تميد ولا تضطرب ، بما جعل فيها من الجبال ، وأنبع فيها من العيون ، وسلك فيها من السبل ، وهيأ فيها من المنافع ومواضع الزروع والثمار ، فسافروا حيث شئتم من أقطارها وترددوا فى أقاليمها وأرجائها فى أنواع المكاسب والتجارات ، واعلموا أن سعيكم لا يجدى عليكم شيئا ، إلا أن ييسره الله لكم ولهذا قال : ﴿وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ فالسعى فى السبب لا ينافى التوكل ،و إلى الله المرجع ، وإلا فإلى أين إن لم يكن إليه ؟ والملك بيده ؟ ولا ملجأ منه إلا إليه ؟ وهو على كل شىء قدير ؟

وبينما هم فى هذا الأمان على ظهر الأرض الذلول ، وفى هذا اليسر الفائض بإذن الله وأمره ، الآن يهز هذه الأرض الساكنة من تحت أقدامهم هزاً ، ويرجها رجا فإذا هى تمور ، ويثير الجو من حولهم فإذا هو حاصب يضرب الوجوه والصدور ، يهز هذه الأرض فى حسهم ويثير هذا الحاصب فى تصورهم ؛ لينتبهوا من غفلة الأمان والقرار ، ويمدوا بأبصارهم إلى السماء وإلى الغيب ، ويعلقوا قلوبهم بقدر الله ، والبشر الذين يعيشون على ظهر هذه الدابة الذلول ، ويحلبونها فينالون من رزق الله فيها نصيبهم المعلوم ، يعرفون كيف تتحول إلى دابة غير ذلول ولا حلوب فى بعض الأحيان ، عندما يأذن الله بأن تضطرب قليلا ، فيرتج كل شىء على فوق ظهرها أو يتحطم ، ويمور كل ما عليها ويضطرب فلا تمسكه قوة ولا حيلة ، ذلك عند الزلازل والبراكين ، التى تكشف عن الوحش الجامح ، الكامن فى الدابة الذلول ، التى يمسك الله بزمامها فلا تثور إلا بقدر ، ولا تجمح إلا ثوانى معدودات يتحطم فيها كل ما شيد الإنسان على ظهرها .

والقرآن يذكر البشر الذين يخدعهم سكون الدابة وسلامة مقادتها ، ويغريهم الأمان بنسيان خالقها ومروضها ، يذكرهم بهذه الجمحات التى لا يملكون من أمرها شيئا ، والأرض الثابتة تحت أقدامهم ترتج وتمور ، يحذرهم وينذرهم فى تهديد يرج الأعصاب ويخلخل المفاصل ، ويضرب لهم الأمثلة من واقع البشرية ، ومن وقائع الغابرين المكذبين ، ولقد أنكر الله ممن كذبوا قبلهم أن يكذبوا وهو يسأل كيف كان إنكارى عليهم ومعاقبتى لهم ؟ وقد كانت آثار الدمار والخراب تصف لهم كيف هذا النكير ، وكيف كان ما أعقبه من تدمير .

بعدئذ ينتقل بهم من لمسة التهديد والنذير ، إلى لمسة التأمل والتفكير ، فى مشهد يرونه كثيراً ، ولا يتدبرونه إلا قليلا ، وهو مظهر من مظاهر القدرة ، وأثر من آثار التدبير الإلهى اللطيف ، فتأمل هذا الطير ، وهو يصف جناحيه ويفردهما ، ثم يقبضهما ويضمهما ، وهو فى الحالتين : حالة الصف الغالبة ، وحالة القبض العارضة يظل فى الهواء ، يسبح فيه سباحة فى يسر وسهولة ، ويأتى بحركات يخيل إلى الناظر أحيانا أنها حركات استعراضية لجمال التحليق والانقضاض والارتفاع ، والقرآن يشير بالنظر إلى هذا المشهد المثير ، ثم يوحى بما وراءه من التدبير والتقدير ،

والرحمن يمسكهن بقدرته القادرة التى لا تكل ، وعنايته الحاضرة التى لا تغيب ،بهذا التعبير المباشر الذى يشى بيد الرحمن تمسك بكل طائر وبكل جناح ، والطائر صاف جناحيه ، وحين يقبض وهو معلق فى الفضاء ، والله يبصره ويراه ، ويبصر أمره ويخبره .

ثم يلمس قلوبهم لمسة أخرى ، فيقول تعالى للمشركين الذين عبدوا غيره ، يبتغون عندهم نصراً ورزقا ، منكراً عليهم فيما اعتقدوه ، ومخبراً لهم أنه لا يحصل لهم ما أملوه ، وليس لهم من دونه من ولى ولا واق ، ولا ناصر لهم غيره ، ويقول سبحانه : من هذا الذى إذا قطع الله رزقه عنكم يرزقكم بعده ؟ ! فلا أحد يعطى ويمنع ، ويخلق ويرزق وينصر إلا الله ـ عز وجل ـ وحده لا شريك له وهم يعلمون ذلك ومع هذا يعبدون غيره ، واستمروا فى طغيانهم وإفكهم وضلالهم معاندة واستكباراً ونفوراً على أدبارهم عن الحق ، لا يسمعون له ولا يتبعونه .

ولقد كانوا مع هذا ـ يتهمون النبى ﷺ ومن معه بالضلال ، ويزعمون لأنفسهم أنهم أهدى سبلا ، كما يضع أمثالهم مع الدعاة إلى الله فى كل زمان ، ومن ثم يصور لهم واقع حالهم وحال المؤمنين فى مشهد حى يجسم حقيقة الحال ، فالكافر مثله فيما هو فيه كمثل من يمشى مكبا على وجهه ، يمشى منحنيا لا مستويا على وجهه ، لا يدرى أين يسلك ولا كيف يذهب ، بل تائه حائر ضال ، والمؤمن السعيد المجدود المهتدى إلى الله ، الممتع بهداه ، الذى سير على طريق واضح بين ، وهو فى نفسه مستقيم ، وطريقه مستقيمة ، فأيهما أهدى ؟ وهل الأمر فى حاجة إلى جواب .

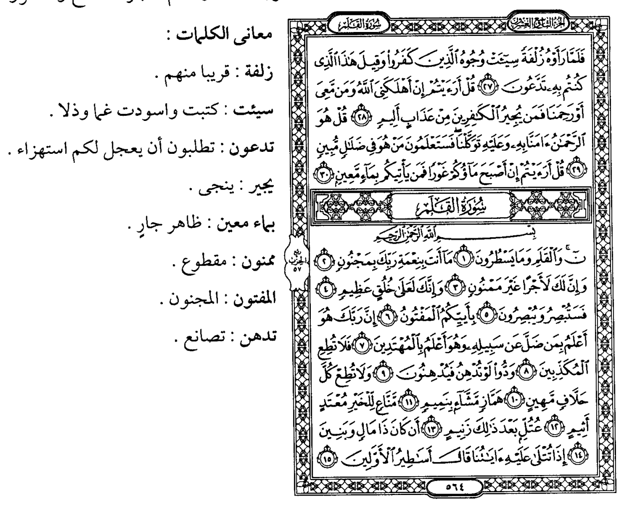
وعلى ذكر الهدى والضلال ، يذكرهم بما وهبهم الله من وسائل الهدى ، وأدوات الإدراك ثم لم ينتفعوا بها ، ولم يكونوا من الشاكرين ، والقرآن يذكر حقيقة أن الله هو الذى أنشأ الإنسان ويذكر بجانبها ما زود الله به الإنسان من وسائل المعرفة ، وما قابل الإنسان به هذا بالنعمة : نعمة الإنشاء ونعمة السمع والأبصار والأفئدة ، وعلى هذه الهبات الضخمة التى أعطيها الإنسان لينهض بتلك الأمانة الكبرى ، فإنه لم يشكر ، وهو أمر يثير الخجل والحياء عند التذكير به ، والله ـ عز وجل ـ هو الذى بث ونشر ، وليتذكر البشر وهم منتشرون فى الأرض أن هناك غاية هم صائرون إليها هى الجمع والحشر ، ويحكى شكهم فى هذا الحشر ، فيقولون : متى يقع هذا الذى تخبرنا به ، ويأتى الجواب بأنه لا يعلم وقت ذلك على التعيين إلا الله ، ولكنه أمرنى أنى أخبركم أن هذا كائن وواقع لا محالة ، فمهمتى الإنذار والبيان ، أما العلم فعند صاحب العلم الواحد بلا شريك .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا:

١ ـ المؤمن يسعى لطلب الرزق آخذا بالأسباب،معتمدا على الله ـ تعالى ـ عالما أنه هو الرازق.

٢ ـ المؤمن يطمئن إلى ربه ويرجو رحمته وفضله .

٣ ـ فى الهالكين الأولين عبر وعظات لمن له قلب حى وعقل يعقل به .



الجزء التاسع والعشرون — سورة القلم

فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا وقيل هذا الذي كنتم به تدعون (٢٧) قل أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم (٢٨) قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو في ضلال مبين (٢٩) قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين (٣٠)

سورة القلم

بسم الله الرحمن الرحيم

ن والقلم وما يسطرون (١) ما أنت بنعمة ربك بمجنون (٢) وإن لك لأجرا غير ممنون (٣) وإنك لعلى خلق عظيم (٤) فستبصر ويبصرون (٥) بأييكم المفتون (٦) إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين (٧) فلا تطع المكذبين (٨) ودوا لو تدهن فيدهنون (٩) ولا تطع كل حلاف مهين (١٠) هماز مشاء بنميم (١١) مناع للخير معتد أثيم (١٢) عتل بعد ذلك زنيم (١٣) أن كان ذا مال وبنين (١٤) إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين (١٥)

٥٦٤

معانى الكلمات :

زلفة : قريبا منهم .

سيئت : كتبت واسودت غما وذلا .

تدعون : تطلبون أن يعجل لكم استهزاء .

يجير : ينجى .

بماء معين : ظاهر جارٍ .

ممنون : مقطوع .

المفتون : المجنون .

تدهن : تصانع .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم حقيقة القدرة المطلقة ، وحقيقة الهيمنة المطلقة .

٢ ـ أن نتعرف على شيء من عروض المشركين على النبى ﷺ للالتقاء فى منتصف الطريق .

٣ ـ أن نستشعر قيمة العنصر الأخلاقى فى ميزان الله تعالى .

المحتوى التربوى :

بينما يسأل الكفار فى شك ويجابون فى جزم ، يخيل السياق القرآنى كأن هذا اليوم الذى يسألون عنه قد جاء ، والموعد الذى يشكون فيه قد حان ، وكأنما هم واجهوه الآن ، فكان فيه ما كان ، فقد رأوه قريبا مواجها لهم حاضراً أمامهم دون توقع ودون تمهيد ، فسيئت وجوههم ، وبدا فيها الاستياء ، ووجه إليهم التأنيب ، فهذا اليوم حاضر قريب ، وهو الذى كنتم تدعون أنه لن يكون .

ولقد كانوا يتربصون بالنبى ﷺ والحفنة المؤمنة التى معه أن يهلكوا فيستريحوا منهم ، وكانوا يتواصون بينهم بالصبر عليه حتى يوافيه الأجل ، وهنا أمام مشهد الحشر والجزاء يأتى سؤال يردهم إلى تدبر حالهم ، والتفكير فى شأنهم وهو الأولى ، فما ينفعهم أن تتحقق أمانيهم فيهلك الله النبى ومن معه ، كما لا ينقذهم بطبيعة الحال أن يرحم الله نبيه ومن معه ، والله باق لا يموت وهو

الذى ذرأهم فى الأرض وإليه تحشرون ، ولكنه لا يقول لهم : فمن يجيركم من عذاب أليم ؟ ولا ينص على أنهم كافرون ، إنما يلوح لهم بالعذاب الذى ينتظر الكافرين وهو أسلوب فى الدعوة حكيم ، يخوفهم من ناحية ، ويدع لهم فرصة للتراجع عن موقفهم من ناحية .

ثم يترقى من هذه التسوية بين الأمرين إلى تقرير موقف المؤمنين من ربهم وثقتهم به وتوكلهم عليه ، مع التلميح إلى اطمئنانهم لإيمانهم ، وثقتهم بهداهم ، وبأن الكافرين فى ضلال مبين ، وذكر صفة الرحمن يشير إلى رحمته العميقة الكبيرة برسوله والمؤمنين معه ، فهو لن يهلكهم كما يتمنى الكافرون أو كما يدعون ، ويوجه النبى ﷺ إلى إبراز الصلة التى تربطهم بربهم الرحمن ؛ صلة الإيمان وصلة التوكل ، ويأتى التهديد الذى من شأنه أن يخلخل الإصرار على الجحود ، ويدعوهم إلى مراجعة موقفهم مخافة أن يكونوا هم الضالين ، وأخيراً يلمح لهم بعذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة ، وذلك بحرمانهم من سبب الحياة الأول ، وهو الماء ، وهى لمسة قريبة فى حياتهم إن كانوا ما يزالون يستبعدون ذلك اليوم ويشكون فيه ، والملك بيد الله فكيف لو توجهت إرادته إلى حرمانهم مصدر الحياة القريب ، ثم يدعهم يتدبرون ما يكون لو أذن الله بوقوع هذا المحذور .

سورة القلم

يقسم الله ـ سبحانه ، بنون ، وبالقلم ، وبالكتابة ، والعلاقة واضحة بين الحرف (نون) بوصفه أحد حروف الأبجدية وبين القلم ، والكتابة ، فأما القسم بها فهو تعظيم لقيمتها وتوجيه إليها ، فى وسط الأمة التى لم تكن تتجه إلى التعلم عن هذا الطريق ، وكانت الكتابة فيها متخلفة ونادرة ، فى الوقت الذى كان دورها المقدر لها فى علم الله يتطلب نمو هذه المقدرة فيها ، وانتشارها بينها ؛ لتقوم بنقل هذه العقيدة وما يقوم عليها من مناهج الحياة إلى أرجاء الأرض ، ثم لتنهض بقيادة البشرية قيادة رشيدة ، وما من شك أن الكتابة عنصر أساس فى النهوض بهذه المهمة الكبرى .

ثم يثبت نعمة الله على نبيه ، فى تعبير يوحى بالقربة والمودة حين يضيفه سبحانه إلى ذاته ، وينفى تلك الصفة المفترات التى لا تجتمع مع نعمة الله على عبد نسبه إليه وقربه واصطفاه ، فكيف تجتمع صفة الجنون مع هذا التكريم العلى ، وإن لعبده ﷺ لأجراً دائما موصولا لا ينقطع ولا ينتهى ، وهو إيناس وتسرية وتعويض فائض غامر عن كل حرمان وعن كل جفوة وعن كل بهتان يرميه به المشركون ، ثم تجيء الشهادة الكبرى والتكريم العظيم بأنه ﷺ على خلق عظيم ، وتتجاوب أرجاء الوجود بهذا الثناء الفريد على النبى الكريم ، ويعجز كل قلم ، ويعجز كل تصور عن وصف قيمة هذه الكلمة العظيمة من رب الوجود ، وهى شهادة من الله فى ميزان الله ، لعبد الله ، ومدلول الخلق العظيم هو ما عند الله مما لا يبلغ إلى إدراك مداه أحد من العالمين ، وإن لهذه اللفتة دلالتها على تمجيد العنصر الأخلاقى فى ميزان الله وفى منهجه الذى جاء به هذا النبى الكريم .

وبعد هذا الثناء الكريم على عبده يطمئنه إلى غده مع المشركين الذين رموه بذلك البهت اللئيم ، ويهددهم بافتضاح أمرهم وانكشاف بطلانهم وضلالهم المبين ، وهذا الوعد من الله يشير

إلى أن الغد سيكشف عن حقيقة النبى وحقيقة مكذبيه ، ويثبت أيهم الممتحن بما هو فيه ، أو أيهم الضال فيما يدعيه ويطمئنه إلى أن رب هو الذى أوحى إليه ، فهو يعلم أنه هو المهتدى ومن معه ، ويعلم الضال ، وفى هذا ما يطمئنه وما يقلق أعداءه ، وما يبعث فى قلوبهم التوجس القلق لما سيجىء .

ثم يكشف الله عن حقيقة حالهم ، وحقيقة مشاعرهم ، وهم يخاصمونه ويجادلونه فى الحق الذى معه ، ويرمونه بما يرمونه وهم مزعزعو العقيدة فيما لديهم من تصورات الجاهلية التى يتظاهرون بالتصميم عليها ، إنهم على استعداد للتخلى عن الكثير منها فى مقابل أن يتخلى هو عن بعض ما يدعوهم إليه ، على استعداد أن يدهنوا ويلينوا ويحافظوا فقط على ظاهر الأمر لكى يدهن هو لهم ويلين ، فهم ليسوا أصحاب عقيدة يؤمنون بأنها الحق ، وإنما هم أصحاب ظواهر يهمهم أن يستروها ، فهى المساومة إذن ، والالتقاء فى منتصف الطريق كما يفعلون فى التجارة ، وفرق بين الاعتقاد والتجارة كبير ، فصاحب العقيدة لا يتخلى عن شىء منها ؛ لأن الصغير منها كالكبير ، بل ليس فى العقيدة صغير كبير ، إنها حقيقة واحدة متكاملة الأجزاء ، لا يطيع فيها صاحبها أحدا .

ثم يبرز العنصر الأخلاقى مرة أخرى نهى الرسول ﷺ عن إطاعة أحد هؤلاء المكذبين بالذات ، ويصفه بصفاته المزرية المنفرة ، ويتوعده بالإذلال والمهانة ، يصفه هنا بتسع صفات كلها ذميم ؛ فهو حلاف كثير الحلف إلا إنسان غير صادق ، وهو مهين لا يحترم نفسه ، ويحترم الناس قوله ، وهو هماز يعيب الناس بالقول والإشارة فى حضورهم أوفى غيبتهم سواء ، وهو يمشى بين الناس بما يفسد قلوبهم ، ويقطع صلاتهم ، وهو يمنع الخير عن نفسه وعن غيره ، ولقد كان يمنع الإيمان وهو جماع الخير ، وهو متجاوز للحق والعدل إطلاقا ، وهو أثيم يرتكب المعاصى ، وهو بعد هذا كله غليظ جافى الجموع المنوع ، وهو الدعى فى القوم لا نسب له فيهم أو هو المشهور بين الناس بلؤمه وخبثه وكثرة شروره وهذا أقرب ، ثم يأتى التعقيب بموقفه من آيات الله ، مع التشنيع بهذا الموقف الذى يجزى به نعمة الله عليه بالمال والبنين ، فهو يستهزئ بآيات الله ، ويسخر من رسوله ، ويعتدى على دينه ، وما أقبح الإنسان الذى يقابل بالإساءة الإحسان .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ الماء من أهم النعم التى أنعم الله بها على عباده فهو أساس الحياة ، فعلينا أن نحافظ عليه وأن نستعمله بلا إسراف .

٢ ـ قيمة العلم ومكانته السامية فى الإسلام ، وأهمية الكتابة فى نهضة البشرية وتقدمها .

٣ ـ ليس فى العقيدة صغير وكبير ، إنها حقيقة واحدة متكاملة الأجزاء لا يتخلى صاحبها عن شىء منها أبدا .

سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟
لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ
وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ
ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾
أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا
رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل
لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ
بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ
رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ
ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ
﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ
لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ
عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم
بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾
يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾

معانى الكلمات :

سنسمه على الخرطوم : سنجعل علامة على أنفه .

بلونا : امتحنا .

ليصرمنها : ليقطعن ثمارها .

طائف : بلاء وعذاب .

كالصريم : كالليل الأسود .

صارمين : قاصدين قطعها .

على حرد : على انفراد عن المساكين .

زعيم : كفيل .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على قصة أصحاب الجنة .

٢ ـ أن نعلم أن الابتلاء يكون بالسراء والضراء .

٣ ـ أن نعلم أن المجرمين لا يساوون المؤمنين يوم القيامة .

المحتوى التربوى :

يجيء التهديد من الجبار القهار :يلمس فى نفس الوليد موضع الاختيال والفخر بالمال والبنين، كما لمس وصفه من قبل موضع الاختيال بمكانته ونسبه ، ويسمع وعد الله القاطع ، والتهديد بوسمه على الخرطوم يحوى نوعين من الإذلال والتحقير ، الأول : الوسم كما يوسم العبد ، والثانى : جعل أنفه خرطوما كخرطوم الخنزير .

وبمناسبة الإشارة إلى المال والبنين ، والبطر الذى يبطره المكذبون ، يضرب لهم مثلا بقصة يبدو أنها كانت معروفة عندهم ، شائعة بينهم ، ويذكرهم فيها بعاقبة البطر بالنعمة ، ومنع الخير والاعتداء على حقوق الآخرين ، ويشعرهم أن ما بين أيديهم من نعم المال والبنين ، إنما هو ابتلاء لهم كما ابتلى أصحاب هذه القصة ، وأن له ما بعده ، وأنهم غير متروكين لما هم فيه ، وهذه القصة

قد تكون متداولة ومعروفة ، ولكن السياق القرآنى يكشف عما وراء حوادثها من فعل الله وقدرته ، ومن ابتلاء وجزاء لبعض عباده .

ومن خلال نصوصها وحركاتها نلمح مجموعة من الناس ساذجة بدائية أشبه فى تفكيرها وتصورها وحركتها بأهل الريف البسطاء السذج ، ونحاول أن نرى القصة كما هى فى سياقها القرآنى ، فنرى أصحاب الجنة وهم يبيتون فى شأنها أمراً ، لقد كان للمساكين حظ من ثمرة هذه الجنة على أيام صاحبها الطيب الصالح ، ولكن الورثة يريدون أن يستأثروا بثمرها الآن ، وأن يحرموا المساكين حظهم ، وقرَّ رأيهم على أن يقطعوا ثمرها عند الصباح الباكر ، دون أن يستثنوا منه شيئا للمساكين ، وأقسموا على هذا وعقدوا النية عليه ، وباتوا بهذا الشر فيما اعتزموه ، وهم لا يشعرون أن الله ساهر لا ينام كما ينامون ، وهو يدبر لهم غير ما يدبرون جزاء على ما بيتوا من بطر بالنعمة ومنع للخير ، وبخل بنصيب المساكين المعلوم ، إن هناك مفاجأة تتم فى خفية ، فقد نزل على جنتهم بلاء من عند الله وأصابها آفة سماوية بالليل وهم غافلون .

وندع الجنة وما ألم بها مؤقتا لننظر كيف يصنع المبيتون الماكرون ، فها هم أولاء يصحون مبكرين كما دبروا ، وينادى بعضهم بعضا ويوصى بعضهم بعضا ، ويهمس بعضهم بعضا ، ثم يمضى السياق فى السخرية منهم فيصورهم منطلقين يتحدثون فى خفوت ، زيادة فى إحكام التدبير ، ليجنوا الثمر كله لهم ، ويحرموا منه المساكين ، وكانما نحن الذين نسمع القرآن أو نقرؤه نعلم مالا يعلمه أصحاب الجنة من أمرها ، أجل فقد شهدنا تلك اليد الخفية اللطيفة تمتد إليها فى الظلام فتذهب بثمرها كله ، ورأيناها كأنها هى مقطوعة الثمار بعد ذلك الطائف الخفى الرهيب ، فلنمسك أنفاسنا إذن ، لنرى كيف يصنع الماكرون المبيتون .

وما يزال السياق يسخر من الماكرين المبيتين ، وقد غدوا على المنع والحرمان قادرين ، حرمان أنفسهم على أقل تقدير ، وهاهم أولاء يفاجأون ، فلننطلق مع السياق ساخرين ونحن نشهدهم مفجوئين ، ما هذه جنتنا الموقرة بالثمار فقد ضللنا إليها الطريق ، ولكنهم يعودون فيتأكدون أنها هى وأنهم لا حظ لهم ولا نصيب ، وهذا هو الخبر اليقين ، والآن وقد حاقت بهم عاقبة المكر والتبييت ، وعاقبة البطر والمنع ، يتقدم أوسطهم وأعقلهم وأصلحهم ، ويبدو أنه كان له رأى غير رأيهم ولكنه تابعهم عندما خالفوا ، ولم يصر على الحق الذى رآه فناله الحرمان كما نالهم ، ولكنه يذكرهم ما كان من نصحه وتوجيهه وأمرهم بتسبيح الله وشكره على نعمائه ، والآن فقط يسمعون للناصح بعد فوات الأوان .

وكما يتنصل كل شريك من التبعية عندما تسوء العاقبة ، ويتوجه باللوم إلى الآخرين ، هاهم أولاء يصنعون ، ثم هاهم أولا يتركون التلاوم ليعترفوا جميعا بالخطيئة أمام العاقبة الرديئة ، عسى أن يغفر الله لهم ، ويعوضهم من الجنة الضائعة على مذبح البطر والمنع والكيد والتدبير ، وقبل أن يسدل السياق الستار نسمع التعقيب ، بأن عذاب من خالف أمر الله هكذا ، وبخل بما آتاه الله وأنعم به عليه ، ومنع حق المسكين والفقير وذوى الحاجات ، وبدل نعمة الله كفرا ، وهذه

عقوبة الدنيا كما سمعتم ، وعذاب الآخرة أشق ، والمتقون الحذرون لهم عند ربهم جنات النعيم ، وهو التقابل فى العاقبة ، كما أنه التقابل فى المسلك والحقيقة ، تقابل النقيضين اللذين اختلفت بهما الطريق ، فاختلفت بهما خاتمة الطريق .

وعند هاتين الخاتمتين يدخل معهم فى جدل لا تعقيد فيه كذلك ولا تركيب ، ويتحداهم ويحرجهم بالسؤال ، ويهددهم فى الآخرة بمشهد رهيب ، وفى الدين بحرب من العزيز الجبار القوى الشديد ، والسؤال الاستنكارى الأول : أفنساوى بين هؤلاء وهؤلاء فى الجزاء ؟ وهو سؤال ليس له إلا جواب واحد لا يكون ، ويجىء السؤال الاستنكارى الآخر : ماذا بكم ؟ وعلام تبنون أحكامكم ؟ وكيف تزنون القيم والأقدار ؟ حتى يستوى فى ميزانكم وحكمكم من يسلمون ومن يجرمون ؟ !

ثم ينتقل إلى التهكم بهم والسخرية منهم فيسألهم : إن كان لهم كتاب يدرسونه هو الذى يستمدون منه مثل ذلك الحكم الذى لا يقبله عقل ولا عدل ، إنه كتاب مضحك يوافق هواهم فلهم ما يتخيرون من الأحكام وما يشتهون ، وهو لا يرتكن إلى حق ولا إلى عدل ، ولا إلى معقول أو معروف ، أم لهم مواثيق على الله ، سارية إلى يوم القيامة ، مقتضاها أن لهم ما يحكمون ، وما يختارون وفق ما يشتهون ، سلهم من منهم المتعهد بأن لهم على الله ما يشاؤون ، وهم كانوا يشركون بالله، ولكن التعبير يضيف الشركاء إليهم لا لله، ويتجاهل أن هناك شركاء، ويتحداهم أن يدعوا شركاءهم إن كانوا صادقين ، ولكن متى يدعونهم ؟

لما ذكر تعالى أن للمتقين عند ربهم جنات النعيم ، بين متى ذلك كائن وواقع ، ويقفهم وجها لوجه أمام هذا المشهد كأنه حاضر اللحظة ، وكأنه يتحداهم فيه أن يأتوا بشركائهم المزعومين ، وهذا اليوم حقيقة حاضرة فى علم الله لا تتقيد فى علمه بزمن ، واستحضارها للمخاطبين على هذا النحو يجعل وقعها عميقا حاضراً فى النفوس على طريقة القرآن الكريم .

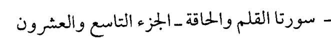
والكشف عن الساق كناية عن الشدة والكرب ، فهو يوم القيامة الذى يشمر فيه عن الساعد ويكشف فيه عن الساق ، ويشتد الكرب والضيق ، ويدعى هؤلاء المتكبرون إلى السجود فلا يملكون السجود ؛ إما لأن وقته قد فات ، وإما لأنهم فى موضع آخر يكونون وكأن أجسامهم وأعصابهم مشدودة من الهول على غير إرادة منهم ، وهو تعبير يشى بالكرب والعجز والتحدى المخيف .

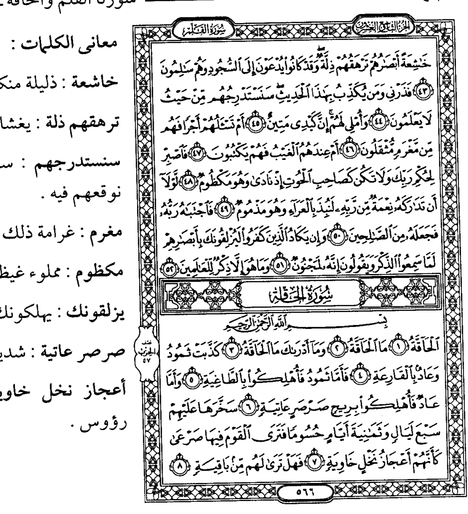
ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ فى قصص القرآن عظات وعبر، ومن هذه القصص قصة أصحاب الجنة من أهل صنعاء .

٢ ـ ذكر الله ـ تعالى ـ مطلوب فى جميع الأحوال ، حتى لا يخرج الإنسان عن طاعة ربه .

٣ ـ عذاب الدنيا لا يمنع وقوع العذاب فى الآخرة .





معانى الكلمات :

خاشعة : ذليلة منكسرة .

ترهقهم ذلة : يغشاهم ذل وخسران .

سنستدرجهم : سنريهم من العذاب حتى نوقعهم فيه .

مغرم : غرامة ذلك الأجر .

مكظوم : مملوء غيظا .

يزلقونك : يهلكونك بأعينهم .

صرصر عاتية : شديدة قارسة .

أعجاز نخل خاوية : جذوع نخل بلا رؤوس .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على سنة الحرب بين الله وأعدائه والمخدوعين .

٢ ـ أن نعلم أن مشقة الدعوة الحقيقية هى مشقة الصبر لحكم الله .

٣ ـ أن نعلم حال المكذبين وما نالهم من الهول .

المحتوى التربوى :

يكمل السياق رسم هيئة هؤلاء المتكبرين المتبجحين ، والأبصار الخاشعة والذلة المرهقة هما المقابلان للهامات الشامخة والكبرياء المنفوخة ، وبينما هم فى هذا الموقف المرهق الذليل ، يذكرهم بما جرهم إليه من إعراض واستكبار، وامتنعوا عن السجود فى الدنيا وهم قادرون ، فكانوا يأبون ويستكبرون .. فهم الآن فى ذلك المشهد المرهق الذليل والدنيا وراءهم وهم الان يدعون إلى السجود فلا يستطيعون !

وبينما هم فى هذا الكرب ، يجيئهم التهديد الرعيب الذى يهد القلوب ، وهو تهديد مزلزل والجبار القهار القوى المتين يقول للرسول ﷺ : خل بينى وبين من يكذب بهذا الحديث ، وذرنى لحربه فأنا به كفيل ، ومن هو هذا الذى يكذب بهذا الحديث ؟ إنه ذلك المخلوق الصغير الهزيل

المسكين الضعيف ، هذه النملة المضعوفة ، بل هذه الهباءة المنثورة ، بل هذا العدم الذى لا يغنى شيئا أمام جبروت الجبار القهار العظيم ، فيا محمد ، خل بينى وبين هذا المخلوق ، واسترح أنت ومن معك من المؤمنين ، فالحرب معى لا معك ولا مع المؤمنين ، الحرب معى وهذا المخلوق عدوى ، وأنا سأتولى أمره فدعه لى ، وذرنى معه ، واذهب أنت ومن معك فاستريحوا .

ثم يكشف لهم الجبار القهار عن خطة الحرب مع هذا المخلوق الهزيل الصغير الضعيف ، وإن شأن المكذبين وأهل الأرض أجمعين لأهون وأصغر من أن يدبر الله لهم هذه التدابير ، ولكنه سبحانه يحذرهم نفسه ليدركوا أنفسهم قبل فوات الأوان ، وليس أكبر من التحذير وكشف الاستدراج والتدبير عدلا ولا رحمة ، والله سبحانه يقدم لأعدائه وأعداء دينه ورسوله عدله ورحمته فى هذا التحذير وذلك النذير ، وهم بعد ذلك وما يختارون لأنفسهم ، إنه سبحانه يمهل ولا يهمل ، ويملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته .

وفى ظل مشهد القيامة المكروب وظل هذا التهديد المرهوب يكمل الجدل والتحدى ويخاطب الرسول ﷺ فى تعجيب من موقفهم : أتسألهم أجراً على ما أتيتهم به من النصيحة ، ودعوتهم إليه من الحق ، فهم من ثقل ذلك أداء ذلك الأجر مثقلون ، فتحاموا لذلك قبول نصيحتك ، وتجنبوا الدخول فيما دعوتهم إليه، أم يعلمون الغيب فهم يكتبون منا ما يحكمون به، فيجادلونك بما فيه، وإذا كان هذا ولا ذاك فما لهم يقفون هذا الموقف الغريب المريب ؟ !

بهذا يخلى الله النبى ﷺ والمؤمنين من المعركة بين الإيمان والكفر وبين الحق والباطل ، فهى معركته سبحانه وهى حربه التى يتولاها بذاته ، وهى حقيقة تسكب الطمأنينة فى قلب المؤمن فى حالتى قوته وضعفه على السواء ما دام يخلص قلبه لله ويتوكل فى جهاده على الله ، كما أنها حقيقة تفزع قلب العدو ، سواء كان المؤمن أمامه فى حالة ضعف أم فى حالة قوة ، فليس المؤمن هو الذى ينازله ، إنما هو الله الذى يتولى المعركة بقوته وجبروته .

وأمام هذه الحقيقة يوجه الله نبيه ﷺ إلى الصبر ، الصبر على تكاليف الرسالة ، والصبر على التواءات النفوس ، والصبر على الأذى والتكذيب ، الصبر حتى يحكم الله فى الوقت المقدر كما يريد،ويذكره بتجربة أخ له من قبل ضاق صدره بهذه التكاليف وهو يونس عليه السلام صاحب الحوت، فلولا أن تداركته نعمة الله لنبذ وهو مذموم ، مذموم من ربه على فعلته وقلة صبره ، وتصرفه فى شأن نفسه قبل أن يأذن الله له ، وقبل الله تسبيحه واعترافه وندمه ، وعلم منه ما يستحق عليه النعمة والاجتباء ، وجعله من الصالحين لمقام النبوة والرسالة ، ومشقة الدعوة الحقيقية هى مشقة الصبر لحكم الله حتى يأتى موعده ، فى الوقت الذى يريده بحكمته .

وفى الختام يرسم مشهد الكافرين وهم يتلقون الدعوة من الرسول الكريم فى غيظ عنيف ، وحسد عميق ينسكب فى نظرات مسمومة قاتلة يوجهونها إليه، ويصفها القرآن بما لا مزيد عليه،

فهم من شدة تحديقهم ونظرهم بعيون العداوة والبغضاء ، يكادون يزلون قدمك أو يهلكونك ، وبين تعالى أن هذا النظر كان يشتد منهم فى حال قراءة النبى ﷺ للقرآن ، ويؤذونه بألسنتهم ، ويقولون : إنه لمجنون لمجيئه بالقرآن ، والله يعقب بأنه ذكر ، والذكر لا يقوله مجنون ، ولا يحمله مجنون ، وصدق الله وكذب المفترون .

سورة الحاقة

هذه السورة بجملتها تلقى فى الحس بكل قوة وعمق إحساسا واحدا بمعنى واحد وهو أن هذا الأمر ، أمر الدين والعقيدة جد خالص حازم جازم ، جد كله لا هزل فيه ، ولا مجال فيه للهزل ، جد فى الدنيا وجد فى الآخرة ، وجد فى ميزان الله وحسابه ، والقيامة ومشاهدها وأحداثها تشغل معظم هذه السورة ، ومن ثم تبدأ هذه السورة باسمها ، وتسمى به ، وهم اسم مختار بجرسه ومعناه، فالحاقة هى التى تحق فتقع ، أو تحق فتنزل بحكمها على الناس ، أو تحق فيكون فيها الحق ، ثم يزيد هذا الاستهوال والاستعظام والتجهيل ، ، وإخراج المسألة عن حدود العلم والإدراك ، فأمر الحاقة أعظم من أن يحيط به العلم والإدراك .

ويبدأ الحديث عن المكذبين ، وما نالهم من الهول ، فقد كذبت بالقارعة وهو اسم جديد للحاقة ـ ثمود وعاد فلننظر كيف كانت عاقبة التكذيب ؛ فثمود قد أسكتتهم الصيحة ، وأسكنتهم الزلزلة ، وأما عاد فيفصل فى أمر نكبتها ويطيل ، فقد استمرت وقعتها سبع ليال وثمانية أيام حسوما على حين كانت وقعة ثمود خاطفة ، صيحة واحدة طاغية ، والريح الصرصر الشديد الباردة ، واللفظ ذاته فيه صرصرة عاتية لتناسب عتو عاد وجبروتها المحكى فى القرآن ، وكانوا أشداء بطاشين جبارين .

والتعبير يرسم مشهد العاصفة المزمجرة المدمرة المستمرة هذه الفترة الطويلة المحددة بالدقة سبع ليال وثمانية أيام ، ثم يعرض المشهد بعدها شاخصا ، والمنظر معروض تراه ، والتعبير يلمح به على الحس حتى يتملاه ، فهم مصروعون مجدلون متناثرون كأنهم قوائم نخل إذا خرت بلا أغصان ، فهل تحس منهم من أحد من بقاياهم أو ممن ينتسب إليهم ؟ بل بادوا عن آخرهم ولم يجعل الله لهم خلقا .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ وجوب التمسك بالحق ، وعدم المساومة عليه .

٢ ـ لا يجوز أن ننخدع بإمهال الله للظالمين ،أو إعطائهم النعم استدراجا لهم ليقعوا فى العذاب الأليم .

٣ ـ يجب أن نتعظ بما حدث للسابقين ، حتى لا يصيبنا ما أصابهم من هلاك فى الدنيا وعذاب يوم القيامة .

الجزء التاسع والعشرون — سورة الحاقة

وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوۡاْ رَسُولَ
رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ
﴿١١﴾ لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ
نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ﴿١٤﴾
فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ
﴿١٦﴾ وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ
﴿١٧﴾ يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ
كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ
حِسَابِيَهۡ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ﴿٢٢﴾
قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ
ٱلۡخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ
﴿٢٥﴾ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغۡنَىٰ
عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ
صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ
كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿٣٤﴾

٥٦٧

معانى الكلمات :

رابية : زائدة فى الشدة .

تعيها : لتحفظها .

فدكتا : فدقتا وكسرتا أو فسويتا .

انشقت : تصدعت من الهول .

واهية : ضعيفة متداعية .

سلطانيه : حجتى أو تسلطى وقوتى .

صلوه : أدخلوه أو أحرقوه .

فاسلكوه : فأدخلوه فيها .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم كيفية الانقلاب الكونى لنهاية الحياة الأولى وبداية الحياة الثانية .

٢ ـ أن نعلم أن الدنيا مزرعة الآخرة .

٣ ـ أن نعلم أن المال الذى باع المفلسون به الأمة والملة لا يغنى يوم القيامة عن صاحبه شيئا .

المحتوى التربوى :

يمضى السياق فى ذكر المكذبين ، وفى آيتين يجمل وقائع شتى ففرعون كان فى مصر ـ وهو فرعون موسى ـ ومن قبله لايذكر عنهم تفصيل ، والمؤتفكات قرى لوط المدمرة التى اتبعت الإفك أو التى انقلبت ، ويجمل السياق فعال هؤلاء جميعا ، فيقول عنهم إنهم جاؤوا بالفعلة الخاطئة ، وهم عصوا رسلا متعددين ولكن حقيقتهم واحدة ورسالتهم فى صميمها واحدة ، فهم إذن رسول واحد ، يمثل حقيقة واحدة ، وفى إجمال يذكر مصيرهم فى تعبير يلقى الهول والحسم حسب جو السورة ، فأخذهم أخذة شديدة مهلكة .

ثم يرسم مشهد الطوفان والسفينة الجارية،مشيراً بهذا المشهد إلى مصرع قوم نوح حين كذبوا، وممتنا على البشر بنجاة أصولهم التى انبثقوا منها ، ثم لم يشكروا ولم يعتبروا بتلك الآية الكبرى ، ومشهد طغيان الماء ومشهد الجارية على الماء الطاغى يلمس القلوب الخامدة والآذان البليدة التى

تكذب بعد كل ما سبق من النذر وكل ما سبق من المصائر ، وكل ما سبق من الآيات ، وكل ما سبق من العظات ، وكل ما سبق من آلاء الله ونعمه على أصول هؤلاء الغافلين ، والهول فى هذه المصارع ـ على ضخامتها ـ محدود إذا قيس إلى هول القارعة المطلق من المحدود المدخر لذلك اليوم المشهود ، وهنا يكشف عن الهول كأنه التكملة المدخرة للمشاهد الأولى .

ونحن نؤمن أن هناك نفخة فى الصور وهو البوق تحدث بعدها هذه الأحداث ، ولانزيد فى تفصيلها شيئا ؛ لأنها غيب ، ليس عندنا من دلائله إلا مثل هذه النصوص المجملة ، وليس لنا مصدر آخر لتفصيل هذا الإجمال ، ومشهد حمل الأرض والجبال ونفضها ودكها دكة واحدة تسوى عاليها بسافلها مشهد مروع حقا ، هذه الأرض التى يجوس الإنسان خلالها آمناً مطمئنا ، وهى تحية مستقرة مطمئنة ، وهذه الجبال الراسية الوطيدة الراسخة التى تهول الإنسان بروعتها واستقرارها ، هذه مع هذه تحمل فتدك كالكرة فى يد الوليد .. ، إنه مشهد يشعر معه الإنسان بضآلته وضآلة عالمه إلى جانب هذه القدرة القادرة فى ذلك اليوم العظيم ، فإذا وقع هذا فقد قامت القيامة والواقعة اسم من أسمائها كالحاقة والقارعة . ولا يقتصر الهول على حمل الأرض والجبال ودكها دكة واحدة ، فالسماء فى هذا اليوم الهائل ليست بناحية ، والأحداث الكونية فى ذلك اليوم العظيم كلها تشير إلى انفراط عقد هذا الكون المنظور ، واختلال روابطه وضوابطه التى تمسك به فى هذا النظام البديع الدقيق ، وتناثر أجزائه بعد انفلاتها من قيد الناموس .

ثم يغمر الجلال المشهد ويغشيه ، وتسكن الضجة التى تملأ الحس من النفخة والدكة والتشقق والانتثار ، يسكن هذا كله ويظهر فى المشهد عرش الواحد القهار ، والملائكة على أرجاء هذه السماء المنشقة وأطرافها ، والعرش فوقهم يحمله ثمانية ، أو ثمانية صفوف منهم ، أو ثمانى طبقات من طبقاتهم ، أو ثمانية مما يعلم الله ، لا ندرى نحن من هم ولا ما هم ، كما لا ندرى نحن ما العرش ؟ ولا كيف يحمل ؟ ونخلص من كل هذه الغيبيات إلى الظل الجليل الذى تخلقه على الموقف ، وهو المطلوب منا أن تستشعره ضمائرنا ، وهو المقصود من ذكر هذه الأحداث ليشعر القلب البشرى بالجلال والرهبة والخشوع فى ذلك اليوم العظيم .

وفى ذلك الموقف الجليل ، الكل مكشوف ، مكشوف الجسد ، مكشوف الضمير ، مكشوف العمل ، مكشوف المصير ، وتسقط جميع الأستار التى كانت تحجب الأسرار ، ويتجرد الإنسان من حيطته ومن مكره ومن تدبيره ومن شعوره ، ويفتضح منه ما كان حريصا على أن يستره حتى عن نفسه ، وما أقسى الفضيحة على الملأ ،و ما أخزاها على عيون الجموع ، أما عين الله فكل خافية مكشوفة لها فى آن ، ولكن لعل الإنسان لا يشعر بهذا حق الشعور وهو مخدوع بستور الأرض .

يقول صاحب الظلال : « ألا إنه لأمر عصيب ، أعصب من دك الأرض والجبال وأشد من تشقق السماء ، وقوف الإنسان عريان الجسد ، عريان النفس ، عريان المشاعر ، عريان التاريخ ، عريان العمل ما ظهر منه وما استتر ، أمام تلك الحشود الهائلة من خلق الله من الإنس والجن والملائكة ، وتحت جلال الله وعرشه المرفوع فوق الجميع » .

وبعدئذ يعرض مشهد الناجين والمعذبين ، كأنه حاضر تراه العيون ، فيعرض السياق مشهد الناجى فى ذلك اليوم العصيب ، وهو منطلق فى فرحة غامرة بين الجموع الحاشدة ، وهو فى هتاف اقرؤوا كتابيه ، فلم يكن يصدق أنه ناج ، بل كان يتوقع أن يناقش الحساب ، ثم يكون الإعلان على رؤوس الأشهاد ما أعد لهذا الناجى من النعيم ، فهو فى عيشة مرضية،فى جنة عالية، رفيعة قصورها ، حسان حورها ، نعيم دورها ، دائم حبورها ، ثمارها قريبة يتناولها أحدهم وهو نائم على سريره ، ويقال لهم : كلوا واشربوا وتمتعوا بما عملتم فى الأيام الماضية فى الدنيا ، تفضلا وامتنانا وإنعاما وإحسانا من الله تعالى .

أما المعذب الذى عرف أنه مؤاخذ بسيئاته ، وأن إلى العذاب مصيره ، فيقف فى هذا المعرض الحافل الحاشد ، وقفة المتحسر الكسير الكئيب ، والسياق يطيل عرض هذه الوقفة حتى ليخيل إلى السامع أنها لا تنتهى إلى نهاية ، ويتمنى ذلك البائس أنه لم يأت هذا الموقف ، ولم يؤت كتابه ، ولم يدر ما حسابه ، كما يتمنى أن لو كانت هذه القارعة هى القاضية التى تنهى وجوده أصلا فلا يعود بعدها شيئا ، ثم يتحسر أن لا شىء نافعه مما كان يعتز به أو يجمعه ، فلا المال أغنى أو نفع ، ولا السلطان بقى أو دفع .

ويأتى الأمر العلوى الجازم بجلاله وهوله وروعته بأن يأخذوه ﴿ خُذُوهُ ﴾ كلمة تصدر من العلى الأعلى فيتحرك الوجود كله على هذا المسكين الصغير الهزيل ، ويبتدره المكلفون بالأمر من كل جانب ، كلهم يبتدر هذه الحشرة الصغيرة المكروبة المذهولة ، فأى السبعين ألفا بلغه جعل الغل فى عنقه ، ويصلى الجحيم ونكاد نسمع كيف تشويه النار وتصليه ، وذراع واحدة من سلاسل النار تكفيه، الأمر يأتى بسبعين ذراعا بذراع الملك، تدخل فى استه ثم تخرج من فيه ، ثم ينظمون كما ينظم الجراد فى العود حين يشوى .

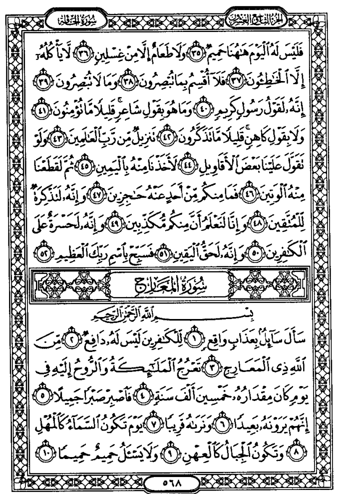
فإذا انتهى الأمر نشرت أسبابه على الحشود: إنه قد خلا قلبه من الإيمان بالله، والرحمة بالعباد، فلم يعد هذا القلب يصلح إلا لهذه النار وذلك العذاب ، خلا قلبه من الإيمان بالله فهو موات وهو خرب ، وخلا قلبه من الرحمة بالعباد ، والمسكين هو أحوج العباد إلى الرحمة ، ولكن هذا لم يستشعر قلبه ما يدعو إلى الاحتفال بأمر المسكين ، ولم يحض على طعامه ، وهى خطوة وراء إطعامه ، توحى بأن هناك واجبا اجتماعيا يتحاض عليه المؤمنون .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ لابد من الاستعداد لليوم الآخر بالإيمان والعمل الصالح حيث يفرح المؤمنون بالثواب العظيم .

٢ ـ إن لله ملائكة ينفذون أمره يجب الإيمان بهم .

٣ ـ عناية الإسلام بإطعام الفقراء ، ومساعدة الضعفاء ، وتحريض الناس على ذلك مما يؤدى إلى تماسك الأمة .



معانى الكلمات

يحض : يحث ويحرض .

حميم: قريب مشفق لشدة الهول والعذاب .

غسلين : صديد أهل النار .

تقوّل : اختلق وافترى علينا .

الوتين : نياط القلب .

حاجزين : مانعين الهلاك عنه .

كالمهل : كالمعدن المذاب أو دردى الزيت .

كالعهن : كالصوف المصبوغ ألوانا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن العقيدة هى الجد الذى لا هوادة فيه ، ولا تحتمل تسامحا ولا مجاملة لأحد كائنا من كان .

٢ ـ أن نعلم أن القرآن عميق فى الحق ، عميق فى اليقين ، ويكشف عن الحق الخالص فى كل آية .

٣ ـ أن نستشعر الرهبة من أهوال يوم القيامة .

المحتوى التربوى :

يمضى السياق فيذكر تكملة الإعلان العلوى عن مصير ذلك الشقى ، فلقد كان لا يؤمن بالله العظيم ، وكان لا يحض على طعام المسكين ، فهو هنا مقطوع فليس له اليوم من ينقذه من عذاب الله ، لا حميم ـ وهى القريب ولا شفيع يطاع ، وهو ممنوع فلا طعام له هاهنا إلا من غسلين ، وهو غسالة أهل جهنم من قيح وصديد ، وهذا طعام لا يأكله إلا المذنبون المتصفون بالخطيئة ، وهو منهم فى الصميم .

يقول صاحب الظلال : « وبعد ، فذلك هو الذى يجعله الله مستحقا للأخذ والغل والتصلية والسلسلة التى ذرعها سبعون ذراعا الجحيم ، وهو أشد دركات جهنم عذابا ، فكيف بمن يمنع

طعام المسكين ، ومن يجيع الأطفال والنساء والشيوخ ، ومن يبطش بطشة الجبارين بمن يمد إليهم يده باللقمة والكساء فى برد الشتاء ؟ أين ترى يذهب هؤلاء ، وهم يوجدون فى الأرض بين الحين والحين ؟ وما الذى أعده الله لهم وقد أعد لمن لا يحض على طعام المسكين ، ذلك العذاب فى الجحيم ؟ » .

وفى ظل هذه المشاهد العميقة الأثر فى المشاعر يجىء التقرير الحاسم الجازم عن حقيقة هذا القول الذى جاءهم به الرسول الكريم ، فتلقوه بالشك والسخرية والتكذيب ، والأمر لا يحتاج إلى قسم أنه حق ، صادر عن الحق ، وليس شعر شاعر ، ولا كهانة كاهن ، ولا افتراء مفتر لا فما هو بحاجة إلى توكيد بيمين ، والوجود أضخم بكثير مما يرى البشر بل مما يدركون ، وما يبصر البشر من الكون، وما يدركون إلا أطرافا قليلة محصورة، فلا يعيش الإنسان سجين ما تراه عيناه، ولا أسير ما يدركه وعيه المحدود ، فهناك وراء ما تدركه عينه ووعيه عوالم وحقائق أكبر ـ بما لا يقاس ـ بما وصل إليه ، عندئذ يتسامى على ذاته ويرتفع على نفسه ، فالذين يحصرون أنفسهم فى حدود ما ترى العين، ويدرك الوعى ، بأدواته الميسرة له .. مساكين ! سجناء حسهم وإدراكهم المحدود ، محصورون فى عالم ضيق على سعته ، صغير يقاس إلى ذلك الملك الكبير .

وتقرير أنه قول رسول كريم لا يعنى أنه من إنشائه ، ولكن المراد هنا أنه قول من نوع آخر لا يقوله شاعر ، ولا يقول كاهن ، إنما يقوله رسول يرسل به من عند الله ، فيحمله من هناك من ذلك المصدر الذى أرسله ، والتعقيب فى الآيات مدلوله نفى الإيمان ، ونفى التذكر ، فما يقول مؤمن عن الرسول : إنه شاعر ، ولا يقول متذكر متدبر ، إنه كاهن ، إنما هما الكفر والغفلة ينضحان بهذا القول النكير .

وفى النهاية يجىء التهديد الرعيب لمن يفترى على الله فى شأن العقيدة وهى الجد الذى لا هوادة فيه ، يجىء لتقرير الاحتمال الواحد الذى لا احتمال غيره وهو صدق الرسول ﷺ وأمانته فيما أبلغه إليهم أو يبلغه ، بشهادة أن الله لم يأخذه أخذا شديداً كما هو الشأن لو انحرف أقل انحراف عن أمانة التبليغ ، فلو تقول بعض الأقاويل التى لم يوح بها إليه ، لأخذها الله فقتله بتقطيع يناط القلب ، وما يقدر أحد على أن يحجز بينه وبين الله إذا أراد به شيئا من ذلك ، وتجىء الخاتمة بحقيقة الأمر ، فهذا القرآن يذكر القلوب النقية فتذكر ، ولا يؤثر فى حقيقة هذا الأمر أن يوجد منكم مكذبون ، وإن هذا القرآن لندامة على الكافرين بما يرفع من شأن المؤمنين ، ويحط من قدر المكذبين ، وبما ينتهى إليه من إقرار الحق وإزهاق الباطل ، ثم أنه حجة عليهم عند الله فى اليوم الآخر ، وإن هذا القرآن هو الحق الذى لا مرية فيه ، فهو حق اليقين وليس مجرد اليقين ، ويجىء التلقين العلوى بالتسبيح بما فيه من تنزيه وتمجيد ، وبما فيه من عبودية وخشوع .

سورة المعارج

كانت حقيقة الآخرة من الحقائق العسيرة الإدراك عند مشركى العرب ، ولقد لقيت منهم معارضة نفسية عميقة، وكانوا ينكرونها أشد الإنكار ، ويتحدون الرسول ﷺ فى صور شتى أن

يأتيهم بهذا اليوم الموعود ، أو أن يقول لهم : متى يكون ، والسورة تحكى أن هناك سائلا سأل وقوع العذاب واستعجله ، وتقرر أن هذا العذاب واقع فعلا ، وهذا العذاب للكافرين وهو واقع من الله ذى الدرجات والفواضل والنعم .

وبعد هذا الافتتاح الذى يقرر كلمة الفصل فى موضوع العذاب ووقوعه ومستحقيه ومصدره ، وعلو هذا المصدر ورفعته ، أخذ فى وصف ذلك اليوم ؛ ففى هذا اليوم تصعد الملائكة والروح إلى الله ، والروح جبريل وأفرد بالذكر لماله من شأن خاص ، والملائكة تعرج فى شؤون هذا اليوم ومهامه ، ولا ندرى نحن طبيعة هذه المهام، ولا كيف يصعد الملائكة ، ولا إلى أين يصعدوه،وحسبنا أن نشعر بأهمية هذا اليوم الذى مقداره خمسين ألف سنة من سنى أهل الأرض وهو يوم واحد ، وقد تكون كناية عن طول هذا اليوم ، وإذا كان يوم واحد من أيام الله يساوى خمسين ألف سنة ، فإن عذاب يوم القيامة قد يرونه هم بعيداً وهو عند الله قريب ، ومن ثم يدعو الله نبيه ﷺ إلى الصبر الجميل على استعجالهم وتكذيبهم بذلك العذاب .

يقول صاحب الظلال : « والدعوة إلى الصبر والتوجيه إليه صاحبت كل دعوة، وتكررت لكل رسول ، ولكل مؤمن يتبع الرسول ، وهى ضرورية لثقل العبء ومشقة الطريق ، ولحفظ هذه النفوس متماسكة راضية ، موصولة بالهدف البعيد ، متطلعة كذلك إلى الأفق البعيد ، والصبر الجميل هو الصبر المطمئن الذى لا يصاحبه السخط ، ولا القلق ولا الشك فى صدق الوعد ، صبر الواثق من العاقبة ، الراضى بقدر الله ، وهذا اللون من الصبر هو الجدير بصاحب الدعوة ، فهى دعوة إلى الله ، ليس له هو منها شىء ، فكل ما يلقاه فهو فى سبيل الله » .

ثم يرسم مشاهد اليوم الذى يقع فيه ذلك العذاب الواقع الذى يرونه بعيدا ويراه الله قريبا ، يرسم مشاهده فى مجال الكون وأغوار النفس ؛ فالسماء ستكون كالمعادن المذابة ، وتكون فيه الجبال كالصوف الواهن المنتفش ، وتتملى ما وراء هذا المشهد من الهول المذهل الذى ينطبع فى النفوس ويعبر عنه القرآن ، فالناس فى هم شاغل لا يدع لأحد منهم أن يتلفت خارج نفسه ، ولا يجد فسحة فى شعوره لغيره ، فلقد قطع الهول المروع جميع الوشائج ، وحبس النفوس على همها لا تتعداه .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ المتقون يجدون فى القرآن من الحياة والنور والمعرفة والتذكير ما لا يجده الغافلون .

٢ ـ ضرورة ذكر الله وتسبيحه فى جميع الأحوال ، ففيه التنزيه والتمجيد والعبودية والخشوع لله تعالى .

٣ ـ الدعوة إلى الصبر والتوجيه إليه صاحبت كل دعوة ، وهى ضرورية لمواصلة الطريق إلى الله .

يبصرونهم يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه ﴿١١﴾
وصاحبته وأخيه ﴿١٢﴾ وفصيلته التي تؤويه ﴿١٣﴾ ومن في الأرض
جميعا ثم ينجيه ﴿١٤﴾ كلا إنها لظى ﴿١٥﴾ نزاعة للشوى ﴿١٦﴾ تدعوا
من أدبر وتولى ﴿١٧﴾ وجمع فأوعى ﴿١٨﴾ ۞ إن الإنسان خلق هلوعا
﴿١٩﴾ إذا مسه الشر جزوعا ﴿٢٠﴾ وإذا مسه الخير منوعا ﴿٢١﴾ إلا
المصلين ﴿٢٢﴾ الذين هم على صلاتهم دائمون ﴿٢٣﴾ والذين في
أموالهم حق معلوم ﴿٢٤﴾ للسائل والمحروم ﴿٢٥﴾ والذين يصدقون
بيوم الدين ﴿٢٦﴾ والذين هم من عذاب ربهم مشفقون ﴿٢٧﴾ إن عذاب
ربهم غير مأمون ﴿٢٨﴾ والذين هم لفروجهم حافظون ﴿٢٩﴾ إلا على
أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ﴿٣٠﴾ فمن ابتغى وراء
ذلك فأولئك هم العادون ﴿٣١﴾ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون
﴿٣٢﴾ والذين هم بشهاداتهم قائمون ﴿٣٣﴾ والذين هم على صلاتهم يحافظون
﴿٣٤﴾ أولئك في جنات مكرمون ﴿٣٥﴾ فمال الذين كفروا قبلك مهطعين
﴿٣٦﴾ عن اليمين وعن الشمال عزين ﴿٣٧﴾ أيطمع كل امرئ منهم
أن يدخل جنة نعيم ﴿٣٨﴾ كلا إنا خلقناهم مما يعلمون ﴿٣٩﴾

معانى الكلمات

يبصرونهم : يعرّف الأحماء أحماءهم .

فصيلته : عشيرته الأقربين .

تؤويه : تضمه .

نزاعة للشوى : قلاعة للأطراف وجلد الرأس .

جزوعا : كثير الجزع والأسى .

مشفقون : خائفون .

مهطعين : مسرعين مادى أعناقهم .

عزين : جماعات متفرقين .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على ما كانت تواجهه الدعوة فى مكة .

٢ ـ أن نعلم حقيقة النفس البشرية فى مواجهة الشر والخير .

٣ ـ أن نستشعر قيمة الإيمان وأثره فى حياة الإنسان وعاقبته .

المحتوى التربوى :

يمضى السياق فيذكر أن هؤلاء الكفار يعرضون بعضهم على بعض ولكن لكل منهم همه ، ولكل ضمير منهم شغله ، فلا يهجس فى خاطر صديق أن يسأل صديقه عن حاله ، ولا أن يسأله عونه ، فالكرب يلف الجميع ، والهول يغشى الجميع ، فما بال المجرم ؟ إن الهول ليأخذ بحسه ، وإن الرعب ليذهب بنفسه ، وإنه ليود لو يفتدى من عذاب يومئذ بأعز الناس عليه ، ممن كان يفتديهم بنفسه فى الحياة ، ويناضل عنهم ، ويعيش لهم ... ببنيه وزوجه وأخيه وعشيرته القريبة التى تؤويه وتحميه ، بل إن لهفته على النجاة لتفقده الشعور بغيره على الإطلاق ، فيود لو يفتدى بمن فى الأرض جميعا ثم ينجيه .

وبينما المجرم فى هذه الحال يتمنى ذلك المحال ، يسمع ما ييئس ويقنط من كل بارقة من أمل ، أو كل حديث خادع من النفس ، كما يسمع الملأ جميعا حقيقة الموقف وما يجرى فيه ، إنه مشهد

تطير له النفس شعاعا ، بعدما أذهلها كرب الموقف وهوله ، كلا فى ردع عن تلك الأمانى المستحيلة فى الافتداء بالبنين والزوج والأخ والعشيرة ومن فى الأرض جميعا ، ويصف النار بأنها تتلظى وتتحرق ، تنزع الجلود عن الوجوه والرؤوس نزعا ، وهى غول مفزعة ، ذات نفس حية تشارك فى الهول والعذاب عن إرادة وقصد ، تدعو من كان فى الدنيا يدعى إلى الهدى فيدبر ويتولى ، ولكنه اليوم إذا تدعوه جهنم لا يملك أن يدبر ويتولى ، ولقد كان من قبل مشغولا عن الدعوة بجمع المال وحفظه فى الأوعية ، أما اليوم فالدعوة من جهنم لا يملك أن يلهو عنها ، ولا يملك أن يفتدى بما فى الأرض كله منها .

ويتجه السياق إلى تصوير حقيقة النفس البشرية فى مواجهة الشر والخير ، وفى حالتى إيمانها وخلوها من الإيمان ، ويقرر مصير المؤمنين كما قرر مصير المجرمين ، وصورة الإنسان ـ عند خواء قلبه من الإيمان كما يرسمها القرآن صورة عجيبة فى دقة تعبيرها الكامل عن الملامح الأصيلة فى هذا المخلوق ، والتى لا يعصمه منها ولا يدفعه عنها إلا العنصر الإيمانى الذى يصله بمصدر يجد عنده الطمأنينة التى تمسك به من الجزع عند ملاقاة الشر ، ومن الشح عند امتلاك الخير ، فالإنسان الخاوى بسماته وملامحه الثابتة هلوع ، جزوع عند مس الشر ، يتألم للذعته ويجزع لوقعه ، ويحسب أنه دائم لا كاشف له ، ولا يتصور أن هناك فرجا ، ولا يتوقع من الله تغييراً ، ومن ثم يأكله الجزع ، ويمزقه الهلع ، وهو منوع للخير إذا قدر عليه يحسب أنه من كده وكسبه فيضنّ به على غيره ، ويصبح أسير ما ملك منه ، مستعبداً للحرص عليه ، ذلك أنه لا يدرك حقيقة الرزق ودوره هو فيه ، ولا يتطلع إلى خير منه عند ربه ، ومن ثم يبدو الإيمان بالله مسألة ضخمة فى حياة الإنسان ، لا كلمة تقال باللسان ، ولا شعائر تعبدية تقام ، إنه حالة نفس ومنهج حياة ، وتصور كامل للقيم والأحداث والأحوال .

وصفة المؤمنين المستثنين من الهلع ، تلك السمة العامة للإنسان ، والصلاة فوق أنها ركن الإسلام وعلامة الإيمان ، هى وسيلة الاتصال بالله والاستمداد من ذلك الرصيد ، ومظهر العبودية الخالصة التى يتجرد فيها مقام الربوبية ومقام العبودية فى صورة معينة ، وصفة الدوام التى يخصصها بها هنا تعطى صورة الاستقرار والاستطراد ، فهى صلاة لا يقطعها الترك والإهمال والكسل وهى صلة بالله مستمرة غير منقطعة،والزكاة على وجه التخصيص والصدقات المعلومة القدر وهى حق فى أموال المؤمنين ، أو لعل المعنى أشمل من هذا وأكبر ، وهو أنهم يجعلون فى أموالهم نصيبا معلوما يشعرون أنه حق للسائل والمحروم ، وفى هذا تخلص من الشح واستعلاء على الحرص ، كما أنه فيه شعوراً بواجب الواجد تجاه المحروم ، والشعور بأن للمحتاجين والمحرومين حقا فى الأموال هو شعور بفضل الله من جهة ، وبآصرة الإنسانية من جهة ، فوق ما فيه من تحرر شعورى من ربقة الحرص والشح ، وهو فى الوقت ذاته ضمانة اجتماعية لتكافل الأمة كلها وتعاونها ، فهى فريضة ذات دلالات شتى فى عالم الضمير وعالم الواقع سواء .

وصفة المؤمنين التصديق بيوم الدين ، وهو شطر الإيمان وذو أثر حاسم فى منهج الحياة شعوراً وسلوكا ، وميزان الحياة والقيم والأعمال والأحداث فى يد المصدق بيوم الدين غير ميزانها فى يد المكذب بهذا اليوم أو المستريب فيه ، المصدق بيوم الدين يعمل وهو ناظر لميزان السماء لا لميزان الأرض ولحساب الآخرة لا لحساب الدنيا ، ويتقبل الأحداث خيرها وشرها وفى حسابه أنها مقدمات نتائجها هناك ، فيضيف لها النتائج المرتقبة ، أما المكذب فيحسب كل شىء بحسب ما يقع له منه فى هذه الحياة القصيرة المحدودة ، وتأتى درجة أخرى وراء مجرد التصديق بيوم الدين ، درجة الشعور بالتقصير فى جناب الله على كثرة العبادة ، والخوف من تلفت القلب واستحقاقه للعذاب فى أية لحظة ، وعذاب الله لا يأمنه أحد ممن عقل عن الله أمره إلا بأمان من الله تعالى ، والإسلام يريد مجتمعا طاهراً نظيفا ، ومن ثَمَّ يذكر القرآن من صفات المؤمنين أنهم يكفون فروجهم عن الحرام ويمنعونها أن توضع فى غير ما أذن الله فيه من الزوجة والأمة ، فمن ابتغى غير الزوجة والأمة فقد عدى ما أحل الله له إلى ما حرمه عليه .

وهؤلاء إذا اؤتمنوا لم يخونوا ، وإذا عاهدوا لم يغدروا ، وهم محافظون على الشهادة لا يزيدون فيها ولا ينقصون منها ولا يكتمونها ، وتختم الصفات بالصلاة كما بدئت ، فذكر هنا المداومة عليها ، وذكر هنا المحافظة عليها فى مواعيدها ، وفى فرائضها ، وفى سننها ، وفى هيئتها ، وفى الروح التى تؤدى بها ، فلا يضيعونها إهمالا وكسلا ، ولا يضيعونها بعدم إقامتها على وجهها ، وعندئذ يقرر مصير هذا الفريق من الناس بعد ما قرر من قبل مصير الفريق الآخر ، فهم فى جنات وهم يلقون الكرامة فى هذه الجنات ، فتجتمع لهم اللذة بالنعيم مع التكريم ، جزاء على هذا الخلق الكريم الذى يتميز به المؤمنون .

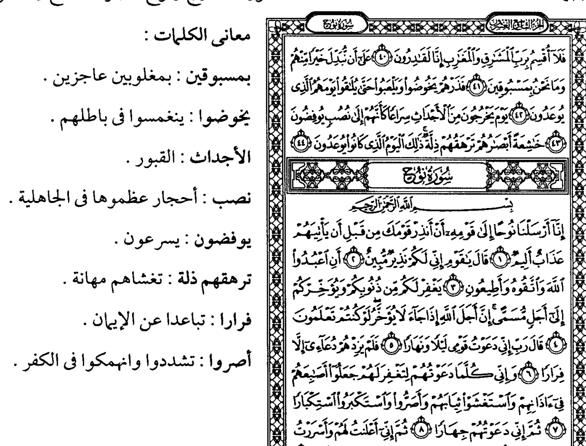
ثم يعرض السياق مشهدًا للمشركين الذين كانوا فى زمن النبىﷺ وهم مشاهدون له ، ولما أرسله الله به من الهدى، وأيده به من المعجزات ، ثم مع هذا كله فارون منه ، متفرقون عنه ، نافرون منه عن اليمين والشمال ، أفيطمع هؤلاء من فرارهم عن الرسول ونفارهم عن الحق أن يدخلوا جنات النعيم ؟ بل مأواهم نار الجحيم ، وهم يعلمون مما خلقوا ، من ذلك الماء المهين الذى يعرفون ، فهم أهون على الله من أن تكون لهم دالة عليه .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ يجب أن نقاوم طبيعة الفزع عند التعرض للآلام ، وشدة البخل بها فى اليد بتعاليم الدين ومبادئه .

٢ ـ المواظبة على أداء الصلوات فى أوقاتها بخشوع مع مراعاة شروطها من صفات المؤمنين .

٣ ـ صيانة النفس عن الحرام وأداء الأمانات والوفاء بالوعود والعهود والشهادة بالحق ، وإعطاء الفقير حقه من صفات المؤمنين .



معانى الكلمات :

بمسبوقين : بمغلوبين عاجزين .

يخوضوا : ينغمسوا فى باطلهم .

الأجداث : القبور .

نصب : أحجار عظموها فى الجاهلية .

يوفضون : يسرعون .

ترهقهم ذلة : تغشاهم مهانة .

فرارا : تباعدا عن الإيمان .

أصروا : تشددوا وانهمكوا فى الكفر .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نستشعر أن الدنيا بلا إيمان لهو فارغ وخوض فى باطل .

٢ ـ أن نتعرف على تجربة من تجارب الدعوة فى الأرض من خلال قصة سيدنا نوح مع قومه .

٣ ـ أن نعلم وحدة العقيدة وثبات أصولها على تعدد الرسالات والرسل عليهم السلام .

المحتوى التربوى :

يستطرد السياق فى تهوين أمر المشركين وتصغير شأنهم ، وتنكيس كبريائهم فيقرر أن الله قادر على أن يخلق خيراً منهم ، وأنهم لا يعجزونه فيذهبون دون ما يستحقون من جزاء أليم ، والأمر ليس فى صاحبه إلى قسم ، ولكن التلويح بذكر المشارق والمغارب يوحى بعظمة الخالق ، وهل يحتاج أمر المخلوقين مما يعملون إلى قسم برب المشارق والمغارب ، على أنه سبحانه قادر على أن يخلق خيراً منهم ، وأنهم لا يسبقونه ولا يفوتونه ولا يهربون من مصيرهم المحتوم ؟ !

ويوجه الخطاب للرسول ﷺ ليدعهم فى تكذيبهم وكفرهم لذلك اليوم ولذلك العذاب ، يوم يخرجون من القبور يسرعون الخطا كأنما هم ذاهبون إلى نصب يعبدونه ، وتتم سماتهم فترى

أبصارهم خاضعة تغشاهم مهانة وذلة وانكسار فى مقابلة ما استكبروا فى الدنيا عن الطاعة ، وسيعلمون عاقبة كفرهم وتكذيبهم بهذا اليوم الذى يذوقون فيه سوء العذاب .

سورة نوح

هذه السورة كلها تقص قصة نوح ﷺ مع قومه ، وتصف تجربة من تجارب الدعوة فى الأرض ، وتمثل دورة من دورات العلاج الدائم الثابت المتكرر للبشرية ، وشوطا من أشواط المعركة الخالدة بين الخير والشر ، والهدى والضلال ، والحق والباطل ، ومن خلال عرض هذه الحلقة من حلقات الدعوة الإلهية على البشرية تتجلى حقيقة وحدة العقيدة وثبات أصولها وتأصل جذورها ، كما يتجلى ارتباطها بالكون وبإرادة الله وقدره ، وأحداث الحياة الواقعة وفق قدر الله تعالى .

تبدأ السورة بتقرير مصدر الرسالة والعقيدة وتوكيده؛ فالمصدر الذى يتلقى منه الرسل التكليف ، كما يتلقون حقيقة العقيدة ، هو المصدر الذى صدر منه الوجود كله ، وصدرت منه الحياة ، هذا المصدر هو الله الذى خلق البشر وأودع فطرتهم الاستعداد لأن تعرفه وتعبده ، فلما انحرفوا عنها أرسل إليهم رسله يردونهم إليه ، ونوح ﷺ كان أول هؤلاء الرسل بعد آدم ﷺ ، ثم تذكر السورة فحوى رسالة نوح ﷺ فى اختصار وهى الإنذار ، والحالة التى كان قوم نوح فى النهاية لربه تجعل الإنذار هو أنسب ما تلخص به رسالته ، وأول ما يفتتح به الدعوة لقومه ، الإنذار بعذاب أليم فى الدنيا أو فى الآخرة أو فيهما جميعا .

ومن مشهد التكليف ينتقل السياق مباشرة إلى مشهد التبليغ فى اختصار ، البارز فيه هو الإنذار ، مع الإطماع فى المغفرة على ما وقع من الخطايا والذنوب ، وتأجيل الحساب إلى الأجل المضروب فى الآخرة للحساب ، وذلك مع البيان المجمل لأصول الدعوة التى يدعوهم إليها ، ونوح ﷺ مفصح عن نذارته ، مبين عن حجته ، لا يتمتم ولا يجمجم ولا يتلعثم فى دعوته ، ولا يدع لبسا ولا غموضا فى حقيقة ما يدعو إليها ، وفى حقيقة ما ينتظر المكذبين بدعوته ، وما يدعو إليه بسيط واضح مستقيم ، فهو يدعو إلى عبادة لله وحده بلا شريك ، وتقوى الله تهمين على الشعور والسلوك ، وطاعة لرسوله تجعل أمره هو المصدر الذى يستمدونه منه نظام الحياة وقواعد السلوك ، وعبادة الله وحده منهج كامل للحياة ، يشمل تصور الإنسان لحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ، ولحقيقة الصلة بين الخلق والخالق ، ولحقيقة القوى والقيم فى الكون وفى حياة الناس .

وتقوى الله هى الضمانة الحقيقية لاستقامة الناس على ذلك المنهج ، وطاعة الرسول هى الوسيلة للاستقامة على الطريق ، وهذه خلاصة دعوة الله فى كل جيل وقد وعدهم عليها ما وعد

الله به التائبين الثائبين ، فجزاء الاستجابة للدعوة إلى عبادة الله وتقواه وطاعة رسوله هى المغفرة والتخليص من الذنوب التى سلفت ، وتأخير الحساب إلى الأجل المضروب له فى علم الله وهو اليوم الآخر ، وعدم الأخذ فى الحياة الدنيا بعذاب الاستئصال ، وهذا الأجل المضروب حتمى يجىء فى موعده ، ولا يؤخر كما يؤخر عذاب الدنيا .

وراح نوح ﷺ يواصل جهوده النبيلة الخالصة الكريمة لهداية قومه بلا مصلحة له ولا منفعة، ويحتمل فى سبيل هذه الغاية النبيلة ما يحتمل من إعراض واستكبار واستهزاء ألف سنة إلا خمسين عاما ، وعدد المستجيبين له لا يكاد يزيد ، ودرجة الإعراض والإصرار على الضلال ترتفع وتزداد ، ثم عاد فى نهاية المطاف يقوم حسابه لربه الذى كلفه هذا الواجب النبيل وذلك الجهد الثقيل ، عاد يصف ما صنع وما لاقى ، وهو يصور الجهد الدائب الذى لا ينقطع فقد دعاهم ليلا ونهارا ، ولم يمل ولم يفتر ولم ييأس أمام الإعراض والإصرار ، وكلما دعاهم فروا ، وإذا لم يستطيعوا الفرار ؛ لأن الداعى واجههم مواجهة ، وتحين الفرصة ليصل إلى أسماعهم بدعوته ، سحر هو أن يصل صوته إلى أسماعهم ، وكرهوا أن تقع عليه أنظارهم فغطوا رؤوسهم لئلا يسمعوا ما يقول ، واستمروا على كفرهم ، واستنكفوا على اتباع الحق والانقياد له ، وأفعالهم صورة بدائية لأطفال البشرية الكبار .

ومع الدأب على الدعوة وتحين كل فرصة ، والإصرار على المواجهة ، اتبع نوح ﷺ كل الأساليب فجهر بالدعوة تارة ثم زواج بين الإعلان والإسرار تارة ، ونوع عليهم الدعوة لتكون أنجع فيهم ، واستقرار حقيقة الإيمان بالله فى الأرض يساوى كل هذا الجهد ، وكل هذا الصبر، وكل هذه المشقة وكل هذه التضحيات النبيلة المطردة من الرسل وأتباعهم الصادقين فى كل جيل، وقد شاءت إرادة الله أن يخلق هذا الكائن الإنسانى بخصائص معينة ،فجعل استقرار هذه الحقيقة فى ضميره وفى نظام حياته موكولا إلى جهد الإنسانى ذاته .

وفى أثناء مواصلة نوح ﷺ جهده فى تبليغ الدعوة ، كان يطمعهم فى خير الدنيا والآخرة ، أطمعهم فى الغفران إذا استغفروا ربهم فهو سبحانه غفار للذنوب .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ حياة الكفر والضلال لا تعدو أن تكون باطلا ولهوا ولعبا .

٢ ـ استقرار حقيقة الإيمان فى الأرض فى موكول إلى الجهد الإنسانى الذى يؤديه المسلم .

٣ ـ عبادة الله منهج كامل للحياة فى كل كبيرة وصغيرة منها .

يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل
لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾
وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ
طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾
وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ
إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا
سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ
مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا
لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ
وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾
مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ
اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ
دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا
كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ
مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾

٥٧١

معانى الكلمات :

مدرارا : غزيراً متتابعا .

أطوارا : حالات مختلفة .

سراجا : مصباحا مضيئا .

أنبتكم : أنشأكم .

سبلا فجاجا : طرقا واسعات .

كباراً : غاية فى الكِبَر .

ديارا : أحداً يدور ويتحرك فى الأرض .

تباراً : هلاكا ودمارا .

الأهداف الإجرائية و السلوكية :

١ ـ أن نعلم أن خير الدنيا والآخرة يكون فى قوة الإيمان .

٢ ـ أن نستشعر ضرورة التطلع والتدبر فى الكون والنفس .

٣ ـ أن نتعرف على مصير الكافرين والمعاندين .

المحتوى التربوى :

يبدأ السياق بين الاستغفار وهذه الأرزاق ، وفى القرآن مواضع متكررة فيها هذا الارتباط بين صلاح القلوب واستقامتها على هدى الله ، وبين تيسير الأرزاق ، وعموم الرخاء ، وهذه القاعدة التى يقررها القرآن فى مواضع متفرقة ، قاعدة صحيحة تقوم على أسبابها من وعد الله ، ومن سنة الحياة ، كما أن الواقع العملى يشهد بتحقيقها على مدار القرون ، والحديث فى هذه القاعدة عن الأمم لا عن الأفراد ، وما من أمة قام فيها شرع الله ، واتجهت اتجاها حقيقيا لله بالعمل الصالح والاستغفار المنبىء عن خشية الله ، ما من أمة اتقت الله وعبدته وأقامت شريعته ، فحققت العدل والأمن للناس جميعا إلا فاضت فيها الخيرات ، ومكن الله لها فى الأرض واستخلفها فيها بالعمران وبالصلاح سواء .

ونمضى مع نوح فى جهاده النبيل الطويل ، فنجده يأخذ بقومه إلى آيات الله فى أنفسهم وفى الكون من حولهم ، وهو يعجب من استهتارهم وسوء أدبهم مع الله ، وينكر عليهم ذلك الاستهتار ، والأطوار التى يخاطب بها قوم نوح فى ذلك الزمان لابد أن تكون أمراً يدركونه ؛ ليرجو من وراء تذكيرهم به أن يكون له فى نفوسهم وقع مؤثر ، يقودهم إلى الاستجابة والذى عليه أكثر المفسرين أنها الأطوار الجنينية من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى الهيكل إلى الخلق الكامل ، وهذا يمكن أن يدركه القوم إذا ذكر لهم ، وعلى أية فقد وجه نوح قومه إلى النظر فى أنفسهم ، وأنكر عليهم أن يكون الله خلقهم أطوارا ، ثم هم بعد ذلك لا يستشعرون فى أنفسهم توقيراً للجليل الذى خلقهم ، وهذا أعجب وأنكر ما يقع من مخلوق .

كذلك وجههم إلى كتاب الكون المفتوح ، وجههم إلى السماء وأخبرهم ـ كما علمه الله ـ أنها سبع طباق ، فيهن القمر نور ، وفيهن الشمس سراج ، وهذا التوجيه يكفى لإثارة التطلع والتدبر فيما وراء هذه الخلائق الهائلة من قدرة مبدعة ، وهذا هو المقصود من ذلك التوجيه ، ثم عاد نوح فوجه قومه إلى النظر فى نشأتهم من الأرض وعودتهم إليها بالموت ليقرر لهم حقيقة إخراجهم منها بالبعث ، ولتعبير عن نشأة الإنسان من الأرض بالإنبات يكرر فى القرآن فى صور شتى ، وهو يشير فى هذا إلى نشأة الناس كنشأة النبات ، وهى ظاهرة تستدعى النظر ولا ريب ، فهى توحى بالوحدة بين أصول الحياة على وجه الأرض أوأن نشأة الإنسان من الأرض كنشأة الأرض

وكذلك ينشئ الإيمان فى المؤمن تصوراً حقيقيا حيا لعلاقته بالأرض وبالأحياء ، تصوراً فيه دقة العلم وفيه حيوية الشعور ، والناس الذين نبتوا من الأرض يعودون إلى جوفها مرة أخرى ، ونوح ﷺ وجه قومه إلى هذه الحقيقة لتستشعر قلوبهم يد الله وهى تنبتهم من هذه الأرض نباتا ، وهى تعيدهم فيه مرة أخرى ، ثم تتوقع النشأة الأخرى وتحسب حسابها ، وأخيراً وجه ﷺ قلوب قومه إلى نعمة الله عليهم فى تيسير الحياة لهم على هذه الأرض وتذليلها لسيرهم ومعاشهم وانتقالهم وطرائق حياتهم .

وهكذا سلك نوح ـ أو حاول أن يسلك ـ إلى آذان قومه وقلوبهم وعقولهم بشتى الأساليب ، ومتنوع الوسائل فى دأب طويل ، وفى صبر جميل ، وفى جهد نبيل ، ألف سنة إلا خمسين عاما ، ثم عاد إلى ربه الذى أرسله إليهم ، يقدم حسابه ويبث شكواه ، فبعد كل هذا الجهاد ، وبعد كل هذا العناد ، وبعد كل هذا التوجيه وبعد الإنذار والإطماع والوعد بالمال والبنين والرخاء ، بعد هذا كله كان العصيان ، وكان السير وراء القيادات الضالة المضلة التى تخدع الأتباع بما تملك من المال والأولاد ، ومظاهر الجاه والسلطان ، ممن أغراهم المال والولد بالضلال والإضلال ، فلم يكن وراءهما إلا الشقاء والخسران ، ولم يكتفوا بالضلال بل مكروا مكراً متناهيا فى الكبر ، مكروا لإبطال الدعوة وإغلاق الطريق فى وجهها إلى قلوب الناس .

وكان من مكرهم تحريض الناس على الاستمساك بالأصنام التى يسمونها آلهة ، وخصصوا من هذه الآلهة أكبرها شأنا فخصوها بالذكر ليهيج ذكرها فى قلوب العامة المضلين الحمية والاعتزاز ، وهى أكبر آلهتهم التى ظلت تعبد فى الجاهلية بعدهم إلى عهد الرسالة المحمدية ، وهنا انبعث من قلب النبى الكريم نوح ﷺ ذلك الدعاء على الظالمين الضالين المضلين ، الماكرين الكائدين ، ذلك الدعاء المنبعث من قلب جاهد طويلا ، وعانى كثيراً ، وانتهى إلى اقتناع بأن الأخير فى القلوب الظالمة الباغية العاتية ، وعلم أنها لا تستحق الهدى ولا تستأهل النجاة .

وقبل أن يعرض السياق بقية دعاء نوح ﷺ ويعرض ما صار إليه الظالمون الخاطئون فى الدنيا والآخرة جميعا ، فأمر الآخرة كأمر الدنيا حاضر بالقياس إلى علم الله ، وبالقياس إلى الوقوع الثابت الذى لا تغيير فيه ، فبخطيئاتهم وذنوبهم ومعصياتهم أغرقوا فأدخلوا نارا ، ولم يجد لهم أنصارًا ؛ لا بنون ولا مال ولا سلطان ولا أولياء من الآلهة المدعاة، وينتهى أمر هؤلاء العصاة العتاة ، ويطوى ذكرهم من الحياة ، ولا يفصل هنا قصة غرقهم ، ولا قصة الطوفان الذى أغرقهم ؛ لأن الظل المراد إبقاؤه فى هذا الموقف هو ظل الإجهاز السريع ، حتى ليعبر المسافة بين الإغراق والإحراق فى حرف الفاء .

ثم يكمل دعاء نوح الأخير ، وابتهاله إلى ربه فى نهاية المطاف ؛ بأنه لا يصلح أى علاج غير تطهير وجه الأرض من الظالمين ، لأن وجودهم يجمد الدعوة إلى الله نهائيا ، ويحول بينها وبين الوصول إلى قلوب الآخرين ، فهو يطلب ألا يترك أحد منهم على وجه الأرض ، فهم يوجدون بيئة يولد فيها الكفار، ووتوحى بالكفر من الناشئة الصغار، فلا توجد فرصة لترى الناشئة النور، وهم ينشئون عادات وأوصاعا ونظما وتقاليد ينشأ معها المواليد فجاراً كفارا ، من أجل هذا دعا نوح ﷺ دعوته الساحقة الماحقة .

وإلى جانب هذا كان الابتهال الخاشع الودود دعا نوح النبى لربه أن يغفر له ، وهو أدب العبد مع الرب ، العبد الذى لا ينسى أنه بشر ، وكان دعاؤ ه لوالديه ، هو بر النبوة بالوالدين المؤمنين ، ودعاؤه الخاص لمن دخل بيته مؤمنا، هو بر المؤمن بالمؤمن ، وتخصيص الذى يدخل بيته مؤمنا ، لأن هذه كانت علاقة النجاة حتى يصحبه إلى السفينة ، دعاؤه العام بعد ذلك للمؤمنين والمؤمنات هو بر المؤمن بالمؤمنين كافة فى كل زمان ومكان ، وفى مقابل هذا الحب للمؤمنين ، كان الكره للظالمين .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ على العاقل ألا يتبع من يضله حتى ولو كان صاحب مكانة عظيمة فى المجتمع لأنه لن ينجيه من عذاب الله .

٢ ـ تقوى الله تعالى واستغفاره ، ودعاؤه يؤدى إلى سعة الرزق .

٣ ـ ضرورة النظر والتفكر فى عجائب صنع الله ـ تعالى .

الجزء التاسع والعشرون — سورة الجن — الحزب ٥٨

سورة الجن

بسم الله الرحمن الرحيم

قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرءانا عجبا (١) يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا (٢) وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا (٣) وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا (٤) وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا (٥) وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا (٦) وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا (٧) وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا (٨) وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا (٩) وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا (١٠) وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا (١١) وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هربا (١٢) وأنا لما سمعنا الهدى ءامنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا (١٣)

٥٧٢

معاني الكلمات :

الرشد : الحق والصواب .

جد ربنا : جلاله أو سلطانه .

سفيهنا : جاهلنا .

شططا : قولا بعيداً عن الحق .

يعوذون : يستجيرون .

رهقا : إثما أو طغيانا وسفها .

شهبا : شعل نار تنقض فتحرقهم .

طرائق قددا : فرقا مختلفة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على تأثير القرآن الكريم وبعض صفاته .

٢ ـ أن نتعرف على عالم الجن وحقيقته .

٣ ـ أن نستشعر أن صاحب القدرة الطليقة والإرادة الكاملة هو الله ـ عز وجل.

المحتوى التربوى :

السورة التى بين أيدينا تساهم مساهمة كبيرة فى إنشاء التصور الإسلامى عن حقيقة الألوهية، وحقيقة العبودية ، ثم عن هذا الكون وخلائقه والصلة بين هذه الخلائق المنوعة ، وهذا الافتتاح يدل على أن معرفة النبى ﷺ بأمر استماع الجن له ، وما كان منهم بعد أن سمعوا القرآن منه ، كانت بوحى من الله سبحانه إليه ، وإخباراً عن أمر وقع ولم يعلم به الرسول ﷺ ، ولكن الله أطلعه عليه ، وقد تكون هذه هى المرة الأولى ، ثم كانت هناك مرة أو مرات أخر قرأ النبى فيها على الجنّ عن علم وقصد .

وهذه الآيات تنبئ عن وهلة المفاجأة بهذا القرآن للجن ، مفاجأة أطارت تماسكهم ، وزلزلت قلوبهم، وهزت مشاعرهم، وأطلقت فى كيانهم دفعة عنيفة من التأثر امتلأ بها كيانهم كله وفاض،

فانطلقوا إلى قومهم بنفوس محتشدة مملوءة فائدة بما لا تملك له دفعا ، ولا تملك عليه صبراً قبل أن تفيضه على الآخرين فى هذا الأسلوب النابض بالحرارة والانفعال ، وأول ما بدههم منه أنه عجب غير مألوف ، ثم أنه يهدى إلى الهدى والحق والصواب وهؤلاء هم الجن نراهم مبهورين بالقرآن مسحورين متأثرين أشد التأثر ، منفعلين أشد الانفعال ، يعرفون الحق فيستجيبون له مذعنين معلنين هذا الإذعان ، غير منكرين لما مس نفوسهم منه ولا معاندين كما كان المشركون يفعلون والجن أعلن إيمانه خالصا صريحا صحيحا غير مشوب بشرك .

والجد : الحظ والنصيب ، وهو القدر والمقام ، وهو العظمة والسلطان ، والمعنى فى الآية هو التعبير عن الشعور باستعلاء الله ـ سبحانه ، وبعظمته وجلاله عن أن يتخذ صاحبة ـ أى زوجة ـ وولداً بنين أو بنات ، وكانت العرب تزعم أن الملائكة بنات الله ، جاءته من صهر مع الجن ، فجاءت الجن تكذب هذه الخرافة ، وتأتى المراجعة من الجن لما كانوا يسمعون من سفهائهم من الشرك بالله ، وادعاء الصاحبة والولد والشريك ، بعد ما تبين لهم من سماع القرآن أنه لم يكن حقا ولا صوابا ، وأن قائليه إذن سفهاء فيهم خرق وجهل ، وهم يعللون تصديقهم لهؤلاء السفهاء من قبل بأنهم كانوا لا يتصورون أن أحداً يمكن أن يكذب على الله من الإنس أو الجن ، وهذا الشعور من هؤلاء النفر بنكارة الكذب على الله هو الذى أهلهم للإيمان ، فهو دلالة على أن قلوبهم نظيفة مستقيمة .

وتأتى إشارة من الجن إلى ما كان متعارفًا فى الجاهلية ـ وما يزال متعارفا إلى اليوم فى بيئات كثيرة ـ من أن للجن سلطانا على الأرض وعلى الناس ، وأن لهم قدرة على النفع والضر ، وأنهم محكمون فى مناطق من الأرض أو البحر أو الجو إلى آخر هذه التصورات ، مما كان يقتضى القوم إذا باتوا فى فلاة أو مكان موحش أن يستعيذوا بسيد الوادى من سفهاء قومه ، ثم يبيتون بعد ذلك آمنين ، والشيطان مسلط على قلوب بنى آدم إلا من اعتصم بالله فهو فى نجوة منه ، وأما من يركن إليه فهو لا ينفعه فهو له عدو ، إنما يرهقه ويؤذيه ، ولعل هذا الرهق هو الضلال والقلق والحيرة، والقلب البشرى حين يلجأ إلى غير الله ، طمعا فى نفع أو دفعا لضر لا يناله إلا القلق والحيرة وقلة الاستقرار والطمأنينة .

ويتحدثون إلى قومهم عن أولئك الرجال من الإنس الذين كانوا يعوذون برجال من الجن ، يقولون : إنهم كانوا يظنون ـ كما أنكم تظنون ـ أن الله لن يبعث رسولا ، ولكن ها هو ذا قد بعث رسولا بهذا القرآن الذى يهدى إلى الرشد ، أو أنهم ظنوا أنه لن يكون هناك بعث ولا حساب ـ كما ظننتم ـ فلم يعملوا للآخرة شيئا ، وكذبوا ما وعدهم الرسول ﷺ من أمرها ؛ لأنهم كانوا لا يعتقدون من قبل فيها ، وهؤلاء النفر من الجن يصححون لقومهم ظنهم ، والقرآن فى حكايته عنهم يصحح للمشركين أوهامهم .

ويمضى الجن فى حكاية ما لقوه وما عرفوه من شأن هذه الرسالة فى جنبات الكون ، وفى أحوال السماء والأرض، لينفضوا أيديهم من كل محاولة لا تتفق مع إرادة الله بهذه الرسالة ، ومن

كل ادعاء بمعرفة الغيب ، ومن كل قدرة على شىء من هذا الأمر ، وهم يقولون : إن استراق السمع لم يعد ممكنا ، وأنهم حين حاولوه الآن بلمس السماء وجدوا الطريق إليه محروسا بحرس شديد ، يرجمهم بالشهب ، فتنقض عليهم وتقتل من توجه إليه منهم ، ويعلنون أنهم لا يدرون شيئا عن الغيب المقدر للبشر فهذا الغيب موكول لعلم الله لا يعلمه سواه ، فأما نحن فلا نعلم ماذا قدر الله لعباده فى الأرض : قدر أن ينزل بهم الشر ، فهم متركون للضلال أم قدر لهم الرشد وهو الهداية ، وقد جعلوها مقابلة للشر ، فهى الخير وعاقبتها هى الخير ، وإذا كان المصدر الذى يزعم الكهان أنهم يستقون منه معلوماتهم عن الغيب ، يقرر أنه هو لا يدرى عن ذلك شيئا فقد انقطع كل قول وبطل كل زعم ، وانتهى أمر الكهانة والعرافة .

بعد ذلك أخذ الجن يصفون حالهم وموقفهم من هدى الله ؛ بما نفهم منه أن لهم طبيعة مزدوجة كطبيعة الإنسان فى الاستعداد للهدى والضلال ، ويحدثنا هذا النفر عن عقيدتهم فى ربهم وقد آمنوا به ، وهذا التقرير من الجن بأن منهم صالحين ، مسلمين وقاسطين ، يفيد ازدواج طبيعة الجن ، واستعدادهم للخير والشر كالإنسان ، وهو تقرير ذو أهمية بالغة فى تصحيح تصورنا العام عن هذا الخلق ، وهذا النفر من الجن يقول : منا الصالحون ومنا غير الصالحين، ويصف حالهم بصفة عامة بأنهم كانوا طرائق مختلفة وآراء متفرقة .

ثم بين النفر معتقدهم الخاص بعد إيمانهم ؛ فهم يعرفون قدرة الله عليهم فى الأرض ، ويعرفون عجزهم عن الهرب من سلطانه ـ سبحانه ـ والإفلات من قبضته ، والفكاك من قدره ، فلا هم يعجزون الله وهم فى الأرض ولا هم يعجزونه بالهرب منها ، وهو ضعف العبد أمام الرب ، وضعف الخلق أمام الخالق ، والشعور بسلطان الله القاهر ، فهم يصححون لا لقومهم بل للمشركين كذلك حقيقة القوة الواحدة الغالبة على هذا الكون ومن فيه .

ثم يصفون حالهم عندما سمعوا الهدى بأنهم آمنوا ، ثم يقررون ثقتهم بربهم ، وهى ثقة المؤمن فى مولاه ، فالله ـ سبحانه عادل ولن يبخس المؤمن حقه ، ولن يرهقه بما فوق طاقته ، فالله سيحمى عبده المؤمن من البخس ، وهو نقص الاستحقاق إطلاقاً ، ومن الرهق وهو الجهد والمشقة فوق الطاقة ، ومن ذا الذى يملك أن يبخس المؤمن أو يرهقه وهو فى حماية الله ورعايته ؟

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ من صفات الجن أنهم ضالون مضلون منهم الأبرياء القابلون للهدى والإيمان .

٢ ـ من صفات الجن أنهم لا ينفعون الإنس بشىء حين يستجيرون بهم ، وأنهم لا يعلمون الغيب ، ولم تعد لهم صلة بالسماء .

٣ ـ أنهم لا قوة لهم مع قوة الله فلا يستطيعون نفعا ولا ضرًا إلا بإذن الله ، وهم حقيقة موجودة ، فعلا لا يجوز إنكارها .

وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا ﴿١٤﴾ وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا ﴿١٥﴾ وألو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا ﴿١٦﴾ لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا ﴿١٧﴾ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا ﴿١٨﴾ وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا ﴿١٩﴾ قل إنما أدعوا ربي ولا أشرك به أحدا ﴿٢٠﴾ قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا ﴿٢١﴾ قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا ﴿٢٢﴾ إلا بلاغا من الله ورسالاته ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا ﴿٢٣﴾ حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا ﴿٢٤﴾ قل إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمدا ﴿٢٥﴾ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا ﴿٢٦﴾ إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ﴿٢٧﴾ ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا ﴿٢٨﴾

معانى الكلمات :

القاسطون : الجائرون عن الحق .

تحروا رشداً : قصدوا خيراً وصلاحا .

الطريقة : ملة الإسلام .

غدقا : كثيراً يتسع به العيش .

صعدا : شاقا يعلوه ويغلبه .

لبدا : يركب بعضهم بعضا من شدة الازدحام .

ملتحدا : ملجأ أو حرزًا أركن إليه .

أمداً : زمانا بعيداً .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نستشعر الارتباط بين استقامة الأمم والجماعات على الطريقة الواصلة إلى الله ، وبين إغداق الرخاء .

٢ ـ أن نعلم أن الرخاء ابتلاء من الله لعباده وفتنة ، وأن الإعراض عن ذكر الله مؤد إلى العذاب .

٣ ـ أن نعلم أن المسلم لا مفر له من التبليغ ، فهو مطالب به من الله ـ تعالى .

المحتوى التربوى :

يقرر النفر المؤمن من الجن تصورهم لحقيقة الهدى والضلال والجزاء على الهدى والضلال ، والقاسطون : الجائرون المجانبون للعدل والصلاح ، وقد جعلهم هذا النفر من الجن فريقا يقابل المسلمين ، فالمسلم عادل مصلح يقابله القاسط : الجائر المفسد ، والاهتداء إلى الإسلام معناه الدقة فى طلب الرشد والاهتداء، ومعناه أنهم وصلوا فعلا إلى الصواب حين اختاروا الإسلام ، وأما القاسطون فقد تقرر أمرهم وانتهى إلى أن يكونوا حطبا لجهنم ، تتلظى بهم وتزداد اشتعالا، كما تتلظى النار بالحطب ، ثم يقول الله ـ سبحانه إنه كان من مقالة الجن عنا ما فحواه أن الناس لو

استقاموا على الطريقة ، أو أن القاسطين لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم نحن ماء موفورا نغدقه عليهم ، فيفيض عليهم بالرزق والرخاء لنبتليهم أيشكرون ، أم يكفرون .

وهذه اللفتة تحتوى جملة حقائق ، تدخل فى تكوين عقيدة المؤمن ، وتصوره عن مجريات الأمور وارتباطاتها :

الحقيقة الأولى : هى الارتباط بين استقامة الأمم والجماعات على الطريقة الواحدة الواصلة إلى الله ، وبين إغداق الرخاء وأسبابه ، وأول أسبابه توافر الماء واغداقه .

والحقيقة الثانية : هى أن الرخاء ابتلاء من الله للعباد وفتنة ، ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ (الأنبياء : ٣٥) ، والصبر على الرخاء والقيام بواجب الشكر والإحسان فيه أشق وأندر من الصبر على الشدة .

والحقيقة الثالثة : إن الإعراض عن ذكر الله الذى قد تنتهى إليه فتنة الابتلاء بالرخاء مؤد إلى عذاب الله ، والنص يذكر صفة للعذاب بأنه عذاب شاق شديد موجع مؤلم ، وقد درج القرآن على الرمز للمشقة بالتصعيد .

ثم تعلن الآيات بأن مواضع السجود وهى المساجد لا تكون إلا لله ، فهناك يكون التوحيد الخالص ، ويتوارى كل ظل لكل أحد ، ولكل قيمة ولكل اعتبار ، وقد كان مشركو العرب الذين كانوا يتجمعون فئات حول رسول الله ﷺ ، أو وهو يصلى وهو يتلو القرآن ـ يستمعون فى دهش ولا يستجيبون ، أو هم يتجمعون لإيقاع الأذى به ، ثم يعصمه الله منهم كما وقع ذلك مراراً ، أو أن الازدحام كان من الجن حين سمعوا القرآن وقد أخذوا به ودهشوا ، وتكأكأوا على رسول الله ﷺ بعضهم لصق بعض ، ولعل هذا هو الأقرب لمدلول الآية .

ثم يتوجه الخطاب إلى الرسول ﷺ فى إيقاعات جادة صارمة حاسمة ، بالتبليغ ، والتجرد من هذا الأمر كله بعد التبليغ ، والتجرد كذلك من كل دعوى فى الغيب ، أو فى حظوظ الناس ومقادرهم ، وبأن يقول لهم : إنما أعبد ربى وحده لاشريك له وأستجير به وأتوكل عليه ، وأنا بشر مثكلم يوحى إلىّ ، وعبد من عباد الله ليس إلىَّ من الأمر شىء فى هدايتكم ولا غوايتكم ،بل المرجع فى ذلك كله إلى الله ـ عز وجل ، ولو عصيته فإنه لا يقدر أحد على إنقاذى من عذابه ، ولن أجد من دونه نصيرا ولا ملجأ ، ولن يخلصنى إلا إبلاغى الرسالة التى أوجب أداءها علىّ ، فهذا هو الملجأ الوحيد ، وهذه هى الإجارة المأمونة ، إن الأمر ليس أمرى ، وليس لى فيه شىء إلا التبليغ ، ولا مفر لى من هذا التبليغ ، فأنا مطلوب به من الله ، ويأتى التهديد لمن يبلغه الأمر ثم يعصى بالعذاب الذى إذا رآه العاصى علم القوى من الضعيف .

يقول صاحب الظلال عن الدعوة : « إنها ليست تطوعا يتقدم به صاحب الدعوة ، إنما هو التكليف ؛ التكليف الصارم الجازم الذى لا مفر من أدائه ، فالله من ورائه ، وإنها ليست اللذة الذاتية فى حمل الهدى والخير للناس ، إنما هو الأمر العلوى الذى لا يمكن التفلت عنه ولا التردد فيه وهكذا يتبين أمر الدعوة ويتحدد ، إنها تكليف وواجب ، وراءه الهول ، ووراءه الجد ، ووراءه الكبير المتعال » .

ثم يؤمر الرسول ﷺ أن يتجرد وينفض يديه من أمر الغيب أيضا ، فالدعوة ليست من أمره، وليس له فيها شيء إلا أن يبلغها قياما بالتكليف ، والتجاء بنفسه إلى منطقة الأمان الذى لايبلغه إلا أن يبلغ ويؤدى ، وإن ما يوعدونه على العصيان والتكذيب هو كذلك من أمر الله ، وليس له فيه يد ، ولا يعلم له موعداً ، فما يدرى أقريب هو ، أم بعيد يجعل الله له أمداً ممتداً ، سواء عذاب الدنيا ، أو عذاب الآخرة ، فكله غيب فى علم الله ، وليس للنبى من أمره شيء ، ولا حتى علم موعده متى يكون ، والله ـ سبحانه هو المختص بالغيب دون العالمين .

هناك فقط استثناء واحد ، وهو ما يأذن به الله من الغيب ، فيطلع عليه رسله فى حدود ما يعاونهم على تبليغ دعوتهم إلى الناس ، فما كان ما يوحى به إليهم إلا غيبا من غيبه يكشفه لهم فى حينه ويكشفه لهم بقدر ، ويرعاهم وهم يبلغونه ، ويراقبهم كذلك ، والرسل الذين يرتضيهم الله لتبليغ دعوته يطلعهم على جانب من غيهم .

هذا هو الوحى : موضوعه ، وطريقته ، والملائكة الذين يحملونه ، ومصدره ، وحفظه فى اللوح المحفوظ .. إلى آخر ما يتعلق بموضوع رسالتهم مما كان فى ضمير الغيب لا يعلمه أحد منهم ، وفى الوقت ذاته يحيط هؤلاء الرسل بالأرصاد والحراس من الحفظة ، للحفظ وللرقابة ، يحمونهم من وسوسة الشيطان ونزغه ، ومن وسوسة النفس وتمنيتها ، ومن الضعف البشرى فى أمر الرسالة ، ومن النسيان ، أو الانحراف ، ومن سائر ما يعترض البشر من النقص والضعف .

والتعبير يصور الرقابة الدائمة الكاملة للرسول ، وهو يؤدى هذا الأمر العظيم ، والله يعلم ويريد أن يتعلق علمه بالبلاغ فى عالم الواقع أيضا ، وما من شئ فى نفوسهم وفى حياتهم ومن حولهم ، إلا وهو فى قبضته العلم لا يند منه شيء ، ولا يقتصر على ما لدى الرسل ، بل يحيط بكل شئ إحصاء وعدا ، . وتصور هذه الحال والرسول محوط بالحراس والأرصاد ، وعلم الله على كل ما لديه وكل ما حوله ، وهو يتلقى التكليف جنديا لا يملك إلا أن يؤدى ، ويمضى فى طريقه ليس متروكا لنفسه ، ولا متروكا لضعفه ، ولا متروكا لهواه ، ولا متروكا لما يحبه ويرضاه ، إنما هو الجد الصارم والرقابة الدقيقة ، وهو يعلم هذا ويستقيم فى طريقه ولا يتلفت هنا ، أو هناك ، فهو يعلم ماذا حوله من الحرس والرصد ، ويعلم ما هو مسلط عليه من علم وكشف حتى يتدبر المسلم أمره ، ويسير على درب نبيه فى حمل أمانة التبليغ .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الشهادة بوحدانية الله وقدرته ، وأنه لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء ؛ لأنه خالق الكون كله .

٢ ـ الغيب المطلق لله وحده لا يطلع عليه أحداً من عباده إلا ما يؤيد به بعض الرسل من معجزات .

٣ ـ الإنسان فى هذه الأرض ليس بمعزل عن الخلائق ، فهو ليس الساكن الوحيد فى هذا الكون .

سورة المزمل

بسم الله الرحمن الرحيم

يا أيها المزمل (١) قم الليل إلا قليلا (٢) نصفه أو انقص منه قليلا
(٣) أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا (٤) إنا سنلقى عليك قولا
ثقيلا (٥) إن ناشئة الليل هى أشد وطئا وأقوم قيلا (٦) إن لك فى
النهار سبحا طويلا (٧) واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا (٨)
رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا (٩) واصبر
على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا (١٠) وذرنى والمكذبين
أولى النعمة ومهلهم قليلا (١١) إن لدينا أنكالا وجحيما (١٢)
وطعاما ذا غصة وعذابا أليما (١٣) يوم ترجف الأرض والجبال
وكانت الجبال كثيبا مهيلا (١٤) إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا
عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا (١٥) فعصى فرعون الرسول
فأخذناه أخذا وبيلا (١٦) فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل
الولدان شيبا (١٧) السماء منفطر به كان وعده مفعولا (١٨)
إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا (١٩)

سورة المزمل

معانى الكلمات :

المزمل : المتلفف بثيابه وهو النبى ﷺ .

ناشئة الليل : العبادة التى تنشأ به وتحدث .

أشد وطأ : أشد ثباتا للقدم ورسوخا فى العبادة .

أقوم قيلا: أثبت قراءة لحضور القلب فيها .

سبحا : تصرفا وتقلبًا فى مهماتك .

تبتل : انقطع إلى عبادته ـ تعالى .

أنكالا : قيوداً شديدة ثقالا .

وبيلا : شديداً ثقيلا فظيعا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن قيام الليل دأب الصالحين وطريق المقربين .

٢ ـ أن نستشعر أثر الخلوة مع الله بعيداً عن الناس ، فالاستغراق فى واقع الحياة يجعل النفس تألفه ولا تحاول تغييره .

٣ ـ أن نعلم أن الصبر هو الوصية من الله لكل رسول من رسله ولعباده المؤمنين .

المحتوى التربوى :

تبدأ السورة بدعوة السماء وصوت الكبير المتعال قم:قم يا محمد للأمر العظيم الذى ينتظرك ، والعبء الثقيل المهيأ لك ، قم للجهد والنصب والكد والتعب ، قم فقد مضى وقت النوم والراحة ، قم فتهيأ لهذا الأمر واستعد ، وإنها لكلمة عظيمة رهيبة تنتزعه ﷺ من دفء الفراش فى البيت الهادئ والحضن الدافئ ؛ لتدفع به فى الخضم ، بين الشد والجذب فى ضمائر الناس وفى واقع الحياة سواء .

يقول صاحب الظلال : « إن الذى يعيش لنفسه قد يعيش مستريحا ، ولكنه يعيش صغيرا ويموت صغيرا ، فأما الكبير الذى يحمل هذا العبء الكبير .. فما له والنوم ؟ وما له والراحة ؟ وماله والفراش الدافئ والعيش الهادئ والمتاع المريح ؟ ! ولقد عرف رسول الله ﷺ حقيقة الأمر

وقدره، فقال لخديجة رضى الله عنها وهى تدعوه أن يطمئن وينام : « مضى عهد النوم يا خديجة» أجل مضى عهد النوم وما عاد منذ اليوم إلا السهر والتعب والجهاد الطويل الشاق » .

وقد صح عن وتر الرسول ﷺ بالليل أنه لم يتجاوز إحدى عشرة ركعة ، ولكنه كان يقضى فى هذه الركعات ثلثى الليل إلا قليلا ، يرتل فيه القرآن ترتيلا .

كان هذا الإعداد للقول الثقيل الذى سينزله الله عليه هو هذا القرآن،وما وراءه من التكليف، والقرآن فى مبناه ليس ثقيلا فهو ميسر للذكر ولكنه ثقيل فى ميزان الحق ، ثقيل فى أثره فى القلب ، وإن تلقى هذا الفيض من النور والمعرفة واستيعابه لثقيل يحتاج إلى استعداد طويل ، وإن التعامل مع الحقائق الكونية الكبرى المجردة لثقيل يحتاج إلى استعداد طويل ، وإن التعامل مع الحقائق الكونية الكبرى المجردة لثقيل يحتاج إلى استعداد طويل ، وإن الاتصال بالملأ الأعلى وبروح الوجود وأرواح الخلائق الحية والجامدة على النحو الذى تهيأ لرسول الله ﷺ لثقيل ، يحتاج إلى استعداد طويل .

يقول صاحب الظلال : « وإن قيام الليل والناس نيام ، ومغالبة هتاف النوم وجاذبية الفراش بعد كد النهار أشد وطأ وأجهد للبدن ، ولكنها إعلان لسيطرة الروح ، واستجابة لدعوة الله ، وإيثار للأنس به ، ومن ثم فإنها أقوم قيلا ؛ لأن للذكر فيها حلاوته ، وللصلاة فيها خشوعها ، وللمناجاة فيها شفافيتها ، وإنها لتسكب فى القلب أنسا وراحة وشفافية ونوراً ، قد لا يجدها فى صلاة النهار وذكره ، والله الذى خلق هذا القلب يعلم مداخله وأوتاره ، ويعلم ما يتسرب إليه وما يوقع عليه ، وأى الأوقات يكون فيها أكثر تفتحا واستعداداً وتهيؤا ، وأى الأسباب أعلق به وأشد تأثيراً فيه » .

والله ـ سبحانه ـ وهو يعد عبده ورسوله ، ليتلقى القول الثقيل اختار له قيام الليل ؛ لأن ناشئة الليل هى أشد وطأة وأقوم قيلا ؛ ولأن له فى النهار مشاغله ونشاطه الذى يستغرق كثيراً من الطاقات والالتفات ، فلينقضى النهار فى السبح والنشاط ، وليخلص لربه فى الليل يقوم له بالصلاة والذكر ، وذكر بسم الله هو ذكر القلب الحاضر مع اللسان الذاكر ، أو هو الصلاة ذاتها وقراءة القرآن فيها ، والتبتل هو الانقطاع الكلى عما عدا الله ، والاتجاه الكلى إليه بالعبادة والذكر ، فليس هناك إلا الله يتجه إليه من يريد الاتجاه ، فهو رب كل متجه ، رب المشرق والمغرب وهو الواحد الأحد الذى لا إله إلا هو ، والتوكل عليه هو التوكل على القوة الوحيدة فى هذا الوجود ، ومن هذا التوكل يستمد القوة والزاد للعبء الثقيل فى الطريق الطويل .

ثم وجه الله الرسول إلى الصبر الجميل على ما يلقاه من قومه من الاتهام،والإعراض،والصد ، والتعطيل ، وأن يخلى بينه وبين المكذبين ، ويمهلهم قليلا ، فإن لدى الله لهم عذابا وتنكيلا ، ونجد التوجيه إلى الصبر ، بعد التوجيه إلى القيام والذكر ، وهما كثيراً ما يقترنان فى صدد تزويد القلب بزاد هذه الدعوة فى طريقها الشاق الطويل ، نجد التوجيه إلى الصبر على ما يقولون مما يغيظ ويخنق ، واهجرهم الهجر الجميل الذى لا عتاب معه ولا غضب ، والهجر الجميل مع

التطاول والتكذيب يحتاج إلى الصبر بعد الذكر ، والصبر هو الوصية من الله لكل رسول من رسله ولعباده المؤمنين برسله ، وما يمكن أن يقوم على هذه الدعوة أحد إلا والصبر زاده وعتاده.

وبعد الأمر بالصبر والهجر الجميل يقول الله ـ تعالى: خل بينى وبين المكذبين ، فأنا بهم كفيل، والمكذبون بشر من البشر ، والذى يتهددهم هو الذى أنشأهم ابتداء ، وخلق هذا الكون العريض بكن ولا تزيد ، وهى القاصمة المزلزلة المذهلة حين يخلو الجبار إلى هذه الخلائق الهينة المضعوفة أصحاب الأموال مهما يكن من جبروتهم فى الأرض على أمثالهم من المخاليق ، فمهلهم رويداً ولو مهلهم الحياة الدنيا كلها ما كانت إلا قليلا ، والأنكال هى القيود ، والجحيم والطعام ذو الغصة الذى ينشب فى الحلق ، فلا يدخل ولا يخرج والعذاب الأليم ، كلها جزاء مناسب لأصحاب النعمة الذين لم يراعوا النعمة ولم يشكروا المنعم .

ثم يرسم مشهد هذا اليوم المخيف يوم ترجف الجبال وتخاف وتتفتت وتنهار ، فكيف بالناس المهازيل الضعاف ، ويلتفت السياق أمام مشهد الهول المفزع إلى المكذبين أولى النعمة يذكرهم فرعون الجبار ، وكيف أخذه الله أخذ عزيز قهار ، هكذا فى اختصار يهز قلوبهم ويخلعها خلعا بعد مشهد الأرض والجبال وهى ترجف وتنهار ، فذلك أخذ الآخرة ، وهذا أخذ الدنيا ، فكيف تنجون بأنفسكم وتقوها هذا الهول الرعيب ؟ وإن صورة الهول هنا لتنشق لها السماء ، ومن قبل رجفت لها الأرض والجبال، وإنها لتشيب الأولاد ، وإنه لهول ترتسم صوره فى الطبيعة الصامتة، وفى الإنسانية الحياة ، فى مشاهد ينقلها السياق القرآنى إلى حس المخاطبين كأنها واقعة ، ثم يؤكدها تأكيداً واقعا لا خلف فيه ، وهو ما يشاء فعل وما أراد كان .

وأمام هذا الهول الذى يتمثل فى الكون كما يتمثل فى النفس يلمس قلوبهم لتتذكر وتختار طريق السلامة .. طريق الله ، وإن السبيل إلى الله لآمن ، وأيسر من السبيل المريب إلى هذا الهول العصيب ، وبينما تزلزل هذه الآيات قوائم المكذبين ، تنزل على قلب الرسول ﷺ والقلة المؤمنة المستضعفة إذ ذاك بالروّح والثقة واليقين ، إذ يحسون أن ربهم معهم يقتل أعداءهم وينكل بهم ، وإن هى إلا مهلة قصيرة إلى أجل معلوم ثم يقضى الأمر حينما يجىء الأجل ، ويأخذ الله أعداءه وأعداءهم بالنكال والجحيم والعذاب الأليم ، فإن الله لا يدع أولياءه لأعدائه ، ولو أمهل أعداءه إلى حين .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الأعمال العظيمة تحتاج إلى تدريب وجهد حتى يستطيع الإنسان القيام بها فى يسر وسهولة.

٢ ـ مما يساعد على القيام بالمهمات الشاقة ، التقرب إلى الله ـ تعالى بالعبادة ، وبخاصة قيام الليل وتلاوة القرآن فى تدبر ، وذكر الله والتوكل عليه .

٣ ـ القرآن وما يحمله من تكاليف أمر عظيم يحتاج إلى صبر وجهد حتى ينتفع الناس بما فيه من خير .



معانى الكلمات :

تحصوه : تطيقوا ضبط وقت قيامه .

يضربون : يسافرون للتجارة وغيرها .

المدثر : المتغشى بثيابه (النبى ﷺ) .

وربك فكبر : عظم ربك .

والرجز فاهجر : اهجر المآثم الموجبة للعذاب .

ولا تمنن تستكثر : لا تعط وأنت تطلب الكثير .

نقر فى الناقور : نفخ فى الصور للبعث والنشور .

سأرهقه صعودا : سأعذبه عذابا شديدا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن الدين يسر .

٢ ـ أن نعلم ألا كسل ولا خمول ولا لهو ولا لعب فى حياة المسلم .

٣ ـ أن نتعرف على موقف الشقى الوليد بن المغيرة من نعمة الله عليه .

المحتوى التربوى :

تجىء لمسة التخفيف الندية تمسح على التعب والنصب والمشقة ، ودعوة التيسير الإلهى على النبى والمؤمنين ، وقد علم الله منه ومنهم خلوصهم له ، وقد انتفخت أقدامهم من القيام الطويل للصلاة بقدر من القرآن كبير ، وما كان الله يريد لنبيه أن يشقى بهذا القرآن والقيام ، إنما كان يريد أن يعده للأمر العظيم الذى سيواجهه طوال ما بقى له من الحياة ، هو والمجموعة القليلة من المؤمنين الذين قاموا معه ، وفى الحديث مودة وتطمين ؛ إنه رآك ، إن قيامك وصلاتك أنت وطائفة من الذين معك قبلت فى ميزان الله ، إن ربك يعلم أنك وهم تجافت جنوبكم عن المضاجع ، وتركت دفء الفراش فى الليلة القارسة ، ولم تسمع نداء المضاجع المغرى وسمعت نداء الله ، إن ربك يعطف عليك ويريد أن يخفف عنك وعن أصحابك ، والله هو المقدر لليل

والنهار فيطيل من هذا ويقصر من ذاك ، فيطول الليل ويقصر ، وأنت ومن معك ماضون تقومون أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه ، وهو يعلم ضعفكم عن الموالاة .

وهو لا يريد أن يعنتكم ولا أن يشق عليكم ، إنما يريد لكم الزاد وقد تزودتم فخففوا على أنفسكم ، وخذوا الأمر هينا ، واقرؤوا ما تيسر فى القرآن فى قيام الليل بلا مشقة ولا عنت ، وهناك أمور تنتظركم تستنفد الجهد والطاقة ، ويشق معها القيام الطويل ، وعلم الله أن سيكون من هذه الأمة ذوو أعذار فى ترك قيام الليل من مرضى لا يستطيعون ذلك ، ومسافرين فى الأرض يبتغون من فضل الله فى المكاسب والمتاجر ، وآخرين مشغولين بما هو الأهم فى حقهم من الغزور فى سبيل الله ، والله لا يريد أن تدعوا أمور حياتكم وتنقطعوا لعبادة الشعائر انقطاع الرهبان ، وقد علم الله أن سيأذن لكم فى الانتصار ممن ظلمكم بالقتال ، فخففوا إذن على أنفسكم ، واقرؤوا ما تيسر من القرآن بلا عسر ولا مشقة ولا إجهاد ، واستقيموا على فرائض الدين من الصلاة والزكاة ، وتصدقوا بعد ذلك قرضا لله يبقى لكم خيره ، وهو خير مما أبقيتموه لأنفسكم فى الدنيا ، فالإنسان يقصر ويخطئ فأكثروا من ذكر الله واستغفروه فى أموركم كلها ، فإنه غفور رحيم لمن استغفره .

سورة المدثر

تبدأ السورة بالنداء العلوى الجليل للأمر العظيم الثقيل ؛ نذارة هذه البشرية وإيقاظها ، وتخليصها من الشر فى الدنيا ، ومن النار فى الآخرة ، وتوجيهها إلى طريق الخلاص قبل فوات الأوان وهو واجب ثقيل شاق حين يناط بفرد من البشر مهما يكن نبيًّا رسولا ، والإنذار هو أظهر ما فى الرسالة ، فهو تنبيه للخطر القريب الذى يترصد للغافلين السادرين فى الضلال وهم لا يشعرون ، وفيه تتجلى رحمة الله بالعباد ، وهم لا ينقصون فى ملكه شيئا حين يضلون ، ولا يزيدون فى ملكه شيئا حين تهتدون ، غير أن رحمته اقتضت أن يمنحهم كل هذه العناية ليخلصوا من العذاب الأليم فى الآخرة ، ومن الشر الموبق فى الدنيا ، وأن يدعوهم رسله ليغفر لهم ويدخلهم جنته من فضله .

ثم يوجه الله رسوله فى خاصة نفسه بعد إذ كلفه نذاره غيره ، يوجهه إلى تكبير ربه ، فهو وحده الكبير الذى يستحق التكبير ، وكل أحد ، وكل شىء ، وكل قيمة ، وكل حقيقة صغير، والله وحده هو الكبير ، وهو توجيه للرسول ﷺ ليواجه نذارة البشرية ، ومتاعبها وأهوالها وهو يستصغر كل كيد ، وكل قوة ، وكل عقبة ، وهو يستشعر أن ربه هو الكبير ، ويوجهه إلى التطهر ، وطهارة الثياب كناية فى الاستعمال العربى عن طهارة القلب والخلق والعمل ، طهارة الذات التى تحتويها الثياب وكل ما يلم بها أو يمسها ، والطهارة هى الحالة المناسبة للتلقى من الملأ الأعلى ، ويوجهه إلى هجران الشرك وموجبات العذاب ، والرجز هو الأوثان ، ويوجهه إلى إنكار ذاته

وعدم المن بما يقدمه من الجهد ، أو استكثاره واستعظامه ، فهذه الدعوة لا تستقيم فى نفس تحس بما تبذل فيها ، فالبذل فيها من الضخامة بحيث لا تحتمله النفس إلا حين تنساه ، ويوجهه أخيراً إلى الصبر ، الصبر لربه وهو وصية تتكرر عند كل تكليف بهذه الدعوة أو تثبيت ، والصبر هو الزاد الأصيل فى هذه المعركة الشاقة ، معركة الدعوة إلى الله .

ويتجه السياق إلى بيان ما ينذر به الآخرين فى لمسة توقظ الحس لليوم العسير ، الذى ينذر بمقدمة النذير ، والنقر فى الناقور هو ما يعبر عنه فى مواضع أخرى بالنفخ فى الصور ، ويصف اليوم بأنه عسير على الكافرين ، ويؤكد هذا العسر بنفى كل ظل لليسر فيه ، وهو على الكافرين غير سهل ، وما أجدر الكافرين أن يستمعوا للنذير قبل أن ينقر فى الناقور .

وينتقل السياق من هذا التهديد العام إلى مواجهة فرد بذاته من المكذبين ، يبدو أنه كان له دور رئيسى خاص فى التكذيب والتبييت للدعوة ،فيوجه إليه تهديداً ساحقا ماحقا ، ويرسم له صورة منكرة تثير الهزء والسخرية ، والخطاب للرسول ﷺ ومعناه خل بينى وبين هذا الذى خلقته وحيداً مجرداً من كل شيء آخر مما يعتز به من مال كثير ممدود ، وبنين حاضرين شهود ونعم يتبطر بها ويختال ويطلب المزيد ، خل بينى وبينه ولا تشغل بالك بمكره وكيده فأنا سأتولى حربه .

ويطيل النص فى وصف حال هذا المخلوق ، وما آتاه الله من نعمه وآلائه قبل أن يذكر إعراضه وعناده، فهو قد خلقه وحيداً مجرداً من كل شيء حتى من ثيابه، ثم جعل له مالا ممدوداً، ورزقه بنين من حوله حاضرين شهوداً ، فهو منهم فى أنس وعزوة ، ومهد له الحياة تمهيداً ويسرها له ، وهو لا يقنع بما أوتى ولا يشكر ويكتفى ، وهنا يردعه ردعا عنيفا عن هذا الطمع الذى لم يقدم حسنة،ولا طاعة،ولا شكراً لله يرجو بسببه المزيد ، فقد عاند دلائل الحق وموجبات الإيمان ، ووقف فى وجه الدعوة ، وحارب رسولها ، وصد عنها نفسه وغيره ، وأطلق حواليها الأضاليل ، ويعقب على الروع بالوعيد الذى يبدل اليسر عسرا والتمهيد مشقة ، والذى ينحرف عن طريق الإيمان السهل الميسر الودود ، يقطع الحياة فى قلق وشدة وكربة وضيق ، كأنما يصعد فى السماء ، أو يصعد فى وعر صلد لا ريّ فيه ولا زاد ، ولا راحة ولا أمل فى نهاية الطريق .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الرياضة الروحية والتربية الأخلاقية ضرورة لكل مسلم ، ويجب على كل مسلم تطبيق الإسلام على نفسه حتى يكون عونا له على توصيل دعوته إلى قلوب الناس .

٢ ـ تبليغ الدعوة الإسلامية يحتاج من الدعاة إلى طهارة القلب ، والنفس ، والبدن من كل شىء قبيح .

٣ ـ الإسلام دين النظافة ؛ سواء نظافة الظاهر ، أو نظافة الباطن .

إنه فكر وقدر (١٨) فقتل كيف قدر (١٩) ثم قتل كيف قدر (٢٠) ثم نظر (٢١) ثم عبس وبسر (٢٢) ثم أدبر واستكبر (٢٣) فقال إن هذا إلا سحر يؤثر (٢٤) إن هذا إلا قول البشر (٢٥) سأصليه سقر (٢٦) وما أدراك ما سقر (٢٧) لا تبقي ولا تذر (٢٨) لواحة للبشر (٢٩) عليها تسعة عشر (٣٠) وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر (٣١) كلا والقمر (٣٢) والليل إذ أدبر (٣٣) والصبح إذا أسفر (٣٤) إنها لإحدى الكبر (٣٥) نذيرا للبشر (٣٦) لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر (٣٧) كل نفس بما كسبت رهينة (٣٨) إلا أصحاب اليمين (٣٩) في جنات يتساءلون (٤٠) عن المجرمين (٤١) ما سلككم في سقر (٤٢) قالوا لم نك من المصلين (٤٣) ولم نك نطعم المسكين (٤٤) وكنا نخوض مع الخائضين (٤٥) وكنا نكذب بيوم الدين (٤٦) حتى أتانا اليقين (٤٧)

معانى الكلمات :

وقدر : رتب كلاما فى نفسه .

فقتل : لعن وعذب .

عبس : قطب وجهه .

وبسر : اشتد فى العبوس .

لواحة : مسودة للجلود محرقة لها .

الكبر : الدواهى العظيمة .

سلككم : أدخلكم .

نخوض : نشرع فى الباطل لا نبالى به .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم كيف كان إعراض الوليد بن المغيرة وجزاء إعراضه هذا .

٢ ـ أن نعلم حقيقة الآخرة ، وحقيقة سقر ، وحقيقة جنود ربك وأنها غيب يجب التسليم به .

٣ ـ أن نستشعر أن كل نفس مرهونة بأعمالها ، مأخوذة بما تكسبه باختيارها .

المحتوى التربوى :

يرسم السياق صورة مبدعة مثيرة للسخرية والرجل يكد ذهنه ، ويعصر أعصابه ، ويقبض جبينه ، وتكلح ملامحه وقسماته كل ذلك ليجد عيبا يعيب به هذا القرآن ، وليجد قولا يقوله فيه ، فتأتى لقطة وهو يفكر ويدبر ومعها دعوة هى قضاء ، واستنكار كله استهزاء ، ثم تكرار الدعوة والاستنكار لزيادة الإيحاء بالتكرار ، ولقطة وهو ينظر هكذا وهكذا فى جد مصطنع متكلف يوحى بالسخرية منه والاستهزاء ، ولقطة وهو يقطب حاجبيه عابسا ، ويقبض ملامح وجهه باسراً ، ليستجمع فكرة فى هيئة مضحكة ، وبعد هذا المخاض كله ؟ وهذا الحزق كله ؟ لا يفتح عليه بشىء ؛ إنما يدبر عن النور ويستكبر عن الحق ، فيقول : هذا سحر ينقله محمد عن غيره ممن قبله ويحكيه عنهم فليس بكلام الله .

فإذا انتهى عرض هذه اللمحات الحية الشاخصة لهذا المخلوق المضحك ، عقب عليها بالوعيد المفزع ، وزاد هذا الوعيد تهويلا بتجهيل سقر ، فهى شىء أعظم وأهول من الإدراك ، ثم عقب على التجهيل بشىء من صفتها أشد هولا ، فهى تكنس كنسا وتبلع بلعا وتمحو محوا ، فلا يقف لها شىء ولا يبقى وراءها شىء ، ولا يفضل منها شىء ، ثم هى تتعرض للبشر وتلوح فهى تدل على نفسها ، وكأنما تقصد إثارة الفزع فى النفوس بمنظرها المخيف ، ويقوم عليها حراس عدتهم تسعة عشر ، ولا ندرى أهم أفراد من الملائكة الغلاظ الأشداء أم صفوف أم أنواع من الملائكة وصنوف ، إنما هو خبر من الله سندرى شأنه فيما يجىء .

وتكشف الآيات عن حكمة الله فى الكشف عن هذا الجانب من الغيب ، وذكر هذا العدد ، وترد علم الغيب إلى الله ، وتقرر ما وراء ذكر سقر وحراسها من غاية ينتهى الموقف إليها ، وتبدأ الآية بتقرير حقيقة أولئك التسعة عشر الذين تمارى فيهم المشركون فهم من ذلك الخلق المغيب الذى لا يعلم طبيعته وقوته إلا الله ، وقد قال لنا عنهم : إنهم يطيعون ما يأمرهم به الله ، وأن بهم القدرة على فعل ما يأمرهم ، وإذا كان قد كلفهم القيام على سقر فهم مزودون إذن من قبله سبحانه بالقوة المطلوبة لهذه المهمة كما يعلمها الله ، فلا مجال لقهرهم ، وهذا الأمر الغيبى كله من أمر الله ، ولماذا كانوا تسعة عشر أيا كان مدلول هذا العدد فهو أمر يعلمه الله الذى يخلق كل شىء بقدر ، والله يريد ويفعل ما يريد ، وهذا فصل الخطاب فى مثل هذه الأمور .

وهؤلاء سيجدون فى عدد حراس سقر ما يدعو بعضهم إلى اليقين ، ويدعوا البعض إلى ازدياد الإيمان ، فأما الذين أوتوا الكتاب فلابد أن لديهم شيئا عن هذه الحقيقة ، فإذا سمعوها من القرآن استيقنوا أنه مصدق لما بين يديهم عنه، وأما الذين آمنوا فكل قول من ربهم يزيدهم إيمانا؛ لأن قلوبهم مفتوحة موصولة تتلقى الحقائق تلقيا مباشرا ، وكل حقيقة ترد إليها من عند الله تزيدهم أنسا بالله ، وبينما أهل الكتاب يستيقنون والذين آمنوا يزيدون إيمانا ، إذا بالذين كفروا وضعاف القلوب المنافقون فى حيرة يتساءلون ما الحكمة فى ذكر هذا هنا ؟ والله يقول : من مثل هذا وأشباهه يتأكد الإيمان فى قلوب أقوام ، ويتزلزل عند آخرين ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة .

وجنود الله غيب ، حقيقة ووظيفتها وقدرتها وما يعلم الغيب إلا الله ، وما النار التى وصفت وهى من جنود ربك إلا للتنبيه والتحذير للبشر ، ثم يكون التعقيب بربط حقيقة الآخرة وحقيقة سقر ، وحقيقة جنود ربك بظواهر الوجود المشهودة فى هذا العالم ، والتى يمر عليها البشر غافلين ، ومشاهد القمر والليل حين يدبر ، والصبح حين يسفر مشاهد موحية بذاتها ، تقول للقلب البشرى أشياء كثيرة ، وتهمس فى أعماقه بأسرار كثيرة ، وقل أن يستيقظ قلب لمشهد القمر حين يطلع ، وحين يسرى ، وحين يغيب ثم لا يعى عن القمر شيئا يهمس له به من أسرار هذا الوجود ، وقل أن يستيقظ قلب لمشهد الليل عند إدباره ثم لا ينطبع فيه أثر من هذا المشهد ، وقل أن يستيقظ قلب لمشهد الصبح عند إصفاره وظهوره ، ثم لا تنبض فيه نابضة من إشراق وتفتح

يجعله أشد ما يكون صلاحية لاستقبال النور الذى يشرق فى الضمائر مع النور الذى يشرق فى النواظر .

يقسم الله بهذه الحقائق الكونية الكبيرة لتنبيه الغافلين لأقدارها العظيمة ودلالاتها المثيرة ، يقسم على أن سقر أو الجنود التى عليها ، أو الآخرة وما فيها إحدى الأمور الكبيرة العجيبة المنذرة للبشر بما وراءهم من خطر ، وفى ظل هذه الإيقاعات المثيرة الخطيرة يعلن تبعة كل نفس لذاتها وعلى ذاتها ، ويدع للنفوس أن تختار طريقها ومصيرها، ويعلن لها أنها مأخوذة بما تكسبه باختيارها ، مرهونة بأعمالها وأوزارها ، فكل فرد يحمل همّ نفسه وتبعتها ، ويضع نفسه حيث شاء أن يضعها يتقدم بها أو يتأخر ، ويكرمها أو يهينها فهى رهينة بما تكسب ، مقيدة بما تفعل ، وقد بين الله للنفوس طريقة لتسلك إليه على بصيرة ، وهو إعلان فى مواجهة المشاهد الكونية الموحية ، ومشاهد سقر التى لا تبقى ولا تذر ، له وقعه وله قيمته .

وعلى مشهد النفوس الرهينة بما كسبت ، المقيدة بما فعلت ، يعلن إطلاق أصحاب اليمين من العقال،وإرسالهم من القيد،وتخويلهم حق السؤال للمجرمين عما انتهى بهم إلى هذا المصير، وانطلاق أصحاب اليمين وانفلاتهم من الرهن والقيد موكول إلى فضل الله الذى يبارك حسناتهم ويضاعفها ، وإعلان ذلك فى هذا الموقف وعرضه يلمس القلوب لمسة مؤثرة ، يلمس قلوب المجرمين المكذبين وهم يرون أنفسهم فى هذا الموقف المهين الذى يعترفون فيه فيطيلون الاعتراف.

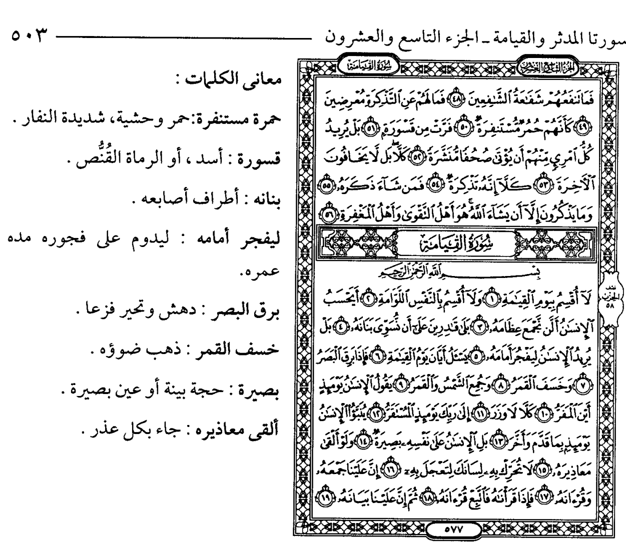
بينما المؤمنون الذين كانوا لا يحفلونهم فى الدنيا ولا يبالونهم فى موقف الكرامة والاستعلاء ، يسألونهم سؤال صاحب الشأن المعوض فى الموقف ما الذى أدخلكم فى سقر ، ويأتى الاعتراف بعدم إقامتهم الصلاة إشارة إلى أهمية الصلاة فى كيان العقيدة ، ولم يكن منهم إحسان للمسكين والفقير ، وكانوا فى حالة استهتار بأمر العقيدة ، وحقيقة الإيمان وأخذها مأخذ الهزل واللعب، والخوض بلا مبالاة ، وأنهم ظلوا يكذبون بيوم الدين حتى أتاهم الموت يقطع كل شك ، ولا يترك مجالا لندم ولا توبة ولا عمل صالح .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الكبر والحسد من الصفات الذميمة التى تعرض بصاحبها عن الحق وعلينا التخلص منها.

٢ ـ من أهم الأسباب التى تؤدى إلى دخول النار : ترك الصلاة وعدم المحافظة عليها ، والبخل والتحدث بالباطل وعلينا مقاومتها .

٣ ـ هلاك الإنسان وخسارته فى نسيانه الآخرة .



الجزء التاسع والعشرون — سورة القيامة

فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴿٤٨﴾ فما لهم عن التذكرة معرضين ﴿٤٩﴾ كأنهم حمر مستنفرة ﴿٥٠﴾ فرت من قسورة ﴿٥١﴾ بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفا منشرة ﴿٥٢﴾ كلا بل لا يخافون الآخرة ﴿٥٣﴾ كلا إنه تذكرة ﴿٥٤﴾ فمن شاء ذكره ﴿٥٥﴾ وما يذكرون إلا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة ﴿٥٦﴾

سورة القيامة

بسم الله الرحمن الرحيم

لا أقسم بيوم القيامة ﴿١﴾ ولا أقسم بالنفس اللوامة ﴿٢﴾ أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه ﴿٣﴾ بلى قادرين على أن نسوي بنانه ﴿٤﴾ بل يريد الإنسان ليفجر أمامه ﴿٥﴾ يسأل أيان يوم القيامة ﴿٦﴾ فإذا برق البصر ﴿٧﴾ وخسف القمر ﴿٨﴾ وجمع الشمس والقمر ﴿٩﴾ يقول الإنسان يومئذ أين المفر ﴿١٠﴾ كلا لا وزر ﴿١١﴾ إلى ربك يومئذ المستقر ﴿١٢﴾ ينبؤا الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ﴿١٣﴾ بل الإنسان على نفسه بصيرة ﴿١٤﴾ ولو ألقى معاذيره ﴿١٥﴾ لا تحرك به لسانك لتعجل به ﴿١٦﴾ إن علينا جمعه وقرآنه ﴿١٧﴾ فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ﴿١٨﴾ ثم إن علينا بيانه ﴿١٩﴾

الحزب ٥٨

٥٧٧

معانى الكلمات :

حمرة مستنفرة: حمر وحشية، شديدة النفار .

قسورة : أسد ، أو الرماة القُنَّص .

بنانه : أطراف أصابعه .

ليفجر أمامه : ليدوم على فجوره مده عمره.

برق البصر : دهش وتحير فزعا .

خسف القمر : ذهب ضوؤه .

بصيرة : حجة بينة أو عين بصيرة .

ألقى معاذيره : جاء بكل عذر .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن الله وحده عالم الغيب، فلا أحد يعلم جنوده، وأعداد ملائكته وقوتهم إلا هو.

٢ ـ أن نتعرف على طرف من علامات القيامة .

٣ ـ أن نعلم أن الإنسان مسؤول عما وقع منه ، ولن تقبل الأعذار يوم الحساب .

المحتوى التربوى :

يعقب السياق على الموقف السيئ المهين بقطع كل أمل فى تعديل هذا المصير ، فقد قضى الأمر وحق القول ، وتقرر المصير الذى يليق بالمجرمين المعترفين ، وليس هناك من يشفع للمجرمين أصلا ، وحتى على فرض مالا وجود له فما تنفعهم شفاعة الشافعين ، ويعود بهم السياق إلى ما كانوا عليه فى الدنيا ويرسم لهم صورة مضحكة تثير السخرية والعجب من أمرهم الغريب ، فمشهد حمر الوحش وهى مستنفرة تفر فى كل اتجاه ، حين تسمع زئير الأسد وتخشاه ، وهو مشهد تعرفه العرب ، مضحك أشد الضحك حين يشبه به الآدميون ، حين يخافون كانوا إنما ينفرون هذا النفار الذى يتحولون من آدميين إلى حمر لا لأنهم خائفون مهددون ، بل لأن مذكرا يذكرهم بربهم وبمصيرهم .

تلك هيئتهم الخارجية ، ثم لا يدعهم حتى يرسم نفوسهم من الداخل ، فالحسد للنبى ﷺ أن يختاره الله ويوحى إليه ، والرغبة الملحة أن ينال كل منهم هذه المنزلة ، وأن يوفى صحفا تنشر على الناس وتعلن ، وعدم خوفهم من الآخرة هو الذى ينأى بهم عن التذكرة ، وينفرهم من الدعوة هذه النفرة ، ولو استشعرت قلوبهم حقيقة الآخرة لكان لهم شأن غير هذا الشأن المريب ، ثم يردعهم مرة أخرى وهو يلقى إليهم بالكلمة الأخيرة ، ويدعهم لما يختارون لأنفسهم من طريق ومصير ، وهذا القرآن الذى يعرضون عن سماعه ، وينفرون كالحمر ، وهم يضمرون فى أنفسهم الحسد لمحمد ﷺ والاستهتار بالآخرة ، إنه تذكرة تنبه وتذكر ، فمن شاء فليذكر ، ومن لم يشأ فهو وشأنه .

وبعد أن يبيت مشيئتهم فى اختيار الطريق يعقب بطلاقة المشيئة الإلهية ، فكل ما يقع فى هذا الوجود ، مشدود إلى المشيئة الكبرى يمضى فى اتجاهها وفى داخل مجالها ، والذكر توفيق من الله ييسره لمن يعلم من حقيقة نفسه أنه يستحق التوفيق ، والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء ، فإذا علم من العبد صدق النية وجهه إلى الطاعات ،و العبد لا يعرف ماذا يشاء الله به ، ولكنه يعرف ماذا يريد الله منه ، فهذا مما بينه له ، فإذا صدقت نيته فى النهوض بما كلف أعانه الله ووجهه وفق مشيئته الطليقة ، وهم لا يصادمون بمشيئتهم مشيئة الله ، ولا يتحركون فى اتجاه ؛ إلا بإرادة من الله ، تقدرهم على الحركة والاتجاه ، والله هو أهل أن يخاف منه ، وهو أهل أن يغفر ذنب من تاب إليه وأناب .

سورة القيامة

تبدأ السورة بقسمين لا تجيب عليهما ؛ لأن الجواب مفهوم من سياق السورة ، وهذا التلويح بالقسم مع العدول عنه أوقع فى الحس من القسم المباشر ، وحقيقة القيامة سيرد عنها الكثير فى مواضعه فى السورة ، وأما النفس اللوامة فهى نفس المؤمن ، فعن الحسن البصرى : إن المؤمن والله ما تراه إلا يلوم نفسه: ماذا أردت بكلمتى؟ ماذا أردت بأكلتى؟ ماذا أردت بحديث نفسى ؟ وإن الفاجر يمضى قدما ما يعاقب نفسه .

وقد كانت المشكلة الشعورية عند المشركين هى صعوبة تصورهم لجمع العظام البالية الذاهبة فى التراب لإعادة بعث الإنسان حيا ، والقرآن يرد على هذا الحسبان بعدم جمع العظام مؤكداً وقوعه والنص يؤكد عملية جمع العظام بما هو أرقى من مجرد جمعها وهو تسوية البنان وتركيبه فى موضعه كما كان ، وهى كناية عن إعادة التكوين الإنسانى بأدق ما فيه ، ويكشف عن العلة النفسية فى هذا الحسبان ، وتوقع عدم جمع العظام ، فهذا الإنسان يريد أن يفجر ويمضى قدما فى الفجور ، ولا يريد أن يصده شىء عن فجوره ، ولا أن يكون هناك حساب عليه وعقاب ، ومن ثم فهو يستبعد وقوع البعث ، ويستبعد مجىء يوم القيامة .

ومن ثم كان الجواب على التهكم بيوم القيامة واستبعاد موعدها سريعا خاطفا حاسما ليس فيه تريث ولا إبطاء ، وكان مشهداً من مشاهد القيامة تشترك فيه الحواس والمشاعر الإنسانية ، والمشاهد الكونية ؛ فالبصر يخطف ويتقلب سريعا سريعا تقلب البرق وخطفه ، والقمر يخسف ويطمس نوره ، والشمس تقترن بالقمر بعد افتراق ويختل نظامها الفلكى المعهود ، وفى وسط هذا الذعر والانقلاب يتساءل الإنسان المرعوب : أين المفر ؟ ويبدو فى سؤاله الارتياع والفزع ، وكأنما ينظر فى كل اتجاه ، فإذا هو مسدود دونه مأخوذ عليه ، ولا ملجأ ولا وقاية ولا مفر من قهر الله وأخذه، والرجعة إليه ، والمستقر عنده ولا مستقر غيره .

وما كان يرغب فيه الإنسان من المضى فى الفجور بلا حساب ولا جزاء لن يكون يومئذ ، بل سيكون كل ما كسبه محسوبا وسيذكر به إن كان نسيه ويؤخذ به بعد أن يذكره ويراه حاضراً بما قدمه من عمل قبل وفاته ، وبما أخره وراءه من آثار هذا العمل خيراً كان أو شراً ، فمن الأعمال ما يخلف وراءه آثاراً تضاف لصاحبها فى ختام الحساب ، ومهما اعتذر الإنسان بشتى المعاذير عما وقع منه ، فلن يقبل منها عذر ؛ لأن نفسه موكولة إليه ، وهو موكل بها ، وعليه أن يهديها إلى الخير ويقودها ، فإذا انتهى بها إلى الشر فهو مكلف بها وحجة عليها ، وكذلك عملية الحساب يخبر الإنسان بجميع أعماله قديمها وحديثها ، أولها وآخرها ، صغيرها وكبيرها .

ثم تجىء الآيات الأربع الخاصة بتوجيه الرسول ﷺ فى شأن الوحى وتلقى هذا القرآن إذا كان الرسول ﷺ يخاف أن ينسى شيئا ما يوحى إليه ، فكان حرصه على التعوذ من النسيان يدفعه إلى استذكار الوحى فقرة فقرة فى أثناء تلقيه ، وتحريك لسانه به ، ليستوثق من حفظه ، فجاءه هذا التعليم ليطمئنه إلى أن أمر هذا الوحى وحفظ هذا القرآن وجمعه وبيان مقاصده كل أولئك موكول إلى صاحبه ودوره هو ، هو التلقى والبلاغ ، فليطمئن بالا وليتلق الوحى كاملا فيجده فى صدره منقوشا ثابتا ، والإيحاء الذى تتركه فى النفس هو تكفل الله المطلق بشأن هذا القرآن . وحيا وحفظا وجمعا وبيانا ، وإسناده إليه سبحانه وتعالى بكليته ، ليس للرسول ﷺ من أمره إلا حمله وتبليغه .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الذكر توفيق من الله ييسره لمن يعلم من حقيقة نفسه أنه يستحق التوفيق .

٢ ـ القيامة حق ، وعندما تقوم سيصاب الناس بشدة الفزع ، بل يكون الإنسان على نفسها شاهداً .

٣ ـ على الإنسان أن يهدى نفسه إلى الخير ويقودها ، فإذا انتهى بها إلى الشر فهو مكلف بها وحجة عليها .


الجزء التاسع والعشرون | سورة القيامة

كلا بل تحبون العاجلة (٢٠) وتذرون الآخرة (٢١) وجوه يومئذ ناضرة (٢٢)
إلى ربها ناظرة (٢٣) ووجوه يومئذ باسرة (٢٤) تظن أن يفعل بها فاقرة (٢٥)
كلا إذا بلغت التراقي (٢٦) وقيل من راق (٢٧) وظن أنه الفراق (٢٨) والتفت
الساق بالساق (٢٩) إلى ربك يومئذ المساق (٣٠) فلا صدق ولا صلى
(٣١) ولكن كذب وتولى (٣٢) ثم ذهب إلى أهله يتمطى (٣٣) أولى لك
فأولى (٣٤) ثم أولى لك فأولى (٣٥) أيحسب الإنسان أن يترك سدى (٣٦)
ألم يك نطفة من مني يمنى (٣٧) ثم كان علقة فخلق فسوى (٣٨) فجعل منه
الزوجين الذكر والأنثى (٣٩) أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى (٤٠)

سورة الإنسان

بسم الله الرحمن الرحيم

هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا (١)
إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا
بصيرا (٢) إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا (٣)
إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا (٤) إن
الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا (٥)

٥٧٨

معانى الكلمات :

ناضرة : حسنة مشرقة متهللة .

باسرة : كالحة عابسة .

فاقرة : داهية تقسم فقار الظهر .

التراقى : أعالى الصدر .

التفت : التصقت .

أمشاج : أخلاط ممتزجة متباينة الصفات .

نبتليه : نختبره .

مزاجها : ما تمزج الكأس به وتخلط .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نستشعر حالة الإنسان قرب الموت فى ساعات الاحتضار .

٢ ـ أن نعلم أن تقديرالله فى نشأة الإنسان على أساس الابتلاء .

٣ ـ أن نعلم عاقبة الكفر ، وسوء مصير الكافر .

المحتوى التربوى :

يمضى السياق فى عرض مشاهد القيامة ، وما يكون فيها من شأن النفس اللوامة ، فيذكرهم بحقيقة نفوس وما يعتلج فيها من حب للدنيا وانشغال ، ومن إهمال للآخرة وقلة احتفال ، ويواجههم بموقفهم فى الآخرة بعد هذا وما ينتهى إليه حالهم فيها ، وأول ما يلحظ تسمية الدنيا بالعاجلة فضلا عن إيحاء اللفظ بقصر هذه الحياة وسرعة انقضائها ، ويشير النص إلى حالة تعجز الكلمات عن تصويرها كما يعجز الإدراك عن تصورها بكل حقيقتها ، ذلك حين بعد الموعودين السعداء بحالة من السعادة لا تشبها حالة ، حتى لتتضاءل إلى جوارها الجنة بكل ما فيها من ألوان النعيم .

هذه الوجوه الناضرة ، نضرها أنها إلى ربها ناظرة ، إلى ربها ! فأى مستوى من الرفعة هذا ؟ أى مستوى من السعادة ؟ إن روح الإنسان لتستمتع أحيانا بلمحة من جمال الإبداع الإلهى فى الكون أو النفس ، تراها فى الليلة القمراء أو الليل الساجى أو الفجر الوليد ، أو الظل المديد ، أو الإيمان الواثق ، أو الصبر الجميل ؛ فتغمرها النشوة ، وتفيض بالسعادة ، وترف بأجنحة من نور فى عوالم مجنحة طليقة ، وتتوارى عنها أشواك الحياة ، وما فيها من ألم وقبح ، وصراع شهوات وأهواء ، فكيف ؟ كيف بها وهى تنظره لا إلى جمال صنع الله ، ولكن إلى جمال ذات الله ؟ ألا إنه مقام يحتاج أولًا إلى مدد من الله ، ويحتاج ثانيا إلى تثبيت من الله ؛ ليملك الإنسان نفسه فيثبت ليستمتع بالسعادة التى لا يحيط بها وصف ولا يتصور حقيقتها إدراك ؛ والوجوه حسنة بهية مشرقة مسرورة وهى إلى جمال ربها تنظر .

أما وجوه الفجار فهى وجوه كالحة متقبضة تعيسة ، محجوبة عن النظر والتطلع بخطاياها وانطماسها ، وهى التى يشغلها ويجزئها ويخلع عليها الكلوحة توقعها أن تحل بها الكارثة القاصمة للظهر المحطمة للفقار ، ويذكر السياق مشهد الموت ، الموت الذى ينتهى إليه كل حى ، والذى لا يدفعه عن نفسه ولا عن غيره حى ، الموت الذى يفرق الأحبة ويمضى هى طريقه لا يتوقف ، ولا يتلفت لصرخة ملهوف ، ولا لحسرة مفارق ، ولا لرغبة راغب ولا لخوف خائف ، وحين تبلغ الروح التراقى يكون النزع الأخير ، وتلوى المكروب من السكرات والنزع ، ويتلفت الحاضرون حول المحتضر يتلمسون حيلة أو وسيلة لاستنفاذ الروح المركوب ، وقيل : هل من راق يرقى ، أو طبيب يشفى ؟ وتعجز كل وسيلة ، ويتبين الطريق الواحد الذى يساق إليه كل حى فى نهاية المطاف وأن إلى ربك المرجع والمآب .

وفى مواجهة المشهد المكروب يأتى الإخبار عن الكافر الذى كان فى الدار الدنيا مكذبا للحق بقلبه ، متوليا عن العمل بقالبه ، فلا خير فيه باطنا ولا ظاهراً ، ولا همة له ولا عمل ، ويتفنن فى الصد عن سبيل الله ، والأذى للدعاة ، ويمكر مكر السيئ ، ويتولى وهو فخور بها أوقع من الشر والسوء ، وبها أفسد فى الأرض ، وبها صد عن سبيل الله ، ويأتى التهديد والوعيد الأكيد من الله ـ تعالى ـ للكافر به المبختر فى مشية ، أى يحق لك أن تمشى هكذا وقد كفرت بخالقك وبارئك، وهذا على سبيل التهكم والتهديد ، والإنسان ليس يترك فى هذه الدنيا مهملا لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يترك فى قبره سدى لا يبعث ، بل هو مأمور منهى فى الدنيا ، محشور إلى الله فى الدار الآخرة، وفى غير تعقيد ولا غموض يأتى بالدلائل الواقعة البسيطة التى تشهد بأن الإنسان لن يترك سدى ، إنها دلائل نشأته الأولى ؛ فما هذاالإنسان ؟ مم خلق ؟ وكيف كان ؟ وكيف صار ؟ وكيف قطع رحلته الكبيرة حتى جاء إلى هذا الكوكب ؟ فما كان الإنسان إلا نطفة ضعيفة من ماء مهين يراق فى الأرحام فصار علقة ، ثم مضغة ، ثم شكل ونفخ فيه الروح فصار خلقا سويا سليم الأعضاء ذكرًا أو أنثى بإذن الله وتقديره ، والذى قدر هذا الخلق السوى من نطفة ضعيفة أليس بقادر على أن يعيده كما بدأه ؟! سبحانك ، فبلى .

سورة الإنسان

تبدأ السورة بالتذكير بنشأة الإنسان وتقديرهم هذه النشأة على أساس الابتلاء ، ويأتى الاستفهام فى بداية السورة للتقرير ، وورده فى هذه الصيغة كأنها ليسأل الإنسان نفسه : ألا يعرف أنه أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئا مذكوراً ؟ ثم ألا يتدبر هذه الحقيقة ويتملاها ويستشعر القدرة التى جعلته شيئا مذكورا بعد أن لم يكن شيئا مذكوراً ؟ والإنسان خلقته يد القدرة من نطفة مخلطة من وراثات شتى لا عبثا ، ولا جزافا ، ولا تسلية ، ولكنه خلق ليبتلى ويمتحن ويختبر ، ومن ثم جعله الله سمعيا بصيراً ، وزوده بوسائل الإدراك ليستطيع التلقى والاستجابة ، وليدرك الأشياء والقيم ويحكم عليها ويختار الابتلاء وفق ما يختار . ثم زوده إلى جانب المعرفة بالقدرة على اختيار الطريق، وبين له الطريق الواصل ، ثم تركه ليختاره ، أو ليضل ويشرد فيما وراءه من طرق لا تؤدى إلى الله ، وعبر عن الهدى بالشكر ؛ لأن الشكر أقرب خاطر يرد على قلب المهتدى فإذا لم يشكر فهو الكفور .

يقول صاحب الظلال : « ويشعر الإنسان بجدية الأمر ودقته بعد هذه اللمسات الثلاث ، ويدرك أنه مخلوق لغاية ، وأنه مشدود إلى محور ، وأنه مزود بالمعرفة فحاسب عليها ، وأنه هنا ليبتلى ويجتاز الابتلاء ، فهو فى فترة امتحان يقضيها على الأرض ، لا فى فترة لعب ولهو وإهمال ، ويخرج من هذه الآيات الثلاث القصار بذلك الرصيد من التأملات الرقيقة العميقة ، كما يخرج منها مثقل الظهر بالتبعية والجد والوقار فى تصور هذه الحياة ، وفى الشعور بما وراءها من نتائج الابتلاء ، وتغير هذه الآيات القصار من نظرية إلى غاية وجوده ، ومن شعوره بحقيقة وجوده ، ومن أخذه للحياة وقيمها بوجه عام » .

ومن ثم يأخذ فى عرض ما ينتظر الإنسان بعد الابتلاء ، واختياره طريق الشكر ، أو طريق الكفران ، فأما ينتظر الكافرين ، فيجمله إجمالا ، فلهم السلاسل والأغلال والسعير ؛ سلاسل للأقدام ، وأغلال للأيدى ، ونار تتسعر يلقى فيها بالمسلسلين المغلولين ، ثم يسارع السياق إلى رخاء النعيم ، فشراب الأبرار فى الجنة ممزوج بالكافور ، يشربونه فى كأس تغترف من عين تفجر لهم تفجيراً فى كثرة ووفرة ، وقد علم ما فى الكافور من التبريد والرائحة الطيبة، مع ما يضاف إلى ذلك من اللذاذة والنعيم فى الجنة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الموت حقيقة تواجه كل حى ، فعلينا الاستعداد وبالعمل الصالح لهذا اليوم .

٢ ـ الكبر والخيلاء والتبختر فى المشى من الأمور التى يحذر منها الإسلام .

٣ ـ الإنسان له إرادة واختيار يستطيع بهما أن يسير فى طريق الخير أو فى طريق الشر ، فليجاهد فى طريق الخير .

الجزء التاسع والعشرون — سورة الإنسان

عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا ﴿٦﴾ يوفون بالنذر ويخافون
يوما كان شره مستطيرا ﴿٧﴾ ويطعمون الطعام على حبه مسكينا
ويتيما وأسيرا ﴿٨﴾ إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا
﴿٩﴾ إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا ﴿١٠﴾ فوقاهم الله شر ذلك
اليوم ولقاهم نضرة وسرورا ﴿١١﴾ وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا
﴿١٢﴾ متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا ﴿١٣﴾
ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا ﴿١٤﴾ ويطاف عليهم بآنية
من فضة وأكواب كانت قواريرا ﴿١٥﴾ قواريرا من فضة قدروها تقديرا ﴿١٦﴾
ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا ﴿١٧﴾ عينا فيها تسمى سلسبيلا
﴿١٨﴾ ۞ ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا
﴿١٩﴾ وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا ﴿٢٠﴾ عاليهم ثياب سندس
خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا
طهورا ﴿٢١﴾ إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا ﴿٢٢﴾ إنا
نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا ﴿٢٣﴾ فاصبر لحكم ربك ولا تطع
منهم آثما أو كفورا ﴿٢٤﴾ واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا ﴿٢٥﴾

علامة ربع الحزب ٥٨

٥٧٩

معانى الكلمات :

يفجرونها : يجرونها حيث شاؤوا .

مستطيرا : فاشيا منتشرا .

قمطريرا : شديد العبوس .

نضرة : بهجة فى الوجوه .

الأرائك : أسرة مزينة .

زمهريرا : برداً شديداً أو قمرا .

ذللت قطوفها : قربت ثمارها لمن يتبادلها .

قوارير : شفافة صافية .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على شىء من نعيم الجنة .

٢ ـ أن نعلم صفات الأبرار الذين ينالون نعيم الله ـ عز وجل .

٣ ـ أن نتعلم الولاء والبراء كيف يكون .

المحتوى التربوى :

تذكر الآيات أن الذى مزج لهؤلاء الأبرار من الكافور هو عين يشرب بها المقربون من عباد الله صرفا بلا مزج ويَرْوَنَ بها ، ويتصرفون فى هذه العين حيث شاؤوا وأين شاؤوا من قصورهم ودورهم ومجالسهم ومحالهم ، ثم يعرف بهؤلاء الأبرار عباد الله الذين قسم لهم هذا المتاع ؛ فهم يفعلون ما اعتزموا من الطاعات ، وما التزموا من الواجبات ، فهم يأخذون الأمر جداً خالصا لا يحاولون التفلت من تبعاته ، ولا التخلى عنه بعد اعتزامه ، وهم يدركون صفة هذا اليوم ، فيخافون أن ينالهم شىء من شره ، وهذه سمة الانقياد ، ومثل هذه القلوب لا يقال عنها : أنها تحب الطعام الذى تطعمه للضعاف المحاويج على اختلاف أنواعهم إلا أن تكون فى حاجة إلى هذا الطعام ، ولكنها تؤثر به المحاويج ، مع الاحتفاظ بحساسية القلوب ، وحيوية العاطفة ،

والرغبة فى الخير ابتغاء وجه الله ، والتجرد عن البواعث الأرضية من جزاء ، أو شكر ، أو نفع من منافع الحياة .

ويعجل السياق بذكر وقايتهم من شر ذلك اليوم الذى كانوا يخافونه ؛ ليطمئنهم فى الدنيا وهم يتلقون هذا القرآن ويصدقونه ، ويذكر أنهم تلقوا من الله نضرة وسرورا جزاء وفاقا على خشيتهم وخوفهم ، وعلى نداوة قلوبهم ونضرة مشاعرهم ، ثم يمضى بعد ذلك فى وصف مناعم الجنة التى وجدوها ، فالجنة يسكنونها والحرير يلبسونه ، وهم فى جلسة مريحة مطمئنة والجو حولهم رخاء ناعم دافئ فى غير حر ، ندى فى غير برد ، فلا شمس ولا زمهرير ، وإذا دنت الظلال ودنت القطوف فهى الراحة والاسترواح على أمتع ما يمتد الله الخيال .

وتأتى تفصيلات المناعم والخدمات ؛ فهم فى متاعهم ، متكئين على الأرائك بين الظلال الوارفة والقطوف الذاتية ، والجو الرائق ، يطاف عليهم بأشربة فى آنية من فضة وفى أكواب من فضة ، وهى مع هذا شفافة يرى ما فى باطنها من ظاهرها مما لم تعهده الأرض فى آنية الفضة ، وهى بأحجام مقدرة تقديراً يحق المتاع والجمال، ثم هى تمزج بالزنجبيل كما مزجت مرة بالكافور، وهى كذلك تملأ من عين جارية سلسبيلا ؛ لشدة عذوبتها واستساغتها لدى الشاربين ، وزيادة فى المتاع ، فإن الذين يطوفون بهذه الأوانى والأكواب بالشراب هم غلمان صباح الوجوه ، لايفعل فيهم الزمن ، ولا تدركهم السن ، فهم مخلدون فى سن الصباحة والصبا والوضاءة ، وهم هنا وهناك كاللؤلؤ المنثور .

ثم يجمل السياق ما فيه الأبرار ؛ فالنعيم والملك الكبير هو الذى يعيش فيه الأبرار المقربون عباد الله هؤلاء على وجه الإجمال والعموم ، ثم يخصص مظهراً من مظاهر النعيم والملك الكبير كأنه تعليل لهذا الوصف وتفسير،والسندس : الحرير الرقيق والإستبرق : الحرير السميك المبطن، وهم فى هذه الزينة وهذا المتاع يتلقونه كله من ربهم ، فهو عطاء كريم من معط كريم ، وهذه تضاف إلى قيمة ذلك النعيم ، ثم يتلقون عليه الود والتكريم ، يتلقون هذا النطق من الملأ الأعلى ، وهو يعدل هذه المناعم كلها ، ويمنحها قيمة أخرى فوق قيمتها ، فيقال لهم أن هذا كان جزاؤكم وكان عملكم مقبولا تشكرون عليه .

وبعد هذا الهتاف إلى الجنة ونعيمها الهنىء الرغيد ، يعالج حالة المشركين المصرين على العناد والتكذيب ، الذين لا يدركون حقيقة الدعوة ، فيساومون عليها الرسول ﷺ لعله يكف عنها ، أو عما يؤذيهم منها ويجىء السياق يعالج هذا الموقف بطريقة القرآن ، فيقول الله سبحانه ممتنا على رسوله ﷺ : كما أكرمك الله بما أنزل عليك ، فاصبر على قضائه وقدره ، واعلم أنه سيدبرك بحسن تدبيره ، ولا تطع الكافرين والمنافقين إن أرادوا صدك عما أنزل إليك ، بل بلغ ما أنزل إليك من ربك ، والآثم هو الفاجر فى أفعاله ، والكافور هو الكافر قلبه ، ويدله ـ سبحانه ـ على

الزاد وهو ذكر الله ، الاتصال بالمصدر الذى عليه القرآن وكلفه الدعوة ، وهو ينبوع القوة ومصدر الزاد والمرد ، فيأمر بالذكر فى الصباح والمساء .

يقول صاحب الظلال : « لقد كان رسول الله ﷺ يواجه المشركين بالدعوة إلى الله وحده ، وهو لم يكن يواجه فى نفوسهم مجرد عقيدة ، ولو كان الأمر كذلك لكان أيسر كثيراً ، فإن عقيدة الشرك المهلهلة التى كانوا عليها لم تكن من القوة والثبات بحيث يصمدون بها هكذا لعقيدة الإسلام القوية الواضحة البسيطة ، إنما كانت الملابسات التى تحيط بالعقيدة وبالموقف هى التى تقود إلى تلك المعارضة العنيدة، التى شهدت بها الروايات التاريخية، وحكاها القرآن فى مواضع منه شتى؛ كانت المكانة الاجتماعية ، والاعتزاز بالقيم السائدة فى البيئة ، وما يتلبس بها كذلك من مصالح مادية ، هى العنصر الأول الذى يقود إلى التشبث بالعقيدة الواهية الظاهرة البطلان ، فى وجه العقيدة القوية الظاهرة الاستقامة ، ثم كانت صور الحياة الجاهلية ومتاعها ولذائذها وشهواتها إلى جانب ذلك تزيد المقاومة والعناد والتأبى على العقيدة الجديدة وما فيها من اتجاهات أخلاقية وقيم رفيعة ، لا تسمح بانطلاق الغرائز والشهوات ولا بالحياة العاتية الماضية المطلقة من كوابح الأخلاق .

وهذه الأسباب ... كانت قائمة فى وجه الدعوة الأولى ، وهى قائمة فى وجه الدعوة فى كل أرض ، وفى كل جيل ، وهى تمثل العناصر الثابتة فى معركة العقيدة التى تجعلها معركة عنيدة لا تنتهى من قريب ، وتجعل مشاقها وتكاليفها والثبات عليها من أعسر التكاليف ، ومن ثم ينبغى للدعاة إلى دين الله فى أى أرض ، وفى أى زمان أن يعيشوا طويلاً فى الحقيقة الكبيرة الكامنة فى تلك الآيات ، وملابسات نزولها على الرسول ﷺ فهى ملابسات معركة واحدة يخوضها كل صاحب دعوة إلى الله فى أى أرض وفى أى زمان » .

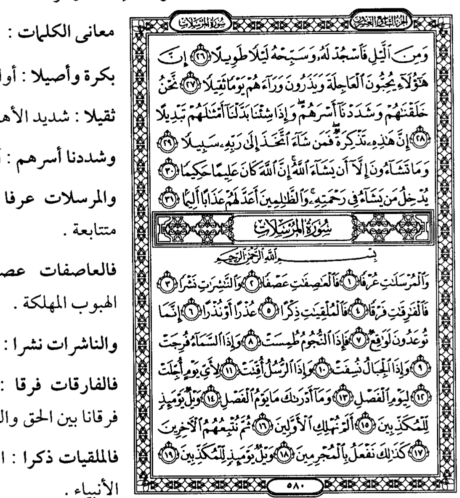
ويؤمر صاحب الدعوة بالصبر فلا لقاء بينه وبين الكافرين ، ولا يمكن أن تقام قنطرة للعبور عليها فوق الهوة الواسعة التى تفصل منهجه عن منهجهم ، وتصوره للوجود كله عن تصورهم ، وحقه عن باطلهم ، وإيمانه عن كفرهم ، ونوره عن ظلماتهم ، ومعرفته بالحق عن جاهليتهم ، فليصبر ولو طال الأمد ، واشتدت الفتنة ، وقوى الإغراء ، وامتد الطريق ، ولكن الصبر شاق ، ولابد من الزاد والمد والمعين ، وهذا هو الزاد ، اذكر اسم ربك فى الصباح والمساء .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ فعل الطاعات والتزام الواجبات من صفات المؤمنين .

٢ ـ الخوف مما يقع فى القيامة من شر وهول مفزع أمر واجب على كل مسلم حتى ينتفع بإيمانه.

٣ ـ الصبر وذكر الله كثيراً وسيلة الثبات والصمود فى مواجهة شدائد الحياة وعقبات الدعوة .



معانى الكلمات :

بكرة وأصيلا : أول النهار وآخره .

ثقيلا : شديد الأهوال .

وشددنا أسرهم : أحكمنا خلقهم .

والمرسلات عرفا : قسم برياح العذاب متتابعة .

فالعاصفات عصفا : الرياح الشديدة الهبوب المهلكة .

والناشرات نشرا : الملائكة تنشر أجنحتها .

فالفارقات فرقا : الملائكة تأتى بالوحى فرقانا بين الحق والباطل .

فالملقيات ذكرا : الملائكة تلقى الوحى إلى الأنبياء .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نستشعر قدرة الله المحيطة ، وإرادة الله الطليقة .

٢ ـ أن نعلم بعض ما يقع فى يوم الفصل .

٣ ـ أن نتعرف على مصارع الغابرين وما تشير إليه من سنن الله فى المكذبين .

المحتوى التربوى :

يمضى السياق فيذكر الاتصال بالله ذكراً وعبادة ودعاء وتسبيحا ليلا طويلا،فالطريق طويل، والعبء ثقيل ولابد من الزاد الكثير والمدد الكبير ، وهو هناك حيث يلتقى العبد بربه فى خلوة وفى نجاء ، وفى تطلع وفى أنس تفيض منه الراحة على التعب والضنى ، وتفيض منه القوة على الضعف والقلة ، وحيث تنفض الروح عنها صغائر المشاعر والشواغل ، وترى عظمة التكليف ، وضخامة الأمانة فتستصغر ما لاقت ، وما تلاقى من أشواك الطريق ، والله رحيم كلف عبده الدعوة ونزل عليه القرآن ، وعرف متاعب العبء ، فلم يدع نبيه ﷺ بلا عون أو مدد .

يقول صاحب الظلال : « الحقيقة التى ينبغى أن يعيش فيها أصحاب الدعوة إلى الله هى هذه الحقيقة التى لقنها الله لصاحب الدعوة الأولى ﷺ ؛ هى أن التكليف بهذه الدعوة تنزل من عند

الله فهو صاحبها ، وأن الحق الذى تنزلت به لا يمكن مزجه بالباطل الذى يدعو إليه الآثمون الكفار ، فلا سبيل إلى التعاون بين حقها وباطلهم ، أو الالتقاء فى منتصف الطريق بين القائم على الحق والقائمين على الباطل ، فهما نهجان مختلفان ، وطريقان لا يلتقيان ، فأما حين يغلب الباطل بقوته وجمعه على قلة المؤمنين وضعفهم لحكمة يراها الله ، فالصبر حتى يأتى الله بحكمه ، والاستمداد من الله والاستعانة بالدعاء والتسبيح ليلا طويلا : هى الزاد المضمون لهذا الطريق ، إنها حقيقة كبرى لابد أن يدركها ويعيش فيها رواد هذا الطريق » .

ثم يمضى السياق فى توكيد الافتراق بين منهج الرسول ﷺ ومنهج الجاهلية ، بما يقرره من غفلتهم عن رؤية الخير لأنفسهم ، ومن تفاهة اهتماماتهم ، وصغر تصوراتهم ، فهؤلاء القريبى المطامح والاهتمامات ، الصغار المطالب والتصورات ، هؤلاء الصغار الزهيدين الذين يستغرقون فى العاجلة ، ويذرون وراءهم يوما ثقيلا ، ثقيلا بتبعاته ، ثقيلا بنتائجه ، ثقيلا بوزنه فى ميزان الحقيقة ، إن هؤلاء لا يطاعون فى شىء ولا يتبعون فى طريق ، ولا يلتقون مع المؤمنين فى هدف ولا غاية ، وتوحى الآية بغفلتهم عن رؤية الخير لأنفسهم ، فهم يختارون العاجلة ، ويذرون اليوم الثقيل الذى ينتظرهم هناك بالسلاسل والأغلال والسعير بعد الحساب العسير .

يتلو ذلك التهوين من أمرهم عند الله الذى أعطاهم ماهم فيه من قوة وبأس ، وهو قادر على الذهاب بهم وتبديل غيرهم منهم ،و لكنه يتركهم لحكمة يجرى بها قدره القديم ، وهذه اللفتة تذكر هؤلاء الذين يعتزون بقوتهم بمصدر القوة ، بل مصدر وجودهم ابتداء ، وتطمئن المؤمنين الضعف إلى أن هو واهب القوة هو الذى ينتسبون إليه ، وإذا شاء أتى بقوم آخرين غيرهم ، وهذه السورة تذكرهم فمن شاء اهتدى بالقرآن ، ولا يقدر أحد أن يهدى نفسه ، ولا يدخل فى الإيمان ولا يجر لنفسه نفعا ، فهذا كله ينتهى إلى قدر الله الذى يلجأ إليه الملتجئ ، فيوفقه إلى الذكر والطاعة ، فإذا لم يعرف فى قلبه حقيقة القدرة المسيطرة فلا هدى ولا ذكر ، ومن ثم فهو يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، فمن يهده فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، والظالمون قد أملى وأمهلهم لينتهوا إلى هذا العذاب الأليم .

سورة المرسلات

الله سبحانه يقسم فى مطلع هذه السورة على أن هذا الوعد بالآخرة واقع ، وصيغة القسم توحى ابتداء بأن ما يقسم الله به هو من مجاهيل الغيب ، وقواه المكنونة ، المؤثرة فى هذا الكون وفى حياة البشر ، وقد اختلف السلف فى المرسلات ، فقال بعضهم : إنها الرياح مطلقا ، وبعضهم : أنها الملائكة مطلقا ، وبعضهم : إن بعضها يعنى هذا وبعضها يعنى هذا ، وهذا الغموض أنسب شىء للقسم بها على الأمر الغيبى المكنون فى علم الله ، وأنه واقع ، ويأتى القسم بالملائكة المرسلة

أرسالا متوالية ، كأنها عرف الفرس فى إرسالها وتتابعها ، ثم بالرياح الشديد الهبوب ، بالملائكة تنشر أجنحتها فى الجو عند انحطاطها بالوحى أو هى الرياح التى تنشر السحاب فى آفاق السماء ، ثم يأتى القسم بالملائكة ؛ فإنها تنزل بأمر الله على الرسل تفرق بين الحق والباطل وتلقى إلى الرسل وحيا فيه إعذار إلى الخلق وإنذار .

ونحن نلمح أن التهويل بالتجهيل ملحوظ فى هذه الأمور المقسم بها ، وأن هذا الخلاف فى شأنها دليل على إبهامها ،و كل مقطع من مقاطع السورة بعد ذلك هو هزة ، كالذى يمسك بخناق أحد فيهزه هزاً ، وهو يستجوبه عن ذنب ، أو عن آية ظاهرة ينكرها ، ثم يطلقه على الوعيد والتهديد ، وبعد ذلك تأتى الهزة العنيفة بمشاهد الكون المتقلبة فى يوم الفصل الذى هو الموعد المضروب للرسل لعرض حصيلة الرسالة فى البشرية جميعا ، فيوم تطمس النجوم فيذهب نورها وتفرج السماء أى تشق ، وتنسف الجبال فهى هباء ، وإلى جانب هذا الهول فى مشاهد الكون ، تعرض السورة أمراً عظيما آخر مؤجلا إلى هذا اليوم ، هو موعد الرسل لعرض حصيلة الدعوة ، ولأى يوم أجلت وأرجئ أمرها ؟ ليوم الفصل ، وفى التعبير تهويل لهذا الأمر العظيم يوحى بضخامة حقيقته حتى لتتجاوز مدى الإدراك .

ويأتى الإنذار المخيف من العزيز الجبار فى مواجهة الهول السائد فى الكون ، والجلال الماثل فى مجلس الفصل بمحضر الرسل ، وهم يقدمون الحساب الأخير فى الموعد المضروب لهم ، هذا الإنذار فى هذا الأوان له طعمه ، وله وزنه ، وله وقعه المزلزل الرهيب ، ثم يعود بهم السياق من هذه الجولة فى أهوال يوم الفصل ، إلى جولة فى مصارع الغابرين الأولين والآخرين ، هكذا فى ضربة واحدة تتكشف مصارع الأولين وهم حشود وفى ضربة واحدة تتكشف مصارع الآخرين وهم حشود ، وعلى مد البصر تتبدى المصارع والأشلاء ، وأمامها ينطلق الوعيد ناطقا بسنة الله فى الوجود بأن هذا ما يفعله الله بالمجرمين ، وهى السنة الماضية التى لا تحيد .

وبينما المجرمون يتوقعون مصرعا كمصارع الأولين والآخرين، يجىء الدعاء بالهلاك ، ويجىء الوعيد بالثبور للمكذبين ، فويل لهم من عذاب الله غدا .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ كل شىء فى هذا الكون يتم بإرادة الله تعالى ، وليس هناك من يستطيع أن يخرج عن مشيئة الله وقدره .

٢ ـ تعظيم الله ـ تعالى ـ لملائكته الذين لا يعصونه فى أمر ، وتعظيمه للرياح .

٣ ـ سنن الله فى الكون لا تتخلف ، فكما أهلك الله الأمم السابقة لتكذيبهم الرسل ، فهو يهلك الكافرين الذين كذبوا محمداً ﷺ .

أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ
مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾
أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ
شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾
ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ
شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ
كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾
هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ
لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى
ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا
بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ
يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

معانى الكلمات :

مهين : ضعيف حقير .

كفاتا : وعاء تضم الأحياء على ظهرها .

رواسى شامخات: جبالا ثوابت مرتفعات .

ماء فراتا : حلوا عذبا .

ظل : هو دخان جهنم .

ثلاث شعب : يتفرع منها ثلاث فرق .

بشرر كالقصر : كل شرارة منه مثل البناء المرتفع .

جمالة صفر: إبل صفر كثيرة سريعة الحركة.

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على قدرة الله الطليقة .

٢ ـ أن نعلم مصير المجرمين فى الآخرة .

٣ ـ أن نعلم مصير المؤمنين المتقين .

المحتوى التربوى :

من الجولة فى المصارع والأشلاء إلى جولة فى الإنشاء والإحياء مع التقدير والتدبير للصغير وللكبير ، وهى رحلة مع النشأة الجنينية طويلة عجيبة ، يجملها السياق هنا فى لمسات معدودة ، ماء مهين يودع فى قرار الرحم المكين إلى قدر معلوم وأجل مرسوم ، وأمام التقدير الواضح فى تلك النشأة ومراحلها الدقيقة يجيء التعقيب الموحى بالحكمة العليا التى تتولى كل شيء بقدره فى إحكام مبارك جميل ، وأمام التقدير الذى لا يفلت منه شيء يجيء الوعيد المعهود بالويل للمكذبين فى يوم القيامة .

يقول صاحب الأساس : « وممن تكلم (عن القرار المكين) الدكتور الطبيب (خالص كنجو) فى كتابه : (الطب محراب للإيمان) الجزء الثانى ... ومن كلامه فى هذا البحث : « إن القرآن تحدث ببعد لغوى لم يكن فى وقته فى الواقع من التشريح والفيزيولوجيا ، وعلم النسج ، وعلم

التوليد الطبيعى والمرضى ، وعلم النسائية ومع تفتح الإمكانيات وكشف أسرار الجسم لوحظ أن الآية ذات تحليق خالد حقا على العديد من المستويات ولنحاول الآن أن نتناول وحدات من البحث ، ونغوص فى درجات البحث العلمى بهدوء .

تصفيح عظمى : لنحاول إلقاء نظرة تشريحية لنعرف قرار الرحم الفراغى ، إن الرحم يمكن اعتباره من الوجهة الفراغية فى منتصف الجسم تمامًا طولا ، وعرضا ، وعمقا ، وهكذا فهو يتلقى الحماية من كافة الجهات ، غير أن هناك حماية مهمة على مستوى الحوض ، حيث إن مكونات الحوض هى عظم العجز والعصعص بالخلف ، ومن الجانبين والأمام يوجد عظمان هما عظما الحرقفة ، هذا العظم هو حلقة الاتصال ما بين العمود الفقرى فى الأعلى والعجز بالخلف ، وعظم الفخذ من الأسفل وهو ما يسمى بالزنار الحوضى ، وهنا ملاحظتان :

الأولى : أن هذا العظم يحمى الرحم تماما ، ويكون جوفا يستقر الرحم فيه بحماية من كافة الجوانب .

والثانية : أن هذه الحماية يجب أن تتلاءم مع وظيفة أخرى وهى التناسب مع شكل الجنين ؛ لأن أية زيادة طفيفة فى الطول ، أو الارتفاع ، أو العمق أو الثنيات والحفر يجعل دخول الجنين وخلاصه مستحيلا .. » .

ثم تأتى جولة فى هذه الأرض ، وتقدير الله فيها لحياة البشر ، وإيداعها الخصائص الميسرة لهذه الحياة ، ألم يجعل الأرض كفاتا تحتضن بنيها أحياء وأمواتا ، وجعل فيها جبالا رواسى ثابتات شامخات أرسى بها الأرض ؛ لئلا تميد وتضطرب ، تتجمع على قممها السحب ، وتنحدر عنها مساقط الماء العذب ، أفيكون هذا إلا عن قدرة وتقدير ، وحكمة وتدبير ؟ أفبعد هذا يكذب المكذبون ، فويل لمن تأمل هذه المخلوقات الدالة على عظمة خالقها ، ثم بعد هذا يستمر على تكذيبه وكفره .

ثم ينتقل السياق فجأة إلى موقف الحساب والجزاء فنسمع الأمر الرهيب للمجرمين المكذبين، ليأخذوا طريقهم إلى العذاب الذى كانوا به يكذبون فى تأنيب مرير وإيلام عسير ، فانطلقوا بعد الارتهان والاحتباس فى يوم الفصل الطويل ولكن إلى أين ؟ إنه انطلاق خير منه الارتهان ، انطلقوا فها هو ذا أمامكم حاضر مشهود ، انطلقوا إلى ظل لدخان جهنم تمتد ألسنته فى ثلاث شعب ، ولكنه ظل خير منه الوهج ، فهو ظل خانق حار لافح ، وتسميته بالظل ليست إلا امتداداً للتهكم ، وتمنية بالظل تتكشف عن حر جهنم ، انطلقوا .. وإنكم لتعرفون إلى أين، وتعرفونها هذه التى تنطلقون إليها ، فلا حاجة إلى ذكر اسمها ، فهى ترمى بشرر يتتابع فى حجم البيت من الحجر ، وهذا الشرر إذا تتابع بدا كأنه جمال صفر ترتع هنا وهناك ، هذا هو الشرر فكيف بالنار التى ينطلق منها الشرر ؟ ! وفى اللحظة التى يستغرق فيها الحس بهذا الهول ، يجىء التعقيب المعهود بالويل يوم القيامة للمكذبين .

ثم يأخذ فى استكمال المشهد بعد عرض الهول المادى فى صورة جهنم ، بعرض الهول النفسى الذى يفرض الصمت والكظم ، فالهول هنا يكمن فى الصمت الرهيب ، والكبت الرعيب ، والخشوع المهيب ، الذى لا يتخلله كلام ولا اعتذار ، فقد انقضى وقت الجدل ومضى وقت الاعتذار ، ولا يبقى إلا الويل للمكذبين ، وفى مشاهدة أخرى يذكر حسرتهم وندامتهم وحلفهم ومعاذيرهم ، واليوم طويل يكون فيه هذا ويكون فيه ذاك ، ولكنه هنا يثبت اللقطة الصامتة الرهيبة ، فهذا يوم الفصل لا يوم الاعتذار ، وقد جمعنا والأولين أجمعين ، فإن كان لكم تدبير فدبروه ، وإن كان لكم قدرة على شىء فافعلوه ، ولا تدبير ولا قدرة ؛ إنما هو الصمت الكظيم على التأنيب الأليم ، والويل للمكذبين .

فإذا انتهى مشهد التأنيب للمجرمين ، اتجه الخطاب بالتكريم للمتقين ، فالمتقون فى ظلال ، ظلال حقيقية فى هذه المرة ، وفى عيون من ماء لا فى دخان خانق يبعث الظمأ الحرور ، ولهم من سائر أنواع الثمار ، مهما طلبوا وجدوا ، وهم يتلقون فوق هذا النعيم الحسى التكريم العلوى على مرأى ومسمع من الجموع ، فيقال لهم ذلك على سبيل الإحسان إليهم ، ويا لطف هذا التكريم من العلى العظيم ، والويل للمكذبين يوم القيامة يقابل هذا النعيم والتكريم .

وهنا تعرض فى خطفة سريعة رقعة الحياة الدنيا التى طويت فى السياق ، فإذا نحن فى الأرض مرة أخرى ، وإذا التبكيت والترذيل يوجهان للمجرمين ، وهكذا تختلط الدنيا بالآخرة فى مشهدين معروضين كأنهما حاضران فى أوان، وإن كانت تفرق بينهما أزمان وأزمان ، فبينما كان الخطاب موجها للمتقين فى الآخرة ، إذا هو موجه للمجرمين فى الدنيا ، وكأنما ليقال لهم : اشهدوا الفارق بين الموقفين ، وكلوا وتمتعوا قليلا فى هذه الدار ، لتحرموا وتعذبوا طويلا فى تلك الدار .

ثم يتحدث معجبا من أمر القوم ، وهم يدعون إلى الهدى فلا يستجيبون مع أنهم يبصرون هذا التبصير وينذرون هذا النذير ، والذى لا يؤمن بهذا الحديث الذى يهز الرواسى وبهذه الهزات التى تزلزل الجبال ، لا يؤمن بحديث بعده أبداً ، إنما هو الشقاء والتعاسة والمصير البائس ، والويل المدخر لهذا الشقى المتعوس الذى همه الأكل والمتاع ، الرافض الخضوع لله والصلاة له ، الذى لا يؤمن بالقرآن ويكذب بيوم الدين ، ويكذب بخلق الله الأشياء ،ويكذب بالرسل عليهم الصلاة والسلام .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ من يكذب بالقرآن لا يمكن أن يصدق بشىء آخر .

٢ ـ قدرة الله المحيطة بالإنسان مدعاة للإيمان .

٣ ـ لا عذر للناس عند الله فى كفرهم وعدم تصديقهم لما أخبرهم به ربهم على ألسنة الرسل من غيب .



معانى الكلمات :

النبأ العظيم : البعث بعد الموت .

مهادا : فراشا موطأ للاستقرار عليه .

سباتا : راحة لأجسادكم .

لباسا : ساتراً لكم .

معاشا : تحصلون فيه ما تعيشون به .

شدادا : سموات قويات محكمات .

سراجا وهاجا:مصباحا منيراً (الشمس).

المعصرات : السحائب التى حان مطرها .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نستشعر مظاهر القدرة والعلم والحكمة والرحمة الإلهية .

٢ ـ أن نعلم بشاعة الطغيان وجزاء الظالمين .

٣ ـ أن نعلم أن أعمال العباد ـ مؤمنهم وكافرهم ـ كلها محصاة عليهم وسيجزون بها .

المحتوى التربوى :

يقول صاحب الظلال : « هذا الجزء كله .. سوره مكية فيما عدا سورتى البينة والنصر ، وكلها من قصار السور على تفاوت القصر ، والأهم من هذا هو طابعها الخاص الذى يجعلها وحدة ـ على وجه التقريب ـ فى موضوعها ، واتجاهها ، وإيقاعها ، وصورها وظلالها ، وأسلوبها العام ، إنها طرقات متوالية على الحس ، طرقات عنيفة قوية عالية ، وصيحات ، صيحات بنوَّم غارقين فى النوم ، نومهم ثقيل ، أو بسكارى مخمورين ثقل حسهم الخمار ، أو بلاهين فى سامر راقصين فى ضجة وتصدية ومكاء ، تتوالى على حسهم تلك الطرقات والصيحات المنبثقة من سور هذا الجزء كله بإيقاع واحد ونذير واحد : اصحو . استيقظوا . انظروا . تلفتوا . تفكروا . تدبروا .. إن

هنالك إلها . وإن هنالك تدبيراً ، وإن هنالك تقديراً . وإن هنالك ابتلاء . وإن هنالك تبعة . وإن هنالك حسابا . وإن هنالك جزاء . وإن هنالك عذابا شديداً ونعيما كبيرا ... » .

وتبدأ بسؤال موح مثير للاستهوال ، والاستعظام ، وتضخيم الحقيقة التى يختلفون عليها ، وهى أمر عظيم لا خفاء فيه ولا شبهة ، فجاء مطلع السورة فيه استنكار لتساؤل المتسائلين وفيه عجب أن يكون هذا الأمر موضع تساؤل ، وقد كانوا يتساءلون عن يوم البعث ونبأ القيامة ، وكان هو الأمر الذى يجادلون فيه أشد الجدل ، ولا يكادون يتصورون وقوعه ، وهو أولى شىء بأن يكون ، ومن ثم لا يجيب الله ـ تعالى عن التساؤل ، ولا يدلى بحقيقة النبأ المسؤول عنه ، فيتركه بوصفه العظيم وينتقل إلى التلويح بالتهديد بأنهم سيعلمون عم يتساءلون .

ثم ينتقل السياق إلى أرجاء الكون الواسع العريض ، فيبين قدرته العظيمة على خلق الأشياء الغريبة والأمورالعجيبة الدالة على قدرته على ما يشاء من أمر المعاد وغيره وتأتى الجولة الأولى عن الأرض والجبال ، وجعل الأرض مهاداً للحياة شاهدًا لا يبارى فى شهادته بوجود المدبر الحكيم من وراء هذا الوجود الظاهر ، فاختلال نسبة واحدة من النسب الملحوظة فى خلق الأرض هكذا بجميع ظروفها ، أو اختلال نسبة واحدة من النسب الملحوظة فى خلق الحياة لتعيش فى الأرض ، الاختلال هنا ، أو هناك لا يجعل الأرض مهاداً ، وجعل الجبال أوتادا يدركه الإنسان من الناحية الشكلية بنظره المجرد ، فهى أشبه شىء بأوتاد الخيمة التى تشد إليها ، أما حقيقتها فنتلقاها من القرآن ، وندرك منه أنها تثبت الأرض وتحفظ توازنها ويدركون هذا ، لأنها تعادل بين نسب الأغوار فى البحار ونسب المرتفعات فى الجبال .

وتجىء **اللمسة الثانية** فى ذوات النفوس فى نواحى وحقائق شتى ، وقد خلق الله الإنسان ذكراً وأنثى وجعل حياة هذا الجنس وامتداده قائمة على اختلاف الزوجين ، والتقائهما ، وكل إنسان يدرك هذه الظاهرة ، ويحس ما وراءها من راحة ولذة ومتاع وتجدد بدون حاجة إلى علم غزير ، وكان من تدبير الله للبشر أن جعل النوم سباتا يدركهم فيقطعهم عن الإدراك والنشاط ، ويجعلهم فى حالة لا هى موت ، ولا هى حياة ، تتكفل بإراحة أجسادهم وأعصابهم ، وتعوضها عن الجهد الذى بذلته فى حالة الصحو والإجهاد ، والانشغال بأمر الحياة ، وفى النوم أسرار غير تلبية حاجة الجسد والأعصاب ، إنه هدنة الروح من صراع الحياة العنيف .

وتجىء **اللمسة الثالثة** فى خلق السماء متناسقة مع الأرض والأحياء ، فالسموات السبع متينة التكوين قوية البناء ، مشدودة بقوة تمنعها من التفكك والانثناء ، وبناء هذه السبع الشداد متناسق مع عالم الأرض والإنسان ، ومن ثم يذكر فى معرض تدبير الله وتقديره لحياة الأرض والإنسان ؛ فالشمس المضيئة الباعثة للحرارة التى تعيش عليها الأرض وما فيها من الأحياء ، والتى تؤثر كذلك فى تكوين السحائب بتبخير المياه من المحيط الواسع فى الأرض ورفعها إلى طبقات الجو

العليا ، وهى المعصرات حين تعصر فتخر ويتساقط ما فيها من الماء ، ومن يعصرها ؟ قد يكون هى الرياح ، وقد يكون هو التفريغ الكهربائى فى طبقات الجو ، ومن وراء هذه وتلك يد القدرة التى تودع الكون هذه المؤثرات ، وبهذا الماء المتتابع الكثير الطيب النافع المبارك الحب الذى يدخر للأناسى والأنعام ، والنبات الخضر الذى يؤكل رطبا ، وبساتين وحدائق من ثمرات متنوعة، وألوان مختلفة ، وطعوم وروائح متفاوتة ، وإن كان ذلك فى بقعة واحدة من الأرض مجتمعا .

ولقد كان ذلك كله للعمل والمتاع ، ووراء هذا كله حساب وجزاء ، ويوم الفصل هو الموعد الموقوت للفصل ، فالناس لم يخلقوا عبثا ، ولن يتركوا سدى ، فهنالك يوم للحكم والفرقان والفصل فى كل ما كان ، وهو اليوم المرسوم الموعود الموقوت بأجل عند الله معلوم محدود ، يوم ينقلب فيه نظام هذا الكون ، وينفرط فيه عقد هذا النظام ، والصور : البوق ، ونحن لا ندرى عنه إلا اسمه ، ولا نعلم إلا أنه سينفخ فيه ، وإنما نحن نتصور النفخة الباعثة المجمعة التى يأتى بها الناس أفواجا مبعوثين قائمين آتين من كل فج إلى حيث يحشرون ، ونتصور الأجداث المبعثرة وهذه الخلائق منها قائمة وفى هذا الكون الذى نعرفه أحداث وأهوال جسام ؛ فالسماء المبنية المتينة فتحت فكانت أبوابا ، فهى منشقة منفرجة على هيئة لا عهد لنا بها ، والجبال الرواسى الأوتاد سيرت فكانت سرابا ، فهى مدكوكة مبسوسة مثارة فى الهواء هباء ، يحركه الهواء ومن ثم فلا وجود لها كالسراب الذى ليس له حقيقة ، أو أنها تنعكس إليها الأشعة وهى هباء فتبدو كالسراب .

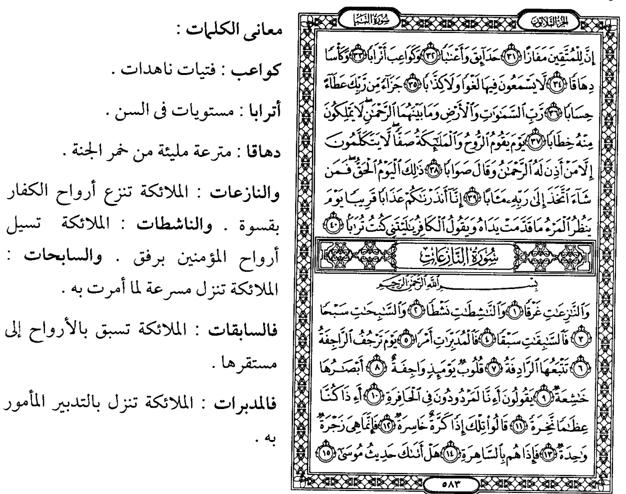
ثم يمضى السياق خطوة وراء النفخ والحشر ، فيصور مصير الطغاة وجهنم قد خلقت ووجدت وكانت مرصادًا للطاغين تنتظرهم ، وترتقبهم ، وينتهون إليها ، فإذا هى معدة لهم ، مهيأة لاستقبالهم وكأنما كانوا فى رحلة فى الأرض ، ثم آبو إلى مأواهم الأصيل ، وهم يردون هذا المآب للإقامة الطويلة المتجددة لا يجدون فى جهنم برداً لقلوبهم ، ولا شرابا طيبا يتغذون به ، ثم يستثنى بما هو أمر وأدهى ، إلا الماء الساخن يشوى الحلوق والبطون فهذا هو البرد ، وإلا ما اجتمع من صديد أهل النار وعرقهم ، ودموعهم وجروحهم ، وهذا هو الشراب وهذا يوافق ما أسلفوا وما قدموا فلم يكونوا يتوقعون مآبا ولا حسابا وكذبوا بالآيات بينما كان الله يحصى عليهم كل شىء إحصاء دقيقا لا يفلت منه حرف فيقال لهم : ذوقوا فلن نزيدكم إلا العذاب .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ يسر الله ـ عز وجل ـ سبل الحياة على هذه الأرض للعمل ، والمتاع الذى لا يغضب الله تعالى .

٢ ـ الحساب والجزاء على ما قدم الإنسان فى الدنيا أمر حتمى فى يوم الفصل .

٣ ـ جهنم مصير الكافرين الذين خرجوا عن طاعة الله فى الدنيا



معانى الكلمات :

كواعب : فتيات ناهدات .

أترابا : مستويات فى السن .

دهاقا : مترعة مليئة من خمر الجنة .

والنازعات : الملائكة تنزع أرواح الكفار بقسوة . **والناشطات :** الملائكة تسيل أرواح المؤمنين برفق . **والسابحات :** الملائكة تنزل مسرعة لما أمرت به .

فالسابقات : الملائكة تسبق بالأرواح إلى مستقرها .

فالمدبرات : الملائكة تنزل بالتدبير المأمور به .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم جزاء المتقين ، وفضل التقوى .

٢ ـ أن نستشعر حقيقة الآخرة وأهوالها وضخامتها .

٣ ـ أن نتعرف على حوار أهل الضلال مع أنفسهم يوم القيامة وما كان من الرد عليهم .

المحتوى التربوى :

يعرض السياق مشهد التقاة فى النعيم بعد مشهد الطغاة فى الحميم ، فإذا كانت جهنم هناك مرصدا ومآبا للطاغين لا يفلتون منها ولا يتجاوزونها ، فإن المتقين ينتهون إلى مفازة ومنجاة ، تتمثل بساتين من النخيل وغيرها ويخص الأعناب لأنها مما يعرفه المخاطبون ، ولهم فى الجنة فتيات ناهدات وهن اللواتى استدار أنداؤهن ، متوافيات السن والجمال ، ولهم كؤوس مملوءة مترعة بالشراب ، وإلى جوار هذه المناعم حالة يتذوقها الضمير ويدركها الشعور، فليس هناك كلام لاغ عار عن الفائدة ولا إثم ولا كذب ، بل هى دار السلام ، وهى حال من الرفعة والمتعة تليق بدار الخلود ، وهذا الذى ذكرناه جازاهم الله به وأعطاهموه بفضله ومَنِّه وإحسانه .

ويجيء المشهد الختامى فى السورة حيث يقف جبريل عليه السلام ، والملائكة صفا بين يدى الرحمن خاشعين ، لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن فى الموقف المهيب الجليل ، فجزاء الطغاة ، وجزاء التقاة هذا الجزاء من ربك ، وهذه هى الحقيقة الكبيرة ، حقيقة الربوبية الواحدة التى تشمل الإنسان كما تشمل السموات والأرض، وتشمل الدنيا والآخرة ، وتجازى على الطغيان والتقوى، وتنتهى إليها الآخرة والأولى ثم هو الرحمن ، ومن رحمته ذلك الجزاء ولهؤلاء وهؤلاء ، ومن الرحمة أن يجد الشر جزاءه وألا يتساوى مع الخير فى مصيره ، ومع الرحمة والجلال والروح والملائكة وقوف لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته إلا بإذن الله ، وحيث يكون القول صوابا .

وتنطلق صيحة من صيحات الإنذار لأولئك الذين يتساءلون فى ارتياب عن يوم القيامة ، فلا مجال للتساؤل الاختلاف فهو الكائن لا محالة ، فمن أراد مرجعا وطريقا إلى الله يهتدى إليه ومنهجا يمر به عليه ، وهذا اليوم ليس ببعيد ، والدنيا كلها رحلة قصيرة وعمر قريب ، وهو عذاب من الهول بحيث يدع الكافر يؤثر العدم على الوجود ، حتى ليتمنى أن ينعدم ويرى هذا أهون من مواجهة الموقف الرهيب الشديد .

سورة النازعات

هذه السورة نموذج من نماذج هذا الجزء لإشعار القلب البشرى حقيقة الآخرة بهولها وضخامتها ، وجديتها ، وأصالتها فى التقدير الإلهى لنشأة هذا العالم الإنسانى ، والتدبير العلوى لمراحل هذه النشأة ويمهد لحقيقة الآخرة الهائلة بمطلع غامض لكنه يثير بغموضه شيئا من الحدس والرهبة والتوجس ، قيل فى تفسير هذه الكلمات : إنها الملائكة نازعات للأرواح نزعا شديداً ، ناشطات منطلقات فى حركاتها ، سابحات فى العوالم العليا سابقات للإيمان ، أو للطاعة لأمر ربها مدبرات ما يوكل من الأمور إليها ، وقيل : إنها النجوم تنزع فى مداراتها وتتحرك وتنشط متنقلة من منزل إلى منزل ، وتسبح سبحا فى فضاء الله وهى معلقة به ، وتسبق سبقا فى جريانها ودورانها ، وتدبر من النتائج والظواهر ما وكله الله إليها مما يؤثر فى حياة الأرض ومن عليها .

وقيل : النازعات والناشطات والسابحات والسابقات هى النجوم والمدبرات هى الملائكة ، وقيل : النازعات والناشطات والسابحات هى النجوم ، والسابقات والمدبرات هى الملائكة ، وأيا ما كانت مدلولاتها فنحن نحس من الحياة فى الجو القرآنى أن إيرادها على هذا النحو ينشئ أولا وقبل كل شيء هزة فى الحس وتوجسا فى الشعور ، وهزة القلب وإيقاظه هدف فى ذاته يتحراه الخطاب القرآنى بوسائل شتى .

والراجفة هى الصيحة الأولى التى ترجف لها الأرض والجبال والأحياء جميعا ، ويصعق لها من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، والرادفة هى النفخة الثانية التى يصحون عليها ويحشرون ، والقلب البشرى يحس بالزلزلة والرجفة والهول والاضطراب ، ويهتز هزة الخوف والوجل والرعب والارتعاش ، ويتهيأ لإدراك ما يصيب القلوب يومئذ من الفزع الذى لا ثبات معه ولا قرار ، فهو شديد الاضطراب ، بادى الذل ، يجتمع عليه الخوف والانكسار ، والرجفة والانهيار ، وهذا هو الذى يقع يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة ، وهذا هو الذى يتناوله القسم بالنازعات غرقا والناشطات نشطا ، والسابحات سبحا ، والسابقات سبقا ، فالمدبرات أمراً .

ثم يمضى السياق يتحدث عن وهلتهم وانبهارهم حين يقومون من قبورهم فى ذهول ، فهم يتساءلون : أنحن مردودون إلى الحياة عائدون فى طريقنا الأولى .. يقال: رجع فى حافرته : أى: فى طريقه التى جاء منها ، فهم فى وهلتهم وذهولهم يسألون : إن كانوا راجعين فى طريقهم إلى حياتهم ، ويدهشون : كيف يكون هذا بعد إذ كانوا عظاما نخرة ، منخوبة يصوت فيها الهواء ؟ !

ولعلهم يفيقون أو يبصرون ، فيعلمون أنها كرة إلى الحياة ، لكنها الحياة الأخرى ، فيشعرون بالخسارة والوبال فى هذه الرجعة ، فتند منهم تلك الكلمة ، كرة لم يحسبوا حسابها ، ولم يقدموا لها زادها ، وليس لهم فيها إلا الخسران الخالص .

وهنا فى مواجهة هذا المشهد يتم التعقيب بحقيقة ما هو كائن ، والزجرة : الصيحة ، ولكنها تقال هنا بهذا اللفظ العنيف تنسيقا لجو المشهد مع مشاهد السورة جميعا ، والساهرة هى : الأرض البيضاء اللامعة ، وهى أرض المحشر ، وهذه الزجرة الواحدة يغلب أنها النفخة الثانية : نفخة البعث والحشر ، والتعبير عنها فيه سرعة ، وهى ذاتها توحى بالسرعة ، وإيقاع السورة كلها فيه هذا اللون من الإسراع والإيجاف ، والقلوب الواجفة تأخذ صفتها هذه من سرعة النبض، وهكذا ذكر الله ـ عز وجل ـ بعد قسمه بمجيء اليوم الآخر ما يحدث فى ذلك اليوم من خوف وذلة للكافرين ، كما ذكر إنكار الكافرين لليوم الآخر ، وبين سهولة خلق ذلك اليوم على الله عز وجل .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ الصالحون جزاؤهم الجنة وما فيها من النعيم المقيم .

٢ ـ العاقل من يغتنم فرصة وجوده فى هذه الحياة ؛ بعمل الخير حتى يفوز بالجنة وينجو من عذاب الجحيم .

٣ ـ الكافرون والعاصون يندمون يوم القيامة حيث لا ينفع الندم .

الجزء الثلاثون — سورة النازعات

إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى ﴿١٦﴾ اذهب إلى فرعون إنه طغى ﴿١٧﴾ فقل هل لك إلى أن تزكى ﴿١٨﴾ وأهديك إلى ربك فتخشى ﴿١٩﴾ فأراه الآية الكبرى ﴿٢٠﴾ فكذب وعصى ﴿٢١﴾ ثم أدبر يسعى ﴿٢٢﴾ فحشر فنادى ﴿٢٣﴾ فقال أنا ربكم الأعلى ﴿٢٤﴾ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ﴿٢٥﴾ إن في ذلك لعبرة لمن يخشى ﴿٢٦﴾ ءأنتم أشد خلقا أم السماء بناها ﴿٢٧﴾ رفع سمكها فسواها ﴿٢٨﴾ وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ﴿٢٩﴾ والأرض بعد ذلك دحاها ﴿٣٠﴾ أخرج منها ماءها ومرعاها ﴿٣١﴾ والجبال أرساها ﴿٣٢﴾ متاعا لكم ولأنعامكم ﴿٣٣﴾ فإذا جاءت الطامة الكبرى ﴿٣٤﴾ يوم يتذكر الإنسان ما سعى ﴿٣٥﴾ وبرزت الجحيم لمن يرى ﴿٣٦﴾ فأما من طغى ﴿٣٧﴾ وءاثر الحياة الدنيا ﴿٣٨﴾ فإن الجحيم هي المأوى ﴿٣٩﴾ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ﴿٤٠﴾ فإن الجنة هي المأوى ﴿٤١﴾ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ﴿٤٢﴾ فيم أنت من ذكراها ﴿٤٣﴾ إلى ربك منتهاها ﴿٤٤﴾ إنما أنت منذر من يخشاها ﴿٤٥﴾ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴿٤٦﴾

سورة عبس

٥٨٤

معانى الكلمات :

طوى : اسم الوادى المقدس .

طغى : عتا وتجبر .

تزكى : تطهر من الكفر .

نكال : عقوبة .

رفع سمكها : جعل ثخنها مرتفعا جهة العلو .

وأغطش : وأظلم .

دحاها : بسطها .

مرعاها : أقوات الناس والدواب .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم ما كان بين موسى عليه السلام وفرعون ، وما انتهى إليه هذا الطاغية .

٢ ـ أن نستشعر حقيقة التقدير والتدبير فى تصميم هذا الكون الكبير ، واستبعاد المصادفة والجزاف .

٣ ـ أن نعلم أن فى الآخرة تختلف المصائر والعواقب .

المحتوى التربوى :

يعرض السياق ما كان بين موسى وفرعون ، وما انتهى إليه هذا الطاغية عندما طغى ، وقصة موسى هى أكثر القصص وروداً وأكثرها تفصيلا فى القرآن ، وقد وردت من قبل فى سور كثيرة ، وهنا ترد هذه القصة مختصرة سريعة المشاهد منذ أن نودى موسى بالواد المقدس إلى أخذ فرعون، أخذه فى الدنيا ، ثم فى الآخرة ، فتلتقى بموضوع السورة الأصيل وهو حقيقة الآخرة ، وهذا المدى الطويل من القصة يرد هنا فى آيات معدودات قصار سريعة ، وتتضمن عدة حلقات ومشاهد من القصة .

وهى تبدأ بتوجيه الخطاب إلى الرسول ﷺ ويتم السؤال عن سماعه بحديث موسى ، وهو استفهام للتمهيد وإعداد النفس والأذن لتلقى القصة وتمليها ، ثم تأخذ فى عرض الحديث كما

تسمى القصة ، وهو إيحاء بواقعيتها ، فهى حديث جرى ، فتبدأ بمشهد المناداة والمفاجأة ، وطوى اسم الوادى ـ على الأرجح ـ وهو بجانب الطور الأيمن بالنسبة للقادم من مدين فى شمال الحجاز، ونداء الله بذاته ـ سبحانه ـ لعبد من عباده أمر هائل لا يملك الإدراك البشرى أن يحيط منه بشىء.

ومن ثم يبادر السياق بحكاية أمر التكليف الإلهى لموسى ، عقب ذكر النداء بالوادى المقدس طوى ، والطغيان أمر لاينبغى أن يكون ، ولا أن يبقى ، إنه أمر كريه مفسد للأرض ، مخالف لما يحبه الله مؤد إلى ما يكره ، فمن أجل منعه ينتدب الله عبداً من عباده المختارين ، ينتدبه بنفسه سبحانه ليحاول وقف هذا الشر ، ومنع هذا الفساد ، ووقف هذا الطغيان ، إنه أمر كريه شديد الكراهية حتى ليخاطب الله بذاته عبداً من عباده ليذهب إلى الطاغية ، فيحاول رده عما هو فيه ، والإعذار إليه قبل أن يأخذه الله ـ تعالى ـ نكال الآخرة والأولى .

ثم يعلمه الله كيف يخاطب الطاغية بأحب أسلوب ، وأشده جاذبية للقلوب ؛ لعله ينتهى ويتقى غضب الله وأخذه ، فقل : هل لك أن تتطهر من رجس الطغيان ودنس العصيان ؟ هل لك إلى طريق الصلاة والبركة ؟ هل لك أن أعرفك طريق ربك ؟ فإذا عرفته وقعت فى قلبك خشيته ، فما يطغى الإنسان ويعصى إلا حين يذهب عن ربه بعيداً ، وإلا حين يضل طريقه إليه فيقسو قلبه ويفسد ، فيكون منه الطغيان والتمرد ، كان هذا فى مشهد النداء والتكليف ، وكان بعده فى مشهد المواجهة والتبليغ ، ولقد بلغ موسى ما كلف تبليغه بالأسلوب الذى لقنه ربه وعرفه ، ولم يفلح هذا الأسلوب الحبيب فى إلانة القلب الطاغى الخاوى من معرفة ربه ، فأراه موسى الآية الكبرى : آية العصا واليد البيضاء ، وانتهى مشهد اللقاء والتبليغ عند التكذيب والمعصية .

ثم يعرض مشهد فرعون وهو يتولى عن موسى ، ويسعى فى جمع السحرة للمباراة بين السحر والحق حين عز عليه أن يستسلم للحق والهدى ، ثم انطلقت منه الكلمة الوقحة المتطاولة المليئة بالغرور والجهالة ، قالها الطاغية مخدوعا بغفلة جماهيره ، وإذعانها وانقيادها ، وما يمكن أن يطغى فرد فى أمة رشيدة أبداً ، وما جرؤ فرعون على قول هذه الكلمة الكافرة الفاجرة ، ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ إلا بغفلة قومه وتنازلهم عن حقهم فى العزة والكرامة ، وأمام هذا التطاول أخذه الله نكال الآخرة على نكال الأولى ؛ لأنه أشد وأبقى ، ونكال الأولى كان عنيفا قاسيا فكيف بنكال الآخرة وهو أشد وأنكى ؟ والذى يعرف ربه ويخشاه هو الذى يدرك ما فى حادث فرعون من العبرة لسواه ، أما الذى لا يعرف قلبه التقوى فبينه وبين العبرة حاجز .

ويعود إلى المشركين المغترين بقوتهم فيردهم إلى شىء من مظاهر القوة الكبرى فى هذا الكون الذى لا تبلغ قوتهم بالقياس إليه شيئا ، ويسأل فى استفهام لا يحتمل إلا إجابة واحدة بالتسليم الذى لايقبل الجدل ، أأنتم أشد أم السماء؟ السماء بلا جدال ولا كلام ، فما الذى يغركم من قوتكم والسماء أشد خلقا منكم والذى خلقها أشد منها ؟ هذه السماء الأشد خلقا بلا مراء بناها

الله ـ عز وجل ـ والبناء يوحى بالقوة والتماسك ، والسماء كذلك متماسكة لا تختل ولا تخرج من أفلاكها ومداراتها ولا تتهاوى ولا تنهار ، فهى بناء ثابت متماسك الأجزاء ، والسماء مرفوعة فى تناسق وتماسك وهذه هى التسوية ، وجعل الله ـ عز وجل ـ ليلها مظلما أسود حالكا ، ونهارها مضيئا مشرقا نيراً واضحا ، ودحو الأرض تمهيدها وبسط قشرتها ، بحيث تصبح صالحة للسير عليها ، وتكوين تربة صالحة للإنبات وإرساء الجبال وهو نتيجة لاستقرار سطح الأرض ووصول درجة حرارته إلى هذا الاعتدال الذى يسمح بالحياة ، والله أخرج من الأرض ماءها من الينابيع ، أو ما ينزل من السماء فهو أصلا من مائها الذى تبخر ، وأخرج مرعاها وهو النبات الذى يأكله الناس والأنعام وتعيش عليه الأحياء ، وكل أولئك كان بعد بناء السماء وبعد إغطاش الليل وإخراج الضحى ، وكل ذلك متاعا لخلقه ولما يحتاجون إليه من الأنعام التى يأكلونها ويركبونها فى دنياهم .

والحياة الدنيا متاع ، ولكنه ينتهى إلى أجله ، فإذا جاءت الطامة الكبرى غطت كل شىء وطمت على كل شىء ، وعندئذ يتذكر الإنسان سعيه ويستحضره إن كانت أحداث الحياة أنسته إياه ، يتذكر ويستحضر ، ولكن حيث لا يفيده التذكر والاستحضار إلا الحسرة والأسى ، وظهرت الجحيم مكشوفة لكل ذى نظر ، فعندئذ تختلف المصائر والعواقب ، وتتجلى غاية التدبير والتقدير فى النشأة الأولى ، والطغيان وصف لكل من يتجاوز الحق والهدى ويشمل كل متجاوز للهدى ، وكل من آثر الحياة الدنيا واختارها على الآخرة فإن الجحيم المكشوفة هى مأواه يوم الطامة الكبرى .

والذى يخاف مقام ربه وخاف حكم الله فيه، ونهى نفسه عن هواها ، وردها إلى طاعة مولاها، فإن مصيره إلى الجنة الفيحاء ، ويجىء الختام فى ذكر الساعة وكان المتعنتون من المشركين يسألون الرسول ﷺ عن الساعة متى أو أيان موعدها ؟ والجواب : ليس علمها إليك ، بل مردها إلى الله ـ عز وجل ، وأنت مبعوث ؛ لتنذر الناس من عذاب الله ، فمن خشى الله وخاف مقامه اتبعك فأفلح والخيبة على من خالفك ، تنطوى هذه الحياة فى نفوس أصحابها أنفسهم فإذا هى عندهم عشية أو ضحاها .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ الاعتبار بما حدث للسابقين من انتقام جزاء تكذيبهم الرسل وتكبرهم على عبادة الله .

٢ ـ الله ـ تعالى ـ خلق الكون وما فيه ، وهو قادر على بعث الناس بعد موتهم للحساب والجزاء .

٣ ـ أيام الدنيا محدودة بالقياس إلى اليوم الآخر ، فعلى المسلم أن يتزود لهذا اليوم حتى ينجو من عذاب الله ، وينال ثوابه ورضاه .

الجزء الثلاثون — سورة عبس

بسم الله الرحمن الرحيم

عبس وتولى (١) أن جاءه الأعمى (٢) وما يدريك لعله يزكى (٣) أو يذكر فتنفعه الذكرى (٤) أما من استغنى (٥) فأنت له تصدى (٦) وما عليك ألا يزكى (٧) وأما من جاءك يسعى (٨) وهو يخشى (٩) فأنت عنه تلهى (١٠) كلا إنها تذكرة (١١) فمن شاء ذكره (١٢) في صحف مكرمة (١٣) مرفوعة مطهرة (١٤) بأيدي سفرة (١٥) كرام بررة (١٦) قتل الإنسان ما أكفره (١٧) من أي شيء خلقه (١٨) من نطفة خلقه فقدره (١٩) ثم السبيل يسره (٢٠) ثم أماته فأقبره (٢١) ثم إذا شاء أنشره (٢٢) كلا لما يقض ما أمره (٢٣) فلينظر الإنسان إلى طعامه (٢٤) أنا صببنا الماء صبا (٢٥) ثم شققنا الأرض شقا (٢٦) فأنبتنا فيها حبا (٢٧) وعنبا وقضبا (٢٨) وزيتونا ونخلا (٢٩) وحدائق غلبا (٣٠) وفاكهة وأبا (٣١) متاعا لكم ولأنعامكم (٣٢) فإذا جاءت الصاخة (٣٣) يوم يفر المرء من أخيه (٣٤) وأمه وأبيه (٣٥) وصاحبته وبنيه (٣٦) لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه (٣٧) وجوه يومئذ مسفرة (٣٨) ضاحكة مستبشرة (٣٩) ووجوه يومئذ عليها غبرة (٤٠) ترهقها قترة (٤١) أولئك هم الكفرة الفجرة (٤٢)

٥٨٥

معانى الكلمات :

عبس : قطب وجهه الشريف ﷺ .

يزكى : يتطهر من دنس الجهل .

تصدى : تتعرض له بالإقبال عليه .

تلهى : تتشاغل وتعرض .

سفرة : ملائكة سفراء بين الله ورسله .

وحدائق غلبا : بساتين كثيرة الأشجار .

وأبًا : كلأً وعشبا ، أو هو التبن خاصة .

ترهقها قترة : تغشاها ظلمة وسواد .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم الميزان السماوى الذى يقدر به عمل الإنسان .

٢ ـ أن نتعرف على نعم الله على الإنسان فى نفسه ، وطعامه ، وشرابه .

٣ ـ أن نستشعر يوم الصاخة وما فيه من أهوال .

المحتوى التربوى :

إن هذا التوجيه الذى نزل بشأن هذا الحادث هو أمر عظيم جداً ، أعظم بكثير مما يبدو لأول وهلة ، إنه معجزة، هو الحقيقة التى أراد إقرارها فى الأرض ، والآثار التى ترتبت على إقرارها فى حياة البشرية، وهذه الحقيقة ليست مجرد : كيف يعامل فرد من الناس ، أو كيف يعامل صنف من الناس ؟ إنما هى أبعد من هذا جداً ، وأعظم من هذا جداً ، إنها : كيف يزن الناس كل أمور الحياة ؟ ومن أين يستمدون القيم التى يزنون بها ويقدرون ؟ والحقيقة التى استهدف هذا التوجيه إقرارها هى : أن يستمد الناس فى الأرض قيمهم وموازينهم من اعتبارات سماوية إلهية بحتة ، آتية لهم من السماء وهو أمر عظيم جداً ، كما أنه أمر عسير جداً ، عسير أن يعيش الناس فى الأرض بقيم وموازين آتية من السماء، مطلقة من اعتبارات الأرض، ويجيء هذا الحادث ؛ لتقرير هذه القيمة ، وليقرر معها المبدأ الأساس : وهو أن الميزان ميزان السماء والقيمة قيمة السماء ،

وعلى الأمة المسلمة أن تدع كل ما تعارف عليه الناس ؛ لتستمد القيم من السماء وحدها وتزنها بميزان السماء .

ويجىء الرجل الأعمى الفقير ابن أم مكتوم إلى رسول الله ﷺ وهو مشغول بأمر النفر من سادة قريش ، والرسول يدعوهم إلى الإسلام ، يجىء هذا الرجل الأعمى الفقير إلى رسول الله ﷺ وهو مشغول بأمر هؤلاء النفر لا لنفسه ولا لمصلحته ولكن للإسلام ولمصلحة الإسلام ، يجىء هذا الرجل فيقول لرسول الله : يا رسول الله أقرئنى وعلمنى مما علمك الله وهو لا يعلم تشاغل الرسول بما هو فيه من الأمر ، فيكره الرسول قطعه لكلامه واهتمامه ، وتظهر الكراهية فى وجهه الذى لا يراه الرجل فيعبس ويعرض ، وهنا تتدخل السماء لتقول كلمة الفصل فى هذا الأمر ؛ ولتقرر الميزان الذى توزن فيه القيم بغض النظر عن جميع الملابسات والاعتبارات بما فى ذلك اعتبار مصلحة الدعوة كما يراها البشر ، بل كما يراها سيد البشر .

وهنا يجىء العتاب من الله ـ العلى الأعلى ـ لنبيه الكريم ، صاحب الخلق العظيم فى أسلوب عنيف شديد ، وللمرة الوحيدة فى القرآن كله يقال للرسول الحبيب القريب : كلا ، ويأتى أسلوب العتاب فريداً بصيغة الحكاية عن أحد آخر غائب غير المخاطب ، وفى هذا الأسلوب إيحاء بأن الأمر موضوع الحديث من الكراهة عند الله بحيث لا يحب سبحانه ـ أن يواجه به نبيه وحبيبه ، عطفا عليه ورحمة به ، وإكراما له عن المواجهة بهذا الأمر الكريه ، ثم يستدير العتاب فى صيغة الخطاب ، فيبدأ هادئا شيئا ما ، فما يدريك أن يتحقق هذا الخير الكبير أن يتطهر هذا الرجل الأعمى الفقير الراغب فى الخير ، وأن يتيقظ قلبه ، فيتذكر فتنفعه الذكرى ، ما يدريك أن يشرق هذا القلب بقبس من نور الله .

ثم تعلو نبرة العتاب وينتقل السياق إلى التعجيب من ذلك الفعل محل العتاب ؛ فأما من أظهر الاستغناء عنك وعن دينك وعما عندك من الهدى والخير والنور والطهارة ، أما هذا فأنت تتصدى له وتحفل أمره ، وتجهد لهدايته ، وتتعرض له وهو عنك معرض ، وما يضيرك أن يظل فى دنسه ؟ وأنت لا تسأل عن دنسه ، والذى يقصدك ليهتدى بما تقول له ، فأنت تتشاغل عنه ، كلا فهذا لا يكون أبداً ، والدعوة كريمة فى حقيقتها كريمة فى كل اعتبار ، كريمة فى صحفها المرفوعة المطهرة الموكل بها السفراء من الملأ الأعلى ينقلونها إلى المختارين فى الأرض ليبلغوها ، وهم كذلك كرام بررة .

ثم يجىء الحديث عن أمر هذا الإنسان الذى يعرض عن الهدى ، ويستغنى عن الإيمان ، ويستعلى على الدعوة إلى ربه ، وإنه ليستحق القتل على عجيب تصرفه ، فما أشد كفره ونكرانه لمقتضيات نشأته وخلقته ، ولو رعى هذه المقتضيات لشكر خالقه ولتواضع فى دنياه ، ولذكر آخرته ، وإلا فعلام يتكبر ويعرض ؟ وما هو أصله ومبدؤه ؟ إنه أصل متواضع يستمد كل قيمته من فضل الله ونعمته خلقه من النطفة ، وارتفع به من ذلك الأصل المتواضع ، ومهد له سبيل الحياة وخروجه من بطن أمه ، وأمره فى نهايته كأمره فى بدايته فى يد الله ، وجعل مثواه فى جوف

الأرض كرامة له ورعاية،حتى إذا حان الموعد الذى قدره الله أعاده إلى الحياة لما يراد به من الأمر، والإنسان عامة مقصر ، لم يؤد واجبه ، لم يقض هذه الرحلة على الأرض فى الاستعداد ليوم الحساب والجزاء .

وينتقل السياق إلى لمسة أخرى تلمس طعام الإنسان فما قصته وهل له من يد فيها ؟ فلينظر الإنسان إلى طعامه،إلى هذا الأمر الميسر الضرورى الحاضر المكرر،لينظر إلى قصته ، فصب الماء فى صورة المطر حقيقة يعرفها كل إنسان فى كل بيئة ، وهذا المطر يسكن الأرض فيدخل فى تخومها ، ويتخلل فى أجزاء الحب المودع فيها ، فينبت ويرتفع ويظهر على وجه الأرض ، والحب كل ما يذكر من الحبوب ، والعنب معروف ، والقضب هو : كل ما يؤكل رطبًا غضًا من الخضر التى تقطع مرة بعد أخرى كل ما يؤكل رطبًا غضًا من الخضر التى تقطع مرة بعد أخرى ، والزيتون والنخل معروفان ، وحدائق ذات أشجار مثمرة مسورة بحوائط تحميها ، وهى بساتين ضخمة عظيمة ملتفة الأشجار، والفاكهة من ثمار الأشجار، والأب : أغلب الظن أنه الذى ترعاه الأنعام ، وهذا عيشه لكم ولأنعامكم فى هذه الدار إلى يوم القيامة ، ثم يكون بعد ذلك أمر آخر يعقب المتاع ، أمر يجدر بالإنسان أن يتدبره قبل أن يجىء .

وتختم السورة بمشهد المرء يفر وينسلخ من ألصق الناس به ؛ من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه أولئك الذين تربطهم به وشائج وروابط لا تنفصم ؛ ولكن هذه الصاخة تمزق هذه الروابط تمزيقا وتقطع تلك الوشائج تقطيعا ،فلكل نفسه وشأنه ولديه الكفاية من الهم الخاص به ، الذى لا يدع له فضلة من وعى أو جهد ، ذلك حال الخلق جميعا فى هول ذلك اليوم ، إذا جاءت الصاخة .

ثم يأخذ فى تصوير حال المؤمنين وحال الكافرين ، بعد تقويمهم ووزنهم بميزان الله هناك ؛ فهذه وجوه مستنيرة منيرة متهللة ضاحكة مستبشرة ، راجية فى ربها مطمئنة بما تستشعره من رضاه عنها ، فهى تنجو من هول الصاخة المذهل لتتهلل وتستنير وتضحك وتستبشر ، أو هى قد عرفت مصيرها فاستبشرت ، وأما وجوه الكافرين فتعلوها غبرة الحزن والحسرة ويغشاها سواد الذل ، وقد عرفت ما قدمت ، فاستيقنت ما ينتظرها من جزاء ، وهؤلاء هم الذين لا يؤمنون بالله وبرسالاته ، والذين خرجوا عن حدوده وانتهكوا حرماته .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ الحرص على طلب العلم مهما كانت الصعوبات ، والاهتمام بطلاب العلم وعدم الإعراض عنهم .

٢ ـ على الإنسان أن يتذكر نعم الله عليه ، ويشكر الله عليها بطاعته .

٣ ـ فى يوم القيامة شدائد وأهوال تجعل الإنسان لا ينشغل إلا بنفسه ، فعلى المسلم أن يتزود لهذا اليوم وخير الزاد التقوى .



معانى الكلمات :

كورت : أزيل ضياؤها أو طويت .

انكدرت : تساقطت وتهاوت .

سيرت : أزيلت عن مواضعها .

العشار عطلت : النوق الحوامل أهملت بلا راع .

حشرت : جمعت من كل صوب .

سجرت : أوقدت فصارت ناراً تضطرم .

كشطت : قلعت كما يقلع السقف .

الكنس : التى تختفى وقت غروبها .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على مشاهد الانقلاب الكونى كما جاءت به الآيات .

٢ ـ أن نعلم حقيقة الوحى والرسالة وصفات النبى الذى يتلقى ذلك الوحى .

٣ ـ أن نعلم بطلان مزاعم المشركين حول القرآن الكريم ، وأنه ذكر للعالمين .

المحتوى التربوى :

هذه السورة ذات مقطعين اثنين تعالج فى كل مقطع منها تقرير حقيقة ضخمة من حقائق العقيدة :

الأولى : حقيقة القيامة ، وما يصاحبها من انقلاب كونى هائل كامل ، يشمل الشمس والنجوم والجبال والبحار والأرض والسماء ، والأنعام والوحوش كما يشمل بنى الإنسان .

والثانية : حقيقة الوحى، وما يتعلق بها من صفة الملك الذى يحمله، وصفة النبى الذى يتلقاه، ثم شأن القوم المخاطبين بهذا الوحى معه ، ومع المشيئة الكبرى التى فطرتهم ونزلت لهم الوحى .

ويبدأ السياق بمشهد الانقلاب التام لكل معهود والثورة الشاملة لكل موجود ، الانقلاب الذى يشمل الأجرام السماوية والأرضية ، والوحوش النافرة ، والأنعام الأليفة ، ونفوس البشر

وأوضاع الأمور ، حيث ينكشف كل مستور ويعلم كل مجهول ، وتقف النفس أمام ما أحضرت من الرصيد والزاد فى موقف الفصل والحساب ، وكل شىء من حولها عاصف ، وكل شىء من حولها مقلوب .

يقول صاحب الظلال : « إن هذا الكون سينفرط عقد نظامه ، وتتناثر أجزاؤه ، وتذهب عنه صفاته هذه التى يقوم بها ، وينتهى إلى أجله المقدر حيث تنتهى الخلائق إلى صورة أخرى من الكون ومن الحياة ومن الحقائق غير ما عهدت نهائيا فى هذا الكون المعهود ، وهذا ما تستهدف السورة إقراره فى المشاعر والقلوب كى تنفصل من هذه المظاهر الزائلة ـ مهما بدت ثابتة ـ وتتصل بالحقيقة الباقية . .. حقيقة الله الذى لا يحول ولا يزول ، حين يحول كل شىء من الحوادث ويزول ... » .

إن تكوير الشمس قد يعنى برودتها وانطفاء شعلتها ، وانكماش ألسنتها الملتهبة ، قد يكون هذا وقد يكون غيره ، أما كيف يقع ؟ والعوامل التى تسبب وقوعه ؟ فعلم ذلك عند الله ، وانكدار النجوم قد يكون معناه انتثارها من هذا النظام الذى يربطها ، وانطفاء شعلتها وانظلام ضوئها ، وتسيير الجبال قد يكون معناه نسفها وبسها وتذريتها فى الهواء ، والعشار هى النوق الحبالى فى شهرها العاشر ، ففى هذا اليوم الذى تقع فيه هذه الأهوال تهمل هذه العشار وتعطل فلا تصبح لها قيمة ، ولا يهتم بشأنها أحد ، وهذه الوحوش النافرة قد هالها الرعب والهول فحشرت وانزوت تتجمع من الهول هى الشاردة فى الشعاب ، ونسيت مخاوفها بعضها من بعض كما نسيت فرائسها ، وأما تسجير البحار فقد يكون ملؤها بالمياه ، وإما أن يكون معناه التهابها وانفجارها ، وتزويج النفوس يحتمل أن يكون جمع الأرواح بأجسادها بعد إعادة إنشائها ، ويحتمل أن يكون ضم كل جماعة من الأرواح المتجانسة فى مجموعة .

وقد كان من هوان النفس الإنسانية أن فى الجاهلية انتشرت عادة وأد البنات خوف العار أو خوف الفقر ، وكان الوأد يتم فى صورة قاسية إذ كانت البنت تدفن حية ، وكانوا يتفننون فى هذا بشتى الطرق ، فأما الذين لا يئدون البنات فكانت لهم وسائل أخرى لإذاقتها الخسف والبخس حتى جاء الإسلام يشنع بهذه العادات ويقبحها ، وينهى عن الوأد ويغلظ فعلته ويقول . إن الموءودة ستسأل عن وأدها فكيف بوائدها ؟ !

وصحف الأعمال ونشرها يفيد كشفها ومعرفتها فلا تعود خافية ولا غامضة ، وهذه العلنية أشد على النفوس وأنكى ، فكم من سوأة مستورة يخجل صاحبها ذاته من ذكراها ، ثم إذا هى جميعها فى ذلك اليوم منشورة مشهورة ، وهذا النشر لون من ألوان الهول فى ذلك اليوم ، ثم تجىء الخطوة الأخيرة فى مشاهد ذلك اليوم الهائل المرهوب ؛ حيث تتوقد الجحيم وتتسعر ، ويزداد لهيبها وحرارتها ، وحيث تقرب الجنة وتظهر لروادها الموعودين بها ، وتبدو لهم سهولة مدخلها ، ويسر ولوجها ، وعندئذ لا يبقى لدى النفوس شك فى حقيقة ما عملت ، وما تزودت به لهذا

اليوم ، وما حملت معها للعرض ،و ما أحضرت للحساب ، وكل نفس تعلم فى هذا اليوم الهائل ما معها وما لها وما عليها ، تعلم وهى لا تملك أن تغير شيئا مما أحضرت ولا أن تزيد عليه ولا أن تنقص منه .

ثم يجىء المقطع الثانى فى السورة يبدأ بالقسم بمشاهد كونية جميلة؛ القسم على طبيعة الوحى، وصفة الرسول الذى يحمله ، والرسول الذى يتلقاه ، وموقف التابعين حياله وفق مشيئة الله ، فيقسم الله تعالى بالكواكب التى تخنس أى ترجع فى دورتها الفلكية وتجرى وتختفى ، وبالليل إذا أظلم والصبح حين يتنفس ، أنفاسه النور والحياة والحركة التى تدب فى كل حى ـ بصدق الحقيقة التى يدعى الإنسان إليها وهى : هذا القرآن وهذا الوصف لليوم الآخر لقول رسول كريم وهو جبريل الذى حمل هذا القول وأبلغه ، فصار قوله باعتبار تبليغه ، ويذكر صفة هذا الرسول الذى اختير لحمل هذا القول وإبلاغه بأنه كريم عند ربه ، قوى مما يوحى بأن هذا القول يحتاج فى حمله إلى قوة ، وفى مقامه ومكانته عند ربه عند ذى العرش الأعلى ، مطاع هناك فى الملأ الأعلى ، أمين على ما يحمل وما يبلغ ، وهذه صفة الرسول جبريل الذى حمل القول وأداه .

فأما الرسول الذى حمله إليكم فهو صاحبكم عرفتموه حق المعرفة عمراً طويلا ، فما لكم حين جاءكم بالحق تقولون فيه ما تقولون ، ولقد قالوا عنه : إن لمجنون وإن شيطانا عليه يتنزل بما يقول ، فجاء القرآن يحدثهم بأن القرآن صادر عن الله سبحانه ، والذى رأى الرسول الكريم جبريل حق الرؤية ، بالأفق المبين الواضح الذى تتم فيه الرؤية عن يقين ، وأنه ﷺ لمؤتمن على الغيب ، لا تظن به الظنون فى خبره . الذى يرويه عنه ، والشياطين لا توحى بهذا النهج القويم ، ويسألهم مستنكراً : أين تذهبون فى حكمكم وقولكم أو أين تذهبون منصرفين عن الحق وهو يواجهكم أينما ذهبتم ، وما هو إلا ذكر يذكر بحقيقة وجودهم .

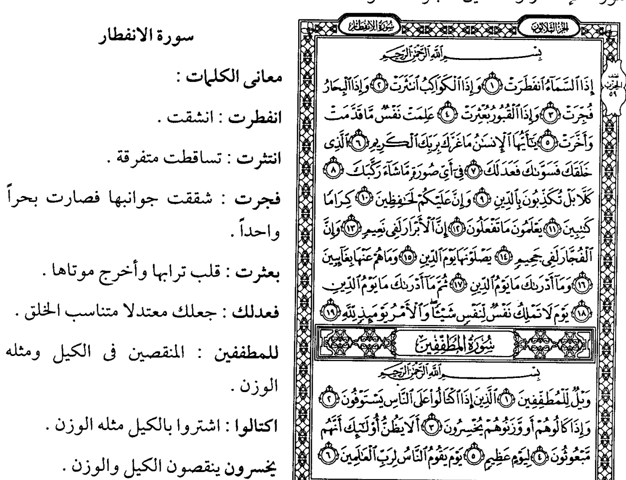
وأمام هذا البيان يذكرهم أن طريق الهداية ميسر لمن يريد، وأنهم إذن مسؤولون عن أنفسهم ، وقد منحهم الله هذا التيسير ، فمن أراد الهداية فعليه بالقرآن ، فإنه منجاة له وهداية ولا هداية فيما سواه ، وليست المشيئة موكولة إليكم ، ولا منفصلة عن المشيئة الكبرى ، بل ذلك كله تابع لمشيئة الله تعالى .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ قدرة الله تعالى لا يحدها حد ، وكل إنسان يطلع على عمله يوم القيامة ويحاسب عليه .

٢ ـ ليست الدنيا مقراً دائما ، بل هى ممر وطريق للآخرة .

٣ ـ القرآن الكريم تذكرة وعبرة لمن أراد أن يهتدى إلى الطريق المستقيم ، ومن أراد الهداية وفقه الله وأعانه عليه .



سورة الانفطار

معانى الكلمات :

انفطرت : انشقت .

انتثرت : تساقطت متفرقة .

فجرت : شققت جوانبها فصارت بحراً واحداً .

بعثرت : قلب ترابها وأخرج موتاها .

فعدلك : جعلك معتدلا متناسب الخلق .

للمطففين : المنقصين فى الكيل ومثله الوزن .

اكتالوا : اشتروا بالكيل مثله الوزن .

يخسرون ينقصون الكيل والوزن .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على مشاهد القيامة كما وردت فى السورة .

٢ ـ أن نعلم أسباب جحود الإنسان ونتائجه .

٣ ـ أن نستشعر الترغيب والترهيب الوارد فى الآيات الكريمات

المحتوى التربوى :

تتحدث السورة عن الانقلاب الكونى وتختصر فى مشاهده ، فلا تكون هى طابع السورة الغالب ، فيذكر مظاهر الانقلاب ، انفطار السماء أى انشقاقها ، فانشقاق السماء حقيقة من حقائق ذلك اليوم العصيب ، ويشارك فى تكوين هذا المشهد ما يذكر عن انتثار الكواكب بعد تماسكها هذا الذى تجرى معه فى أفلاكها بسرعات هائلة مرعبة ، وهى ممسكة فى داخل مداراتها لا تتعداها ، ولا تهيم على وجهها فى هذا الفضاء الذى لا يعلم له أحد نهاية ، وتفجير البحار يحتمل أن يكون هو امتلاؤها وطغيانها على الأنهار ، كما يحتمل أن هو تفجير مائها إلى عنصرية : الأكسجين والهيدروجين ، كذلك يحتمل أن يكون هو تفجير ذرات هذين الغازين ، أو أن يكون

بهيئة أخرى غير ما يعرف البشر على كل حال ، وبعثر القبور ، فتخرج منها الأجساد والتى أعاد الله إنشائها كما أنشأها أول مرة لتتلقى حسابها وجزاءها .

وبعد هذا المطلع الموقظ المنبه للحواس والمشاعر والعقول والضمائر يلتفت إلى واقع الإنسان الحاضر ، فإذا هو غافل لاه سادر ، وهنا يلمس قلبه لمسة فيها عتاب رضى ، وفيها وعيد خفى ، وفيها تذكير بنعمة الله الأولى عليه : نعمة خلقه فى هذه الصورة السوية على حين يملك ربه أن يركبه فى أى صورة تتجه إليها مشيئته ، ولكنه اختار له هذه الصورة السوية المعتدلة الجميلة ، وهو لا يشكر ولا يقدر ، فينادى فى الإنسان أكرم ما فى كيانه ، وهو إنسانيته التى بها تميز عن سائر الأحياء ، ثم يعقبه ذلك العتاب الجميل الجليل ؛ يا أيها الإنسان ما الذى غرك بربك فجعلك تقصر فى حقه ، وتتهاون فى أمره ، وهو ربك الكريم الذى أغدق عليك من كرمه وفضله وبره .

ثم يفصل شيئا من هذا الكرم الإلهى المغدق على الإنسان المتمثل فى إنسانيته التى ناداه بها ، فيشير إلى خلقه وتسويته وتعديله ، وهو القادر على أن يركبه فى أى صورة وفق مشيئته ، وخلق الإنسان على هذه الصورة الجميلة أمر يستحق التدبر الطويل ، والشكر العميق ، والأدب الجم ، والحب لربه الكريم الذى أكرمه بهذه الخلقة ، تفضلاً منه ورعاية ومنة .

ثم يكشف عن علة الغرور والتقصير ـ وهى التكذيب بيوم الحساب ـ ويقرر حقيقة الحساب، واختلاف الجزاء فى توكيد وتشديد ؛ فما يكذب القلب بالحساب والجزاء ثم يستقيم على هدى ولا خير ولا طاعة ، وقد ترتفع القلوب وتشف فتطيع ربها وتعبده حبًا فيه لا خوفًا من عقابه ولا طمعًا فى ثوابه ، ولكنها تؤمن بيوم الدين وتخشاه ، وأما حين يكذب الإنسان بهذا اليوم فلن يشتمل على طاعة ولا أدب ولن يحيا فيه قلب ، ولن يستيقظ فيه ضمير ، وكيف تكذبون بيوم الدين ، وأنتم صائرون إليه وكل ما عملتم محسوب عليكم فيه لا يضيع منه شئ ، ولا ينسى منه شئ ، وهؤلاء الحافظون هم الأرواح الموكلة بالإنسان ـ من الملائكة ـ التى ترافقه وتراقبه ، وتحصى عليه كل ما يصدر عنه ، ويكفى أن يشعر القلب البشرى أنه غير متروك سدى ، وأن عليه حفظة كراما كاتبين يعلمون ما يفعله ليرتعش ويستيقظ ويتأدب ، وهذا هو المقصود .

ثم يقرر مصير الأبرار ومصير الفجار بعد الحساب ، القائم على ما يكتبه الكرام الكاتبون ، وهو مصير مؤكد ، وعاقبة مقررة أينتهى الأبرار إلى النعيم ، وأن ينتهى الفجار إلى الجحيم ، ويزيد حال الفجار ظهوراً فهو سيدخلون الجحيم يوم القيامة ولا يغيبون عن العذاب ساعة واحدة ولا يخفف عنهم من عذابها ، ولا يجابون إلى مايسألون من الموت أو الراحة ، ولما كان يوم الدين هو موضع التكذيب ، فإنه يعود إليه بعد تقرير ما يقع فيه ، والسؤال يوقع فى الحس أن

الأمر أعظم جداً وأهول جداً من أن يحيط به إدراك البشر المحدود ، فهو فوق كل تصور ، وفوق كل توقع وفوق كل مألوف .

وتكرار السؤال يزيد فى الاستهوال ، ويجئ البيان بالعجز الشامل وهو الشكل الكامل للإنسان ويتفرد الله سبحانه وهو المتفرد بالأمر فى الدنيا والآخرة ، ولكن فى هذا اليوم - يوم الدين تتجلى هذه الحقيقة التى قد يغفل عنها فى الدنيا الغافلون المغرورون ، فلا يعود بها خفاء ، ولا تغيب عن مخدوع ولا مفتون .

سورة المطففين

هذه السورة تصور قطاعا من الواقع العملى الذى كانت الدعوة تواجهه فى مكة إلى جانب ما كانت تستهدفه من إيقاظ القلوب ، وهز المشاعر وتوجيهها إلى الرسالة السماوية للأرض ، وتبدأ السورة بالحرب يعلنها الله على المطففين ، والويل هو الهلاك ، والمطففون هم الذين يتقاضون بضاعتهم وافية إذا كانوا شراة ، ويعطونها للناس ناقصة إذا كانوا بائعين ، وهو أمر عجيب أمر هؤلاء المطففين الذين يتصرفون كأنه ليس هناك حساب على ما يكسبون فى الحياة الدنيا ، وكأنه ليس هناك موقف جامع بين يدى الله فى يوم عظيم يتم فيه الحساب والجزاء أمام العالمين .

يقول صاحب الظلال : « هذه اللفتة ـ وهى التصدى لشأن المطففين ـ فى البيئة المكية تشى بطبيعة هذا الدين ؛ وشمول منهجه للحياة الواقعية وشؤونها العملية ، وإقامتها على الأساس الأخلاقى العميق الأصيل فى طبيعة هذا المنهج الإلهى القويم ، فقد كره هذه الحالة الصارخة من الظلم والإشراف الأخلاقى فى التعامل ، وهو لم يتسلم بعد زمام الحياة الاجتماعية ، لينظمها وفق شريعته بقوة القانون وسلطان الدولة ، وأرسل هذه الصيحة المدوية بالحرب والويل على المطففين ، وهم يومئذ سادة مكة ... فكان الإسلام بهذه الصيحة المنبعثة من ذاته ومن منهجه السماوى موقظا للجماهير المستغلة ، ولم يكن قط مخدراً لها حتى وهو محاصر فى مكة بسطوة المتجبرين ، ومن ثم ندرك طرفا من الأسباب الحقيقة التى جعلت كبراء قريش يقفون فى وجه الدعوة .. ؛ لقد كانوا يدركون أن هذه العقيدة منهجا يحطم كل أساس الجاهلية ...

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ كل إنسان معه ملائكة يسجلون أعماله ، ليحاسب عليها يوم القيامة .

٢ ـ المؤمنون الصالحون يتمتعون بنعيم الجنة ، والفجار المفسدون يعذبون فى نار الجحيم ، ولا يخرجون منها أبداً.

٣ ـ على المسلم أن يكون عادلا فى كيله ووزنه ، فلا يظلم أحداً فى بيع أو شراء .

الجزء الثلاثون — سورة المطففين

كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾

٥٨٨

معانى الكلمات :

لفى سجين : لمثبت فى ديوان الشر .

مرقوم : واضح الكتابة لا ينسى ولا يمحى .

معتد : فاجر متجاوز عن نهج الحق .

ران : غلب أو طبع عليها .

لصالوا : لداخلوها .

لفى عليين : لمثبت فى ديوان الخير .

نضرة النعيم : بهجته .

مزاجه : ما يمزج به ويخلط .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على وصف الفجار وحصيدهم ، ووصف الأبرار وجزائهم .

٢ ـ أن نعلم ما يلاقيه الأبرار من أذى الفجار فى الدنيا .

٣ ـ أن نعلم عاقبة كلا الفريقين .

المحتوى التربوى :

القرآن الكريم يردع الفجار عن التكذيب بيوم الدين ويزجرهم ، ويؤكد لهم أن لهم كتابا تحصى فيه أعمالهم ويحدد موضعه زيادة فى التوكيد ، ويوعدهم بالويل فى ذلك اليوم الذى يعرض فيه كتابهم المرقوم، والفجار هم المتجاوزون للحد فى المعصية والإثم، وكتابهم هو سجل أعمالهم، لا ندرى نحن ماهية ولم تكلف هذا ، فهناك سجل لأعمال الفجار يقول القرآن : إنه فى سجين، ثم يسأل سؤال الاستهوال المعهود فى التعبير القرآنى، فيشعر المخاطب أن الأمر أكبر من إدراكه، وأضخم من أن يحيط به علمه ، ولكنه قد حدد له موضعا معينا وإن يكن مجهولا للإنسان .

ثم يعود إلى وصف كتاب الفجار ذاك فيقول أنه مفروغ منه ، لا يزاد فيه ولا ينقص منه ، حتى يعرض فى ذلك اليوم العظيم ، فإذا كان ذلك فالهلاك والدمار للمكذبين ، ويحدد موضوع

التكذيب وحقيقة المكذبين ؛ فالاعتداء والإثم يقودان صاحبهما إلى التكذيب بذلك اليوم ، وإلى سوء الأدب مع هذا القرآن فيقول عن آياته حين تتلى عليه أنها مفتعلة مجموعة من كتب الأوائل، ثم يكشف عن علة هذا التطاول والتكذيب ، وهذه الغفلة عن الحق الواضح، فقد حجبت قلوبهم عن الإيمان به ما عليها من الرين الذى قد لبس قلوبهم من كثرة الذنوب والخطايا، والقلب الذى يمرد على المعصية ينطمس يظلم ، ويفقد الحساسية شيئا فشيئا حتى يتبلد ويموت.

ثم يذكر شيئا عن مصيرهم فى ذلك اليوم العظيم يناسب علة الفجور والتكذيب ؛ فقد حجبت قلوبهم المعاصى والآثام ، حجبتها عن افحساس بربها فى الدنيا ، والنهاية الطبيعية والجزاء الوفاق فى الآخرة أن يحرموا النظر إلى وجه الله الكريم ، وأن يحال بينهم وبين هذه السعادة الكبرى التى لا تتاح إلا لمن شقت روحه ورقت وصفت ، واستحقت أن تكشف الحجب بينها وبين ربها ، ثم هم مع هذا الحرمان عن رؤية الحرمان من أهل النيران ، ومع الجحيم التأنيب وهو من أمر الجحيم ، ويقال لهم : هذا الذى كنتم به تكذبون فى الدنيا .

ثم يعرض فى الصفحة الأخرى ، صفحة الأبرار على العهد بطريقة القرآن فى عرض الصفحتين متقابلتين فى الغالب ، وكلمة كلا تجئ فى صدر هذا المقطع زجراً عما ذكر قبله من التكذيب ، ويبدأ الحديث عن الأبرار فى حزم وفى توكيد ، فكتاب الأبرار عليين ، والأبرار هم : الطائعون الفاعلون كل خير ، ولفظ عليين يوحى بالعلو والارتفاع ، ويتم التعقيب بسؤال التجهيل والتهويل مما يوحى بأن عليين هو أمر فوة العلم والإدراك ، وكتاب الأبرار مرقوم لا يزاد فيه ولا ينقص منه فهو مفروغ منه ، والملائكة المقربون يشهدون هذا الكتاب ويرونه .

ثم يذكر حال الأبرار أنفسهم أصحاب هذا الكتاب الكريم ، ويصف ما هم فيه من نعيم فى ذلك اليوم العظيم ؛ فالأبرار فى موضع التكريم ، ينظرون حيث يشاؤون ، لا يغضون من مهانة ، ولا يشغلون عن النظر من مشقة ، وهم على الأرائك وهى الأسرة فى الحجال ، وأقرب ما يمثلها عندنا ما نسميه الناموسية ، وهى على أية حال أعلى من كل ما يعهده الإنسان مما يستمده من تجاربه فى الأرض وتصوراته ، وهم فى النعيم ناعمو النفوس والأجسام ، تفيض النضرة على وجوههم وملامحهم حتى ليراها كل راء .

وهم يسقون من خمر الجنة والرحيق من أسمائها ، وهو الشراب الخالص المصفى الذى لا غش فيه ولا كدرة ، ووصفه بأنه مختوم ختامه مسك ، قد يفيد أنه معد فى أوانيه ، وأن هذه الأوانى مقفلة مختومة ، تفض عند الشراب ، وهذا يلقى ظل الصيانة والعناية ، كما أن جعل الختم من المسك فيه أناقة ورفاهية ، وهذا الرحيق المختوم يفض ختامه ثم يمزج بشئ من هذه العين المسماه « تسنيم » التى يشرب بها المقربون ، وقيل أن يجئ بهذا الوصف يلقى بهذا التوجيه توجيه المنافسة إلى الخير ، فما فى هذا العرض الزهيد من مال أو متاع من متاع الأرض ينبغى التنافس ،

إنما يكون التنافس فى ذلك النعيم وفى ذلك التكريم ، وهو مطلب يستحق المنافسة ، وهى غاية تستحق الغلاب ، والدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة ، ولكن الآخرة ثقيلة فى ميزانه .

يقول صاحب الظلال : « ومن عجب أن التنافس فى أمر الآخرة يرتفع بأرواح المتنافسين جميعا ، بينما التنافس فى أمر الدنيا ينحط بها جميعا ، والسعى لنعيم الآخرة يصلح الأرض ويعمرها ويطرها للجميع ، والسعى لعرض الدنيا يدع الأرض مستنقعا وبيئا تأكل فيه الديدان بعضها البعض ، أو تنهش فيه الهوام والحشرات جلود الأبرار الطيبين ، والتنافس فى نعيم الآخرة لا يدع الأرض خرابا بلقعا كما قد يتصور بعض المنحرفين ، إنما يجعل الدنيا مزرعة الآخرة، ويجعل القيام بخلافة الأرض بالعمار مع الصلاح والتقوى وظيفة المؤمن الحق على أن يتوجه بهذه الخلافة إلى الله ، ويجعل منها عبادة له تحقق غاية وجوده » .

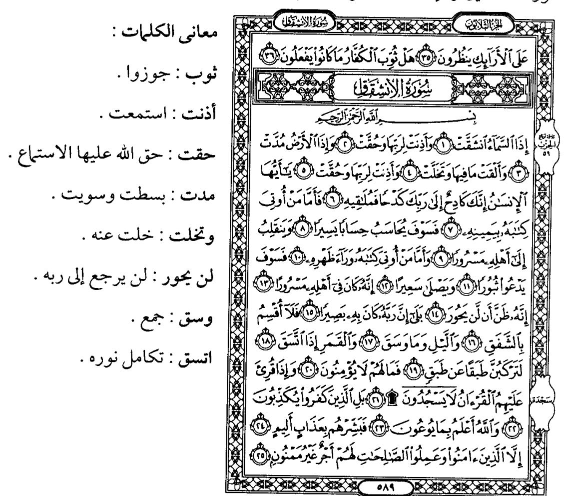
وكأنما أطال السياق فى عرض صور النعيم الذى ينتظر الأبرار ؛ تمهيداً للحديث عما كانوا يلقون فى الأرض من الفجار من أذى واستهزاء وتطاول وادعاء ، وقد أطال كذلك ليختمه بالسخرية من الكفار وهم يشهدون نعيم الأبرار ، فالذين أجرموا كانوا يضحكون من الذين آمنوا استهزاء بهم ، وسخرية منهم ؛ إما لفقرهم ورثاثة حالهم ، وإما لضعفهم عن ود الأذى ، وإما لترفعهم عن سفاهة السفهاء ، وهم يتخذون المؤمنين مادة لسخريتهم أو فكاهتهم وهم يسلطون عليهم الأذى ثم يضحكون مما يصيب المؤمنين وهم صابرون ، وإذا مروا بالمؤمنين يتغامزون عليهم ، بأعينهم أو يشيرون بأيديهم ، أو بحركة متعارفة بينهم للسخرية من المؤمنين ، وإذا رجع هؤلاء المجرمون إلى منازلهم رجعوا راضين عن أنفسهم ، مبتهجين بما فعلوا ، مستمتعين بهذا الشر الصغير الحقير ، فلم يتلاوموا ولم يندموا ، ولم يشعروا بحقارة ما صنعوا وقذارة ما فعلوا ، ولا أعجب من أن يتحدث المجرمون عن الهدى والضلال ، وأن يزعموا أن المؤمنين ضالون ، وما وكلوا بشأن المؤمنين فلم اشتغلوا بهم ؟ فاليوم والكفار يقاسون العذاب والمؤمنون يضحكون عليهم فى مقابلة ضحكهم فى الدنيا ، وفرق بين ضحك لحظات ، وضحك مكين فى عيشة لا تنقطع .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ أعمال الناس تسجل عليهم فى كتب لا تزول ولا تمحى .

٢ ـ المؤمنون يرون الله فى الآخرة ، والفجار يعاقبون بالحرمان من هذه الرؤية ، ويدخلون الجحيم ، فأولى بالمسلم أن يجعل أنفاسه لله .

٣ ـ الجزاء فى الآخرة على أعمال الدنيا جزاء عادلا ولا ظلم فيه ، فعلى المسلم أن يتمسك بعقيدته وإن اليوم عليه، فله كل ما بعده .



الجزء الثلاثون — سورة الانشقاق

عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

سورة الانشقاق

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾

٥٨٩

معانى الكلمات :

ثوب : جوزوا .

أذنت : استمعت .

حقت : حق الله عليها الاستماع .

مدت : بسطت وسويت .

وتخلت : خلت عنه .

لن يحور : لن يرجع إلى ربه .

وسق : جمع .

اتسق : تكامل نوره .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نستشعر طابع الاستسلام لله ، استسلام السماء واستسلام الأرض فى طواعية .

٢ ـ أن نعلم مصائر الكادحين عندما يصلون إلى نهاية الطريق .

٣ ـ أن نعلم علة الكفر وعاقبته وعاقبة الإيمان .

المحتوى التربوى :

يوضح السياق أن يوم القيامة يضحك الذين آمنوا من الكفار وهم على الأرائك ينظرون فى ذلك النعيم المقيم ، وهم يتناولون الرحيق المختوم بالمسك الممزوج بالتسنيم ، والقرآن يتوجه بالسخرية العالية مرة أخرى وهو يسأل : هل وجد الكفار ثواب ما فعلوا ؟ وهم لم يجدوا « الثواب » المعروف من الكلمة ، فنحن نشهدهم اللحظة فى الجحيم ، ولكنهم من غير شك لاقوا جزاء ما فعلوا .

يقول صاحب الظلال : « لقد كان القرآن ينشىء قلوبا يعدها لحمل الأمانة ، وهذه القلوب كان يجب أن تكون من الصلابة والقوة والتجرد ، بحيث لا تتطلع ـ وهى تبذل كل شىء وتحتمل كل شىء ـ إلى شىء فى هذه الأرض ، ولا تنتظر إلا الآخرة ، ولا ترجو إلا رضوان الله ، قلوبا

مستعدة لقطع رحلة الأرض كلها فى نصب وشقاء وحرمان وعذاب وتضحية واحتمال بلا جزاء فى هذه الأرض قريب ، ولو كان هذا الجزاء هو انتصار الدعوة وغلبة الإسلام وظهور المسلمين ، حتى إذا وجدت هذه القلوب التى تعلم أن ليس أمامها فى رحلة الأرض شىء إلا أن تعطى بلا مقابل ، وأن تنتظر الآخرة وحدها موعداً للجزاء ، وموعداً كذلك للفصل بين الحق والباطل ، حتى إذا وجدت هذه القلوب وعلم الله منها صدق نيتها على ما بايعت وعاهدت آتاها النصر فى الأرض وائتمنها عليه ، لا لنفسها ولكن لتقوم بأمانة المنهج الإلهى ... » .

سورة الانشقاق

تبدأ السورة ببعض مشاهد الانقلاب الكونى وهى هنا ذات طابع خاص ، طابع الاستسلام لله، استسلام السماء واستسلام الأرض فى طواعية وخشوع ويسر ، فانشقاق السماء سبق الحديث عنه فى سور سابقة ، أما الجديد هنا فهو استسلام السماء لربها ووقوع الحق عليها ، وخضوعها لوقع هذا الحق وطاعتها ، فإذن السماء لربها : استسلامها وطاعتها لأمره فى الانشقاق ، ووقع عليها الحق ، واعترفت بأنها محقوقة لربها ، وهو مظهر من مظاهر الخضوع ؛ لأن هذا حق عليها مسلم به منها ، والجديد هنا كذلك مد الأرض ومط رقعتها وشكلها ، وإلقاء ما فيها وهو تعبير يصور الأرض كائنة حية تلقى ما فيها وتتخلى عنه،وما فيها كثير منه تلك الخلائق التى لا تحصى، ومنه سائر ما يختبئ فى جوف الأرض من معادن ومياه وأسرار لا يعلمها إلا بارئها ، وهى الأخرى استجابت لربها مستسلمة معترفة أن هذا حق عليها ، والذى يتبقى فى الحس هو ظل الاستسلام الطائع الخاشع فى غير ما جلبة ولا معارضة ولا كلام .

وفى هذا الجو الخاشع الطائع يجىء النداء العلوى للإنسان ، وأمامه الكون بسمائه وأرضه مستسلما لربه ، هذا الاستسلام : يا أيها الإنسان إنك تقطع رحلة حياتك على الأرض كادحًا ، تحمل عبئك وتجهد جهدك وتشق طريقك، لتصل فى النهاية إلى ربك ، فإليه المرجع وإليه المآب بعد الكد والكدح والجهاد ، فأنت ساع إلى ربك سعيا ، وعامل عملا ثم إنك ستلقى ماعملت خيراً أو شراً ، وإنك لا تجد الراحة فى الأرض أبداً والكدح واحد ، أما العاقبة فمختلفة عندما تصل إلى ربك ؛ فواحد إلى عناء دونه عناء الأرض ، وواحد إلى نعيم يمسح على آلام الأرض كأنه لم يكن كدح ولا كد .

والذى يؤتى كتابه بيمينه هو المرضىّ السعيد الذى آمن وأحسن ، فرضى الله عنه وكتب له النجاة ، وهو يحاسب حسابا يسيراً ، فلا يناقش ولا يدقق معه فى الحساب ، ثم ينجو ويرجع إلى الناجين الذين سبقوه إلى الجنة ، وهو تعبير يفيد تجمع المتوافقين على الإيمان والصلاح من أهل الجنة ، ومن أحب من أهله وصحبه ، وهو وضع يقابل وضع المعذب الهالك المأخوذ بعمله السيئ،الذى يؤتى كتابه وهو كاره بشماله من وراء ظهره وهو الكاره المكره الخزيان من المواجهة.

وهذا التعيس الذى قضى حياته فى الأرض كدحا ، وقطع طريقه إلى ربه كدحا ـ ولكن فى المعصية والإثم والضلال يعرف نهايته ، ويواجه مصيره ، ويدرك أنه العناء الطويل بلا توقف فى هذه المرة ولا انتهاء ، فيدعو ثبوراً ، وينادى الهلاك لينقذه مما هو مقدم عليه من الشقاء ، وحين يدعو الإنسان بالهلاك لينجو به ، يكون فى الموقف الذى ليس بعده ما يتقيه ، حتى ليصبح الهلاك أقصى أمانيه ، ويكر السياق راجعًا إلى ماضى هذا الشقى ، فيذكر من تاريخه الأسود أنه كان غافلا عن الدار الآخرة ، ولا يفكر فى العواقب ، ولا يقدم لها زادًا ، فقد كان يعتقد أنه لا يرجع إلى الله ولا يعيده بعد موته ، ولكن الحقيقة أن ربه كان مطلعا عليه أمره ، وأنه مجازيه بما كان منه .

ويعود السياق بالكادحين إلى لمحات من هذا الكون الذى يعيشون فيه حياتهم ، وهم غافلون عما تشى به هذه اللمحات من التدبير والتقدير الذى يشملهم كذلك ، ويقدر بإحكام ما يتوارد عليهم من أحوال فيقسم بالشفق وهو الوقت الخاشع بعد الغروب ، وهو الحمرة من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة ، ويتتابع القسم بالليل وما جمع وما حمل ، وبالقمر إذا اجتمع واستوى واكتمل ، هذه اللمحات الكونية يخاطب بها القلب البشرى الذى يغفل ، فيجىء القسم بها ليبرزها للمشاعر والضمائر فى دلالتها على القدرة التى تمسك بأقدار هذا الكون ، والناس غافلون عن معاناتهم يوم القيامة حالا بعد حال ، ويلقون من شدائده وأهواله أحوالا ، وقوم كانوا فى الدنيا خسيس أمرهم فارتفعوا فى الآخرة .

ثم يجىء التعجيب من أمر الذين لا يؤمنون ، فموحيات الإيمان فى لمحات الوجود ، وفى أحوال النفوس تواجه القلب البشرى حيثما توجه ، وما لهم إذا قرئت عليهم آيات الرحمن وكلامه لا يسجدون لها إعظاما وإكراما واحتراما؟ وتأتى علة الكفر بأن طابعهم التكذيب ، والله أعلم بما يكتمون فى صدورهم من الشر والسوء ، وهؤلاء لهم العذاب الشديد ، وأما أهل الإيمان فلهم الأجر الدائم غير المقطوع فى دار البقاء والخلود ، ولله المنة أن جعل الانشقاق بين أهل الإيمان وأهل الفجور والطغيان واسعا .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ كل إنسان سيلقى جزاء عمله ، والعاقل من يجد فى طلب الثواب والهرب من العقاب .

٢ ـ ليس هناك عذر للذين لا يؤمنون بالله مع وضوح الأدلة وكثرتها على وجود الله ووحدانيته .

٣ ـ أهل الجنة يعيشون فى الدنيا بالمخافة ، ويبدلهم الله الأمان والنعيم فى الآخرة .



الجزء الثلاثون — سورة البروج

سورة البروج

بسم الله الرحمن الرحيم

والسماء ذات البروج ﴿١﴾ واليوم الموعود ﴿٢﴾ وشاهد ومشهود ﴿٣﴾ قتل أصحاب الأخدود ﴿٤﴾ النار ذات الوقود ﴿٥﴾ إذ هم عليها قعود ﴿٦﴾ وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ﴿٧﴾ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴿٨﴾ الذى له ملك السموات والأرض والله على كل شىء شهيد ﴿٩﴾ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق ﴿١٠﴾ إن الذين ءامنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير ﴿١١﴾ إن بطش ربك لشديد ﴿١٢﴾ إنه هو يبدئ ويعيد ﴿١٣﴾ وهو الغفور الودود ﴿١٤﴾ ذو العرش المجيد ﴿١٥﴾ فعال لما يريد ﴿١٦﴾ هل أتاك حديث الجنود ﴿١٧﴾ فرعون وثمود ﴿١٨﴾ بل الذين كفروا فى تكذيب ﴿١٩﴾ والله من ورائهم محيط ﴿٢٠﴾ بل هو قرءان مجيد ﴿٢١﴾ فى لوح محفوظ ﴿٢٢﴾

سورة الطارق

٥٩٠

معانى الكلمات :

البروج : المنازل المعروفة للكواكب .

اليوم الموعود : يوم القيامة .

وشاهد : من يشهد على غيره فيه .

ومشهود : من يشهد عليه غيره فيه .

قتل : لعن أشد اللعن .

الأخدود : الشق العظيم .

نقموا : كرهوا وأنكروا .

فتنوا : عذبوا أو أحرقوا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن العقيدة محور الصراع بين الحق والباطل ، والمؤمن والفاجر .

٢ ـ أن نعلم أن الابتلاء سنة الله لتمحيص المؤمنين ومحق الكافرين .

٣ ـ أن نستشعر إحاطة الله تعالى بعباده ، وأنهم فى قبضته وأن نطمئن إلى ذلك .

المحتوى التربوى :

تبدأ السورة بقسم ، فتربط بين السماء وما فيها من بروج هائلة ، وهى أجرام النجوم أو المنازل التى تنتقل فيها هذه الأجرام فى أثناء دورانها ، واليوم الموعود الذى وعد الله بمجيئه ، ووعد بالحساب والجزاء فيه وهو يوم القيامة ، ففيه تعرض الخلائق فتصبح كلها مشهودة ، ويصبح الجميع شاهدين، ويعلم كل شىء، ويظهر مكشوفا لا يستره ساتر عن القلوب والعيون، تربط بين هذا كله وبين الحادث ونقمة أصحاب الأخدود واللعنة الشديدة ، وكلمة « قتل» تدل على الغضب ، غضب الله على الفعلة وفاعليها ، كما تدل على شناعة الذنب الذى يثير غضب الحليم ، ونقمته ، ووعيده بالقتل لفاعليه .

ثم يجيء تفسير الأخدود بالنار الذى صارت بدلا منه فى التعبير للإيحاء بتلهب النار فيه كله وتوقدها ، والأخدود: الشق فى الأرض ، وكان أصحابه قد شقوه وأوقدوا فيه النار حتى ملؤوه نارا ، قتل أصحاب الأخدود، واستحقوا هذه النقمة وهذا الغضب فى الحالة التى كانوا عليها وهم يرتكبون ذلك الإثم ، ويزاولون تلك الجريمة ، وهم يوقدون النار ويلقون بالمؤمنين من لا ذنب عندهم ولا ثأر ، وما جريمتهم إلا أنهم آمنوا بالله العزيز القادر على ما يريد ، الحميد المستحق للحمد فى كل حال ، والمحمود بذاته ولو لم يحمده الجهال ، وهو الحقيق بالإيمان به بالعبودية له ، وهو وحده الذى له ملك السموات والأرض ، وهو يشهد كل شىء وتتعلق به إرادته تعلق الحضور ، ثم هو الشهيد على ما كان من أمر المؤمنين وأصحاب الأخدود .

يقول صاحب الظلال : « تنتهى رواية الحادث وقد ملأت القلب بالروعة ، روعة الإيمان المستعلى على الفتنة ، والعقيدة المنتصرة على الحياة .. فقد كان فى مكنة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم فى مقابل الهزيمة لإيمانهم ، ولكن كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير : معنى زهادة الحياة بلا عقيدة ، وبشاعتها بلا حرية ، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد ، إنه معنى كريم جداً ومعنى كبير جداً هذا الذى ربحوه وهم بعد فى الأرض ، ربحوه وهم يجدون مس النار فتحترق أجسادهم ، وينتصر هذا المعنى الكريم الذى تزكيه النار ، وبعد ذلك لهم عند ربهم حساب ، ولأعدائهم الطاغين حساب » .

وبعد أن لعن الله عز وجل أصحاب الأخدود الذين فعلوا ما فعلوا بالمؤمنين ، تأتى آيتان هما بمثابة تعليق على الحادثة تتضمنان قاعدتين : الأولى : فى جزاء هؤلاء وأمثالهم ممن يفتن المؤمنين عن دينهم ، والثانية : فى جزاء أهل الإيمان ، فالذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات بعذابهم وإحراقهم ، ولم يندموا على ما فعلوا ، جزاؤهم جهنم ولهم فيها عذاب الحريق فالجزاء من جنس العمل ، ويتمثل رضا الله وإنعامه على الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى الجنة، وهذه هى النجاة الحقيقية، فالنجاة من عذاب الآخرة فوز ، فكيف بالجنات تجرى من تحتها الأنهار ؟

ثم تتوالى التعقيبات ، وإظهار حقيقة البطش وشدته فى هذا الموضع هو الذى يناسب ما مر فى الحادث من مظهر البطش الصغير الهزيل الذى يحسبه أصحابه ، ويحسبه الناس فى الأرض كبيراً شديداً ، فالبطش الشديد هو بطش الجبار الذى له ملك السموات والأرض ، لا بطش الضعاف المهازيل الذين يتسلطون على رقعة من الأرض محدودة ، فى رقعة من الزمان محدودة ، والبدء والإعادة وإن اتجه معناهما الكلى إلى النشأة الأولى والنشأة الآخرة ، إلا أنهما حدثان دائبان فى كل لحظة من ليل أو نهار ، ففى كل لحظة بدء وإنشاء ، وفى كل لحظة إعادة لما بلى ومات ، والكون كله فى تجدد مستمر ، وفى بلى مستمر .

والله سبحانه هو الغفور ، والمغفرة من الرحمة والفضل الفائض بلا حدود وقيود ، وهى الباب المفتوح الذى لا يغلق فى وجه عائد تائب ، ولو عظم الذنب وكبرت المعصية ، وهو صاحب الود للمؤمنين الذين اختاروا ربهم على كل شىء ، وهو الإيناس اللطيف الحلو الكريم ، وماذا تكون الحياة التى ضحوا بها وهى ذاهبة ؟ وماذا يكون العذاب الذى احتملوه وهو موقوت ؟ ماذا يكون هذا إلى جانب قطرة من هذا الود الحلو ؟ وإلى جانب لمحة من هذا الإيناس الحبيب ؟ إن عبيداً من رقيق هذه الأرض ، عبيد الواحد من البشر ليلقون بأنفسهم إلى التهلكة لكلمة تشجيع تصدر من فمه ، أو لمحة رضا تبدو فى وجهه ، وهو عبد وهم عبيد فكيف بعباد الله الذين يؤنسهم الله بوده الكريم الجليل ، والله صاحب العرش العظيم العالى المهيمن الماجد الكريم ؟ ألا هانت الحياة ، وهان الألم ، وهان العذاب ، وهان كل غال عزيز فى سبيل لمحة رضا يجود بها المولى الودود ذو العرش المجيد .

والله ـ عز وجل ـ مطلق الإدارة ، يختار ما يشاء ، ويفعل ما يريد ويختاره دائما أبداً ، فتلك صفته سبحانه ، يريد مرة أن ينتصر المؤمنون به فى هذه الأرض لحكمة يريدها ، ويريد مرة أن يأخذ الجبارين فى الأرض ويريد مرة أن يمهلهم لليوم الموعود لحكمة تتحقق هنا وتتحقق هناك فى قدره المرسوم ، وهاك نموذجا من فعله لما يريد ، فهل بلغك ما أحل الله بقوم فرعون وثمود من البأس ، وأنزل عليهم من النقمة التى لم يردها عنهم أحد ؟ ويسميهم الله الجنود إشارة إلى قوتهم واستعدادهم ، وهما نموذجان لفعل الإرادة وتوجه المشيئة ، وصورتان من صور الدعوة إلى الله واحتمالاتها المتوقعة إلى جانب الاحتمال الثالث الذى وقع فى حادث الأخدود ، وكلها يعرضها القرآن للقلة المؤمنة فى مكة ، ولكل جيل من أجيال المؤمنين .

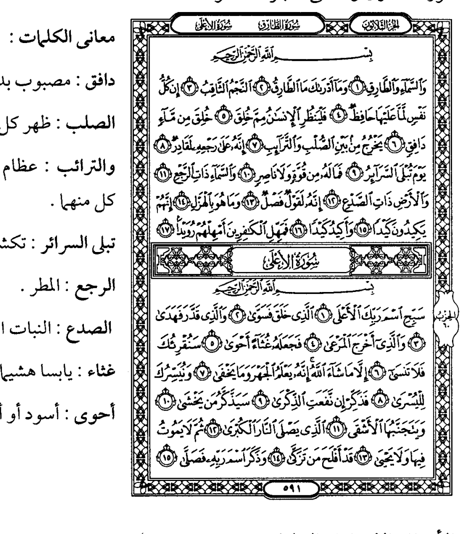
ويجىء الختام فيقرر : أن شأن الكفار التكذيب الدائم ، وهم غافلون عن قهر الله وعلمه وقدرته عليهم ، ولكن هو قرآن الله تتلى فيه هذه الحقائق ، وهل أمجد وأرفع وأعرق من قول الله العظيم ؟ وهو فى لوح محفوظ لا ندرك نحن طبيعته ؛ لأنه من أمر الغيب الذى تفرد الله بعلمه ، ونحن ننتفع بالظل الذى يلقيه التعبير ، وهذا القرآن مصون ثابت ، يذهب كل قول ، وقوله هو المرعى المحفوظ .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ المؤمن يضحى بنفسه فى سبيل عقيدته وإيمانه .

٢ ـ الكافرون يحقدون ـ دائما ـ على المؤمنين ، ويريدون أن يصرفوهم عن دينهم بكل الوسائل الممكنة ، وعلى المؤمنين أن يأخذوا حذرهم .

٣ ـ الله ـ تعالى ـ ينصر عباده المؤمنين وينتقم من الكافرين .



معانى الكلمات :

دافق : مصبوب بدفع وسرعة فى الرحم .

الصلب : ظهر كل من الرجل والمرأة .

والترائب : عظام الصدر أو الأطراف من كل منهما .

تبلى السرائر : تكشف خبايا النفوس .

الرجع : المطر .

الصدع : النبات الذى تشقق عنه .

غثاء : يابسا هشيما .

أحوى : أسود أو أسمر بعد الخضرة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم قدرة الله فى النشأة الآخرة وحتمية الرجوع إليه سبحانه .

٢ ـ أن نعلم حقيقة المعركة مع أعداء الله عز وجل .

٣ ـ أن نعلم ما تضمنته السورة من بشريات لرسول الله ﷺ .

المحتوى التربوى :

تبدأ السورة بقسم يتضمن مشهداً كونيا وحقيقة إيمانية ، وهو يبدأ بذكر السماء والطارق ويثنى بالاستفهام المعهود الموحى بأن الأمر وراء الإدراك والعلم ، فيقسم الله تبارك وتعالى بالسماء ونجمها الثاقب الذى يثقب الظلام بشعاعه النافذ ، يقسم أن كل نفس عليها من أمر الله رقيب يراقبها ويحصى عليها ، ويحفظ عنها ، وهو موكل بها بأمر الله، ويعين النفس لأنها مستودع الأسرار والأفكار ، وهى التى يناط بها العمل والجزاء .

وينتقل السياق إلى ما يؤكد حقيقة التقدير والتدبير التى أقسم عليها بالسماء والطارق ، فهذه نشأة الإنسان الأولى تدل على هذه الحقيقة ، وتوحى بأن الإنسان ليس متروكا سدى ولا مهملا

ضياعا ، فلينظر الإنسان من أى شىء خلق ، وإلى أى شىء صار ، إنه خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب ، **يقول صاحب الأساس** : « قد ذكر الله عز وجل مركز تجمع المنى بأنه الصلب والترائب ، فهو فى المنطقة بين العصعص وعظام المنطقة السفلى من الوسط ، بين العصعص وعظم العانة ، إن خصية الرجل ، ومبيض المرأة بين الصلب والترائب ، والمنى يخرج متدفقا ، وبويضة المرأة تخرج مع ماء يتدفق » .

ويتم التعقيب بالتمهيد لحقيقة النشأة الآخرة التى لا يصدقها المشركون ، فالله عز وجل الذى أنشأه ورعاه لقادر على رجعه إلى الحياة بعد الموت ، وإلى التجدد بعد البلى ، تشهد النشأة الأولى بقدرته ، كما تشهد بتقديره وتدبيره ، فهذه النشأة البالغة الدقة والحكمة تذهب كلها عبثا إذا لم تكن هناك رجعة لتختبر السرائر وتجزى جزاءها العادل يوم تبلى وتختبر وتنكشف وتظهر السرائر المكنونة ، يوم يتجرد الإنسان من كل قوة ومن كل ناصر ،وما له من قوة فى ذاته ، وما له من ناصر خارج ذاته ، والتكشف من كل ستر مع التجرد من كل قوة يضاعف شدة الموقف .

ولعل طائفا من شك أو بقية من ريب ، تكون باقية فى النفس ، فى أن هذا لابد كائن ، فمن ثم يجزم جزما بأن هذا القول الفصل ، ويربط بين هذا القول وبين مشاهد الكون ، فالرجع المطر ترجع به السماء مرة بعد مرة ، والصدع النبت يشق الأرض وينبثق ، وهما يمثلان مشهداً للحياة فى صورة من صورها ، حياة النبات ونشأته الأولى : ماء يتدفق من السماء ، ونبت ينبثق من الأرض ، أشبه شىء بالماء الدافق من الصلب والترائب ، والجنين المنبثق من ظلمات الرحم فالحياة هى الحياة ، يقسم الله بهذين الحدثين : السماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع بأن هذا القول الذى يقرر الرجعة والابتلاء - أو بأن هذا القرآن عامة - هو القول الفصل الذى لا يتلبس به الهزل ، القول الفصل الذى ينهى كل قول وكل جدل وكل شك وكل ريب .

ويتجه الخطاب إلى الرسول ﷺ هو ومن معه من القلة المؤمنة فى مكة يعانون من كيد المشركين ومؤامراتهم على الدعوة والمؤمنين بها ، يتجه الخطاب بالتثبيت والتطمين ، وبالتهوين من أمر الكيد والكائدين وأنه إلى حين ، وأن المعركة بيده هو - سبحانه - وقيادته ، فليصبر الرسول وليطمئن هو والمؤمنون ، فهؤلاء الذين خلقوا من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب بلا حول ولا قوة ولا قدرة ولا إرادة ولا معرفة ولا هداية والذين تولتهم يد القدرة، والذين هم صائرون إلى رجعة تبلى فيها السرائر حيث لا قوة لهم ولا ناصر ، إنهم يكيدون كيداً ، أنا المنشئ الهادى الحافظ الموجه المعيد ، المبتلى القادر القاهر ، خالق السماء والطارق ، وخالق الماء الدافق والإنسان الناطق ، وخالق السماء ذات الرجع، والأرض ذات الصدع ، أنا الله أكيد كيداً، فهذا

كيد وهذا كيد وهذه هى المعركة، ويأتى الإيناس للرسول ﷺ وكأنه هو الذى يأذن بإمهالهم، وكأنه صاحب الأمر ، وكأنما يقول له ربه : إنك مأذون فيهم ولكن أمهلهم قليلا .

سورة الأعلى

تبدأ السورة بالأمر بالتسبيح ، وهو التمجيد والتنزيه واستحضار معانى الصفات الحسنى لله تعالى ، والصفة الأولى القريبة فى هذا النص هى صفة الرب ، وصفة الأعلى ، والرب المربى والراعى،وصفة الأعلى تطلق التطلع إلى الآفاق التى لا تتناهى، فهو الذى خلق كل شىء فسواهُ فأكمل صنعته ، وبلغ به غاية الكمال الذى يناسبه ، والذى قدر لكل مخلوق وظيفته وغايته فهداه إلى ما خلقه لأجله ، والله خلق هذه الأرض وقدر فيها أقواتها لكل حى يدب فوق ظهرها أو يختبئ فى جوفها أو يطير فى جوها ، والمرعى يخرج فى أول أمره خضراً ثم يذوى فإذا هو غثاء أميل إلى السواد فهو أحوى ، وقد يصلح أن يكون طعاما وهو أخضر ، ويصلح أن يكون طعاما وهو غثاء أحوى ، وذلك بتقدير الذى خلق فسوى وقدر فهدى وبعدئذ يجىء بتلك البشرى العظيمة لرسول الله ﷺ وأمته من ورائه ، وتبدأ البشرى برفع عناء الحفظ لهذا القرآن ، فعليه القراءة يتلقاها عن ربه ، وربه هو المتكفل بعد ذلك بقلبه ، فلا ينسى ما يقرئه ربه، وهذه بشرى لأمته من ورائه تطمئن بها إلى أصل هذه العقيدة فهى من الله،والله كافلها وحافظها فى قلب نبيها، ويقع الاستثناء ليقرر طلاقة المشيئة الإلهية ليظل القلب معلقا بها حيا بهذا التعلق ، فالله يعلم الجهر وما هو سر .

والبشرى الثانية : أن الله يسهل عليه وعلى أمته ﷺ أفعال الخير وأقواله ، فذكر حيث تنفع التذكرة، فلا تضع العلم عند غير أهله، وسيتعظ من قلبه يخشى الله ويعلم أنه ملاقيه، ويتجنب هذه الذكرى فلا يسمع لها ولا يفيد منها الأشقى فى الآخرة بدخوله نار جهنم ، ولا يموت فيها فيستريح ولا يحيا حياة تنفعه بل تضره ، قد أفلح من طهر نفسه من كل رجس ودنس وذكر اسم ربه فاستحضره فى قلبه وصلى الصلاة فى أوقاتها .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ الإنسان مراقب وأعماله محسوبة له أو عليه .

٢ ـ الله ـ سبحانه وتعالى ـ يمهل الظالمين ولا يعجل بعذابهم ؛ لأنه سيعاقبهم يوم القيامة .

٣ ـ الفوز لمن طهر نفسه من الكفر والذنوب وزكاها بالإيمان وصالح الأعمال .


الجزء الثلاثون — سورة الغاشية

بل تؤثرون الحياة الدنيا (١٦) والآخرة خير وأبقى (١٧) إن هذا لفي الصحف الأولى (١٨) صحف إبراهيم وموسى (١٩)

سورة الغاشية

بسم الله الرحمن الرحيم

هل أتاك حديث الغاشية (١) وجوه يومئذ خاشعة (٢) عاملة ناصبة (٣) تصلى نارا حامية (٤) تسقى من عين آنية (٥) ليس لهم طعام إلا من ضريع (٦) لا يسمن ولا يغني من جوع (٧) وجوه يومئذ ناعمة (٨) لسعيها راضية (٩) في جنة عالية (١٠) لا تسمع فيها لاغية (١١) فيها عين جارية (١٢) فيها سرر مرفوعة (١٣) وأكواب موضوعة (١٤) ونمارق مصفوفة (١٥) وزرابي مبثوثة (١٦) أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت (١٧) وإلى السماء كيف رفعت (١٨) وإلى الجبال كيف نصبت (١٩) وإلى الأرض كيف سطحت (٢٠) فذكر إنما أنت مذكر (٢١) لست عليهم بمصيطر (٢٢) إلا من تولى وكفر (٢٣) فيعذبه الله العذاب الأكبر (٢٤) إن إلينا إيابهم (٢٥) ثم إن علينا حسابهم (٢٦)

٥٩٢

معانى الكلمات :

الغاشية : القيامة .

خاشعة : ذليلة خاضعة من الخزى .

عاملة ناصبة : مستمرة فى العمل الذى يشقيها فى النار .

آنية : بلغت غايتها فى الحرارة .

ضريع : شىء فى النار ، كالشوك مُر منتن .

لاغية : لغواً وباطلا .

نمارق مصفوفة : وسائد موضوعة لترِيحهم عند الجلوس.

زرابى مبثوثة : بسط فاخرة مفرقة فى المجالس .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم وحدة العقيدة على مر الرسالات .

٢ ـ أن نتعرف على مشاهد يوم الغاشية وما يحدث فيه .

٣ ـ أن نعلم مصائر الناس يوم القيامة ومشاهد من جزائهم .

المحتوى التربوى :

تذكر الآيات المخاطبين بعلة الشقاء ومنشأ الغفلة ، فإيثار الحياة الدنيا هو أساس كل بلوى ، فعن هذا الإيثار ينشأ الإعراض عن الذكرى ؛ لأنها تقتضيهم أن يحسبوا حساب الآخرة ويؤثروها وهم يريدون الدنيا ويؤثرونها والآخرة خير فى نوعها وأبقى فى أمدها ، وفى الختام تجىء الإشارة إلى قدم هذه الدعوة وعراقة منبتها ، وامتداد جذورها فى شعاب الزمن ، وتوحد أصولها من وراء الزمان والمكان ، وهذا الذى ورد فى هذه السورة وهو يتضمن أصول العقيدة الكبرى ، وهذا الحق الأصيل العريق هو الذى فى الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى ، ووحدة الحق ووحدة العقيدة هى الأمر الذى تقتضيه وحدة الجهة التى صدر عنها ، إنه واحد يرجع إلى أصل واحد ، صادر من مصدر واحد من ربك الأعلى .

سورة الغاشية

هذه السورة باعثة إلى التأمل والتدبر ، وإلى الرجاء والتطلع ، وإلى المخافة والتوجس ، وإلى عمل الحساب ليوم الحساب ، وهى تطوّف بالقلب البشرى فى مجالين هائلين : مجال الآخرة وعالمها الواسع ، ومجال الوجود العريض المكشوف للنظر ، ثم تذكرهم بعد هاتين الجولتين بحساب الآخرة وسيطرة الله وحتمية الرجوع إليه فى نهاية المطاف .

وتبدأ السورة بالاستفهام الموحى بالعظمة الدال على التقرير ، الذى يشير فى الوقت ذاته إلى أن أمر الآخرة مما سبق به التذكير ، وتسمى القيامة هذا الاسم الجديد الغاشية ، أى الداهية التى تغشى الناس وتغمرهم بأهوالها ، ثم تعرض شيئًا من حديث الغاشية ، ويأتى العذاب قريبا من جو الغاشية فتعجل به ، فهناك : يومئذ وجوه خاشعة ذليلة متعبة مرهقة ، عملت ونصبت فلم تحمد العمل ولم ترض العاقبة ، ولم تجد إلا الوبال والخسارة ، فهى عملت لغير الله ، ونصبت فى غير سبيله، عملت لنفسها ولأولادها وتعبت لدنياها وأطماعها، ثم وجدت عاقبة العمل والكد، وجدته فى الدنيا شقوة بغير زاد ، ووجدته فى الآخرة سواداً يؤدى إلى العذاب ، وهى تواجه النهاية مواجهة الذليل المرهق المتعوس .

ومع هذا الذل والرهق والعذاب والألم ، تدخل ناراً حارة شديدة الحر ، تسقى من عين قد انتهى حرها وغليانها إلى نهايته ، وليس هناك طعام إلا الضريع قيل : إنه شجر من نار فى جهنم ، وقيل : نوع من الشوك اللاطئ بالأرض ترعاه الإبل وهو أخضر ويسمى « الشبرق » ،فإذا جنى صار اسمه الضريع ولم تستطع الإبل مذاقه فهو عندئذ سام ، والألم الذى يتجمع من الذل والوهن والخيبة ومن لسع النار الحامية ، ومن التبرد والارتواء بالماء الشديد الحرارة ، والتغذى بالطعام الذى لا تقوى الإبل على تذوقه ، وهو شوك لا نفع فيه ولا غناء ـ من مجموعة هذه التصورات يتجمع فى حسّنا إدراك لأقصى درجات الألم وعذاب الآخرة بعد ذلك أشد .

وعلى الجانب الآخر ، فهنا وجوه يبدو فيها النعيم ويفيض منها الرضا ، وجوه تنعم بما تجد وتحمد ما عملته فوجدت عقباه خيراً ، وتستمتع بهذا الشعور الروحى الرفيع ، شعور الرضا عن عملها حين ترى رضا الله عنها ، وليس أروح للقلب من أن يطمئن إلى الخير ويرضى عاقبته ، ومن ثم يقدم القرآن هذا اللون من السعادة على ما فى الجنة من رخاء ومتاع .

ثم يصف الجنة ومناعمها المتاحة لهؤلاء السعداء ؛ فهذه الجنة عالية فى ذاتها رفيعة مجيدة ، ثم هى عالية الدرجات، وعالية المقامات ، ولا تسمع فيها كلمة لغو ، والتنزه عن كل كلمة لاغية لا خير فيها ولا عافية وحده نعيم كبير ، ثم تجىء المناعم التى تشبع الحس والحواس ، تجىء فى الصورة التى يملك البشر تصورها ، وهى فى الجنة مكيفة وفق ما ترتقى إليه نفوس أهل الجنة مما

لا يعرفه إلا من يذوقه ، ففيها عين جارية والعين الجارية ينبوع يتدفق ، وهو يجمع إلى الرى الجمال ، جمال الحركة والتدفق والجريان ، وفيها السرر المرفوعة ، والارتفاع يوحى بالنظافة كما يوحى بالطهارة ، والأكواب مصفوفة مهيأة للشراب لا تحتاج إلى طلب ولا إعداد ، والنمارق الوسائد والحشايا مهيأة للاتكاء فى ارتياح ، والسجاجيد مبثوثة هنا وهناك للزينة وللراحة سواء ، وكلها مناعم مما يشهد الناس له أشباها فى الأرض ، أما طبيعتها وطبيعة المتاع بها فهى موكولة إلى المذاق هناك ، للسعداء الذين يقسم الله لهم هذا المذاق .

وينتقل السياق إلى آيات الله المبثوثة فى خلائقه المعروضة للجميع ؛ فيضم أطراف الخلائق البارزة فى الكون كله ، حين تتضمن السماء والأرض والجبال والجمال (ممثلة لسائر الحيوان) أياً كان حظ الإنسان من العلم والحضارة فهذه المشاهد داخلة فى علمه وإدراكه ، ومن ثم يوجه القرآن الناس كافة إليها ؛ فالإبل تركيبها عجيب ، فإنها فى غاية القوة والشدة ، وهى مع ذلك تلين للحمل الثقيل ، وتنقاد للقائد الضعيف ، وتؤكل وينتفع بوبرها ، ويشرب لبنها ، والسماء كيف رفعت بلا عمد ، وانتشرت فيها النجوم بلا عدد ، وجعل فيها هذه البهجة وهذا الجمال وهذا الإيحاء ، والجبال جعلت منصوبة قائمة ثابتة راسية ؛ لئلا تميد الأرض بأهلها ، وجعل فيها ما جعل من المنافع والمعادن ، وكيف بسطت الأرض ومدت ومهدت ، وهذا القدر يكفى لتحرك الروح نحو الخالق المبدع لهذه الخلائق .

ويأتى الخطاب للرسول ﷺ يوجهه إلى حدود واجبه وطبيعة وظيفته ، فعليه أن يذكرهم بالآخرة وما فيها ، وذكرهم بالكون وما فيه إنما أنت مذكر ، وأنت لا تملك من أمر قلوبهم شيئا حتى تقهرها على الإيمان ، فالقلوب بين أصابع الرحمن لا يقدر عليها إنسان ، وإذا كان هذا هو حد الرسول، فإن الأمر لا ينتهى عند هذا الحد، ولا يذهب المكذبون ناجين، ولا يتولون سالمين، فهم راجعون إلى الله وحده ، وهو مجازيهم وحده حتما ، فهنالك الله وإليه تصير الأمور ، إنما أنت مذكر وحسابهم بعد ذلك على الله ولا مفر ، وبهذا يتحدد دور الرسول فى هذه الدعوة ودور كل داعية إليها بعده .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ العقلاء هم الذين يفضلون الآخرة على الدنيا ، فالدنيا زائلة والآخرة هى الباقية .

٢ ـ على المسلم أن يتفكر فيما حوله من الكون ، حتى تتحرك الروح نحو خالقها .

٣ ـ على العلماء أن يعظوا الناس بالحسنى وألا يجبروا الناس على الإيمان ؛ لأن الهداية من عند الله .

سورة الفجر

بسم الله الرحمن الرحيم

والفجر ﴿١﴾ وليال عشر ﴿٢﴾ والشفع والوتر ﴿٣﴾ والليل إذا يسر ﴿٤﴾ هل في ذلك قسم لذي حجر ﴿٥﴾ ألم تر كيف فعل ربك بعاد ﴿٦﴾ إرم ذات العماد ﴿٧﴾ التي لم يخلق مثلها في البلاد ﴿٨﴾ وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ﴿٩﴾ وفرعون ذي الأوتاد ﴿١٠﴾ الذين طغوا في البلاد ﴿١١﴾ فأكثروا فيها الفساد ﴿١٢﴾ فصب عليهم ربك سوط عذاب ﴿١٣﴾ إن ربك لبالمرصاد ﴿١٤﴾ فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن ﴿١٥﴾ وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن ﴿١٦﴾ كلا بل لا تكرمون اليتيم ﴿١٧﴾ ولا تحاضون على طعام المسكين ﴿١٨﴾ وتأكلون التراث أكلا لما ﴿١٩﴾ وتحبون المال حبا جما ﴿٢٠﴾ كلا إذا دكت الأرض دكا دكا ﴿٢١﴾ وجاء ربك والملك صفا صفا ﴿٢٢﴾ وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى ﴿٢٣﴾

سورة الفجر

معانى الكلمات :

ليال عشر : العشر الأول من ذى الحجة .

والشفع والوتر : ما كان مزدوجا ومفردا .

يسر : يمضى ويذهب .

لذى حجر : لصاحب عقل .

إرم : اسم جد قبيلة عاد الأكبر .

فقدر : فضيق .

أكلا لما : جمعا بين الحلال والحرام .

حبا جما : كثيراً مع حرص وشره .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم مصارع الطغاة الغابرين الذين تحدث عنهم هذه السورة .

٢ ـ أن نعلم خصائص النفس البشرية الواردة فى الآيات .

٣ ـ أن نتعرف على تصور الإنسان للمنع والعطاء .

المحتوى التربوى :

تبدأ السورة بالقسم بالفجر وهى ساعة تنفس الحياة فى يسر وفرح وابتسام ، وإيناس ودود ندى ، والوجود الغافى يستيقظ رويداً رويداً ، وكأن أنفاسه مناجاة ، وكأن تفتحه ابتهال ، ويتوالى القسم ؛ بالليالى العشر قيل : هى العشر من ذى الحجة ، وقيل : هى العشر من المحرم ، وقيل : هى العشر من رمضان وإطلاقها هكذا أوقع وأندى ، فهى ليال عشر يعلمها الله ولها عنده شأن ، والشفع والوتر يطلقان روح الصلاة والعبادة فى ذلك الجو المأنوس الحبيب ، جو الفجر والليالى العشر ،و من الصلاة الشفع والوتر ، وهذا المعنى هو أنسب المعانى فى هذا الجو ، ومن ثم يعقب عليه فى النهاية أن فى ذلك قسما لذى لب وعقل ، وفيه مقنعا لمن له إدراك وفكر ، والمقسم عليه

بذلك القسم قد طواه السياق ليفسره ما بعده فهو موضوع الطغيان والفساد ، وأخذ ربك لأهل الطغيان والفساد ، فهو حق واقع .

وصيغة الاستفهام أشد إثارة لليقظة والالتفات ، وإضافة الفعل إلى «ربك »فيها للمؤمن طمأنينة وأنس وراحة ، وعسف الجبارين من المشركين ، الواقعين للدعوة وأهلها بالمرصاد ، وقد جمع الله فى هذه الآيات القصار مصارع أقوى الجبارين الذين عرفهم التاريخ القديم ؛ مصرع عاد إرم وهى عاد الأولى ، وكان مسكنهم بالإحقاف وهى كثبان الرمال فى جنوبى الجزيرة بين حضر موت واليمن ، وكانوا بدوا ذوى خيام تقوى على عماد ، وقد وصفوا فى القرآن والبطش ، وقد قطعت الصخر وشيدته قصوراً كما نحتت فى الجبال ملاجئ ومغارات ، وفرعون صاحب الجنود الذين يشدون له أمره ، أو الأوتاد هى الأهرامات التى تشبه الأوتاد الثانية فى الأرض المتينة البنيان ، وفرعون هذا فرعون موسى الطاغية الجبار ، هؤلاء هم الذين طغوا فى البلاد وليس وراء الطغيان إلا الفساد ، فلما أكثروا فى الأرض الفساد ، كان العلاج هو تطهير وجه الأرض من الفساد ، فربك راصد لهم ومسجل لأعمالهم ، فلما أن أكثروا الفساد وزاد صب عليهم ألوانا شديدة من العذاب ، والله يرصد خلقه فيما يعملون فليطمئن بال المؤمن .

والإنسان تخطئ موازينه وتضل تقديراته ، ولا يرى إلا الظواهر ما لم يتصل بميزان الله ، فيبتليه الله بالنعمة والإكرام بالمال أو المقام ، فلا يدرك أنه الابتلاء تمهيداً للجزاء ، إنما يحسب هذا الرزق هذه المكانة دليلا على استحقاقه عند الله للإكرام ، وعلامة على اصطفاء الله له واختياره ، فيعتبر البلاء جزاء والامتحان نتيجة ، ويقيس الكرامة عند الله بعرض هذه الحياة ، ويبتليه بالتضييق عليه فى الرزق فيحسب الابتلاء جزاء كذلك ، ويحسب الاختبار عقوبة ، ويرى فى ضيق الرزق مهانة عند الله ، وهو فى كلتا الحالتين مخطئ فى التصور ومخطئ فى التقدير ، فبسط الرزق أو قبضه ابتلاء من الله لعبده ؛ ليظهر منه الشكر على النعمة أو البطر ، ويظهر منه الصبر على المحنة أو الضجر ، والجزاء على ما يظهر منه بعد، والإنسان حين يخلو قلبه من الإيمان لا يدرك حكمة المنع والعطاء ، ولا حقيقة القيم فى ميزان الله .

والمال والجاه عند كثير من الناس كل شئ ، وليس وراءهما مقياس ، ومن ثم كان تكالبهم على المال عظيما ، وحبهم له حباطا غيا ، ومن يكشف لهم عن ذوات صدورهم فى هذا المجال ، ويقرر أن هذا الشره والشح هما علة خطئهم فى إدراك معنى الابتلاء من وراء البسط والقبض فى الأرزاق ، وليس الأمر كما يقول افنسان الخاوى من افيمان ، إنما الأمر انكم لا تنهضون بحق العطاء ، ولا توفون بحق المال ، فأنتم لا تكرمون اليتيم الصغير الذى فقد حاميه وكافله حين فقد أباه ، ولا تتحاضون فيما بينكم على إطعام المسكين الساكن الذى لا يتعرض للسؤال وهو محتاج ، مما يوحى بضرورة التكافل فى الجماعة فى التوجيه إلى الواجب إلى الخير العام وهذه سمة الإسلام،

وكان ضعف اليتامى مغريا بانتهاب أموالهم وبخاصة الإناث منهم فى صور شتى ، وبخاصة ما يتعلق بالميراث ، كما كان حب المال وجمعه بالربا وغيره ظاهرة بارزة ، وفى هذا الآيات فوق الكشف عن نفوسهم ، تنديد بهذا الواقع وروع عنه .

وعند هذا الحد من فضيحة حالهم المنكرة ، بعد تصوير خطأ تصورهم فى الابتلاء بالمنع والعطاء ، يجئ التهديد الرعيب بيوم الجزاء وحقيقة بعد الابتلاء ونتيجته فى إيقاع قوى شديد ، فدك الأرض تحطيم لمعالمها وتسويتها ، وهو أحد الانقلابات الكونية التى تقع فى يوم القيامة ، وأما مجئ ربك والملائكة صفا صفا ، فهو أمر غيبى لا ندرك طبيعته ونحن فى هذه الأرض ، ولكنا نحس وراء التعبير بالجلال والهول ، كذلك المجئ بجهنم نأخذ منه قربها منهم وقرب المعذبين منها وكفى ، فأما حقيقة ما يقع وكيفيته فهى من غيب الله المكنون ليومه المعلوم ، وهو مشهد ترجف له القلوب ، وتخشع له الأبصار ، والأرض تدك دكا دكا ، والجبار المتكبر يتجلى ويتولى الحكم والفصل ، ويقف الملائكة صفا صفا ، ثم يجاء بجهنم فتقف متأهبة هى الأخرى .

وفى هذا المشهد الحافل المهيب يقف الإنسان الذى عن حكمة الابتلاء بالمنع والعطاء ، والذى أكل التراث أكلا لما ، وأحب المال حبا جماً ، والذى لم يكرم اليتيم ، ولم يحض على طعام المسكين ، والذى طغى وأفسد وتولى ، يقف يومئذ يتذكر الحق ويتعظ بما يرى ، ولكن قد فات ، وأنى له الذكرى ؟ ولقد مضى عهد الذكرى ، فما عادت تجدى هنا فى دار الجزاء أحداً ، وإن هى إلا الحسرة على فوات الفرصة فى دار العمل فى الحياة الدنيا .

والآيات تعطى قيمته الحقيقية ومنزلته العالية حين يستشعر الإنسان قدرة الله الطليقة والضعف البشرى العاجز، العاجز حماية نفسه من قدرة ومن شروره وفساده الذى يسئ إلى عاقبته ، والعاجز فى إدراك طريقة بقصور فهمه وتفكيره الدانى ، يستشعر الإنسان هذا وهو يقلب صفحات الإيمان فيدرك أن دينه يرتقى بكل شئ ؛ بعقله وقلبه وتصوراته ، حتى بحياته وأنفاسه التى تتحول من أنفاس لا تتعدى أجزاء ثوان على مدى خطوات إلى أنفاس تملأ الوجود وتظل تنفس فى التاريخ .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ تعظيم الإسلام للوقت وبيان أهميته ،فالوقت هو الحياة فقد ذكر الفجر والليالى العشر .

٢ ـ دراسة التاريخ ومعرفة أحوال السابقين فوائد كثيرة ، من أهمها الاتعاظ بما حدث لهم .

٣ ـ المؤمن يشكر ربه عندما ينال نعمة ، ويصبر ولا يحزن عندما يصيبه مكروه .


الجزء الثلاثون — سورة البلد

يقول يا ليتني قدمت لحياتي (٢٤) فيومئذ لا يعذب عذابه أحد (٢٥)
ولا يوثق وثاقه أحد (٢٦) يا أيتها النفس المطمئنة (٢٧) ارجعي
إلى ربك راضية مرضية (٢٨) فادخلي في عبادي (٢٩) وادخلي جنتي (٣٠)

سورة البلد

بسم الله الرحمن الرحيم

لا أقسم بهذا البلد (١) وأنت حل بهذا البلد (٢) ووالد وما ولد
(٣) لقد خلقنا الإنسان في كبد (٤) أيحسب أن لن يقدر عليه
أحد (٥) يقول أهلكت مالا لبدا (٦) أيحسب أن لم يره أحد
(٧) ألم نجعل له عينين (٨) ولسانا وشفتين (٩) وهديناه
النجدين (١٠) فلا اقتحم العقبة (١١) وما أدراك ما العقبة (١٢)
فك رقبة (١٣) أو إطعام في يوم ذي مسغبة (١٤) يتيما ذا مقربة
(١٥) أو مسكينا ذا متربة (١٦) ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا
بالصبر وتواصوا بالمرحمة (١٧) أولئك أصحاب الميمنة (١٨) والذين
كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة (١٩) عليهم نار مؤصدة (٢٠)

سورة الشمس

٥٩٤

معانى الكلمات :

ولا يوثق : لا يشد بالسلاسل والأغلال .

حل بهذا البلد : حلال لك ما تصنع به يومئذ .

كبد : مشقة ومكابدة للشدائد .

لبدا : كثيراً فى المكرمات مباهاة .

النجدين : طريقى الخير والشر .

فك رقبة : تخليصها من الرق .

مسغبة : مجاعة .

متربة : فاقة شديدة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نستشعر الحسرة والندم الذى يصيب الإنسان العاصى يوم القيامة .

٢ ـ أن نعلم الحقائق الأساسية فى حياة الإنسان .

٣ ـ أن نعلم السبيل لاقتحام العقبة فى سبيل الله تعالى .

المحتوى التربوى :

حين تمضى حياة الإنسان ويصبح فى دار الجزاء ويتبين غفلته وفوات الأوان ، ما تبقى له إلا الحسرة على فوات الفرصة فى دار العمل ، وحين تتجلى له هذه الحقيقة ، يقول : يا ليتنى قدمت شيئا لحياتى هنا ، فهى الحياة الحقيقية التى تستحق اسم الحياة ، وهى التى تستأهل الاستعداد والتقدمة والادخار لها ، يا ليتنى .. أمنية فيها الحسرة الظاهرة ، وهى أقسى ما يملكه الإنسان فى الآخرة ، ثم يصور مصيره بعد الحسرة الفاجعة والتمنيات الضائعة ، فالله القهار الجبار الذى يعذب يومئذ عذابه الفذ الذى لا يملك مثله أحد ، والذى يوثق وثاقه الفذ الذى لا يوثق مثله أحد ، فليس أحد أشد عذابا ولا أشد قبضا من الله عز وجل .

وفى وسط هذا الهول وهذا العذاب والوثاق الذى يتجاوز كل تصور ، تنادى النفس المؤمنة من الملأ الأعلى ، فى عطف وقرب وتكريم ، وفى ثناء وتطمين : ارجعى إلى مصدرك بعد غربة الأرض وفرقة المهد ، ارجعى إلى ربك بما بينك وبينه من صلة ومعرفة ونسبة ، ارجعى وأنت راضية فى نفسك ، قد رضيت عن الله ورضى عنك أو أرضاك ، وادخلى فى كنفى ورحمتى .

سورة البلد

قال الألوسى : « لما ذم الله سبحانه فيما قبلها من أحب المال وأكل التراث أكلا لما ، ولم يحض على طعام المسكين ، ذكر جل وعلا فيها الخصال التى تطلب من صاحب المال من فك الرقبة ، وإطعام فى يوم ذى مسغبة ، وكذا لما ذكر عز وجل النفس المطمئنة هناك ، ذكر سبحانه ها هنا بعض ما يحصل به الاطمئنان » .

وتبدأ السورة بالقسم بمكة أم القرى ، بيت الله الحرام ، أول بيت وضع للناس ، ويكرم الله نبيه محمداً ﷺ فيذكره ويذكر حله بهذا البلد وإقامته ، بوصفها ملابسة تزيد هذا البلد حرمة ، وتزيده شرفا وعظمة ، ولما أقسم بأم القرى وهى المساكن أقسم بعده بالساكن وهو آدم أبو البشر وولده أو إشارة خاصة إلى إبراهيم أو إلى إسماعيل عليهما السلام ، وإضافة هذا إلى القسم بالبلد والنبى المقيم به ، وبانيه الأول وما ولد ، ولا ينفى أن يكون الوالد والولد على الإطلاق .

يقسم الله هذا القسم على حقيقة ثابتة فى حياة الكائن الإنسانى ؛ فقد خلق فى مكابدة ومشقة ، وجهد وكد ، وكفاح وكدح ، **يقول صاحب الظلال** : « إنه الكبد طبيعة الحياة الدنيا ، تختلف أشكاله وأسبابه ولكنه هو الكبد فى النهاية ، فأخسر الخاسرين هو من يعانى كبد الحياة الدنيا لينتهى إلى الكبد الأشق الأمر فى الأخرى ، وأفلح الفالحين من يكدح فى الطريق إلى ربه ليلقاه بمؤهلات تنهى عنه كبد الحياة ، وتنتهى به إلى الراحة الكبرى فى ظلال الله ، على أن فى الأرض ذاتها بعض الجزاء على ألوان الكدح والعناء ، إن الذى يكدح للأمر الجليل ليس كالذى يكدح للأمر الحقير ، ليس مثله طمأنينة بال وارتياحا للبذل ، واسترواحا بالتضحية فالذى يكدح وهو طليق من أثقال الطين ، أو للانطلاق من هذه الأثقال ، ليس كالذى يكدح ليغوص فى الوحل ويلصق بالأرض كالحشرات والديدان ، والذى يموت فى سبيل دعوة ليس كالذى يموت فى سبيل نزوة ، ليس مثله فى خاصة شعوره بالجهد والكبد الذى يلقاه » .

ثم يناقش بعض دعاوى الإنسان وتصوراته التى تشى بها تصرفاته ، فهذا الإنسان المخلوق فى كبد الذى لا يخلص من عناء الكدح والكد ؛ لينسى حقيقة حاله وينخدع بما يعطيه خالقه من أطراف القوة والقدرة والوجدان والمتاع ، فيتصرف تصرف الذى لا يحسب أنه مأخوذ بعمله ، ولا يتوقع أن يقدر عليه قادر فيحاسبه ، فيطغى ويبطش دون أن يخشى ودون أن يتحرج ، وهذه

هى صفة الإنسان الذى تعرى قلبه من الإيمان ، ثم إنه إذا دعى للخير والبذل يقول : قد أنفقت شيئا كثيراً فحسبى ما أنفقت وما بذلت ، وينسى أن عين الله عليه ، وأن علمه محيط به.

وأمام هذا الغرور الذى يخيل للإنسان أنه ذو منعة وقوة ، وأمام ضنه بالمال وادعائه أنه بذل الكثير ، يجابهه القرآن بفيض الآلاء عليه فى خاصة نفسه ، وفى صميم تكوينه وفى خصائص طبيعته واستعداداته ، تلك الآلاء التى لم يشكرها ولم يقم بحقها عنده ؛ فالله هو المنعم عليه بهذا القدر من القوة ويضن بالمال ، والله هو المنعم عليه بهذا المال ، ولا يهتدى ولا يشكر ، وقد جعل له من الحواس ما يهديه فى عالم المحسوسات : جعل له عينين يبصر بهما ، ولسانا ينطق به فيعبر عما فى ضميره ، وشفتين يستعين بهما على الكلام وأكل الطعام ، وجمالا لوجهه وفمه ، وأودع فى نفسه خصائص القدرة على إدراك الخير والشر ، ففى طبيعته هذا الاستعداد المزدوج لسلوك أى النجدين .

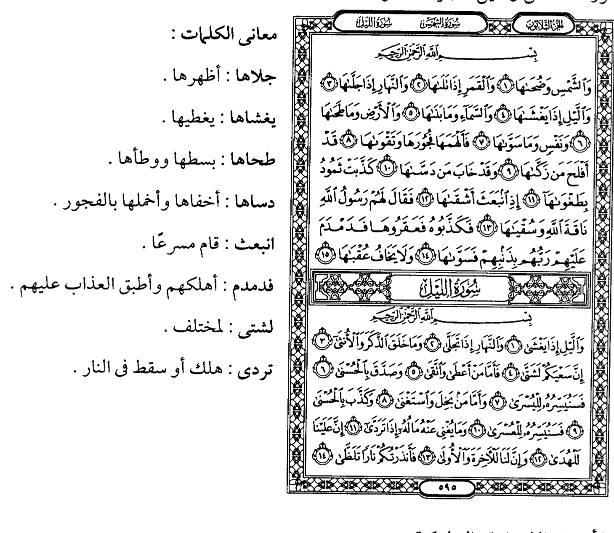
هذه الآلاء كلها تدفع هذا الإنسان إلى اقتحام العقبة التى تحول بينه وبين الجنة ، هذه العقبة التى تقف بينه وبين الجنة لو تخطاها لوصل ؛ هذه العقبة شأنها عظيم عند الله ، وفى ذلك تحفيز للإنسان إلى اقتحامها وتخطيها ، مهما تتطلب من جهد ومن كبد ، فالكبد واقع واقع ، وحين يبذل لاقتحام العقبة يؤتى ثمره ويعوض المقتحم عما يكابده، ويبدأ كشف العقبة وبيان طبيعتها وما تحتاجه ، من فك الرقاب العانية ، وإطعام الطعام والحاجة إليه ماسة للضعاف الذين تقسو عليهم البيئة المتكالبة ، من اليتامى والمساكين والناس فى المجاعة ، وفوق ذلك كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وهو العنصر الضرورى للإيمان بصفه عامة ، ولاقتحام العقبة بصفة خاصة ، وتواصوا بالرحمة بينهم ، وهؤلاء الذين يقتحمون العقبة أصحاب اليمين ، ولا حسنة مع الكفر فأصحابه أصحاب الشمال والشؤم والنحس وهؤلاء الذين بقوا وراء العقبة فلم يقتحموها ، عليهم نار مطبقة مغلقة الأبواب .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ على العاقل أن ينتهز الفرصة فى دار العمل قبل الفوات فى التزود للآخرة .

٢ ـ الإنسان منذ خلق فى رحم أمه وإلى أن يموت هو فى كفاح مستمر للحفاظ على حياته ، وفى الآخرة يكون التعب الأكبر للأشقياء .

٣ ـ عناية الإسلام بأمر اليتيم والحث على رعايته ، وعنايته بالفقراء والمحتاجين والضعفاء والحث على مساعدتهم .



الجزء الثلاثون سورة الشمس سورة الليل

بسم الله الرحمن الرحيم

والشمس وضحاها ﴿١﴾ والقمر إذا تلاها ﴿٢﴾ والنهار إذا جلاها ﴿٣﴾ والليل إذا يغشاها ﴿٤﴾ والسماء وما بناها ﴿٥﴾ والأرض وما طحاها ﴿٦﴾ ونفس وما سواها ﴿٧﴾ فألهمها فجورها وتقواها ﴿٨﴾ قد أفلح من زكاها ﴿٩﴾ وقد خاب من دساها ﴿١٠﴾ كذبت ثمود بطغواها ﴿١١﴾ إذ انبعث أشقاها ﴿١٢﴾ فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها ﴿١٣﴾ فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ﴿١٤﴾ ولا يخاف عقباها ﴿١٥﴾

سورة الليل

بسم الله الرحمن الرحيم

والليل إذا يغشى ﴿١﴾ والنهار إذا تجلى ﴿٢﴾ وما خلق الذكر والأنثى ﴿٣﴾ إن سعيكم لشتى ﴿٤﴾ فأما من أعطى واتقى ﴿٥﴾ وصدق بالحسنى ﴿٦﴾ فسنيسره لليسرى ﴿٧﴾ وأما من بخل واستغنى ﴿٨﴾ وكذب بالحسنى ﴿٩﴾ فسنيسره للعسرى ﴿١٠﴾ وما يغني عنه ماله إذا تردى ﴿١١﴾ إن علينا للهدى ﴿١٢﴾ وإن لنا للآخرة والأولى ﴿١٣﴾ فأنذرتكم نارا تلظى ﴿١٤﴾

٥٩٥

معانى الكلمات :

جلاها : أظهرها .

يغشاها : يغطيها .

طحاها : بسطها ووطأها .

دساها : أخفاها وأخملها بالفجور .

انبعث : قام مسرعًا .

فدمدم : أهلكهم وأطبق العذاب عليهم .

لشتى : لمختلف .

تردى : هلك أو سقط فى النار .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم دور الإنسان فى شأن نفسه وتبعته فى مصيرها .

٢ ـ أن نتعرف على نموذج من نماذج الخيبة التى ينتهى إليها من يدسى نفسه .

٣ ـ أن نعلم طريق اليسرى وطريق العسرى .

المحتوى التربوى :

يقسم الله عز وجل بالشمس عامة وحين تضحى وترتفع على الأفق بصفة خاصة ، وبالقمر إذا تلا الشمس بنوره اللطيف الشفيف الرائق الصافى ، ويقسم بالنهار إذا جلّى البسيطة وكشفها ، والليل إذا يغشى الشمس حين تغيب فتظلم الآفاق ، ثم يقسم بالسماء وبنائها وبانيها ، ويقسم بالأرض وبسطها وتمهيدها للحياة .

ثم تجىء الحقيقة الكبرى عن النفس البشرية فى سياق هذا القسم ، مرتبطة بالكون ومشاهده وظواهره، وهى إحدى الآيات الكبرى فى هذا الوجود المترابط ، **يقول صاحب الظلال :**

« ومن خلال هذه الآيات وأمثالها تبرز لنا نظرة الإسلام إلى الإنسان بكل معالمها ، إن هذا الكائن مخلوق مزدوج الطبيعة ، مزدوج الاستعداد ، مزدوج الاتجاه ، ونعنى بكلمة مزدوج على وجه التحديد أنه بطبيعة تكوينه من طين الأرض ومن نفخة الله فيه من روحه ، مزود باستعدادات متساوية للخير والشر ، والهدى والضلال ، فهو قادر على التمييز بين ما هو خير وما هو شر ، كما أنه قادر على توجيه نفسه إلى الخير وإلى الشر سواء ، وأن هذه القدرة كامنة فى كيانه، وهناك إلى جانب هذه الاستعدادات الفطرية الكامنة قوة واعية مدركة موجهة فى ذات الإنسان ، هى التى تناط بها التبعة ، فمن استخدم هذه القوة فى تزكية نفسه وتطهيرها وتنمية استعداد الخير فيها ، وتغليبه على استعداد الشر فقد أفلح ، ومن أظلم هذه القوة وخبأها وأضعفها فقد خاب .

ورحمة من الله بالإنسان لم يدعه لاستعداد فطرته ، ولا للقوة الواعية المالكة للتصرف ، فأعانه بالرسالات التى تضع له الموازين الثابتة الدقيقة ، وتكشف له عن موحيات الإيمان ودلائل الهدى فى نفسه وفى الآفاق من حوله ... ، هذه النظرة المجملة إلى أقصى حد تنبثق منها جملة حقائق ذات قيمة فى التوجيه التربوى :

فهى **أولا** : ترتفع بقيمة هذا الكائن الإنسانى حين تجعله أهلاً لاحتمال تبعة اتجاهه ، وتمنحه حرية الاختيار فى إطار المشيئة الإلهية التى شاءت له هذه الحرية فيما يختار ، فالحرية والتبعة يضعان هذا الكائن فى مكان كريم ...

وهى **ثانيا** : تلقى على هذا الكائن تبعة مصيره ، وتجعل أمره بين يديه فى إطار المشيئة الكبرى كما أسلفنا ، فتثير فى حسه كل مشاعر اليقظة والتحرج والتقوى ، وهو يعلم أن قدر الله فيه يتحقق من خلال تصرفه هو بنفسه ...

وهى **ثالثا** : تشعر هذا الإنسان بالحاجة الدائمة للرجوع إلى الموازين الإلهية الثابتة ، ليظل على يقين أن هواه لم يخدعه ولم يضلله ؛ كى لا يقوده الهوى إلى المهلكة ... » .

بعد ذلك يعرض نموذجا من نماذج الخيبة التى ينتهى إليها من يدسى نفسه فيحجبها عن الهدى ويدنسها ممثلا هذا النموذج فيما أصاب ثمود من غضب ونكال وهلاك ، فيذكر أن ثمود بسبب من طغيانها كذبت نبيها ، فكان الطغيان وحده هو سبب التكذيب ، وتمثل هذا الطغيان فى ابتعاث أشقاها ، وهو الذى عقر الناقة ، وهو أشدها شقاء وأكثرها تعاسة بما ارتكب من الإثم ، وقد حذرهم رسول الله قبل الإقدام على الفعلة فقال لهم : احذروا أن تمسوا ناقة الله أو أن تمسوا الماء الذى جعل لها يومًا ولهم يومًا كما اشترط عليهم عندما طلبوا منه فجعل الله هذه الناقة آية ، فكذبوا النذير فعقروا الناقة ، والذى عقرها هو هذا الأشقى واستحسنوا جميعا فعلته فتحملوا

التبعة ، وغضب الله عليهم فدمر عليهم ، والذى لا يخاف عاقبة ما يفعل يبلغ غاية البطش حين يبطش ، وكذلك بطش الله كان ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ (البروج) .

سورة الليل

يقسم الله تعالى بالليل إذا غشى الخليقة بظلامه ، والنهار إذا ظهر بضيائه وإشراقه ، على أن سعى الناس مختلف وطرقهم مختلفة، ومن ثم فجزاؤهم مختلف كذلك فليس الخير كالشر، وليس من أعطى واتقى كمن بخل واستغنى ، وليس من صدق وآمن كمن كذب وتولى ، وأن لكل طريقا ولكل مصيرا ، ولكل جزاء وفاقا ، فالسعى مختلف فى حقيقته ، مختلف فى بواعثه ، مختلف فى اتجاهه ، مختلف فى نتائجه ، وهذه حقيقة ، ولكن هناك حقيقة أخرى ، حقيقة إجمالية تضم أشتات البشر جميعا تحت رايتين عامتين : فمن أعطى نفسه وماله ، واتقى غضب الله وعذابه ، وصدق بهذه العقيدة التى إذا قيل الحسنى كانت اسما لها وعلما عليها .

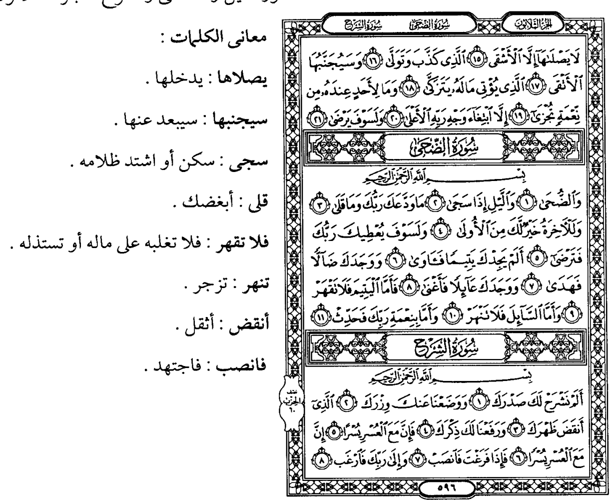
ومن بخل بنفسه وماله ، واستغنى عن الله وهداه وكذب بهذه الحسنى ، هذان هما الصنفان اللذان يلتقى فيهما شتات النفوس ، وشتات السعى ، وشتات المناهج ، وشتات الغايات ، ولكل منهما فى هذه الحياة طريق ، ولك منهما فى طريقه توفيق ؛ فالذى أعطى ما أمر بإخراجه واتقى الله فى أموره وصدق بالمجازاة على ذلك ، فسييسر الله له الخير، ومن يسر الله له فقد وصل ، ومن بخل بما عنده واستغنى عن ربه عز وجل وكذب بالجزاء فى الدار الآخرة ، فييسره الله للعسرى ويحرمه كل تيسير ، وما يغنى عنه ما بخل به إذا مات ، ولقد كتب الله على نفسه ـ فضلًا منه بعباده ورحمة ـ أن يبين الهدى لفطرة الناس ووعيهم،وأن يبينه لهم كذلك بالرسل والرسالات والآيات، فلا تكون هناك حجة لأحد ، ولا يكون هناك ظلم لأحد ، ويأتى التقرير الجازم لحقيقة السيطرة التى تحيط بالناس فأين يذهب من يريد أن يذهب عن الله بعيداً ؟ ! تفريعا على أن الله كتب على نفسه بيان الهدى للعباد وأن له الآخرة والأولى دارى الجزاء ، والعمل تفريعا على هذا يذكرهم أنه أنذرهم وحذرهم ناراً تتسعر .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ النفس البشرية خلقها الله تعالى مستعدة للخير والشر ، وكل مسؤول عن اختياره .

٢ ـ إذا طغى الشر وكثر الفساد فى مجتمع ، فإن المسؤولية تقع على الجميع ؛ لعدم منع الإفساد والظلم .

٣ ـ المؤمن يجمع ماله من حلال وينفقه فى وجوه الخير ، والكافر يجمع المال بأية طريقة لا يهمه الحلال أو الحرام ، ثم يبخل بإنفاقه فى سبيل الله .



معانى الكلمات :

يصلاها : يدخلها .

سيجنبها : سيبعد عنها .

سجى : سكن أو اشتد ظلامه .

قلى : أبغضك .

فلا تقهر : فلا تغلبه على ماله أو تستذله .

تنهر : تزجر .

أنقض : أثقل .

فانصب : فاجتهد .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم من هو الأشقى ومن هو الأتقى وما مصيرهم .

٢ ـ أن نعلم عظمة الرسول ﷺ ومكانته عند ربه .

٣ ـ أن نستشعر وجوب مواصلة العبادة لله بمفهومها الشامل واستمراريتها .

المحتوى التربوى :

يذكر السياق أن هذه النار المستعرة لا يدخلها إلا أشقى العباد جميعا،ثم يبين من هو الأشقى؛ إنه الذى كذب بالدعوة وتولى عنها ، تولى عن الهدى وعن دعوة ربه له ليهديه كما وعد كل من يأتى إليه راغبا ، وسوف يبتعد عنها الأسعد التقى ويبين من هو التقى بأنه هو الذى ينفق ماله ليتطهر بإنفاقه، لا ليرائى به ويستعلى ، ينفقه تطوعا لا رداً لجميل أحد ، ولا طلبا لشكران أحد، وإنما ابتغاء وجه ربه الأعلى خالصا ، وماذا ينتظر الأتقى غير الرضا ؟ ! ولسوف يرضى بدينه ويرضى بربه ، ويرضى بقدره ، ويرضى بنصيبه ، ويرضى بما يجد من سراء وضراء ، ومن غنى وفقر ومن رخاء وشدة ، يرضى فلا يقلق ولا يضيق ولا يتعجل ولا يستثقل العبء ، ولا يستبعد الغاية ، يرضى وقد بذل الثمن ، وقد أعطى ما أعطى .

سورة الضحى

يقسم الله بالضحى وما جعل فيه من الضياء ، وهو صدر النهار حين ترتفع الشمس ، وبالليل إذا سكن فأظلم وادلهم ، وجواب القسم : ما تركك وما قطعك قطع المودع ، ما تركك ربك ولا جفاك كما زعم من يريدون إيذاء روحك وإيجاع قلبك وإقلاق خاطرك ، وهو ربك وأنت عبده المنسوب إليه ، المضاف إلى ربوبيته ، وهو راعيك وكافلك ، وإن لك عنده فى الآخرة من الحسنى خيراً مما يعطيك منها فى الدنيا ، فهو الخير أولا وأخيراً ، وإنه ليدخر لك ما يرضيك من التوفيق فى دعوتك ، وإزاحة العقبات من طريقك ، وظهور حقك وهى الأمور التى كانت تشغل باله ﷺ وهو يواجه العناد والتكذيب والأذى والكيد والشماتة .

ويمضى سياق السورة يذكر الرسول ﷺ ما كان من شأن ربه معه منذ أول الطريق ، ليستحضر فى خاطره جميل صنع ربه به ، ومودته له ، وفيضه عليه ، ويستمتع باستعادة مواقع الرحمة والود والإيناس الإلهى ، وهو متاع فائق تحييه الذكرى ؛ فانظر فى واقع حالك ، وماضى حياتك هل ودعك ربك وهل قلاك ـ حتى قبل أن يعهد إليك بهذا الأمر؟ ألم تحط يتمك رعايته؟ ألم تدرك حيرتك هدايته ؟ ألم يغمر فقرك عطاؤه ؟ لقد ولدت يتيما فآواك إليه ، وعطف عليك القلوب حتى قلب عمك أبى طالب وهو على غير دينك، ولقد كنت فقيراً فأغنى الله نفسك بالقناعة، كما أغناك بكسبك ومال أهل بيتك عن أن تحس الفقر أو تتطلع إلى ما حولك من ثراء .

ولقد نشأت فى جاهلية منحرفة السلوك والأوضاع ، فلم تطمئن روحك إليها ، ولكنك لم تكن تجد لك طريقا واضحا مطمئنًا ، ثم هداك الله بالأمر الذى أوحى به إليك ، وبالمنهج الذى يصلك به ، والهداية من حيرة العقيدة وضلال الشعاب فيها هى المنة الكبرى التى لا تعدلها منة ، وهى الراحة والطمأنينة من القلق الذى لا يعدله قلق ، ومن التعب الذى لا يعدله تعب .

وبمناسبة ما ذكره ربه بإيوائه من اليتم ، وهدايته من الحيرة وإغنائه من العيلة ، يوجهه ويوجه المسلمين من ورائه إلى رعاية كل يتيم ، وإلى كفاية كل سائل ، وإلى التحدث بنعمة الله الكبرى عليه ، وفى أولها الهداية إلى هذا الدين ، فالتحدث بنعمة الله صورة من صور شكر المنعم ، يكملها البر بعباده ، وهو المظهر العملى للشكر ، والحديث الصامت النافع الكريم .

سورة الشرح

نزلت هذه السورة بعد سورة الضحى ، وكأنها تكملة لها ، فيها ظل العطف الندى ، وفيها روح المناجاة الحبيب ، وفيها استحضار مظاهر العناية ، واستعراض مواقع الرعاية ، وفيها البشر باليسر والفرح ، وفيها التوجيه إلى سر اليسر وحبل الاتصال الوثيق ، وهى توحى بأن هناك ضائقة كانت فى روح الرسول ﷺ لأمر من أمور هذه الدعوة التى كلفها ، ومن العقبات الوعرة

فى طريقها ،ومن الكيد والمكر المضروب حولها ، توحى بأن صدره ﷺ كان مثقلا بهموم هذه الدعوة الثقيلة ، وأنه كان فى حاجة إلى عون ومدد وزاد ورصيد .

ثم كانت هذه المفاجأة الحلوة وهذا الحديث الودود ، ألم نشرح صدرك لهذه الدعوة ونيسر لك أمرها ؟ ونجعلها حبيبة لقلبك ونشرع لك طريقها ؟ وننر لك الطريق حتى ترى نهايته السعيدة ، فتش فى صدرك ، واستعد فى حسك مذاق هذا العطاء ، وقل : ألا تجد معه المتاع مع كل مشقة والراحة مع كل تعب ، واليسر مع كل عسر ، والرضا مع كل حرمان ؟ ووضعنا عنك عبئك الذى أثقل ظهرك حتى كاد يحطمه من ثقله،وضعناه عنك بشرح صدرك له، فخف وهان، وبتوفيقك وتيسيرك للدعوة ومداخل القلوب ، وبالوحى الذى يكشف لك عن الحقيقة ويعينك على التسلل بها إلى النفوس فى يسر وهوادة ولين .

ورفعنا ذكرك فى الملأ الأعلى ، رفعناه فى الأرض ، ورفعناه فى هذا الوجود جميعا ، رفعناه فجعلنا اسمك مقرونا باسم الله كلما تحركت به الشفاه ، ورفعنا لك ذكرك فى اللوح المحفوظ ، حين قدر الله أن تمر القرون وتكر الأجيال ، وملايين الشفاه فى كل مكان تهتف بهذا الاسم الكريم مع الصلاة والتسليم ، فأين تقع المشقة من هذا العطاء ؟

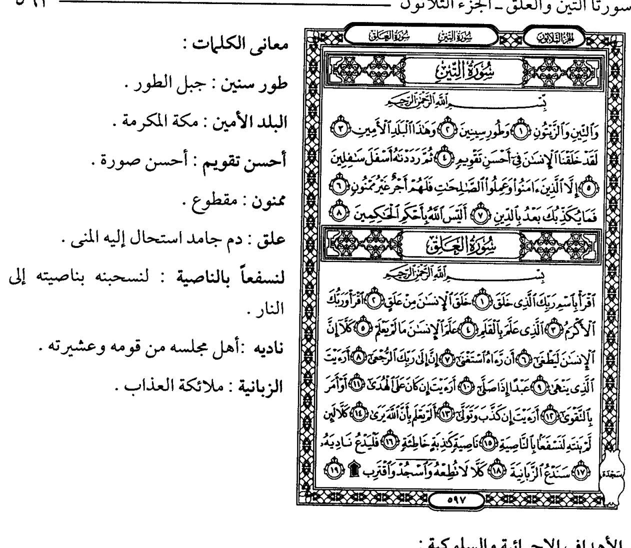
ومع هذا فإن الله يتلطف مع حبيبه المختار ويسرى عنه ، ويؤنسه ويطمئنه ويطلعه على اليسر الذى لا يفارقه ، فإن العسر لايخلو من يسر يصاحبه ويلازمه ، فقد لازمه معك ، فحينما ثقل العبء شرحنا لك صدرك فخف حملك الذى أثقل ظهرك ، وكان اليسر مصاحبا للعسر ويجيء التوجيه لمواقع التيسير وأسباب الانشراح ؛ فإذا فرغت من عمل من أعمالك النافعة لك ولأمتك فخذ فى عمل آخر واتعب فيه ،فإنك تجد لذة الراحة عقب النصب بما تجنيه من ثمرة العمل ، ولا ترغب فى عملك هذا إلا إلى الله دون ثواب أو غرض آخر ؛ لتكون دعوتك وهدايتك إليه .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ المسلم يعطف على اليتيم ، ويساعد المحتاج ، ويتحدث بنعمة ربه ، ويشكره عليها .

٢ ـ على المسلم أن يطيع الرسول ﷺ فيما أمر به ، وأن ينتهى عما نهى عنه ، ويتوقع الفرج من الله بعد الشدائد .

٣ ـ إخلاص النية والعمل لله وحده فى جميع المجالات .



معانى الكلمات :

طور سنين : جبل الطور .

البلد الأمين : مكة المكرمة .

أحسن تقويم : أحسن صورة .

ممنون : مقطوع .

علق : دم جامد استحال إليه المنى .

لنسفعاً بالناصية : لنسحبنه بناصيته إلى النار .

ناديه : أهل مجلسه من قومه وعشيرته .

الزبانية : ملائكة العذاب .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم قيمة الإيمان والعمل الصالح فى حياة الإنسان .

٢ ـ أن نعلم مكانة العلم فى الإسلام .

٣ ـ أن نستشعر سبب جحود الإنسان لنعم ربه وعاقبته .

المحتوى التربوى :

يقول القاسمى : « قال شيخ الإسلام ابن تيمية : أقسم بالتين والزيتون ، وهو الأرض المقدسة التى ينبت فيها ذلك ، ومنها بعث المسيح وأنزل عليه فيها الإنجيل ، وأقسم بطور سيناء وهو الجبل الذى كلم الله موسى وناداه فيه من واديه الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة ، وأقسم بهذا البلد الأمين وهو مكة الذى أسكن إبراهيم ابنه إسماعيل وأمه هاجر فيه ، وهو الذى جعله الله حرما آمنا ويتخطف الناس من حوله ، وجعله آمنا خلقا وأمراً ، قدراً وشرعا ، فهذه الآية قسم بأول مهابط الوحى ، وأكرم أماكن التجلى الإلهى على أنبيائه الأربعة ، الذين بقيت شرائعهم للآن ، وأرسلهم الله لهداية الناس الذين خلقهم فى أحسن تقويم » .

وتبدو عناية الله بخلق هذا الإنسان ابتداء فى أحسن تقويم ، والله ـ سبحانه ـ أحسن كل شىء خلقه ، فتخصيص الإنسان هنا بحسن التركيب ، وحسن التقويم ، وحسن التعديل فيه فضل عناية بهذا المخلوق ، وعناية الله بأمر هذا المخلوق ـ على ما به من ضعف ، وعلى ما يقع منه من انحراف عن الفطرة وفساد ـ لتشير إلى أن له شأنا عند الله ووزناً فى نظام هذا الوجود ، وتتجلى هذه العناية فى خلقه وتركيبه على هذا النحو الفائق ، والتركيز فى هذا المقام على خصائصه الروحية ، فهى التى تنتكس إلى أسفل سافلين حين ينحرف عن الفطرة ويحيد عن الإيمان المستقيم معها ، إذ إنه من الواضح أن خلقته البدنية لا تنتكس إلى أسفل سافلين .

وفى هذه الخصائص الروحية يتجلى تفوق التكوين الإنسانى ، فهو مهيأ ـ حين ينتكس ـ لأن يهوى إلى الدرك الذى لا يبلغ إليه مخلوق قط حيث تصبح البهائم أرفع منه وأقوم ، لاستقامتها على فطرتها ، وأداء وظيفتها فى الأرض على هدى ، بينما المخلوق فى أحسن تقويم يجحد ربه، ويرتكس مع هواه ، إلى درك لا تملك البهيمة أن ترتكس إليه ، فحين ينحرف بهذه الفطرة عن الخط الذى هداه الله إليه وبينه له ، وتركه ليختار أحد النجدين إلا أهل الإيمان ، فهؤلاء هم الذين يبقون على سواء الفطرة ، ويكملونها بالإيمان والعمل الصالح ، ويرتقون بها إلى الكمال المقدر لها ،حتى ينتهوا بها إلى حياة الكمال فى دار الكمال،فلهم أجر دائم غير مقطوع .

يقول صاحب الظلال : « ومن ثم تتجلى قيمة الإيمان فى حياة الإنسان .. إنه المرتقى الذى تصل فيه الفطرة القويمة إلى غاية كمالها ، إنه الحبل الممدود بين الفطرة وبارئها ، إنه النور الذى يكشف لها مواقع خطاها فى المرتقى الصاعد إلى حياة الخالدين المكرمين، وحين ينقطع هذا الحبل، وحين ينطفىء هذا النور ، فالنتيجة الحتمية هى الارتكاس فى المنحدر الهابط إلى أسفل سافلين ، والانتهاء إلى إهدار الآدمية كلية ، حين يتمحض الطين فى الكائن البشرى ، فإذا هو وقود النار مع الحجارة سواء بسواء » .

وفى ظل هذه الحقيقة ينادى الإنسان ما يكذبك بالجزاء فى المعاد ، وقد علمت البدأة ، أليس الخالق بأحكم الحاكمين ، الذى لا يجور ولا يظلم أحداً ، ومن عدله أن يقيم القيامة فينتصف للمظلوم فى الدنيا ممن ظلمه .

سورة العلق

مطلع هذه السورة هو أول ما نزل من القرآن باتفاق ، وهى تبدأ باسم الله ، وتوجه الرسول ﷺ أول ما توجه ، فى أول لحظة من لحظات اتصاله بالملأ الأعلى ، وفى أول خطوة من خطواته فى طريق الدعوة التى اختير لها ، توجهه إلى أن يقرأ باسم الله ، وتبدأ من صفات الرب بالصفة التى بها الخلق والبدء ثم تخصص : خلْق الإنسان ومبدأه من تلك النقطة الدموية الجامدة العالقة بالرحم ، فتدل على كرم الخالق فوق ما تدل على قدرته ، فمن كرمه رفع هذا العلق إلى درجة الإنسان الذى يُعلم فيتعلم ، وإنها لنقلة بعيدة جداً بين المنشأ والمصير ، ولكن الله قادر ، ولكن الله

كريم ، ومن ثم كانت هذه النقلة التى تدير الرؤوس وإلى جانب هذه الحقيقة تبرز حقيقة التعليم، تعليم الرب للإنسان بالقلم ؛ لأن القلم كان ـ وما يزال ـ أوسع وأعمق أدوات التعليم أثراً فى حياة الإنسان ، ثم تبرز مصدر التعليم ، إن مصدره هو الله ، منه يستمد الإنسان كل ما علم ، وكل ما يعلم ، وكل ما يفتح له من أسرار هذا الوجود ومن أسرار هذه الحياة ، ومن أسرار نفسه ، فهو من هناك ، ومن ذلك المصدر الواحد ، الذى ليس هناك سواه .

يقول صاحب الظلال : « بهذا المقطع وضعت قاعدة التصور الإيمانى العريضة : كل أمر كل حركة كل خطوة . كل عمل . باسم الله . وعلى اسم الله . باسم الله تبدأ . وباسم الله تسير . وإلى الله تتجه . وإليه تصير ، والله هو الذى خلق ، وهو الذى علَّم ، فمنه البدء والنشأة ، ومنه التعليم والمعرفة ، والإنسان يتعلم ما يتعلم ، ويعلم ما يعلم ، فمصدر هذا كله هو الله الذى خلق والذى علم » .

والله عز وجل هو الذى أعطى الإنسان فأغناه ، كما أنه هو الذى خلقه وأكرمه وعلمه ، ولكن الإنسان فى عمومه ـ لا يستثنى إلا من يعصمه إيمانه ـ لا يشكر حين يعطى فيستغنى ، ولا يعرف مصدر النعمة التى أغنته ثم هو يطغى ويتكبر من حيث كان ينبغى أن يعرف ثم يشكر وأين يذهب هذا الذى طغى واستغنى ؟

يقول صاحب الظلال : « تبرز قاعدة أخرى من قواعد التصور الإيمانى ؛ قاعدة الرجعة إلى الله . الرجعة إليه فى كل شىء وفى كل أمر ، وفى كل نية ، وفى كل حركة ، فليس هناك مرجع سواه ، إليه يرجع الصالح والطالح ، والطائع والعاصى ، والمحق والمبطل ، والخير والشرير ، والغنى والفقير ، وإليه يرجع هذا الذى يطغى أن رآه استغنى ، ألا إلى الله تصير الأمور ، ومنه النشأة وإليه المصير » .

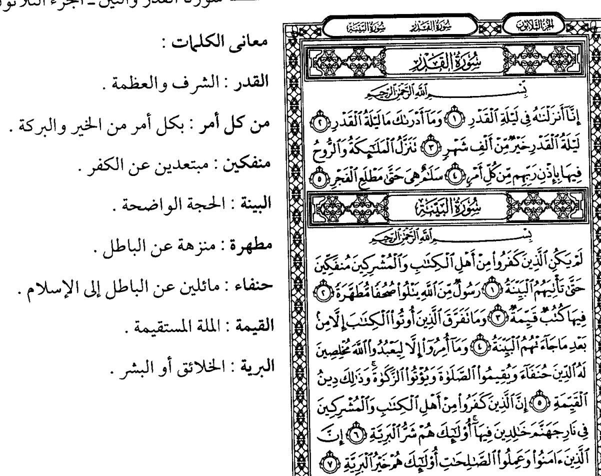
ويعرض السياق صورة من صور الطغيان ، أرأيت هذا الأمر المستنكر يقع من الذى ينهى عبداً عن الصلاة ، فما ظنك إن كان هذا الذى تنهاه على الطريقة المستقيمة فى فعله ، أو أنه يأمر بالتقوى بقوله ، وأنت تزجره ، ولهذا قال الله : أما علم هذا الناهى لهذا المهتدى أن الله يراه ويسمع كلامه ، وسيجازيه ، فلئن لم يرجع عما هو فيه من الشقاق ، لنأخذنه بناصيته إلى النار ، ولودعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب، فلا تطعه فيما ينهاك عنه، من المداومة على العبادة وكثرتها، فالله حافظك وناصرك ، فاسجد لربك واقترب منه بالطاعة والعبادة ، ودعه .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ إظهار شرف الأماكن المقدسة ،وتنبيه المسلم إلى الحفاظ عليها وعلى قدسيتها .

٢ ـ دعوة الإسلام إلى القراءة والكتابة والعلم ؛ لأنه سبيل الحياة الراقية ، وأساس التقدم .

٣ ـ الإنسان يطغى بشعوره الاستغناء ، والمسلم يعلم أنه راجع إلى ربه لينال جزاءه .



الجزء الثلاثون سورة القدر سورة البينة

سورة القدر

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾

سورة البينة

بسم الله الرحمن الرحيم

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾

٥٩٨

معانى الكلمات :

القدر : الشرف والعظمة .

من كل أمر : بكل أمر من الخير والبركة .

منفكين : مبتعدين عن الكفر .

البينة : الحجة الواضحة .

مطهرة : منزهة عن الباطل .

حنفاء : مائلين عن الباطل إلى الإسلام .

القيمة : الملة المستقيمة .

البرية : الخلائق أو البشر .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم منزلة ليلة القدر ، والمطلوب منا تجاه هذه الليلة .

٢ ـ أن نعلم الحقائق الإيمانية الأربع التى اشتملت عليها سورة البينة .

٣ ـ أن نستشعر حقيقة الدين .

المحتوى التربوى :

الحديث فى هذه السورة عن تلك الليلة الموعودة المشهودة التى سجلها الوجود كله فى فرح وغبطة وابتهال ، ليلة الاتصال المطلق بين الأرض والملأ الأعلى ، ليلة بدء نزول هذا القرآن على قلب محمد ﷺ ، ليلة ذلك الحدث العظيم الذى لم تشهد مثله فى عظمته وفى دلالته ، وفى آثاره فى حياة البشرية جميعا ، العظمة التى لا يحيط بها الإدراك البشرى .

والليلة التى تتحدث عنها السورة هى الليلة التى جاء ذكرها فى سورة الدخان ، والمعروف أنها ليلة من ليالى رمضان أى التى بدأ فيها نزول القرآن على قلب الرسول ليبلغه إلى الناس ، واسمها ليلة القدر ، قد يكون معناه التقدير والتدبير ، وقد يكون معناه القيمة والمقام ، وكلاهما

يتفق مع ذلك الحدث الكونى العظيم ، حدث القرآن والوحى والرسالة ، وليس أعظم منه ولا أقوم فى أحداث هذا الوجود ، وليس أدل منه كذلك على التقدير والتدبير فى حياة العبيد .

وهى خير من ألف شهر ، والعدد لايفيد التحديد فى مثل هذه المواضع من القرآن ، إنما هو يفيد التكثير ، والليلة خير من آلاف الشهور فى حياة البشر ، والليلة من العظمة بحيث تفوق حقيقتها حدود الإدراك البشرى ،فهى ليلة عظيمة باختيار الله لها لبدء تنزيل هذا القرآن ، وإفاضة هذا النور على الوجود كله ، وإسباغ السلام الذى فاض من روح الله على الضمير البشرى والحياة الإنسانية ، وبما تضمنه هذا القرآن من عقيدة وتصور وشريعة وآداب تشيع السلام فى الأرض والضمير ، وتنزيل الملائكة وجبريل ﷺ خاصة ، بإذن ربهم ، ومعهم هذا القرآن وانتشارهم فيما بين السماء والأرض فى هذا المهرجان الكونى .

وحين ننظر اليوم من وراء الأجيال المتطاولة إلى تلك الليلة المجيدة السعيدة ، فإننا نرى أمراً عظيما حقا ، فلقد فرق فيها من كل أمر حكيم ، وقد وضعت فيها من قيم وأسس وموازين ، وقد قررت فيها من أقدار أكبر الأفراد ، أقدار أمم ودول وشعوب بل أكثر وأعظم ، أقدار حقائق وأوضاع وقلوب ، ونحن ـ المؤمنين ـ مأمورون ألا ننسى ولا نغفل هذه الذكرى ، وقد جعل لنا نبينا ﷺ سبيلا هينا لينا لاستحياء هذه الذكرى فى أرواحنا لتظل موصولة بها أبداً ، موصولة بالحدث الكونى الذى كان فيها ، وذلك فيما حثنا عليه من قيام هذه الليلة من كل عام ، ومن تحريها والتطلع إليها فى الليالى العشر الأخيرة من رمضان ، والمنهج الإسلامى فى التربية يربط بين حقائق العقيدة فى الضمير ، ويجعل العبادة وسيلة لاستحياء هذه الحقائق وتثبيتها فى صورة حية تتخلل المشاعر ولا تقف عند حدود التفكير .

سورة البينة

سورة البينة : هذه السورة معدودة فى المصحف وفى أكثر الروايات أنها مدنية ، وقد وردت بعض الروايات بمكيتها ، والسورة تعرض عدة حقائق تاريخية وإيمانية:

الحقيقة الأولى : هى أن بعثة الرسول ﷺ كانت ضرورية لتحويل الذين كفروا من أهل الكتاب ومن المشركين عما كانوا قد انتهوا إليه من الضلال والاختلاف ، وما كانوا ليتحولوا عنه بغير هذه البعثة .

والحقيقة الثانية : إن أهل الكتاب لم يختلفوا فى دينهم عن جهالة ولا عن غموض فيه ، إنما اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم ، وجاءتهم البينة .

والحقيقة الثالثة : إن الدين فى أصله واحد ، وقواعده بسيطة واضحة ، ولا تدعو إلى التفرق والاختلاف فى ذاتها وطبيعتها البسيطة اليسيرة .

والحقيقة الرابعة : إن الذين كفروا بعدما جاءتهم البينة هم شر البرية ، وأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم خير البرية ، ومن ثم يختلف جزاء هؤلاء عن هؤلاء اختلافا بينا ، وهذه الحقائق الأربع ذات قيمة فى إدراك دور العقيدة الإسلامية ودور الرسالة الأخيرة ، وفى التصور الإيمانى كذلك نفصلها فيما يلى:

فلقد كانت الأرض فى حاجة ماسة إلى رسالة جديدة ،فالكفر قد تطرق إلى عقائد أهل الأرض جميعا سواء أهل الكتاب الذين عرفوا الديانات السماوية من قبل ثم حرفوها ، أو المشركون فى الجزيرة العربية وفى خارجها سواء ، وما كانوا منتهين حتى يتبين لهم الحق بهذه الرسالة الجديدة ، وعلى يد الرسول ﷺ الذى يقرأ على ظهر قلبه ، وما تضمنته تلك الصحف المطهرة من الباطل ، والمشتملة على كتب من عند الله مستقيمة لا انحراف فيها عن الحق ، ولا بعد عن الهدى ، والكتب التى فى صحف القرآن إما أن تكون ما صح من كتب الأولين كموسى وعيسى وغيرهما ، أو هى سور القرآن ، فإن كل سورة من سوره كتاب قويم .

وأهل الكتاب خاصة لم يتفرقوا ويختلفوا فى دينهم عن جهل أو غموض فى الدين أو تعقيد ، إنما هم تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم العلم ومن بعد ما جاءتهم البينة من دينهم على أيدى رسلهم ، على أن الدين فى أصله واضح العقيدة فى ذاتها بسيطة ، وهذه هى قاعدة دين الله على الإطلاق : عبادة الله وحده وإخلاص الدين له ، والميل عن الشرك وأهله ، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، عقيدة خالصة فى الضمير ، وعبادة لله ، تترجم عن هذه العقيدة ، وإنفاق للمال فى سبيل الله ، والزكاة ، وذلك دين الأمة المستقيمة العادلة .

ويأتى الحكم القاطع بأن أهل الكتاب مهما يكن من صلاح بعض أعمالهم وآدابهم ونظمهم ما دامت تقوم على غير إيمان بهذه الرسالة الأخيرة ، وبهذا الرسول الأخير ـ هم شر الخليقة وهم فى جهنم لا يحولون عنها ولا يزولون ، أما الأبرار الذين آمنوا الإيمان الذى ينشئ آثاره فى واقع الحياة ، وعملوا الصالحات ، وليس هو الكلام الذى لا يتعدى الشفاه ، فمن كانوا كذلك فهم خير البرية .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ عظمة القرآن الكريم ؛ لأنه كلام الله تعالى ، وعظمة ليلة القدر وشرفها حيث ابتدئ نزول القرآن فيها .

٢ ـ الشرائع السماوية كلها متحدة فى الدعوة إلى توحيد الله،وفى الدعوة إلى الأخلاق الحميدة.

٣ ـ الإخلاص أساس العقيدة والعبادة،فإذا كانت النية لغير وجه الله فلا ثواب على الأعمال.



الجزء الثلاثون — سورة الزلزلة — سورة العاديات

جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾

سورة الزلزلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾

سورة العاديات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾

ثلاثة أرباع الحزب ٦٠

٥٩٩

معانى الكلمات :

زلزلت الأرض : حركت تحريكا شديداً .

أثقالها : كنوزها وموتاها فى النفخة الثانية .

يصدر الناس : يخرجون من قبورهم إلى المحشر .

العاديات : الخيل تعدو فى الغزو .

ضبحا : صوت أنفاسها إذا عدت .

فالموريات قدحا : المخرجات النار باحتكاك حوافرها بالأحجار .

فالمغيرات صبحا : المفاجئات للعدو وقت الصباح .

فأثرنا به نقعا : هيجن فى الصبح غبارا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نستشعر أهوال يوم القيامة ، ووقعها على استعدادنا لها .

٢ ـ أن نعلم طبيعة النفس البشرية كما تصورها سورة العاديات .

٣ ـ أن نعلم وسائل تهذيب النفس البشرية التى ذكرتها سورة العاديات .

المحتوى التربوى :

يوضح السياق جزاء خير البرية فلهم عند ربهم جنات للإقامة الدائمة فى نعيمها ، تجرى الأنهار من تحتها ثم يرتقى السياق درجة أو درجات فى تصوير هذا النعيم المقيم ؛ فلهم الرضا من الله وهو أعلى وأندى من كل نعيم، والرضا فى نفوسهم عن ربهم ، الرضا عن قدره فيهم وإنعامه عليهم ، والرضا بهذه الصلة بينه وبينهم ، وهذا الجزاء كله متوقف على صلة القلب بالله ، ونوع هذه الصلة ،و الشعور بخشيته خشية تدفع إلى كل صلاح ، وتنهى عن كل انحراف ، فالذى يخشى ربه حقا لا يملك أن يخطر فى قلبه ظلاً لغيره من خلقه .

سورة الزلزلة

هذه السورة هزة عنيفة للقلوب الغافلة ، وصيحة قوية مزلزلة للأرض ومن عليها ، فما يكادون يفيضون حتى يواجههم الحساب والوزن والجزاء ؛ ففى يوم القيامة ترتجف الأرض ارتجافا ، وتزلزل زلزالا ، وتنفض ما فى جوفها نفضا ، وتخرج ما يثقلها من أجساد ومعادن وغيرها مما حملته طويلا ، وكأنها تتخفف من هذه الأثقال التى حملتها طويلا ، وهو مشهد يهز تحت أقدام المستمعين لهذه السورة كل شيء ثابت ، ويزيد هذا الأثر وضوحا بتصوير الإنسان حيال المشهد المعروض ، ورسم انفعالاته وهو يشهده ، وهو سؤال المشدوه المبهوت ، المفجوء ، ويشهد ما لا يملك الصبر أمامه ويوم يقع هذا الزلزال يومئذ تحدث هذه الأرض أخبارها وتصف حالها وما جرى لها، لقد كان ما كان لها بأن الله أمرها أن تزلزل زلزالها وتخرج أثقالها ، فهذا الحال حديث واضح عما وراءه من أمر الله ووحيه إليها .

وفى لمحة نرى مشهد القيام من القبور ، نرى شتيتا منبعثا من أرجاء الأرض ، مشهد الخلائق فى أجيالها جميعا تنبعث من هنا وهناك إلى حيث تعرض عليهم أعمالهم ليواجهوها ، ويواجهوا جزاءها وإن من عمله ما يهرب من مواجهته بينه وبين نفسه ، فكيف به وهو يواجه بعمله على رؤوس الأشهاد فى حضرة الجليل العظيم الجبار المتكبر ؟ ! إنها عقوبة هائلة رهيبة ، مجرد أن يُروا أعمالهم ، ووراء رؤيتها الحساب الدقيق ، وعندئذ لا يحقر الإنسان شيئا من عمله ، خيراً كان أو شراً ، فالميزان الدقيق لا يدع ذرة من خير أو شر لا يزنها ولا يجازى عليها ، ولا يوجد لهذا الميزان نظير إلا فى القلب المؤمن الذى يرتعش لمثقال ذرة من خير أو شر ، وفى الأرض قلوب لا تتحرك للجبل من الذنوب والمعاصى والجرائر ، ولا تتأثر وهى تسحق رواسى من الخير دونها رواسى الجبال .

سورة العاديات

يقسم الله سبحانه بخيل المعركة ، ويصف حركاتها واحدة واحدة منذ أن تبدأ عدوها وجريها ضابحة بأصواتها المعروفة حين تجرى ، قارعة للصخر بحوافرها حتى تورى الشرر منها ، مغيرة فى الصباح الباكر لمفاجأة العدو ، مثيرة للنقع والغبار ، غبار المعركة على غير انتظار ، وهى تتوسط صفوف الأعداء على غرة فتوقع بينهم الفوضى والاضطراب .

إنها خطوات المعركة على ما يألفه المخاطبون بالقرآن أول مرة ، والقسم بالخيل فى هذا الإطار فيه إيحاء قوى بحب هذه الحركة والنشاط لها ، بعد الشعور بقيمتها فى ميزان الله و التفاته سبحانه إليها .

قال القاسمى: « قال الإمام ـ يقصد الإمام محمد عبده ـ رحمه الله : أقسم تعالى بالخيل متصفة بصفاتها التى ذكرها ، آتية بالأعمال التى سردها لينوه بشأنها ويعلى من قدرها فى نفوس المؤمنين أهل العمل والجد ، ليعنوا بقنيتها وتدريبها على الكر والفر ، وليحملهم أنفسهم على العناية بالفروسية والتدرب على ركوب الخيل ، والإغارة بها ، ليكون كل واحد منهم مستعداً فى أى وقت كان لأن يكون جزءًا من قوة الأمة إذا اضطرت إلى صد عدو ، أو بعثها باعث على كسر شوكته .. ».

أما الذى يقسم الله ـ سبحانه ـ عليه ، فهو حقيقة فى نفس الإنسان حين يخوى قلبه من دوافع الإيمان ، حقيقة ينبه القرآن عليها ، ليجند إرادته لكفاحها ، فالإنسان يجحد نعمة ربه ، وينكر جزيل فضله ، ويتمثل جحوده فى مظاهر شتى تبدو منه أفعالا وأقوالا ، فتقوم عليه مقام الشاهد الذى يقرر هذه الحقيقة ، وكأنه يشهد على نفسه بها ، أو لعله يشهد على نفسه يوم القيامة بالجحود يوم ينطق بالحق ، وهو شديد الحب لنفسه ، ومن ثم يحب الخير ، ولكن كما يتمثله مالا وسلطة ومتاعا بأعراض الحياة الدنيا وهذه فطرته ، وهذا طبعه ما لم يخالط الإيمان قلبه فيغير من تصوراته وقيمه وموازينه واهتماماته ، ويحيل كنوده وجحوده اعترافا بفضل الله وشكرانا ، كما يبدل أثرته وشحه إيثاراً ورحمة ، ويريه القيم الحقيقية التى تستحق الحرص والتنافس والكد والكدح ، وهى قيم أعلى من المال والسلطة والمتاع الحيوانى بأعراض الحياة الدنيا .

يقول صاحب الظلال : « إن الإنسان ـ بغير إيمان ـ حقير صغير . حقير المطامع ، صغير الاهتمامات ، ومهما كبرت أطماعه ، واشتد طموحه ، وتعالت أهدافه ، فإنه يظل مرتكسا فى حمأة الأرض مقيدًا بحدود العمر ، سجينا فى سجن الذات ، لا يطلقه ولا يرفعه إلا الاتصال بعالم أكبر من الأرض ، وأبعد من الحياة الدنيا ، وأعظم من الذات ، عالم يصدر عن الله الأزلى ، ويعود إلى الله الأبدى ، وتتصل فيه الدنيا بالآخرة إلى غير انتهاء » .

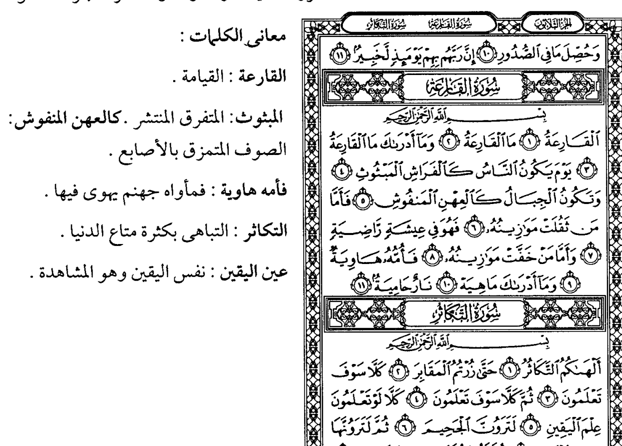
ومن ثم تجىء اللفتة الأخيرة فى السورة لعلاج الجحود والأثرة ، والشح ، لنتساءل : ألا يعلم هذا ويذكر بعثرة لما فى القبور ؟ !

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ على الإنسان ألا يحتقر شيئا من عمل الخير ولا شيئا من الذنوب مهما كان قليلا .

٢ ـ أهمية الجهاد فى سبيل الله بأى وسيلة ، وقد كانت الخيل أهم الوسائل الحربية فى صدر الإسلام .

٣ ـ الإنسان بغير إيمان حقير المطامع صغير الاهتمامات .



معانى الكلمات :

القارعة : القيامة .

المبثوث: المتفرق المنتشر . **كالعهن المنفوش:** الصوف المتمزق بالأصابع .

فأمه هاوية : فمأواه جهنم يهوى فيها .

التكاثر : التباهى بكثرة متاع الدنيا .

عين اليقين : نفس اليقين وهو المشاهدة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم مشاهد يوم القيامة ومصائر الناس فيه كما وصفتها سورة القارعة .

٢ ـ أن نستشعر صوت النذير الذى نبهت إليه سورة التكاثر .

٣ ـ أن نعلم الأحداث التى قد يلقاها الإنسان فى قبره .

المحتوى التربوى :

يمضى السياق يبين فى مشهد عنيف بعثرة ما فى القبور ،و تحصيل الأسرار من الصدور التى ضنت بها وخبأتها بعيداً عن العيون ، أفلا يعلم صاحب الشح والأثرة والجحود إذا كان هذا ؟ ولا يذكر ماذا يعلم ؟ لأن علمه بهذا وحده يكفى لهز المشاعر ، ثم ليدع النفس تبحث عن الجواب ، وتتصور كل ما يمكن أن يصاحب هذه الحركات العنيفة من آثار وعواقب ، ويختم هذه الحركات الثائرة باستقرار ينتهى إليه كل شىء ، وكل أمر وكل مصير ، فالمرجع إلى ربهم ، وإنه لخبير بهم يومئذ وبأحوالهم وأسرارهم ، والله خبير بهم فى كل وقت وفى كل حال ، ولكن

لهذه الخبرة يومئذ آثار هى التى تثير انتباههم لها فى هذا المقام ، إنها خبرة وراءها عاقبة ، خبرة وراءها حساب وجزاء .

سورة القارعة

القارعة : القيامة ، كالطامة ، والصاخة، والحاقة، والغاشية، والقارعة توحى بالقرع واللطم ، فهى تقرع القلوب بهولها ، والسورة كلها عن هذه القارعة ، حقيقتها وما يقع فيها ، وما تنتهى إليه ، فهى تعرض مشهداً من مشاهد القيامة ، والمشهد المعروض هنا مشهد هول تتناول آثاره الناس والجبال ، فيبدو الناس فى ظله صغارا ضئالا على كثرتهم ، فهم كالفراش المنتشر ، مستطارون مستخفون فى حيرة الفراش الذى يتهافت على الهلاك ، وهو لا يملك لنفسه وجهة ، ولا يعرف له هدفا ، وتبدو الجبال التى كانت ثابتة راسخة كالصوف المنفوش تتقاذفه الرياح وتعبث به حتى الأنسام .

ولقد بدأ بإلقاء الكلمة مفردة كأنها قذيفة بلا خبر ولا صفة ، ثم أعقبها سؤال التهويل ما القارعة فهى الأمر المستهول الغامض الذى يثير الدهش والتساؤل ، ثم أجاب بسؤال التجهيل ، فهى أكبر من أن يحيط بها الإدراك ، وأن يلم بها التصور ، ثم الإجابة بما يكون فيها ، لا بما هيتها ، فما هيتها فوق الإدراك والتصور كما أسلفنا .

هذا هو المشهد الأول للقارعة يحس السامع كأن كل شىء يتشبث به فى الأرض قد طار حوله هباء ، ثم تجىء الخاتمة للناس جميعا ، فثقل الموازين وخفتها تفيدنا : قيما لها عند الله اعتبار ، وقيما ليس لها عنده اعتبار ، فأما من رجحت حسناته على سيئاته،وثقلت موازينه فى اعتبار الله وتقويمه فهو فى الجنة فى عيشة راضية ، ويدعها مجملة بلا تفصيل توقع فى الحس ظلال الرضا وهو أروح النعيم .

وأما من رجحت سيئاته على حسناته ، وخفت موازينه فى اعتبار الله وتقويمه ، فأمه التى يرجع إليها ، ويصير فى المعاد إليها والأم هى مرجع الطفل وملاذه ـ هاوية وهى اسم من أسماء النار ، ويأتى سؤال التجهيل والتهويل المعهود فى القرآن ؛ لإخراج الأمر عن حدود التصور وحيز الإدراك ، ويجىء الجواب : هذه هى أم الذى خفت موازينه ، أمه التى يفىء إليها ويأوى ، والأم عندها الأمن والراحة ، فماذا هو واجد عند أمه هذه ... الهاوية ... النار .. الحامية ...

سورة التكاثر

هذه السورة كأنما هى صوت نذير ، قائم على شرف عال ، يمد بصوته ويدوى بنبرته ، يصيح بنوّم غافلين مخمورين سادرين ، أشرفوا على الهاوية وعيونهم مغمضة ، وحسهم مسحور ، فهو

يمد بصوته إلى أعلى وأبعد ما يبلغ : أيها السادرون المخمورون ، أيها اللاهون المتكاثرون بالأموال والأولاد وأعراض الحياة وأنتم مفارقون ، أيها المخدوعون بما أنتم فيه عما يليه ، أيها التاركون ما تتكاثر فيه وتتفاخرون إلى حفرة ضيقة لا تكاثر فيها ولا تفاخر ، استيقظوا وانظروا فقد أشغلكم حب الدنيا ونعيمها وزهرتها عن طلب الآخرة وابتغائها ، وتمادى بكم ذلك حتى جاءكم الموت وزرتم المقابر وصرتم من أهلها ؟ !

ثم يقرع قلوبهم بهول ما ينتظرهم هناك بعد زيارة المقابر فى وعيد بعد وعيد ، ثم يزيد التوكيد عمقا ورهبة ، وتلويحا بما وراءه من أمر ثقيل ، لا يتبينون حقيقته الهائلة فى غمرة الخمار والاستكثار ، فلو علمتم حق العلم ، لما ألهاكم التكاثر عن طلب الدار الآخرة حتى صرتم إلى المقابر ، ثم يكشف عن هذه الحقيقة المطلوبة الرهيبة ، وهى رؤية النار التى إذا زفرت زفرة خر كل ملك مقرب ، ونبى مرسل على ركبتيه ، من المهابة والعظمة ومعاينة الأهوال ، ثم يؤكد هذه الحقيقة ويعمق وقعها الرهيب فى القلوب بوقع رؤيتها ومشاهدتها ، ثم يلقى بالإيقاع الأخير ، الذى يدع المخمور يفيق ، والغافل ينتبه ، والناعم يرتعش ويرتجف مما فى يديه من نعيم لتسألن عنه من أين نلتموه ؟ وفيم أنفقتموه ؟ أمن طاعة وفى طاعة ؟ أم من معصية وفى معصية ؟ أمن حلال وفى حلال؟ أمن حرام وفى حرام ؟ هل شكرتم ؟ هل أديتم ؟ هل شاركتم هل استأثرتم؟ لتسألن عما تتكاثرون به وتتفاخرون ، فهو عبء تستخفونه فى غمرتكم ولهوكم ، ولكن وراءه ما وراءه من هم ثقيل .

يقول صاحب الأساس : « عالجت السورة موضوع انشغال الإنسان عن العبادة والتقوى ، وبينت أن علاج ذلك هو العلم اليقينى بما يكون أمام الإنسان، وبتذكر الجحيم، وتذكر السؤال .

وفى السورة إنكار على من ينشغل بالتكاثر عن طاعة الله وإنذار له ، وتهديد ووعيد ، وذلك كله تأديب للإنسان أن ينشغل عن حقوق الله عز وجل بشىء ، ومن السورة نعرف أن الانشغال بالنعمة عن المنعم خلق من أخلاق الكافرين ، فالنعمة تقتضى شكراً ، والشكر عبادة وتقوى » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ ضرورة الاستعداد ليوم القيامة بالإيمان والأعمال الصالحة فى الدنيا حتى ننجو من أهوال ذلك اليوم العصيب .

٢ ـ المؤمن لا ينشغل بمتاع الدنيا عن طلب الآخرة .

٣ ـ الإنسان سيسأل يوم القيامة عما أعطاه الله من النعم من أين اكتسبها ؟ وفى أى شىء أنفقها ؟ وهل شكر ربه على هذه النعم أم أنكر فضل الله عليه ؟

معانى الكلمات :

والعصر : قسم بالزمان الذى تحدث فيه أعمال بنى آدم .

خسر : نقصان وضياع .

همزة لمزة : طعان غياب للناس .

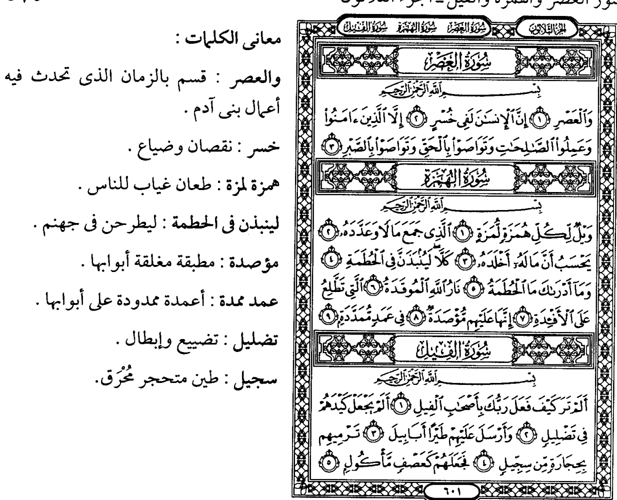
لينبذن فى الحطمة : ليطرحن فى جهنم .

مؤصدة : مطبقة مغلقة أبوابها .

عمد ممدة : أعمدة ممدودة على أبوابها .

تضليل : تضييع وإبطال .

سجيل : طين متحجر مُحْرَق.



الجزء الثلاثون — سورة العصر — سورة الهمزة — سورة الفيل

سورة العصر

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾

سورة الهمزة

بسم الله الرحمن الرحيم

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾

سورة الفيل

بسم الله الرحمن الرحيم

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

٦٠١

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم حقيقة الأمة المسلمة ووظيفتها كما بينت سورة العصر .

٢ ـ أن نتعرف على صورة اللئيم صغير النفس ومصيره كما أوضحت سورة الهمزة .

٣ ـ أن نتعرف على قصة أصحاب الفيل ودلالات هذه القصة .

المحتوى التربوى :

فى هذه السورة الصغيرة ذات الآيات الثلاث يتمثل منهج كامل للحياة البشرية كما يريدها الإسلام ، وتضع الدستور الإسلامى كله فى كلمات قصار ، وتصف الأمة المسلمة ، حقيقتها ووظيفتها فى آية واحدة ، هى الآية الثالثة من السورة ، والعصر : الزمان الذى تقع فيه حركات بنى آدم من خير وشر ، وقد أقسم الله بذلك على أن الإنسان لفى خسارة وهلاك ، واستثنى من جنس الإنسان عن الخسران الذين آمنوا بقلوبهم ، وعملوا الصالحات بجوارحهم.

يقول صاحب الظلال : « إن الإيمان هو أصل الحياة الكبير ، الذى ينبثق منه كل فرع من فروع الخير ، وتتعلق به كل ثمرة من ثماره وإلا فهو فرع مقطوع من شجرته ، صائر إلى ذبول وجفاف .... وهو المحور الذى تشد إليه جميع خيوط الحياة الرفيعة ... وهو المنهج الذى يضم شتات الأعمال ... ومن ثم يهدر القرآن قيمة كل عمل لا يرجع إلى هذا الأصل ... والعمل

الصالح وهو الثمرة الطبيعية للإيمان ، والحركة الذاتية التى تبدأ فى ذات اللحظة التى تستقر فيها حقيقة الإيمان فى القلب ، فالإيمان حقيقة إيجابية متحركة ما إن تستقر فى الضمير حتى تسعى بذاتها إلى تحقيق ذاتها فى الخارج فى صورة عمل صالح هذا هو الإيمان الإسلامى ، لا يمكن أن يظل خامداً لا يتحرك ... ومن هنا قيمة الإيمان ، إنه حركة وعمل وبناء وتعمير يتجه إلى الله ..» .

أما التواصى بالحق والتواصى بالصبر فتبرز من خلالها صورة الأمة المسلمة أن الجماعة المسلمة ـ ذات الكيان الخاص ، والرابطة المميزة والوجهة الموحدة ، الجماعة التى تشعر بكيانها كما تشعر بواجبها .

يقول صاحب الظلال : « والتواصى بالحق ضرورة ، فالنهوض بالحق عسير ، والمعوقات عن الحق كثيرة : هوى النفس، ومنطق المصلحة، وتصورات البيئة ، وطغيان الطغاة ، وظلم الظلمة، وجور الجائرين ، والتواصى تذكير وتشجيع وإشعار بالقربى فى الهدف والغاية ، والأخوة فى العبء والأمانة، فهو مضاعفة لمجموع الاتجاهات الفردية ... والتواصى بالصبر كذلك ضرورة ؛ فالقيام على الإيمان والعمل الصالح ، وحراسة الحق والعدل من أعسر ما يواجه الفرد والجماعة ، ولابد من الصبر، لابد من الصبر على جهاد النفس، وجهاد الغير ، والصبر على الأذى والمشقة .. والصبر على طول الطريق وبطء المراحل والتواصى بالصبر يضاعف المقدرة بما يبعثه من إحساس بوحدة الهدف ووحدة المتجه ، وتساند الجميع ، وتزودهم بالحب والعزم والإصرار ... » .

سورة الهمزة

تعكس السورة صورة اللئيم الصغير النفس الذى يؤتى المال فتسيطر نفسه به ، ويروح يشعر أن المال هو القيمة العليا فى الحياة ، وأن هذا المال إله قادر على كل شىء ، ومن ثم ينطلق فى هوس بهذا المال يعده ويستلذ تعداده ، وتنطلق فى كيانه نفخة فاجرة ، تدفعه إلى الاستهانة بأقدار الناس وكراماتهم ، يعيبهم بلسانه ويسخر منهم بحركاته ، ويجىء التهديد ، فليس الأمر كما زعم ولا كما حسب،وليلقين هذا المنبوذ الذى جمع مالا وقدره فى الحطمة التى تحطم كل ما يلقى إليها، فتحطم كيانه وكبرياءه ، وهى نار موقدة من قبل الله فهى نار فذة ، وهى تطلع على فؤاده الذى ينبعث منه الهمز واللمز وتكمن فيه السخرية والكبرياء والغرور ، وتكملة لصورة المحطم المنبوذ المهمل .. هذه النار مغلقة عليه ، لا ينقذه منها أحد ، ولا يسأل عنه فيها أحد ، وهو موثق فيها إلى عمود كما توثق البهائم بلا احترام .

يقول صاحب الظلال : « وإنا لنرى فى عناية الله سبحانه بالرد على هذه الصورة معنيين كبيرين الأول : تقبيح الهبوط الأخلاقى وتبشيع هذه الصورة الهابطة من النفوس .

والثانى : المنافحة عن المؤمنين وحفظ نفوسهم من أن تتسرب إليها مهانة الإهانة ، وإشعارهم بأن الله يرى ما يقع لهم ، ويكرهه ، ويعاقب عليه ، وفى هذا كفاية لرفع أرواحهم واستعلائها على الكيد اللئيم » .

سورة الفيل

قال النسفى : « يعجب الله نبيه من كفر العرب ، وقد شاهدت هذه العظمة فى آيات الله ، والمعنى : أنك رأيت آثار صنع الله بالحبشة ، وسمعت الأخبار به متواترة ، فقامت لك مقام المشاهدة » .

ثم أكمل القصة بعد هذا المطلع فى صورة الاستفهام التقريرى كذلك : ألم يضل مكرهم فلا يبلغ هدفه وغايته ، فهم قد كادوا البيت أولا ببناء القلّيس ليصرفوا وجوه الحاج إليه ، فضلل كيدهم بإيقاع الحريق فيه ، وكادوه ثانيا بإرادة هدمه فضلل كيدهم بإرسال الطير عليهم ، والأبابيل: الجماعات . وسجيل كلمة فارسية مركبة من كلمتين تفيدان : حجر وطين . أو حجارة ملوثة بالطين . والعصف : الجاف من ورق الشجر ، ووصفه بأنه مأكول : أى فتيت طحين حين تأكله الحشرات وتمزقه أو حين يأكله الحيوان فيمضغه ويطحنه ، وهى صورة حسية للتمزيق البدنى بفعل هذه الأحجار التى رمتهم بها جماعات الطير .

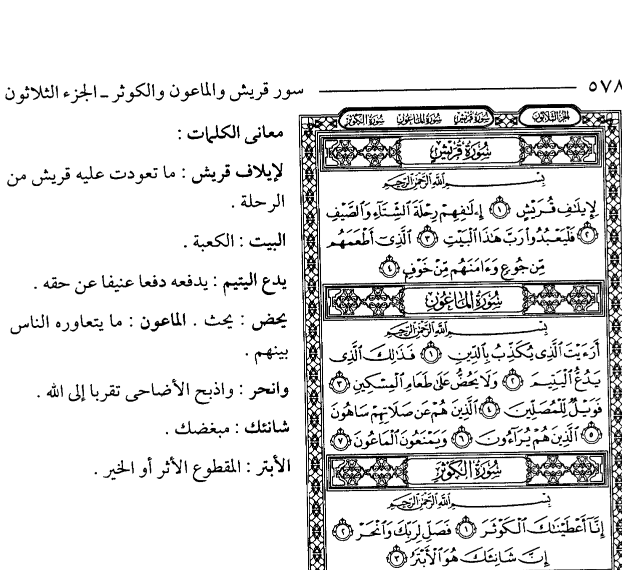
يقول صاحب الظلال : « فأما دلالة هذا الحادث والعبر المستفادة من التذكير به فكثيرة ، وأول ما توحى به أن الله سبحانه ـ لم يرد أن يكل حماية بيته إلى المشركين ، ولو أنهم كانوا يعتزون بهذا البيت ، ويحمونه ويحتمون به ، فلما أراد أن ويصونه ويحرسه يعلن حمايته له وغيرته عليه ترك المشركين يهزمون أمام القوة المعتدية ، وتدخلت القدرة سافرة ، لتدفع عن بيت الله الحرام ... كذلك توحى دلالة هذا الحادث بأن الله لم يقدّر لأهل الكتاب ـ أبرهة وجنوده ـ أن يحطموا البيت الحرام أو يسيطروا على الأرض المقدسة ، حتى والشرك يدنسه ... والإيحاء الثالث هو أن العرب لم يكن لهم دور فى الأرض ، بل لم يكن لهم كيان قبل الإسلام ... وتحت راية الإسلام ولأول مرة فى تاريخ العرب أصبح لهم دور عالمى يؤدونه .. ولكن الذى هيأ للعرب هذا لأول مرة فى تاريخهم هو أنهم نسوا أنهم عرب نسوا نعرة الجنس وعصبية العنصر ... وذكروا أنهم مسلمون ، ومسلمون فقط ، ورفعوا راية الإسلام ... » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ لا يكتفى من المسلم بأن يتمسك بالحق فقط وإنما يطلب منه أن يوصى به غيره ويتواصوا أيضا بالصبر على هذا الحق .

٢ ـ ذم الناس والاستهزاء بهم وجمع المال من طريق الحرام والبخل به والتفاخر به خصال تجلب شقاء لصاحبها فى الدنيا والآخرة .

٣ ـ بيان كرامة الله للكعبة ، بيت الله الحرام وقبلة المسلمين ، وإذلال الله للمتكبرين .



سُورَةُ قُرَيْشٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾

سُورَةُ الْمَاعُونِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾

سُورَةُ الْكَوْثَرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

٦٠٢

معانى الكلمات :

لإيلاف قريش : ما تعودت عليه قريش من الرحلة .

البيت : الكعبة .

يدع اليتيم : يدفعه دفعا عنيفا عن حقه .

يحض : يحث . **الماعون** : ما يتعاوره الناس بينهم .

وانحر : واذبح الأضاحى تقربا إلى الله .

شانئك : مبغضك .

الأبتر : المقطوع الأثر أو الخير .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم المنن التى يذكر الله بها قريشا من بعثة الرسول ﷺ .

٢ ـ أن نستشعر طبيعة الدين وحقيقة العباده .

٣ ـ- أن نعلم عدة المسلم فى مواجهة أعدائه .

المحتوى التربوى :

يذكر السياق ما كان تألفه قريش من الرحلة فى الشتاء إلى اليمن ، وفى الصيف إلى الشام فى المتاجر وغير ذلك ، ثم يرجعون إلى بلدهم آمنين فى أسفارهم لعظمتهم عند الناس ؛ ولكونهم سكان حرم الله ، فمن عرفهم احترمهم ، يذكر هم الله بهذه المنة، منة إيلافهم رحلتى الشتاء والصيف، ومنة الرزق الذى أفاضه عليهم بهاتين الرحلتين، وبلادهم قفرة جفرة وهم طاعمون هانئون من فضل الله ، ومنة أمنهم الخوف ، سواء فى عقر دارهم بجوار بيت الله أم فى أسفارهم وترحالهم فى رعاية حرمة البيت التى فرضها الله وحرسها من كل اعتداء .

يذكرهم بهذه المنن ليستحيوا مما هم فيه من عبادة غير الله معه ، وهو رب هذا البيت الذى يعيشون فى جواره آمنين طاعمين ، ويسيرون باسمه مرعيين ويعودون سالمين ، ذكّرهم ثم أرشدهم إلى شكر هذه النعمة العظيمة بأن يوحدوه بالعبادة .

سورة الماعون

هذه السورة مكية فى بعض الروايات ، ومكية مدنية فى بعض الروايات ، وهى تعالج حقيقة ضخمة تكاد تبدل المفهوم السائد للإيمان والكفر تبديلا كاملا ، فهذا الدين ليس دين مظاهر وطقوس ، ولا تغنى فيه مظاهر العبادات والشعائر ما لم تكن صادرة عن إخلاص لله وتجرد ، مؤدية بسبب هذا الإخلاص إلى آثار فى القلب تدفع إلى العمل الصالح ، وتتمثل فى سلوك تصلح به حياة الناس فى هذه الأرض وترقى ، فحقيقة الإيمان حين تستقر فى القلب تتحرك من فورها لكى تحقق ذاتها فى عمل صالح .

وتبدأ السورة بهذا الاستفهام الذى يوجه كل من تتأتى منه الرؤية ليرى ، فيقول تعالى : أرأيت الذى يكذب بالدين ؟ وهو المعاد والجزاء والثواب ، هو الذى يقهر اليتيم ويظلمه حقه ، والذى لا يحض على طعام المسكين ولا يوصى برعايته ، فلو صدق بالدين حقا ، ولو استقرت حقيقة التصديق فى قلبه ما كان ليدع اليتيم وما كان ليقعد عن الحض على طعام المسكين ، إن حقيقة التصديق بالدين ليست كلمة تقال باللسان ، إنما هى تحول فى القلب يدفعه إلى الخير والبر بإخوانه فى البشرية ، المحتاجين إلى الرعاية والحماية ، والله لا يريد من الناس كلمات ، إنما يريد منهم معها أعمالا تصدقها ، وإلا فهى هباء لا وزن لها عنده ولا اعتبار .

ثم يرتب على هذه الحقيقة الأولى صورة تطبيقية من صورها : إنه دعاء أو وعيد بالهلاك للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ، إنهم أولئك الذين يصلون ولكنهم لا يقيمون الصلاة.. الذين يؤدون حركات الصلاة وينطقون بأدعيتها، ولكن قلوبهم لا تعيش معها ، ولا تعيش بها، إنهم يصلون رياء للناس لا إخلاصا لله ، ومن ثم هم ساهون عن صلاتهم وهم يؤدونها ... ومن هنا لا تنشئ الصلاة آثارها فى نفوس هؤلاء المصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون فهم يمنعون المعونة والبر والخير عن إخوانهم فى البشرية ، فلم يحسنوا عبادة ربهم ، ولم يحسنوا إلى خلقه حتى ولا بإعارة ما ينتفع به ويستعان به مع بقاء عينه ورجوعه إليهم ، وهكذا نجد أنفسنا مرة أخرى أمام حقيقة هذه العقيدة وأمام طبيعة هذا الدين ، ونجد نصا قرآنيا ينذر مصلين بالويل ؛ لأنهم لم يقيموا الصلاة حقا ، إنما أدوا حركات لا روح فيها ، ولم يتجردوا لله فيها .

سورة الكوثر

هذه السورة خالصة لرسول الله ﷺ كسورة الضحى ، وسورة الشرح ، يسرى عنه ربه فيها ، ويعده بالخير ، ويوعد أعداءه بالبتر ، ويوجهه إلى طريق الشكر ، ومن ثم فهى تمثل صورة من

حياة الدعوة وحياة الداعية فى أول العهد بمكة ، صورة من الكيد والأذى للنبى ﷺ ودعوة الله التى يبشر بها ، وصورة من رعاية الله المباشرة لعبده وللقلة المؤمنة معه ، ومن ثم تثبيت الله وتطمينه وجميل وعده لنبيه ومرهوب وعيده لشأنئه، وكذلك تمثل حقيقة الهدى والخير والإيمان، وحقيقة الضلال والشر والكفران ، الأولى كثرة وفيض وامتداد ، والثانية قلة وانحسار وانبتار وإن ظن الغافلون غير هذا وذاك .

ورد أن سفهاء قريش كانوا يقولون عن النبى ﷺ إنه أبتر ، ويشيرون بهذا إلى موت الذكور من أولاده وقال أحدهم : فإنه سيموت بلا عقب وينتهى أمره ، ومن ثم نزلت هذه تمسح على قلبه ﷺ بالروح والندى ، والكوثر صيغة من الكثرة ، وهو مطلق غير محدود ، فإذا أراد أحد أن يتتبع هذا الكوثر الذى أعطاه الله لنبيه فهو واجده حيثما نظر أو تصور ، وهو واجده فى النبوة ، فى هذا الاتصال بالحق الكبير، والوجود الكبير، الوجود الذى لا وجود غيره ولا شىء فى الحقيقة سواه، وماذا فقد من وجد الله ؟ وهو واجده فى هذا القرآن الذى نزل عليه ، وهو واجده فى الملأ الأعلى الذى يصلى عليه ، وهو واجده فى سنته الممتدة على مدار القرون ، وهو واجده فى الخير الكثير الذى فاض على البشرية فى جميع أجيالها بسببه وعن طريقه ، وهو واجده فى مظاهر شتى ؛ إنه الكوثر الذى لا نهاية لفيضه .

وبعد توكيد هذا العطاء الكثير الفائض الكثرة وجه الرسول ﷺ إلى شكر النعمة بحقها الأول؛ حق الإخلاص والتجرد لله فى العبادة وفى الاتجاه ، فى الصلاة وفى ذبح النسك خالصا لله غير ملق بالا إلى شرك المشركين وغير مشارك لهم ، ويقرر أن الأبتر ليس هو محمد فهو صاحب الكوثر ، إنما هم شانئوه وكارهوه ، ولقد صدق فيهم وعيد الله فقد انقطع ذكرهم وانطوى بينما امتد ذكر محمد ﷺ وعلا ، والإيمان والحق والخير لا يمكن أن يكون أبتر ولا أن يكون صاحبه أبتر وكيف وهو موصول بالله الحى الباقى الأزلى الخالد ؟ إنما يبتر الكفر والباطل والشر ويبتر أهله .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ وجوب مقابلة النعم وشكر المنعم والاعتراف بفضله ، ونعمة الأمن من أعظم نعم الله على عباده .

٢ ـ من علامات التكذيب بيوم الحساب البخل وعدم إطعام الفقراء والمساكين أو حث الناس على ذلك .

٣ ـ تكريم الرسول ﷺ وتشريفه بين الخلق جميعا ، والدعوة إلى التوحيد وإخلاص العمل لله وحده .



الجزء الثلاثون — سورة الكافرون — سورة النصر — سورة المسد

سورة الكافرون

بسم الله الرحمن الرحيم

قل يا أيها الكافرون ﴿١﴾ لا أعبد ما تعبدون ﴿٢﴾ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴿٣﴾ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴿٤﴾ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴿٥﴾ لكم دينكم ولي دين ﴿٦﴾

سورة النصر

بسم الله الرحمن الرحيم

إذا جاء نصر الله والفتح ﴿١﴾ ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا ﴿٢﴾ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ﴿٣﴾

سورة المسد

بسم الله الرحمن الرحيم

تبت يدا أبي لهب وتب ﴿١﴾ ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴿٢﴾ سيصلى نارا ذات لهب ﴿٣﴾ وامرأته حمالة الحطب ﴿٤﴾ في جيدها حبل من مسد ﴿٥﴾

٦٠٣

معانى الكلمات :

دينكم : شرككم وكفركم أو جزاؤه .

أفواجا : جماعات جماعات كثيرة .

توابا : كثير القبول لتوبة عباده .

تبت : هلكت أو خابت .

ما أغنى عنه : ما دفع التباب عنه .

سيصلى : سيدخل .

جيدها : عنقها .

مسد : ما يفتل قويا من الحبال .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم كيف بينت سورة الكافرون وجوب المفاصلة بين الكفر والإيمان .

٢ ـ أن نعلم البشرى التى تحملها سورة النصر لرسول الله ﷺ وما فيها من توجيه ودلالات .

٣ ـ أن نتعرف على الصورة الزرية المثيرة للسخرية فى سورة المسد .

المحتوى التربوى :

يقول صاحب الأساس : « ذكرت هذه السورة موضوع المفاصلة بين المسلمين وغيرهم فى العبادة والدين ، فحددت بذلك أن العبادة التى أمر الله ـ عز وجل ـ بها فى الإسلام فى محور السورة تختلف عن أى عبادة أخرى ، وأن الإسلام غير الأديان الأخرى ؛ إذ كلها منسوخة بهذا الإسلام » .

ولعل اختلاط تصورات المشركين ، واعترافهم بالله مع عبادة آلهة أخرى معه ، لعل هذا كان يشعرهم أن المسافة بينهم وبين محمد قريبة يمكن التفاهم عليها بقسمة البلد بلدين ، والالتقاء فى منتصف الطريق مع بعض الترضيات الشخصية ! ولحسم هذه الشبهة وقطع الطريق على

المحاولة ، والمفاصلة الحاسمة بين عبادة وعبادة ، ومنهج ومنهج ، وتصور وتصور ، وطريق وطريق ، نزلت هذه السورة بهذا الجزم وبهذا التوكيد وبهذا التكرار لتنهى كل قول ، فجاءت بنفى بعد نفى ، وجزم بعد جزم ، وتوكيد بعد توكيد ، وجاء الأمر الإلهى الحاسم الموحى بأن أمر هذه العقيدة أمر الله وحده ، ليس لمحمد فيه شيء ، إنما هو الله الآمر الذى لا مرد لأمره ، الحاكم الذى لا راد لحكمه ، ونادى على الكافرين بحقيقتهم ، ووصفهم بصفتهم ، إنهم ليسوا على دين ، وليسوا بمؤمنين وإنما هم كافرون ، فلا التقاء إذن فى طريق .

وهكذا يوحى مطلع السورة وافتتاح الخطاب بحقيقة الانفصال الذى لا يرجى معه اتصال ، فعبادتى غير عبادتكم ، ومعبودى غير معبودكم ، وعبادتكم غير عبادتى ، ومعبودكم غير معبودى ، فأنا لا أسلك عبادتكم ولا أقتدى بها ، وإنما أعبد الله على الوجه الذى يحبه ويرضاه ، وأنتم لا تقتدون بأوامر الله وشرعه فى عبادته، بل قد اخترعتم شيئا من تلقاء أنفسكم فتبرأ منهم جميع ما هم فيه ، فنفى قبوله لذلك بالكلية ؛ لأن النفى بالجملة الاسمية آكد فكأنه نفى الفعل ، وكونه قابلا لذلك ومعناه نفى الوقوع ونفى الإمكان الشرعى أيضا فأنا هنا وأنتم هناك ، ولا معبر ولا جسر ولا طريق ، مفاصلة كاملة شاملة ، وتميز واضح دقيق .

يقول صاحب الظلال : « ولقد كانت هذه المفاصلة ضرورية لإيضاح معالم الاختلاف الجوهرى الكامل الذى يستحيل معه اللقاء على شيء فى منتصف الطريق ، الاختلاف فى جوهر الاعتقاد ، وأصل التصور ، وحقيقة المنهج ، وطبيعة الطريق » .

سورة النصر

يقول صاحب الظلال : « هذه السورة الصغيرة كما تحمل البشرى لرسول الله ﷺ بنصر الله والفتح ودخول الناس فى دين الله أفواجا ، وكما توجهه ﷺ حين يتحقق نصر الله وفتحه واجتماع الناس على دينه إلى التوجه إلى ربه بالتسبيح والحمد والاستغفار ، كما تحمل إلى الرسول ﷺ البشرى والتوجيه تكشف فى الوقت ذاته عن طبيعة هذه العقيدة وحقيقة هذا المنهج ، ومدى ما يريد أن يبلغ بالبشرية من الرفعة والكرامة والتجرد والخلوص ، والانطلاق والتحرر.. » .

وفى مطلع الآية الأولى يقرر السياق أن نصر الله يجيء به الله ، فى الوقت الذى يقدره ، فى الصورة التى يريدها ، للغاية التى يرسمها ، وليس للنبى ولا أصحابه من أمره شيء ، وليس لهم فى هذا النصر يد ، وليس لأشخاصهم فيه كسب .. إنما هو أمر الله يحققه بهم أو بدونهم ، وحسبهم منه أن يجريه الله على أيديهم ، وبناء على هذا يتحدد شأن الرسول ﷺ ومن معه بإزاء تكريم الله لهم ، وإكرامهم بتحقيق النصر على أيديهم ، إن شأنه ومن معه هو الاتجاه إلى الله

بالتسبيح وبالحمد والاستغفار فى لحظة الانتصار ، والاستغفار لحظة الانتصار فيه إيحاء للنفس وإشعار فى لحظة الزهو والفخر بأنها فى موقف التقصير والعجز ، فأولى أن تطامن من كبريائها ، وتطلب العفو من ربها .

يقول صاحب الأساس : « ألا ترى أن هذه التربية لرسول الله وللمسلمين حال النصر والفتح ، وإقبال الناس على الإسلام يستحيل أن تكون بشرية أو يفطن لها الإنسان ، فالناس فى النصر والفتح يبطرون ويسكرون ويقبلون على المتاع واللذة ، بينما السورة تربى على غير ذلك » .

سورة المسد

نزلت هذه السورة ترد على الحرب المعلنة من أبى لهب وامرأته ، وتولى الله ـ سبحانه ـ عن رسوله ﷺ أمر المعركة ، والتباب : الهلاك والبوار والقطع ، وتبت الأولى دعاء ، والثانية تقرير لوقوع هذا الدعاء ، ففى آية قصيرة واحدة فى مطلع السورة تصدر الدعوة وتتحقق ، وتنتهى المعركة ويسدل الستار ، فأما الذى يتلو آية المطلع فهو تقرير ووصف لما كان ، لقد تبت يداه وهلكتا وتب هو وهلك ، فلم يغن عنه ماله وسعيه ولم يدفع عنه الهلاك والدمار .

ذلك ـ كان ـ فى الدنيا ، أما فى الآخرة ، فإنه سيصلى ناراً ذات شرر ولهيب وإحراق شديد ، وستصلاها معه امرأته حالة كونها حمالة للحطب ، وفى عنقها حبل من نار جهنم ترفع به إلى شفيرها ، ثم يرمى بها إلى أسفلها ثم كذلك دائما .

يقول صاحب الظلال : « ولكن الصورة الزرية المثيرة للسخرية التى شاعت فى آياتها ، قد سجلت فى الكتاب الخالد ، وسجلتها صفحات الوجود أيضا تنطق بغضب الله وحربه لأبى لهب وامرأته جزاء الكيد لدعوة الله ورسوله ، والتباب والهلاك والسخرية والزراية جزاء الكائدين لدعوة الله فى الدنيا ، والنار فى الآخرة جزاء وفاقا ، والذل الذى يشير إليه الحبل فى الدنيا والآخرة جميعا » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ إخلاص العبادة لإله واحد لا شريك له وهو الله ، والإسلام لا يجبر أحدا على الدخول فيه .

٢ ـ يجب تسبيح الله وحده على نعمه ونصره لدينه ، والله واسع الرحمة يقبل التوبة من عباده المخلصين .

٣ ـ الله ـ عز وجل ـ يدافع عن المؤمنين .



معانى الكلمات :

الله الصمد : هو وحده المقصود فى الحوائج

كفوا : مكافئا ونصيرا . **برب الفلق :** برب الصبح أو الخلق كلهم .

شر غاسق : شر الليل .

وقب : دخل ظلامه فى كل شىء .

النفاثات فى العقد : النساء السواحر ينفثن فى عقد الخيط .

الوسواس : الموسوس جنيا أو إنسيا .

الخناس : المتوارى المختفى .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم حقيقة التوحيد ومقتضياته .

٢ ـ أن نعلم ممن تكون الاستعاذة .

٣ ـ أن نعلم بمن تكون الاستعاذة .

المحتوى التربوى :

هذه السورة الصغيرة تعدل ثلث القرآن كما جاء فى الروايات الصحيحة ، وليس فى هذا من غرابة ، فإن الأحدية التى أمر رسول الله ﷺ أن يعلنها ، هى : عقيدة للضمير وتفسير للوجود ، ومنهج للحياة ، وقد تضمنت السورة ـ من ثم ـ أعرض الخطوط الرئيسية فى حقيقة الإسلام الكبيرة ، ولفظ أحد أدق من لفظ واحد ؛ لأنه يضيف إلى معنى واحد أن لا شىء غيره معه ، وأن ليس كمثله شىء ، إنها أحدية الوجود فليس هناك حقيقة إلا حقيقته ، وليس هناك وجود حقيقى إلا وجوده ، وهى ـ من ثم ـ أحدية الفاعلية فليس سواه فاعلا لشىء ، أو فاعلا فى شىء فى هذا الوجود أصلا ، فإذا استقر هذا التفسير ، ووضح هذا التصور ، خلص القلب من كل غاشية ،ومن كل شائبة ، ومن كل تعلق بغير هذه الذات الواحدة المتفردة بحقيقة الوجود وحقيقة الفاعلية ، وعندئذ يتحرر القلب من جميع القيود ، يتحرر من الرغبة والرهبة وهما أصل

قيود كثيرة ، وفيم يرغب وهو لا يفقد شيئا متى وجد الله ؟ ومن ذا يرهب ولا وجود لفاعلية إلا لله ؟

من هنا ينبثق منهج كامل للحياة ... منهج لعبادة الله وحده ، ومنهج للاتجاه إلى الله وحده فى الرغبة والرهبة ، فى السراء والضراء ، فى النعماء والبأساء ... ومنهج للتلقى عن الله وحده ، تلقى العقيدة والتصور والقيم والموازين، والشرائع والقوانين والأوضاع والنظم والآداب والتقاليد .. ومنهج للتحرك والعمل لله وحده...تطلعا إلى الخلاص من الحواجز المعوقة والشوائب المضللة.. ومنهج يربط مع هذا ـ بين القلب البشرى وبين كل موجود برباط الحب والأنس والتعاطف والتجاوب ، فكله حبيب ؛ إذ كله هدية من الحبيب .

ومعنى أن الله الصمد أى السيد الذى قد كمل فى سؤدده فلا سيد غيره ، وليس له ولد ولا والد ولا صاحبة ، ولم يوجد له مماثل أو مكافىء لا فى حقيقة الوجود ، ولا فى حقيقة الفاعلية ، والقرآن يذكر هذه التفريعات لزيادة التقرير والإيضاح .

سورة الفلق

هذه السورة والتى بعدها توجيه من الله ـ سبحانه وتعالى ـ لنبيه ﷺ ابتداء وللمؤمنين من بعده جميعا ، للعياذ بكنفه ، واللياذ بحماه ، من كل مخوف : خاف وظاهر ، مجهول ومعلوم على وجه الإجمال وعلى وجه التفصيل ، وكأنما يفتح الله ـ سبحانه ـ لهم حماه ، ويبسط لهم كنفه ، ويقول لهم فى مودة وعطف : تعالوا إلى هنا ، تعالوا إلى الحمى ، تعالوا إلى مأمنكم الذى تطمئنون فيه ، تعالوا فأنا أعلم أنكم ضعاف ، وأن لكم أعداء ، وأن حولكم مخاوف . وهنا الأمن والطمأنينية والسلام .

وفى هذه السورة يذكر الله ـ سبحانه ـ بصفته التى بها يكون العياذ من شر ما ذكر فى هذه السورة ، والفلق من معانيه الصبح ، ومن معانيه الخلق كله ، بالإشارة إلى كل ما يفلق عنه الوجود والحياة ، وللخلائق شرور فى حالات اتصال بعضها ببعض كما أن لها خيراً ونفعا فى حالات أخرى ، والاستعاذة بالله هنا من شرها ليبقى خيرها ، والغاسق فى اللغة الدافق ، والوقب : النقرة فى الجبل يسيل منها الماء ، والمقصود هنا غالبا هو الليل وما فيه ، وهو مخوف بذاته ففيه مظنة خروج الحيات السامة والحيوانات المفترسة والجماعات المتلصصة للسطو والسرقة وابتغاء الشر والفساد ، والنفاثات فى العقد : السواحر الساعيات بالأذى عن طريق ما يعقدن من الخيوط وما ينفثن على كل عقدة حتى ينعقد ما يرد من السحر ، والنفث هو النفخ مع ريق وهو دون التفل وهو مرتبة بينها ، والنفث فعل الساحر **يقول ابن القيم فى بدائع الفوائد** :

« والسحر له تأثير وله حقيقة .. والسحر الذى يؤثر مرضا وثقلا وحلا وعقداً وحبا وبغضا ونزيفا وغير ذلك من الآثار موجود تعرفه عامة الناس ، وكثير منهم قد علمه ذوقا بما أصيب به منه » .

والحسد : انفعال نفسى إزاء نعمة الله على بعض عباده مع تمنى زوالها ، وسواء أتبع الحاسد هذا الانفعال بسعى منه لإزالة النعمة تحت تأثير الحقد والغيظ ، أو وقف عند حد الانفعال النفسى ، فإن شراً يمكن أن يعقب هذا الانفعال .

فها هنا شر يستعاذ منه الله ويستجار منه بحماه ، والله برحمته وفضله هو الذى يوجه رسوله ﷺ وأمته من ورائه إلى الاستعاذة به من هذه الشرور ومن المقطوع به أنهم متى استعاذوا بالله وفق توجيهه أعاذهم وحماهم من هذه الشرور إجمالا وتفصيلا .

سورة الناس

الاستعاذة فى هذه السورة برب الناس ، ملك الناس إله الناس ، والمستعاذ منه هو : شر الوسواس الخناس ، **يقول ابن القيم فى بدائع الفوائد** :

« **الإضافة الأولى** : إضافة الربوبية المتضمنة لخلقهم وتدبيرهم وإصلاحهم وجلب مصالحهم وما يحتاجون إليه ودفع الشر عنهم ، وحفظهم مما يفسدهم ، هذا معنى ربوبيته لهم .

الإضافة الثانية : إضافة الملك ، فهو ملكهم المتصرف فيهم وهم عبيده ومماليكه ، وهو المتصرف لهم المدبر لهم كما يشاء .. فهو ملكهم الحق الذى إليه مفزعهم عند الشدائد والنوائب ..

الإضافة الثالثة : إضافة الإلهية ، فهو إلههم الحق ومعبودهم الذى لا إله لهم سواه ولا معبود لهم غيره ، فكما أنه وحده هو ربهم ومليكهم لم يشركه فى ربوبيته أحد ولا فى ملكه أحد ، فكذلك هو وحده إلههم ومعبودهم ، فلا ينبغى أن يجعلوا معه شريكا فى إلهيته كما لا شريك معه فى ربوبيته وملكه ... » .

والله برحمة منه يوجه رسوله ﷺ وأمته إلى العياذ به والالتجاء إليه ، مع استحضار معانى صفاته هذه ، من شر الشيطان الجاثم على قلب ابن آدم فإذا سها وغفل وسوس ، فإذا ذكر الله خنس واختفى وتوارى ، وقد جعل الله للشيطان دخولا فى جوف العبد ونفوذًا إلى قلبه وصدره فهو يجرى منه مجرى الدم ، وقد وكل بالعبد فلا يفارقه إلى المات . ثم يبين الذى يوسوس وأنهم نوعان : إنس وجن ، فالجن يوسوس فى صدور الإنس والإنسى أيضا يوسوس إلى الإنسى .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ لابد من الاتجاه إلى الله وحده ، فلا نرغب إلا فيما عنده ولا نخاف إلا منه .

٢ ـ توجيه المؤمنين إلى اللجوء إلى الله والاحتماء به من كل ما يخيف .

٣ ـ إبليس أشد أعداء بنى آدم ، وله أعوان وجنود يساعدونه .

تم ولله الحمد والمنة .

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

